

آياتُ الجهاد في القرآن الكريم

دراسة موضوعية وتاريخية وبيانية

الدكتور

كامل سلامه الدقس

دكتوراه في الآداب بمرتبة الشرف الأولى
من جامعة القاهرة - كلية الآداب

الناشر

دار البيان

ص.ب. ٢٠١٧ - برقياً: شرين - الكويت

” بحث نال به مؤلفه درجة الدكتوراه في الأدب
من جامعة القاهرة بمرتبة الشرف الأولى .
ورأت اللجنته أنه جدير بأن يطبع باللغة العربية
ويترجم إلى اللغات الأجنبية . “

آيات الحج والقرآن الكريم

دراسة موضوعية وتاريخية وبسيانية

حقوق الطبع والنشر محفوظة
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة البحث

الحمد لله الذى شرع الجهاد لنصرة الحق ، ودفع العدوان ، وحماية الدعوة وإعلاء كلمة الله وَرَفَعَ درجة المجاهدين وأعلى مراتبهم ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيد المجاهدين ، وقائد المؤمنين ، الذى جاهد فى الله حق جهاده ، وعلى آله وصحبه الذين باعوا أنفسهم لله ، وبذلوا أموالهم فى سبيل الله ، فتم لهم النصر الذى إرادته الله وكانوا من الفائزين .
وبعد : فقد كان الحافظ لاختيار الموضوع (آيات الجهاد فى القرآن ..)
اهدافا منها :

أولا : رغبتى فى اختيار موضوع يتعلق بالقرآن ، خدمة لكتاب الله الكريم ، وتقربا إليه سبحانه بأحب الأعمال إليه ، ذلك لأننى لا أكاد أعرف علما من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى تاريخهم الطويل إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم .
فيبدو أنه لا قيمة لدراسة فنون العربية وعلومها بدون الرجوع إلى ميزان هذه العلوم ومعتمدها الأول ، ولا اعتبار لأدب أديب يترطن فى تلاوة القرآن ، ولا يكاد يبين .

ثانيا : رأيت أن القرآن الكريم يعنى (بالجهاد) عناية فائقة ، إذ شغلت الآيات الجهادية حيزا كبيرا يبلغ نصف القرآن المدنى . وهذا يدل على أهمية هذا الموضوع فى تاريخ الدعوة الإسلامية والتشريع الإسلامى .
ثالثا : لقد سجل القرآن الكريم فى الآيات الجهادية موقف الإسلام من خصومه الذين شرع الجهاد من أجل التصدى لهم ، كما سجل الحسرة التاريخية الضخمة التى صاحبت الدعوة الإسلامية منذ فرض الجهاد بعد الهجرة ، وما دار فيها من غزوات . مسجلا مشاهدتها وأحداثها ، ومصورا نفسية المسلمين وخصومهم فيها ، وما أعده الله لهؤلاء وأولئك من ثواب وعقاب .

وقد بلغ عدد الغزوات التى قادها النبى صلى الله عليه وسلم سبعا وعشرين وعدد السرايا التى سيرها سبعا وأربعين ، أى بمعدل سبع وقائع فى السنة ، مما يدل على أهمية (الجهاد) فى السيرة النبوية ، وما شغله من حيز عظيم فى هذا العهد .

رابعا : القرآن الكريم أمة وحده فى البلاغة العربية ، فأردت أن أتبين أسرار سموه ، عسأى أدرك سبب ما كان له من تأثير فى النفوس ، وسلطان على القلوب .

وفى (آيات الجهاد) مجال فسيح لدراسة فنية خصبة تتناول أسلوب هذه الآيات وخصائصها التعبيرية واللغوية ، وبراعة القرآن الكريم فى إبراز الجوانب النفسية وما تنوج به نفوس المجاهدين من انفعالات ومشاعر وأحاسيس .
خامسا : ومن أسباب اختيار هذا الموضوع عدا ما فيه من أهمية وحيوية

بالغة هو : بيان الحق فيما يتصل ببعض نواحي (الجهاد) الذي شتمه المستشرقين . فكتب الكثيرون منهم في زوايا منه وفق ما أملاه عليهم التعصب والهوى والكراهية ، إذ أنهم يريدون محاربة الاسلام على أساس نشأته الفكرية العلمية . فمن أجل هذا الواقع نشأ (الاستشراق) .
وقد حوّل المستشرقون والمبشرون معا (مفترياتهم واتهاماتهم) إلى (مشكل) باسم الدراسة العلمية . وبالتالي رأيت أن أفند مطاعنهم وأرد عليها بأسلوب علمي دقيق .

سادسا : الموضوع من جوانبه المختلفة (الموضوعية والتاريخية والفنية) جدير بدراسة علمية وفنية متأنية متعمقة ، وبخاصة لأنه - من ناحية - موضوع جديد لم يتناوله أحد من الباحثين من قبل في دراسة مستقلة متخصصة شاملة تستوعب جميع جوانبه ، وتضم جميع أطرافه ، ولأنه من ناحية أخرى موضوع الساعة الذي يشغل المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها ، لأنهم قد وقعوا تحت سيطرة البغاة والطفغاة . يسومونهم سوء العذاب في حرياتهم وكراماتهم وسائر شؤونهم الدينية والدنيوية . بل تجاوز الأمر أن وصل إلى اليهود الذين هم أذل أمم الأرض ليسوموهم كذلك سوء العذاب والخسف . ويذلّوهم وينتهكوا حرمتهم ومقدساتهم وكراماتهم ويطردهم من أوطانهم ، ويوقعوا فيهم من الزرايا ما ترتعد له الفرائس ، ويبيتوا لهم من المطامع ما يثير الرعب والفرع ، مع ما في ذلك من مخالفة لمبادئ دينهم وهدى قرآنتهم وسيرة نبيهم وسلفهم الصالح ، وقد قرر القرآن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فبدلوا ما قرر ووعدهم إذا آمنوا حق الايمان وجاهدوا خير الجهاد ، وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة ، وانفقوا في سبيل الله شيئا من أموالهم ، ليتمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليستخلفنهم في الأرض ، وليبدلن خوفهم أمنا وعسرهم يسرا ، ويكتب لهم النصر والغز ويجعل أعداءهم الأذلين الصاغرين . فأهلوا ما وعد الله فعاقبهم بالذلة والمسكنة . وهذا يوجب على الباحثين والدارسين وعلى علماء المسلمين وكتابهم بذل الجهود المستمرة في تبين خطورة هذا الركن مستعنيين بالمدد القرآني الفياض من آيات الجهاد القوية النافذة حتى يعيدوا للمسلمين سيرتهم الأولى في الاقدام والاستماتة ، والاستهانة بالتضحيات ، وأن يحققوا في حاضرهم ما حققوه في ماضيهم من نصره وعزه ، وما النصر الا من عند الله .

* * *

وقد اقتضى موضوع الرسالة وأهدافها أن يكون منهج البحث فيها ممثلا في تهديد وثلاثة أبواب وخاتمة .
أما التهديد : فقد جعلته لدراسة (مفهوم الجهاد في سبيل الله) كما عبر عن هذا المفهوم القرآن الكريم في آياته البيّنات ، وكما فسره رسول الله في أحاديثه الشريفة ، وكما عرفه فقهاء المسلمين ومفسروهم ، وصورة المستشرقون والمبشرون .

وبعد أن خرجت من هذا التهديد بمفهوم محدد لحقيقة (الجهاد في سبيل الله) ، وزعت الرسالة على ثلاثة أبواب ، جعلت الباب الأول منها للدراسة (الموضوعية) ، وقد قسمت هذا الباب إلى أربعة فصول :
الفصل الأول : نهض بدراسة أنواع (الجهاد في سبيل الله) فقد تحدثت الآيات الجهادية عن أربعة أنواع أساسية للجهاد في سبيل الله هي : مجاهدة

النفس ، ومجاهدة الشيطان ، وهما ما اتفق الفقهاء على تسميته (بالجهاد الأكبر) والجهاد بالنفس والجهاد بالمال ، وهما (الجهاد الأصغر) وكلاهما مقسم للآخر ، ومكمل له .

وكان لا بد من تقديم هذا الفصل على سائر فصول الرسالة ، لأن فيه الحديث عن بنساء العقيدة الايمانية في نفوس المسلمين ، وإعداد الجماعة الاسلامية نفسيا ، ومعنويا وماديا للجهاد ، بتحرير نفوسهم من كل ما يعوقها عن البذل والتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه .

الفصل الثاني : وقد خصصت هذا الفصل لدراسة بواعث الجهاد وغاياته (كما نصت على ذلك آيات الجهاد نصا صريحا لا يقبل الشك ولا التأويل ، وقد تمثلت هذه البواعث في رد الاعتداء بكل صورته وأنواعه ، من ابتداء العدو بقتال المسلمين ، أو الاعتداء على عقيدتهم ، ومحاولة فتنهم عن دينهم ، أو اضطهادهم ، أو محاولة نقض العدو للعهد والميثاق . أما الباعث الثاني الذي حددته الآيات فهو (حماية الحرية في نشر الدعوة) وتمكين الدعاة من مواجهة الشعوب ودعوتهم إلى دين الله فمن حال دون الدعوة أن تصل إلى الشعوب وجب قتاله .

وقد فندت في نهاية هذا الفصل مفتريات المستشرقين حول (مسألة الاكراه في الدين) ومسألة (انتشار الاسلام بالسيف) وطمع المسلمين في الغنائم ، وحبهم الفطري للغزو والنهب والسلب .. الخ .

أما الفصل الثالث : فقد جعلته للحديث عن (عناصر النصر ومقوماته) كما رسمته آيات الجهاد ، التي وضحت أن هناك سنا ثابتة في النصر والهزيمة من سار عليها ظفر وإن كان ملحدا أو وثنيا ، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقا نبيا .

وقد تمثلت هذه العناصر في : القوة المادية والمعنوية (الروحية) والتنظيم العملي للحرب ثم تحدثت في نهاية الفصل عن شبهات المستشرقين حول سر انتصار المسلمين وسرعة انتشار الإسلام ، والفرق بين انتشار الدعوة الدينية ، وامتداد الدولة الاسلامية .

وواضح صلة هذا الفصل بالذي سبقه ، إذ أن معرفة الأهداف التي يقاتل من أجلها الجندي من أقوى عناصر النصر .

أما الفصل الرابع : فقد نهض بكل ما يتخلف عن القتال من آثار ونتائج من (غنائم وأنفال وغىء وأسرى وجزية) .

وقد تحدثت في هذا الفصل عن رفق الإسلام بالأسرى ومعاملتهم معاملة كريمة ، ومقارنة كل ذلك بأحدث ما توصلت إليه مدنية القرن العشرين . ثم تحدثت عن القروق الدقيقة بين الغنائم والأنفال والغىء ، ومشروعيتها ، وحكمة توزيعها . وفندت أقوال المستشرقين والمستغربين حول هذه المسائل جميعا .

أما الباب الثاني : فقد جعلته (للدراسة التاريخية) ورتبت فيه السور المدنية ترتيبا تاريخيا حسب النزول ، باستعراض أهم الروايات الصحيحة التي وردت في ترتيب سور القرآن المدنية ، وتمحيصها تمحيصا عليا دقيقا بمناقشة السند والمتن ، وعقد المقارنات والموازنات بينها لاستخلاص النتائج الجديرة بالثقة والاطمئنان ، ودراسة الظروف التاريخية المختلفة التي أحاطت بنزول السور الجهادية .

وقد أفردت الفصل الأول من هذا الباب لدراسة (مشروعية الجهاد)

والمراحل التاريخية التي مرّ فيها ، من بداية الدعوة وحتى انتقال رسول الله (قائد الجهاد) إلى الرفيق الأعلى .

وقد قمت بتوزيع النصوص القرآنية إلى مرحلتين أساسيتين هما : المرحلة المكية التي امتازت بالجهاد السلمى ، والمرحلة الثانية وهي المرحلة المدنية التي تميزت باستعمال السيف ومقابلة القوة بالقوة . وقسمت المرحلة الثانية إلى مراحل متعددة معتددا على السور القرآنية التي نزلت فى كل مرحلة ، والتي طبعتها بطابع خاص يختلف عما قبله وعما بعده .

أما الفصل الثانى : فقد خصصته للحديث عن أشد أعداء الدعوة خصومة (وهم المشركون) وكيف تطور أسلوب الآيات الجهادية فى معاملتهم فى كل مرحلة حتى وصلنا إلى المرحلة النهائية التي تأمر بقتلهم دون أن تأخذ المسلمين بهم شفقة ولا رحمة . وقد استعرضت فى هذا الفصل السرايا والغزوات التي تحدثت عنها الآيات مع ربط ذلك بروايات أسباب النزول والسرد التاريخى — بالقدر الذى يوضح الآيات ولا يطفى عليها .

أما الفصل الثالث : فقد خصصته للحديث عن مجاهدة (أهل الكتاب) وعن مواقفهم من المسلمين ومواقف المسلمين منهم فى مختلف المراحل التي تحدثت عنها الآيات ، وبيان الحكمة فى التدرج فى معاملتهم ، حتى تم القضاء على نفوذهم وتطهير أرض الجزيرة العربية منهم .

أما الفصل الرابع : فقد خصصته للحديث عن (مجاهدة المنافقين) ونهجت فيه نفس النهج الذى نهجته فى الفصلين السابقين .

وقد نهض الباب الثالث (بالدراسة الفنية) . وقد قسمت هذا الباب إلى فصلين كبيرين يحملان أهم الظواهر الفنية فى الآيات الجهادية . وقد جعلت الفصل الأول لدراسة (الآية الجهادية) تركيبها وسبكها ، فتحدثت عن الألفاظ المفردة ، والأفعال واستعمالها ، والتكرار ، والاتفات ، والإيجاز والاطناب ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والذكر والحذف ، والتخصيص أو القصر ، والموسيقا .

أما الفصل الثانى فقد جعلته (لتصوير المعانى الجهادية) ، وتحدثت فيه عن التصوير بالتشبيه والتمثيل ، والتصوير بالاستعارة وبالكنية والتعريض . ثم بينت كيف عبرت هذه الآيات بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعانى الذهنية ، والحالات النفسية ، والمشاهد المنظورة ، والنماذج الانسانية ، ثم تحدثت عن ظاهرة الصدق الفنى فى الآيات الجهادية كظاهرة تستحق الدراسة .

وأخيرا جاءت الخاتمة : تحمل الغاية من هذا البحث ، ففيها سجلت الفكرة الكلية التي تعبر تعبيرا جامعا عن (آيات الجهاد فى القرآن ...) والتي جاءت نتيجة لهذه الدراسات التفصيلية .

وقد سرت فى دراستى لموضوع الرسالة على هدى الطريقة العلمية الموضوعية التاريخية . فهى طريقة علمية أصيلة : لا استهوائية عاطفية طريقة تؤصل الموضوعات بالأدلة بعد تحقيقها وسبر أغوارها ومناقشتها ، وتسمى لتبيان الحقيقة بحسب الظفر بالدليل الصحيح دون تعصب لرأى معين ولا تقليد بعيد عن الحق .

وهى طريقة موضوعية : تعتمد إلى النصوص القرآنية فتسير على هداها دون تأويل ولا تحميل لها أكثر مما تحتمل . فنحن نلجأ أولا إلى الآيات القرآنية

ثم الى السنة النبوية الصحيحة ثم إلى عبارات المفسرين والفقهاء على اختلاف آرائهم ومذاهبهم في كافة العصور إلى وقتنا هذا . وان هذه الدراسة لا تقوم على التعبير عن الفكرة الواحدة بمثال واحد ، ولكنها تقوم على الاستقراء والاستقصاء التام .

وهي طريقة تاريخية : تعتمد على ربط النصوص القرآنية بموضوع البحث بالواقع الذي نزلت فيه ، وتوزيع هذه النصوص القرآنية بين عدة مراحل تاريخية متميزة ، لتمكن ملاحظة أدوار التطور التي مر بها موقف الآيات الجهادية من خصوم المسلمين في كل مرحلة على حدة ثم في المراحل جميعاً .

هذا ، وقد كان المصحف الشريف هو المصدر الأساسي الذي تعتمد عليه الرسالة ويدور حوله البحث . وقد تنوعت مصادر الرسالة ومراجعها من كتب التفسير القديمة والحديثة وعلوم القرآن ، ومن كتب الحديث والفقهاء ، والتاريخ العام والمعارف العامة وكتب القانون ، وكتب البلاغة ، والمخطوطات القديمة والوسائل العلمية الحديثة . فقد رجعت إلى ما يقارب الأربعمائة مصدر ومرجع في اللغتين العربية والاجنبية .

وبعد : فلعلني أكون قد شاركت في مجال البحوث القرآنية ببحث متواضع لم يبلغ الكمال بالتأكيد ، لأن ذلك لا سبيل لبشر إليه ، ولم يشارف الكمال ، لأنه بحث في القرآن ، وكيف لمثلني أن يصل إلى المدى فيه ؟ ولكنني قد اجتهدت ، وتكلفت في سبيل ذلك العناء كله ، ولا أقول بعضه ، ولست مقالياً ، لأن طريق البحث في القرآن ليس مفروشا بالرياحين وإذا كان سبيل البحوث المتخصصة في فرع من فروع المعرفة صعب المراسم بالطبع ، فهو في هذا البحث أشد صعوبة ، إذ يدور كله حول كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولأنه متنوع الجوانب ، متعدد الاطراف إذ أنه قد شمل الامور الفقهية ، والتاريخية ، والبلاغية . وما يتبع هذه الفروع من علوم أخرى لا بد منها لاستكمال جميع جوانب هذا البحث .

ولا يفوتني أن أذكر عظيم تقديري لاستاذي الفاضل الدكتور محمد كامل احمد جمعة ، الذي تفضل بمرافقتي في رحلتي هذه ، ومنحني من فضله وعلمه ووقته ما اضاء لي الكثير من جوانب البحث ، ودفعني على اجتياز مراحلها بهمة وعزم . وكان لا يألو جهداً في ارشادي ، وتسيدي خطاي ، فاليه والى كل من أسهم في توجيهي وارشادي والاطلاع على رسالتي أقدم واغفر شكري ، واخص بالذكر : استاذي الفاضل الدكتور يوسف خليف الذي شارك في وضع منهج هذه الرسالة في بداية المرحلة ، واستاذي الجليل الدكتور حسين نصار الذي كان لتوجيهاته السديدة اعماق الأثر واطيبه في اعداد هذه الرسالة ، والى فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة والدكتور مصطفى زيد والدكتور شكري عياد والدكتور رمضان عبد التواب ، الذين كان لهم جميعاً فضل الارشاد والتوجيه . وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

المؤلف

التمهيد :

مفهوم الجهاد فى سبيل الله

الجهاد فى اللغة : بذل الوسع والطاقة ، أو المبالغة فى العمل من الجهد . قال صاحب لسان العرب (١) : « جاهد العدو مجاهدة و جهادا قاتله . وهو المبالغة واستفراغ ما فى الوسع والطاقة من قوة أو فعل » .

وجاء فى كتاب المغرب (٢) : « الجهاد مصدر جاهدت العدو إذا قابلته فى تحمل الجهد أو بذل كل منكما جهده أى طاقته فى دفع صاحبه ، ثم غلب فى الاسلام على قتال الكفار ونحوه » .

وقال الراغب فى مفردات القرآن (٣) : « والجهاد والمجاهدة : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو » .

وإذا كان الجهاد فى أصل اللغة هو مقاومة العدو ، فمن هو هذا العدو ؟ قال الراغب (٤) : « والجهاد ثلاثة أضرب مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس » .

وتدخل ثلاثتها فى قوله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده » (٥) . « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » (٦) . « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » (٧) . وقال صلى الله عليه وسلم : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » . والمجاهدة تكون باليد واللسان قال صلى الله عليه وسلم : « جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم » (٨) .

ويفسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى : « حق جهاده » بمعنى استفراغ الطاقة (٩) .

أما القرطبى فقد قال : « هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتفاء عن كل ما نهى الله عنه ، أى جاهدوا أنفسكم فى طاعة الله وردها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان فى رد وسوسته ، والظلمة فى رد ظلمهم ، والكافرين فى رد كفرهم » (١٠) . أو « بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم » (١١) . كما قال ابن كثير .

وقد وردت كلمة « الجهاد » فى القرآن الكريم بمعنى « بذل الجهد بقوة مطلقة » كما جاء فى قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وإن جاهدك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعمهما ، إلى مرجعكم فأنتبئكم بما كنتم تعملون » (١٢) .

- | | |
|---------------------------------------|---------------------------------------|
| ٤ (المفردات / ١٠٠ وانظر تفسير المنار | ١ (لسان العرب : لابن منظور « مسادة |
| ٥ (الحج / ٧٨ . | جهد » ١٠٩/٤ وانظر القاموس المحيط |
| ٦ (التوبة / ٤١ . | ٢٨٦/١ وصحاح الجوهرى / ٢٢٠ . |
| ٧ (الانتفال / ٧٢ . | ٢ (المغرب فى ترتيب المغرب لابن الفتح |
| ٨ (المفردات / ١٠٠ . | ناصر بن عبد السيد على المطرزى |
| ٩ (زاد المعاد / ٣٩ . | التوفى سنة ٦١٦ م ١٠٠ . |
| ١٠ (تفسير القرطبى ٩٩/١٢ . | ٣ (المفردات فى غريب القرآن / للراغب |
| ١١ (تفسير ابن كثير ٢٣٦/٣ . | الاصفهانى / ١٠٠ وانظر المخصص لابن |
| ١٢ (العنكبوت / ٨ . | سيده ٩/١٣ . |

وجاء في نفس السورة « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْحَسَنِينَ » (١) . بمعنى نصره دينه وإعلاء شأنه مطلقا . وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرَ » (٢) . وقوله تعالى : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » (٣) .

فكلمة « جهاد » إذن أشمل مدى من العمل الحربى ، حيث تتناول هذا العمل وتتناول بذل المال والجهد مطلقا في سبيل نصره دين الله الحق ، وجهاد النفس وجهاد الشيطان لأنها عدوان للإنسان « المجاهد من جاهد نفسه لله عز وجل » (٤) .

فقد وردت كلمة (حرب) في القرآن الكريم أربع مرات بمعنى (القتال) كما جاء في هذه الآيات « كَلِمًا أَوْ قَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَاها اللَّهُ » (٥) أى كلما جمعوا وأعدوا شنت الله عليهم ، أو كلما أهاجوا شرا ، واجتمعوا أمرهم على حرب النبي صلى الله عليه وسلم قهرهم ووهن أمرهم (٦) . وقوله تعالى : « فَايَا تَتَّقِنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ » (٧) أى فى القتال . وقوله تعالى : « فَايَا مَنَا بَعْدَ وَإِذَا فُذِّعُوا فَذُفِعُوا فَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » (٨) أى حتى تأمنوا وتضعوا السلاح . ويضع الأعداء المحاربون سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة (٩) . وقوله تعالى : « فَايَا لَمْ تَفْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » (١٠) .

روى عن ابن عباس أنه يُقال لأكل الربا يوم القيامة : خُذْ سِلَاحَكَ لِلْحَرْبِ (١١) .

هذه هى المواضع التى وردت فيها كلمة (حرب) فى القرآن الكريم ، وكلها جاءت بمعنى القتال واستعمال السلاح . فى حين أن كلمة (الجهاد) قد وردت اثنين وثلاثين مرة ووردت كثيرا بلفظ القتال المرادف لها . أما كلمة (الغزو) فلم ترد إلا مرة واحدة ، جاءت فى قوله تعالى : « إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا عَزَى » (١٢) . والغزو : « هو الخروج لمحاربة العدو » (١٣) .

ومن هنا يتضح أن كلمة (جهاد) أكثر استعمالا فى القرآن الكريم من كلمة (حرب) أو (غزو) أو غيرها . وهى بدون شك أوسع مدى وأشمل غاية من كلمة (حرب) التى تعنى القتال فى اللغة العربية وتقابلها كلمة (War) فى الإنجليزية . وهى أيضا أبلغ تأثيرا وأكثر احاطة من كلمة (Struggle) فى اللغة الإنجليزية ..

فما سر اختيار الإسلام لهذه الكلمة .. ؟

الذى أراه أنه ليس لذلك إلا سبب واحد وهو أن كلمة (الحرب) كانت

- | | |
|-----------------------------|------------------------------|
| ١ (الضحكوت / ٦٦ . | ٨ (محمد / ٤ . |
| ٢ (التوبة / ٧٢ . | ٩ (القرطبي / ٢٢٩/١٦ . |
| ٣ (الحج / ٧٨ . | ١٠ (البقرة / ٢٧٩ . |
| ٤ (تفسير القرطبي / ١٢/٩٦ . | ١١ (تفسير القرطبي / ٢/٢٦٢ . |
| ٥ (المائدة / ٦٤ . | ١٢ (آل عمران / ١٥٦ . |
| ٦ (تفسير القرطبي / ٦/٢٤٠ . | ١٣ (المفردات / ٢٦٦ . |
| ٧ (الانفال / ٥٧ . | |

ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية ، والغايات التي ترمى إليها أمثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية ، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ .

وبما أن القتال المشروع في الإسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتة (١) .

(فالجهاد) إذن كلمة جامعة تشمل جميع أنواع السعى وبذل الجهد . وقد وردت كلمة (الجهاد) وكلمة (القتال) المرادفة لها مقيدة بعبارة

« في سبيل الله » في أكثر من خمسين مرة تقريبا . نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى : « يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » (٢) و « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » (٣) . و « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » (٤) . و « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » (٥) . و « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » (٦) . « إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله » (٧) .

« وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله » (٨) . « فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة » (٩) . « ولئن قتلتم في سبيل الله » (١٠) . « وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله » (١١) « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يُقاتل في سبيل الله فيُقْتَلْ أو يُغْلِبْ فسوف نُؤْتِيه أَجْرًا عَظِيمًا » (١٢) .

فلفظة الجهاد والقتال مقيدتان بهذا القيد « في سبيل الله » لا ينفك عنهما . ومثل ذلك كلمة (الانفاق) يجب أن يكون في « سبيل الله » خالصا لوجهه

« وأنفقوا في سبيل الله » (١٣) . « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنفقت سبع سنابل » (١٤) . و « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مِمَّا ولا أدى لهم أجرهم عند ربهم » (١٥) . « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُؤْتِ إِلَيْكُمْ » (١٦) . « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشروهم بعذاب اليم » (١٧) . و « القتلى أو الموت »

يجب أن يكون في سبيل الله حتى يكون المقاتل شهيدا « وَلِئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَافْتَرًا مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » (١٨) . « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله حتى ينال المهاجر الأجر والثوبة » ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة » (٢٠) . « فلا تتخفوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله » (٢١) .

في سبيل الله » (٢١) .

- | | |
|--|-----------------------|
| ١ (الجهاد في سبيل الله للعلامة أبي الاملي | ١٢ (النساء / ٧٤ . |
| المودودي / ١٢ . | ١٣ (البقرة / ١٩٥ . |
| ٢ (المسائدة / ٥٤ . | ١٤ (البقرة / ٢٦١ . |
| ٣ (الانفال / ٧٢ . | ١٥ (البقرة / ٢٦٢ . |
| ٤ (التوبة / ٤١ . | ١٦ (الانفال / ٦٠ . |
| ٥ (التوبة / ٨١ . | ١٧ (التوبة / ٢٤ . |
| ٦ (البقرة / ١٩٠ . | ١٨ (آل عمران / ١٥٧ . |
| ٨٤٧ (البقرة / ٢٤٦ . | ١٩ (آل عمران / ١٦٩ . |
| ٩ (آل عمران / ١٢ . | ٢٠ (النساء / ١٠٠ . |
| ١٠ (آل عمران / ١٥٧ . | ٢١ (النساء / ٨٩ . |
| ١١ (آل عمران / ١٦٧ . | |

« فالذين هاجروا وأُخْرِجُوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وَقَتَلُوا لأَكْفَرَنَ عنهم سبيلَتهم ولأَدْخَلْنهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله ، والله عنده حسنُ الثواب » (١) .

فمن هذه الأمثلة يتضح لنا جليا أن الجهاد بالمال والنفس يجب أن يكون في سبيل الله . وأن الهجرة والإخراج والإيذاء يجب أن تكون في سبيل الله ، وأن القتل والموت في سبيل الله ، وأن التنويه بالمجاهدين في سبيل الله ، والتفديد بالمتخلفين عن الجهاد في سبيل الله . الخ . فما هو هذا السبيل ؟

فَسَر رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبيل الله » بكلمته ، ودعوته ، ومبادئه ، ومنهجه فقد روى البخارى أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يُقاتل للمغزم والرجل يُقاتل للذكر ، والرجل يُقاتل ليُرى مكانه . فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » (٢) .

وفسر الراغب (٣) : « السبيل بمعنى الطريق الذى فيه سهولة . قال : « ليصدونهم عن السبيل » يعنى عن طريق الحق . أما الطبرسى (٤) : فقد قال : السبيل هو الطريق ، فسبيل الله طريق مرضاته ، وإنما قيل للجهاد سبيل الله لأنه طريق ثواب الله عز وجل . وفسر الجلال (٥) : سبيل الله بطاعته ، الجهاد وغيره .

أما الشيخ رشيد رضا فقد قال (٦) : « سبيل الله هي الطريق الموصلة إلى مرضاته ، وهي التي يحفظ بها دينه ويصلح بها حال عباده » . « والقتال في سبيل الله هو : القتال لإعلاء كلمة الله وتأمين دينه ونشر دعوته ، والدفاع عن حربه كي لا يغلبوا على حقه ، ولا يُصدوا عن إظهار أمرهم فهو أعم من القتال لأجل الدين ، لأنه يشمل الدفاع عن الدين وحماية دعوته ، والدفاع عن الحوزة إذا همَّ الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا » .

ويقول الشيخ محمود شلتوت (٧) : كلمة سبيل الله وردت كثيرا في القرآن الكريم ، وهي في الأصل بمعنى الطريق المعبود ، تستعمل في الخير ، وتستعمل في الشر ومنه سبيل المجرمين وتضاف إلى الله وإلى المؤمنين فيقال : سبيل الله ، وسبيل المؤمنين ، وهي حينئذ تلتقى بمعناها مع كلمة « الصراط المستقيم » وكلاهما بمعنى ما رسم الله لعباده من الإيمان بالحق والدعوة إليه وعمل الخير والحث عليه ، فإعلاء كلمة الله ، ونشر دعوة الإسلام من سبيل الله ودفع الأعداء إذا هددوا أمتنا من سبيل الله أو أغاروا على أرضنا ، أو نهبوا أموالنا ، من سبيل الله . وعلى العموم فسبيل الله عبارة عن تأييد الحق وإحلال الخير والصلاح محل الشر والفساد ووضع العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة » . « والجهاد في سبيل هذه الأهداف هو الجهاد في سبيل الله » (٨) .

وسبيل الله بحسب القرآن الكريم والسنة الشريفة يتبلور ويتركز في :

- ١ (آل عمران / ١٩٥ .
- ٢ (صحيح البخارى ٢٥/٤ .
- ٣ (مفردات / ٢٢٢ .
- ٤ (مجمع البيان في تفسير القرآن ٣٤/٢ .
- ٥ (من تفسير المنار ٢١٢/١ .
- ٦ (تفسير المنار ٢/٢٥٤ و ٤٦٠ .
- ٧ (تفسير القرآن الكريم / ٦٤٩ الشيخ محمود شلتوت .
- ٨ (المرجع السابق / ٢٤٦ .

التوحيد في مجال العقيدة والرحمة في مجال الأخلاق ، والعدل في مجال الشريعة (١) .

والحق الذي لا مرأى فيه ، والذي هو بديهي جدا ، أن الآيات القرآنية تجعل مفهوم « سبيل الله » مرادفا لمعنى طريق الله ودعوته ودينه وتعاليمه الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية والانسانية والتهديبية التي احتواها القرآن وهدى إليها الرسول . وبعبارة ثانية الدعوة الإسلامية نفسها ، ولما كان الجهاد قد كُتب على المسلمين لضمان الحرية في نشر الدعوة الإسلامية وصيانتها وحماية متبعيها والداعين إليها ، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بتعبير « سبيل الله » .

ولكثره ورود هذا التعبير « في سبيل الله » مقترنا (بالجهاد) فقد ظن كثير من الناس أنه يعني الجهاد (٢) .

على أن الباحث المتعمق في هذه المسألة يظهر له أن تعبير « سبيل الله » اعم وأشمل من (الجهاد) لأنه يعني الدعوة الإسلامية كلها ، وأن الجهاد بالمال والنفس إنما شرع من أجلها . وهذا يبدو واضحا جليا في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » (٣) . هذا إلى الآيات الكثيرة التي تدعم ذلك بصورة حاسمة قاطعة منها قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لِمَ تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » (٤) . وقوله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » (٥) . وقوله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » (٦) .

ويشير القرآن الكريم في كثير من آياته إلى أن بواعث الصد عن سبيل الله إيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، وكأنهم يرون أن سبيل الله إذا قامت ضعفت دنياهم ودالت دولتهم : « وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله » (٧) . وقوله تعالى : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا » (٨) .

وقوله : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله » (٩) . الخ .

وقد فسر سبحانه سبيله تفسيراً لا يقبل الشك ولا التأويل وذلك في قوله تعالى : « قل تعالوا ائلفوا ما حرم ربكم عليكم ، الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا اولادكم من اطلاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تفكرون ، وإن هذا صراطي

- ١ (الجهاد والنصر / ١٢ د. عبد العليم محمود .
- ٢ (الدستور القرآني في شؤون الحياة ٤٩٠/١ .
- ٣ (النحل / ١٢٥ .
- ٤ (آل عمران / ٩٩ .
- ٥ (التوبة / ٢٤ .
- ٦ (الانفال / ٣٦ .
- ٧ (ابراهيم / ٢٧ .
- ٨ (النساء / ١٦٧ .
- ٩ (الانفال / ٤٧ .

مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١) .

بهذا البيان الواضح ، والأسلوب القوي النافذ الى أعماق القلوب والعقول مما قررت هذه الآيات كون سبيل الله هو الدعوة الإسلامية بكاملها وتامها . . هذا ولا نعرف لكلمة « سبيل الله » في القرآن معنى غير البر العام ، والخير الشامل (٢) فسبيل الله إذن هو سبيل الحق والخير ، سبيل تحقيق كلمة الله في الأرض ، ورد الشاردين عنها إليها ، ليتحرر الناس من العبودية لغير الله ، ويرفع الظلم عن أفراد البشرية كافة فمن تحقيق كلمة الله أن يصل هذا الخير الذي جاء به الإسلام إلى الناس جميعاً ، والأحوال بينهم وبينه حائل ، فمن وقف في طريق خير البشرية وإسعادها فهو معتمد على كلمة الله ، ولا بد من إزالته من طريق الدعوة لتحقيق كلمة الله ، لا ليكره الناس على الإسلام ولكن ليمنحهم حرية المعرفة واختيار ما يقتنعون به « من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

وهذا هو الجهاد المشروع الذي يقره الله ، عمل خالص لوجهه وابتغاء مرضاته ، لا تشوبه شائبة من الأغراض النفسية أو الطائفية أو القومية . ويجب ألا يكون من هم الجاهد في سبيل الله وإعلاء كلمته أن ينال جاهاً أو شرفاً أو سمعة أو حسن أحوال . وإلا أصبح جهاده في سبيل الطاغوت « الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت » (٣) .

والقتال في سبيل الطاغوت هو تجاوز الإنسان الحد والعلو في الأرض والافساد فيها واستعباد الناس بالقهر والإكراه ، وقد ندد الله به وجعله شعار الكفار وديدنهم . . وقد وعد الله الذين يُقيمون الدين ولا يعملون في الأرض ولا يعيئون فسادا الدار الآخرة وسعادتها الأبدية . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » (٤) . « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » (٥) .

وقد أخرج أبو داود والنسائي من حديث أبي رضى الله عنه بإسناد جيد ، قال : جاء رجل فقال يا رسول الله ، أرايت رجلاً غزى يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ قال : « لا شيء له » فأعادها ثلاثاً ، كل ذلك يقول « لا شيء له » . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لله وابتغى به وجهه » (٦) .

وبهذا ندرك ما في تقييد الجهاد الإسلامى بهذا التقيد « في سبيل الله » من بُعد المرمى وسُمو الغاية ، فإننا نرى كل مخلوق خلقه الله في هذه الأرض مجتهداً في سبيل نفسه ، يواصل ليله بنهاره لإدراك غايته والوصول إلى مرماه ، إلا المسلمين يبذلون مهجهم وأرواحهم ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل إقامة كلمة الحق ، وقد أعدوا لمنازع الشر والطغيان كل ما استبطعوا من عدة وعتاد ، ليجتثوا شجرة الفساد من جذورها مهما رسخت وتغلقت عروقها في

٤ (القصص / ٨٣ .

١ (الاتصاف / ١٥١ - ١٥٢ .

٥ (الحج / ٤١ .

٢ (تفسير القرآن الكريم / ٦٥١ للشيخ

٦ (متفق عليه) سبيل السلام شرح بلوغ

محمود شلتوت .

المرام / ٦٦/٣ .

٣ (النساء / ٧٦ .

الأرض» (١) .

هذا هو المفهوم الحقيقي للجهاد في سبيل الله ، الذي أراد المستشرقون والمبشرون والتمصبون على الإسلام أن يشوهوا هذه الحقيقة الناصعة « للجهاد في سبيل الله » وزعموا أنه قتال المسلمين للكفار لا كراههم على الإسلام ، ونشر الإسلام في جميع بقاع الأرض بقوة السيف .

فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية (٢) « الجهاد : نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة وكاد الجهاد أن يكون ركنا سادسا من أركان الدين . أو فرض عين ولا شك أنه ما زال كذلك عند سلالة الخوارج » ، وقالوا أيضا « الجهاد في اصطلاح الشرع محاربة من ليس بمسلم » (٣) .

وقد جرت عادتهم أن يُعبروا عن كلمة (الجهاد) بالحرب المقدسة (Holy war) إذا أرادوا ترجمتها إلى لغاتهم ، وقد فسروها تفسيراً خاطئاً وتفننوا فيه وألبسوها ثوبا فضفاضاً من المعاني الموهمة الملقطة ، وقد بلغ الأمر في ذلك أن أصبحت كلمة (الجهاد) عندهم عبارة عن شراسة الطبع والهجبة وسفك الدماء ، وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم وتشويبههم لوجه الحقيقة الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة (الجهاد) تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة ، مصلقة سيوفها متقدة صدورها بنار التمصب والغضب ، متطايرا من عيونها شرار الفتك والنهب ، عالية أصواتها بهتاف « الله أكبر » زاحفة إلى الأمام ، ما أن رأت كافرا حتى أمسكت بخناقه وجعلته : إما أن يقول كلمة « لا اله إلا الله » ، « فينجو بنفسه وإما أن يضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دماء » (٤) .

ومرد هذه الشبهة المزعومة هو التمصب الأعمى من ناحية ، وعدم استجلاء حقيقة « الجهاد في سبيل الله » واستكناه سرها حتى على كثير من المسلمين أنفسهم ، فضلا عن غير المسلمين ولهذا فقد رأيت أن أمهد لبحثي بهذه الفكرة الموجزة عن مفهوم الجهاد في سبيل الله ، لتوضيح هذه الحقيقة وإزالة اللبس والغموض عنها .

وانظر العقيدة والشريعة جولد زيهر

١٠٦ ، ١٢٥ ، والإسلام والمستشرقون

٦٠/ حياة محمد وارننج / ١٠٣ وغيرهم

٤ (الجهاد في سبيل الله للمودودي / ٣/

بصرف .

١ (الجهاد في سبيل الله للمودودي

بصرف / ١٨ .

٢ (دائرة المعارف الإسلامية ١٨٨/٧ .

٣ (دائرة مطارف البستاني ٥٧٢/٦ مادة

جهاد التي ترجمتها إلى Holy war

الباب الأول

الدراسة الموضوعية

تمهيد البحث مفهوم الجهاد في سبيل الله

الفصل الأول : أنواع الجهاد

الفصل الثاني : بواعث الجهاد وغاياته

الفصل الثالث : عناصر النصر ومقوماته

الفصل الرابع : الأسرى والغنائم والأنفال الجزية

الفصل الأول

أنواع الجهاد

عرفنا مما سبق أن كلمة « جهاد » لا تقتصر على جهاد العدو الظاهر ، بل تشمل جهاد النفس والشيطان ، لقوله تعالى « وجاهدوا في الله حق جهاده » (١)

جهاد النفس :

فسر عبد الله بن المبارك (٢) قوله تعالى « حق جهاده » بجهاد النفس والهوى . فيجاهد الإنسان نفسه لئسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون لله وباللّه لا لنفسه ولا بنفسه ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج وأصلا له ، فإنه ما لم يُجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لا يمكنه جهاد عدوه في الخارج فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله ، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يُجاهد نفسه على الخروج . (٣)

إن الجهاد يبتدىء بجهاد النفس بتخليصها من الأهواء والشهوات واتجاهها إلى الحق في ذاته ، وإلى الواجب في ذاته ، لا حبا في شهرة ولا رغبة في متعة ولا رجاء في أي شأن من شئون الدنيا ولا يُعتبر مجاهدا من حارب شجاعة وشهرة وطلب مال إنما المجاهد من يجاهد لإرضاء الله وطلب ما عنده لرفعة الحق وجعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة أعداء الله هي السفلى ، وأن ذلك لا يكون إلا إذا جاهد نفسه ، وأخضع أهواءه وشهواته ، - لأحكام الله تعالى ، وجعل هواه تبعا لما جاء به النبي وأمر الله تعالى به (٤) .

وقد اتفقت كلمة علماء المسلمين وفقهائهم على تسمية « جهاد النفس والشيطان » بالجهاد الأكبر ، وجهاد الأعداء بالجهاد الأصغر .

قال الباجوري : « الجهاد أي القتال في سبيل الله مأخوذ من المجاهدة وهي المقاتلة - لإقامة الدين ، وهذا هو الجهاد الأصغر ، أما الجهاد الأكبر فهو مجاهدة النفس ، فلذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول إذا رجع من الجهاد : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » (٥) .

على أن هناك ارتباطا كبيرا بين الجهادين ، فالجهاد الأكبر تهذيب للنفس وتوجيه لها تجاه الخير ، وهي بذلك تستعد لجهاد العدو ، فأما النفوس التي انحرفت ،

٥ (حاشية الباجوري على ابن القاسم

١ (الحج / ٧٨ .

٢ (زاد المعاد لابن القيم / ٢٩١ .

٣ (المرجع السابق / ٢٨١ - ٢٩١ .

٤ (الجهاد / ٨ للشيخ محمد أبو زهرة (من

أعمال المؤتمر الرابع لجمع البحوث

٥ (٣٦٠ / ١ « والجهاد » للذكتور أحمد

الاسلامية سنة ١٩٦٨) .

شلبى / ١٦ .

وغلبتها الرذيلة ، وسارت على الهوى ، فإنها لا تستطيع أن تواجه العدو ولا أن تُصارع المعتدين ويعرف أهل التصوف النفس بأنها الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون لا بُدَّ من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) (١) .

والحق أن المتصوفة قد جانبوا الصواب في تعريف النفس وحقيقتها ، فليست جميع النفوس سواء فالله سبحانه يقسمُ بالنفس اللوامة (ولا أقسم بالنفس اللوامة) (٢) . لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه . وقال تعالى (يأتيها النفس المطمئنة أرجى إلى ربك راضية مرضية) (٣) ، لأنها خضعت لأوامر الله ، وتخلصت من الشهوات والأهواء .

وهناك نفس أخرى أذعنت للشهوات وانقادت وراء الشيطان تلك هي « الأمارة بالسوء » . قال تعالى إخباراً من امرأة العزيز « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » (٤) . وهذه النفس مذمومة غاية الذم .

ويقول ابن سينا (٥) : « أصناف النفوس ثلاثة كما ورد في القرآن : وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة » (٦) . ثم قال تعالى « والسابقون السابقون أولئك المقربون » (٧) . فأما الكاملون في العلم والعمل فهم السابقون ولهم الدرجة القصوى في جنات النعيم . وأصحاب اليمين في المرتبة الوسطى ، وأما أصحاب الشمال فهم النازلون في المرتبة السفلى المنتحسون في دار البوار وهم الذين دعوا هنالك ثيورا كثيرا » .

وقد أصاب ابن سينا في تصنيفه للنفس ، ولكن السابقين الأولين لم ينالوا تلك الدرجة الرفيعة لتعلمهم العلم والعمل به فحسب بل لأنهم أيضا جاهدوا أنفسهم على تبليغ هذا العلم للناس والدعوة إليه ، والصبر على أذى الناس في سبيل نشره فأصبحوا من الريانيين .

أما الذي أصاب كبد الحقيقة فابن القيم حين ذكر مراتب جهاد النفس فقال : أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق . والثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها . والثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتُمون ما أنزل من الهدى والبيّنات . والرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإن استكمل هذه المراتب الأربع صار من الريانيين (٨) .

وقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم المعلم الأول تربية نفوس الرعيل الأول في مكة — على الجهاد في سبيل الله ، وإعدادهم إعدادا قويا حسب تعاليم الله سبحانه وإرشاده بل إن شئت قل قد صنعهم الله على عينه ، وأخرجهم إخراجا كتعبير القرآن الكريم العميق (كنتم خير أمة أخرجت للناس

- | | |
|----------------------------|----------------------------------|
| ١ (أحياء علوم الدين ٤/٢ . | ٥ (رسالة في معرفة النفس الناطقة |
| ٢ (القيامة / ٢ . | ٦ (الواحصة / ٧-٩ . |
| ٣ (الفجر / ٢٧ . | ٧ (الواحصة / ١٠ . |
| ٤ (يوسف / ٥٣ . | ٨ (زاد المساد ٢/٣٩ . |

تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (١) .
وقد تطلب تكوين هذه الجماعة الكثير من العنت والمشقة ، حيث استغرق ثلاثة عشر عاما من عمر الدعوة الإسلامية ، أى أكثر من نصف عمرها ، وذلك لأن القرآن يعتمد على أسلوب التربية العميقة الهادئة المتأنية ، التى تصل بالمؤمنين إلى النخلق بأخلاق القرآن ، والعمل بأحكامه والدعوة إليها ، فيصبحوا قرآنا متحركا يمشى على الأرض . ولئن اغفلت كتب السيرة الحديث عن جهاد الرسول عليه الصلاة والسلام فى تربية نفوس أصحابه على الجهاد ، وعن أسلوبه فى هذه التربية . فقد حدثنا شيخ الإسلام (ابن تيمية) (٢) عن أبى عبد الرحمن بن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمى قال : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن — عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما — أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من « العلم » « والعمل » . قالوا أى الصحابة — فتعلمنا العلم والعمل » .

وقد رأيت مثل هذا النص فى ترجمة أبى عبد الرحمن السلمى فى طبقات القراء (٣) وزاد فيه (وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم لا يتجاوز تراقيهم ، بل لا يجاوزها هنا) ووضع يده على حلقومه (وهذا أقدم نص تاريخى عرفنا منه الطريقة التى كان يتعلم بها الصحابة رضوان الله عليهم من النبى عليه الصلاة والسلام فقد كانوا لا يعنون من الإكثار من العلم ولكنهم يحرصون على اتقان ما يتعلمون منه ثم العمل به .

(وأنا أفهم من ذلك أن الصحابى الجليل الذى ظهرت منه العجائب عندما قذف به الإسلام إلى اقطار الشرق والغرب ، كان يتلقى من القرآن عشر آيات بعد عشر آيات ، فكان لا ينتقل من العشر إلى العشر إلا بعد حفظ هذه الآيات القليلة باتقان ، ثم يتدبر ما فيها من آداب وأحكام وتوجيهات وأهداف ، ثم يمرن نفسه وجوارحه على العمل بذلك حتى يصبح خلقا له وعادة وسجية . فكانت التربية العملية فى هذه المدرسة لها المقام الأول من العناية لأنها نتيجة العلم وثمرته ، والعلم بلا تربية شر يستعاذ بالله منه (٤) .

ومن هنا يتضح لنا أن جهاد الرسول عليه الصلاة والسلام فى مكة كان فى ميدانين : ميدان الدعوة ، وميدان التربية . .

ولنا أن نعرف المبادئ والأفكار التى غرستها تلك التربية الإلهية فى نفوس المؤمنين والتى بها خلصت نفوسهم لله ، وتجردوا من ذواتهم فى سبيله . واعتقد أن أول تلك المبادئ وأساسها هو تحرير النفوس من عبادة غير الله وردها إلى الإيمان بالله الواحد الأحد .

« فالقرآن فى مكة لم يصنع أصول دولة وإنما جاء مؤكدا فكرة أولى هى العباد الكبير الذى يمكن أن تقوم عليه الدنيا ، هى فكرة التوحيد . وكل ما جاء به فى مكة تقريبا كان تمكينا لهذه الفكرة فى النفوس ، وإسلام الصحابة كان على أساس الفكرة الأولى ، فلما ملأت نفوسهم دخلوا صف الإسلام ، وجعلوا صدورهم حصونا تدافع عنه » (٥) .

(٤) مع الرميل الاول / محب الدين الخطيب

٧١/ .

(٥) المجتمع الإسلامى فى مكة / ٨٢ د .

عبد العزيز كامل .

(١) آل عمران / ١١٠ .

(٢) الأكليل / ٣١ لابن تيمية .

(٣) طبقات القراء لابن الجزرى / ١ / ٤١٣ .

ولهذا كانت عناية القرآن المكي بالتوحيد عناية بالغة ، فقد شغل حيزا كبيرا منه لأن فيه تحرير للإنسان من الشرك والأوهام والخضوع لما لا يملك نفعا ولا ضرا .

فالتوحيد والإيمان بالهواحد متصف بجميع صفات الكمال والحق والعدل والخير والرحمة والقوة ، من شأنه أن يُحرر النفس الانسانية ويفسح المجال لانطلاقها في أوسع الأفاق دون أن تتقيد بغير قيود الحق والعدل والخير ، واعتبار كل ما عدا الله صغيرا مهما كُبر فאלله أكبر منه ، وضعيفا مهما قوى ، فالله أقوى منه . وعاجزا مهما قدر ، فالله أقدر منه ، وفقيرا مهما غنى ، فالله أغنى منه . فلا يتجه لأحد غيره ولا يستشعر بخوف ولا رهبة من أحد سواه ، ولا يذل نفسه في حاجة إلا إليه ، وناهيك بهذا قوة هائلة محررة لما أودعه الله في الإنسان من قوى ، ثم هي حافظة له على عدم الرضا بالظلم والقهر ، والتجبر والتمرد على البغاة والمتكبرين . (١) .

وقد أكد الله سبحانه لتلك النفوس التي آمنت به حق الإيمان ، واتجهت إليه وحده بالعبادة والدعاء ، قدرته على تفريج كربهم ، وتحقيق رغائبهم . (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) (٢) . وقوله تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أعله مع الله ، قليلا ما تذكرون) (٣) . (وقال ربكم ادعونى استجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) (٤) .

والله تعالى هو خالق الكون ومالكة ، كل ما فيه مسير وفق أمره وتدييره وهو الذى يُعطى ويمنع وهو الذى يحيى ويميت : (له مقاليد السموات والأرض ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم) (٥) . (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين لا اله إلا هو يحيى ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين) (٦) .

وهذه الأرباب التى يعبدها المشركون لا تملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) (٧) .

وقد سلك القرآن الكريم أنجح الوسائل لتهديب النفس والارتفاع بها إلى مدارك الكمال فقد أعلن تعالى أنه يعلم خفايا النفوس وخطرات القلوب : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) (٨) . (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) (٩) . (ويعلم ما يُسرون وما يُعلنون إنه عليم بذات الصدور) (١٠) . (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) (١١) . (وما

- | | |
|------------------------------------|---|
| ١ (الدستور القرآنى فى شؤون الحياة | ٨ (ق/١٦ . |
| ٢ (البقرة / ١٨٦ . | ٩ (غافر/ ١٩ وآل عمران/ ١٩ والمائدة/ ٧ والانفال/ ٤٣ . |
| ٣ (النمل / ٦٢ . | ١٠ (هود / ٥ والملك / ١٣ والعنكبوت / ١٠ ولتقان / ٢٣ وفاطر / ٢٨ والزمر / ٧ والشورى / ٢٤ والحديد / ٦ والتغابن / ٤ . |
| ٤ (غافر / ٦٠ . | ١١ (آل عمران / ٢٩ . |
| ٥ (الشورى / ١٢ . | |
| ٦ (الدخان / ٧ - ٨ | |
| ٧ (الحج / ٧٢ . | |

تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين (١) .

فقد عملت هذه الآيات وأمثالها في نفوس المؤمنين عمل السحر ، فعملوا جاهدين على اقتلاع خواطر السوء التي قد تشيع بين جنبات نفوسهم ، وظلوا ينظفونها من كل هاجسة حتى لا يبقى فيها شيء مما يكرهه الله .

وإذا كان العلم تتبعه المحاسبة ، ثم الجزاء ، فإن القرآن الكريم لم يصرح بذلك في هذه المرحلة من التربية ، بل جاء يؤكد أن شيئا مما تخفيه الصدور لا يخفى على الله ، ويترك الناس يخشون هذا العلم الألهي ، أن يطلع منهم على سوء ويتوجسون خيفة من نتائج دون أن يصرح لهم بذلك .

ولما اطمانت النفوس إلى هذه الحقيقة وآمنت بها الإيمان الكامل ، واجهها القرآن الكريم بأن الله سيحاسبها على العزمات (٢) .
« واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه » (٣) .

وقد كان وقع هذه الآية شديدا على نفوس صحابة رسول الله ، فشكوا إليه ما يساورهم من الخوف ، فبين لهم القرآن أن الإنسان إنما يحاسب على ما يستطيع التخلص منه ، ولا يستطيع أحد أن يحول بين قلبه ، وبين ما يهجس فيه من خواطر (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وبهذه التربية العميقة على أساس معرفة الله ، والإيمان الكامل بقدرته وتدبيره ، والاحساس الدائم برقابته ومحاسبته ، كان السبيل إلى تحرير نفوس المؤمنين من الخوف والذل لغير الله وخلق الضمير المرهف الذي يحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة ، من قول أو عمل ، ويحول بينهم وبين ما يفضب الله .

فالمؤمن دائما يستشعر عظمة ربه وقوته التي تملأ عليه نفسه . وصلته بالله على هذه الصورة هي سر قوته ، لأنه موصول بالقوة العليا التي لا تغلب ، وموكل إلى المدد الفيض الذي لا يتأخر ولا ينفد ، فلا يحس في حياته وجهاده في سبيل الله بضعف ولا ضياع .

ولكى تبقى النفس المؤمنة التي تُعد للجهاد في سبيل الله قوية وثيقة الصلة بالله ، فقد فرض الله عليها واجبات تعبدية لها أطيّب الأثر في صلاحها وتنقيتها من كل ما يفضب الله . فالصلاة مثلا تحمل المصلّي على التفكير في الله وما أمر به وما نهى عنه ، وتجعله موصول القلب بهواه يستمد منه النصر ، وبها تهون عليه مصائب الدنيا ، وتذل أمامه الصعاب فلا يعجز ولا يكسل عن تلبية داعي الجهاد ، ونصرة دين الله الحق .

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشئ الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (٥) .

- ١ (يونس / ٦١) .
٢ (القرآن والطبائع النفسية / ٣١) على
٣ (البقرة / ٢٣٥) .
٤ (البقرة / ٢٨٦) .
٥ (البقرة / ١٥٢ - ١٥٧) .
محمد حسن المباري .

وقد صرح القرآن الكريم بما للصلاة من اثر كبير فى تهذيب النفوس وتطهيرها من خلق اليأس والهلع عند المصيبة ، ومن الطغيان والبطر عند النعمة : « إن الانسان خلق هلوفا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون » (١) . وهى التى تفرس فى النفوس مكارم الأخلاق ، وتتغلب بها النفوس على شهواتها وأهوائها . « واقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » (٢) . ولاهيتها البالغة فى تقوية النفوس وتهذيبها ، فقد أمر الله تعالى بالمحافظة عليها فى حال الأمن والخوف « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركبانا . فإذا امنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » (٣) .

وفى تكليف المؤمنين بالصلاة وقت الحرب والاستغفال بقتال الأعداء ، وفى حالة ترقب الموت ، دليل واضح على أهمية هذا الواجب فى تزكية النفوس ، وتقوية الروح المعنوية فيهم ، بالالتجاء إلى الله ، والاتصال به ، تلك الصلاة المعروفة عند فقهاء المسلمين بصلاة (الخوف أو الحرب) وقد شرعتها آيات سورة النساء من قوله تعالى : « وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا .. إلى قوله تعالى : فإذا اطمانتم فاقبوا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (٤) . وفى الصوم تطهير للنفوس من كل ما لا يناسب الإيمان ، وفيه زيادة لتقوى القلوب وتقوية صلتها بالله (بأياها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٥) .

وفيه كبح لجحاح النفوس وتحرير لها من الشهوات والمحرمات . وقد اقترن ذكر الصلاة بالزكاة فى كتاب الله ، فلا نكاد نجد آية تحت على إقام الصلاة إلا وتحت أيضا على أداء الزكاة والاتفاق فى سبيل الله ، كما لا نجد آية تعرض لأوصاف المؤمنين إلا وتذكرهما أو أحدهما . فقد جعل الله الصلاة مثلا لبذل النفس فى سبيله وجعل الاتفاق مثلا لبذل المال فى سبيله (٦) .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (٧) . « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » (٨) .

فالزكاة تعويد للنفس على البذل والتضحية بالمال فى سبيل الله ، وتحرير لها من البخل وحب المال .

وفى مريضة الحج توجه إلى الله وحده بطلب الأمن والقوة والعبادة ، فالمؤمن لا يعترف بالربوبية والقوة والعظمة لسواه ، وهذا الشعور جدير بأن يرفعه إلى ذروة القوة والشجاعة وطهارة النفس والضمير .
وبهذا ندرك دور الإيمان بالله فى غرس شجرة البطولة والتضحية

- | | |
|--------------------------|---|
| ١ (المعارج / ١٩ - ٢٣ . | ٦ (تفسير القرآن الكريم / ٥٧٤ للشيخ محمود شلتوت . |
| ٢ (العنكبوت / ٤٥ . | ٧ (لقمان / ٣ - ٥ . |
| ٣ (البقرة / ٢٣٨ ، ٢٣٩ . | ٨ (المؤمنون / ١ - ٤ . |
| ٤ (النساء / ١٠١ - ١٠٣ . | |
| ٥ (البقرة / ٨٣ . | |

فى قلوب المؤمنين الأولين والقرآن هو الذى نماها وانضج ثمرتها ، وقد كان له الأثر الواضح فى تطهير النفوس من الجبن والخور ، وضعف العزيمة ، وتحليتها بالشجاعة والإقدام والتضحية فى سبيل الله بكل غال ونفيس .
وقد عمد القرآن الكريم إلى تطهير النفوس وتحريرها من حب الدنيا والتكالب على شهواتها ومتاعها . فقد وصفت آيات عديدة من القرآن الحياة الدنيا بمتاع الفرور ، ونددت بالذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، وضربت الأمثال لهذه الحياة ومصير ما فيها من متاع وزينة ، ونبّهت على عدم الاغترار بها .

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الفرور » (١) . « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » (٢) . « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » (٣) . وقد وصفت الآيات الكريمة متاع هذه الحياة بأنه قليل لا وزن له عند الله « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا » (٤) . « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » (٥) . « وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » (٦) . « وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإنّ الدار الآخرة لهى الحيوان » (٧) . « اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم » (٨) .

وقد ضرب الله الأمثال لهذه الحياة الدنيا ومصيرها :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرًا » (٩) .
وإذا كانت هذه هى قيمة الحياة الدنيا عند الله وهذا هو مصيرها الزائل ، فمن الحمق حبها والعمل لها والتعلق بها أكثر من الآخرة التى أعد الله فيها لعباده مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .
ومن هنا جاءت الآيات تندد بالذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

« تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » (١٠) .
« أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » (١١) . « ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة » (١٢) . « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب » (١٣) . « فاعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » (١٤) . « فاما من طفى وأثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى » (١٥) .
« بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » (١٦) .

وقد وضحت الآيات القرآنية مصير هؤلاء الذين رضوا بالحياة الدنيا وجعلوها أكبر همهم « ذلك لهم خزي فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (١٧) . « أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزي » (١٨)

- | | |
|-----------------------|----------------------|
| ١ . (الانفال / ٦٧) | ١ (آل عمران / ١٨٥) |
| ٢ . (التوبة / ٢٨) | ٢ (الانعام / ٧) |
| ٣ . (النحل / ١٠٧) | ٣ (فاطر / ٥) |
| ٤ . (الشورى / ٢١) | ٤ (النساء / ٧٧) |
| ٥ . (النجم / ٢٩) | ٥ (التوبة / ٢٨) |
| ٦ . (النازعات / ٢٨) | ٦ (الرعد / ٢٦) |
| ٧ . (الاملى / ١٦) | ٧ (المنكوبت / ٦٤) |
| ٨ . (المائدة / ٢٣) | ٨ (الحديد / ٢٠) |
| ٩ . (المائدة / ٤١) | ٩ (الكهف / ٤٥) |

« متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب لشديد » (١) . « الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك فى ضلال بعيد » (٢) . « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » (٣) .

وبعد هذا التقييم للحياة الدنيا والتنديد والوعيد بمن رضوا بها ، واطمأنوا إليها ، فمن الطبيعى أن تختار النفوس المؤمنة الدار الآخرة وتسمى لها سعيها ، وتسارع إلى الخيرات ومغفرة الله وجزائه ، ولذلك باع الرعييل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم دنياهم بأخراهم واستحقوا تنويه الله بهم ورضائه عنهم ورضاهم عنه .

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » (٤) . « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (٥) . « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » (٦) . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون . ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » (٧) .

وواضح من هذه الآيات ومن أمثالها مما سنذكره فى حينه حث الله سبحانه النفوس المؤمنة على عدم الاستغراق فى متع الحياة وشهواتها استغراقاً ينسيهم واجبه نحو خالقهم والإقبال على الإيمان بالله والعمل الصالح ، والإقدام على كل ما فيه إعلاء كلمة الله ، والتضحية فى سبيل الله بالنفس والنفس .

والقرآن الكريم لم يكن ليترك النفس المؤمنة تعيش فى هذه الحياة بلا هدف تسعى لتحقيقه بعد أن صور الحياة على هذه الصورة ، فتحديد الهدف ووضوحه ، يروض النفس على الصبر وتحمل متاعبه والرضى بنتائجها .

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٨) . « يعبدونى ولا يشركون بى شيئاً » (٩) . فغاية المؤمن ليست فى المتاع والأكل فتلك غاية البهائم « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (١٠) . ولكن ليس معنى هذا أن الإسلام يحرم الطيبات والتمتع بها . فالإسلام لا يحرم المتاع النظيف ، ولا يدعو إلى الرهينة والانصراف عن شؤون الحياة ، بل يدعو إلى ذلك المتاع الطاهر دعوة صريحة ، ويستنكر تحريمه « قتل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (١١) . ولكنه يريد أن يسيطر عليهم إيمانهم ، ويخلصوا قلوبهم لله ولدعوته ، فلا يوغلوا فى الشهوات عن القيم الحقيقية الباقية الخالدة حين يزول متاع الأرض القريب : (زين للناس

- ١ (يونس / ٧٠)
- ٢ (إبراهيم / ٣)
- ٣ (يونس / ٧ - ٨)
- ٤ (النساء / ٧٤)
- ٥ (النحل / ٤١)
- ٦ (الإسراء / ١٦)
- ٧ (التوبة / ١١١)
- ٨ (الذاريات / ٥٦)
- ٩ (النور / ٥٥)
- ١٠ (محمد / ١٢)
- ١١ (الأعراف / ٣٢)

- ١ (يونس / ٧٠)
- ٢ (إبراهيم / ٣)
- ٣ (يونس / ٧ - ٨)
- ٤ (النساء / ٧٤)
- ٥ (النحل / ٤١)
- ٦ (الإسراء / ١٦)

حُبَّ الشهواتِ من النساءِ والبنينِ والقناطيرِ المتقطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسوّمةِ والأنعامِ والحِثِّ . ذلك متاعُ الحياةِ الدنْيا واللّهِ عندهُ حَسَنُ المآبِ » (١) . « المالُ والبنونُ زينةُ الحَياةِ الدنْيا والباقياتُ الصّالحاتُ خَيْرٌ عندَ ربِّكَ ثوابًا وخَيْرٌ مَلا » (٢) .

فالإسلام لا يُكره للناس أن يُحبوا الدنْيا ، فحبها دافع فطري قوًى ، لا يحاربه بل يهذبهُ حتى لا ينقلب إلى شهوةٍ بهيميةٍ لا ضابط لها ، فحين ينحرف الحب وراء الشهوات يكون ظلماً للنفس ، لأن إطلاق العنان للنفس يوردها موارد الهلاك والبوار .

فالقرآن يوجه المؤمن إلى صيانة نفسه من مذلة العبودية للشهوة في الحياة الدنْيا ومن مذلة الخزي والعذاب في الحياة الأخرى . هذا وقد كلف الله المؤمنين بالعمل لخير الإنسانية ، بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (٣) . وهذا العمل التيسيل من صميم الأهداف التي شغل الله بها المؤمنين في هذه الحياة الدنْيا ولذا فقد جعل التقصير في أداء هذا الواجب سبباً لغضبه ومقتته ، ولعنته « لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » (٤) .

ويجعل القيام بهذا الواجب غاية من غايات نصر الله للمؤمنين « إن الله يُدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . . إلى قوله تعالى « ولينصرن الله من ينصره إنَّ الله قوًى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » (٥) .

ومن ثم كان ميدان الإسلام الأول هو عالم النفس والضمير ، وكانت وسيلته الأولى للوصول إلى هدفه هي تربية هادئة عميقة للنفس ، وإعداد المسلمين لما يمكن أن يُصابوا به من خسائر وآلام ، وحث لهم على الصبر والتحمل ، وتشيرهم برضوان الله ونصره على أي حال ، وتنويه بالمؤمنين الذين صبروا على البلاء وتوكلوا على الله وأسلموا وجوههم لرب العالمين .

وقد تدرج القرآن الكريم في تربية الرعيل الأول من المجاهدين ، مما نراه واضحاً جلياً من أوائل السور المكية نزولاً ، ففي سورة القلم مثلاً وهي السورة الثانية حسب ترتيب النزول « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » (٦) .

وفي سورة المزمل وهي السورة الثالثة : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً » (٧) . والآيات تتضمن الأمر بترك المكذبين لله ، والصبر على تكذيبهم ، مع الهجر الجميل ، والقيام بتبليغ الرسالة . وقد التزم رسول الله هذه الخطة في دعوته وفي تربية أصحابه عليها ،

٥ (الحج / ٣٨ - ٤١)

٦ (القلم / ٤٤ - ٤٥)

٧ (المزمل / ١٠ - ١١)

١ (آل عمران / ١٤)

٢ (الكهف / ٤٦)

٣ (آل عمران / ١٠٤)

٤ (المائدة / ٧٨ - ٧٩)

واستمر القرآن المكي يأمر بها ويؤكد لها حتى نهاية العهد ، فأمر المؤمنين بالعفو عن المشركين « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » (١) .

ويبدو أن المشركين قد قاموا بأعمال استفزازية ميثرة للرسول وللمؤمنين ، ضاقت بها صدورهم وهموا برد الاعتداء ، فنزل القرآن الكريم يأمر بالصبر وعدم الخروج على الخطة التي وضعها سبحانه لهذه الفترة « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يؤمنون » (٢) .

وتعتبر هذه الخطة منهاجا تربويا عبيق الأثر في النفس الجاهلية ، وتربيتها تربية إسلامية جديدة ، وتعويدها على الصبر وتحمل الأذى والفتنة ، وبعد أن كانت تثور لآفته الأسباب ، أهدت مأمور بالعفو والاحسان عن الإساءة - مع القدرة على الانتصاف . ورشك أن الالتزام بهذه الخطة كان عسيراً ، على بعض النفوس ، ولكن الانصياع الكامل لأوامر الله ورسوله - جعلت رجالاً أمثال عمر بن الخطاب في حميته ، وحزمة بن عبد المطلب في فتوته ، وغيرهما ممن اعتادوا الاندفاع والاستجابة لأول ناعق يتعمدون ضبط نفوسهم ، ويوازنون بين الاندفاع والتروي ، والحماة والتدبير ، والحمية والطاعة ، وبهذا تجردوا من ذواتهم وانتصروا على نفوسهم التي أصبحت خالصة لله وفي سبيل الله .

وهذا هو الجهاد الأكبر حقاً ، وهذا هو النصر الذي يفرح به المؤمنون انتصارهم على نفوسهم التي هي أعدى أعدائهم - ولهذا فقد استحقوا الثناء من مولاهم والتهنئة على هذا الفوز العظيم « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدروون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار » (٣) .

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (٤) . « وبشر الصابرين أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (٥) . وهكذا تزود المسلمون في العهد المكي بأعظم أسلحة النصر الا وهو « الصبر » .

والصبر علاج ناجع لأمراض النفوس ، فهو يقويها ويطهرها من اليأس والهلوع عند المصيبة ويحفظها من البطر والطغيان عند النصر والغنيمية . « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه ، انه ليؤس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ، انه لفرح مخور . الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » (٦) .

ولكى يرعى الحكيم الخبير بالنفوس هذه النفوس التي آمنت وصبرت ، وعداها باليسر والامن والنصر ، حتى تظل قوية صلبة في المواقف الصعبة ، والظروف الحرجة . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » (٧) . « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (٨) .

- | | |
|--------------------|--------------------|
| ١ (الجافية / ١٤) | ٥ (البقرة / ١٥٦) |
| ٢ (الامام / ١٠٨) | ٦ (هود / ٦ - ١١) |
| ٣ (الرعد / ٢٢) | ٧ (النور / ٥٥) |
| ٤ (الرعد / ٢٤) | ٨ (الروم / ٤٧) |

« إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (١) .
ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » (٢) .

« سيجعل الله من بعد عسر يسرا » (٣) . « فان مع العسر يسرا ان مع
العسر يسرا » (٤) . وهم فى رعاية الله وكفنه ، يحفظهم ويرعاهم فى الدنيا
ويكرمهم فى الآخرة .

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا
ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا
وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون » (٥) .
وحسب المؤمن بهذا التأييد وهذه الولاية فى الدنيا والآخرة قوة إلى
قوته حتى ينطلق فى كفاحه لا يرهب قوة من قوى الباطل حتى ولو كان وحده فى
المعركة .

وقد بثت الآيات القرآنية فى قلب المؤمن ونفسه الأمل والرجاء ، واعتبرتهما
من مظاهر الإيمان ونوهت بالذين يرجون رحمة الله ، وحذرت من اليأس
والقنوط ، الذى يدل على عدم الثقة بالله . « إن الذين آمنوا والذين هاجروا
وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم (٦) » ولا تنهوا
فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألون فانهم يألون كما تألون ، وترجون من الله
مالا يرجون ، وكان الله عليهما حكيما » (٧) .

« وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم .
إذا هم ينتظون أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن فى ذلك
آيات لقوم يؤمنون » (٨) .

وقد توخت الآيات القرآنية تثبيت قلب المؤمن ، وتشجيع نفسه على
التضحية والإقدام وتحمل الشدائد بنفس راضية مطمئنة .

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ،
قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنين ونحن نترصب بكم ان يصيبكم الله بعداب
من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » (٩) .

وقد حثت الآيات الكريمة على تقوى الله كثيرا ، لأنها تربط النفس المؤمنة
بربها برابطة وثيقة لا تنفصم عروتها ، فتستمد منه القوة والنصر والتأييد ،
والطهارة والصلاح ، فإن كل إنسان إذا ما اتقى الله وراقبه وامتلت نفسه
بعظمته ، فخاف غضبه ، ورجا رضاه ، طهرت نفسه واشرق عليها نور
الحق واليقين ، واتجهت إلى الخير فى خلوتها وسرائها وضرائها ، وسائر
أحوالها ، وهذا هو أساس الإصلاح الاجتماعى الحق ، الذى يكون منبعه
القلب ، ومبعثه الإيمان (١٠) .

قال تعالى : « فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١١) .
« يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر

- | | |
|----------------------|--|
| ١ (غافر / ٥١ . | ٧ (النساء / ١٠٤ . |
| ٢ (الصغ / ٤٠ . | ٨ (الروم / ٢٦ ، ٢٧ . |
| ٣ (الطلاق / ٧ . | ٩ (التوبة / ٥١ - ٥٢ . |
| ٤ (الشرح / ٥ - ٦ . | ١٠ (تفسير القرآن الكريم / ١٢١ الشيخ محمود شلتوت . |
| ٥ (فصلت / ٢١ - ٢٢ . | ١١ (الامراف / ٢٥ . |
| ٦ (البقرة / ٢١٨ . | |

لكم ، والله ذو الفضل العظيم « (١) . « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم
محسنون » (٢) . « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » (٣) .
وهكذا يسير الإسلام فى تربية النفوس على الجهاد ، فيردها بالتوحيد
إلى الفطرة السليمة ويحررها من العبودية لغير الله ، ومن الذل والخوف
والخضوع لسواه ، فتستمد منه القوة والعون والتأييد ، ويكفل لها النصر
والتمكن فى الحياة الدنيا ، ونعيم الجنة الخالد فى الحياة الأخرى .
وفى هذا ما فيه من الروعة والجلال من مقاصد القرآن الكريم وعنايته
بتربية النفس الإنسانية وتنمية نوازع الخير وكريم الأخلاق فيها ، ومعالجتها
وتوجيهها إلى أفضل الجهات التى تكفل لها ولجتمعهما السعادة والنجاح
والأمن والنصر .

١ (الأنفال / ٢٩ .

٢ (التحل / ١٢٨ .

٣ (يوسف / ٧ .

ثانيا : مجاهدة الشيطان :-

ومن الجهاد الأكبر « مجاهدة الشيطان » وقد أمر الله تعالى باتخاذة عدوا تنبيهاً للمؤمنين على استفراغ الوسع في محاربتة ومجاهدته ، لأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد . ومجاهدة الشيطان أكبر من مجاهدة الكفار ، لأن المجاهد يرى العدو الظاهر ، ولا يرى الشيطان في حين أن الشيطان يرى المجاهد ويجرى منه مجرى الدم ولذا قال تعالى : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم (١)) . وإنك إذا قتلت الكافر تجد العز والغنية وإذا قتلتك تجسد الشهادة والجنة ولكنك لا تقدر أن تقتل الشيطان ، وإذا قتلك تقع في عقوبة الرحمن والذل والخسران فما أشد وادوم هذا الجهاد (٢) .

وقد ذكر الله سبحانه لعباده المؤمنين قصة عداوة الشيطان للإنسان منذ الأزل ، فحين خلق الله آدم عليه السلام ، أسكنه الجنة ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا ، إلا إبليس أبى واستكبر وقال : (أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين) ، فطرده الله من الجنة ، وتوعده بالعقاب الشديد ، فخرج وهو يضمر العداوة لآدم ، وتمنى على الله لو يؤخره إلى يوم القيامة ليفغى بنى آدم ويستهوهم بمكره وخداعه حتى ينحرفوا عن الصراط المستقيم . وقد وردت قصته مفصلة في أكثر من سورة ، ففي سورة الأعراف جاء قوله تعالى : (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعك إلا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إناك من الصاغرين . قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال أخرج منها مدحوراً لمن اتبعك منهم لآملن جهنم منكم أجمعين (٣)) .

وقد عمل الشيطان بمكره وكيدته على إخراج آدم من الجنة إلى الأرض . وكان ذلك أول نجاح له ونصر على أبى البشر كلهم — بالرغم من تحذير الله سبحانه له — من الشيطان (ألم أنهكما عن تلكم الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين (٤)) .

ومنذ ذلك الحين والمعركة دائرة بين الشيطان وبنى آدم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . وقد وردت نصته مع آدم عليه السلام في سورة الحجر « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس ما لك إلا تكون مع الساجدين . . . وإلى قوله تعالى « وإن جهنم لموعدهم أجمعين (٥) » .

ونفس القصة أيضا في سورة الإسراء (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . . . إلى قوله تعالى (إن عبادي ليس ذلك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا (٦)) . وقد ذكرت السور أيضا أن الذى اغوى آدم فأخرجه من الجنة هو

١ (الأعراف / ٢٧ .

٢ (إرشاد العباد الى الغزو والجهاد

٣ (الحجر / ٣١ - ٤٣ .

٤ (الإسراء / ٦١ - ٦٥ .

٥ (إرشاد العباد الى الغزو والجهاد

٦ (الإسراء / ٦١ - ٦٥ .

٧ (الأعراف / ١١ - ١٨ .

الشيطان فقد وردت قصته فى سورة البقرة وذكر (إبليس والشيطان) فى نفس القصة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ... إلى قوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقتلنا هبطوا بعضهم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين (١) .

وكذلك ذكر فى سورة الاعراف مرتين فى أول القصة (إبليس) وفى ختامها (الشيطان) (يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة (٢) . وفى سورة (طه) أيضا (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ...) وفى أثناء سرد القصة ورد (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) (٣) .
ومن هنا نستنتج أن (إبليس هو الشيطان) ..

وقد ترددت كلمة الشيطان فى القرآن كثيرا . فقد جاء بصيغة المفرد فى سبعين آية مكية ومدنية وبصيغة الجمع فى ثمانى عشرة آية مكية وكلها بال التعريف الا فى ثلاث آيات هى (الحجر والتكوير والزخرف) .

وإن دل هذا على شئ فانما يدل على شدة خطورة الشيطان وجنوده على بنى آدم ، وانهم أعداء يستحقون المجاهدة ، وعدم التقصير فى ذلك ..

فقد حذر رب العزة أبناء آدم من الشيطان عقب سرد قصته مع أبيهم فى كل مرة (قال أرايتك هذا الذى كرمت على لئن أخرجت إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم موفورا ، واستغفر من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا » (٤) .

وفى سورة الاعراف (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لاتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ... إلى قوله تعالى (يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » (٥) .

وقد أكد سبحانه فى مناسبات كثيرة جدا عداوة الشيطان المتأصلة للإنسان : (قل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) (٦) (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) (٧) . (ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) (٨) . والشيطان كفور لربه (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) (٩) . وهو عصى للرحمن (يأتى لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا) (١٠) .

وهو مصدر الشرور والفساد فى العالم ، وكان سببا فى الخصومة البشرية الأولى بين الأخوين قابيل وهابيل : (وائل عليهم نبأ بنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ... إلى قوله تعالى

- | | |
|-------------------------|--------------------|
| ١ (البقرة / ٣٥ - ٣٨ . | ٦ (الإسراء / ٥٣ . |
| ٢ (الامراف / ٢٧ . | ٧ (فاطر / ٦ . |
| ٣ (طه / ١١٦ - ١٢٠ . | ٨ (الزخرف / ٦٢ . |
| ٤ (الإسراء / ٦٢ - ٦٤ . | ٩ (الإسراء / ٢٧ . |
| ٥ (الامراف / ٢٧ . | ١٠ (مريم / ٤٤ . |

(فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) (١) .
وهو الذى أضل الأمم السابقة فاستحقوا عذاب الله (تا الله لقد أرسلنا
إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب
اليوم) (٢) .

وهو الذى أضل سيدنا موسى عليه السلام فقتل نفسا بغير حق (ودخل
المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا
من عدوه فاستعانه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى ففضى
عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) (٣) .

وهو الذى نزع بين يوسف عليه السلام وإخوته إذ سولت لهم أنفسهم قتل
أخيهم (بعد أن نزع الشيطان بينى وبين أخوتى) (٤) .
والشيطان خذول للإنسان (وكان الشيطان للإنسان خذولا) (٥) .
ويعد الإنسان ويفريه بالباطل (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا
غمرورا) (٦) .

ومن أهدافه الأساسية أن يضل الإنسان ضلالا بعيدا ، ويكفر بالله ولا
يشكره ، حتى يستحق اللعنة مثله ، ويحل عليه غضب الله (ألم تر إلى الذين
يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى
الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) (٧) .

ومن أساليبه الماكرة تزيين السوء ليصد الإنسان عن سبيل الله (وجدتها
وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم
عن السبيل فهم لا يهتدون) (٨) . (وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم
وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) (٩) .

ومن أعماله التى يوقع بها بين الناس العداوة والبغضاء ، الخمر والميسر
والأنصاب والأزلام : (يأبى الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب
والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان
أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن
الصلاة فهل أنتم منتهون) (١٠) .

وقد تعدد الشيطان فى كل طريق يوصل الإنسان إلى الفوز برضا الله
والجنة فهو يخوف المنفقين أموالهم فى الجهاد فى سبيل الله بالفقر ويأمرهم
بالبلخ : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه
وفضلا والله واسع عليم) (١١) .

فمن كيده للإنسان ورغبته الشديدة فى حرمانه من فضل الله ، لم يأمره
بإدى ذى بدء بالبلخ وإلا لم يجد أذنا مصفية ، ولكنه يعمد إلى تخويفه أولا
بالفقر وبخيل إليه أن الفقر نتيجة حتمية للبدل ، وبهذا يتهيأ الإنسان لقبول
أمره .

وقد كان سببا فى عصيان الرماة يوم (أحد) لأوامر الرسول عليه الصلاة
والسلام فدارت الدائرة على المسلمين بعد أن كانت على أعدائهم .

- ٧ (النساء / ٦٠)
٨ (النمل / ٢٤)
٩ (العنكبوت / ٢٨)
١٠ (المائدة / ٩٠ - ٩١)
١١ (البقرة / ٢٦٠)

- ١ (المائدة / ٢٧ - ٣٠)
٢ (النحل / ٦٣)
٣ (القصص / ١٥)
٤ (يوسف / ١٠٠)
٥ (الفرقان / ٢٩)
٦ (النساء / ١٢٠)

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ...) (١) .

فهو الذي وسوس لهم بترك أماكنهم والنزول لجمع الغنائم خشية ألا يقسم لهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو يستأثر بها غيرهم ، فكانت الهزيمة التي لحقت بالمسلمين ، وأذهلتهم ومزقت وحدتهم فولوا هاربين لا يلوون على شيء (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمًا بغم) (٢) .

وقد سيطر الشيطان في ذلك اليوم على نفوس المجاهدين الذين لم يأخذوا حذرهم منه فمألاً قلوب طائفة منهم هما وغمًا ، حتى ظنوا بالله ظن السوء (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا) (٣) .

ويكشف الله سبحانه عن سبب هذا البلاء كله فيقول (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) (٤) .

وقد كان الشيطان حاضرًا في تلك الغزوة مسيطرًا على قلوب كثير من المجاهدين من بدايتها إلى ختامها ولهذا كانت درسا عمليا للمسلمين في عداوة الشيطان وكيد . وهو الذي ملأ نفوس المجاهدين (يوم حنين) إعجابا بكثرتهم حتى أنساهم أن النصر من عند الله فحلت عليهم الهزيمة المنكرة في أول المعركة وكانوا كما وصفهم ربهم عز وجل (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) (٥) .

فكثيرا ما تعد للمجاهدين في طريق الانفاق في سبيل الله والخروج للجهاد ، على ما سيأتي ذكره ، ولذا فقد أكثر الله التحذير من اتباع خطوات الشيطان :

(يأيتها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو

بين) (٦) .

يأيتها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن

يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) (٧) .

وهو أسوأ قرين (والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) (٨) . (ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقبض له شيطانا فهو له قرين وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) (٩) .

فالؤمنون مطالبون بمجاهدة هذا القرين السيء الذي لا يفارقهم ولا ينفك عن محاربتهم حتى يوقعهم فيها وقع هو فيه .

- ٦ (البقرة / ٢٠٨ .
٧ (النور / ٢١ .
٨ (النساء / ٣٨ .
٩ (الزخرف / ٣٦ - ٣٨ .

- ١ (آل عمران / ١٥٢ .
٢ (آل عمران / ١٥٣ .
٣ (آل عمران / ١٥٤ .
٤ (آل عمران / ١٥٥ .
٥ (التوبة / ٢٥ .

وهو ليس حربا على المؤمنين فحسب بل انه لا يتورع عن مهاجمة الأنبياء والمرسلين .

فقد حاول ان يُنسى رسولنا عليه الصلاة والسلام (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) (١) . (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته) (٢) .

وقد بين سبحانه أسباب انحراف فطرة الناس التى فطرهم عليهما ، ونسب ذلك إلى وسوسة الشيطان (فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءآتهما) (٣) .

(فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد . . .) (٤) وإذا كنا لا نُدرِك الشيطان بحواسنا فإننا نُدرِك أثره فى نفوسنا ، وهذا الأثر الذى نحسه هو ما سماه القرآن مرة بالوسواس ومرة بالنزغ والمس ، ولسنا مطالبين بمعرفة حقيقته وإنما علينا أن نفكر فى طريق الخلاص منه . (وإما ينزغك من الشئ إن نزغ فاستعذ بالله) (٥) . (إن السذبن اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا) (٦) .

(وجاء بكم من البدو بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) (٧) . (إن الشيطان ينزغ بينهم) (٨) . (إبنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) (٩) . . . هذا ، وبعد أن بين لنا مولانا عز وجل أن عداوة الشيطان للإنسان ازلية ، وأنه عدو لله وعصى للرحمن ، وخذول للإنسان وأنه غرور يعد الإنسان ويمنيه بالباطل ، ومن أساليبه تزيين السوء ليضل عن سبيل الله ، فقد أضل أمما كثيرة من قبلنا ، وأنه يقعد المؤمن عن عمل الخير ، ويخوفه الفقر ، ويأمره بالفحشاء ، ولا يتورع عن مهاجمة الأنبياء والمرسلين ، . . . الخ . ولهذا حذر سبحانه من اتباع خطواته ، وأمر المؤمنين باتخاذها عدوا ، والّا يغفلوا عن مجاهدته ، حتى لا ينتصر عليهم ويضلهم ضلالا بعيدا ، ويحل عليهم غضب الله فى الدنيا والآخرة .

قد بين سبحانه أن من أسلحة الشيطان (سلاح الهوى والشهوات) : (قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائننا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) (١٠) . (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) (١١) . (وإما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) (١٢) . (ولو اتبع الحق أهواءكم لفسدت السموات والأرض ومن فىهن) (١٣) . (قل لا اتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) (١٤) .

- | | |
|---------------------|--|
| ١ (الأنعام / ٦٨ . | ٨ (الإسراء / ٥٣ . |
| ٢ (الحج / ٥٢ . | ٩ (ص / ٤١ . |
| ٣ (الأعراف / ٢٠ . | ١٠ (الانعام / ٧١ . |
| ٤ (طه / ١٢٠ . | ١١ (ص / ٢٦ . |
| ٥ (الأعراف / ٢٠٠ . | ١٢ (النازعات / ٤٠ . |
| ٦ (الأعراف / ٢٠١ . | ١٣ (المؤمنون / ٧١ . |
| ٧ (يوسف / ١٠٠ . | ١٤ (الأنعام / ٥٦ ، والفرقان / ٤٣ ، والمائدة / ٧٧ والرعد / ٢٧ والأعراف / ١٧٦ . |

وتوجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تشديد للوعيد على غيره ممن يتبع الهوى ، ويحيد عن صراط الله المستقيم ، قال الشيخ محمد عبده (١) : أمرده بالخطاب مع أن المراد أمته خاصة ، إذ يستحيل أن يتبع هو أهواءهم ، أو أن يحاربهم على شيء نهاه الله عنه لينبه الغافل ، ويعلم المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ولو لغرض صحيح هو من الظلم العظيم الذى يقطع طريق الحق ، ويرد الناس إلى مهاوى الباطل ، كأنه يقول إن هذا ذنب عظيم لا يتسامح فيه مع أحد حتى لو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله تعالى لسجل عليه الظلم وجعله من أهله الذى صار وصفا لازما لهم (وما للظالمين من أنصار) فكيف حال من ليس له ما يقارب مكانته عند ربه عز وجل) ..

أما الإنسان فقد خلق من عنصرين : عنصر أرضى وهو عنصر الطين الذى يشترك فيه مع سائر الخلائق التى تدب على الأرض ، وعنصر سماوى هو النفحة الروحية التى كرمه الله بها وهو ما يشير إليه قوله تعالى (ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) .

وهكذا برا الله الإنسان ، فلم يجعل حياته مادية صرفة كحياة الحيوان ، ولا روحية صرفة كحياة الملائكة ، بل جعلها مزيجا من المادة والروح ، ليتلاءم وجوده من ناحيته المادية مع طبيعة الأرض التى يحيا عليها جسمه ، ومن ناحيته الروحية مع طبيعة السماء التى تهفو إليها روحه ، فكان له الى جانب بشريته ناحية روحية ، تعود عليه بكل خصائص الحياة الكريمة ، وتجعل له فى طبيعته مصدر الإلهام الخير وصفات الكمال « (٢) . فبمقتضى العنصر الأرضى فى الإنسان ركبت فيه الغرائز التى يحتاج إليها الجسم فى نموه وسلامته وصلاحيته للحياة . وهى غرائز يشترك فيها الإنسان والحيوان ، وكلاهما يندفع بحكم غرائزه . إلى السعى فى سبيل قوته ، وإلى القتال فى سبيل حياته وإلى التزاوج فى سبيل نوعه . وتحت تأثير هذه الغريزة ينشأ ما يكون فى الإنسان والحيوان من حرص وبطش وشهوة ، وما يترتب على ذلك من مظاهر الطمع والظلم ، والشح والأنانية والإندفاع والشهوة ، والميل مع الهوى « (٣) . وإنما يأتى الشيطان غريمه من طريق غرائزه ، فلا يزال يثيرها ويستفزها ويهددها حتى يكون أغلب عليه من عقله وضميره وإرادته ، فيندفع معها اندفاع الحيوان ، ذلك أن غرائز الإنسان أضعف نواحيه وأوهاها ، لأنها أرضية هابطة ترضى بالتافه من المتاع وبالدون من المنزلة ، شأنها فى ذلك شأن الغرائز فى كل حيوان يدب على الأرض .

أما خصائصه الروحية فلا قبل للشيطان بها ولا سلطان له عليها ، لأنها سر الله عز وجل فى ابن آدم ، وحصنه الذى حصنه به وأواه إليه ، ولا يزال المرء فى قوة ومنعة ما استعز بهذا السر واحتفى بهذا الحصن ، فهذا أغفل وتهاون فى الركون إليه كان كمن ألقى سلاحه واستسلم لعدوه ، فكان أهون شيء على الشيطان أن يغويه ، لأنه حينذاك لا يكون إلا فى حماية غرائزه ، وهى أضعف نواحيه تماسكا وأكثرها تهالكا وانهيارا « (٤) .

١ (من تفسير المنار ١٩/٢ .

دويدار بتصرف .

٢ (آدم : للاستاذ البهى الخولى .

٤ (آدم : للاستاذ : البهى الخولى بتصرف

فى العبارة .

٢ (صور من حياة الرسول ٦١٩/ أمين

ولم يستطع الشيطان ان يخدع آدم وجواء الا عن طريق الفرائز ، ومن اجل ذلك بين الله سبحانه سلاح الشهوة الذى يضل به الشيطان بنى آدم فى متاهات البهيمية الحمقاء « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم ، والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما » (١) .

وقال سبحانه « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » (٢) . وقوله « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » (٣) . وكتب الامام الغزالى (٤) : فصلا رائعا فى بيان تسليط الشيطان على القلب بالوسواس منه قوله : « القلب يتجاذب بين الشيطان والملك وهو بأصل الفطرة صالح يقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا يترجح احدهما على الآخر ، وانما يترجح احد الجانبين باتباع الهوى والاكباب على الشهوات او الاعراض عنها ومخالفتها فان اتبع الانسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان لأن الهوى مرعى الشيطان ومرتعه وان جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبهه بأخلاق الملائكة صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ، ولما كان لا يخلو قلب بشر من شهوة وغضب وحرص وطمع وطول امل إلى غير ذلك من صفات البشرية المشبعة عن الهوى — لاجرم لم يخلو قلب من أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة — وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتألت بالوسواس الداعية إلى إثارة العاجلة واطراح الآخرة . ومبدأ استيلائها إتباع الشهوات والهوى » .

فالقلب الخالى من الهوى لا يدخله الشيطان وليس له على صاحبه سلطان ، وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك فى قوله : « إن عبأدى ليس لك عليهم سلطان » (٥) .

أما من اتبع الهوى والشهوة فهو عبيد الهوى لا عبد الله ، ولذلك سلب الله عليه الشيطان لأنه أراد هذه الحياة ملهاة ومأكلة وشهوة ، وانسلخ مما أراد الله له من الكرامة والخير وقد أشار سبحانه إلى هذا الصنف الذى غلبت عليه شقوته بقوله « وأتل عليهم نبأ الذى أتيناها آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه . فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » (٦) . ولهذا فقد أمرنا الله تعالى بمجاهدة الشيطان وأوليائه ، وحزبه ، وإخوانه من الإنس والجن ، وإن ننتصر عليه قبل أن ينتصر علينا .

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » (٧) . « فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » (٨) . وقاتل حزبه ايضا « أولئك حزب الشيطان . ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون » (٩) . وكذلك

- | | |
|--|---------------------|
| ١ (النساء ٢٦/٢٧ . | ٥ (الاسراء ٦٥/ . |
| ٢ (آل عمران / ١٤ . | ٦ (الأعراف / ١٧٥ . |
| ٣ (مريم / ٥٩ . | ٧ (الأتعام / ١٢١ . |
| ٤ (إحياء علوم الدين ٢/٢٦ بتصرف فى العبارة . | ٨ (النساء / ٧٦ . |
| | ٩ (المجادلة / ١٩ . |

جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن « (١) . « انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون » (٢) . « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » (٣) . « ألم تر انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » (٤) . « انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون المؤمنين » (٥) .

ولئن تسلح الشيطان بالفواية ، فقد سلّح الله الإنسان بالهداية والإيمان بالله وحده ومداومة ذكره وعبادته ، حتى يمتلئ قلبه بحب الله وتقواه ، ولا يبقى فيه شيء سواه وقد قوّى فيه الإرادة بمجاهدة النفس وتهذيبها ، وزوده بالعقل تلك القوة المدركة للخير والشر ، وكرمه بالضمير المرفه الذي يحاسبه على أى تقريط فى جنب الله . وفوق هذا وذلك فقد أرسل الله الأنبياء والرسول مثلاً علياً للإنسانية ، وقدوة صالحة فى مجاهدة أعداء الإنسان الظاهر والباطن فلم يقتلوا غرائزهم ، ولم يُميتوا شهواتهم بل حكموا فيها عقولهم وضمائرهم فوصلوا إلى الكمال الروحى والجسمانى . فلم يبق للناس على الله بعد كل هذا حجة فى مجاهدة شياطينهم ، والارتفاع بأنفسهم إلى الدرجة العالية الرفيعة ، وإلى الكمال الإنسانى الذى أرادته الله لخلفائه فى أرضه حتى يُباهى بهم الملائكة الذين قالوا « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » (٦) . ومن هنا كان جهاد النفس والشيطان فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد .

٤ (مريم / ٨٣)
٥ (الاعراف / ٣٠)
٦ (البقرة / ٣٠)

١ (الاعراف / ١١٢)
٢ (الاعراف / ٢٧)
٣ (الاسراء / ٢٧)

ثالثا : الجهاد بالمال :

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تأمر المؤمنين بالجهاد بأموالهم في سبيل الله وتقرن الجهاد بالمال بالجهاد بالنفس ، بل لقد قدمت الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، لأن المال شقيق النفس وبذله يشق عليها كثيرا ، ولأن النفس جبلت على حب المال والحرص عليه ، وقد يكون الجهاد بالمال أشد ضرورة وأكثر حاجة من الجهاد بالنفس لأنه ضروري في إعداد القوة وقت الحرب ، ولا بُدّ منه في غير وقت الحرب للاستعداد وإرهاب العدو من ناحية ، ولتنشر الدعوة الإسلامية من نواحي الحياة .

فالمال عصب الحرب ، وهو عظيم الخطورة في حركة الجهاد ، لأن تسليح الجيش يحتاج إلى مال غير محدود ، بينما يكتفى من المقاتلين بالعدد الذي يضمن التغلب على العدو وإرهابه . ولما كانت كثرة الناس فقراء وغير قادرين على تحمل أعباء الجهاد والتفرغ له فقد حثت آيات الجهاد الأغنياء على الاتفاق في سبيل الله بسخاء لإعداد وتجهيز هؤلاء الفقراء الذين كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم ملبيين داعي الجهاد ، فلا يجدون عنده ما يحملهم عليه ، فيتولون وأعينهم تفيض من الدمع حزنا على ما فاتهم من شرف الجهاد ، كما حكى حالتهم هذه الآية الكريمة : « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه فولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا إلا يجدوا ما ينفقون » (١) .

وأغلب الظن أن النفس الإنسانية يصعب عليها مفارقة محبوبها (المال) في المصالح العامة ، وهذا ما قرره الأستاذ الإمام (٢) : « إن الداعية إلى البذل في المصالح العامة ضعيفة في نفوس الأكثرين ، والرغبة فيه قليلة ، إذ ليس فيه من اللذة والأريحية ما في البذل للأفراد ، فاحتيج للبالغة في التأثير » .

ولا يقل المال إرهابا لنفوس الأعداء عن الجيش نفسه . فيرى الشيخ عبد اللطيف السبكي أن أصحاب المال يكونون في نظر العدو قوة مرابطة لجيشنا ، وتكون كحماية لظهر الجيش من ناحية الإمداد بالمال ، فلا يستهين العدو بالمجاهدين ولا يعلق أمه على نفاذ المال من أيديهم . وفي ذلك جانب لا يستهان به من الرهبة كالرهبة من كثرة العدو والعتاد أو أكثر (٣) . ولهذا وجب على الأمة المسلمة بذل المال بسخاء في سبيل إعلاء كلمة الله والمحافظة على شرف الإيمان وكرامة المسلم ، وإن لم تبذل هذا المال طوعا وجب على الإمام العادل أو ولي أمرهم أخذ المال من الأغنياء بالقوة لأجل الجهاد في سبيل الله تنفيذا لأمر الله ، وحتى لا تتعرض الأمة كلها والدين للأخطار المادية والمعنوية . وقد شملت الدعوة الجهادية آيات كثيرة متنوعة الأساليب تؤكد خطورة المال في الحركة الجهادية فقد قال تعالى في أول السور القرآنية المدنية نزولا « وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة واحسنوا إن الله يحب المحسنين » (٤) .

فالمعنى إذا لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال فقد اهلكم أنفسكم بالشح ، واهلكم جماعتكم بالعجز والضعف وتمكين الأعداء

١ (التوبة / ٩٢) .
٢ (عن تفسير المنار ٤٦٢/٢) .
٣ (الجهاد (من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية سنة ١٩٦٨) .
٤ (البقرة / ١٩٥) .

من نواصيكم . فقد قال العلامة أبو السعود (١) : « الإمساك وحب المال يؤديان الى الهلاك المؤبد ، ولذلك سمي البخل هلاكا » .

وقد فسر بعض المفسرين « التهلكة » بالاقامة فى الاهل والمال وترك الجهاد . لحديث أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه قال : نزلت فينا معشر الانصار ، انا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا . لو اقبلنا على أموالنا نأسلحناها فانزل الله هذه الآية (٢) .

وفسر الجلال « التهلكة » بالإمساك عن النفقة وترك الجهاد ، قال : لانه يقوى العدو عليكم . وقال الأستاذ الامام فى ذلك ، أصاب مفسرنا (يعنى الجلال) وأجاد فى تفسيره هذه الآية (٣) . وهذه الآية جلية المدى فى بابها حيث تقرر أن عدم الانفاق فى سبيل الله وإعداد وسائل الدفاع والجهاد مؤد إلى التهلكة والخطر لما فى ذلك من إغراء العدو بالمسلمين وتسهيل بغيه عليهم (٤) .

وكل هذه الأتوال حق . ومن أجل ذلك كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية التى تحت على الانفاق والبذل فى سبيل تجهيز الغزاة ، وخاصة فى تلك الفترة التى كان الجهاد فيها يقوم على التطوع بالنفس والمال ، وكان المجاهد ينفق على نفسه وقد يقعد به المال حين لا يقعد به الجهد ، فلم يكن بد من التنبيه على خطورة الإمساك عن الانفاق .

فقد أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قيل يا رسول الله أى الناس أفضل فقال رسول الله : مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله ، قالوا ثم من قال مؤمن فى شعب من الشعوب يتقى الله ويدع الناس من شره « (١) .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم قال : « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزى ، ومن خلطه فى أهله بخير فقد غزا » (٦) .

وكما تقرر سبحانه خطورة البذل والانفاق فى الجهاد ، فقد أكد فى كثير من آياته البينات أن حب المال طبيعة فى النفس الإنسانية ، وأن الشح والحرص حاضر فى الأنفس لا يغيب ، تهيدا لعلاج ذلك علاجا نفسيا على طريقة القرآن الخاصة فى التربية النفسية .

فى كثير من الآيات الكريمة وصف الله سبحانه الإنسان بحبه الشديد للمال وحرصه عليه . ففى أوائل السور المكية نزولا ، قرر سبحانه هذه الحقيقة ، فجاء فى سورة (العاديات) « وأنه لحب الخير لشديد » (٧) . والخير هنا بمعنى (المال) ، وللمفسرين فى حبه مذهبان : أحدهما : انه لشديد المحبة للمال . والثانى : انه لحريص بخيل من محبة المال ، وكلاهما صحيح كما يقول ابن كثير (٨) .

وفى سورة (الفجر) قوله تعالى « وتاكلون التراث اكلا لما ، وتحبسون المال حبا جما » (٩) . وقوله تعالى فى سورة (التكاثر) « ألهاكم التكاثر

-
- | | |
|--------------------------------------|-------------------------------------|
| ١ (تفسير أبى السعود ١٥٧/١ . | ٥ (صحيح البخارى ١٨/٤ والنسائى ١٠/٦ |
| ٢ (تفسير ابن كثير ٢٢٨/١ ، وسنن | ٦ (النسائى ١٠/٦ والترمذى ١٦٧/٤ . |
| النسائى ١٩/٣ والامام بأحاديث الاحكام | ٧ (العاديات / ٨ . |
| / ابن دقيق العيد / ٤٩٠ . | ٨ (تفسير ابن كثير ٥٤٢/٤ . |
| ٣ (تفسير المنار ٢١٣/١ . | ٩ (الفجر / ٢٠ . |
| ٤ (الدستور القرآنى ٤٧٦/١ . | |

حتى زرتم المقابر « (١) .
قال ابن كثير (٢) : « شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب
الآخرة وابتغائها وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من
أهلها . ويروى عن الحسن البصرى أن (التكاثر) فى الأموال
والاولاد . وعن النبى عليه الصلاة والسلام (يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان
الحرص والامل) .

وايثار الانسان الحياة الدنيا على الآخرة لم يرد فى القرآن الكريم وحده ،
بل ورد فى كل كتاب أنزله الله فى صحف الانبياء السابقين . « بل تؤثرون
الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، ان هذا لفى الصحف الاولى صحف
ابراهيم وموسى » (٣) .

وقال تعالى « ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » (٤) .
وقوله « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » (٥) . « وآتى
المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين » (٦) . وعلى لسان سيدنا
داود عليه السلام « فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى » (٧) .

ومن أصرح الآيات فى الدلالة على أن حب المال فطرة طبيعية فى الناس
جبلوا عليها قوله تعالى « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير
المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » (٨) .
وتؤكد هذه الآيات وأمثالها بما لا يدع مجالا للشك أن حب المال طبيعة
بشرية مسيطرة على كل النفوس حتى أنبياء الله .

ولشدة حرص الانسان على المال وتمسكه به أصبح الشح طبيعة فيه ،
وملازما له ، حيث أشار القرآن الكريم إلى هذا فى مواضع كثيرة منها :
« وأحضرت الأنفس الشح » (٩) . أى جعلت حاضرة عنده أو جعل حاضرا
عندها ، كأنها مطبوعة عليه ، لا تنفك عنه ، ولا ينفك عنها . وقوله تعالى
« قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لمسكنم خشية الإنفاق وكان الإنسان
قتورا » (١٠) .

وفى هذه الآيات دلالات صريحة على أن الشح متمكن من النفس الإنسانية:
الأولى : أن الله وصف بنى الإنسان بأنهم لو ملكوا خزائن الله التى لا نهاية
لها لبخلوا وقصروا فى الحقوق ، ومنعوا ذوى الحاجات من رغدهم ، لأن هذا
من طباعهم وسجاياهم (١١) . قال الزمخشري (١٢) : « ولقد بلغ هذا الوصف
بالشح الغاية التى لا يبلغها الوهم » .

الثانى : قوله تعالى (خشية الإنفاق) أى أنهم لا يبخلون خوفا من نفاذ
ما عندهم وإنما يمسكون خشية أن ينفقوا ، كان الإنفاق نفسه شىء مخوف
عندهم ، فال معروف أن البخيل يمسك المال خشية الفقر ، ولكن المعنى هنا على
أن البخيل لا يبذل المال لأن هذا البذل نفسه مكروه لديه بصرف النظر عما يترتب

٧ (ص ٣٢ /
٨ (آل عمران / ١٤
٩ (النساء / ١٢٨
١٠ (الاسراء / ١٠٠
١١ (ابن كثير / ٣ / ١٤
١٢ (الكشاف / ٢ / ٤٦٨

١ (التكاثر / ١ ، ٢
٢ (تفسير ابن كثير / ٤ / ٥٤٤
٣ (الاعلى / ١٦ - ١٧
٤ (الانسان / ٢٧
٥ (الانسان / ٨
٦ (البقرة / ١٧٧

عليه ، وقد يساعد على هذا المعنى أن الذى يمسك خزائن الله التى لا تتناهى لا يخشى التفاد ، ولكن نفسه التى تمكن الشح منها تخيفه من كل شىء يبعد عنه هذا الشىء المحبوب لديه ، وهو الشح ، وفى ذلك ما فيه من المبالغة فى وصف بنى الانسان بالبخل .

الثالث : قوله تعالى (وكان الانسان قتورا) ليس أوضح من ذلك فى وصف الانسان بالشح بل الشح المبالغ فيه (١) . قال ابن عباس وقتادة : اى بخيلا منوعا (٢) ومنه قوله تعالى : « أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا » (٣) . اى لو أن لهم نصيبا من ملك الله لما اعطوا احدا شيئا ولا مقدار تقير والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو فإن البخل والجزع والهلع صفة له (٤) كما قال تعالى : « إن الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين » (٥) .

ولذا فقد ذم الله سبحانه الشح والأشحاء وجعله صفة المنافقين والكفار « قد يعلم الله المعوقين منكم والفائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالنسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا » (٦) .

قال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم واسواه مقاسمة أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق وهم مع ذلك أشحة على الخير أى ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير » (٧) .

وعلى التقيض من هؤلاء المنافقين الأشحاء ، مدح القرآن الأنصار الكرماء الذين تخلصوا من شح أنفسهم وآثروا إخوانهم المهاجرين بالفضل فى كل شىء : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٨) .

وقال تعالى محذرا من الشح وفتنة الأموال والأولاد (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (٩) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم (لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبدا) . وعنه أيضا (إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم) . وقد روى عن عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه كان يطوف بالبيت ويقول « اللهم قنى شح نفسى لا يزيد على ذلك فلما سئل عن ذلك قال : إني إذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل . . .) (١٠) .

ومن الآيات التى تربط الشح بالبخل (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا

- | | |
|-------------------------------------|-----------------------------|
| ١ (القرآن والطبائع النفسية / ١٦٨ . | ٦ (الاحزاب / ١٨ ، ١٩ . |
| ٢ (ابن كثير ٦٦/٢ . | ٧ (تفسير ابن كثير ٤٧٤/٢ . |
| ٣ (النساء ٥٢/ . | ٨ (الحشر ٩/ . |
| ٤ (تفسير ابن كثير ٦٦/٢ . | ٩ (الغضابن ١٥/ ، ١٦ . |
| ٥ (المارج ٢٠/ . | ١٠ (تفسير ابن كثير ٢٢٩/٤ . |

ويخرج أضغانكم ، ها انتم هؤلاء تدعون لتنتفخوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (١) .

وقد كشفت هذه الآيات عن سبب البخل وتاصل الشح في النفس الانسانية ورغبت وأرهبت ، ووصفت الداء والدواء ، وهى بهذا أجمع آية في الحديث عن البخل في كتاب الله . . فبدات ببيان حقيقة الدنيا وأنها (لعب ولهو) حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى وهذا الذى تشير إليه الفقرة التالية (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) .

فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذى يخرجها عن أن تكون لعبا ولهوا ويطيحها بطابع الجد ، ويرفعها إلى مستوى الخلافة الراضدة المتصلة بالسللا الأعلى ويومئذ لا يكون ما يبذله المؤمن التقى مقطوعا ولا ضائعا ، فقد جعل حياته الفانية مزرعة لآخرته الباقية . . ومع هذا فالله لطيف بعباده لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها بل يسألهم أن يبذلوا منها شيئا قليلا لإعلاء كلمته ، لأنه يعلم لو طلب أن يبذلوها كلها لبخلوا وشق عليهم ذلك (إن يسألكموها فيحلفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) « فيحلفكم » أى يجهدكم فى السؤال من أحفى شاربه ، بالغ فى قصه واحفاه فى المسألة بمعنى الشح عليه (٢) .

والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شىء ، وقوله (تبخلوا ويخرج أضغانكم) أى تضرعوا على رسول الله وتضيق صدوركم لذلك وتظهرون كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم ، والبخل هو سبب هذا الاضطغان (٣) . والآية تكشف عن طبيعة النفس البشرية ، وحبها الشديد للمال حبا يسيطر على قواها ونزعاتها جميعا . ولهذا فالحكيم الخبير بخبايا النفوس لا يطلب منهم أن ينفقوا فى سبيل الدفاع عن دينه إلا قدرا ضئيلا ، حتى لا ينكشف ما طبعوا عليه من الشح والبخل (وحتى لا يظهر ما حرصوا على إخفائه من أضغان واحقاد ونزعات شريرة) (٤) .

والآية بهذا تقرير لواقعية الإنسان فى عاله هذا ، وهو أسلوب فى التربية حكيم يمهّد لما بعده .

(ويخرج أضغانكم) قال قتادة : قد علم الله تعالى أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان . وصدق قتادة فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) . وأكثر المفسرين على أن (عن) هنا حلت محل (على) ، على معنى أن من يبخل فضرره عائد على نفسه وقليل منهم تنبه إلى دقيقة من دقائق القرآن الكريم فأقروا (عن) على معناها ، والمراد — كما فهم هذا القليل — أن من بخل فإنما بخله عن داعى نفسه ، لا عن داعى ربه ، فلماذا خص البخل بهذا ؟ لعل السرفى ذلك هو الإشارة إلى أن الشح راسخ فى النفس فيصدر عنه البخل ، ومن هنا تلح التفرقة بين الشح والبخل ، فالبخل المنع ، والشح هو المعنى النفسى الذى يصدر عنه المنع

٤ (دراسات فى التفسير د. مصطفى زيد /

١ (محمد / ٣٦ - ٢٨ .

٢ (الصباح المنير / ١٩٦ .

٣ (الكشاف / ٥٣٩/٣ .

وهذا ما رآه بعض اصحاب الدقائق (١) . .

وعلى أية حال فالبخل مذموم قبيح سواء اكان عائدا على النفس ، او صادرا عن داعى النفس (والله الغنى وانتم الفقراء) فهذا توبيخ ولوم شديد ، نفيم البخل ونفيم الشح إذن (٢) : ٤٠٠ . .

وكل ما فى ايديكم ، وكل ما ينالكم من اجر على ما تنفقون هو من عند الله ، ومن فضله فهذه حقيقة كبرى يوجه الله سبحانه عباده إليها ، حين اعباءهم الحرص والشح عنها . ثم ينذرهم انذارا ويهددهم تهديدا بهذه الكلمة الأخيرة التى هى فصل الخطاب « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم . . » وإنه لإنذار رهيب على النفس التى ذاقت حلاوة الإيمان فالمال زهيد حين يقاس بالايمان ، ورضا الله عز وجل .

وبهذا تأكد لنا ان حب المال والتمسك به والحرص عليه امر فطرى فى النفس الانسانية وقد قرر القرآن هذه الحقيقة كما رأينا ، ولم يقف منها موقف الإنكار ، بل وقف موقفه من كل الشهوات المحببة الى نفوس العباد ، فاعترف بها وقررها كأمر واقعى ، ثم سلك منهاجا تربويا حكيما لنقل النفس الانسانية من هذه الواقعية الانانية الأثرة الى الجماعية الخيرة .
فأخذ سبحانه النفس بطريقى الترغيب والترهيب ، وهو وحده العليم بوسائل علاجها وتطهيرها من أدرانها .

١ (تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٢) .

٢ (القرآن والطبائع النفسية / ٢٠٠) .

اولا الترغيب :-

بعد ان قررت النصوص القرآنية ان الشح حاسر في الأنفس ، وان الإنسان لربه لكنود وانه على حب الخير لشديد ، لم ينكر الله على النفس هذا الواقع باعتبار انه امر فطرى ، ولكنه في الوقت نفسه لم يقر النفس على البقاء عند هذه الدرجة الدنيا من مراتب النفس على أساس انها جزء من واقعها ، بل اعتبر هذا التقرير الخطوة الأولى من خطوات العلاج التربوى الربانى الحكيم للارتفاع بهذه النفوس الى اسنى مراتب الكمال الانسانى ، وحتى تكون جديرة بتحمل تبعات خلافة الله فى الأرض .

فمن هنا اخذت النصوص القرآنية تهتف بالنفس البشرية هتافات متنوعة تستجيشها وتشجعها ، وتحذرها ، وتطمئنها ، كل ذلك فى آن واحد على طريقة رب النفوس فى علاجها .

فللنفس مخاوف كثيرة تمنعها من الانساق فى سبيل الله ، سلطت النصوص القرآنية على هذه المخاوف الأضواء الكاشفة ، ولستها لمسا لينا لطيفا ، ثم استلتها وطهرت النفس منها وعندها أصبحت النفس خيرة سخية تبذل المال عن محبة ورضا وإخلاص بل واندفاع .

وهذه هى طريقة القرآن فى تحرير النفس من الشعور بالخوف على الرزق مثلا ، فقد أكد سبحانه للنفس فى أكثر من مائة وخمس وعشرين آية أنه هو الرزاق ، وانه هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقبضه من يشاء ، وأن الرزق مكفول لخلق الله جميعا ولأن رزقه ماله من نفاذ ، وانه من يتق الله يرزقه من حيث لا يحتسب . الخ (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) (١) .
(له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) (٢) .
فالبسط والقبض بيده وحده ، لانه هو الرزاق (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (٣) . بل هو خير الرازقين .

(قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) (٤) .
(وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) (٥) ، والرزق مكفول لكل مخلوقاته (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) (٦) . (وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وأياكم) (٧) . ورزقه موفور ولا ينفد (إن هذا لرزقنا ما له من نفاذ) (٧) . فالرزق بيد الله ، والمال ماله لم يكتسبه الإنسان بمهارته بل بإرادة الله وحكمته فلم الشح والبخل ؟ (كلوا واشربوا من رزق الله) (٩) . (أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا) (١٠) . (أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوائى عتو ونفور) (١١) . (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله) (١٢) . (وفى السماء رزقكم وما توعدون) (١٣) .

- | | |
|---|----------------------|
| ١ (الرعد / ٢٦ . | ٧ (العنكبوت / ٦٠ . |
| ٢ (الشورى / ١٢ / والاسراء / ٣٠ / والعنكبوت | ٨ (ص / ٥٤ . |
| ٣ (الذاريات / ٥٨ . | ٩ (البقرة / ٦٠ . |
| ٤ (الجمعة / ١١ . | ١٠ (القصص / ٥٧ . |
| ٥ (سبأ / ٢٩ . | ١١ (الملك / ٢١ . |
| ٦ (هود / ٦ . | ١٢ (سبأ / ٢٤ . |
| | ١٣ (الذاريات / ٢٢ . |

ومن هنا يحدد الله وظيفة الانسان فى هذه الأرض ويبين الغاية التى خلق من أجلها : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (١) .

ويطمئن نفوس المتقين بما أعده لهم من الرزق الحسن (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) (٢) . (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا) (٣) .

والله يطلب من الناس أن ينفقوا من مال الله الذى آتاهم (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) (٤) .

وبمثل هذا الأسلوب النظيف يتوجه الله إلى عباده بالإنفاق فى سبيله (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سريرا وعلانية) (٥) .

وتفوص النصوص إلى أعماق النفس لتصف الداء والدواء ، فتقرر أن خوف الفقر إنما هو إحياء من الشيطان ليضعف ثقة الإنسان بالله (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) (٦) . (وإن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) (٧) .

« ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » (٨) . « وإن ختم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » (٩) .

وهل يجوز للنفس بعد هذه التقريرات وهذه الوعود الالهية الكريمة أن تخاف الفقر ، وأن تذلل فى طلب الرزق . والله يعدها الفضل والسعة ؟

وبمثل هذه الاساليب يحرر الله النفس من عبودية الخوف على الرزق .

ولكن هذه النفس التى تحررت من ذل الاسترزاق قد تتأثر بالقيم الاجتماعية ، تقيم المال والجاه وغيرها :

وهنا يعمد القرآن الكريم الى اضعاف تأثير تلك القيم المادية الزائفة وينزع آثارها من النفس ، ويردها الى القيم الحقيقية الكامنة فيها حتى تتحرر فى النهاية تحررا وجدانيا كاملا .

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (١٠) فالله لا ينكر على النفس ما تراه وما تحسه من متعة الأموال والأولاد . ولكن هذه (مجرد متعة وزينة) وليست قيمة حقيقية جوهرية فيأخذ النفس وينقلها إلى النافع الدائم إلى القيمة الحقيقية « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » (١١) . وقوله تعالى « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » هذه هى جميع متشبهيات النفس التى تطمع فى الحصول عليها ، ولكنها جميعا ليست قيمة حقيقية فيقرر الله ذلك بقوله (ذلك متاع الدنيا) مجرد متاع عابر ولذة فانية لا تدوم لأحد .

- | | |
|--------------------------|---------------------|
| ١ (الذاريات / ٥٦ - ٥٨ . | ٦ (البقرة / ٢٦٨ . |
| ٢ (الطلاق / ٣ . | ٧ (النور / ٣٢ . |
| ٣ (الحج / ٥٨ . | ٨ (الأنعام / ١٥١ . |
| ٤ (النساء / ٣٩ . | ٩ (التوبة / ٢٨ . |
| ٥ (ابراهيم / ٣١ . | ١٠ (الكهف / ٤٦ . |
| | ١١ (الكهف / ٤٦ . |

فيرد النفس إلى الدائم الخالد « والله عنده حسن المآب » (١) .
وقد أكثر الله من وصف هذا المتاع بأنه ليس متاع الحقيقة بل متاع زائف يخدع النفس فيبعدها عن السعادة والخير « وما الحياة الدنيا إلا متاع الفسور » (٢) .

الحياة الدنيا كلها متاع زائف لا يستحق التكالب عليه . (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » (٣) . فليست هذه هي القيمة الحقيقية التي يفرح بها عباد الله بل القيمة الحققة هي ما ردهم الله إليه « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عند الله زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون » (٤) . فالله سبحانه لا يقض من قيمة المال والابناء ولكنه لا يعتبرهما قيما حقيقية تحط وترفع وتعز وتذل ، فالقيمة الحققة عنده للاميان والعمل الصالح ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . وقد ضرب الله تعالى الامثال للقيم المادية والقيم المعنوية ، ومنها قصة اصحاب الجنّتين التي ذكرها فى سورة الكهف (٥) وفى قصة قارون (٦) عرض صورتين نفسيّتين بازاء فتنّة المال والثراء : صورة النفوس الضعيفة التي ازدهتها ثروة قارون ، وصورة النفوس المؤمنة التي اعترت بايمانها ولم تضعف امام هذا الثراء الواسع (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما اوتى قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ١ . ثم يختم القصة بقوله (والعاقبة للمتقين) .

وبمثل هذه الأساليب المتنوعة حرر الله النفس الانسانية من التائر بالقيم المادية فباع المؤمنون دنياهم بأخراهم ، واشتروا باقيا بغان ، وسارعوا فى البذل بسخاء لأنهم يرجون ثواب الله ولا يخشون من ذى العرش إقتالا . فالاسلام لا يقفل التحرر الكامل للوجدان ويسلك إلى هذه الغاية شتى السبل ومن بينها التحذير الإيحائى من فتنّة الأموال والاولاد « واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنّة ، وأن الله عنده أجر عظيم » (٧) . « ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله » (٨) . ولا يقولوا كما قال المنافقون « شغلنا أموالنا وأهلونا » (٩) . فالله يطلب من المؤمنين أن يحذروا الاندفاع وراء فتنّة الأموال والاولاد وأن يقاوموا رغبتهم للمال وأن يحددوا حبهم للولد ، حتى لا يقعد بهم حب المال والولد عن طاعة الله ولينظر المؤمن ثواب الله وأجره العظيم الذى لا يعدله مال مهما بلغ ، ولا ولد مهما عز ونفع ، وليختر الباقى على الفانى . فلن يغنى المال والولد من الله شيئا « لن تغنى عنهم أموالهم ولا اولادهم من الله شيئا » (١٠) .

ثم يتدرج الأسلوب الحكيم مع النفس شيئا فشيئا ، فبعد أن استل منها جميع المخاوف ، يأخذ فى توطين المؤمن على الابتلاء والاختبار فى بـذل المال والنفس حتى لا تجزع وتتخس إذا ما قوبلت بالشدّة لأول مرة . فيقول تعالى

- ٦ (القصص / ٧٦ - ٨٣)
- ٧ (الأنفال / ٢٨)
- ٨ (المنافقون / ٩)
- ٩ (الفتح / ١١)
- ١٠ (المجادلة / ١٧)

- ١ (آل عمران / ١٤)
- ٢ (آل عمران / ١٨٥)
- ٣ (سبأ / ٣٥)
- ٤ (سبأ / ٣٧)
- ٥ (الكهف / ٣٢ - ٤٣)

وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (١) .

روى عن ابن عباس أنهم قالوا : لو نعلم أحب الأعمال الى الله لعملناه . فزلت هذه الآية فمكثوا ما شاء الله يقولون : ليتنا نعلم ما هي فدلهم الله عليها بقوله تؤمنون - وهذا على أن تؤمنون كلام مستأنف ، وعلى أن الأمر الوارد على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها . (ذلكم) يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد خير لكم من أموالكم وأنفسكم (ان كنتم تعلمون) لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتخلصون وتفلحون . . ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة اليكم ، هي الفتح الكثيرة (٢) .

وذلك في قوله تعالى « يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » (٣) .

وهذا كله من ربح تلك التجارة العظيمة التي لا تبور ، فيقول للمؤمنين إن فعلتم ما أمرتم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات وادخلتكم الجنات والمسكن الطيبات والدرجات العالية . (وأخرى تحبونها) وازيدكم على ذلك زيادة تحبونها وهي (نصر من الله وفتح قريب) فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة (٤) ، وقال في سورة التوبة « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (٥) .

فالجهاد بالمال والنفس خير من الدنيا ومن فيها . وقد أكثر الله سبحانه من ضرب الأمثال للنفقة في سبيله ومضاعفتها اضعافا مضاعفة « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٦) .

قال الشوكاني (٧) : اقتضت هذه الآية بأن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف . وقال الألوسي (٨) : (إن المراد الإنفاق في الجهاد لأنه هو الذي يضاعف هذه الأضعاف أما الإنفاق في غيره فلا يضاعف كذلك وإنما تجزى الحسنة بعشرة أمثالها .)

وقيل إن المقصود من الآية إن الإنسان إذا علم أنه إذا بذر حبة أخرجت له ما ذكر فلا ينبغي له التقتير في ذلك . فلكذلك ينبغي لطالب الأجر أن لا يترك الإنفاق إذا علم أنه يحصل له بالواحدة سبعمائة » (٩) .

- | | |
|--------------------------------|--|
| ١ (الصف / ١٠ ، ١١ . | ٦ (البقرة / ٢٦١ - ٢٦٢ . |
| ٢ (الكشاف / ٤ ، ١٠٠ . | ٧ (فتح القدير / ١ ، ٢٥٤ . |
| ٣ (الصف / ١٢ ، ١٣ . | ٨ (روح المعاني / ٣ ، ٣٢ وانظر مجمع البيان للطبرسي / ٣ ، ٢٩٦ . |
| ٤ (تفسير ابن كثير / ٤ ، ٣٦١ . | ٩ (تفسير الخازن / ١ ، ٢١٨ . |
| ٥ (التوبة / ٤١ . | |

وكذا قال ابن كثير : هذا مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنه تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

وقال مكحول يعنى به فى الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك وهذا المثل ابلغ فى النفوس من نكر عدد السبعمائة)

أما القرطبي (١) : فيرى أن الحسنه تضاعف أكثر من سبعمائة ضعف لقوله تعالى (والله يضاعف لمن يشاء) . فهذا زيادة على السبعمائة .. وقد أخرج مسلم فى صحيحه عن الرسول صلى الله عليه وسلم (أن رجلا جاء بناقة مخطومة فقال : هذه فى سبيل الله ، فقال رسول الله : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة (٢)) .

ويعنى رسول الله بسبيل الله (الجهاد) كما يوضحه حديث ابن ماجه (من أرسل بنفقة فى سبيل الله ، وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجه الله ، فله فى كل درهم سبعمائة ألف درهم ثم تلا هذه الآية (والله يضاعف لمن يشاء) (٣)) وهذا ما اعتمد عليه القرطبي فى تأييد رأيه .

فلا ينبغي لمؤمن أن يبخل بدينار ولا درهم فى سبيل الله بعد ما سمع من مضاعفة ثوابه الى هذه الاضعاف ، وأن هذا الأجر لا يكون إلا فى نفقة الجهاد : لأهمية الجهاد بالمال وخطورة الإمساك والشح .

ولكن أى الانفاق هذا الذى يربو وينمو ؟ وأى عطاء هذا الذى يضاعفه الله فى الدنيا والآخرة كل هذه الأضعاف ؟ إنه الانفاق الذى ينبعث عن أريحية ونقاء ، ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٤)) . فالؤمن لا ينفق إلا ابتغاء وجه الله لا صادرا عن هوى ولا مستهدفا غرضا من أغراض الدنيا . فهو لا ينفق ماله شطرا ولا بطرا ولا رياء الناس .

ولقد ضرب الله مثلا للمؤمنين الذين ينفقون أموالهم خالصة لوجه الله وابتغاء مرضاه (مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) (٥) .

وهذا مثل المؤمن المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء (٦) .

أما الزمخشري (٧) فقد فسّر قوله تعالى (وتثبيتا من أنفسكم) أى ليثبتوا منها ببذل المال الذى هو شقيق الروح وبذله أشق شىء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان ، لأن النفس اذا رضيت بالتعامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ظلت خاضعة لصاحبها وقتل طمعها فى اتباع الشهوات وبالعكس فكان انفاق المال تثبيتا على الإيمان واليقين ، فإذا بذل صاحب المال ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذى ثبتها كلها

- ١ (تفسير القرطبي ٢/٣٥٠ .
٢ (صحيح مسلم ٤١/٦) والكنزى ١٠/٦ .
٣ (سنن ابن ماجه ٢/٩٢٢ .
٤ (البقرة ٢٦٥/٥ .
٥ (تفسير ابن كثير ١/٣١٨ .
٦ (الكشف ١/٣٩٤ .
٧ (البقرة ٢٧٢/٤ .

« لتبلون فى أموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذى أشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » (١) .
 قال الرازى (٢) : اختلفوا فى معنى الابتلاء فقال بعضهم : المراد ما ينالهم من الشدة والفقر وما ينالهم من القتل والجرح والهزيمة من جهة الكفار ، ومن حيث الزموا الصبر والجهاد ، وقال الحسن : المراد به التكليف الشديدة المتعلقة بالبدن والمال « وقال ابن جرير (٣) : (لتخبرن بالمصائب فى أموالكم وانفسكم) .

وقال الزمخشري (٤) : خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا انفسهم على احتمال ما سيلقونه من الأذى والشدائد والصبر عليها إذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من يصيبه الشدة بفتة فينكرها وتشمئز منها نفسه « .
 ومن الابتلاء المدافعة عن الحق سواء اكان بالمال او بالنفس ، فهو يوطن نفوسهم على الأخذ بالاحتياط فى الأمور العامة والاستعانة عليها بالمال وتحمل المكارة ، ويحذرهم من الشره والطمع فى المال . وذكر المال أولا لأنه الوسيلة التى يكون بها الاستعداد لبذل النفس ، فبذل المال يحتاج إليه قبل بذل النفس (٥) .

ومن هنا تأخذ الآيات فى ترغيب النفوس المؤمنة — التى تحررت من كل المخاوف والمعوقات فى البذل بسخاء لإعداد وسائل الدفاع والقوة التى ترهب الإعداء .

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وانتم لا تظلمون » (٦) .

فربطت الآية بين الإنفاق وإعداد القوة ربطا وثيقا .
 وقد رغب الله فى بذل المال والنفس فى سبيل إعلاء دينه بأن جعل ما يقدمه المؤمنون من مال ونفس صفقة تجارية بينهم وبين الله ، الله سبحانه هو المشتري والمؤمن هو البائع . والثمن هو الجنة .
 « إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (٧) .

قال الزمخشري (٨) : لا ترى ترغيبا فى الجهاد أحسن منه وأبلغ . ومر اعرابى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها فقال : كلام من ؟ قال : كلام الله قال : بيع مريح لا ثقله ولا نستقبله ، فخرج إلى الغزو فاستشهد .
 وقال : مثل الله أثابتهم بالجنة على بذلهم انفسهم وأموالهم فى سبيله بالشورى وروى تاجرهم فأغلى لهم الثمن . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجعل لهم الصفقتين جميعا . وعن الحسن : انفسنا : انفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقها « .

٥ (تفسير المنار ٢٧٢/٤ .
 ٦ (الاتفال /٦٠ .
 ٧ (التوبة / ١١١ .
 ٨ (الكشاف ٢١٦/٢ .

١ (آل عمران / ١٨٦ .
 ٢ (التفسير الكبير ١٢٧/٩ .
 ٣ (تفسير الطبرى ٢٠٠/٤ .
 ٤ (الكشاف ٤٨٦/١ .

(وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) . وقال الألويسي (١) : والمراد تشبيه نفقة هؤلاء في الزكاة بهذه الجنة ، واعتبر كونها في ربوة لأن أشجار الرى تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا للطفة هوائها .. أما قوله تعالى (والله بما تعملون بصير) فإنه سيجازى كلا من المخلص والمرائى بما هو أعلم به فى الجملة ترغيب للأول ، وترهيب للثانى مع ما فيها من الإشارة إلى الحط على الأخير حيث قصد بعمله رؤية من لا تغنى رؤيته شيئا وترك وجه البصير الحقيقى الذى تغنى رؤيته وتفقر عز شأنه) ..

ومن هنا نقد أبطل الله سبحانه كل النفقات التى لا تبذل فى غير وجهه وابتغاء مرضاته كنفقة المرائى مثلا . وقد ضرب الله لها مثلا فى سورة البقرة (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين (٢) . هذا مثل للمرائى الذى لا يريد بانفاقه رضاء الله ولا ثواب الآخرة ..

قال البيضاوى (٣) (كالذى ينفق ماله رياء الناس) كإبطال نفقة الذى يرائى بانفاقه ولا يريد به رضا الله تعالى ولا ثواب الآخرة . وقوله (والله لا يهدى القوم الكافرين) إلى الخير والرشاد وفيه تعريض لأن الرياء والمن والأذى على الانفاق من صفات الكفار ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها .

وضرب الله سبحانه مثلا آخر رغب فيه بالانفاق فى سبيله دون من ولا رياء حتى لا يحبطه الله (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٤) .

قال الحسن رضى الله عنه (٥) : هذا مثل قل والله من يعقله من الناس ، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا . وقال الزمخشري : « وهذا مثل من يعمل الأعمال الحسنة ولا يتغنى بها وجه الله ، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة فيتحسر عند ذلك .

وقال الألويسي (٦) : هذا تمثيل لحال من ينفق ويضم إلى إنفاقه ما يحبطه من الحسرة والأسف حتى إذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إلى ذلك وجده هباء منثورا « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » أى لعلكم تعملون أفكاركم فيما يغنى ويضحمل من الدنيا وفيما هو باق لكم فى الأخرى فتذهبون فى الدنيا وتنفقون مما آتاكم الله منها وترغبون فى الآخرة ولا تفعلون ما يحزنكم فيها » . وقد رغب الله المؤمنين فى الانفاق بما أعده لهم عنده يوم القيامة من الأجر العظيم « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٧) .

قال ابن كثير (٨) : هذا مدح منه تعالى للمنفقين فى سبيله بالليل والنهار سرا وعلانية فى جميع الأوقات وقيل إنها نزلت فى الذين يعلفون الخيل فى سبيل الله ..

- | | |
|------------------------------|-------------------------------|
| ١ (روح المعانى ٣/ ٢٢) . | ٥ (الكشاف ١/ ٣٩٥) . |
| ٢ (البقرة / ٢٦٤) . | ٦ (روح المعانى ٣/ ٢٤) . |
| ٣ (أنوار التنزيل ١/ ١٢٠) . | ٧ (البقرة / ٢٧٤) . |
| ٤ (البقرة / ٢٦٦) . | ٨ (تفسير ابن كثير ١/ ٢٢٦) . |

وكلمة (عند الله) فيها من التشريف والترغيب للمنفقين ما يستجيش شعورهم ويحضهم على البذل بسخاء في سبيل الله الذي سيجدون عنده الثواب الجزيل ..

وكل نفقة صغيرة كانت أم كبيرة تزيد في حسنات المنفقين وترفع درجاتهم وتعلو شأنهم عند الله يوم القيامة : « وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه » (١) .

« ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (٢) . « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » (٣) . « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » (٤) .

وقد جعل الله سبحانه انفاق المال في سبيله صفة أساسية للمؤمنين ترغيبا لهم في الانفاق : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (٥) . « والذين ينفقون أموالهم في السراء والضراء والكاظمين الفیظ » (٦) . « ويدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » (٧) . « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » (٨) .

وقد بلغت آيات سورة الحديد القمة في ترغيب المؤمنين في الإنفاق في سبيل الله « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وان الله بكم لرعوف رحيم . وما لكم الا تنفقوا في سبيل الله ، ولله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير . من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم » (٩) .

إن منهج القرآن وأسلوبه التربوي الحكيم لجدير بالوقوف أمامه طويلاً لتدبره ..

ففى الإيقاعات الأولى فى مطلع هذه السورة والى ينتهى المقطع الأول منها فى قوله تعالى « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . وهو عليم بذات الصدور » . فى هذا المقطع قوة وتوال وعمق وتأثير يزلزل القلوب الجسامدة زلزالاً ويهزها هزاً عنيفاً ويدعها مرهفة الحساسية ، مستعدة لتقبل جميع الأوامر الإلهية والعمل بها . ولكن القرآن لا يكل قلوب المؤمنين الى هذه الإيقاعات الأولى ، بل يدعوهم إلى الإيمان والبذل فى الفقرة الثانية « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين » .

اليس المخاطبون مؤمنين ؟ فكيف يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله ؟ إنهم يدعون إلى تحقيق حقيقة الإيمان فى قلوبهم بمعناها الصحيح ، وهذه لفظة من اللغات الدقيقة التى تربط بين الإيمان والإنفاق فى سبيل الله .

- | | |
|-----------------------------------|--|
| ١ (البقرة / ٢٧٠ . | ٦ (آل عمران / ١٢٤ . |
| ٢ (التوبة / ١٢١ . | ٧ (الأنفال / ٣ والسجدة / ٦ وآل عمران / ١٧ . |
| ٣ (الأنفال / ٦٠ . | ٨ (ابراهيم / ٣١ . |
| ٤ (البقرة / ٢٧٢ وآل عمران / ٩٢ . | ٩ (الحديد / ٧ - ١١ . |
| ٥ (البقرة / ٣ . | |

ولمسة أخرى يلمس الله بها تلك القلوب المرهفة الشفافة ان ينفقوا مما جعلهم مستخلفين فيه لا من عند أنفسهم . مما يثير الخجل والحياء من الله في نفوسهم فما يسكنهم عن البذل والعطاء والمال الذي في أيديهم هو مال الله جعله أمانة عندهم ، وخلفاء فيه قال الزمخشري (١) : « مستخلفين فيه » يعنى الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها ، وإنما مولكم إياها وخولكم الاستمئاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها ، فليس هي أموالكم في الحقيقة فانفقوا منها في حقوق الله وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيها في أيديكم بتوريثه إياكم ، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى من بعدكم فلا تبخلوا به وأنفقوا بالإنفاق منه أنفسكم .
 ويزيد في تخجيلهم وترغيبهم بمؤثر جديد « فأما الذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

قال ابن كثير (٢) : « هذا ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة » .
 ثم ينقلهم من موجبات الإيمان بالله ورسوله إلى موجبات الإنفاق : « وما لكم الا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض » .
 قال الزمخشري (٣) : هذا من ابلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله — وأى عذر لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والله مهلككم فوارث أموالكم » .
 ثم في مرحلة أخرى من مراحل استجاشة القلوب للبذل بسخاء في سبيل الله قوله : « من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً » . وهذا مثل قوله تعالى في سورة التغابن . « أن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلِيم » (٤) .

قال أبو السعود (٥) : « من ذا الذي يقرض الله . . » نذب بليغ من الله تعالى إلى الانفاق في سبيله بعد الأمر به والتوبيخ على تركه وبيان درجات المنفقين أى من ذا الذى ينفق ماله في سبيل الله تعالى رجاء أن يعوضه فإنه كمن يقرضه « وله أجر كريم » أى ذلك الأجر المضموم إلى الأضعاف كريم في نفسه حقيق أن يتنافس فيه المتنافسون وإن لم يضاعف فكيف وقد ضعف أضعافاً كثيرة » .

وقال الأستاذ الإمام (٦) : التعبير عن الإنفاق بالإقراض الذى يُشعر بحاجة المستقرض إلى المقرض عادة جدير بأن يملك قلب المؤمن ويحيط بشعوره ويستغرق وجدانه حتى يسهل عليه الخروج عن كل ما يملك ابتغاء مرضاة الله وحياة منه ، وكيف وقد وعده برده أضعافاً مضاعفة ووعده الحق ؟ » .
 وهذا التعبير إيقاظ قوى لقلوب المؤمنين ، أ يكون مثل هذا اللطف من الله بعبده الذى غمره بنعمته وفضله على كثير من خلقه ثم يجمد قلبه وتنقبض يده ولا يستحى من ربه ولا يثق بوعده ، ويقال مع هذا انه مؤمن به . . ؟

ويقول الشيخ رشيد رضا (٧) : القتال للدفاع عن الحق أو لحماية الحقيقة يتوقف على بذل المال لتجهيز المقاتلة وغير ذلك ، ولذا قرن الله تعالى الأمر بالقتال ، بالحث على بذل المال فالمراد بالبذل هنا ما يعين على القتال ، وقد ذكر

٥ (تفسير ابن السعود ١٣٦/٥ .

٦ (تفسير المنار ٤٦١/٢ .

٧ (تفسير المنار ٤٦٢/٢ .

١ (الكشاف ٦١/٤ .

٢ (تفسير ابن كثير ٣٠٤/٤ .

٣ (الكشاف ٦٢/٤ .

٤ (التغابن ١٧/ .

حكم هذا الانفاق في سبيل الله بعبارة تستفز النفوس ، وأسلوب يحفز المهم وييسط الألف بالكرم وهذه العبارة أبلغ من الأمر المجرد ، ومن الأمر المقرون ببيان الحكمة ، والتنبيه على الفائدة وقد بالغ سبحانه في الترغيب وحسبه أنه جعل هذا البذل بمثابة الإقراض له وهو الغنى عن العالمين ، وإنما يقتضى المحتاج ، وأنه عتبر عن طلبه هذا بضرب من الاستفهام المستعمل للإكبار والاستعظام ، فإنه يقال من ذا الذي يفعل كذا ؟ في الأمر الذي يندر أن يقدر عليه أحد « من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه » . « وقل من ذا الذي يعصمكم من الله » وأنه لم يكتف بتسميته إقراضاً ، وبالتعبير عنه بهذا الاستفهام حتى قال « فيضاعفه الله أضعافاً كثيرة » زيادة في الترغيب .

وقال النيسابوري (١) : لا يجوز أن يكون (من) و (ذا) بمنزلة اسم واحد كما كانت ماذا لأن (ما) أشد إبهاماً من (من) إذا كانت (من) لمن يعقل ، وقد بنى الكلام على طريقة الاستفهام ، لأن ذلك أدخل في الترغيب على الفعل من ظاهر الأمر .

وروى ابن كثير في تفسيره (٢) : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الانصاري يا رسول الله « وان الله ليريد منا القرض ؟ » قال : « نعم .. يا أبا الدحداح » . قال : أرني يدك يا رسول الله ؟ قال : فناوله يده ، قال : أقرضت ربي حائطي وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح وعيالها فيه ، فجاء أبو الدحداح فنادها : يا أم الدحداح قالت : لبيك ، قال : أخرجني وقد أقرضته ربي عز وجل ، فقالت : ربع البيع يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وأن رسول الله قال : « كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح (وفي لفظ) رب نخلة مدلاة عروقتها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة » ..

وهكذا أثرت دعوة الله المؤمنين إلى الانفاق وآتت أكلها طيباً . ولا يكتف السياق بما وصل إليه من نتائج بل يتابع ضرباته على أوتار تلك القلوب حتى يصل بها إلى الذروة السامقة : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون . إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » (٣) .

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم ، واستبطاء للاستجاشة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ، عتاب فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله والخشوع لذكره .

عن ابن عباس رضي الله عنه (٤) قال : « إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاثة عشرة سنة من نزول القرآن » . ؟ وعن أبي بكر رضي الله عنه : « إن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاء شديداً ، فنظر إليهم وقال : هكذا كنا حتى تست القلوب » (٥) .

وقوله تعالى « واعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها » قيل هذا تمثيل لأثر

٤ (تفسير ابن كثير ٣١٠/٤)

٥ (الكشاف ٦٤/٤)

١ (غرائب القرآن ٣٠٥/٢)

٢ (تفسير ابن كثير ٣٠٧/٤)

٣ (التوحيد ١٥/ ١٨ - ١٨)

الذكر فى القلوب وأنه يحييها كما يحيى الغيث الأرض .
 ويتبع هذه اللمسة المحيية ، وذلك العتاب الرقيق ، بحافز جديد للبذل بصدق
 نية ولوجه الله تعالى « إن المصدقين والمصدقات يقرضوا الله قرضاً حسناً » .
 وآية منزلة هذه التى رفع الله بها المنفقين أموالهم فى سبيل الله ؟ إن
 مولاهم الكريم وضعهم فى منزلة الصديقين والشهداء والأنبياء وحسن أولئك
 رفيقاً .

وأخيراً بعد هذه الجولة القوية فى أعماق القلوب ، يهتف الله بالمؤمنين
 ليتسابقوا إلى جنة عرضها كعرض السموات والأرض ، أعدّها للمنفقين فى
 سبيله ..

« سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السموات والأرض
 أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
 العظيم » .
 وهكذا ، تبلغ آيات الترغيب القمة فى تحريك القلوب ودفن النفوس بأن
 تجود بكل ما تملك فى سبيل الله .

ثانياً : الترهيب :

وهنا يأخذ الخبير بخبايا النفوس وخفاياها ، العالم بأمراضها وعلاجها —
 يحض نفوس المسلمين على الجهاد بالمال عن طريق الترهيب بعد أن أخذهم فيه
 بطريق الترغيب ، فالنفوس التى لا تصلح بالرغبة لا ينفعها إلا الرهبة والخوف
 الذى يقطع نياط القلوب .

وآيات الترهيب كثيرة ومتنوعة ومبكرة فى النزول . ففى أول سورة نزلت
 فى القرآن الكريم ردع شديد لمن كفر بنعمة الله فطغى حين كثر ماله ، وإنذار
 عنيف بأن ماله هو وماله إلى الله وسيحاسبه عليه حساباً عسيراً . (كلا إن
 الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى (١)) .
 قال ابن كثير (٢) : يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأثر وبطر وطغيان
 إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده وتوعده ووعظه (إن لربك
 الرجعى) . أى إلى الله المصير والمرجع وسيحاسبك على مالك من أين جمعته
 وفيما صرفته ..

وفى سورة (نون) السورة التالية لها : ذكر الله تعالى أن المال هو الذى
 سبب لصاحبه الأحق الكفر والطغيان وسوء الخلق (ولا تطع كل حلاف مهين ،
 هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال
 وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم (٣)) .
 فالموصوف فى هذه الآيات جامع للصفات الرذيلة ، مستحوذ عليها .
 فقد وصفه بالبخل الشديد فى قوله (مناع للخير) . وفى هذا إشارة بالغة
 إلى تنبيه العقول والأفهام أن البخل مذموم عند الله غاية الذم من أول عهد
 المسلمين بالإسلام . وفى سورة (الهزرة) ورد قوله تعالى : (ويل لكل همزة لمزة ،
 الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخذه ، كلا لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك
 ما الحطمة نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأمثدة ، إنها عليهم مؤصدة فى عمد
 ممددة) .

٣ (القلم ٧/ - ١٤)

٤ (الهزرة ١/ - ٩)

١ (الملق ٦/ - ٨)

٢ (تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٨)

هذه سورة كاملة تحمل من بدايتها حملة عنيفة تتشعر لهولها الأبدان — على الذى جعل المال إليها يعبد فآلهاء جميعه وتكديسه عن الإيمان بالله وذكره . (كلا) ردع شديد (لينبذن فى الحطمة) أى ليلقين هو وماله فى نار تحطم عظامه وتلتهم كل ما يلقي فيها ثم يكرر التهديد والوعيد بتلك النار (وما أدراك ما الحطمة) ؟ إنها (نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة) حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم !! وهى أواسط قلوبهم والتى لا شئ فى بدن الإنسان الطف من الفؤاد ولا أشد تألماً منه بأذى يسسه ، فكيف إذا أطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه ..

ويا ليت الأمر يقف عند هذا ، ولكنها (عليهم مؤصدة فى عمد ممددة) إنه العذاب المقيم الذى لا أمل فى الخروج منه ، والله يؤكد بأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد فتؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب عمد الحديد استيثاقاً فى استيثاق (١) . . فأى وعيد وأى تهديد أكثر من هذا .

وفى سورة (البلد) تخويف من جهنم وأنه لا سبيل إلى النجاة منها إلا بانفاق المال فى سبيل الله (فلا اقتحم العقبة) ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا مقربة (٢) .

وفى سورة (التكاثر) وعيد بعد وعيد يزلزل الجبال الراسيات لمن الهامم التكاثر عن طلب الآخرة وثوابها (الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم (٣) .

(كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون) . قال الحسن البصرى : هذا وعيد بعد وعيد (٤) .

وقال الزمخشري (٥) : (كلا) ردع وتنبية (سوف تعلمون) إنذار ليخافوا ويتنبهوا من غفلتهم والتكرير تأكيد للردع والإنذار عليهم (ثم) دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول وأشد كما تقول للمنصوح أقول لك ثم أقول لك لا تفعل ، ثم كرر التنبية أيضاً وقال : (لو تعلمون) ثم قال (لترون الجحيم) . فبين لهم ما انذرهم منه وواعدهم به ، وقدمرماً فى إيضاح الشئ بعد إبهامه من تفخيمه وتعظيمه ، وهو جواب قسم محذوف والقسم لتوكيد الوعيد ، وأن ما أوعدوا به لا مدخل فيه للريب . وكرره معطوفاً بـثم تغليظاً فى التهديد وزيادة فى التهويل . وقد توعد الله (عدوه أباً لهب) بالخسران والعذاب الشديد يوم القيامة ، لأن ماله كان سبباً فى بطره وجحوده وعناده ، (تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد) (٦) .

هذه نماذج من الآيات المكية التى توعد الله فيها من كفروا بأنعمه عليهم ، فأبطرهم الغنى فاستحقوا اللعنة فى الدنيا والخزى والعذاب الأليم فى الآخرة . وفى آيات القرآن الكريم المكية والمدنية كثير من الآيات التى تذم البخل والبخلاء وتتوعدهم بأشد العذاب حتى يظن القارىء أن النار لم تخلق إلا لهم .

١ (الكشاف ٢٨٤/٤ وانظر تفسير ابن كثير ٥٤٥/٤)

٢ كثير ٥٤٨/٤

٣ (البلد ١١ / ١٦ - ١٦)

٤ (التكاثر ١ / ٨ - ٨)

(وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى) (١) .

(ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير) (٢) .

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) (٣) . (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) (٤) .

ومما يستفاد من قوله تعالى : (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) زيادة على ما فيه من التهديد والوعيد تكشف الآية عن نفسية البخل المنطوية على اللؤم والخسة ، فالبخل يجد لذة في تزيين البخل لغيره ، فهو يعرف قبح البخل ، وحطة البخل عند الله والناس ، فيسعى إلى حمل الناس على البخل حتى يكثر أمثاله من البخلاء ولا ينفردوا بهذا النقص المعيب . وكما جعل الله سبحانه الاعتدال في كل شيء من صفات المؤمنين الذين لا يخرجهم الألم بالضراء ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، فإنه جعل الاختيال والفخر صفات ملازمة للبخلاء (ان الله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل . .) (٥) . (لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) (٦) .

والصلة وثيقة بين الاختيال والفخر ، والبخل وأمر الناس به ، ذلك أن البخل ، خرج ببخله عن موجبات الإيمان ، فظن أن ما أوتيته من مال وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال ثم يبخل ببذل شيء منه ، ويحث غيره على البخل ليحقق مبداه ومنهجه ، فاستحق بمفاته تلك بغض الله وكراهيته (ان الله لا يحب كل مختال فخور) . وانتهت الآية الأولى بوعيد شديد للبخلاء الأمرين الناس بالبخل (واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) أى عذابا ذا اهانة ، فيه الألم والمهانة والذلة جزاء وفاقا لكبرهم ، وكفرهم ، وبخلهم . وقال (للكافرين) ولم يقل (لهم) لأن هذه الصفات الذميمة ليست من المؤمنين في شيء فكان بخلهم قد أخرجهم عن دائرة الإيمان . .

وقال تعالى أيضا : (يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) (٧) .
فلا نجاة للأشحة الباخلين بأموالهم في سبيل الله من عذاب ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل .

فهنا يتوعدهم الله بعذاب ذلك اليوم ، فربما يفعل الترهيب في نفوسهم ما لا يفعل الترغيب فكثير من النفوس لا تفعل الخير إلا خوفا من العقاب والعذاب .
وقوله (والكافرون هم الظالمون) صفة ملازمة للكافرين بأنعم الله تعالى

٥ (النساء / ٣٦ - ٣٧ .

٦ (الحديد / ٢٢ - ٢٤ .

٧ (البقرة / ٢٥٤ .

١ (الليل / ٨ تردى : مات .

٢ (آل عمران / ١٨٠ .

٣ (النساء / ٣٧ .

٤ (الحديد / ٢٤ .

عليهم إذ لم يضعوها فى موضعها ، فظلموا أنفسهم وقومهم بإسماكهم عن الإنفاق فى سبيل الله وهذا ما قرره الأستاذ الإمام بقوله : (لو فتشتم عن خفايا النفس لوجدتم أن حب المال أعلى فى قلب المانع من حب الله ، وشأن المال أعظم فى نفسه من حقوق الله لأن النفس تذعن لما هو أرجح فى شعورها نفعاً وأعظم فى وجدانها وقعاً ، مهما تعارضت وجوه المنافع (١) .

والذى أجمع عليه علماء المسلمين أنه لا يكتمل إيمان المؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، إستناداً إلى قوله تعالى فى سورة التوبة : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فترى صواباً حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) (٢) .
وإنها لمفاضلة عجيبه حين يضع الله تعالى كل مشتبهات النفس فى كفة ويضع فى الأخرى حبه وحب رسوله وجهادا فى سبيله ، وللإنسان أن يختار الكفة الراجحة فى اعتباره .

ويجب أن أنبه إلى أن الله لا يريد أن يؤثر المؤمنون حبه وحب رسوله وجهادا فى سبيله كما يؤثر الدواء البشع ، بل لا بد أن يكون ذلك الأثر عن رضا ومحبة . وإلا فليترى صواباً حتى يأتى الله بأمره ، ذلك الأمر الذى جعله مبهما حتى تذهب النفس فى أوديته كل مذهب ثم يأتى التعقيب الذى تفوح منه رائحة التهديد من مكان بعيد (والله لا يهدى القوم الفاسقين) الذين اختاروا الدنيا ومشتبهاتها على حب الله ورسوله وجهاد فى سبيله .

يقول الزمخشري : (وهذه آية شديدة لا نرى أشد منها ، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة فى عقدة الدين واضطراب حبل اليقين) .
وقال الأستاذ محمد عرفة : (ما روعتني آية فى كتاب الله ما روعتني هذه الآية ، وما قرأتها قط إلا ارتعدت فرائضى وخيل إلى أن الأرض تدور بى الفضاء (٣) .

فقد جعل الله التخلف عن الجهاد فى سبيله بالمال والنفس من صفات المنافقين الملازمة لهم (لا يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) (٤) .
ثم يقول تعالى فى هؤلاء المنافقين الذين ينفقون أموالهم رياء الناس وعن كره (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) (٥) . فقد ضمتهم الآية إلى زمرة الكفرة والمشركين !

أما مصيرهم فقد حكته هذه الآية (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً) (٦) . فهم أسوأ مصيراً من الكافرين يوم القيامة . إذ جعلهم الله وقوداً للنار ، وقد وعد الله أن يعذبهم جزاء بخلهم بأموالهم فى الدنيا والآخرة وأن يموتوا وهم على الكفر حتى لا يخفف عنهم العذاب فلا تعجبك أموالهم ولا

- ١ (عن تفسير المنار ٢١/٣ .
٢ (التوبة / ٢٤ .
٣ (مجلة الرسالة عدد ٧٠٥ سنة ١٩٤٧ .
٤ (التوبة / ٤٤ ، ٤٥ .
٥ (التوبة / ٥٤ .
٦ (النساء / ١٤٥ .

أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرين (١) .

ومن هنا نرى أن هذه الآيات قد قررت أن التخلف عن الجهاد بالمال : كفر ، وفسق ، وظلم ، ونفاق . . .

ونرى أيضا أن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ، فيجب أن تكون النفقة عن طواعية وطيب نفس حتى يتقبلها الله تعالى (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) (٢) .

كان السوء دائرة تطبق عليهم فتهلكهم ولا يستطيعون منها خلاصا .
وقوله : (قل انفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) (٣)
(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . . .) إلى قوله : (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون (٤)) .

وقوله : (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) . . إلى قوله : (إنهم رجس ، وماوهم جهنم بما كانوا يكسبون) (٥) .

(ولن تُغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٦)) .

ونختتم هذه الطائفة من الإنذارات والتهديدات ، بهذا الإنذار الرهيب للذين يكتزون المال ولا يُنفقونه في سبيل الله .

(والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب اليم . يوم يُحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) (٧) .

قال الإمام الرازي (٨) : (إن الإنسان إذا أحب شيئا كان وصوله إليه أكثر والتأذبه بوجدانه أكثر ، كان حبه له أشد وميله أقوى . فالإنسان إذا كان فقيرا فكأنه لم يذق لذة الانتفاع بالمال وكأنه غافل عن تلك اللذة ، فإذا ملك القليل من المال وجد بقدرة اللذة ، فصار ميله أشد ، فكلما صارت أمواله أزيد ، كان التأذبه أكثر ، وكان حرصه في طلبه وميله إلى تحصيله أشد فثبت أن تكثير المال سبب لتكثير الحرص في الطلب . والحرص متمعب للروح والنفس والقلب ، وضرره شديد ، فوجب على العاقل أن يحترز على الإضرار بالنفس) .

وقال الزمخشري (٩) : (والذين يكتزون) . (قرن الله بين المسلمين غير المنفقين ، وبين المشركين من اليهود والنصارى ، تغليظا في استحاق البشارة بالعذاب الأليم) .

(هذا ما كنزتم) هذا هو بذاته الذي كنزتموه للذة ، وبخلتم بانفاقه في سبيل الله ، فانقلب أداة لهذا اللون من العذاب الأليم (فذوقوا ما كنزتم) ذوقوه بذاته ، فهو هو الذي تذوقون مسه للجنوب والظهور والجباه .

- | | |
|------------------------|--------------------------------|
| ١ (التوبة / ٥٥ . | ٦ (آل عمران / ١١٦ . |
| ٢ (التوبة / ٩٨ . | ٧ (التوبة / ٣٤ ، ٣٥ . |
| ٣ (التوبة / ٥٣ . | ٨ (التفسير الكبير / ٤٥ / ١٦ . |
| ٤ (التوبة / ٨١ ، ٨٢ . | ٩ (الكشاف / ٢ / ٢٦٦ . |
| ٥ (التوبة / ٩٥ . | |

والحق أن هذه الآية تصور مشهدا مفزعا مروعا لكل من ألقى السمع
وهو شهيد ..
وبمثل هذه الانذارات الصارمة النافذة الى أعماق النفس الإنسانية ، عالج
القرآن الكريم داء البخل علاجا ناجعا ، فلانت القلوب القاسية ، وامتلأت خوفا
وهلعا من عذاب يومئذ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ..

الجهاد بالنفس :

ان القتال فى سبيل الله فريضة شاقّة على النفس ، وقد سجلت هذه الحقيقة الآية الكريمة « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (١) .

قال البيضاوى (٢) : (كرهه) وهو بمعنى الإكراه كأنهم أكرهوا عليه لشدته وعظم مشقته كقوله تعالى : (حملته أمه كرها ووضعته كرها) . وإنما كان الجهاد كرها لأن فيه إخراج المال ، ومفارقة الأهل والوطن ، والتعرض لذهاب النفس ، وفى التعبير بالمصدر وهو قوله (كرهه) مبالغة (٣) .

وقال الألبوسى (٤) : وكون القتال مكروها لا ينافى الإيذان لأن تلك الكراهية طبيعية لما فيه من القتل والأسر وإفناء البدن وتلف المال) . والإسلام يحسب حساب الفطرة فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ، ولا ينكر على النفس إحساسها الفطرى بكرهاتها وثقلها ، وهو لا يمارى الفطرة ، ولا يصادمها ، ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التى ليس إلى إنكارها من سبيل .

« ألم ترَ إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب » (٥) . « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » (٦) .

« قال هل عسيتم أن كتب عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » (٧) . وهكذا تقرر هذه النصوص اعتراف الإسلام بما يجول فى النفس الإنسانية من مخاوف . ثم لا يريد على هذه الأمور الصعبة بمجرد الأمر والتكليف ، ولكن يشعرها بالمعطف الإلهى الذى يعرف مواضع ضعفها ، فلا تمل التكليف ، ولا تجزع عند الصدمة الأولى ، ولا تخور عند المشقة البادية . فقد قرر ان هذه الفريضة مرة كريهة المذاق ، ولكن لعل وراء المكروه خيرا ووراء المحبوب شرا .

وبهذا المنهج القرآنى الذى يصلط الأضواء الكاشفة على خبايا القلوب ، وخبايا النفوس ، يعنى القرآن بتصحيح حقيقة الحياة والموت فى نفوس المؤمنين حتى لا تحجم عن القتال فى سبيله خوفا من الموت . ويعمل على تحريرها من خوف الموت . فيقرر الحقائق الآتية :

« إن الحياة والموت بيد الله وحده ، وان لكل نفس اجلا لا يقدمه القتال ولا يؤخره الفرار » فالله هو الذى يحيى ويميت « وما كان للنفس ان

٥ (النساء / ٧٧) .

٦ (محمد / ٢٠) .

٧ (البقرة / ٢٤٦) .

١ (البقرة / ٢١٦) .

٢ (انوار التنزيل / ١٠١) .

٣ (فتح القدير / ١٩٠) .

٤ (روح المعانى / ١٠٦) .

تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » (١) .

« انا نحى ونميت والينا المصير » (٢) .

قال ابن جرير (٣) : « الله المعجل الموت لمن يشاء من حيث يشاء ، والمميت من يشاء كلما يشاء دون غيره من سائر خلقه ، وهذا من الله عز وجل ترغيب على جهاد عدوه ، والصبر على قتالهم ، وإخراج هيبتهم من صدورهم ، وإن قل عددهم وكثر عدد اعداءهم ، وإعلام منه أن الإمامة والإحياء بيده ، وأنه لن يموت أحد أو يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له » . وقد بين سبحانه أن الحذر من الموت لا يرد قضاء ، ولا يؤخر أجلا « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » (٤) . « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل » (٥) . « قل إن الموت الذى تفرون منه إنه ملائكم » (٦) . « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » (٧) . « فاذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » (٨) . « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (٩) .

ونرى أن هذه الآيات البينات وأمثالها تلمس مكن الخوف من النفس لمسة موحية عن طريق بيان حقيقته وأنه من تدبير الله وابتلاء منه لعباده .

وإذا كان لكل نفس أجل ، ولن تموت حتى تستوفيه ، فلم الخوف والهلع ، والحرص والتخلف عن الإقدام ؟ فالشجاعة لا تقدم أجلا ، والجبن لا يطيل عمرا !! (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . ولكى تنطلق النفس من عقاب الجبن وترتفع عن وهلة الخوف والفرع ضرب الله لها مثلا بجماعة خرجوا من ديارهم (وهم ألوف حذر الموت) فلم ينفعهم فرارهم وحذرهم شيئا ، فأدركهم قدر الله الذى خرجوا حذرا منه فقال لهم (موتوا) فماتوا ! ثم أحياهم ، دون أن يبذلوا جهدا فى استرجاع الحياة وإنما هو قدر الله فى الحاليتين لأنه هو الذى يملك الموت والحياة .

« ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » (١٠) .

قال العلامة أبو السعود (١١) : قيل هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم ، وهذا فيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لأسباب الشهادة ، وأن الموت حيثلم يكن منه بد ولم ينفع منه الفر فاولى أن يكون فى سبيل الله » . وقال الألوسى (١٢) : (وردت هذه القصة على سبيل التشجيع والتثبيت

١ (آل عمران / ١٤٥)

٢ (آل عمران / ١٤٥)

٣ (الأنعام / ٦١)

٤ (ق / ٤٣) والبقرة / ٢٥٨ والحجر / ٥٣

٥ (الأعراف / ٣٤)

٦ الخ .

٧ (البقرة / ٢٤٣ - ٢٤٤)

٨ (تفسير الطبرى ٤ / ١٤٧)

٩ (تفسير أبو السعود ١ / ١٨١)

١٠ (النساء / ٧٨)

١١ (روح المعانى ١ / ١٧٥)

١٢ (الأحزاب / ١٦)

١٣ (الجمعة / ٨)

للمؤمنين والإعلام أنه لا ينجى حذر من قدر) .
وفى القصة تشجيع للموت على الجهاد والتعرض للشهادة ، ولهذا
اتبعت بقوله « وقاتلوا فى سبيل الله » وهذا أمر فيه ترغيب وإرهاب كيلا
ينكص على عقبه محب الحياة بسبب خوف الموت (١) .

وقوله تعالى : « إن الله لذو فضل على الناس » كافة بما جعل فى
موتهم من الحياة ، إذ جعل المصائب والعظائم محيية للهمم والعزائم ، كما
جعل الهلع والجبن وغيرها من الأخلاق التى أفسدها الترف والسرف ،
وأعلموا أيها المؤمنون أن الجبن عن مدافعة الأعداء وتسليم الديار بالهزيمة
والفرار من الموت هو الموت المحفوف بالخزى والعار والعذاب (٢) .

وقال ابن كثير : (٣) كما إن الحذر لا يغنى من القدر كذلك الفرار من الجهاد
لا يبعد أجلا ولا يقربه ، بل الأجل محتوم والرزق مقسوم ، مقدر مقنن لا يزداد
فيه ولا ينقص منه كما قال تعالى « الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا
ما قتلوا ، قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » (٤) .

وروى عن خالد بن الوليد سيف الله المسلول أنه قال فى سياق الموت
« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما من عضو من أعضائى إلا وفيه رمية
أو طعنة أو ضربة وهانذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت
أعين الجبناء » (٥) .

وبعد أن حرر الله النفس من الخوف من الموت . أخذها بأسلوبى الترغيب
والترهيب ليرتفع بها الى أقصى غايات البذل والجود بالنفس دون تهيب أو
تردد بل جعلها تندفع الى طلب الشهادة اندفاعا وتتنافس فى ذلك منافسة .
وأول ما نبه عليه تعالى هو أنه يمتحن النفوس المؤمنة بشيء من الخوف
والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات تطمينا لها ، وثبينا عند حلول
الصدمة ، ووقوع المصيبة .

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس
والثمرات وبشر الصابرين » (٦) . « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم
والصابرين » (٧) .

قال القاسمى : (٨) « كل قائم بحق ، وداع إليه معرض للابتلاء بما ذكر
الله كله أو بعضه . وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه انفسهم ،
ويزداد يقينهم ، عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير
له عاقبة حميدة » .

ثم أعقب هذه الآية بقوله « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا
إليه راجعون » (٩) . أى قالوا هذا القول معبرين عن حالهم ومقتضى إيمانهم
فأصحاب هذا الاعتقاد والشعور الجديرون بالصبر إيمانا وتسليما ، لا يملك
الجزع نفوسهم ولا تقعد المصائب همهم ، بل تزيدهم ثباتا ومثابرة فيكونون
هم الفائزين (١٠) . ولذا ختم الله القول ببيان الجزاء المبشر به فقال : « أولئك

- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| ١ (غرائب القرآن ٢/٢٠٥ . | ٦ (البقرة ١٥٣ . |
| ٢ (تفسير المنار ٢/٤٥٦ . | ٧ (محمد/ ٣١ . |
| ٣ (تفسير ابن كثير ١/٢٩٩ . | ٨ (محاسن التأويل ٢/٢٢٥ . |
| ٤ (آل عمران / ١٦٨ . | ٩ (البقرة / ١٥٦ . |
| ٥ (تفسير ابن كثير ١/٢٩٩ . | ١٠ (تفسير المنار : ٣٩/٢ . |

عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (١) .
 وقال ابن كثير (٢) : هذا ثناء من الله عليهم ، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نعم العدلان ونعمت العلاوة (أولئك عليهم صلوات من ربهم) فهذان العدلان (وأولئك هم المهتدون) . فهذه العلاوة وهى ما توضع بين العدلين وهى زيادة فى الجهل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا) .
 ومن الآيات التى تعد المؤمنين لما يمكن أن يصابوا به من المصائب والآلام ، والتى فيها حث لهم على الصبر والتحمل ، وتبشير برضوان الله ونصره ، وتنويه بالمؤمنين الذين صبروا على البلاء .
 قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلا إن نصر الله قريب » (٣) . وقوله : « وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » (٤) .

والتعبير بالحب من الله للصابرين ، له وقع له إحاؤه فهو الحب الذى يأسو الجراح ويمسح على القرع . وفى الآيات ترغيب من الله للمقاتلين فى القتال فى سبيله (٥) . وقوله تعالى : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » (٦) . وفى هذا القول ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ، وأنه مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون ، وفيه تعزية لهم وتسلية مما أصابهم فى سبيل الله ، وقدم القتل على الموت لأنه أكثر ثوابا وأعظم عند الله فترتب المغفرة والرحمة عليه (٧) .

وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن الوهن والحزن عند حلول المصيبة لأن قتال المؤمنين لأجل الله ، وقتلاهم شهداء عند ربهم يرزقون ، ويرجون من الله ما لا يرجو أعداؤهم وفى هذا تشجيع ولهم ترغيب فى القتال :
 « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون ، وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليهما حكيما » (٨) . « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » (٩) .

قال الألوسى : (١٠) والظاهر أن المراد هنا التسلية والتشجيع ، وأن حقيقة النهى غير مرادة هنا وإن أريدت فلعل ذلك بالنسبة لما يترتب على الوهن والحزن من الآثار الاختيارية ، أى لا تفعلوا ما يترتب على ذلك .. أو المراد : والحال إنكم أعلى منهم شأننا ، فإنكم على الحق وقتالكم لإعلاء كلمة الله ، وقتلاككم فى الجنة ، وأنهم على الباطل ، وقتالهم لنصرة كلمة الشيطان وقتلاهم فى النار » .

وقوله تعالى « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » (١١) . (والله معكم) : ففى هذا القول بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء (١٢) .
 والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن كما نرى - بشتى الأساليب (وأنتم

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| ١ (البقرة / ١٥٦) | ٧ (روح المعانى ١٥٩/٤) |
| ٢ (تفسير ابن كثير ١٩٦/١) | ٨ (النساء / ١٠٤) |
| ٣ (البقرة / ٢١٤) | ٩ (آل عمران / ١٣٩) |
| ٤ (آل عمران / ١٤٦) | ١٠ (روح المعانى ١٠٤/٤) |
| ٥ (غرائب القرآن ٧٨/٤) | ١١ (محمد / ٣٥) |
| ٦ (آل عمران / ١٥٧) | ١٢ (تفسير ابن كثير ١٨١/٤) |

(الأعلون) أى الأعلون مكانة ونصرة وقوة ، أو وأنتم الأغلبون الأمهرون (١) .
 (والله معكم) يؤيدكم بقوة من قوته ، ويمدكم بمدد من عنده ، ولن يخلى عنكم
 ويترككم وحدكم ، تجاهدون عدوه وعدوكم ، وهو حاضر معكم أينما كنتم فمن
 يكون أعداؤكم هؤلاء أمام قوة الله التى لا تغلب ؟!

(ولن يترككم أعمالكم) وكل ما تبذلون ، وما تفعلون ، وكل ما يصبكم فى
 سبيل الله محسوب لكم ، غير مضيع عليكم :

ثم كشف تعالى للمجاهدين عن مصير الذين يقتلون فى سبيله « والذين قتلوا
 فى سبيل الله فن ينزلهم فى أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة
 عرفها لهم » (٢) .

وعلى الصفحة المقابلة يعرض مصير قتلى أعدائهم « والذين كفروا فتعسا
 لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » (٣) .
 ثم نقف عند هذه الحقيقة الهائلة : حقيقة حياة الشهداء عند الله يوم
 القيامة .

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا يشعرون » (٤)
 « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون .
 فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم إلا
 خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وإن الله لا يضيع
 أجر المؤمنين » (٥) .

وقوله تعالى : (فرحين بما آتاهم) أى الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء
 عند ربهم وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ومستبشرون بإخوانهم
 الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله انهم يقدمون عليهم ، وانهم لا يخافون
 مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم .

قال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة وأروا ما فيها من الكرامة للشهداء
 قالوا : يا ليت إخواننا الذين فى الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة ، فإذا
 شهدوا القتال بأشروهم بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبناه من الخير ،
 فأخبرهم ربهم أنى قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا
 بذلك (٦) .

وقوله تعالى أيضا « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا
 ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين » (٧) . « ولئن قتلتم فى
 سبيل الله أو مُتتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » (٨) . « إن يمسسكم
 قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين
 آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » (٩) . وهذه الحقيقة
 الضخمة . (حياة الشهداء) ضخمة فى ذاتها وفى آثارها .

فهم ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، لم ينقطعوا عن حياة
 الجماعة المسلمة من بعدهم ولا عن أحداثها ، فهم متأثرون بها ، مؤثرون فيها ،

- | | |
|---------------------------|-----------------------------------|
| ١ (الكشاف ٢/ ٥٢٩ . | ٦ (تفسير ابن كثير ١/ ٤٢٨ - ٤٢٩ . |
| ٢ (محمد ٤/ ٦ - | ٧ (الحج ٥٨/ . |
| ٣ (محمد ٨/ ٩ - | ٨ (آل عمران ١٥٧/ . |
| ٤ (البقرة ١٥٤/ . | ٩ (آل عمران ١٤٠/ . |
| ٥ (آل عمران ١٦٩/ - ١٧١ . | |

والتأثير والتأثر أهم خصائص الحياة فلا حسرة على استشهادهم اذن ؟
 إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة فى تصور الأمور ،
 فليس الموت نهاية المطاف بل ليس حاجزا بين ما قبله وما بعده ، فلا فواصل ولا
 حواجز بالقياس إلى المؤمنين الذين يتعاملون مع الله .
 فهذه النظرة الجديدة تعديل لمفهوم الموت متى كان فى سبيل الله ،
 وللمشاعر المصاحبة له فى نفوس المجاهدين انفسهم ، وفى النفوس التى
 يخلفونها من ورائهم .

وفقا لهذا المفهوم الجديد الذى اقامته هذه الآيات ومثيلاتها فى نفوس
 المجاهدين ، عن حقيقة الحياة والموت ، سارعوا إلى طلب الشهادة فى سبيل
 الله فى كل موقعة خاضوها مع اعداء الله . فكانت منهم تلك النماذج الرائعة
 التى زينت صفحات التاريخ الإسلامى ، وشهد لهم العدو قبل الصديق بالبطولة
 والإتسام .

فقد ضرب عبد الله بن جحش مثلا عاليا فى تمنى الشهادة والرغبة فى
 ثواب الآخرة ، فقد روى أنه تمنى على الله أن يموت شهيدا ، وأن يمثل الأعداء
 به غاية التمثيل ، فقال : « اللهم إنى أقسم عليك أن نلقى العدو غمدا ،
 فيقتلوننى ، ويقررون بطنى ، ويمثلون بى فألقاك مقتولا قد صنع هذا بى ،
 فنقول : فبم صنع بك هذا فأقول : فيك » .

فقاتل حتى قتل يوم (أحد) ووجد وقد صنع به الأعداء ما تمنى (١) .
 وكان عمرو بن الجموح رجلا أعرج شديد العرج وكان له بنون أربعة
 مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا
 حبسه وقالوا له : إن الله عز وجل قد عذرك ، فأتى رسول الله فقال : إن
 بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو
 أن أطا بعرجتى هذه فى الجنة ، فقال رسول الله : أما أنت فقد عذرك الله فلا
 جهاد عليك ، وقال لبنيه ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة فخرج
 معه فقتل يوم أحد (٢) .

وقد لقى المسلمون فى غزوة مؤتة عدوهم من الروم فى مائتى ألف
 مقاتل وهم لا يزيدون عن الثلاث آلاف وقد وقف فيهم خطيبا فى ذلك اليوم أميرهم
 عبد الله بن رواحة فقال : « يا قوم ، والله إن التى تكرهون لى خرتكم تطلبون
 الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين
 الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنها هى إحدى الحسينين إما ظهور وإما
 شهادة » (٣) .

والحق ان الانسان ليختار فى الاختيار فكل صحابة رسول الله ابطال
 مغاوير فهموا كتاب الله وساروا على هداة ، وملاوا صفحات التاريخ بأعمالهم
 الفذة وبطولاتهم النادرة .

وقد باع المجاهدون ارواحهم لله بالجنة ، وقد أشاد القرآن الكريم بهذه
 الصفقة الرباحة فى كثير من المواضع : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء

١ (صور من حياة الرسول / ٣٧٤ أمين

٢ (سيرة ابن هشام ٢/٣٧٥ تحقيق مصطفى

السقا وجماعة .

٣ (صور من حياة الرسول / ٣٧٤ أمين

ديدار .

٤ (سيرة ابن هشام ٢/٦٠٣ تحقيق

مرضاة الله والله رعون بالعباد « (١) . وقوله تعالى « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون آلياه الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » (٢) .
فقد وعد الله المقاتل في سبيله ظافرا او مظفورا به الأجر العظيم على جهاده في سبيل إعزاز دين الله .

وفي سورة التوبة قال تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايتم به وذلك هو الفوز العظيم » (٣) .

وفي هذه الآيات تشجيع قوى نافذ إلى أعماق النفس من شأنه أن يدفع المؤمن إلى التضحية بنفسه إلى القتال راضيا مطمئنا إلى ربحه العظيم وفوزه بالجنة التي باع نفسه من أجلها . فقد كان مجرد سماع المجاهد في سبيل الله لكلمة من هذه الآيات كافيا لأن يقذف بنفسه إلى المهالك دون تردد ولا وجل .

روى ابن اسحق (٤) عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال حين غشيه القوم يوم (أحد) : من رجل يشري لنا نفسه ؟ فقام خمسة من الأنصار فقاتلوا دون رسول الله ، رجلا ثم رجلا ، يقتلون دونه . وترس دون رسول الله أبو دجانة بنفسه ، يقع النبل في ظهره ، وهو منحرف عليه ، حتى كثر فيه النبل .

وقالت نسيبة بنت كعب رضى الله عنها (لما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فممت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى . وفيها يقول رسول الله ما التفت يميني ولا شمالا إلا رأيتها تقاتل دوني) .

لقد كان حرص المجاهدين على الاستشهاد في سبيل الله شديدا لا يعدلون به أى شيء آخر . روى ابن اسحق أن رسول الله حرض المسلمين على القتال يوم بدر وقال : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام ، وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ، ثم تذف التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .

وقال عوف بن عفراء : يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : غمسه يده في العدو حاسرا فنزع درعا كانت عليه فحذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل . وقد رغب سبحانه في الجهاد بأساليب متنوعة حتى تهون على المجاهد روحه في سبيل الله فقال « يا أيها الذين آمنوا هل أذلکم على تجارة تنجيکم من عذاب اليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالکم وانفسکم ذلکم خير لکم إن کنتم تعلمون ، يغفر لکم ذنوبکم ويدخلکم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساکن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » (٥) .

(٤) المرجع السابق (سيرة ابن هشام

٦٧/١ - ٦٢٨) .

(٥) الصف / ١٠ - ١٣ .

١ (البقرة / ٢٠٧ .

٢ (النساء / ٧٤ .

٣ (التوبة / ١١١ .

والمسلمون لا يرجون بجهادهم إلا رحمة الله ومغفرته والتقرب إليه ،
ويؤثرون ما عنده من ثواب الآخرة الخالد ، على متاع الدنيا الفانى .
« لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وانفسهم وأولئكَ
لهم الخيرات وأولئكَ هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها ذلك الفوز العظيم » (١) . وكثيرا ما يرغب الله المجاهدين بالجنة
وحسن ثوابها « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء
والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله
ذو الفضل العظيم . ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب
من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » (٢) .

وقد حث القرآن الكريم المسلمين بأسلوب قوى ينفذ إلى أعماق النفس
فيثير حماسها ويوقظ حميتها وأفتها فى قوله تعالى « وما لكم لا تقاتلون فى
سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا
أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا
من لدنك نصيرا » (٣) .

فالآية هتاف بالخلصين من المؤمنين بالمسارعة إلى إنقاذ إخوانهم الذين
وقعوا تحت سيطرة الظالمين ، ولا يملكون حولا ولا قووة فى الدفاع عن
انفسهم .

قال الزمخشري (٤) : لقد رغب الله المؤمنين ترغيبا وشجعهم تشجيعا
بإخبارهم أنهم يُقاتلون فى سبيل الله وهو وليهم وناصرهم ، وأعداؤهم يُقاتلون
فى سبيل الشيطان فلا ولى لهم إلا الشيطان ، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى
جنب كيد الله للكافرين أضعف شىء وأوهنه وذلك لقوله تعالى « الذين
آمنوا يُقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يُقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا
أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » (٥) .

وفى السورة نفسها قال تعالى : لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير
أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم فضل الله المجاهدين
بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله
المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » (٦) .

وقال الزمخشري (٧) : فان قلت معلوم إن القاعد بغير عذر والمجاهد
لا يستويان فما فائدة نفي الاستواء ؟ قلت : معناه الإنكار بما بينهما من التفاوت
العظيم والبون البعيد لىائف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته فيتهز
للجهاد ويرغب فيه وفى ارتفاع طبقتة .

وفى نفس السورة تصل الآيات إلى قمة الترغيب فى القتال والحض عليه،
« فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين على القتال ، عسى
الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأسا وأشد
تكيلا » (٨) .

فالآية توجه الخطاب إلى رسول الله بأن يجاهد فى سبيل الله ولو

- | | |
|----------------------|--------------------|
| ١ (التوبة ٨٨ ، ٨٩ . | ٥ (النساء ٧٦ . |
| ٢ (الحديد ٢١ . | ٦ (النساء ٩٥ . |
| ٣ (النساء ٧٥ . | ٧ (الكشاف ١/٥٤٣ . |
| ٤ (الكشاف ٢/٥٤٣ . | ٨ (النساء ٨٢ . |

كان وحيدا ولم يخرج معه للقتال احد غيره ، فانه لا يحمل فى الجهاد الا تبعة شخصه — وفى الوقت ذاته يحرض المؤمنين على القتال ، وكذلك يوحى الى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر ، فالله هو الذى يتولى المعركة ، وهو أشد بأسا وأشد تنكيلا بأعدائه واعدائهم .

ومثل ذلك قوله تعالى « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين . يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » (١) .

قال ابن كثير (٢) : يحرض تعالى نبيه والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ويخبرهم انه حسبهم أى كافهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم وان كثرت اعدادهم وترادفت امدادهم ، ولو قتل عدد المؤمنين .

والتحريض : المبالغة فى الحث على الأمر من الحرض وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه . وفى الآية عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده . وفى ذلك إغراء من الله تعالى بقتال اعدائهم وترغيب لهم فيه (بأنهم قوم لا يفقهون) بسبب كفرهم وانهم يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب خلاف من يقاقل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله تعالى (٣) .

وجاء فى سورة التوبة قوله تعالى : « أنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (٤) .
قال الطبرسى (٥) : وهذا يدل على أن الجهاد بالنفس والمال واجب على من استطاع بهما ومن لم يستطع على الوجهين فعليه أن يجاهد بما استطاع (ذلكم خير لكم) أى أن الخروج والجهاد بالنفس والمال خير لكم من التناقل وترك الجهاد) .

ونتيجة لهذه اللمسات المؤثرة ، وهذا الحث المتواصل على الجهاد والترغيب فيه . تراحم الرعيل الأول من المؤمنين واحتشدوا من كل حذب وصوب على رسول الله يسألونه الخروج معه للجهاد والاستشهاد فى سبيل الله فكان لا يجد ما يحملهم عليه ، فيعود الفقراء إلى دورهم وقد فاضت عيونهم بالبكاء حزنا على ما فاتهم من الخروج للقتال وقد حكى الله حالهم فقال : « الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » (٦) .

وكما سلك القرآن فى تهييج النفوس المؤمنة واستثارتها إلى القتال فى سبيل الله بالترغيب والتشجيع فقد اتجه إلى تلك النفوس المتعاسة والمتناظلة والمعوقة والمخذلة والمتخلفة عن الخروج إلى القتال بالترهيب والحملات التنديدية الفارعة ، حتى تقوى قلوبهم ، وتشتد نفوسهم ، ويخفوا إلى اللحاق بإخوانهم الصادقين فى القتال .

فقد نعى الله على المتناقلين فقال : « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم أنفروا فى سبيل الله أناقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة .

٤ (التوبة / ٤١) .

١ (الأنفال / ٦٤ ، ٦٥) .

٥ (مجمع البيان / ٦٧ / ١) .

٢ (تفسير ابن كثير / ٢ / ٢٢٤) .

٦ (التوبة / ٩٢) .

٢ (الكشاف / ٢ / ١٦٧) .

فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليسا ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا ، والله على كل شيء قدير ، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين . إلى قوله « والله عزيز حكيم » (١) .

قوله تعالى (إلا تنفروا ...) فيه سخط عظيم على المتأقلين حيث أوعدهم بعذاب اليم مطلق يتناول عذاب الدارين ، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم وأطوع وأنه غنى عنهم في نصره دينه لا يقدرح تناقلهم فيه شيئا . (٢) وفي الآية تذكير ما كان من نصر الله لرسوله ، قبل أن يكون معه أحد منهم ، وبقدرته على إعادة النصر بدونهم ، فلا ينالهم عندئذ إلا أثم التخلف والتقصير .

وقال تعالى (إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ، ولو أرادوا الخروج لأعدوا لهم عدته ولكن كره الله انبعاثهم فشطهم وقتل أعدوا مع القاعدين) (٣) .
فهؤلاء حكم عليهم الله بالكفر لتخلفهم عن الخروج للجهاد ، ولأنهم لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم .
وفي السورة نفسها حملة عنيفة على المتخلفين وتهديد لهم بأشد العذاب :

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حرا ، لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنونك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فأتعدوا مع الخالفين . ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله وماتوا وهم فاسقون . ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون . وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنتك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) (٤) .

فالله يتوعددهم ويتهددهم بوعيد بعد وعيد ، فمصيرهم نار جهنم يصلونها ، وبكاء متصل لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ، وهم نساء ليس فيهم من أخلاق الرجال شيء . وهم كفرة فاسقون ، لهم العذاب والخزى في الدنيا والآخرة . قال ابن كثير (٥) : يقول تعالى (منكرا وذاتا للمتخلفين عن الجهاد الناكثين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول واستأذنون الرسول في القعود ورضوا لأنفسهم بالعمار والقعود في البلد مع النساء والصبيان والأطفال بعد خروج الجيش فاذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاما .

وقوله تعالى (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون ... إلى قوله تعالى (يظنون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) (٦) .

٤ (التوبة ٨١ - ٨٧)

١ (التوبة ٢٨ - ٤٠)

٥ (تفسير ابن كثير ٢٨٠/٢)

٢ (الكشاف ١٩٨/٢)

٧ (التوبة ٩٢/٩٦ - ٩٦)

٣ (التوبة ٤٥/)

قال الزمخشري (١) : إن السبب في استئذانهم هو رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم (إنهم رجس) تليل لترك معاتبتهم . يعنى أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم لأنهم أرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم (وماوَاهم جهنم) يعنى كفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا عتابهم (فإن ترضوا عنهم فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وأجلها) .
وقوله تعالى (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم) (٢) .

فقد توعدهم بالعذاب الاليم لعودهم عن الخروج للجهاد .
وفى سورة آل عمران (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) (٣) .

فهؤلاء لم يمنعهم من الاشتراك فى قتال العدو إلا كفرهم وجحودهم وبغضهم للمسلمين . وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصره منهم لأهل الإيمان ، لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخدال تقوية للمشركين (٤) .
وقوله تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ... إلى قوله تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا) (٥) .

يندد الله بهم على تفريطهم فى الجهاد وحرصهم على تعويق غيرهم عنه ، ويتوعدهم بالخسران فى الدنيا والآخرة ، ويصمهم بالكفر والخروج عن دائرة الإيمان ..

وفى سورة الفتح وعيد بأشد العذاب للمتخلفين عن الخروج للقتال .
(سيقول المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا .. إلى قوله تعالى (وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا اعتدنا للكافرين سعيرا) (٦) .
وفى سورة الصف (أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) (٧) .

قال أبو السعود (٨) : (إن المسلمين قالوا لو علمنا أحب الأعمال الى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فلما نزل الجهاد كرهوه . وقوله (كبر مقتا عند الله) بيان لغاية قبح ما فعلوه وفرط سماجته) .
وقال الزمخشري (٩) : واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرا حتى جعل أشده وأفحشه و (عند الله) أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه

- | | |
|----------------------------|--|
| ١ (الكشف / ٢٠٨) | ٦ (الفتح / ١١ - ١٢) |
| ٢ (التوبة / ٩٠) | ٧ (الصف / ٢ - ٤) |
| ٣ (آل عمران / ١٦٦ / ١٦٧) | ٨ (تفسير أبى السعود / ١٥٩ / ٥ وتفسير الطبرى / ٢٨ / ٨٢ ومحاسن التأويل / ٩ / ٥٧٨٤) |
| ٤ (الكشف / ٢٤٧٨) | ٩ (الكشف / ٩٦ / ٤) |
| ٥ (الأحزاب / ١٩) | |

الشكوك .

ونقد كان وقع هذه الحملات التنديدية القارعة على المتعاسين والمتخلفين والمثبطين والمعوقين شديدا للغاية .

وقد احتوت هذه الفصول حملات تقرير شديدة متنوعة الأساليب للذين يتعاسون ويتناقلون ويتخلفون ويتهربون ويتخوفون من الجهاد والنفار في سبيل الله ، بما من شأنه أن يحط بالمنافقين والمثبطين والقاعدين والمتعاسين والمترددين والمتناقلين بجو من الحقارة والزراية والمقت ويهوى بهم إلى الحضيض . أو يجتث تلك النفسية الخبيثة والقلوب المريضة التي تعمل عملها فيهم وتردهم إلى الصواب إن لم يكن عن قناعة فعن خوف وحياء (١) . ولقد كان هذا هو الذى وقع كما تدل عليه الآيات القرآنية . . وهكذا بلغ أسلوب القرآن القمة في ترغيب المسلمين وارهابهم فخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله لم يتخلف عنه إلا من طمس الله على قلبه ، وكره خروجه مع صفوف المجاهدين . ولا أدل على المستوى الرفيع الذى وصلت إليه حملات الترغيب والترهيب من خروج المسلمين مع رسول الله في غزوة العسرة (تبوك) في ثلاثين ألف لم يتخلف عنه إلا ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين ذكرت سورة التوبة قصتهم (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) (٢) .

قد صورت الآية ما لحقهم من هم وغم أبلغ تصوير (حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) أى مع سعتها ، وهو مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا (وضاقت عليهم أنفسهم) أى قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم . . (٣)
ولشدة إقبال المسلمين على الخروج الى القتال في أعداد هائلة فلم يعد يتخلف منهم احد بعد أن أتى منهج القرآن التريوى اكله طيبا قال تعالى في آخر القرآن نزولا (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) (٤) .
وقد كانت هذه الآية تنويجا للنهج القرآنى وأسلوبه في معالجة النفوس .

٣ (الكشاف ٢/٢١٨)

٤ (التوبة ١٢٢)

١ (الدستور القرآنى ١/٤٧٢)

٢ (التوبة ١١٨)

الفصل الثاني :

بواعثُ الجهادِ وغاياتِهِ :

عرفنا أن لجهاد في الإسلام هو الجهاد في « سبيل الله » وقتلنا إن الإسلام لا يعرف جهادا في غير هذا السبيل . . وسبيل الله هو طريق الخير والعدالة والرحمة والوحدانية وإن شئت قل هو الدعوة الإسلامية نفسها . ولهذا إذا أردنا أن نتعرف على بواعث الجهاد فيجب علينا أن نلتصق في طبيعة الإسلام وأهدافه نفسها ، لأن الجهاد إنما شرع من أجل الدعوة الإسلامية وحرية نشرها ، فلا بد إذن أن تكون بواعث الجهاد وغاياته ذروة في السمو لأنها من الله وإليه .

والمتمم في آيات الجهاد في القرآن الكريم يجد أن الجهاد شرع للأغراض النبيلة والبواعث الآتية : أولا : رداء الاعتداء :-

ليس الإسلام دين الاستسلام ، وليست الفضيلة فيه هي الركون إلى الدعة وطلب المعيشة الذليلة ، إنما الفضيلة في الإسلام رد الاعتداء ، ومنع الخضوع للأقوياء ، ولذلك شرع القتال لمنع الفساد في الأرض إذ لو ترك الأشرار يعيثون في الأرض فساداً من غير رادع يردعهم ، ولا مانع يمنعهم لعم الفساد البر والبحر (١) .

ولذا فقد قرر سبحانه حق الانتصار والدفاع والمقاومة للمبغى عليهم وندد بالظلم والظالمين الذين يعتدون على الناس . فجاء في سورة الشورى قوله تعالى (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إن الله لا يحب الظالمين ، ولن انتصر بعد ظلمة فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب اليم) (٢) .

وفي أول آية أباح الله للمسلمين القتال ورد الاعتداء عن أنفسهم ، بين سبحانه وتعالى أن الأديان لا بد لها من قوة تحميها وترد عنها أذى المعتدين ، حتى لا ينتصر الشر على الخير وحتى يقف المعتدون عند حدهم .

(إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور) (٣) .

قال الواحدى (٤) : كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج ، فشكوه إلى رسول الله ، فيقول : اصبروا فإني لم أومر بقتال حتى هاجر رسول الله ، فأنزل الله هذه الآية (وقوله تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) أى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء

١ (الجهاد) للشيخ محمد أبو زهرة (من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية)

٢ (الشورى / ٣٩ - ٤٢ .

٣ (الصبح / ٣٨ - ٤١ .

والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدم فى الأمم ، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ، فلولا القتال والجهاد لتغلب على الحق فى كل أمة (١) .

فأولى آيات الجهاد نزولا حددت الباعث عليه بصراحة ، وأقرت أمر الدفاع عن النفس ورد الظلم والظلمين والوقوف فى وجه المعتدين ، وقد وعد الله بنصر المظلوم الذى يدافع عن نفسه ...

والآية تقرر أن القتال أمر فطرى فى البشر (ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وهذا ما توصل إلى معرفته علماء النفس والاجتماع أخيرا .

(والحرب أمر طبيعى فى البشر ، وسنة من سنن الاجتماع البشرى ، وأنها أكبر مظهر من مظاهر تنازع البقاء الذى هو وصف طبيعى لجميع الكائنات الحية لا ينفك عنها) (٢) .

وقال ابن خلدون : إن الحرب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض . وهى أمر طبيعى فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل . وسبب هذا الانتقام فى الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيد (٣) .

ويقول الدكتور مصطفى فهمى (والميل إلى المقاتلة والرغبة فى السلوك العدوانى دافع فطرى عام يشترك فيه الإنسان والحيوان ، وإن هذا الدافع هو سبب الحروب ، كما أن الإنسان يمارس هذه الحاجة حثا فى القتال نفسه ، وليس جريا وراء غايات معينة) (٤) .

وهذا القول كله حق ، فالظلم والعدوان طبيعة بشرية منذ حلت البشرية على الأرض وقد قرر القرآن هذه النزعة العدوانية (إن الإنسان لظلم كفار) (٥) . وقوله تعالى : (إئت كان ظلوما جهولا) (٦) .

وجاءت الأديان السماوية تهذب هذه الطبيعة وتعمل على تقويمها وتدعو الناس للتعاون والمسالمة وتضع القوانين التى تضمن العدالة ، ولكن أكثر الناس نفروا من الأديان ، والذين اعتنقوها حرفوها لتلائم طباعهم ، وجاء الإسلام وحفظ الله كتابه الكريم من التحريف .

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (٧) . وليكون دستوراً ومنازة للبشرية كافة ، وفى هذا القانون الخالد تنظيم دقيق للجهاد ، وتحديد لأسبابه وأهدافه ومحاولة لجعل الجهاد وسيلة إذا عجز السلام المحض أن يمنح البشرية الأمن والسلامة فعلى مر التاريخ لم يسعد قوم إلا بعد أن دافعوا عن أنفسهم وأثبتوا لمن حولهم أنهم يستطيعون حماية الذمار والدفاع عن الدار حتى لقد ارتبط

- | | |
|---|--|
| ١ (تفسير ابن كثير ٢٢٦/٣ وتفسير القرطبي | ٢ (مقدمة ابن خلدون / ٢٧٠ و ٢٧١ . |
| ٢٨/١٢ والكشاف ١٥/٣ . | ٤ (الدوافع النفسية / ٧٧ د. مصطفى فهمى |
| ٢ (تفسير المنار ٨٥/١٠ ، ٣١٠ ونظرية | ٥ (ابراهيم / ٣٤ . |
| الحرب فى الاسلام / ١ للشيخ محمد | ٦ (الأحزاب / ٧٢ . |
| ابو زهرة . | ٧ (الحجر / ٩ . |

عز الاقوام بجهادهم(١) .

ثم بينت الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها الغاية من النصر كما بينت الباعث على القتال (الذين إن مكناهم فى الأرض) . فليست الغاية من النصر توسعا فى الملك كما تفعل الدول المستعمرة ولا وضع اليد على موارد الثروات ، ولا علوا ولا استكبارا فى الأرض لكى يكون جنس أعلى من جنس ، ولكن المؤمنين ان انتصروا « أقاموا الصلاة » أى أنهم توجهوا إلى السمو الروحى من عبادة الله وتطهير أنفسهم وآتوا الزكاة (أى أنهم حققوا العدالة الاجتماعية من إعطاء المحتاجين حتهم فى هذه الحياة (وأمروا بالمعروف) أى أشاعوا الخير والحق بين الناس (ونهوا عن المنكر) أى حاربوا الشر والفساد واستأصلوهما من المجتمع(٢) ..

والآيات التالية من سورة البقرة هى الثانية فى ترتيب النزول تحدد الباعث على القتال والغاية منه (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين وقاتلواهم حيث ثقتهموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) (٣) . أمر الله سبحانه المسلمين بقتال الذين قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم ، وأذوهم فى دينهم وفتنوهم فى عقيدتهم من مشركى قريش ، وبقتال من يقاتلهم فى كل وقت وفى كل مكان ولكن بشرط عدم الاعتداء لأن الله لا يحب المعتدين (إن الله لا يحب المعتدين) .

فالآيات صريحة فى تحديد ما يبعث المسلمين المؤمنين على القتال (قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم) .. فالقتال هنا مقيد (بسبيل الله) لا بغرض من أغراض الحياة الدنيا ، لا للمغنم والمكسب ، ولا فى سبيل المجد وذبوع الصيت والشهرة أو للاستبداد والظفیان ، والتوسع والنفوذ . فهذا كله محرم خارج عن مبررات القتال المشروع فى الإسلام فقتال المسلمين خالص لوجه الله وإعلاء رايته . والمسلمون أحرص ما يكونون على التمسك بطاعة الله حتى ينالوا تأييده وعونه لأنهم لا ينصرون بعددهم وعتادهم ، فما عندهم أقل مما فى أيدى أعدائهم . وليست قوتهم كقوتهم ولا أهدافهم كأهدافهم .

ومن هنا التزم المسلمون بهذا الشرط (فى سبيل الله) فى جميع الوقائع التى خاضوا غمارها فكانت حروبهم شرعية عادلة ، لأنها من أجل الله سبحانه . والآيات تحدد العدو الذى يقاتله المسلمون (قاتلوا الذين يقاتلونكم) أى الذين يناصبونكم القتال لا من كف يده عن قتالكم ، ومن ليس من أهل المناصبه من الشيوخ والصبيان والرهبان(٤) .

وقال القرطبى : لا تعتدوا فى القتال لغير وجه الله ، كالحمية وكسب الذكر ، بل قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، يعنى ديننا واطهارا للكلمة (٥) .

١ (الجهاد فى التفكير الإسلامى / ٥٥) (البقرة / ١٩٠ - ١٩٤ .

٢ (الكشاف / ٢٤١ / ١ .

٣ (روح الإسلام / ٣٧٨ / عفيف طبارة .

٤ (تفسير القرطبى / ٢ / ٣٥٠ .

ومما يؤكد ما ذهب اليه القرطبي قوله تعالى (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) (١) . . الذين آمنوا يقاتلون اعداء الله لاقامة العدل بين الناس وإقرار منهج الله ودينه ورفع راية الحق فقتالهم باسم الله ولله ، ليس لانفسهم ولا من انفسهم ، ولا لقومهم ، ولا لجنسهم ولا لقرباتهم وعشيرتهم . إنما هو لله وحده لإقامة منهجه وشرعه .

(ولا تعتدوا) بابتداء القتال أو بقتال من نهيتم عن قتاله من النساء والشيوخ والذين بينكم وبينهم عهد أو ميثاق ، أو بالمثل أو بالمفاجأة من غير دعوة (٢) . ويؤكد الله سبحانه هذا النهى بقوله « إِنَّ الله لا يُحِبُّ المعتدين » ثم يحدد الله سبحانه الغاية التى يقف عندها القتال « فَإِنِ انتهوا فَإِنِ الله غفور رحيم » . ويفسر جمهور علماء المسلمين (الانتهاء) بمعنى الاسلام ، والانتهاء عن الشرك والكفر ، ويوجبون قتال المشركين إلى أن يسلموا . . وهذا هو الانتهاء الذى يستحق رحمة الله ومغفرته لا مجرد الانتهاء المؤقت عن قتال المسلمين وفتنتهم عن دينهم كما تبادر إلى أذهان بعض المحدثين (٣) .

وقد فسّر الله (الانتهاء) فى الآية التالية بقوله (حتى لا تكون فتنة) والذى عليه جميع المفسرين أن الفتنة تعنى الشرك والكفر . قال القرطبي (٤) : « فَإِنِ انتهوا » أى عن قتالكم بالإيمان فَإِنِ الله يغفر لهم جميع ما تقدم ويرحم كلا منهم بالعفو عما اجترم ، ونظيره قوله تعالى (قل للذين كفروا إِنِ يَنْتَهُوا يَغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنِ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) (٥) . فقول « إِنِ يَنْتَهُوا » يريد عن الكفر . قال ابن عطية : ولا بد والحامل على ذلك جواب الشرط (يغفر ما قد سلف) .

ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنته عن الكفر . وقوله (إن يعودوا) يريد إلى القتال ، لان لفظه (عاد) إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كان الانسان عليها ثم انتقل منها (فقد مضت سنة الأولين) عبارة تجمع الوعيد والتهديد .

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الأنفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فَإِنِ انتهوا فَإِنِ الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) (٦) . قال الزمخشري (٧) : « فَإِنِ انتهوا » عن الشرك والقتال « حتى لا تكون فتنة » أى شرك « ويكون الدين لله » أى خالصا ليس للشيطان فيه نصيب (فلا عدوان إلا على الظالمين) فلا تعتدوا على المنتهين لأن مقاتلتهم عدوان وظلم ، فوضع قوله على الظالمين موضع قوله على المنتهين . فالجاهدون المسلمون مأبورون بأن يقاتلوا اعداء دينهم (من المشركين) حتى يقضوا على هذه القوة المعتدية الظالمة ، وحتى يصبح الدين كله لله .

وتكرار الحديث عن الفتنة بعد تفضيها واعتبارها أشد من القتل لأن الاعتداء على العقيدة أشد خطرا من الاعتداء على النفس . فالعقيدة عند الله أعظم

١ (النساء / ٧٦ . والزمخشري والطوسى والطبرسى

٢ (الكشاف / ٢٤٢/١ . والالوسى والجصاص وغيرهم .

٣ (الانفال / ٢٨ .

٤ (الانفال / ٢٩ - ٤٠ .

٥ (الكشاف / ٢٤٢/١ .

٦ (أنظر الدستور القرآنى ٢٩٥/١ محمد

عزة دروزة والتفسير الحديث للمؤلف

نفسه .

٧ (تفسير القرطبي ٢٥٢/٢ وابن كثير

قيمة من الحياة . وإذا كان المؤمن ماذونا فى القتال للدفاع عن حياته وماله فهو من باب أولى ماذون بأن يدفع عن عقيدته ودينه .

وقد وعد الله الذين يفتنون الناس عن دينهم بعذاب الحريق (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) (١) . (ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) (٢) . . « ذوقوا فتنكم هذا الذى كنتم به تستعجلون » (٣) . .

فالهدف الذى حددته الآيات الكريمة من القتال هو حماية عقيدة الناس من الفتنة ، بالأى صرف أحد عن دينه ولا يؤذى فى عقيدته بالقوة والتعذيب والإغراء . . وأن يعز جانب دين الله وترتفع رأيته فلا يجرؤ أحد على التعرض لمعتقيه بالفتنة .

ولا شك أن هذه غاية سامية وهدف نبيل . ويجب الأى يفهم من هذا أن الإسلام يكره الناس على الإسلام فهذا أبعد ما يكون عن طبيعة الدين وأهداف الجهاد ، وإنما الآيات فى رأى خاصة بمشركى الجزيرة العربية الذين ليس لهم إلا الإسلام أو السيف لحكمة سنشرحها فى مكانها أما غيرهم فيقبل منهم الجزية ولا يؤخذون بهذه الشدة .

قال صاحب المنار (٤) « وقتلوهم حتى لا تكون فتنة » هذه الآية بينت غاية القتال وهى الأى يوجد شىء من الفتنة فى الدين (ويكون الدين كله لله) أى يكون دين كل شخص خالصا لله لا أثر لخشية غيره فيه ، فلا يفتن لصدده عنه ولا يؤذى فيه ولا يحتاج فيه الى الدهان والماراة أو الاستخفاء والمجابهة . . وغاية قتال الإسلام للمشركين هى القتل أو الإسلام لأنهم يقاتلون المسلمين دائما لارجاعهم عن دينهم وصددهم عن سبيل الله ومنعهم نشر الدعوة . .

فقد قال تعالى فى جرائم هؤلاء المشركين الموجبة لقتلهم واستئصال شأفتهم (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) (٥) .

فالآية ذكرت بعض كبار قريش من صد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وكفر بالله وإخراج أهل المسجد الحرام وهم رسول الله والمؤمنون منه بالقوة ، وفتنة المؤمنين عن دينهم بالتعذيب والتنكيل والإغراء والتهويش . وإلى كل هذا انهم (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم) فهذا إخبار من المولى عز وجل عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وانهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم (٦) .

أما الغاية من قتال غير المشركين من أهل الجزيرة العربية فقد حددته آخر السور نزولا (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (٧) .

- ١ (البروج / ١٠ . .)
٢ (البقرة / ٢١٧ . .)
٣ (الذاريات / ١٤ / والنساء / ٩١ / والاحزاب / ١٤ / والمائدة / ٤١ / الصوبة / ٢٩ . .)
٤ (تفسير المنار ٢ / ٢١١ . .)
٥ (البقرة / ٢١٧ . .)
٦ (الكشاف / ١ / ٢٥٧ . .)
٧ (الاتعام / ٢٣ / والنحل / ١١٠ . .)

فالاسلام يتساهل مع اهل الكتاب تكريماً لكتابتهم ، فيخيرهم بين الاسلام أو القتال أو الجزية فجعل لقتالهم غاية وهي إعطاء الجزية بدلا من القتل (١) .
 وعلى أية حال فالاسلام يقرر مبدأ رد الاعتداء والدفاع بكل صورة وأشكاله . . والاعتداء يتصور ويتحقق بالاعتداء على النفس أو المال أو العقيدة أو الأرض كأن يبتدىء العدو بقتال المسلمين بأن يتقدم لغزو الأرض الإسلامية ، ويحاول إخراج المرابطين بالفعل من أماكنهم فالاعتداء في هذه الحال كائن بالفعل وإن لم يدخل الديار لأنه لا يكون منه بعد ذلك إلا أن يدخلها ، فهنا يجب أن يقف المقاتلون لرد كيد العدو في نحره ويستجيبوا لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) (٢) .
 ومن صور الاعتداء اضطهاد العدو للمؤمنين الذين يقيمون في أرضه ومحاولته أن يفتنهم عن دينهم الذي ارتضوه كما فعل كفار قريش مع المستضعفين الذين عجزوا عن الهجرة مع النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه وقد ذاقوا أشد ما يبتلى به مؤمن في دينه ، كما أودى النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه قبل الهجرة (٣) .

وقد قرر القرآن الكريم مبدأ الدفاع عن المسلم أينما كان بغض النظر عن المكان الذي يعيش فيه واعتبر الظلم والبغى والاضطهاد الذي يقع على مسلم ولو في أقصى الشرق أو الغرب مبررا لانتصار سائر اخوانه المسلمين ، ، وقتال عدوه قال تعالى (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وأجعل لنا من لدنك وليا وأجعل لنا من لدنك نصيرا) (٤) .

فالآية تحث المسلمين على تخليص اخوانهم المستضعفين المضطهدين وانقاذهم ونصرتهم على ظالمهم والمعتدين عليهم، ودفع الأذى عنهم . فأباح الله التدخل في شؤون الغير الداخلية لانقاذ المسلمين الذين يقعون تحت سيطرتهم وتعذيبهم وهذا هو الجهاد المشروع الذي جعله الله (في سبيله) (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله) وليس للمجاهد فيه أي مغنم أو مكسب دنيوي ، بل هو امتثال لأوامر الله طمعا في رضاه والجنة وخوفا من عقابه والنار . . فعلى المقاتلين في كل زمان ومكان تخليص اخوانهم من البلاء . .

قال القرطبي (٥) : حض الله تعالى على تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين — يسومونهم سوء العذاب ، ويفتنونهم عن الدين ، فأوجب الله الجهاد لاعلاء كلمته واطهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده ، وان كان في ذلك تلف النفوس) . .

ولازالت هذه الآية الكريمة تهتف بالمؤمنين في كل مكان وتستثير حميتهم ونخوتهم لانقاذ اخوانهم المسلمين الذين وقعوا تحت ضغط الاستعمار والاحتلال حتى يتخلصوا من ذل الكفرة وفتنتهم .

فالله سبحانه (يمقت الظلم والظالمين والذين يقبلون الإمامة على السذل والخسف ويرضون بالهوان ، ولا يقومون بالدفاع عن أنفسهم، ويحاولون التخلص

١ (تفسير القرطبي ١١٠/٨ . المؤثر الرابع للبحوث سنة ١٩٦٨) .

٢ (التوبة / ١٢٣ . النساء / ٧٥) .

٣ (الجهاد ١/ للشيخ محمد أبو زهرة . ٥ (تفسير القرطبي ٢٧١/٥) .

من الظالمين بكل وسيلة ممكنة . فقد ورد في سورة النساء (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، أولئك ماواهم جهنم وساعت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله غفورا رحيبا) .

ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيبا (١) .

فالأيات صرخة مدوية في وجه الظلم والرضا به ، ووعيد وتهديد لمن يقبل الظلم على نفسه ولا يهب للدفاع عنها ، وفيها ترغيب للخروج من دار الذل إلى دار العز والقوة ، حيث يتمكن المظلوم من إعداد العدة للقضاء على الظالمين ، واجتثاث شجرة ظلمهم من الأرض وتخليص الضعفاء الذين تعد بهم عجزهم عن الهجرة والدفاع عن أنفسهم . .

وقد ندد الله تنديدا عنيفا بالذين لم يلحقوا بدار الإسلام ورغبوا في الإقامة في دار الكفر (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (٢)) . وقد عداهم الله سبحانه من المنافقين والمرتدين عن الإسلام وأمر بأخذهم أسرى وتقتيلهم تقتيلا شديدا والأ تكون بينهم وبين المسلمين مودة ولا موالاة ، فلا تأخذهم بهم رحمة — ولا شفقة .

(فما لكم في المنافقين فئتين الله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا ، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) (٣) . .

قال مجاهد : هم قوم خرجوا من مكة حتى جاءوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ، ثم ارتدوا بعد ذلك ، فأستأذنوا النبي عليه الصلاة والسلام إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فاختلف فيهم المؤمنون فقائل يقول : هم منافقون ، وقائل يقول : هم مؤمنون فبين الله تعالى نفاقهم وأنزل هذه الآية وأمر بقتلهم .

ويروى أيضا أن قوما من العرب أتوا رسول الله فأسلموا وأصابوا وباء المدينة وحماها فأركسوها ، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ، فقالوا : مالكم رجعتم فقالوا : أصابنا وباء المدينة فاجتوبيناها فقالوا : مالكم في رسول الله أسوة ؟ فقال بعضهم : نافقوا ، وقال بعضهم : لم ينافقوا هم مسلمون ، فأنزل الله هذه الآية (٤) . فقال القرطبي (٥) : هذان القولان يعضدان سياق آخر الآية من قوله تعالى (حتى يهاجروا) . وهذا وإن كلمة (ظلم) ومشتقاتها قد وردت في القرآن الكريم نيفا وثلاثمائة مرة حيث يدل هذا على ما أولته حكمة التنزيل من اهتمام عظيم لمعالجة ما انطوى في هذه الكلمة التي تتجسد فيها معان عديدة ما تلهمه الآيات التي وردت فيها كالجور الذي هو ضد العدل ،

٤ (أسباب النزول للواحدى / ١١٢) .

٥ (تفسير القرطبي ٣٠٧/٥) .

١ (النساء ٦٧ — ١٠٠) .

٢ (الاتفال ٧٢) .

٣ (النساء ٨٩) .

والانحراف عن طريق الحق ، والجنابة على النفس والإضرار بها وبالغير ، والعدوان على حريات الناس وحقوقهم وأموالهم ودمائهم وبخاصة الضعفاء ، واستغلالهم والتحكم فيهم والاستكبار عن دين الله وسبيله والصد عنهما واقتراف الآثام . وبكلمة أخرى كل المنكرات والفواحش .

ومعظم الآيات التي جاءت فيها كلمة (ظلم) والتي تغنى كثرتها وانبثاها في معظم السور عن التمثيل لها هي بسبيل التنديد بالظلم والظالمين على اختلاف مدلول الكلمة ، والجملة عليهم ولعنهم وبيان ما سوف يلقونه من الخزي في الدنيا والآخرة والتعريض بهم والتحريض على قتالهم وإيجاب مكافحتهم ، ومقاومتهم بكل وسيلة وعدم الإذعان لهم والسكوت عنهم . وتلقين ما في ذلك من عزة وكرامة وحق ونصر لدين الله ، وتلقين ما في ذلك من اثم ومنكر وذل ومهانة وتشجيع على الظلم واستشرائه .

وفي كل ذلك ما ينطوى على هتاف قرآني مدو ضد الظلم والظالمين ودعوة مدوية إلى وجوب جهاد الظلم واقتلاع جذور الظالمين (١) . .

ومن صور الاعتداء التي يجب ردها النكث في العهد . فان نكث الأعداء أيمانهم حق قتالهم دفعا للاعتداء الواقع أو الشر المتوقع . لقوله تعالى (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين) . (٢)

قال القرطبي : (٣) نزلت في بني قريظة وبني النضير في قول مجاهد بغيره نقضوا العهد فأعانوا مشركي مكة بالسلاح . ثم اعتذروا فقالوا : نسينا ، فعاهدهم عليه الصلاة والسلام ثانية فنقضوا يوم الخندق .

قال ابن عطية : والذي يظهر من الفاظ القرآن أن أمر بني قريظة انقض عند قوله (فشرد بهم من خلفهم) ثم ابتداء تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره فيما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة ، فتترتب فيهم هذه الآية . .

فالنكث للعهد ، أو الذي يخشى غدره وخيانتته يجب أن يحارب وينكل به دفعا لشره وأذاه وقد حرض سبحانه على قتال الناكثين لعهدهم كثيرا فقال (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) (٤) .

وان الاعتداء قد يكون له صورة غير ما سبق ، وهي الحالة التي يدخل فيها العدو أرض الإسلام غازيا منتهكا الحرمات ، مخربا الديار ، فان الاعتداء في هذه الحال يكون شديد الوقع قوى الأثر ، إذ هو غزو للإسلام في داره . وفي هذه الحالة يكون القتال نرض عين يجب على كل من يقدر على حمل السلاح أن يحمله بعدت الديار أو دنت لان أرض الإسلام واحدة (٥) .

وقد أباح الله تعالى القتال في الأشهر الحرم وفي المسجد الحرام في هذه الحالة دفعا للاعتداء وحتى لا يطعم فيهم العدو ، الذي لا يرعى حرمة للشهر الحرام ولا للبلد الحرام . هذا هو الباعث الأول على القتال المشروع في الإسلام وهو يتفق مع كل ما قررتة الطبائع البشرية ونزلت به الأديان السماوية .

١ (التفسير الحديث ١٠٧/٧ لمجد عزة ٣) تفسير القرطبي ٢٠/٨ - ٢١ .

٤ (التوبة ١٢/١٤) .

٥ (الجهاد ٢٩/٢٩ للشيخ محمد أبو زهرة .

٢ (الاتصال ٥٥/٥٥ .

الباعث الثاني : حماية حرية نشر الدعوة :

وقلت (لحرية نشر الدعوة) ولم أقل (لنشر الدعوة) ، لأن هذا قد يعنى إكراه الناس على الإسلام وهذا ليس من أهداف الجهاد فى سبيل الله ، ولا من طبيعة الدعوة الإسلامية . وقد سبق أن قلت أن الجهاد لا بد أن يكون (فى سبيل الله) وإذا خرج عن هذا السبيل فهو فى سبيل الطاغوت . والباحث المتأمل فى كتاب الله يجد أن الآيات التى تضمنت تعبير (سبيل الله) كثيرة ومتنوعة الأسلوب والمناسبات ، هذا فضلا عن أن جل آيات القرآن وفصوله ، إن لم نقل كلها ، إنما هى فى الحقيقة فى معرض بيان سبيل الله والدعوة اليه ولو لم تتضمن ذلك التعبير . لأنها تضمنت بيان تعاليم الله الإيمانية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية والشخصية والإنسانية والحث على التزام ما أمر به واجتناب ما نهى عنه . والكفاح فى سبيلها وإقامة الحجة لها وضرب الأمثال والعبر عنها والتنديد بالذين وقفوا ضدها يناوئونها ويصدون عنها وإنذارهم وتقريعهم والتنويه بالذين استجابوا لها والتزموا حدودها (١) .

والأمة الإسلامية مكلفة بنشر هذه الدعوة وتوصيلها للناس جميعا فى كل زمان ومكان . وإن قصرُوا فى ذلك فهم آثمون مستحقون لمقت الله وغضبه فى الدنيا والعذاب والخزى فى الآخرة . وقد ورد هذا التكليف فى أكثر من موضع من كتاب الله « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (٢) .

« لِمَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مَنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » (٣) . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٤) .

وقد جعل الله تعالى الغاية من القتال فى سبيله هى القيام بنشر الدعوة وأمر الناس بالمعروف ونهيهن عن المنكر « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » (٥) .

والقيام بهذا الواجب الدينى يجب أن يقوم به المسلمون دولا وأفرادا بصفة ثابتة مستمرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ولنستمع إلى قول الحق تبارك وتعالى « وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبىكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » (٦) . فالله سبحانه قد كرم الأمة الحمديّة باختيارهم لنصرة دينه وتبليغه للناس وليكونوا شهداء عليهم يوم القيامة .

٤ (آل عمران / ١١٠) .

١ (الدستور القرآنى / ٤١/١) .

٥ (الحج / ٣٨ - ٤١) .

٢ (آل عمران / ١٠٤) .

٦ (الحج / ٧٨) .

٣ (المائدة / ٧٨ ، ٧٩) .

قال القرطبي (١) : وهذه الآية تدخل فى كثير من الأحكام ، وهى مما خص الله به هذه الأمة روى معمر عن قتادة : أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم يعطها إلا نبي . كان يقال للنبي اذهب فلا حرج عليك ، وقيل لهذه الأمة : وما جعل عليكم فى الدين من حرج والنبي شهيد على أمته وقيل لهذه الأمة (لتكونوا شهداء على الناس) ويقال للنبي : سل تعطه وقيل لهذه الأمة : (ادعوني استجب لكم) . ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢) . والآيات واضحة الدلالة فى تكليف المسلمين بتبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة كما بلغهم إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا الهدف الخير من أسمى أهداف الجهاد فى الإسلام ، إذ وعد الله الذين يسيرون على هدى الرسول فى تبليغ الرسالة الجزاء الحسن والفلاح فى الدنيا والآخرة ، وفى الوقت نفسه توعد الذين ينكصون على الأعقاب ولا يبيضون على طريق نشر الدعوة بعد موته . لقوله تعالى :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » (٣) .

ولما كانت رسالة النبي عليه الصلاة والسلام آخر الرسالات ، ودينه آخر الأديان ، وهو آخر الأنبياء للناس كافة حتى تقوم الساعة ، فقد جعل الله هذه الرسالة عامة للناس جميعا أسودهم وأحمرهم وأبيضهم وأصفرهم وليست لجنس دون جنس أو لون دون لون أو لغة دون لغة . وهذا ما شهد به الحق تبارك وتعالى . فقد أكد تعالى هذه الحقيقة فى مواضع كثيرة وبأساليب متنوعة وفى سور متعددة ومناسبات مختلفة :

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (٤) . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٦) . « قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (٧) . « قل ياأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » (٨) .

فالدين الإسلامى هو دين الإنسانية العام ، ولا يقبل الله من الناس ديناً غيره ، وقد وعد الله بأن يظهره على سائر الأديان كلها ولو كـفره الكافرون :

« إن الدين عند الله الإسلام » (٩) « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (١٠) . « أفغير دين الله يبغون

- | | |
|--|-------------------------------------|
| ١ (تفسير القرطبي ١٠٠/١٢ . | ٧ (الأعراف ١٥٨ ، انظر الأعراف أيضا |
| ٢ (البقرة / ١٤٣ . | ١٥٦ و ١٥٧ و المائدة / ١٥ و ١٦ و ٤٨ |
| ٣ (آل عمران / ١٤٤ . | والأنعام / ١٥٣ ويونس / ٥٧ |
| ٤ (الفرقان / ١ . | ٨ (الحج / ٤٩ . |
| ٥ (سبأ / ٢٨ . | ٩ (آل عمران / ١٩ . |
| ٦ (الأنبياء / ١٠٧ والنساء ١٧٤ و ١٧٥ . | ١٠ (آل عمران / ٨٥ . |

وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون « (١) .
« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون » (٢) .

ووعده الله الذين يسعون لاقامة هذا الدين بالاستخلاف فى الأرض
وبالتمكين لهم ودينهم « وعد الله الذين آمنوا منكم وعمـلوا الصالحات
ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى
ارتضى لهم » (٣) .

والنصوص القرآنية الكثيرة التى تأمر النبى عليه الصلاة والسلام
والمؤمنين فى تبليغ هذه الرسالة للناس كافة تؤكد هذه الحقيقة (عالية
الدعوة) وتطالب كل من يدعى الإيمان أن يجاهد فى سبيل نشرها . « يأيها
الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك
من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين » (٤) . « فمن توليتم فاعلموا أنما
على رسولنا البلاغ المبين » (٥) . « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا
إن عليك إلا البلاغ » (٦) . وقد أنكر الكثير من المستشرقين ومن ينهلون من
سهم من المستغربين هذه الحقيقة التى لا مراء فيها — واستشهدوا على
مفترياتهم ببعض الآيات المبكرة النزول بمكة المكرمة « وكذلك أوحينا إليك قرآنا
عربيا لتذمر القري ومن حولها » (٧) . « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم
يتذكرون » (٨) . « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » (٩) . و « لكل أمة
رسول » (١٠) .

واستشهادهم بهذه الآيات يدل على سوء فهم لها ولطبيعة الدعوة
نفسها . فلا حجة لهم فى الاستشهاد بها ، لأن الدعوة الإسلامية نزلت فى
الأمة العربية التى اختارها الله لهذا الأمر اختيارا لتكون خير أمة أخرجت للناس،
ولتحمل هذه الدعوة بعد فهمها وتطبيقها إلى الناس كافة . فمن الطبيعى والأمر
كذلك أن يبدأ الرسول بأقرب الناس إليه عشيرته وبلده ومن حولها لتكون
القاعدة العامة للانطلاق الكبير نحو شعوب الأرض ، ومن الطبيعى أن يكون
القرآن باللغة العربية لأنه نزل فى العرب فهل يريدونه أن ينزل بالعجمية
أو بشتى لغات الأرض حتى يكون عالميا وللناس كافة ؟ . ولا عجب فالمرء
والتعصب الذميمة يصنعان أكثر من هذا كما سنرى . وادعوا أيضا أن الدعوة
الإسلامية لم توجه أبدا إلى أهل الكتاب ، وهذا أيضا بهتان كبير . فأيات الله
البيانات التى تدعو أهل الكتاب كثيرة كثيرة مفرطة ، أفردت لها لكثرتها فصلا
خاصا بها . ومن أمثلة ذلك « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء
بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا
أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون » (١١) . وقد

٣٥ و ٨٢ والنور ٥٤ والمنكوت ١٨

١ (آل عمران / ٨٣ .

والتغابن ١٢ .. الخ .

٢ (الطوبة / ٢٣ .

٧ (الشورى / ٧ .

٣ (النور / ٥٥ .

٨ (الدخان / ٥٨ .

٤ (المائدة / ٦٧ .

٩ (ابراهيم / ٤ .

٥ (المائدة / ٩٢ .

١٠ (يونس / ٤٧ .

٦ (الشورى / ٤٨ / وآل عمران / ٢٠ / والمائدة

١١ (آل عمران / ٦٤ .

٩٩ والرعد ٤٠ و ابراهيم ٥٢ والتحل

أثنى تبارك وتعالى على الذين آمنوا برسالة محمد من أهل الكتاب مما يدل على ان الدعوة وجهت إليهم « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . إلى قوله « واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » (١) .

وها هي الكتب الثمانية التي أرسلها رسول الله إلى ملوك الأرض في زمانه ومنهم أهل الكتاب كغيرهم من الناس ، شاهدة على كذب المستشرقين وتعصبهم .

وقد وردت في بعض هذه الكتب عبارة (إنّي رسول الله إلى الناس كافة ...) .

فهذه رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى كسرى ملك الفرس :
بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ادعوك بدعاية الله عز وجل **فإني رسول الله إلى الناس كافة لأبذر من كان حياً ويحق الحق على الكافرين** أسلم تسلم ، فان توليت فعليك أثم الجوس » (٢) .

أما المنصفون من المستشرقين فقد راوا هذه الحقيقة واضحة وقالوا فيها قولاً كريماً .

قالت الدكتورة (لورا فيشيا فاغليري) : وأزعج التحول السياسي والديني العميق طائفة من الناس فراحوا يتساءلون ما الذي أدى إلى حدوثه ولكن كثيراً منهم كانوا عمياً ، أو كانوا يغمضون أعينهم عمداً ، هائمين طويلاً على نحو يائس في متاهة التخمينات الخاطئة ، إنهم لم يريدوا أن يعتقدوا أن حكمة الله وحدها كانت مسئولة عن رسالة محمد ، آخر الأنبياء الكبار حملة الشرائع والنبي الذي ختم سلسلتهم إلى الأبد . **إن مثل هذه الرسالة كان يتعين عليها أن تكون رسالة عالمية لجميع أفراد الجنس البشري** من غير تمييز وعلى اختلاف الجنسيات والأوطان والأعراق . لقد كان أولئك إمّا عمياً وإما غير راغبين في أن يـروا » (٣) .

ومنهم الكاتب الفرنسي (ديسون) (٤) : « وبلغ محمد الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض ، ذلك أن الإسلام لم يكن ديناً للعرب ، وإمّا هو دين الانسانية من أقصى الأرض إلى أقصاها » . وقال المؤرخ الإنجليزي (أرنولد) قولاً فصلاً في هذه المسألة (لم تكن رسالة محمد مقصورة على بلاد العرب ، بل للعالم أجمع نصيب فيها ، ولما لم يكن هناك إلا إله واحد كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة ، ولكي تكون هذه الدعوة عامة وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي بعث بها محمد في السنة السادسة من الهجرة إلى عظماء ملوك العصر . وهكذا صرّح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمان طويل .

١ (الأعراف / ١٥٧ .
٢ (تاريخ الطبري ٢ / ٢٩٦ ، امتاع الاسماع للمقريزي ١ / ٣٠٩ والاتوار المحمدية من المواهب اللدنية / ١١٦ .
٣ (دفاع عن الاسلام / ٢٨ تعريب منير البعلبكي .
٤ (المحمديات / ٢٧ تعريب عمر أبو النصر .

ومن الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصده به مؤسسه في بادئ الأمر ، أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البينات ومن بينهم (وليم ميور) إذ يقول « إن فكرة عالمية الدعوة قد جاءت فيها بعد ، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كان تفكيره غامضاً . فإن عالماً الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يهياً لها ، وإن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم » (١) .

وقد فند المستشرق الأمريكي (لوثرود ستودارد) (٢) أقوال الذين ينكرون عالمية الدعوة الإسلامية تنفيذاً علمياً دقيقاً واستشهد في تدعيم رأيه على كثير من المنصفين في فهم هذه الحقيقة بالذات .

وحسبى هذه الشهادات من المستشرقين المنصفين للرد على إخوانهم من الذين أعماههم التعصب عن رؤية نور الحقيقة الناصعة ، ولتنبيه المسلمين الذين أزعجتهم حملات المستشرقين الماكرة على الجهاد الإسلامي فراحوا يقولون إن الجهاد لا يهدف إلا للدفاع عن النفس والوطن العربي وصحارى جزيرة العرب !!

وقد أطلت قليلاً في بيان هذه الحقيقة (عالمية الدعوة) لأنها الأساس الذى يقوم عليه شرعية نشر الدعوة الإسلامية ..

وإن كانت هذه الدعوة ليست للعرب وحدهم وإنما هي للناس كافة فمن حق البشرية كلها على المسلمين أن تبلغ اليهم هذه الدعوة ، والاتقف أية عقبة أو حاجز أو سلطة في وجه من يقوم بتوصيلها إلى الناس . فإذا وقفت أى قوة في وجه الدعاة وحالت بينهم وبين أسماع الناس وقلوبهم ، وجب على الجماعة المسلمة أن تجاهد لتحطم الحواجز والنظم الطاغية ، وتقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق ويضمن سلامة الدعاة وأمن الذين يسلمون من الأذى والفتنة .

يقول الأستاذ / محمد دروزة (إن الوقوف في وجه الدعوة إلى الله وسبيله، وصد الناس عنها وتعطيلها ، والحيلولة دون حريتها والظعن فيها ، والعدوان على دعائها والمستجيبين إليها ، مما يبرر للدولة وللمسلمين عامة الجهاد والنضال . حتى ينتهى الباغون من موقفهم ويضمن للدعوة ودعاتها والمستجيبين إليها ، الحرية والصيانة والانطلاق .) (٣)

ولهذا فقد توعد الله تعالى الذين يصدون الناس عن الحق في أكثر من أربعين آية مكية ومدنية نورد منها على سبيل المثال قوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب) (٤) . (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل الله أعمالهم) (٥) .

وفى السورة نفسها (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم) (٦) . وكان أهل الكتاب يصدون عن سبيل الله فعاتبهم الله في أكثر من موضع (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء

(١) The Caliphate P.P. 43-49 (٤) النحل / ٨٨ .

(٢) حاضر العالم الإسلامي من ص ٢٤ إلى (٥) محمد / ١ .

(٣) محمد / ٢٢ - ٢٤ .

(٤) الدستور القرآنى ١/ ٥٧٧ .

وما الله بغافل عما تعملون ، يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) (١) . (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) (٢) .
 وقد برر الله تعالى الإذن بقتال المشركين بصددهم عن سبيل الله (خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله) (٣) .
 فقتال هؤلاء الطغاة الذين أقاموا الحواجز فى طريق الدعوة وصددهم عن تبليغ دعوتهم للناس وصدوا الناس عن الإيمان بالله وفتنوهم عن دينهم ، قتالهم واجب على كل مسلم بالمال والنفس ولهذا فقد أمر الله بقتالهم وتشدد النكير على أئمتهم وكبرائهم الذين يتزعمون مقاومة الدعوة . (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتمون) (٤) .

(لعلهم ينتهون) أى عن كفرهم وباطلهم وأذيتهم للمسلمين . وذلك يقتضى أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم لينتهوا عن مقاتلتنا ويدخلوا فى ديننا) (٥) .
 فالآية الكريمة خصت (أئمة الكفر) بالقتال . وهم ذوو الرياسة والتقدم فى الكفر لا يشق كافر غبارهم . (٦) وهم الذين يتصدون لصد الدعوة وتعطيل حرية نشر الدعوة حفاظا على مكاسبهم ونفوذهم وسلطانهم ، فإذا توجه المجاهدون اليهم بالقتل زالت الحواجز بين الإسلام وشعوبهم وهذا ما يريده الجهاد الذى لا يتوجه بالقتال إلا للمقاتلين والصادين ولا يتعرض للشعوب والمسالين الذين لا يريدون شرا بالاسلام وبالمسلمين . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على الأهداف النبيلة التى يهدف إليها الجهاد فى سبيل الله . ومن أهداف الجهاد السامية أيضا إزالة هؤلاء الطواغيت الذين كثيرا ما يستعبدون شعوبهم ويصرفونهم عن رؤية الحقيقة ، ويدعون لأنفسهم الألوهية من غير الله ، ويشرعون للناس الأحكام والقوانين .

فمن حق هذه الشعوب على المسلمين أن يحرروهم من العبودية لغير الله وتحطيم كل النظم الباغية التى يتخذ الناس فيها بعضهم بعضا أربابا من دون الله ..

وقد تضمنت كتب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ملوك الأرض التعبير عن هذا الهدف النبيل فهذا كتاب النبی صلى الله عليه وسلم إلى هرقل قيصر الروم . (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن عليك إثم الأريسيين « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اثشهدوا بآنا مسلمون ») (٧) . وهو نص الكتاب الذى وجهه عليه الصلاة والسلام يحمل المقوقس إثم القبط (فإن توليت فعليك إثم القبط ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا ..) (٨)

- ١ (آل عمران / ٩٦ و ١٠٠ والاعراف / ٤٥) ٦ (الكشاف ١٧٧/٢)
 ٢ (النساء / ١٦٠ والتوبة / ٢٤)
 ٣ (الأنفال / ٤٧)
 ٤ (التوبة / ١٢)
 ٥ (تفسير القرطبي ٨٦/٨)
 ٦ (الكشاف ١٧٧/٢)
 ٧ (آل عمران / ٦٤) (الاتوار المحمدية من الواهب اللدنية / ١٦٦ التبهاتى)
 ٨ (فتوح مصر ابن عبد الحكم ٤٢/٢) وامتاع الاسماع للمقرئى ٢٠٨/١

ومن موجبات قتال أهل الكتاب قوله تعالى (اتخذوا أجبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) (١) .

وقد روى عن عدي بن حاتم رضى الله عنه انه دخل على رسول الله عليه الصلاة والسلام وفى عنقه صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أجبارهم ورهبانهم ..) قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال : « بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال واحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » (٢) .

وقال الزمخشري (٣) : إتخاذهم أربابا أطاعوهم فى الأمر بالمعاصى وتحليل ما حرّم الله وتحريم من حلّه كما تطاع الأرباب فى أوامرهم . ومثله تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به لعباده — يا أبت لا تعبد الشيطان .. وعن الفضيل رضى الله عنه : ما أبالى أطمعت مخلوقا فى معصية الخالق أو صليت لغير القبله . وأما المسيح فحين جعلوه إنا لله فقد أهله للمعبادة الا ترى إلى قوله تعالى — قل إن كان للرحمن ولدا فانا أول العابدين) .

ولهذا أمر الله بقتال هؤلاء وخضد شوكتهم والقضاء على فسادهم مقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (٤) .

فقد جعل الله تعالى لقتالهم غاية (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرين) ولم يقل حتى يسلموا أو يقتلوا فالغاية من قتالهم هى الخضوع لشرع الله وتعاليمه باعطاء الجزية لأولى الأمر من المسلمين ، وبهذا تنتهى غطرستهم وجبروتهم فلا يشرعون للناس الأحكام من دون الله ، ولا يخشاهم أحد من شعوبهم ، أو يلتمس عندهم المنفعة لأن حكم الإسلام العادل يضمن الأمن والطمأنينة والعدل والخير للجميع .

وتحت ظل هذا الحكم العادل يستطيع الناس الذين تحرروا من ظلم هؤلاء أن يختاروا الدين الذى يصلحهم ويرضى عقولهم وقلوبهم . ويستطيع الدعاة أيضا أن يمارسوا حريتهم التامة فى دعوة الناس وشرح تعاليم الله دون خوف من فتنة أو اعتداء من أحد .

(فدعوة الإسلام إلى التوحيد ، وعبادة الله الواحد الأحد ، لم تكن قضية كلامية ، أو عقيدة لاهوتية فحسب ، شأن غيره من الملل والنحل ، بل الأمر أنها دعوة انقلاب اجتماعى Social Revolution) ارادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الأكوهية واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة) (٥) .

فغاية الجهاد فى سبيل الله إذن القضاء على هؤلاء الطواغيت ونظمهم الباطلة الجائرة وأن يستبدل بها نظاما صالحا ومنهاجا معتدلا فيه خير الانسانية وسعادتها ونجاتها من الشر والطغيان . وعندها (لا تكون فتنة) (ويكون الدين كله لله) . وتصبح كلمة الله هى العليا ..

٤ (التوبة / ٢٩)

١ (التوبة / ٣١)

٥ (الجهاد فى سبيل الله / ١٥ لآبى الاملى

٢ (تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٨)

المودودى .

٣ (الكشاف ٢/ ١٨٦ وانظر تفسير القرطبي

١٢٠/٨ .

وقد همم المجاهدون في سبيل الله هذه الأهداف السامية والأغراض النبيلة للجهاد في سبيل الله فانطلقوا بها من قاعدة الإسلام — الجزيرة العربية — إلى أمم الأرض شرقاً وغرباً لا يريدون توسعاً في الملك ولا زيادة في الثروة ، ولا استعلاء في الأرض ، بل أرادوا أن يحرروا الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس ومن جور الحكام إلى عدل الله سبحانه ، انطلقت هذه المعاني السامية على لسان (ربيعى بن عامر) رسول سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه إلى رستم في القادسية وقد دخل على القائد العظيم في ثياب صفيقة فوق فرس قصير لا يزال راكبها حتى يدوس بها طرف البساط ثم يترجل فيربطها ببعض الوسائد ، ويقبل . وعليه سلاحه ودرعه وبيضته فوق رأسه ليرد على من صاح به أن يلقي سلاحه . . (إنما جئتم حين دعوتهمونى فإن تركتهمونى هكذا وإلا رجعت ثم يتوكأ على رمحہ فوق النمارق يقول مدويا مجيبا من سأله عن سبب مجيء المسلمين . . . ما جاء بكم ؟ . . . الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) (١) .

قال الأستاذ / على الطنطاوى : لقد وصف الامام العبقري (ابن تيمية) الفتح الاسلامى بكلمة جامعة لو كان اعجاز بعد القرآن ، لقلت إنها من معجزات البيان ، هي (أن المسلمين الأولين لم ينقلوا الاسلام إلى الأمم ، ولكن نقلوا الأمم إلى الاسلام) .

إن هذه الكلمة القصيرة ستر الفتح الإسلامى ومزاياه وعلّة بقائه واستمراره . فإنها لم تدر في الأرض رحي حرب ، ولم يطأها جيش فاتح إلا ابتغاء أرض يضمها إلى أرضه ، أو شعب يحكمه مع شعبه ، أو غنائم ينالها أو ثأر يطلبه ، أو خيرات يستولى عليها أو كنز يملكه هذه هي غايات الحروب ، وهذه هي مقاصد الفاتحين .

أما المسلمون فقد خرجوا يعلنون كلمة الله وينشرون دينه ، ويبدلون في سبيل ذلك دماءهم وأرواحهم ويفارقون من أجله ديارهم وأولادهم ، لا يريدون علواً في الأرض ، ولا استكباراً ولا يبتغون دنيا ولا يريدون مالا — وكانت غايتهم إصلاح البشر في أخلاقهم ومعايشهم ، وسعادة الناس في دنياهم وآخرتهم ، فكانوا يحملون إليهم مفتاح هذه السعادة وهو القرآن) (٢) .

وقد صرح الكمال بن الهمام بأن المقصود من القتال هو إخلاء العالم من الفساد) (٣) . فهدف الإسلام إذن في غاية السمو ولا قتال إن اضطر إليه إلا للرحمة بجموع الأمة أن تفسد ، و الإسلام هو الرحمة العامة للعالمين) (٤) . وإذا قيل : بأن هذا يأذن بالتدخل المستمر في شئون الغير ، والتدخل اعتداء من الدولة الإسلامية ، وقيل إن الدولة غرضها نفسها ، وليس لها أن تقيم من نفسها شرطياً عالياً . .

قلنا : إن عصبة الأمم المتحدة بعد أربعة عشر قرناً من اعلان الاسلام لهذا المبدأ السامى أقرت مبدأ التدخل الجماعى للسلامة الجماعية ، ولاحقاً الحق وإزهاق الباطل ، وهو مشروع أيضاً دفاعاً عن الانسانية في حالة اضطهاد دولة

(١) تاريخ الطبرى ٢٢٧٠/٥ طبعة أوروبا . (٢) فتح العدير ٢٧٧/٤ .
(٣) مجلة الرسالة عدد (٦٦٢) ١٩٤٦ . (٤) تفسير المنار ٢١٥/٢ .

للأقليات من رعاياها . (١)

وإذا اعتبرنا التكافل البشرى سبب العمران ، وأن العدل أساسه ، فالحيلولة بين المعتدى وبين نفض أساس العمران هي دفاع عن العمران نفسه ، وهو على هذه الصورة دفاع حتى عن المعتدى نفسه يمنعه من شرن نفسه ، فالبشرية كلها كراكبي السفينة إذا أراد أحدهم أن يخرق موضعه كان عليهم أن يمنعوه ويضربوا على يده ويكفوه لئلا يهلك نفسه ويهلك معه . والعبرة في الأعمال بالنية ، فهي التي تصلح الأعمال أو تفسدها . ولا شك في حسن نية الدولة الإسلامية ما دام الباعث لها على التدخل الذي يجر إلى الحرب هو ما يوصى به الضمير . وتستلزمه العقيدة من غرض سام يقصد به وجه الله وحده وإحقاق الحق (٢) .

هذه هي بواعث الجهاد في سبيل الله وأهدافه ، وقد صرح القرآن الكريم بتحريم كل قتال لغيرها ، وأكدت هذا التحريم أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام وسجل التاريخ ذلك لأصحابه الذين لم يريدوا بقتالهم شيئاً إلا وجه الله وتحقيق الأهداف المتقدمة كلها أو بعضها وفي ذلك يقول القرآن الكريم : (يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبنوا إن الله كان بما تعملون خبيراً) (٣) .

وهذه الآية الكريمة توجب التروى والتثبت قبل القتل ، وتوجب قبول مجرد إظهار الإسلام وما يبدو من الناس من أمارات السلام . وقد كررت الآية كلمة (تيبنوا) تأكيداً على التثبت والاحتراز والاحتياط وعدم الاندفاع في القتل . وذكرت المؤمنين بما كانوا عليه قبل أن يكرمهم الله بالإسلام (كذلك كنتم من قبل) أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحبت دماغكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطاة قلوبكم لألسنتكم (فمن الله عليكم) بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدم وإن صرتم أعلاماً فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم ، وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في المكافة ولا تقولوا إن تهليل هذا لاتقاء القتل لا لصدق النية فتجعلوه سلماً إلى استباحة دمه وماله وقد حرمها الله تعالى (٤) . فهو لا يحارب إلا مكرها على القتال (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) وبعد استنفاد وسائل المسالمة جميعاً ، ولذا فهو ينتهز أول فرصة للسلم لإطفاء نار الحرب والكف عن إراقة الدماء . وفي ذلك يقول القرآن الكريم (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم) (٥) . وهذا أمر من الله تعالى للمجاهدين بقبول السلم ووقف القتال بمجرد اظهار العدو رغبته في ذلك حتى ولو كان هنالك احتمال بأن ذلك منهم للخداع والغدر :-

(وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) . . فأى سمو بعد هذا السمو ، وأية غاية أنبل من غاية الجهاد حين يكون لله وحده ، وأية ثقة بالله أكبر من ثقة المقاتلين في سبيله بتأييده لهم (حسبك الله هو الذي أيدك بنصره

- | | |
|--|---------------------------|
| ١ (الرسالة الخالدة للاستاذ / عبد الرحمن | ٢ (الرسالة الخالدة ١٠٤ . |
| عزام ١٠٣ ، ١٠٤ وأصول القاتنون | ٣ (النساء / ٩٤ . |
| الدولى للدكتورين حامد سلطان وعبد | ٤ (الكشاف / ٥٥٥ . |
| الله المرين / ٥٨٣ والقانون الدولى | ٥ (الإنفال / ٨١ . |
| العام للدكتور على أبو هيف ٢٠٦ . | |

وبالمؤمنين) . . فالنصر ليس هو الغاية التي يسعى اليها المقاتل بل غايته إرضاء الله الذي خرج في سبيله . وحمل العدو على الكف عن عدائه والدخول في الإسلام أو المسالمة للمسلمين (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) (١) . و (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويخفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم ، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) (٢) .

فغاية القتال يحددها الله وحده وليست في حاجة إلى شرح ولا تعليق ولا تأويل وفي سورة البقرة نداء من الله للمؤمنين بإعلان السلام والمحبة للناس جميعا (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) (٣) .

وكتاب الله الكريم يفيض بالدعوة إلى السلم والسلام ، وكثرة الآيات يغنى عن التمثيل فقد وردت كلمة « السلم » ومشتقاتها أكثر من أربعين مرة .

والإسلام لا يحرص في جهاده على شيء أكثر من هداية الناس إلى الدين الحق واتباع سبيل الله ، فحتى المشرك المحارب الذي يستحق الضرب بالسيف والذي أمر الله بالترصد له وقتاله دون رحمة ولا شفقة يفسح له الإسلام المجال ويمنحه الفرصة لسماع كلام الله وحقق دمه في ذهابه وحتى يبلغ مأمنه دون إكراه على اعتناق الإسلام . (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) . (٤) .

فلا يريد المسلمون بجهادهم أكثر من تبليغ الناس ما أمرهم الله بتبليغه حتى لا يائسوا على التقصير في أداء هذا الواجب ، وحتى يلقوا الله قائلين (اللهم قد بلغنا اللهم أشهد) كما قال لهم رسول الله يوم حجة الوداع (اللهم قد بلغت اللهم أشهد الألفيلغ الشاهد الغائب) .

ومن ثم فقد أسس الإسلام علاقته مع غير المسلمين على المسالمة والأمن لا على الحرب والقتال ما دام السبيل ميسرا لنشر دين الله وإبلاغ رسالته للناس دون أن يحول الحكام الطغاة بين الدعوة وشعوبهم .

ثانيا : آداب القتال :-

إن المتتبع لحروب الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك في سهولة ويسر أن الدين هو أصل الجهاد في الإسلام وتحرير العقائد وتأمين الدعوة إلى الله وردع البغاة المعتدين هو الغاية من حروبه .

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد بعث بهذا الدين ليتم مكارم الأخلاق فهل تظن أن جنود الإسلام ينسون الدين والخلق والفضيلة عندما يدعون ليقاتلوا في سبيل الله ، وهم إنما يحاربون من أجل الدين والخلق والفضيلة . وإن الحروب الإسلامية لم تكن تحول بين المسلمين والصلاة وقد كان عليه الصلاة والسلام يجمع الصلوات في وقت واحد إذا حبسه المشركون عنها وظل كذلك حتى نزلت آيات صلاة الخوف فهم قوم يصلون حتى في ساحة القتال ، ويذكرون قول ربهم (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقول رسوله (من لم تنته صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا) .

فهل تحدثهم نفوسهم بمنكر قط ، ولكننا نراهم دائما مثالا عاليا للطهر

٢ (البقرة / ٢٠٨ .

٤ (التوبة / ٦ .

١ (النساء / ٩٠ .

٢ (النساء / ٩١ .

والفضيلة والاستقامة (١) . فالإسلام أباح الحروب ولكنه حاطها بسياج من الرحمة لم تبلغها مدنية القرن العشرين ولا ما يقرب منها فقد سن أحكاما وأوجب مراعاتها لتخفيف ويلات القتال وهى خير ما عرف من قوانين الرحمة بالانسان وهذه الاحكام نراها تتفق مع أحكام القانون الدولى فى كثير من المواضع الا انها تخالفها من جهة أنها أحكام دينية شرعها الدين ويقوم بتنفيذها ايمان المسلمين وأما أحكام القانون الدولى فليس لها قوة تنفيذية تكفل امضاءها (٢) . فمن الثابت فى تاريخ الجهاد الإسلامى أن المجاهدين فى سبيل الله كانوا يحاربون فى حدود تعليمات ومبادئ ثابتة من القرآن الكريم ومن وصايا الرسول عليه الصلاة والسلام ووصايا الخلفاء الراشدين من بعده .

ومن أهم هذه المبادئ والوصايا :-

(١) - الوفاء بالعهود والمواثيق وتحريم الغدر والخيانة فى الظاهر والخفاء ومن أحكام الإسلام القطعية النافذة على الافراد والجماعات . وليس مجرد مبدأ خلقى يستعمل حيناً ويهمل حيناً آخر حتى تصبح المعاهدة مجرد قصاصة ورق ، كما هو الحاصل فى العرف الدولى (٣) .

فكانت هذه هى أول مبادئ دولية عرفت البشرية ، وجاءت سابقة على تفكير المدنية الحديثة بألف وأربعمائة عام ، وما زالت سابقة لكل ما وصلت اليه من مبادئ وقوانين ، فى أصلتها وسموها وفى ضمان تنفيذها . . ولعل أبرز ما يؤخذ على المدنية الحديثة : أنها تبيح المباغطة بالهجوم بل تعتبرها براءة عسكرية فتظهر الدولة الود لعدوها وتخفى عنه احتقارها وأطماعها ، وقد تعقد معه معاهدة صداقة وعدم اعتداء إمعاناً فى الخديعة وإخفاء لنيتها المبيتة على العدوان ، ثم تعمد على مفاجاته وأخذة على غرة لتجهز عليه دون مشقة ولا عناء . (٤)

أما الإسلام فلم يأذن بالاعتداء ولم يسمح بحرب المباغطة ، بل أوجب على المقاتلين اعلان الحرب قبل البدء بها . والأوامر القرآنية متعددة فى هذه الناحية (بأبها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) (٥) . (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً) (٦) (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) (٧) .

وإذا شعر المسلمون بخيانة من عدو معاهد أو نية غدر وأرادوا قتاله وجب إعلامه بنبذ عهده إليه قبل قتاله (وإنما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين) . (٨) .

والتزم المسلمون بالوفاء بعهودهم إلى أبعد مدى حتى أنهم لا ينصرون أخوانهم فى الدين على قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق إمثالاً لقوله تعالى (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) (٩) .

قال القرطبى (١٠) : (وإن استنصروكم فى الدين) يريد إن طلب هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لاستنقاذهم

- | | |
|--|---------------------------|
| ١ (نظم الحرب فى الإسلام ٤٢ جمال الدين | ٥ (المائدة / ١ . |
| ٢ (روح الإسلام ٢٨٠ عفيف طيارة . | ٦ (الانراء / ٢٤ . |
| ٣ (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى ١٤١ | ٧ (النحل / ٩ . |
| د . وهبه الزحيلى . | ٨ (الأثقال / ٥٨ . |
| ٤ (الجهاد فى الإسلام ١٣٦ محمد شديد . | ٩ (الأثقال / ٧٢ . |
| | ١٠ (تفسير القرطبى ٥٧/٨ . |

فأعينوهم ، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم ، إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم ، ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته .
 وقال الزمخشري (١) : لا يجوز لكم نصرهم عليهم لأنهم لا يبتدئون بالقتال إذ الميثاق مانع من ذلك) . فقد أوجب إليه نصره المعاهد غير المسلم ولم يوجب نصره المسلم الذى ليس بينه وبين المسلمين ميثاق (٢) .
 والحق إن هذه الآية تعد منفرة للمسلمين على مرّ الأيام واختلاف الأزمان والعصور فقد بلغت من المثالية غايتها ..

(٢) — الرحمة والاحسان حتى فى القتل :

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (٣) . يقول الدكتور / ابراهيم سلامة (٤) : هذه الآية تحدد خطة الإسلام والمسلمين فى الجهاد وفى الحروب فقتال المسلمين مبنى على خلقين عظيمين لا زالت المدنية الحديثة فى حاجة إليهما فيما يكون بينهما من حرب وشجار .

الأول : العدل : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم) أى القتال مقصور على المقاتلين ، فلا تقتل النساء ولا الأطفال ، ولا الرهبان ، لأنهم لم يقاتلوا ولم يعتدوا ، وهم ليسوا مظنة اعتداء ، والله لا يحب المعتدين .
 والثانى : الاحسان : حتى فى القتل ، فلا يكون تعقبا ولا تمثيلا ، ولا لمن القى إليكم السلم) .

وقال ابن كثير (٥) : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) أى قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتدوا فى ذلك ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى كما قال الحسن البصرى من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل ابن حيان وغيرهم ولهذا جاء فى صحيح مسلم عن بريده أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يقول (اغزوا فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع ..
 وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال اخرجوا باسم الله قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع) .

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : وجدت امرأة فى بعض مغازى النبى عليه الصلاة والسلام مقتولة فانكر رسول الله قتل النساء والصبيان . (٦)
 وقد حرض الرسول عليه الصلاة والسلام على تطهير صفوف المجاهدين من الرذيلة والفساد ولم يسمح إلا بخروج المؤمنين الطاهرين الذين يرعون حدود الله فى السلم والحرب .. فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام قال للجد ابن قيس لما أراد الخروج الى تبوك : (يا جد هل لك فى جلاذ بنى الأصفر ؟ فقال

- (١) الكشاف ١٧٠/٢ .
 (٢) التفسير الكبير ٣٩٠/٤ وتفسير المنار .
 (٣) خلق ودين ٣٩٢ .
 (٤) تفسير ابن كثير ٢٢٦/١ .
 (٥) صحيح البخارى ٧٤/٤ .
 (٦) البقرة / ١٩٠ .

الجد : قد عرف قومي انى مفمرم بالنساء ، وانى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر إلا أصبر عنهن ، فلا تفتنى واذن لى فى القعود وأعينك بمالى ، فأعرض عنه رسول الله وقال : « لقد أذنت لك » (١) فنزلت هذه الآية فيه (ومنهم من يقول اذن لى ولا تفتنى الا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لحيطه بالكافرين) (٢) .

فرعاية الحرمات أصل مقرر بصفة دائمة فى ديننا الحنيف ..
قال الامام الشافعى (٣) رحمه الله (ما يعقله المسلمون ويجمعون عليه ان الحلال فى دار الاسلام حلال فى بلاد الكفر ، والحرام فى دار الاسلام حرام فى بلاد الكفر ، فمن أصاب حراما فقد حده الله على ما شاء منه ، ولا تضع عنه بلاد الكفر شيئا) .

فالفضية وتقوى الله هى الزاد الذى يزود به المقاتل فى سبيل الله قبل خروجه للقتال وهى الوصايا التى سجلها التاريخ للخلفاء حين خرجت جيوشهم للقتال فى سبيل الله . ووصايا أبى بكر الصديق رضى الله عنه لأمرء الجيوش تعتبر دستورا عظيما للمجاهدين منها تلك الوصية التى أوصى بها جيش أسامة بن زيد قبل مسيره الى الشام : (ولا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله ، وسوف تمرن بأقوام قد حبسوا أنفسهم فى الصوامع للعبادة ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له) . وقال أبو بكر رضى الله عنه : ليزيد به أبى سفيان حين أرسله إلى الشام « إنى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة إلا لمأكله ولا تحرقن نخلا ولا تفرقنه ولا تغفلن ولا تغبن » (٤) .

والرحمة والعدالة هما اللتان غلقتا قلوب المجاهدين فى سبيل الله وميزتهم عن غيرهم إمتثالا لأمر الله سبحانه « إن الله يأمر بالعدل والأحسان » (٥) . « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » (٦) .

ولم تكن الرحمة عن ضعف ولم تشبها شائبة من ولا استعلاء ، إنما كانت إخاء فى الله بين المسلمين والذين اتصلوا بهم جميعا . ومن ثم يفترق أساس حضارة الاسلام عن كثير من سائر الحضارات ، الاسلام يضع العدل إلى جانب الإخاء ويرى أن الإخاء لا يكون إخاء إلا به « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٧) .

يجب أن يكون الدافع النفسانى وحده والارادة الحرة المطلقة وابتغاء وجه الله دون أى اعتبار آخر مصدر الإخاء وما يدعو إليه من بر ورحمة ، ويجب أن يصدر ذلك عن نفس قوية لا تعرف لغير الله إسلاما » (٨) .

ونستشهد هنا بأقوال بعض المنصفين من المستشرقين الذين يقولون

- ٢ (تفسير القرطبي ١٥٨/٨ .
٣ (التوبة /٤٩ .
٤ (طبقات ابن سعد وتاريخ الطبرى ٢١٣/٣ .
٥ (النبل /٦٠ .
٦ (المائة /٨ .
٧ (البقرة /١٩٤ .
٨ (حياة محمد /٢٢٢ محمد حسين هيكل .
٩ (تفسير القرطبي ٢٤٨/٢ وموطأ مالك .

كلمة الحق احقاقا للحق : قال (غوستاف لوبون المستشرق الفرنسى) .
« والحق ان الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب » . « وإذا
حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم ،
فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذى لم يكن للناس
عهد بمثله » (١) .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة (٢) : (وقد أخطأ الكاتب الفيلسوف فى أن
سمى دخول العرب فى البلاد فتحا ، لأنه كان انقازا وتحريرا للشعوب) .
ولعل فى كل ما بينت من بواعث القتال وغاياته النبيلة وآدابه الرفيعة
خير دليل على خطأ وتعصب القائلين إن الإسلام انتشر بالسيف وان الناس
أكرهوا على اعتناقه بالقوة .

ومسألة الإكراه فى الدين مردودة للدلالة التالية : أول هذه الأدلة ما نص
عليه القرآن الكريم صراحة ، بأن لا إكراه فى الدين ، وان ليس على الرسول
إلا البلاغ ، وأنه ليس عليه هداهم ، ولا مصلحة ذاتية له فى هدايتهم ولا ضرر
عليه فى ضلالهم وكفرهم . والقرآن الكريم كله شواهد على ما أقول ولكنى
سأختار الآيات التى تنص صراحة على عدم الإكراه قال تعالى : « لا إكراه فى
الدين ، قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك
بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » (٣) . « ولو شاء ربك
لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٤) .
« وقتل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٥) « قل
يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن
ضلّ فإنما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل » (٦) . « إنك لا تهدى من أحببت ولكن
الله يهدى من يشاء » (٧) . « أفأنت تسمع الصم او تهدى العمى ومن كان فى
ضلال مبين » (٨) .

وقد حدد وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام فهو مبشر ونذير وليس
بجبار ولا وكيل ولا مسيطر على الناس وأمره ان يدعو الناس بالحكمة والموعظة
الحسنة « إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » (٩) « إنا أرسلناك بالحق
بشيرا ونذيرا » (١٠) « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » (١١) .
وهى وظيفة الرسل جميعا « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » (١٢) .
« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة » (١٣) .
وما على الرسول إلا البلاغ (فإن تولوا فإنما عليك البلاغ) (١٤) .

- | | |
|--|--|
| ١ (حضارة العرب ١٤٥ ، ١٤٦ . | ١٧/ والمائدة ١٠٥/ . |
| ٢ (العلاقات الدولية فى الاسلام / ٣٢ . | ٩ (هود / ١٢ . |
| ٣ (البقرة / ٢٥٦ . | ١٠ (البقرة / ١١٩ والمائدة / ١٩ والاعراف |
| ٤ (يونس / ٩٩ . | ١٨٨ (هود / ٢/ وسبأ / ٢٨ وماطر / ٢٤ |
| ٥ (الكهف / ٢٩ . | والاسراء / ١٠٥ . |
| ٦ (يونس / ١٠٨ . | ١١ (الأحزاب / ٤٥/ والفتح / ٨ . |
| ٧ (القصص / ٥٦ . | ١٢ (الأنعام / ٤٨/ والكهف / ٥٦ . |
| ٨ (الزخرف / ٤٠/ وآل عمران / ٢٠ . | ١٣ (النساء / ١٦٥ . |
| والشعراء / ٣/ والاعراف / ١٥٥ | ١٤ (آل عمران / ٢٠/ والمائدة / ٩٩ . |
| والشورى / ٥٢/ والبقرة / ٢٧٢/ والكهف | |

« فان عرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ » (١) . وانسه ليس عليهم بجبار « وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٢) . « فذكر لأنها أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ، إن إلينا آياتهم ، ثم إن علينا حسابهم » (٣) .

وكما أن الله تعالى لا يقبل إيمان المكره والمقلد ، فإنه أيضا لا يؤاخذ المؤمن إذا أكره على كلمة الكفر ما دام قلبه مطمئنا بالإيمان . لأن الإيمان محله القلب والله يملكه وصاحب التصرف فيه كيف يشاء فلا تستطع آية قوة أن تصل إليه « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » (٤) .

قال ابن عباس : نزلت في عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين عذبوه عذابا شديدا حتى أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها فأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن عمارا كفر فقاتل : كلا ان عمارا ملئء ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه . فأتى عمار رسول الله وهو يبكي ، فجعل رسول الله يمسح عينيه وقال : إن عادوا فعد لهم بما قلت ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (٥) .

وقال القرطبي (٦) : لما سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤخذ به حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب عليه حكم وبه جاء الأثر المشهور عن النبي عليه الصلاة والسلام (رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) . وأجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل ، انه لا إثم عليه ان كفر وقلبه مطمئن بالايمان ولا يحكم عليه بالكفر ، هذا قول مالك والشافعي والكوفيين .

فالإيمان محله القلب ولا نصيب للسان منه « قالت الأعراب آمننا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » (٧) . وعلى أساس هذه الآيات البيّنات ومئات غيرها ترك الناس وقلوبهم لله ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهذا ما أدركه رسول الله عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه ، ومما فهموه بعمق من أسلوب الدعوة الى سبيل الله أن العقائد لا تأخذ طريقها إلى القلوب بالقهر والتخويف وإنما تستقر وتتمكن بالاعتناع والاعتناع ، وبخطاب العقل والقلب معا ولقد جعلت الدعوة إلى سبيل الله المقام الأول للعقل في قبول الإسلام أو رفضه فأول الآيات القرآنية نزولا تدعو الإنسان إلى العلم والتفكير « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » (٨) .

والقرآن يدعو الناس إلى الايمان عن طريق النظر وتدبر عظمة الله وقدرته في خلقه « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت : وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » (٩) .

- | | |
|--------------------------------------|---------------------------------|
| ١ (الشورى /٤٨ والرعد /٤٠ والنحل /٢٥ | ٥ (اسباب النزول للواحدى /١١٠ . |
| والنور /٥٤/ والمعنكوت /١٨ . | ٦ (تفسير القرطبي ١٠/١٨١ . |
| ٢ (ق/٤٥ . | ٧ (الحجرات /١٤ . |
| ٣ (الفاشية /٢١ - ٢٦ . | ٨ (العلق /١ - ٥ . |
| ٤ (النحل /١٠٦ . | ٩ (الفاشية /١٧ - ٢٢ . |

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فمنا عذاب النار » (١) .
ومن القواعد الشرعية الثابتة أن الإسلام الذي يأتي عن طريق الإكراه لا قيمة له عند الله .

فالله يخاطب فرعون حين أعلن إيمانه لما أدركه الفرق وقال « آمنت إنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل » (٢) . فرد عليه تبارك وتعالى « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .

وقوله تعالى « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون » (٣) . « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن » (٤) .

ومن ثم يتضح أن أسلوب القرآن في الدعوة إلى سبيل الله هو أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة والحجة البينة والمنطق السليم الذي يفهمه أولو الأبصار وأن سيوف المجاهدين لم تمتد إلى قلب أحد وإنما امتدت إلى أصحاب السلطان الذين يصدون عن السبيل زيادا عن عروشهم واستثنارا بمنافعهم وإطالة في أمد سلطانهم ، ولا يرجعون في ذلك إلى الحجة والبيان بل إلى السيوف والرماح . فإذا حورب هؤلاء فإتاما يحاربون بسلاحهم ولا يحاربون بالجدل والكلمة الحسنة ، فالسيف للسيف ، حتى إذا انكسر سيف السلطان بقي رعايا الدول أحرارا فيما يختارون لأنفسهم من دين آبائهم أو من الدين الجديد (لا إكراه في الدين . . .) فمن اختار الدين الجديد فهو مسلم كالمسلمين فيما له وفيما عليه ، ومن بقى على دين آبائه فليس عليه غير ضريبة يسيرة يكتسب بها حقوقا عظيمة . « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله . (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ولم يقل قاتلهم حتى يسلموا كرها إن كانوا لا يسلمون كل ما هنالك من حكم السيف أنه قد أبطل حكم السيف الذي لا يدين بالحجة ولا بالرأى وترك الناس لضمائرهم يدينون بما اختاروه من دين الله (٥) .

القول بنسخ آية (لا إكراه في الدين) :

الواقع إن قضية الإكراه في الدين قد شغلت المسلمين وغير المسلمين واختلفوا فيها شيئا وأحزابا . فبعض علماء المسلمين يقول : إن آية « لا إكراه في الدين » منسوخة ويقول البعض الآخر أنها محكمة . والقول بنسخها هو الذي أتاح للمستشرقين أن يرفعوا عقائرتهم صائحين إن الإسلام انتشر بالسيف ويكره الناس على اعتناقه بالقوة . وللعلماء المسلمين في هذه الآية ستة أقوال روتها كتب التفسير (٦) :

الأول : قيل إنها منسوخة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قد أكره العرب على دين الإسلام وقتلهم ولم يرض منهم إلا الإسلام ، قاله سليمان

- | | |
|----------------------------|---|
| ١ (آل عمران / ١٩٠ ، ١٩١ . | ٥ (الفلسفة القرآنية / ٨١ للاستاذ عباس محمود العقاد . |
| ٢ (يونس / ٩٠ ، ٩١ . | |
| ٣ (غافر / ٨٤ ، ٨٥ . | ٦ (تفسير القرطبي / ٣ ، ٢٨٠ و ٢٨١ . |
| ٤ (النساء / ١٨ . | |

ابن موسى ، قال : قد نسختها (يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم) وروى هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين .

الثانى : ليست بمنسوخة وإنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ، والذين يكرهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام فهم الذين نزل فيهم (يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) . . هذا قول الشعبي وقتادة والحسن والضحاك والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمى أيتها العجوز تسلمى ، إن الله بعث محمدا بالحق . قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب ، فقال عمر : اللهم اشهد وتلا (لا إكراه فى الدين) . الثالث : ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال : نزلت هذه فى الأنصار . كانت المرأة مقلاتا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبنائنا : فأنزل الله تعالى (لا إكراه فى الدين) . وفى رواية : إننا فعلنا ما فعلناه ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه ، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنكرهم عليه فنزلت (لا إكراه فى الدين) . من شاء التحق بهم ومن شاء دخل فى الإسلام . وهذا قول سعيد بن جبير والشعبي ومجاهد إلا أنه قال : كان سبب كونهم من بنى النضير الاسترضاع قال النحاس : قول ابن عباس فى هذه الآية أولى الأقوال لصحة اسناده ، وأن مثله لا يؤخذ بالرأى .

الرابع : رواه السدى : نزلت فى رجل من الأنصار تنصر ابنه وأراد ردها إلى الإسلام فنزلت (لا إكراه فى الدين) .

الخامس : وقيل معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبرا مكرها .

السادس : أنها وردت فى السبى إذا كانوا أهل كتاب لم يجبروا إذا كانوا

كبارا ، وإن كانوا مجوسا صغارا أو كبارا أو وثنيين فلأنهم يجبرون على الإسلام .

والذى أكاد أجزم به أن هذه الآية محكمة غير منسوخة ، وعمل بها رسول الله وصحابته وأن حكمها ثابت ثبوتنا بقينا مستمر التلقين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وهى ليست مخصوصة إذ أن الآثار التى استند إليها المخصصون ليست قاطعة الدلالة على التخصيص لأن النص القرآنى عام ، وإفراد فرد من العام بحكم العام لا يخصه (١) .

وإنه لا موجب للقول بالنسخ لأنه لا تعارض بين هذه الآية وبين الناسخ الذى ادعوه (يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) فليس فى النص أى تصريح أو تلميح إلى إكراه الناس على اعتناق الإسلام ، وإنما يلجأ إلى القول بالنسخ عند عدم التوافق بين الآيات . وإذا كان لا بد من القول بالتخصيص فهى مخصوصة بمشركى الجزيرة العربية (عبدة الأوثان) فالتقاعدة الشرعية أن هؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، وقد جرى هذا الحكم أيضا على المرتدين الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ولا تقبل منهم الجزية لقوله تعالى « ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » (٢) . قال الزمخشري (٣) : (إلى قوم أولى بأس شديد) يعنى بنى حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة لأن مشركى العرب والمرتدين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو

١ (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى / ٨١ . ٣ (الكشاف ٥٥٤/٣ وتفسير ابن كثير ٤

السيف عند ابي حنيفة ومن عداهم من مشركى العجم واهل الكتاب والمجوس
تقبل منهم الجزية) .

وقال الأوزاعى : تؤخذ الجزية من كل عابد وثنى أو كافر أو جاحد أو مكذب
وكذلك مذهب مالك . فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع اجناس الشرك
والجحد ، عربيا أو أعجميا تغلبيا أو قرشيا ، كائنا من كان إلا المرتد . وقال
ابن القاسم وأشهب وسحنون : تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأمم كلها .
وأما عبدة الأوثان من العرب فلم يستن الله فيهم جزية ، ولا يبقى على الأرض
منهم احد ، وإنما لهم القتال أو الاسلام .

وقال ابن الجهم : تقبل الجزية من كل من دان بغير الاسلام ، إلا من
أجمع عليه من كفار قريش وذكر فى تعليق ذلك إنه إكرام لهم من الذلة والصغار ،
لكانهم من رسول الله عليه الصلاة والسلام . وقال غيره : إنما ذلك لأن جميعهم
اسلم يوم فتح مكة (١) .

وقال الرازى (٢) : لأنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا
للمعذرة قال بعد ذلك : إنه لم يبق بعد ايضاح هذه الدلائل عذر لكافر فى الإقامة
على كفره إلا أن يُفسر على الإيمان ويُجبر عليه ، وذلك مما لا يجوز فى دار
الدنيا التى هى دار ابتلاء إذ فى القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء
والامتحان . ومما يؤكد هذا القول انه تعالى قال : بعد هذه الآية (قد
تبين الرشيد من الفى) . يعنى ظهرت الدلائل ووضحت البيانات ولم يبق
بعدها إلا طريق القسر والالجاج وذلك غير جائز) . وبمثل هذا قال ابن كثير
والزمخشري والقزطبي والحصاص وأبو حيان وغيرهم ، وقال ابن تيمية (٣)
آية (لا إكراه فى الدين) : جمهور السلف على أنها ليست منسوخة ولا
مخصوصة بل مستمرة الحكم . وإنما النص عام فلا تُكره احدا على الدين ،
والقتال لمن حاربنا ، فان اسلم عصم ماله ودمه ، وإذا لم يكن من أهل القتال
لا نقلته ولا يقدر احد قط ان ينقل ان رسول الله عليه الصلاة والسلام
أكره احدا على الاسلام . ولا فائدة فى اسلام مثل هذا ، لكن من اسلم قبل
منه ظاهر الاسلام) .

وجاء فى كتاب رسول الله إلى أهل اليمن « من كره الاسلام من يهودى
أو نصرانى فإنه لا يحول عن دينه وعليه الجزية » (٤) .
ومن هنا نخلص إلى القول ان آية (لا إكراه فى الدين) ليست منسوخة ولا
مخصوصة بل مستمرة الحكم والتلقين حتى قيام الساعة . .

مفتريات المستشرقين :

لقد أرجف المرجفون من فقهاء القانون الدولى ، وكتاب التاريخ فى أوربا
وافتروا على الاسلام بما هو براء منه ، واتهموه بما ليس فيه ، فصوروه بصورة
بشعة صوروه : —
أولا : بأنه يقوم على القهر والغلبة ، يريد أن يفرض نفسه على مخلوقات الله

١ (تفسير القزطبي ١١٠/٨ .
٢ (التفسير الكبير ٣١٩/٢ .
٣ (رسالة القتال فى مجموعة رسائل ابن
٤ (المحلى لابن حزم ٢٤٩/٧ .

من جميع الأجناس والآديان قوة واقتدارا .
 ثانيا : إنه يحرم الناس من حرية الرأي والعقيدة .
 ثالثا : إن الإسلام فى سبيل نشر دعوته أعلن الحرب ضد جميع الشعوب والأجناس من مختلف الملل والنحل .
 رابعا : إن الحرب هى أصل الصلة بين الإسلام وبين جميع الأمم والدول والسلم لا يكون إلا موقوتا لضرورة مؤقتة ..
 خامسا : زعموا أن الإسلام لا يرفع المعاهد ولا يحفظ الذمة ولا يحترم المواثيق والمعاهدات ..

سادسا : ويذهب بعض كتاب القانون الدولى فى الغرب إلى إدخال المسلمين فى عداد الشعوب المهجبة التى يجب الانتال شرف الانتساب إلى الجماعة الدولية ومن هؤلاء الكتاب (تيودور رويش) حيث قال فى كتابه « الحق إلى الحرب » (يكفى تمجيذا للكنيسة أنها ائتمعت المسيحية بوحدتها

وبوجوب تكوين جمعية دولية تقوم فى وجه المسلمين المهج) (١)
 وقد أكد الكتاب الأوروبيون مرارا أن النبى سلك مسلكا جديدا تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك ، وأنه لم يعد هناك البشير المرسل إلى الناس الذى كان قد ائتمهم بالحجة بصدق الذى أوحى إليه، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصبا مندفعا يستقل كل ما فى سلطته من قوة ومهارة وسياسة فى فرض نفسه وفرض آرائه ..

وقد صرح بهذه التهمة أكثر من كاتب من المستشرقين منهم (ميور)
 (إن الدعائم التى سار عليها محمد وقد كانت سياسية محضة إذ أنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه (٢) ..

والقصد « بذلك الحين » مذبحه بنى قريظة لأنه ساق هذا الحديث بعدها وتعليقا عليها . وقال (واشنطنتون أرفنج) : بدأت فترة هامة فى حياة محمد . فقد ظل حتى الآن ينشر الإسلام معتمدا على الحجة والاقناع ، صابرا على ما يلقاه من أذى المشركين ، حتى نزل كثير من الآيات تحث المسلمين على الجهاد وتبشر من استشهد بالجنة ... وهكذا انتقل الإسلام من دور الحجة والاقناع إلى دور الجهاد والقوة ولم يكن ذلك غريبا على العرب الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام وحب القتال (٣) .

وقال أيضا (إن محمداً بعد الهجرة إلى المدينة قد وصل إلى نقطة تحول كبرى وانحراف عن تعاليم سيدنا عيسى وهى عدم الإكراه واجتتاب وسائل القوة للوصول إلى قلوب الكفار) . وتحديث (Wells) (ويليس) (٤) تحت عنوان (غدر محمد) قائلا : كان دين الله الوحيد ، قد بدأ بتعدد هجوم وغارات نحو قوافل مكة (٥) .

وصرح (هاملتون جب) (٦) أن الحروب الإسلامية عدوانية توسعية) . وهذا قليل من كثير مما وصم به كتاب الغرب المتعصبون الجهاد الإسلامى .

(١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام ؛ Washington Irving, The life of ;
 Moha met P. 103.

(٢) ٢٢٧ - ٢٢٨ للمستشار على منصور
 Wells, H. G. : The outline of (٥ Murir (2) Vol. III P. 282 Moha-
 the history P. 600 met

(٣) حياة محمد ١٤٠ - ١٤٢ . (٦) دراسات فى حضارة الإسلام - ٥٠ وما بعدها .

ولو أن ذلك كان قاصرا على خصوم الاسلام من المستشرقين لهان الخطب ولكننا والأسف يملا جوانحنا ، نجد من الكتاب العرب فى الوقت الحاضر من يردد هذه الترهات عن ايمان بها وتسليم ، منهم الدكتور مجيد قدورى . ففى رسالة له عن الحرب والسلام فى الشريعة الاسلامية ينكر على الاسلام فهمه لقواعد القانون الدولى ، وينكر عليه ارتضاه لها لانه يدعو إلى دولة واحدة تحت لواء الاسلام فى العالم كله ، وانه نتيجة لذلك لا يعترف للدول الأخرى بالاستقلال والسعادة وأن الحرب شرعته لتحقيق أغراضه (١) .

وأضاف إلى ما سلف ما معناه أن المسلمين اعتبروا مبادءهم السياسية والخلقية والدينية أسمى مرتبة من غيرها ، وأن قواعد القانون الدولى أن وجدت لا تقوم عندهم على أساس الرضا المتبادل بين أعضاء الجماعة الدولية : بل تقوم على أساس تفسير المسلمين وفهمهم لمصالحهم السياسية والخلقية والدينية ، يعنى على أساس الأنانية والتعصب (٢) . .

وأسوأ من ذلك قول الدكتور « نجيب أرمنازى » أن التقسيم الإسلامى من حيث العالم إلى دار اسلام ودار حرب ، شبيه بالنظام البلشفيكى ، إذ تعتبر روسيا الوطن العام لكل شيوعى ، فهى دار سلام للشيوخيين ، وبقية بلاد العالم حيث الرأسمالية تعتبر دار حرب يجب اتخاذ جميع الوسائل للانقراض عليها والاستبداد على مقاليد الحكم فيها (٣) .

وعلى الدكتور عبد الحميد العبادى (٤) : أسباب الفتوحات الاسلامية بالرغبة فى اشباع نزعة العرب للحرب ، وميلهم الى كسب الغنائم ، حتى ينصرفوا عما أراد الاسلام أن يصرفهم عنه وهو غزو بعضهم بعضا ، ونهب بعضهم أموال بعض عن طريق الغارات القديمة ، والرغبة فى اشغالهم عن العودة الى الردة . .

ولا أدري إذا كان الدكتور العبادى قد نقل عنه « فيليب حتى » أم أن الآخر نقل عنه هذه الآراء أم أنها نقلت ما قاله Becker (٥) Annail (٦) وسواهما من العلماء النقدة كما وصفهما « فيليب حتى » (٧) .

(بدأت الحملات كغزوات يقصد بها الوصول إلى منافذ جديدة لروح القبائل الثائرة بعد أن حيل بينها وبين الحرب والخصومات ضمن ذلك النطاق الأخوى الذى حدده الإسلام وكان الغرض منها فى أكثر الأحوال الغنيمة) .

ثم قال أيضا (وليست الأثرة الدينية هى ما حدا بالعرب إلى تدويخ الدول وفتح الأمصار إنما هى الحاجة المادية التى دفعت بمعاشر البدو ، وأكثر جيوش الفتح منهم إلى ما وراء تخوم البادية الفقراء إلى مواطن الخصب والنماء فى بلدان الشمال) (٨) .

وقبل الشروع فى الرد على مطاعن المستشرقين والمستغربين وحملاتهم المسعورة على الجهاد فى سبيل الله أود أن أشير إلى أهداف هذه الحملات إشارة سريعة ، وأبين لماذا اختصوا الجهاد بالذات بكل هذه المطاعن والترهات وهل أثمرت حملاتهم أم لا ؟ وكيف كان ذلك ؟ والحق ، أقول أن بحثى لا يتسع

Becker, Cambridge Mediewal (٥) Peace and war the Law of Islam (١) History (Newyork - 1913 - Vol. P. 30 - 40

II an-xi)

(٢) المرجع السابق صفحة ٤٣ .

Annali, Vol. II, P. 831-861. (٦) (٣) الشرع الدولى العام فى الاسلام / ١١١

(٤) الدولة الاسلامية تاريخها وحضارتها / ١٠٠ (٧) تاريخ العرب - ١٩٦ .

(٨) المرجع السابق - ١٩٧ . ١٠٠

للقيام بهذا الواجب كله ومن حقه أن تفرد له رسالة خاصة ولكن لا مناص لى من الرد السريع على هذه المسائل لأن لها صلة مباشرة بموضوع بحثى : —

فأول ما أراه من أهداف المستشرقين وحملاتهم العنيفة الماكرة على « الجهاد » هو أنهم حاولوا فى خبث أن يخذوا فى حس المسلمين روح الجهاد ويهونوا من شأنه ، بل يحقروه وينفروا منه حتى يصلوا فى النهاية إلى أنه لا ضرورة مطلقا اليوم ولا غدا للاستعانة بهذه الاداة المخيفة أو « الهجبية » على حد تعبيرهم . . ولا حاجة حتى الى ذكر اسم الجهاد على الألسنة لأنه ضرب من التعصب والقسوة التى لا تليق بخلق الرجل المتمدن ، وحتى يصل المسلمون فى النهاية إلى إعلان براءتهم التامة من الجهاد والدعوة إليه . وإمعانا فى المكر والدهاء وإخفاء لحروبهم الدينية وتعصبيهم ضد المسلمين ألقوا فى خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبينهم ليست حرب عقيدة أبدا تقتضى الجهاد ، وإنما هى فقط حرب أسواق وخامات ومراكز وقواعد ، ومن ثم فلا داعى للجهاد !! وراحوا يرمون المسلمين بالتعصب والهجبية والقسوة إبعادا لهذه الشبهة عنهم ، إذ أن كل إناء بما فيه ينضح .

وأرادوا أن يبنوا فى نفوس ذرارى المسلمين السذيين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان أن آباءهم وأجدادهم أسلموا مكرهين خوفا من سيوف المسلمين ، وما دام لاخوف منها اليوم فلا حاجة إلى الإسلام بل عليهم بدين عيسى وموسى ، دين السلام والرحمة والتسامح .

هذا قليل من كثير مما يهدف إليه أعداء الإسلام وخصومه وصدق الله العلى العظيم (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) . ولكنهم لم يستطيعوا قديما لأن المجاهدين فى سبيل الله وقفوا لهم بالمرصاد ، وهم اليوم لا يخافون شيئا أكثر من انبعاث روح الجهاد فى نفوس المسلمين مرة أخرى ، تلك الروح التى لم يقفوا أمامها مرة واحدة فى ميدان . .

ومن حق البحث على أن أشير الى بعض النصوص الواردة فى التوراة والإنجيل عن موقفها من القتال ، فالحرب فى الديانة اليهودية حرب إبادة وتدمير وإفناء لكل ما يتصل بالعدو (فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف ، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعد (١) . .

وجاء فى الإصحاح العشرين (إذا خرجت للحرب على عدوك ورأيت خيلا ومراكب قوم أكثر منك ، فلا تخف منهم لأن معك الرب إلهك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك وعملت معك حربا فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب الهك . هكذا تفعل فى جميع المدن البعيدة جدا أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبقى منها نسمة ما (٢) . وإذا قال قائل إنما كان ذلك فى العصور القديمة فإننى أقول فما بال مذابح اليهود فى فلسطين هذه الأيام . وإذا قال قائل تلك الصهيونية وليست اليهودية

فاتقول له ما قاله « موسى ديان » بعد حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ (الآن فتحت الطريق إلى خير) !!

وماذا يقول المسيحيون الذين يرمون بالإباطيل في هذه النصوص التي وردت في إنجيلهم على لسان السيد المسيح (لا تظنوا اني جئت لألقى سلاما بل سيفا فاني جئت لأهرق الإنسان ضد أبيه والأبنة ضد أمها والكنة ضد حمايتها . وأعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أبا أو أما أكثر مني فلا يستحقني ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني ، ومن وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها) .. (١)

وقال أيضا (جئت لألقى نارا على الأرض . فماذا أريد لو اضطرمت . ولى صبغة أصطبغها حتى تكمل أنظنون اني جئت لأعطي سلاما . كلا اتقول لكم بل انقساما) (٢) .

ومحاولات اليهودية والمسيحية للقضاء على الإسلام منذ بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام معروفة . والحروب الصليبية طيلة ثلاثة قرون تشهد على تعصبهم وعداوتهم الشديدة للمسلمين وننقل هنا بعض أقوال كتاب الغرب المسيحيين المنصفين كشاهد على ما اتقول .

قال (جيون) : (إن الحملة الصليبية الأولى تركت في التاريخ أقسى ما عرف من التعصب لا ضد المسلمين فحسب بل ضد مسيحي الشرق . فان الصليبيين خدام الرب يوم ان استولوا على بيت المقدس في ١٥/٧/١٠٩٩ رأوا أن يكرموا الرب بذبح سبعين ألف مسلم لم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال فقد حطموا رؤوس الصبيان على الجدران : والقوا الأطفال الرضع من أسوار المعقل والحصون ، وشي الرجل على النار ، وبقر بطون الحوامل ليروا هل ابتلع أهلها الذهب واستمرت هذه المذبحة ثلاثة أيام ولم تنته إلا لما أعياهم الاجهاد من القتل وقد شوهد القاصد الرسولي مندوب البابا وهو يشارك في هذا الانتصار) (٣) ..

ويقول (لودفيج) : كيف ساغ لهؤلاء بعد هذه المذبحة البشعة أن يضرعوا بجوار قبر المسيح طالبين البركة والغفران) (٤) ..

وقال (لوبون) (وقد لقي المسلمون أشد العذاب وانكر الظلم من محاكم التفتيش التي كانت تأمر بتعميد العرب كرها ، ثم بحرق كثير من المعبدن ، ونصح كرينال طليطلة التقى الذي كان رئيسا لمحاكم التفتيش بقطع رؤوس جميع من لم ينتصر من العرب رجالا ونساء وشيوخا وولدا) .. (٥)

وأراد شارلمان أن يستأصل شأفة الإسلام تأييدا لهيبة الكنيسة وأن يسحق دولة الاندلس المستقلة احتفاظا بكبرياء الفتح والظفر) (٦) .. وقد عقد مسلمو غرناطة معاهدة التسليم والأمان مع الملكيين (غردياناند

4) Draper/History of the Nrtol-lectual Development of Eurog Vol. II P. 77.

٥ (حضارة العرب ٢/٢٢٥ والإسلام ومستتر سكوت ٧٠ ..

٦ (تاريخ العرب في اسبانيا ٧٦ الاستاذ عبد الله عنان .

١ (الاصحاح العاشر من انجيل متى المهد الجديد ٢٤ - ٣٩ .

٢ (الاصحاح الثاني عشر من انجيل لوقسا (المهد الجديد) ٤٩ - ٥٠ .

٣ (الشريعة الاسلامية والقانون الدولي العلم - ٢٤٢ - عروج الاسلام سيد أمير على ٨٦ والرسالة الخالدة للاستاذ مزام / ٢٤٨ .

وايزابلا) اللذين نكثا بالعهود والمواثيق ، فكبد هذا المسلمين فقدان ما يقارب ثلاثة ملايين من بني جلدتهم (١) وفى سنة ١٤٥٤ أصدر « البابا » مرسوما منح فيه هنرى البحار البرتغالى الحق فى أن يغزو ويحتل ويخضع جميع الشعوب والأقاليم التى يسودها حكم أعداء المسيح ، وأن يحتل ويحوز البحار اللازمة للقضاء على انتشار « طاعون الإسلام » . والقضاء على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة (٢) ..

وقال (هوكر خروتويوس) الهولندى وهو من مؤسسى الحقوق الدولية الحديثة فى مقدمة كتابه فى (حقوق الحرب والسلام) ما نصه (إن المسيحيين فى عصرنا يتقدمون فى حروبهم على أعمال تستحق منها الوحوش أنفسها . (٣) وأصدر البابا نيقولا الرابع والبابا أريانوس السادس هذه الفتوى الدينية التاريخية (أن الغدر اثم ولكن الوفاء مع المسلمين أكثر اثما) (٤) ..

أبعد هذا يحق للمشرىين والمستشرقين وأعداء المسلمين أن يتهموا الإسلام بالهمجية والمجاهدين بسفك الدماء ؟ وأن روح المسيحية السمحة تنكر القتال على إطلاقه ومنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خضبت أقطار الأرض جميعا بالدماء باسم السيد المسيح .. وقد ظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوربا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الشرق الإسلامية تقاتل وتحارب وتريق الدماء . وفى كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة . أفكان هؤلاء البابوات جميعا هراطقة وكانت مسيحياتهم زائفة ؟ أم كانوا ادعياء جهالا لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ؟ أم يقولون تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتج على المسيحية بها ؟ ان يكن ذلك بعض ما يقولون ، فإن هذا القرن العشرين الذى نعيش فيه والذى يسمونه عصر الحضارة الانسانية العليا ، قد رأى ما رأت العصور الوسطى المظلمة فقد وقف اللورد للنبي ممثل الخلفاء ، انجلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وأمريكا يقول فى بيت المقدس ١٩١٨ حين استيلائه عليه فى أخريات الحرب العالمية الأولى (اليوم انتهت الحروب الصليبية) . (٥) ..

وقال الدكتور (بيترس سميث) مثل هذا القول فى كتابه عن سيرة المسيح : (إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حربا صليبية شاملة أدركت المسيحية فيها غايتها) (٦) ..

وحسبى فى الرد على مطاعن المستشرقين التى ذكرتها والتى لم يتسع لها المقام ما قدمته فى هذا الفصل من شرح طبيعة الإسلام وأهداف الجهاد معتمدا على كتاب الله الذى لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومعتمدا على الوقائع التاريخية وشهادات المنصفين من المستشرقين أنفسهم والتى ذكرت طرفا منها . وأضيف إليها هذه الشهادات العادلة : —

ولعل من نوادر هؤلاء الغربيين المنصفين الذين جمعوا بين حسن النية وحسن الفهم فى مسألة الجهاد (توماس كارليل) الحكيم الذى يسميه نقاد الغرب نبى الكتاب ، فهو ينتهى بزعم الزاعمين أن الإسلام قد انتشر بالسيف إلى

١ (العلاقات السياسية الدولية للمرى/١٢١ (٤) ovigire du droit des gens (engs.) P. 216.

٢ (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى — ٥٢

٣ (أحكام أهل الذمة لابن القيم ٧٦/١ من ٥ حياة محمد /٢٥٢ محمد حسين هيكل .

٤ (المرجع السابق / ٥٧٨ . تقديم الدكتور محمد حميد الله .

الغاية من السخف والغثاء ولا يرتضى أن يعتبر هذا من أكاذيب التاريخ ، فانه أضعف من أن يحسب من الاكاذيب التي تحتاج الى تصحيح ، وهو أظهر بطلانا من أن يبطل بالناقشة ، فمن يقول ان رجلا واحدا حمل سيفه وخرج الى جميع مخالفيه لينبث فيهم الخوف من سيفه وحده ويسوتهم كرها الى اعتقاد ما ينكرون ، فيعتقدون ويثبتون عليه ثم يحملون السيف معه لتخويف الاخرين (١) . .

ويقول (جوستاف لوبون) : إن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن فقد ترك العرب المغلوبين احرارا في اديانهم ، فاذا ما حدث واعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من ساداتهم السابقين . ويقول : والعبارات الآتية التي اقتطفها من كتب الكثيرين من علماء الغرب تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصا بنا ، قال روبر طمسون في كتابه (تاريخ شارلكن) : (إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا الفيرة الدينية وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وانهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه احرارا في التمسك بتعاليمه) .

وقال (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : (إن القرآن الذى أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب وحرم قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس بينما ذبح الصليبيون المسلمين بلا رحمة حين دخلوها وقتل الراهب (ميشو) في كتاب (رحلة دينية في الشرق) : ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذى هو آية الاحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أى معتقد عليهم بالقوة وقال أيضا قد اثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ، فلما قهر النصارى عرب الأندلس ، فضل هؤلاء القتل والطرده عن آخرهم ترك الإسلام . . ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها أعنتقت الشعوب التى قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من الانتشار فى الهند التى ما كان العرب فيها غير عابرى سبيل ، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها ، ويزيد عدد مسلمى الهند يوما فيوم ، مع أن الانجليز الذين هم سادة الهند فى الوقت الحاضر ، يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعا إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى ولم يكن القرآن أقل انتشارا فى الصين التى لم يفتح العرب أى جزء منها قط .

وبهذا نفس السبب فى عدم تنصر أى أمة بعد أن رضيت بالاسلام ديننا ، سواء كانت هذه الامة غالبية أم مغلوبة (٢) .

وقال (ديسون) (٣) الكاتب الفرنسى من الخطأ أن يصدق المرء ما يروج له البعض من أن السيف كان المبرر الأول فى تقدم الإسلام وتبسطه ، ذلك أن السبب الأول فى انتشار الإسلام يعود إلى هذه الأخوة الدينية الفريدة وإلى هذه الحياة الاجتماعية التى دعا إليها ومكن لها ، وإلى الإيمان القوى الذى راح يدفع المسلم غازيا فاتحا من أقصى الأرض إلى اتصاها ، ثم هذه الحياة الشريفة

١ (ما يقال عن الاسلام ١٦٨ للمرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد .
٢ (حضارة العرب / ١٢٥ - ١٢٨ .
٣ (المحدثات / ٢١ وما بعدها .

الطاهرة التي راح يحيها محمد وخلفاؤه من بعده والتي بلغت من العفة والتضحية حدا جعل الاسلام قوة عظيمة لا تغلب ، وما زال الاسلام يتقدم غازيا فاتحا في كل موطن يحتاج إلى الفتح والغزو وكلما تقدم تنهار أمامه الديانات القومية وهو في تقدمه هذا العجيب لا يرتد عن أرض راح يفتحها ويفزوها بعقائده وتقاليد و بساطة تعاليمه . . وهذا امر يعرفه المبشرون الذين حاولوا غير مرة أن يحملوا بعض القبائل التي تقبلت الاسلام على قبول المسيحية ، فكانوا دائما يرتدون فشلين منكسرين ، ومما يجب أن يذكر أن كثيرا من القبائل التي راحت تتقبل المسيحية اولا تتركها وتتقبل الاسلام دينا حين تتصل بالمسلمين ، ولا يذكر التاريخ المعاصر أن قبيلة مسلمة أبدلت دينها واعتنقت دينا غيره) .

وقد وصف الفيلسوف الروسي (تولستوى) (١) المسلمين بالتساهل العظيم مع أصحاب الديانات الأخرى ودافعت الدكتوراة (لورافيشيا فاغليرى) دفاعا علميا نزيها مدعما بالأدلة المنطقية السليمة عن الإسلام ونبي الإسلام : (لقد زعموا أنه كان دينا فرض بالسيف ، ولقد اتهموه باللاتسامح ، بل اتهموا محمدا نفسه بالكذب والقسوة وبالشبق ، وقد حاولوا أن يحطموا عمله الرائع في الإصلاح الاجتماعى والدينى ، — وحاولوا إظهار إخلاص صحابته وتفانيهم بمظهر المصلحة الشخصية ، وصوروهم كأنهم أناس لا تعمر نفوسهم غير الرغبة فى الثروة والنجاح الدنيوى . .

وتقول : إن احدا لا يستطيع اليوم أن يزعم أن سيف الفاتح هو الذى يمهّد السبيل أمام الإسلام على العكس — ففى الأصقاع التى كانت فى يوم من الأيام دولا إسلامية تولت مقاليد السلطة حكومات جديدة تنسب إلى أديان أخرى ، وعملت فى أوساط المسلمين طوال فترات عديدة منظمات تبشيرية قوية ، ومع ذلك فان هذه الحكومات وتلك المنظمات لم توفق إلى زحزحة الإسلام وإقصائه عن حياة الشعوب الإسلامية . (٢)

ونكتفى بهذا القدر من شهادات المنصفين من المستشرقين . ونمضى لنرى أثر الحملة الاستشراقية الخبيثة على علماء المسلمين وكيف ردوا عليها ، ودافعوا عن الجهاد . واعنى هنا بردود العلماء الذين هزموا روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع الحاضر للمسلمين وأمام حملات المستشرقين — والذين حاولوا أن يدفَعوا عن دينهم تلك الشبهات دون أن يتدبروا خطورة ما يكتبون فقد راح هؤلاء العلماء يتلمسون الأعدار للجهاد ، ويؤولون النصوص القرآنية المحكّمة ويزيفون الوقائع التاريخية ليقولوا لهؤلاء المستشرقين اننا براء من الجهاد والسيف وقد فرض الجهاد لظروف طارئة مؤقتة وقد زالت بزوال السبب وليس للجهاد عندنا من هدف سوى (الدفاع عن النفس والأرض التى نعيش عليها) .

وصاغوا آراءهم فى عبارات تبعث على الاشفاق والضحك من تفكيرهم وما وصلوا إليه من هزال لا يرضاه الله ولا طبيعة هذا الدين القوى المتين . . وظنوا أنهم بذلك قد أحسنوا صنعا للاسلام ونبي الإسلام إذ أنهم ردوا عنه تهم المستشرقين ، من رميه بالتعصب وعدم التسامح واستعمال القوة وأظهروا دينهم الإسلامى بأنه دين السلام بل أن شئت قل دين الاستسلام . ولا يتسع بحثى هنا لاستعراض آراء هؤلاء ولكنى سأذكر شواهد منهم ومن أفكارهم :

(لم يقف الرسول موقف المهاجم ، ولكنه وقف موقف المدافع فقط ، حتى جاءتته قريرش فهاجمته ، وعند ذلك قام ليدافع عن نفسه وقومه ودعوته . وهذا هو الجهاد المشروع في الدين الاسلامي) .
ومن ذلك يتبين ان القتال كان تدبيراً وقتياً لاسباب خاصة محدودة ، وان المسلمين اضطروا اليه اضطراراً ، وحملوه تحميلاً ، ولم يدخل محمد في حرب الا مضطراً (١) .

(ومسألة جهاد العدو بالسيف ليس فيها إجماع من المسلمين إلا في حالة اعتداء إذ يتعين الجهاد عندما يلتقى الجيشان أو ينزل الكفار ببلادنا ، أو يستنفر الإمام قوماً فيلزمهم النفير) (٢) .
(ونعلم من هذا أن النبي إنما اضطر إلى القتال اضطراراً ودفاعاً عن النفس ، ولم يكن فيه ميل إلى سفك الدماء كما يدعى بعض المارقين) . (٣)
(وبالجملة فالحرب محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه خطوة ولا تتأخر خطوة) . (٤) (ونظرة واحدة إلى أوامر الله تكفي لتثبت أنه لم يقصد بالقتال إلا رد العدوان) . (٥) وأدهى من كل هذا وأمر هذه العبارة (ومن ذلك يتبين أن القتال في الإسلام كان تدبيراً وقتياً لاسباب خاصة محدودة وإن شئت قل . إنه كان عملاً سياسياً لا اصلاً من اصول الدين في بيان العلاقات بين الإسلام وغيره وأن المسلمين اضطروا إليه اضطراراً وحملوه تحميلاً) (٦) .

والاستاذ محمد عزة دروزة رغم غزارة علمه وطول دراسته لكتاب الله وسنة رسوله شغل كغيره من الكتاب المحدثين الواقعيين تحت ضغط الواقع البائس للمسلمين ، وإمام القوة الظاهرة لمعسكرات المشركين والملاحدين وأهل الكتاب في هذا الزمان يتلمس شهادة لهذا الدين بأنه دين السلم والسلام ، الذي لا يعنيه إلا أن يعيش في داخل حدوده الجغرافية المعروفة ، فمتى أمكنت المهادنة والمسألة فهو متهاك عليها لا يعدل بها هدفاً آخر حتى ولو كانت مع عبدة الأوثان من المشركين وحتى ولو تكرر نقضهم لمهودهم ورغبوا في تجديدها فعلى المسلمين أن يسارعوا في أنتهاز تلك الفرصة ، وجوز عقد المعاهدات بجزية وبدون جزية) . . (٧)

وما أحرانا في أن نتمثل بقول الشاعر :

إن كنت لا تدري قتلك بليّة وإن كنت تدري فالبليّة اعظم

وواضح من الفقرات التي اقتطفتها من أقوال علمائنا الأمذاذ وهي قطر من بحر أن أصحاب الفضيلة لا يُلقون بالأل إلى حق الإسلام المطلق في تحرير البشرية من العبودية للعباد ، وردها إلى الله وحده ، حيثما كان ذلك ممكناً ، بغض النظر عما إذا كان هناك اعتداء على الإسلام وأهله داخل حدودهم الجغرافية أم لم يكن .

- | | |
|---|---|
| ١ (روح الإسلام - محمد عطية الإبراشي | ٥ (نظم الحرب والسلام - جمال الدين عباد |
| ٧٢ ، ٧٣ . | ص ٩ . |
| ٢ (قصة الاضطهاد : توفيق الطويل / ١٦٤ . | ٦ (تاريخ الفتح الاسلامي محمد فخر الدين |
| ٣ (مورد الصفا في سيرة المصطفى - احمد | الدرس بدار العلوم / ١٢٩ . |
| الصلواى ٥٦ . | ٧ (الدستور القراآتى في شؤون الحياة وانظر |
| ٤ (د. محمد عبد الله دراز - مجلة الأزهر | التفسير الحديث للمؤلف تفسير سورة |
| الجلد الرابع والعشرون سنة ١٩٥٢ . | « براءة » . |

.. فهم يستبعدون هذا المبدأ ابتداء وهو المبدأ الذى يقوم عليه الجهاد فى الاسلام وبدونه يفقد دين الله حقه فى ان يُزيل العقبات المادية من طريق الدعوة ويفقد بذلك جديته وواقعيتها فى مواجهة الواقع البشرى بوسائل مكافئة له ويصبح عليه ان يواجه القوى المادية بالدعوة العقيدية والخطب المنبرية ، وهو هزال لا يرضاه الله لدينه فى هذه الارض .

وحقيقة ان الدفاع عن « دار الاسلام » وحماية العقيدة من أهداف الجهاد ولكنها ليست الهدف النهائى ، وإنما حمايتها هى الوسيلة لقيام مملكة الله فى الأرض ، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها وإلى النوع الانسانى عامة .. فالانسان هو موضوع هذا الدين والأرض هى مجاله الكبير ..

يجب الا يخدعنا المستشرقون والا يفرغنا الواقع البائس وضغطه وثقله فنروح نبحث للجهاد عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين .

إن من حق الاسلام أن يتحرك ابتداء . لأنه ليس نحلة قوم والمسلمون ليسوا أمة بالمعنى الذى يستعمله العصر الحديث ولكنه منهج الله ونظام عالمى عام من حقه أن يستعمل السيف ليحطم الحواجز والأنظمة والأوضاع التى تحول دون (حرية الانسان) فى الاختيار وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد والشعوب ليكرههم على اعتناق عقيدته . وإنما يهاجم الطواغيت وأنظمتهم ليحرر شعوبهم من ظلمهم وفسادهم واستعبادهم .

إن الهجوم الاستشراقى العنيف الذى صور حركة الجهاد حركة قهر بالسيف للاكراه على الاسلام يعرف جيدا أن هذه ليست هى الحقيقة ، لكنهم أرادوا أن يشوهوا الجهاد الإسلامى ، ومن ثم يقوم المناهجون عن سمعة الاسلام ، بنفى هذا الاتهام فيلجأون الى المبررات الدفاعية ، وبذلك يحكمون بنسخ الجهاد وأهدافه من الشريعة الاسلامية ، فيحقق المستشرقون هدفهم ، وها هى طائفة القاديانية والمعتزلة فى الهند وحزب تركيا الفتاة فى تركيا يعلنون **ان الجهاد قد أسقطت فريضته من الفرائض الاسلامية (١) ..**

ويقول الدكتور/وهبة الزحيلي (٢) : « يخاف الغربيون لا سيما الانجليز من ظهور فكرة الجهاد فى أوساط المسلمين حتى لا تتوحد كلمتهم فيقفوا امام عدوانهم ولذلك يحاولون الترويج لفكرة نسخ الجهاد . ولقد قابلت المستشرق الانجليزى « آندرسن » فى مساء يوم الجمعة ٣ جزيان ١٩٦٠ فسألته عن رأيه فى هذا الموضوع فكانت نصيحته لى أن أقول (ان الجهاد اليوم ليس بفرض بناء على مثل قاعدة (تتغير الاحكام بتغيير الأزمان) إذ أن الجهاد فى رأيه لا يتفق مع الاوضاع الدولية الحديثة لارتباط المسلمين بالمنظمات الدولية . ولان الجهاد هو الوسيلة لحمل الناس على الاسلام وأوضاع الحرية ، ورقى العقول لا تقبل فكرة تفرض بالقوة) . أما التقسيمات الحديثة للحروب الى دفاعية وهجومية وتطبيق ذلك على الجهاد الإسلامى ، فهذا سوء فهم لمعنى « الجهاد » لان الجهاد غير الحرب كما سبق ان ذكرت ، ولا صلة للجهاد فى سبيل الله بالحروب الحديثة ، حروب المطامع البشرية التى أملت مثل هذا التقسيم ولا يصح أن يوصف الجهاد بأنه هجومى لأن الهجوم يعنى الظلم ، والجهاد عدل فى الواقع ، وقد يكون الجهاد مطلوباً اذا استبدت الحكام بمصالح رعاياهم ، وهنا يظهر المسلمون بأنهم دعاة

١ (دائرة المعارف الاسلامية ٧/١٩٠ والمعقيدة ٢) آثار الحرب فى الفقه الاسلامى ٩٥ .
والشريعة - لجلود تسيير ٢٦١ .

اصلاح عام وجند رسالة يبلغونها للناس على بينة وهدى رغم معاندة بعض الظالمين ..

وقد يلتزم المسلمون جانب الدفاع فقط دون التقيد بحدود جغرافية مصطنعة ، فالاسلام لا تحده حدود ..
واذن فهذا التقسيم لا ينطبق :

أولا : على فكرة الجهاد فى الاسلام . وإنما نطاق الاسلام واسع والجهاد حينئذ يستلزم حماية الدعاة اليه .

ثانيا : لأن فقهاء القانون الدولى لا يرون اهمية لهذا التقسيم ، اذ تبرهن الشواهد التاريخية فى ايماننا هذه أن السياسة الراغبين فى الحرب كثيرا ما يتحرشون بخصومهم ، ويدفعونهم الى الاعتداء بنكاية ، حتى يضطروهم الى شهر الحرب ليظهروا للورى أنهم ليسوا الا مدافعين عن أنفسهم (1) .

وختاما أتول اذا لم يكن بد من أن نسمى حركة الجهاد الاسلامية حركة (دفاعية) فلا بد من أن أغير مفهوم (الدفاع) واعتبره دفاعا عن الانسان ذاته ضد جميع القيود التي تقيد حريته وتعوق تحرره .. وبهذا التوسع فى مفهوم كلمة (دفاع) نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الاسلامى فى الارض بالجهاد ، ونواجه طبيعة الاسلام ذاتها ، وهى الاعلان العام لتحرير الانسان من العبودية للعباد ، وتقرير حمايته من الفتنة والاذى فى كل مكان .

أما محاولة ايجاد مبررات دفاعية للجهاد الاسلامى بالمعنى الضيق للمفهوم العصرى للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن اسانيد لاثبات أن وقائع الجهاد الاسلامى كانت لمجرد صد العدوان عن (الوطن الاسلامى) وهو ما عرف بجزيرة العرب — فهى محاولة تنم عن قلة فهم وادراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الرسالة الخاتمة ، كما أنها تشى بالهزيمة امام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على الجهاد الاسلامى .

(١) آثار الحرب فى الفقه الاسلامى ١٢٣ .

الفصل الثالث: عناصر النصر ومقوماته

بعد أن بين الله سبحانه الأهداف التي يقاتل المسلم من أجلها ، وضح أن هناك سننا ثابتة في النصر والهزيمة من سار عليها ظفر وإن كان ملحدا أو وثنيا ومن تنكبها خسر وإن كان صديقا نبيا . . « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » (١) .

دعا الله عباده إلى السير في الأرض والتأمل فيها حل بالأمم قبلهم ليحصل لهم العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار ، ويسترشدوا بذلك الصراع الذي وقع بين الحق والباطل في الأمم السالفة ، حيث انتصر أهل الحق على أهل الباطل بتمسكهم بسنن الله واتباع ما أمر به من الاستعداد للحرب وإعداد العدة لقتال العدو . . الخ . وجرى ذلك على سنن مستقيمة وأسباب مطردة لا تغيير فيها ولا تبديل (٢) .

« ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » (٣) « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » (٤) .

فقد جعل الله تعالى نصر المؤمنين الذين يجاهدون في سبيله ظاهرة كونية وسنة من سنن الوجود ثابتة لا تتغير ولا تتبدل . « وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » (٥) .
فالدولة والنصر دائما لمن عرف أسباب الفوز وعمل بها ورعاها حق رعايتها .

قال القرطبي : ا لحرب ، تكون مرة للمؤمنين لينصر الله عز وجل دينهم ، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون لبيئتهم الله ويمحص ذنوبهم ، فأما إذا لم يعصوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

وقد وعد الله بنصر الحق على الباطل مهما كانت له من صولة ، وجاء هذا الوعد على السنة رسله جميعا « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » (٦) .

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » (٧) . « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » (٨) . « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » (٩) .

وهذا العون الذي يستمده المؤمنون من ربهم ليس بالأمانى ولا بالخيال ولكنه ظاهرة من ظواهر الكون وسنة من سنن الوجود ، فالؤمنون في رعاية الله وكفنه ، يحفظهم في الدنيا ويكرمهم في الآخرة :

- | | |
|--|----------------------------|
| ١ (آل عمران / ١٣٧ - ١٣٨ . | ٥ (آل عمران / ١٤٠ - ١٤١ . |
| ٢ (تفسير المرافى ٧٤/٤ بتصرف وانظر . | ٦ (الصافات / ١٧١ ، ١٧٢ . |
| ٣ (فاطر / ٤٢ . | ٧ (الحج / ٤٠ . |
| ٤ (الفتح / ٢٢ ، ٢٣ وأنظر الاسراء / ٧٧ | ٨ (محمد / ٧ . |
| والنساء / ٢٦ وغافر / ٨٥ والاحزاب / ٢٨ | ٩ (الروم / ٤٧ . |

« إنَّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما توعدون » (١) .

فأله ولى الذين آمنوا وهو ناصرهم ومؤيدهم فى الدنيا بشرط السير على منهجه واتباع سنته . ولكن كيف ينصر المؤمنون الله سبحانه حتى ينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت . يتم ذلك بأن تتجرد نفوس المؤمنين لله سبحانه وأن تحب الله ورسوله أكثر مما سواهما ، وأن تنصر منهج الله وشريعته حتى تكون مهيمنة على ضمائر الناس وعقولهم وأخلاقهم وسلوكهم وحياتهم كلها .

قال الزمخشري (٢) : « أى إن تنصروا دين الله ورسوله ينصركم على عدوكم ويثبت أقدامكم فى مواطن الحرب » .

ويقول الشيخ محمود شلتوت (٣) : « أرشدت الآيات إلى أن الله إنَّمَا ينصر بمقتضى سنته فى خلقه من ينصره ويتقيه باقامة العدل ، وإقرار الأمن ، وبث الطمأنينة ، ولا يتخذ الحرب أداة للتخريب والإفساد ، وإنَّمَا يتخذها وسيلة إلى عمارة الكون ، وإنفاذ أمر الله فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وقال أيضا (٤) : فى القرآن الكريم آيات كثيرة تحمل عدة الله لعباده المؤمنين بالنصر والتأييد ، وعلو الكلمة ، ونفوذ السلطان ، ولكنها لم تجعل هذه العدة منحة تنزل عليهم من السماء لجرد أن يقولوا ربنا الله ، أو لجرد أنهم ينتسبون إلى دين الله ، إنَّمَا جعلها لمن عرف واجب الايمان فى حق نفسه ثم أخلص فى القيام بهذا الواجب وعندئذ يكون قد أوفى بعهده لله ، فيوفى الله بعهده « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » (٥) . « ومن أوفى بعهده من الله » (٦) .

ولهذا نفى القرآن الكريم أن يكون نصر الله بمجرد الانتماء إلى دين أو كتاب أو بالتمنى والآمال « ليس بآمانتكم ولا أمانت أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزى به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » (٧) .

وتثبيتاً من الله سبحانه لعبادة المؤمنين وتوكيدا لضرورة الأخذ بأسباب النصر فقد أمدهم بأعداد عظيمة من الملائكة تزيد على عدد عدوهم فى موقعة بدر حيث أمدهم بألف من الملائكة بينما كان عدد جيش قريش يقترب من الألف وفى موقعة أحد وعددهم الله إن صبروا أن يمددهم من ملائكته بثلاثة آلاف أو خمسة آلاف . وفى موقعة الأحزاب كان عدد العدو كثيرا فأرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً من عنده لا يُعرف عددهم مع أنه سبحانه قادر على أن ينصر أوليائه بدون ملائكة وبدون هذه الأعداد الكبيرة ، فملك واحد قادر أن يهلك الأرض ومن عليها . . بمشيئة الله . « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يُمَكِّمَ ريبكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ريبكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين » (٨) .

« سُئل السبكي عن الحكمة فى قتال الملائكة مع أن جبريل قادر أن يدفع

- ١ (فصلت / ٣١ - ٣٢ .
 ٢ (الكشاف / ٥٣٢/٣ .
 ٣ (تفسير القرآن الكريم ٢٤٤ .
 ٤ (من توجيهات الاسلام ٢٧٢ .
 ٥ (البقرة / ٤٠ .
 ٦ (التوبة / ١١١ .
 ٧ (النساء ١٢٣ ، ١٢٤ .
 ٨ (آل عمران / ١٢٤ - ١٢٥ .

الكفار بريشة من جناحه . وأجاب بأن ذلك لارادة ان تكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصوره الأسباب التي أجراها الله تعالى في عباده» (١) والباحث التأمل آيات الجهاد في القرآن الكريم يجد أنها رسمت طريق النصر واضحا جليا وأبانت عن أسباب الهزيمة والخسران . وهى بحق تعدد دستوراً كاملاً للنصر وأسباب الهزيمة فأول أسباب النصر الاستعداد للحرب لقوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » (٢) .

فمن مزايا الشريعة الإسلامية انها شريعة عملية واقعية تواجه الواقع البشرى بالحل العملى ، فما دام الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الاجتماع البشرى ، وما دامت الموعدة الحسنة لا ترد ظلماً ولا تدفع اعتداء ، فلا بد للحق من قوة يدفع بها حتى تتحقق سنن الله فى النصر . ولهذا أمر الله تعالى بأعداد القوة التي ترهب العدو فلا يطمع فى الاعتداء على المؤمنين . ومن حق هذه الآية التي تعتبر دستور الأعداد للقتال — ان نقف عند كل كلمة من كلماتها ففى كل كلمة سبب من أسباب النصر .

فكلمة (أعدوا) جعل الله بها الاستعداد فريضة تصاحب فريضة الجهاد : وهى كلمة واسعة الدلالة تشمل كل ما يمكن الاستعانة به فى مقاومة الإعداء ، من قوى مادية ومعنوية . وقد رمزت الى معانى دقيقة هامة تعتبر سرا من أسرار النصر . فما معنى (أعدوا) ؟ الذى أراه وأكد أجزم بصحته أن معنى (أعدوا — اصنعوا) لأن الأعداد يحتاج الى عقل سليم وتفكير طويل ، وجهد كبير ، وفى اللفظة التالية (ما استطعتم) ما يزيد رأى تأييداً وتأكيداً و (ترهبون) يزيل كل شك فى ذلك .

والسر فى ذلك أن الله جعل الغاية من إعداد القوة إنها هو إرهاب العدو وتخويله ومن المعلوم أن هذا لا يتأتى عن طريق شراء الأسلحة من الخارج ولا سيما إذا اشتريناها من مصانع العدو نفسه — لاكتشاف سرنا ومعرفة مدى قوتنا وموطن النقص فى إعدادنا فلا يخاف منا عندئذ ولا يهرب جانبنا ويفقد الإعداد جزءاً عظيماً من قيمته ، إذ يطمع العدو فى قتالنا لأنه يأمل الانتصار علينا . وحروبنا مع الصهيونية والاستعمار خير شاهد على ما أقول ..

فسرية الأسلحة عنصر رئيسى فى النصر والهزيمة ، ولذلك كان أكثر ما تحرص عليه الأمم قديماً وحديثاً . المحافظة على السرية التامة لأسلحتها ، لأن ظهور سلاح جديد فى المعركة يكفى للقضاء على قوة العدو المعنوية وللحاق الهزيمة به ، واستعمال القنبلة الذرية فى الحرب العالمية الثانية خير دليل . فمن هنا يأمر الله تعالى المسلمين أن يصنعوا أسلحتهم بأيديهم وفى مصانعهم ، حتى لا يتيسر لعدوهم الاطلاع على أسرار قوتهم العسكرية فيطمع فى الاعتداء عليهم والنيل منهم .

وقوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ففيه حدود التكليف بأعداد القوة (ما استطعتم) فهى حدود الطاقة إلى أقصاها بحيث لا يقصر المسلمون عن إعداد سبب من أسباب القوة يدخل فى طاقتهم .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود (١) « والاستطاعة فى الواقع لا حدود لها ، وهذا الإعداد إذن لا ينتهى ، ولا يفتر فى يوم من الأيام » .
 أما كلمة (قوة) فقد وردت نكرة لتشمل جميع أنواع القوة المعروفة اللازمة للانتصار فى كل زمان ومكان .

وفى هذا إيحاء بأن الحق لا بد له من قوة تحميه وتدافع عنه وهذه قضية يشهد لها التاريخ ويقرها الواقع الاجتماعى فى كل عصور الانسانية . وقد عرفت الجماعات البشرية هذا المبدأ الاجتماعى وآمنت أن عزها وهيبتها واحترام حقها لا بد له من القوة فاتخذتها واعتمدت عليها ولم يكن الأمر قاصراً على الجماعات البشرية ، فالشرائع السماوية نفسها وضعت القوة أساساً لتركيزها ، وحمل الناس على الأخذ بها ، فأمرت بها سلاحاً للحق تحميه وترعاه ، وفى ذلك يقول الله تعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » (٢) .

وإذا نظرنا إلى تاريخ الإسلام وجدنا أمته أدركت سِرَّ الحياة ، وعرفت انه فى القوة ، فتسلحت بها واعتدت عليها ، وعاشت مهية الجانب ، مرهوبة المكانة ، فكان سلطانها هو السلطان ، وكان الاسلام هو القوة ، والقوة هى الإسلام . وظل الإسلام وبلاد الإسلام بمنأى عن عبث العابثين ، وعن طمع الطامعين . ولما تبدلت الشئون ، وتغيرت الأحوال ، ونزعت القوة من بينهم ، أصبحوا أشلاء مبعثرة تهددهم القوة فى كل مكان وتذرهم بالفناء فى كل وقت (٣) .

ومن هنا عنى القرآن بلفت انظار المسلمين إلى بذل أقصى الجهد فى إعداد العدة المادية والمعنوية .

القوة المادية :

رسم القرآن الكريم الخطوط العريضة التى يقوم عليها إعداد القوة المادية، ونظم وسائلها وبين مقوماتها . . فمن عناصر الاعداد المادى ما يلى :

١ - إعداد الرجال المقاتلين :

كان الجيش الاسلامى لا يلتزم بعدد معين منذ بدأ القتال بين المسلمين وأعدائهم . فالجهاد واجب على كل قادر ، وكل من دخل الاسلام أصبح بدخوله جندياً من جنود الله يدافع عن دينه .

وقد صرح القرآن انه لا يعفى من الجندية إلا الضعفاء والمرضى والمعزة من الشيوخ والصغار الذين لم يبلغوا سن الرشد « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله » (٤) . وتزود جيش الرسول عليه الصلاة والسلام بثقافة لا تعلوها ثقافة ، الا وهى ثقافة القرآن الكريم وسنن الرسول عليه الصلاة والسلام وتعاليم الاسلام

١ (الجهاد - ١٤) من أعمال المؤتمر الرابع (٢) تفسير القرآن الكريم / ٢٤٢ للشيخ محمود شلتوت .
 للبحوث الاسلامية (١٩٦٨) .
 ٢ (الحديد / ٢٥) .
 ٤ (التوبة / ٩١) .

ومبادئه الحربية العظيمة ولعلنا نذكر أن التفكير في جمع القرآن لم يكن إلا مخافة أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداما وبسالة في القتال ، وكان إقدامهم وجراتهم على اقتحام الصفوف سببا في أن يستحر القتل فيهم ، وأن يهرع أصحاب رسول الله إلى خليفة رسول الله يستنهضونه في سرعة العمل على جمع القرآن حتى لا يذهب بذهاب حفاظة المجاهدين .

« ورحم الله ذلك الزمان الذي كانت فيه آيات القرآن في قلوب حاملها أقوى حافز على التضحية بالنفوس في سبيل إنقاذ الدولة ورد الطغيان عنها ، وتمسا وخزيا لزمان جعل فيه العلم وحفظ القرآن عنوانا على عجز أهله حتى اتخذوا علمهم بالدين ، وحفظهم للقرآن وسيلة من الوسائل التي تبررهم في الجبن والضعفوا لخور » (١) .

وتنشيا مع توجيه الوحي وسياسة الواقع ، وحفاظا على حق الله وحق الحياة ، درب النبي عليه الصلاة والسلام رجاله على فنون الحرب ، واشترك معهم في الاستعداد للمعارك ، وعد السعى في هذه الميادين خطوات من أجل القرب وأقدس العبادات ، ولعله بذلك يفل شوكة الكفر ، ويكسر عن المسلمين آذاه (٢) .

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يحث المسلمين على أن يتدربوا على الفروسية والسباحة والرمي بالنبال .

فقد جاء في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله وهو على المنبر يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة إلا إن القوة الرمي إلا إن القومى الرمي إلا إن القوة الرمي » (٣) .

والحديث ينوّه بما لاصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المصارك والرمي أعم من أن يكون بالسهم أو بالرصاص أو بالقتال .

وحديث آخر عن عقبة أيضا قال « سمعت رسول الله يقول : ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » وقال صلى الله عليه وسلم « كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فانه من الحق . فإن الرمي بالقوس وتأديب الفرس من معادن القتال .. وتعلم الفروسية واستعمال الاسلحة فرض كفاية وقد يتعين » (٤) .

وعن فقيم اللخمي قال : « قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الفرضين — تتردد بينهما — وأنت شيخ كبير يشق عليك ، قال عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله لم اعانه . قال : وما ذلك ؟ قال سمعته يقول : من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا » (٥) .

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع أن النبي عليه الصلاة والسلام مرّ على نفر من أسلم ينتضلون فقال النبي : « ارموا بنوا اسماعيل فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان قال : فامسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال عليه

١ أحمد ١٥٧/٤ والحاكم ٢٢٨/٢ على

شرط الشيخين ووافقه الذهبي . وتفسير

ابن كثير ٢٢١/٢ .

٢ تفسير القرطبي ٣٦/٨ .

٣ صحيح مسلم ٥٢/٦ .

١ تفسير القرآن الكريم ٢٥٠/ الشيخ محمد شلتوت .

٢ فقه السيرة — محمد الغزالي ٢٢٢

٣ صحيح مسلم ٥٢/٦ وأبو داود ٣٩٤/١

والترمذي ١٢٣/٢ وابن ماجه ١٨٨/٢

الصلاة والسلام : مالكم لا ترمون . قالوا كيف نرمي وأنت معهم قال النبي :
ارموا فإنا معكم كلكم « (١) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « بينا الحبشة يلعبون عند رسول
الله فى المسجد بحرابهم دخل عمر فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها فقال دعهم
يا عمر « (٢) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان أبو طلحة يتتربس مع النبي
عليه الصلاة والسلام بتربس واحد وكان أبو طلحة حسن الرمي ، فكان إذا رمى
تشرف النبي فينظر الى موضع نبله .

« وكان المسلمون أكثر مهارة من أعدائهم فى استخدام اسلحة الحرب
وخاصة ركوب الخيل ورمى التبل « وقد كانوا يعلمون أبناءهم هاتين الحرفتين ،
وكان المتفوق فيهم يضرب به المثل فى القوة ، وكانت الإجادة موضع الفخر ،
وبلغت هذه الاجادة حدا لا يزيد عليه حتى ان الواحد منهم كان يمتطى جواده
وهو عارى الظهر ويرمى النبال فتصيب إحدى عيني غزال دون الأخرى « (٣) .
وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يكتفى بتدريب جيشه على ركوب
الخيل بل كان يحرضهم على ركوب البحر فقد أخرج البخارى عن أنس بن مالك
رضى الله عنه عن أم حرام أن النبي عليه الصلاة والسلام قال « أى استراح
وقت القبلولة « يوما فى بيتها فاستيقظ وهو يضحك ، فقالت يا رسول الله
ما يضحكك ، قال : عجبت من قوم من أمتى يركبون البحر كالملوك على الأُسرة
فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال : أنت معهم ، ثم نام فاستيقظ
وهو يضحك فقال : ادع أن يجعلنى الله منهم فيقول : أنت من الأولين « (٤) .

وقد ربى الإسلام جنوده على الخشونة وتحمل المشاق ويروى فى ذلك ابن
عمر عن أبيه الفأروق فيقول : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى خليفته
فى الشام أنظر من قبلك من الجنود فلينتعلوا وليحتفوا . قال السرخسى فى
التعليق على الخبر : أى يمشوا أحيانا بغير نعل وأحيانا فى النعال ليتعودوا
ذلك . وفى هذه الوصية من الإمام عمر رضى الله عنه ، تنبيه إلى أن الجند يجب
الاجتناب إلى الترف والنعيم ، فإن الجندية والتنعيم نقيضان لا يجتمعان . وإن
الترف الدائم لا يكون معه خشونة ويؤدى إلى استرخاء النفوس ، وإذا استرخت
النفوس فسدت وضمفت العزائم .

ولذلك كان أخشى ما يخشاه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ان يصيب
الترف والأثر الجند فان ذلك يقضى على روح الجندية فقد جاء فى شرح السرخسى
أن أبا بكر الصديق قال : « إنكم ستظهرون على كنوز كسرى وقيصر ، وإياكم
والأثر ، ورب الكعبة لتأثرن « .
والأثر : نوع من الفرح المصحوب بتنعم واستعلاء ، وان ذلك يتربس عليه
أمران :

أحدهما : الا يبذل الجندى كل ما أوتى من قوة ، ولذلك لما أعجب المسلمون
كثرتهم فى (حنين) انهزموا . الامر الثانى : طغيان مع استرخاء العزائم . وان

١ (صحيح البخارى ٤/٤٥٠ .

٢ (صحيح البخارى ٤/٤٤٤ .

٣ (صحيح البخارى ٤/٤٤٤ .

٤ (صحيح البخارى ٤/٤٦٨ .

٢ (السلام والحرب فى الاسلام - صاغ

توالى النصر وتوالى البطر والأشر يؤدي إلى الترفه والنعيم ، ولذلك قال أبو بكر فى موقف آخر : « والله لتأمن من النوم على الصوف الأذرى كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان » (١) .

وإن كثرة الترف تورث الضعف ، وتمنع الصبر ، ويكون الجندي إذا أشر يائسا كما قال تعالى : « وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرِّاءَ مَسْتَه لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » (٢) . هذه نماذج لاعداد الرجال للقتال فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام وخلفائه الراشدين تطبيقا لمفهوم قوله تعالى « وأعدوا لهم .. » . ولا يكتفى الرسول القائد باعداد الرجال فحسب بل يعنى عناية كبيرة **باعداد السلاح** :

إن من مزايا القرآن الكريم هذا الشمول الذى يجده القارئ فى آياته وهذا الخلود الذى يلمسه بين كلماته . فهو يأتى بالكلمة الواحدة تحسبها أول الأمر كغيرها من الكلمات فإذا تتابعت العصور وتطور الناس من حال إلى حال ، وجدتتها أوسع من هذه العصور ومن تلك التطورات . فلننظر كلمة (قوة) فى قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. » كيف شملت ما عرفه الصحابة أيام رسول الله من سيف ورمح ودرع وكيف شملت اليوم ما نعرفه من طائرة ودبابة وقنبلة ذرية ، لتعلم أن القرآن لا يقف عند عصر إنما يشمل العصور كلها ويسع التطورات جميعها (٣) .

وقد كشف القرآن الكريم للمؤمنين عن منابع القوة وعناصرها ، وأمرهم بالبحث عنها ، واستخدامها ومسايرة التقدم البشرى والسبق فى الكشف والاختراع والسياسة ، ويبين لهم أنها فى الحديد وما يستخرج منه من المصنوعات النافعة بواسطة النار التى هى أقوى منه كنتيجة للفكر والعمل وأثبت لهم هذه الحقيقة حتى جعلها عقيدة ، لا قيام لدينهم ولا لدولتهم إلا بها ، حيث أعلمهم أنه أنزل الحديد مع الكتاب إشارة إلى أن القوة مع الحق ولا قيام له (٤) إلا بها فقال تعالى « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز » (٥) .

وهذه إشارة إلى ما فى الحديد من قوة لشد عضد المسلمين فى التمسك بحقهم ، والمحافظة عليه ولنتأمل قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا بالبينات وأنزلنا الحديد .. » وكيف زواج بين الكتاب والميزان ، وبين الحديد فى أنه أنزل الجميع فى آن واحد ، وكيف خلع على الحديد الذى به قوام الميزان وحفظ القسط هذين الوصفين : البأس الشديد والنفع العظيم . نتأمل هذا ثم ننظر مما تتخذ أدوات القتال برية وبحرية وجوية .. ثم نتأمل قوله تعالى بعد ذلك : « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » لنعلم أن نصر الله معقود لمن سخر الحديد واتخذ منه القوة والبأس (٦) .

- | | |
|--|--|
| ١ (الجهاد ٥٥/ للشيوخ محمد أبو زهرة
الصوف الأذرى . نسبة الى أذربيجان
وحسك السعدان . شوك حاد وانظر
السير الكبير ، لمحمد ابن الحسن
الشيبانى ، تهجد الشيخ محمد أبو
زهرة وتعليق الدكتور مصطفى زيد . | ٢ (نظم الحرب والسلام / جمال الدين
عيسى . |
| ٣ (تفسير القرآن الكريم / ٢٤٨ الشيخ
محمود شلتوت . | ٤ (الحديد / ٢٥ . |
| ٥ (الاسلام والملاقات الدولية / ٤٩/
الشيخ محمود شلتوت . | ٦ (الحديد / ٢٥ . |

قال ابن عباس (١) : نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين ، السندان والكلبتان ، والميتعة ، والمطرقة ، والإبرة . وقوله تعالى « أنزلنا الحديد » أى أخرج الحديد من المعادن وعلمه صنعته بوحيه « فيه بأس شديد » يعنى السلاح والكراع والجنة » .

وقال الزمخشري (٢) : هو القتال به (ومنافع للناس) فى مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم ، فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها أو يعمل بالحديد « وليعلم الله من ينصره » باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح فى مجاهدة أعداء الدين « إن الله قوى عزيز » غنى بقدرته وعزته فى إهلاك من يريد هلاكه منهم وإنما كلفهم بالجهاد لينتقموا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب » .

وإذا عرف المسلمون قيمة فضل الله عليهم وعلى الناس (بالحديد) الذى أنزله فليعرفوا فضل الله على نبيه داود عليه السلام فى إلهامه طرق الانتفاع بهذه المادة . وقد قص الله علينا ذلك فى كتابه العزيز لتكون لنا منه العبرة والذكرى . . « ولقد آتينا داودَ مِنَّا فضلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِيْ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّاسُ لَهُ الْحَدِيدَ . ان اعمل سابغات وَتَقَرَّرْ فى السَّرْدِ واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير . ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومريمَ الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسياتِ اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادى الشكور » (٣) .

ولعل هذه الآيات تشير إلى ما كان يتخذهُ هؤلاء الأنبياء من المصانع التى كانت تخرج لهم الدروع المحكبة فى وضعها ومقدارها ، وتخرج لهم التماثيل التى كانت تدخل على العدو شدة الروح فتضعف من قوته ، وترد من طفيلانه . ولعل فى ذلك ما يدفع المسلمين إلى انشاء المصانع التى تخرج لهم ما يحتاجون إليه فى حفظ حياتهم ، وتمصصهم من التطلع إلى ما فى أيدي أعدائهم ، غير مشغولين بشيء سوى الامتنان والتعجب منه ، والوقوف امامه كالمبهوت المستغرب (٤) .

ومن نعم الله علينا أنه علم سيدنا داود صناعة اسلحة القتال فقال : « وعلّمناه صنعة لبوس لكم لحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » (٥) . قال القرطبي (٦) : « وهذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول اهل العقول والألباب ، وقد أخبرنا الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع . والصنعة يكف بها الانسان نفسه عن الناس ، وينفع بها عن نفسه الضرر والبأس » .

وتدنيه الله تعالى إلى استخدام قوة الحديد والنار فى قصة ذى القرنين : « وقالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكنى فيه ربي خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً أتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قالوا انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتونى أفرغ عليه قطرا فما استطاعوا أن

١ (تفسير القرطبي ١٧ / ٢٦١ .

٢ (الأئبياء / ٨٠ .

٣ (تفسير القرطبي ١١ / ٢٢٠ ، ٢٢١ .

٤ (تفسیر القرطبي ١٧ / ٢٦١ .

٥ (الأئبياء / ٨٠ .

٦ (تفسير القرطبي ١١ / ٢٢٠ ، ٢٢١ .

٧ (تفسير القرآن الكريم / ٧٤٧ للشيخ

يظهره وما استطاعوا له نقبا» (١) .
 وقد أشار سبحانه وتعالى صراحة الى ما فى اتخاذ المصانع من القوة
 والبأس « وتتخذون مصانع لعلكم تتخذون » (٢) . .
 وقد أشار أيضا الى صناعة السفن وتعليمها « فأوحينا إليه ان اصنع
 الفلك بأعيننا ووحينا » (٣) « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين
 ظلموا » (٤) .

ولقد حرصت حكومة الرسول عليه الصلاة والسلام على إعداد العدة كل
 الحرص . فكان عليه السلام يرسل البعثات لتعلم الصناعات الحربية : فقد ذكر
 ابن سعد وابن هشام أنّ عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يحضرا حصار
 الطائف إذ كانا بجرش يتعلمان صنع العرادات والمنجنيق والدبابات والضبور (٥)
 . . ولقد كان المنجنيق والدبابة أحدث وسائل القتال أيام رسول الله وأكثرها
 قدرة . ومن أجل ذلك كان استعمالها يحتاج إلى تمرس وحذق ومعامنة وليس لنا
 أن نغفل الحديث عن أسلحة المسلمين فى عهد النبوة ، فقد كانوا يتخذون للحرب
 عدتها ، فيحتمون بالدرع ويتترسون بالترس ، ويلبسون الخوذة ويضربون
 بالسيف ، ويرمون بالقوس ، ويحملون الحربة والرمح ، ويركبون الفرس والبعير
 وكانت لهم أسلحة أخرى سبقوا المخترعين المحدثين إليها ، فقد كانوا يعرفون
 الضبور وهو صندوق من خشب غطاؤه الجلد ، يكمنون فى جوفه فلا تصل إليهم
 حراب العدو ولا تعوق سيرهم فيقدمون عليه بقذف النبال ورمى الأقواس ، وهم
 فى حصى من أذاه ومن قذائفه . وكان لهم سلاح آخر أشبه بالضبور ، يحتمون
 بداخله فينقبون الجدران ، ويقتمون الحصون ويهزمون الأعداء (٦) .

وقد استعمل الرسول عليه الصلاة والسلام المنجنيق يوم الطائف . قال ابن
 هشام : « وربما هم رسول الله بالمنجنيق ، وإن رسول الله أول من رمى فى الاسلام
 بالمنجنيق ، إذ رمى أهل الطائف » .

وقال ابن اسحق : حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، دخل
 نفر من أصحاب رسول الله تحت دبابة ، ثم زحفوا إلى جدار الطائف
 ليحرقوه (٧) وقد استعمل رسول الله المنجنيق فى حصار حصون خيبر (٨) .
 وكما نبه القرآن الكريم إلى ما فى (الحديد والنار) من القوة نبه إلى
 (قوة الخيل) فقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون
 به عدو الله . . » وقد أقسم سبحانه بخيل الفزاة إذا أجريت فى سبيله فعدت
 وضبحت « والعاديات ضبحا ، فالمريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ،
 فوسطن به جمعا » (٩) .

وقد ذكر القرآن الكريم أن الأنبياء والمرسلين قد اتخذوا القوة واصطنعوها
 أساسا لحياتهم الحربية ، وأولوا الخيل عناية خاصة كسيدنا سليمان عليه السلام
 الذى حين احتاج إلى الفزو ، أمر باحضار الخيل ، وأمر باجرائها ، ثم أمر

- | | |
|-------------------------------|--------------------------------------|
| ١ (الكهف / ٩٤ - ٩٧ . | ٦ (نظم الحرب فى الاسلام / ٦٧ عياد . |
| ٢ (الشعراء / ١٢٩ . | ٧ (سيرة ابن هشام ١٢١/٢ تحقيق |
| ٣ (المؤمنون / ٢٧ . | محيى الدين عبد الحميد . |
| ٤ (هود / ٣٧ . | ٨ (صور من حياة الرسول / ٤٨٢ . |
| ٥ (سيرة ابن هشام ١١٧/٢ تحقيق | ٩ (الماديات / ١ - ٥ . |
| محيى الدين عبد الحميد . | |

باعدائها وتسييرها حتى غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين أن يردوها عليه ، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها تشريفا لها وإبانة عن عزتها لكونها من أعظم العون في دفع العدو . وقد حكى ذلك القرآن الكريم في سورة (ص) : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد . فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردها على نطفك مسحاً بالسوق والأعناق » (١) .

وعن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : اشتغل سليمان عليه السلام بعرض الأفراس للجهاد حتى غربت الشمس (٢) .

هذا ، وقد رغب رسول الله في اقتناء الخيل والقيام عليها لما فيها من الأجر والغنيمة والقوة المخيفة للعدو في عهده عليه الصلاة والسلام ، فقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الخيل وارتباطها في سبيل الله ، أخرج البخاري « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم » وقال أيضا « من احتبس فرسا في سبيل الله ، إيماناً بالله وتصديقا لوعده ، فإن شبعه وربيه ورثه وبوله في ميزانه يوم القيامة » (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضا : الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنة له ، ورجل ربطها فخرا ورناء ونواء لأهل الإسلام فهي وزر على ذلك » (٤) .

وقد كان المسلمون يحاربون في أول عهدهم بالقتال راجلين ، فلا خيل عندهم ، وفي (أحد) كان لديهم فرسان أحدهما للنبي ، والأخرى لأحد الصحابة ، فلما كان حصار بني قريظة كان لدى المسلمين ستة وثلاثون من الخيل ، فلما غنم المسلمون من بني قريظة الكثير بعث النبي بسبائهم إلى نجد حيث بيعت هناك واشترى المسلمون بثمنها خيلا وسلاحا ، فكان فرسان المسلمين يوم خيبر مائتين (٥) وظل جيش المسلمين في تطور مستمر حتى وصل في غزوة تبوك إلى ثلاثين ألف مقاتل بينهم عشرة آلاف راكب (٦) .

وهذا يدل على اهتمام النبي الكبير في إعداد الجيش والسلاح . فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كانت أموال بني النضير مما آفأه الله على رسوله مما لم يوجب عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله خاصة وكان ينفق على أهله نفقة سنته . ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله » (٧) .

هذا وإن كانت أسلحة الحرب في زمن النبي عليه الصلاة والسلام محصورة في الأنواع التي ذكرتها فقد تطورت وتنوعت حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ، وطبيعي أنها لن تقف عند حد . والمسلمون بطبيعة دينهم مأمورون بالسبق في هذا الضمار الذي لا نهاية له حتى يحققوا أمر الله في إعداد الأسلحة التي ترهب عدوهم « ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

١ (ص / ٣٠ - ٣٢ . محيي الدين عبد الحميد وانظر محمد

القائد الصاغ - محمد عبد النعناع

ابراهيم / ١٠٣ .

٦ (الرسول القائد / ٢٧١ محمود شيت خطاب

٧ (صحيح البخاري / ٤٦٤ .

٢ (تفسير القرطبي / ١٥ / ١٩٦ .

٣ (صحيح البخاري / ٤ / ٣٤ .

٤ (المرجع السابق / ٤ / ٣٥ .

٥ (سيرة ابن هشام / ٣ / ٧٢٤ تعتيق

وان قصروا فى هذا فليترصبوا أن تدور عليهم الدوائر فى الدنيا وغضب الله وعذابه فى الآخرة . ولقد حقق المسلمون بعد عصر النبى عليه الصلاة والسلام سبقا عظيما فى تاريخهم الحربى فهم أول من رمى باللهب فى الحروب واخترع القنابل اليدوية « أيام حصار البطل صلاح الدين الأيوبي لإبراج عكا » فضلا عن اختراعهم المدافع واكتشافهم للبارود فى حروب الأندلس (١) .

وقال (لوبو) عند الكلام عن حصار دمشق سنة ٦٣٤ « تعلم المسلمون من العرب الذين كانوا استخدموا فى كتائب الإمبراطورية البيزنطية صنع آلات الحرب واستعمالها فكانوا يضربون هذه المدينة بشدة » (٢) .

وهكذا اكتشف المسلمون الأوائل سر هذه الآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، وعملوا به أيام حضارة الإسلام فسادوا الأمم ، وقادوا الشعوب ، ونشروا لواء الإسلام على الإقطار والأمصار .

« أما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا الى النعيم والترف ، فأهملوا فرضا من فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة أئمة بتركة ، ولذا تعانى اليوم من غصته ما تعانى وكيف لا يطعم العدو بالممالك الإسلامية ، التى لا ترى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر حرب بل كلها مما يشتري من بلاد العدو ؟ أما أن لها أن تنتبه من غفلتها وتنشئ ، معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية ؟ لقد التى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درسا يجب أن تتدبره ، وتتلافى ما فرطت به » (٣) .

٢ - الرباط وتحصين الثغور :

قلنا أن آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل .. » تحمل كلماتها عناصر النصر ، فقد اشارت الى أمرين لهما خطورتهما البالغة فى حياة الأمم والشعوب هما : القوة ، التى قلنا أنها تتناول الأعداد المادية والمعنوية . والأمر الثانى : الرباط : وهى كلمة تتسع لكل ما عرف ويعرف أيضا فى تحصين الثغور ومداخل العدو ..

والمرابطة هى أن يخصص جزء من الجنود للوقوف على الحدود حتى لا تخلو ثغور المسلمين من حامية قوية تحميها ، وترد هجوم المعتدين ، ومناجزتهم قبل أن يوغلوا داخل البلاد . والرباط يتضمن معانى ثلاثة ، الأول : الحراسة الشديدة بحيث لا تكون ثغرة ينفذ منها العدو الى الديار الإسلامية لأنه كما قال الإمام على المجاهد الأول بعد رسول الله « ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا » .

والمعنى الثانى الذى تؤدى اليه المرابطة : هو ارباب العدو وجعله فى خوف ووجل مستمرين اذ يعلم أن وراء المرابطة جيشا يحمى الديار . والمعنى الثالث : هو أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال يكون معه مران وتدريب ، فيتكامل بذلك الاستعداد ، ولا يؤتى المؤمنون على غرة قط (٤) . وقد أوجب الله تعالى (الرباط) كما أوجب الجهاد على المسلمين لقوله

١ (القتال فى الإسلام / ١٠٢ اعيدنار .
٢ (تاريخ الإمبراطورية البيزنطية باريس
٣ (محاسن التأويل ٣٠٢٤/٨ للغاسمى .
٤ (الجهاد /٧ للشیخ محمد ابو زهرة .
سنة ١٧٦٨ .

تعالى « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (١) .

قال الزمخشري (٢) : اقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها ، مستعدين مترصدین للعدو » .

وقد عرف ابن عطية (الرباط) بقوله : « الرباط هو الملازمة في سبيل الله ، أصلها من ربط الخيل ، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الاسلام مرابطا ، فارسا كان أو راجلا واللفظ مأخوذ من الربط » (٣) . وهي لاعزاز الدين ودفن المشركين عن المسلمين ، وتنزل من الجهاد بمنزلة الاعتكاف في المساجد للصلاة ، لأن المرابط مقيم في وجه العدو اذا احس ببيعة قام اليها فلا يتمكن العدو من مباغطة ديار المسلمين ولا يؤتى المسلمون من قبله .

والمرابطة على هذا المعنى نوع من أخذ الحذر حتى لا تغزى الديار على غرة ، وهي لقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » (٤) .

وقوله « وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلا واحدة » .. إلى قوله تعالى « وخذوا حذرکم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا » (٥) .

فأله يأمر المرابطين في سبيل الله الا يغفلوا عن اسلحتهم طرفة عين حتى لا يأخذهم العدو على غرة فيستأصل شأفتهم « فيميلون عليكم ميلا واحدة » .. وقد كرر التحذير في أول الآية وفي وسطها وختمها بالتحذير والتبشير بالنصر على الكافرين ما دام المسلمون متمسكين بأوامر الله .

وقد حث النبي عليه الصلاة والسلام على الرباط ورغب فيه . جاء في صحيح البخاري قوله عليه الصلاة والسلام « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا ومن عليها » (٦) .

وفي صحيح مسلم عن سلمان قال : « سمعت رسول الله يقول : رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وان مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله واجرى عليه رزقه وأمن الفتان » (٧) .

وروى أبو داود في سننه عن فضالة بن عبيد الله أن رسول الله قال : « كل ميت يختم على عمله الا المرابط فانه ينمو عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر » .

وفي هذين الحديثين دليل على ان الرباط افضل الاعمال حيث يبقى ثوابه مستمرا بعد الموت .. والرباط يضاعف أجره إلى يوم القيامة لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة ، وهي غير موقوفة على سبب فتقطع بانتقاعه بل هي فضل دائم من الله إلى يوم القيامة .. وهذا لأن أعمال البر لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرز منه بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الاسلام ..

وروى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله يقول : من رباط ليلة في سبيل الله كانت كالف ليلة صيامها وقيامها .

٦ (صحيح البخاري (باب فضل رباط يوم

في سبيل الله) ٤/٤٢٠ .

٧ (صحيح مسلم ٥٠/٦ دار الطباعة العمارة

سنة ١٣٣١ .

١ (آل عمران/ ٢٠٠ .

٢ (الكشاف : ٤٩١/١ .

٣ (تفسير القرطبي ٤/٢٢٤ .

٤ (النساء/ ٧١ .

٥ (النساء/ ١٠٢ .

وروى عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله : لرباط يوم فى سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أعظم أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ورباط يوم فى سبيل الله وراء عورة المسلمين محتسبا من شهر رمضان أفضل عند الله وأعظم أجرا من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فان رده الله الى اهله سالما لم تكتب عليه سيئة الف سنة وتكتب له الحسنات ويجرى له اجر الرباط الى يوم القيامة (رواه ابن ماجة) .

ودل هذا الحديث على أن رباط يوم فى شهر رمضان يحصل له من الثواب الدائم وان لم يمت ، مرابطا (١) .

وهذه الأحاديث الكثيرة التى تعد المرابطين اجزل الثواب تدل بصراحة على أهمية حراسة ثغور المسلمين ، وانه من القوة التى يجب ان يهتم المسلمون باعدادها حتى لا يفاجئهم العدو فى عقر دارهم ..

ثانيا : (القوة الروحية) او (الروح المعنوية) :

هذه هى القوة الثانية التى أشارت اليها آية (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . فقد رأينا كيف أن القرآن الكريم قد أرشد المؤمنين الى ضرورة الاعداد المادى اعدادا كاملا وكشف لهم عن مصادر القوة والقلبة حيث وجه انظارهم الى صناعة أسلحتهم وحراسة ثغورهم وتدريب رجالهم . لأن الاعداد المادى يقوى الثقة بالنفس ويلهب إرادة القتال ويرفع المعنويات ..

وهنا يزود القرآن الكريم المؤمنين بتوجيهات إلهية سامية لتبقى روحهم المعنوية عالية ، وارادتهم للقتال قوية . ومن هذه التوجيهات القرآنية الكريمة :

(١) التزود بحقيقة الايمان :

لتلقى الصحابة رضوان الله عليهم القرآن الكريم مدركين مدى الشرف الذى حباهم الله به ، فأتبلوا عليه يرتلون آياته ويتلونها آثناء الليل وأطراف النهار ، حتى كان من يمر بهم يسمع لهم نوى كدوى النحل من تلاوة القرآن الذى جعلوه غذاء أرواحهم ، وقوت قلوبهم وقرة اعينهم ، نفذوا أحكامه ، وأقاموا حدوده ، واستقر اليقين فى اعماقهم فاستطاعوا ان يحدثوا اكبر ثورة عالمية غيروا بها وجه الارض (٢) .

فالقرآن هو الغذاء الأول للروح المعنوية التى لا تقهر .. فقد تقدم المجاهدون الذين جعلوا القرآن الكريم ربيع قلوبهم الى ميدان القتال وهم مؤمنون حق الايمان باحدى الحسينيين أما النصر وأما الشهادة (قل هل تربصون بنا الا احدى الحسينيين (٣) . (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا (٤) .

وقد ربي القرآن الكريم المجاهدين فى سبيل الله على حقيقة الايمان التى تؤدى الى تقوية الروح المعنوية بسرد القصص الحربية للأمم السابقة : (وإذ

١ (تفسير القرطبي ٤/٢٢٥ - ٢٢٦ .
٢ (التوبة / ٥٢ .
٣ (دعوة الاسلام / ٢٧ سيد سابق .
٤ (التوبة / ٥١ .

قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت احدا من العالمين (١) .

وقد وعد الله تعالى بنى اسرائيل بدخول الارض المقدسة والنصر من الله ولكنهم رفضوا الامتثال لأمر الله بقتال العمالقة وقالوا : (إنَّ فيها قوما جبارين وإنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) .

فهم أرادوه نصرا رخيصة لا ثمن له ولا جهد فيه ينتزل عليهم تنزل (المن والسلوى) . . . ولكن النصر ليس كما اراده اليهود . فالله لا ينصر القلوب الخاوية من الايمان به وبوعده . (قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما أدخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون) .

هنا تبرز قيمة الايمان بالله وتعمل عملها فى وقت الشدة . فالله لا يجمع فى قلب واحد مخافتين مخافته ومخافة الناس (وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) . هذه هى خاصية الايمان الحقيقى ومنطقه ومقتضاه . . .

وتشير الآية الكريمة الى سر من الأسرار العسكرية تنبه اليه فنى الفتيان

وسيد المجاهدين الامام على بن أبى طالب (ما عَزَى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا)

فهم هذا المعنى من قوله تعالى : (ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم

غالبون) . قاعدة عسكرية ثابتة لا تخطى أبدا . فهول المفاجأة كئيل وحده

بتحطيم قوة العدو المعنوية فيلقى سلاحه ويستسلم ذليلا صاغرا .

ونمضى مع هذه القصة العسكرية فيقول الجبناء الذين لم يدخل الايمان

فى قلوبهم ولا يخافون الله ولا يتقون بوعده (قالوا يا موسى : انا لن ندخلها

أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون) .

(اذهب أنت وربك فقاتلا . . .) هكذا فى وقاحة العاجز ، فهو

ليس بربهم لأن ربوبيته ستكلفهم القتال (انا هاهنا قاعدون) لا نريد ملكا ولا

عزا ، ولا أرض الميعاد التى دونها لقاء الجبارين .

هذه هى نهاية المطاف بموسى (قال رب ابنى لا املك إلا نفسى واخى فانقر

بيننا وبين القوم الفاسقين) .

فاستجاب الله لنبيه وقضى عليهم بالتيه اربعين سنة (قال فانها محرمة

عليهم اربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) .

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس فى قلوبهم وعقولهم ، فحين واجهوا

الشدة وهم قلّة أمام نغير قريش فى غزوة بدر قال قائلهم فى ذلك اليوم

لرسول الله عليه الصلاة والسلام (والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى

اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ، ولكننا نقول اذهب أنت وربك فقاتلا

إنا معك مقاتلون ، فو الله لو سرت بنا حتى تبلغ برك الغماد لنسيرن معك والله

لئن استمرضت بنا هذا البحر خضناه معك (٢) .

ومن المفاهيم التى غرسها القرآن الكريم لتنمية إرادة القتال فى نفوس

المجاهدين وعقولهم معا ، إيمان المجاهد إيمانا عميقا بعدالة الأهداف التى

يقاتل من أجلها ، فهذا الايمان يجعل منه مقاتلا رهيبا كما عبر عن ذلك

العسكريون المحدثون (٣) .

١ (السائدة / ٢٠ - ٢٦ (القصة كلها) .

٢ (زاد المعاد ٨٦/٢ وسائر كتب السيرة

٣ (ارادة القتال فى الجهاد ٦/ محمودشيت

خطاب (اللواء الركن) من أعمال المؤتمر

والقتيرين .

الرابع للبحوث الاسلامية ١٩٦٨ .

يقول القائد (كرمويل) (١) : (إن اقوى غرض مشترك للجيش ، هو أن يعتقد أفرادهم أنهم أداة الخالق لتنفيذ أحكامه ، وأية قوة تستطيع الصمود في وجه هذه القوة الإلهية ؟)

ولقد كان المسلمون كذلك فانهم كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنهم جند الله ، يحاربون لإعلاء كلمته ونشر دينه ، بينما يُقاتل أعداؤهم في سبيل الشيطان ، ولن ينتصر الشيطان يوماً على الرحمن (الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا (٢) .)

وقد أدرك المشركون يوم بدر هذه الحقيقة (إنّه لا طاقة لأحد بقتال الله) وقال ابن اسحق : وبمك خفاف بن أيما بن رخصة الغفاري الى قريش ، حين مروا به ابنا له بجزائر أهداها لهم ، وقال : إن احببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا . . فآرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم (لئن كنا نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد ، فما لأحد بالله من طاقة (٣) .)

وبهذه العقيدة القوية كان المسلمون يخرجون من بيوتهم يطلبون الشهادة في سبيل الله ويسعون إلى الموت سعياً ، لأنه أسمى أمانهم . . وإلى هذا المعنى أشار (الدكتور أومان (٤) . (إن العرب الذين قادهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في القرن السابع لفتح سورية ومصر لم يفوزوا بالنصر لكثرة جيوشهم أو لدقة نظامهم وإنما بالتضحية والشجاعة النادرة ، فهي التي أقدرتهم على أن يواجهوا قوات أوفى منهم سلاحاً ، وادق منهم نظاماً) .

كما لاحظ هذا المعنى المستشرقون والمؤرخون (وملاً قلوب العرب شجاعة احتقارهم التام للموت ، الذي قرره في أذهانهم دينهم الجديد (٥) .

وقد سبق أن ذكرت وعد الله الحق للمؤمنين بالنصر (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً (٦) . وذلك أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس الجاهدين ، وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ، وتجردوا لله من كل خاطرة ، فلن يجعل الله للكافرين عليهم سبيلاً .

ويقول الشيخ محمود شلتوت : (فإذا وجدنا أنفسنا في وقت ما مخذولين ووجدنا أعدائنا علينا متسلطين فليس لنا أن نشك في وعد الله ، ولكن علينا أن نسائل أنفسنا أين نحن من الإيمان وأين نحن من التضحية في سبيل الله بالمال والولد والمتاع (٧) .

فيجب أن نفرق دائماً بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة بثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفوس وفيما يصدر عنها من حركات وأعمال . وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلاً أن تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة وأن تقهرها .

ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه ، إذا هي

-
- ١ (فن القيادة / ١٣٤ .
٢ (النساء / ٧٦ .
٣ (سيرة ابن هشام ٦٢١/٢ تحقيق المسقا
والإبياري وشلبى .
٤ (History of Art of War P. 1528 2-8 .
٥ (تاريخ العرب ١٧٦/١ نيليب حتى ترجمة
محمد مبروك نافع .
٦ (النساء / ١٤١ .
٧ (تفسير القرآن الكريم / ١٥٤ .

صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها . لأن حقيقة أى شىء أقوى من مظهره ، ولو كانت هى حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان .. والتاريخ خير شاهد على ما أقول ..

ومن حقيقة الإيمان الثبات فى ميدان القتال وذكر الله كثيرا عند لقاء العدو وعدم التولى يوم الزحف .. لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (١) . وقوله أيضا : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير (٢) .)

قال القرطبي (٣) : (حرم الله على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار الفرار من الكفار والأ يعطوهم أدبارهم . قال ابن عطية : والأدبار جمع دبر ، والعبارة بالدبر فى هذه الآية متمكنة الفصاحة ، لأنها بشعة على الفار ، ذامة له . والفرار كبيرة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة) قال ابن عباس (٤) : رضى الله عنه : (إن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر) .

ويرشد الله تعالى المسلمين فى هذه الآيات إلى مدد روحى يعينهم على الثبات ، ويمنحهم رباطة الجأش ساعة تزيغ الأبصار وتضطرب القلوب ، ذلكم هو ذكر الله كثيرا ، وذكر الله ليس نطق اللسان فحسب ، إنما قبل ذلك استحضار عظمة الله التى لا تُحد ، وقوته التى لا تقهر ، ووعد الذى لا يتخلف وبهذا الذكر والاستحضار تقوى العزائم ، وتثبت الأقدام (٥) .)

وقد لاحظنا أن الآيات أكدت مرتين أن فرار المسلم من القتال جريمة ، وصورت ذلك بصورة من يولى غيره دبره ، فمن من المسلمين يرضى أن تسجل عليه هذه الصورة البشعة المخزية . ولكن من المسلمين من يتظاهر بالفرار ليستدرج عدوه بعيدا فيقتله على انفراد أو لينضم إلى طائفة من مقاتلى المؤمنين يراها أحوج إليه من الطائفة التى كان فيها ، وهؤلاء ، المتظاهرون بالفرار لأحد هذين السببين مقاتلون بارعون لا يحسب عليهم تظاهرهم بالفرار بل لعله يحسب لهم (٦) .

وقد أمر الله المؤمنين أول الأمر أن يثبت الواحد أمام عشرة من الكفار ، ثم خفف عنهم فجعله يثبت لاثنين ، والزمه الصبر والثبات وحرّم عليه الفرار منهما .

(يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله ، والله مع الصابرين (٧) .)

قال ابن عباس (٨) : (نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) فشق ذلك على المسلمين ، حين فرض الله عليهم الا يفر واحد من عشرة ، ثم

-
- ١ (الانفال / ٤٥ .)
٢ (الانفال / ١٥ - ١٦ .)
٣ (تفسير القرطبي ٢٨١/٧ وما بعدها .)
٤ (الكشاف ١٤٩/٢ .)
٥ (تفسير القرآن الكريم / ٥٨٠ للشيبخ شلقوت .)
٦ (تفسير سورة الانفال / ٢٩ د.مصطفى زيد .)
٧ (الانفال / ٦٥ ، ٦٦ .)
٨ (تفسير القرطبي ٤٤/٨ .)

انه جاء التخفيف . فلما خفف الله تعالى عنهم العدد نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم) .

وكثيرا ما يحدث هذا في معارك المسلمين فابن هشام يروى ان « ابا عامر الأشعري » قتل تسعة من المشركين مبارزة ثم حبل على العاشر فاستجار به فعفا عنه فأسلم . وقد روى الطبري وابن الاثير في حوادث سنة ١٣ هـ من انه اخصى في معركة (البويب) بالعراق مائة مسلم قتل كل منهم عشرة من جنود الفرس ولهذا سُموا أصحاب « الأعشار » كما سُمى يوم المعركة يوم الأعشار (١) .

ومما لا شك فيه أن الثبات عند لقاء العدو يُعد عاملا من أجل العوامل التي تساعد على الانتصار وهو دليل واضح على قوة الروح المعنوية التي هي الدافع القوي على القتال والاستبسال والاستماتة في القتال وقد انتصر المسلمون في كل غزواتهم بهذه الروح التي بينها الايمان في نفوس المحاربين فتضاعف امكانياتهم الحربية وقدرتهم على مواجهة العدو .

فالثبات هو بداية الطريق الى النصر فاثبت الفريقين أغلبهما ، وما الذي يزلزل اقدام الذين آمنوا وهم واقفون من احدى الحسينيين إلى الشهادة أو النصر بينما عدوهم لا يحرص إلا على الحياة الدنيا التي لا أمل لهم وراءها ولا حياة بعدها أو سواها (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة (٢) .

وقال النيسابوري (٣) : بين الله سبب الغلبة فقال : (بأنهم قوم لا يفقهون) أي بسبب أن الكفار قوم جهله لا يعرفون معادا ، وقد انحصرت السعادة عندهم في هذه الحياة العاجلة وأيضا إنهم يعولون على قوتهم وشوكتهم ، والمسلمون يتولكون على ربهم ويستغيثونه ، ويتوقعون منه انجاز ما وعد من النصر والتأييد) .

والتوكل على الله والثقة بوعده وتفويض الأمر كله اليه بعد اتخاذ كافة اسباب النصر التي أمر الله بها من جماع الايمان وكماله .. فقد دعا الله المجاهدين الى التوكل عليه في آيات كثيرة لأنه يحب المتوكلين (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون (٤) .. (ومن يتوكل على الله فهو حسبه (٥)) .. (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٦)) .. (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين (٧)) .. (فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركعكم (٨)) .

وقال القرطبي (٩) : للتوكل : الاعتماد على الله مع إظهار العجز .
وقوله تعالى : (فإذا عزمتم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) يقرن إِمضاء العزيمة المستكملة لشروطها بالتوكل على الله ، وذلك لأن نقض العزيمة

-
- ١ (تاريخ الطبري ٧٥/٤ والكمال ٦٣/٢ .
 - ٢ (البقرة / ١٦٦ .
 - ٣ (غرائب القرآن ٢٣/١٠ .
 - ٤ (آل عمران / ١٦٠ .
 - ٥ (الطلاق / ٢ .
 - ٦ (المائدة / ٢٣ .
 - ٧ (الأنفال / ٦١ ، ٦٢ .
 - ٨ (يونس / ٧١ .
 - ٩ (تفسير القرطبي ٢٤/٨ .

ضعف في النفس وزلزال في الأخلاق لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل .
ونفس ابن هشام (١) قوله تعالى : (إذا عزمت) أي على أمر جأك مني
وأمر من دينك في جهاد عدوك لا يضلحك ويصلحهم إلا ذلك ، فأمر على ما
أمرت به ، على خلاف من خالفك ، وموافقة من وافقك .

وقد نزلت هذه الآية بمناسبة استشارة النبي أصحابه يوم « أحد » فلما
أشاروا عليه بالخروج إلى لقاء عدوهم خارج المدينة ، وكان عليه الصلاة
والسلام لا يرى ذلك وقد عرف الصحابة كراهية الخروج في وجهه ، فقالوا يا
رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاعتد صلى الله عليك
وسلم فقال رسول الله : (ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى
يقبائل (٢) .)

وقال القرطبي (٣) : (إذا عزمت فتوكل) أي ليس له إذا عزم أن ينصرف
لأنه نقض للتوكل الذي شرطه الله عز وجل مع العزيمة ، ولذلك لم يصغ النبي
إلى قول الذين أشاروا عليه بالعود حين أرادوا الرجوع عن رأيهم فعلمهم بذلك
أن لكل عمل وقتا وأن وقت المشاورة قد انتهى وجاء دور العمل ، وأن الرأس
إذا شرع في العمل تنفيذاً للشورى لا يجوز له أن ينقض عزمته ويبتل عمله .
ويمكن إرجاع ذلك إلى أخف الضررين ، وأى ضرر أشد من فسخ العزيمة ، وما
فيه من الضعف والفتيل وإبطال الثقة ؟!

وقال الأستاذ الإمام : إن العزم على الفعل وإحكام الرأي والمشاورة وأخذ
الأهبة فذلك كله لا يكفي للنجاح إلا بمعونة الله وتوفيقه لأن الموانع الخارجية له
والموانع دونه لا يحيط بها إلا الله تعالى فلا بد للمؤمن من الاتكال على الله لا
على حوله وقوته هو .

(إن الله يحب المتوكلين) على حوله وقوته ، مع العمل بالأسباب بسننه
فأقول ومن أحب الله عصمه من الغرور باستعداده ، والركون على عدته
وعتاده ، والبطر فيما يصرفه عن النظر فيما يعرض له بعد ذلك (٤) .)

ولتقرير حقيقة التوكل على الله ، وإقامتها على أصولها الثابتة ، يضي
السياق فيقرر أن القوة الفاعلة في النصر والخذلان هي قوة الله ، فعندها
يلتمس النصر ، ومنها تنقضي الهزيمة وإليها يكون التوجه ، وعليها يكون التوكل ،
بعد اتخاذ الأسباب ، لأن التوكل محل القلب والعمل بالأسباب محل الأعضاء
(إن ينصركم الله فلا غالب لكم) . فيجب أن يتأكد المجاهد أن النصر والخذلان
بيد الله وحده . فعليه أن يعتمد على قوة أعلى وأكمل ، ويجب أن يكون بها
الثقة وعليها المعول ، وإليها الملجأ إذا انقطعت الأسباب وأغلقت الأبواب
(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء
عند غير الله ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود . فينبض يده
من الأسباب الباطلة للنصرة والحماية ، والولاية ، ويتوكل على الله وحده في
إحداث النتائج وتقبل ما يجيء به القدر في اطمئنان أيا كان .

وقد قرن الله تعالى التوكل بالمشاورة (وشاورهم في الأمر) يعني في
أمر القتال ونحوه مما لا ينزل عليك فيه وحى لتستظهر برأيهم ، ولما فيه من

١ (سيرة ابن هشام ٦٣/٢ .)

٢ (تفسير القرطبي ٢٥٢/٨ .)

٣ (المرجع السابق ٦٣/٢ تحقيق السقا .)

٤ (من تفسير المنار ٢٠٥/٤ .)

والإيباري .

تطبيب نفوسهم والرفع من اقدارهم .

وعن الحسن رضى الله عنه : قد علم الله انه ما به اليهم من حاجة ، ولكنه اراد أن يستن به من بعده .

ولقد التزم النبى عليه الصلاة والسلام بمبدأ الشورى فى جميع غزواته ، مما كان له اطيب الاثر فى رفع روح صحابته المعنوية وتشجيعهم على القتال . . هذا ولا بد من سلاح جديد يتسلح به المجاهد وبدونه يكون عرضه للهزيمة والخران ألا وهو الصبر . وحسبنا ان نعلم ان كلمة الصبر ومشتقاتها قد وردت فى نحو مائة وعشرين آية . وهدف القرآن الكريم من هذه الآيات الكثيرة هو بث روح الجلد ورباطة الجأش وضبط النفس ، وعدم الجزع والهلع عند حلول المصائب ووقوع الشدائد . وذلك بأن الصبر يتجسد فى أخلاق كثيرة كلها واجبة لتحقيق النصر . فالشجاعة هى الصبر على مكاره القتال ومواقف الحق ، والحلم هو الصبر على المثيرات والكتمان هو الصبر على أمانة الأسرار والزهد هو الصبر على الحرمان والعفاف هو الصبر على الشهوات . فإذا رسخ هذا الخلق فى أمرى صار له من القوة المعنوية والشجاعة والجلد ما يمكنه من مواجهة الخطوب دون جزع . وتحمل المشاق والرضا بالمكروه والحرمان فى سبيل الحق والكرامة ، والعزوف عن الشهوات والمثابرة على المقاصد النبيلة مهما عسرت وطال أمدها . وغدا محل رضاء الله عز وجل والناس (١) .

ولما كانت الحرب بلاء الانسانية لما يصحبها من نقص الأموال والأنفس والثمرات ، ومن خوف واضطراب وقلق ، فلا علاج لذلك إلا بالصبر ، فهو الإرادة القوية ، وهو العزم الصادق وهو الحزم الذى لا تدبر الأمور إلا به . وإن هذا يُوجب على الجندى المؤمن ان يدرّب نفسه على الصبر فى الشدائد . فالسيف لا يعمل فى الحرب إلا إذا كان حامله جلدًا صبورًا . وقد ناط القرآن الكريم التغلب على أعداد الأعداء الكثيرة بالصبر . (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين (٢)) .

وقد بين سبحانه وتعالى أن الصبر على مشاق الحرب هو أساس النصر والفلاح ، ولا نصر بدون صبر ، وأثنى كثيرا على الصابرين فى البأساء والضراء .

(والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (٣)) . . (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا إن نصر الله قريب (٤)) . . (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٥)) .

والله سبحانه يكشف عن نوع آخر من أنواع الصبر وهو الصبر على النصر المؤقت ، ذلك أنه عندما يكون للمؤمنين غلب فى أثناء المعركة ، فإن فى هذه الحال ربما يكون المجاهد فى حاجة إلى الصبر أكثر من أى حال أخرى ، فهو صبر النفس أن يصيبها غرور النصر الوقتى ، إذ هو فى حاجة إلى مقاومة الاعتزاز به لكى لا يضيع من يده ، وذلك بمقاومة النفس التى تريد المتعة العاجلة فلا تتركها ، ولا تفكر فى النعمة الآجلة ، وإن النعم كالنعم تحتاج إلى

٤ (البقرة / ٢١٤)

١ (الدستور القرآنى ٣٦١/٢)

٥ (آل عمران / ١٤٢)

٢ (البقرة / ٢٤٩)

٣ (البقرة / ١٧٧)

صبر وقوة احتمال نفسى ، وهو اشد على النفس من الشدة المادية ، ولقد كان درس غزوة « أحد » درسا لا ينسى للفرور بالنصر المؤقت ، فلو صبر الرماة لما كانت تلك الجراح الشديدة التى اصابت اخوانهم المجاهدين وغيرت وجه المعركة من النصر إلى الهزيمة ..

وقد ارشد الله المجاهدين إلى غذاء روى قوى الا وهو التزود بالتقوى .
 واعتبر القرآن التزود بالتقوى خير زاد للمجاهد فى سبيل الله . (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا اولى الألباب (١) .. (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا (٢) .)

(وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) (٣) .
 والله سبحانه يحب المتقين ، وهو وليهم وناصرهم ، وهو معهم فى كل معركة يخوضونها فى سبيله .

(إن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين (٤)) . (بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين (٥)) .. (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (٦)) .. (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون (٧)) .

فالتقوى صيانة للنفس من كل ما يندسها ، وإذا اتقى المجاهد ربه حق تقواه امتلأت نفسه بعظمته وقدرته ، فصفر عنده وحقر كل ما سواه ، لأن قوته من قوة الله سبحانه ، وقد جعل الله الصبر والمصابرة والمرابطة وتتقوى الله دستور النجاح والفلاح والفوز فى كل معركة (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون (٨)) .

وقد نبه تعالى تنبيهها مستمر المدى والتلقين إلى ما يضمن للمجاهدين فى سبيله النصر والفوز والفلاح والقوة والاستعلاء من الصبر والثبات والتقوى والاستعداد الدائم للعدو . أما وقد تحدثنا عن الصبر والمرابطة والتقوى فلم يبق علينا إلا الحديث عن (المصابرة) وهى سر من أسرار النصر والفلاح .. والمصابرة باب من ابواب الصبر ذكر بعده على ما يجب الصبر عليه تخصيصا لشدته وصعوبته (٩) .

وقد كشف سبحانه عن علة المصابرة التى يكون من بعدها النصر (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله (١٠) . أى فلا يغلبوكم بالصبر على قرحهم ، أكثر من صبركم على قرحكم .

وقوله تعالى : (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون (١١)) . أى عندكم سبب للمصابرة ليس عندهم على استوائهم وإياهم فى تحمل الأذى والألم .

وقد نبه الله المجاهدين إلى ناحية من شأنها أن تقوى روحهم المعنوية ، تلك الناحية هى الالتجاء إلى الله والاتصال به عن طريق القيام بأحب وأجب دينى إليه وهو الصلاة .

- | | |
|----------------------|--------------------------------------|
| ١ (البقرة / ١٩٧ . | ٧ (الزمر / ٦١ . |
| ٢ (آل عمران / ١٢٠ . | ٨ (آل عمران / ٢٠٠ . |
| ٣ (آل عمران / ١٨٦ . | ٩ (الكشاف / ٤٩١/١ . |
| ٤ (الجنائفة / ١٩ . | ١٠ (آل عمران / ١١٠ ، الانفال / ١٨ . |
| ٥ (آل عمران / ٧٦ . | ١١ (النساء / ١٠٤ . |
| ٦ (النحل / ١٢٨ . | |

(واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين (١)) وفى نفس السورة قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين (٢)) .

ولا ريب أن الصلاة مناجاة بين العبد وربه تبعث على مراقبة الله ، واستشعار عظيمته وتجعل الإنسان فى حذر دائم من مخالفة أحكامه أو التقصير فى حدوده وبذلك يكمل للروح تهذيبها ، وللنفس قوتها وصلتها بالله القوى العزيز .

وحرصا على هذا الغذاء الروحى لنفوس المجاهدين فقد رخص سبحانه كيفية خاصة لأدائها لا تنبأ فى وقت الحرب والخوف تلك الصلاة هى (صلاة الخوف) أو صلاة الحرب وفيها يقول تعالى : (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتن أن يفتنكم الذين كفروا ، إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ، وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) . . إلى قوله تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا أطمأنتم فأتيتوا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (٣)) .

وبعد : هذه هى الإرشادات والبيانات الإلهية للمجاهدين إذا ساروا عليها قويت روحهم المعنوية وكان الله معهم فى كل خطوة يخطونها يدهم بعون من عنده ، ويربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم ، وينزل عليهم ملائكته وينسخر الطبيعة كلها لمعاونتهم وشد أزهم . وليس هذا فحسب بل إنه سبحانه ينسلط الشياطين على المجرمين تؤزهم أزا ، تنزل أقدامهم وتبث الرعب فى قلوبهم ، ولا يجدون لهم وليا ولا نصيرا .

قال تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله أن الله عزيز حكيم . . إذ يغشىكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان (٤)) .

نزلت هذه الآيات الكريمة فى موقعة « بدر الكبرى » حين اشتدت المعركة وقطع المسلمون صلتهم بالدنيا واستغرقوا فى الجهاد ، ولم يكن فى أذهانهم إلا الله ورسوله وجهاد فى سبيله وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه فاتجهوا بقلوبهم وأرواحهم نحو ربهم قوى الأقوياء يطلبون من فضله العون والنصر الذى وعدهم به فشملتهم العناية الربانية ، وأمدهم الله بقوة من قوته ونصر من عنده فازدادت حماستهم ، وارتفعت حرارتهم ، وتضاعفت قواهم حتى ليحس الواحد منهم أنه صار كفتا لعشرة من المشركين ، وأن يد الله فوق يده تحرك سيفه فيضرب وتسد رميته فيرمى ، وأنه فى حشد من جنود الله لا يراهم ولا يدرك

٢ (النساء / ١٠١ - ١٠٣ .

١ (البقرة / ٤٥ .

٤ (الانفال / ٩ - ١٢ .

٢ (البقرة / ١٥٣ .

كنهم ولا يعرف عددهم وتضاعلت فى أعين المؤمنين كثرة المشركين ، فجعلوا يفتربسونهم كما تفتربس الذئاب الغنم ويكتسحونهم كما يكتسح السيل الفقاء ، وانعقد فوق المعركة جو رهيب ، ملأ قلوب المشركين بالرعب بقدر ما ملأ قلوب المؤمنين بالقوة والثبات .

وهكذا تصدعت جموع المشركين أمام قوة الإيمان .

وقال القرطبى (١) : وقد نبه تعالى إلى حقيقة النصر بأنها من عند الله لا من عند الملائكة فلولا نصره لما انتفع بكثرة الملائكة . . وقد غشاهم الله بالنعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها ، فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم ، ولكن الله ربط جأشهم . وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : أحدهما : أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد ، والثانى : أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم فيقال الأمن منيم والخوف منسهر . . وأنزل عليهم المطر ليلة بدر حتى سالت الأودية ، فشبوا وتطهروا ، وسقوا الظهر وتلبدت السبخة التى كانت بينهم وبين المشركين حتى تثبت فيها أقدام المسلمين وقت القتال .

وقال ابن القيم (٢) : وأنزل الله فى تلك الليلة مطرا واحدا . فكان على المشركين وبلا شديدا . منهم من التقدم وكان على المسلمين ظللا طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان ووطأ به الأرض وصلب به الرمل وثبت الأقدام ومهد به المنزل وربط به على قلوبهم) .

وقوله تعالى : (إذا يوحى ربك إلى الملائكة) . . هذه نعمة أخرى خفية أظهرها الله تعالى للمؤمنين ، ليشكروه عليها ، وهو أنه تعالى أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر دينه ونبيه ومن معه من المؤمنين أن يعملوا على تثبيت المؤمنين وتقويتهم ورفع روحهم المعنوية وأنه سبحانه سيعين المؤمنين ويؤيدهم وسميلاً قلوب الكافرين رعباً وهلماً ، وسيضعف روحهم وينبذ عزائمهم ، ويوهن قواهم حتى تخور ، ويملاهم الجبن والفرع (٣) .

وكل هذا تأييد ربانى لرسول الله وللذين آمنوا معه يدخل فى نطاق المعجزات ويمكن أن يتكرر فى كل موقف جهادى إيمانى يقفه المؤمنون الصادقون من أعداء الله وأعدائهم (٤) .

فقد قال تعالى فى موقعة « أحد » : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيناكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين (٥)) .

وفى موقعة « الأحزاب » قال تعالى : (يأيتها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا (٦)) .

وفى غزوة « حنين » قال تعالى : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم

٤ (التفسير الحديث ١٤/٧ محمد دروزة .

١ (تفسير القرطبى ٢٧٠/٧ .

٥ (آل عمران ١٢٣ - ١٢٧ .

٢ (زاد المعاد ٨٦/٢ .

٦ (الأحزاب ٩/ .

٢ (تفسير سورة الأنفال والنجم ٦٢/ د. على

الجندى .

حنين إذ أعجبتمكم كثرتكم فلن تغن عنكم شيئا وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين (١) .

وليست هذه الغزوات هي الوحيدة التي كان الله تعالى حاضرا فيها مع المؤمنين ، فهو سبحانه معهم في جميع غزواتهم وهو وليهم وناصرهم (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم (٢)) .

قال القرطبي (٣) : (ثم أنزل سكينته) أى أنزل عليهم ما يسكنهم ، ويذهب خوفهم ، حتى اجتمعوا على قتال المشركين بعد أن ولوا (وأنزل الله جنودا لم تروها) وهم الملائكة ، يقوون المؤمنين بما يلقون في قلوبهم من الخواطر والتثبيت ، ويضعفون الكافرين بالتجيبين لهم من حيث يرونهم من غير قتال ، لأن الملائكة لم تقا تل إلا يوم (بدر) .

ومن ثم يبين الله للمجاهدين حقيقة النصر وانها ليست بالكثرة العددية والعدة المادية وحدها فإن الكثرة قد تخدع ، وأن القوة قد تخون ، وأن النصر بيد الله وحده ، فليثبت الذين آمنوا اذن حين يلقون عدوهم ، وليتروا بالعدة الحقيقية للمعركة ، وليأخذوا بالاسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير . . . وصاحب العون والمدد ، وصاحب القوة والسلطان ، وليتجنبوا اسباب الهزيمة التي هزمت الكفار على كثرة العدد ووفرة العدد . وليتجردوا من البطر والغرور وليتحرروا من خداع الشيطان الذي اهلك الكافرين . وقد أدرك الصحابة المجاهدون هذه الحقائق ، ونطقت بها أفعالهم وأقوالهم .

فهذا الامام المجاهد على بن ابي طالب رضى الله عنه يقول : (إنَّ هذا الامر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، وهو دين الله الذى أظهره ، وجنده الذى اعده ، وامده حتى بلغ ما بلغ ونحن على موعد مع الله ، والله منجز وعده وناصر جنده . . إلى قوله : (فلما لم تقا تل بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة (٤)) . .

وتأييد الله للمؤمنين الذين اخلصوا النية في جهادهم لله ، وتجردوا من كل خاطر لا يقف عند حد إمدادهم بالملائكة ، وأنزال المطر والسكينة ، وقذف الرعب في قلوب اعدائهم . . الخ . . بل يؤكد تعالى في أكثر من موضع أنه مع المؤمنين في قتالهم لأعدائهم ويكفى أن يشعر المجاهد أن الله معه لترتفع روحه المعنوية إلى حد الإيمان الكامل بالنصر . .

(كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إنَّ الله لقوى عزيز (٥)) . (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة (٦)) .

وقد جعل الله تثبيت المؤمنين وبث الرعب في قلوب المشركين سنة كونية ليزداد المؤمنون ، إيماننا مع إيمانهم وقوة معنوية إلى قوتهم . (سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله (٧)) . (وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا (٨)) . (وظنوا أنهم مانعتهم

٥ (الجادلة / ٢١)

١ (التوبة / ٢٥ - ٢٧)

٦ (ابراهيم / ٢٧)

٢ (محمد / ١١)

٧ (آل عمران / ١٥١)

٣ (تفسير القرطبي ١/٨٠١)

٨ (الأحزاب / ٢٦)

٤ (نهج البلاغة ١/٢٨٣ شرح محمد عبده .

حصولهم من الله ، فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار (١) . سألتني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق (٢) .

قال الاستاذ الامام محمد عبده : كانه تعالى يقول : هذه هي الطبيعة مع المشركين إذا قاوموا المؤمنين فلا تخافوهم . وبهذا يندفع قول من يقول : ما بالنا نجد الرعب كثيرا ما يقع في قلوب المسلمين ولا يقع في قلوب الكافرين ؟ فإن الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أولئك الذين خوطبوا بهذا الوعد من قوة اليقين والإذعان ، والثبات والصبر وبذل النفس في سبيل الله وتمنى الموت في الدفاع عن الحق . فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم وإنما رعب المشركين مرتبط بايمان المؤمنين وما يكون لهم من الآثار . فحال المسلمين اليوم لا يقوم حجة على القرآن لأن أكثرهم قد انصرفوا عن حقيقة الإيمان والعمل به . فالقرآن باق على وعده . ولكن أين المؤمنون الذين ينطبق عليهم هذا الوعد (٣) .

وقال ابن جرير : (إنى سألتني في قلوب الذين كفروا الرعب الذي به انصرم عليهم بما أشركوا بي ، فلا تظنوا أن لهم عاقبة نصر ، ولا ظهور عليكم ما اعتصمتم واتبعتم أمرى (٤)) .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : (نُصرت بالرعب مسيرة شهر (٥)) فالمسلمون الأولون قد انتصروا بشهرتهم التي تسبقهم وتقوى من روحهم وتضعف من روح عدوهم وهذا ما قرره العلامة ابن خلدون (إن من أقوى أسباب الانتصار ، ورفع روح الجند ذبوع الشهرة ويُعد الصيت ، وتناقل أخبار النصر ، فبه يلتقى العدو سلاحه ، ويفقد روح المساومة (٦)) .

فكثيرا ما كان أعداء المسلمين يمثلون رعبا لمجرد رؤية المسلمين . فلما أراد المشركون يوم بدر مثلا أن يستوثقوا من رجال المسلمين قبل أن ينازلوهم ، أرسلوا عمير بن وهب الجحفي يحرز لهم أعدادهم فلما أطلع عمير على المسلمين أخذ بمنظرهم الذي يبعث الرعب ويستوجب الحذر ، ورجع إلى قومه فقال : يا معشر قريش : البلايا تحمل المنايا .. نواضح يثرّب تحمل الموت الناقع .. قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم .. والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم (٧) . هذا وقد حرصت آيات الجهاد أن تبقى روح المجاهدين قوية والا تشع بالخوف من الأعداء وإن كثر عددهم وعنادهم ، لأن الله مع المؤمنين ، ومن كان الله معه فلن يقبله أحد مهما كانت قوته . (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين (٨)) . (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٩)) . (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع ، للذين أحسنوا منهم وانتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا

١ (الحشر / ٢) . ٦ (مقدمة ابن خلدون / ٢٢٦) .

٢ (الأنفال / ٢) . ٧ (سيرة ابن هشام / ٢ / ٦٢٢) .

٣ (عن تفسير المنار / ٤ / ١٧٩) . ٨ (آل عمران / ١٧٥) .

٤ (تفسير الطبري / ٢ / ١٢٤) . ٩ (البقرة / ٢٨ ، ١٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤) .

٥ (صحيح البخارى / ٥ / ٥٤ باب الجهاد . ٢٧٧ وآل عمران / ١٧٠ ، ٤٠٠) .

حسبنا الله ونعم الوكيل (١) .

قال الرازى (٢) : الشيطان يخوف اوليائه الذين يطيعونه ويؤثرون امره ، فاما اولياء الله ، فانهم لا يخافونه اذا خوفهم ولا ينفقون لامره ومراده ، لأن الإيمان بالله جعلهم يؤثرون خوف الله على خوف الناس) .

وقال الأستاذ الإمام ان قوله تعالى (ان كنتم مؤمنين) يفيد وجوب توثيق الإيمان بالله فى القلب قبل كل شىء لأن تلك الخواطر والهواجس التى تحدث الخوف من اولياء الشيطان لا يحوها من لوح القلب إلا الإيمان الصحيح الثابت وفى قوله : (ان كنتم) إشارة إلى أن إيمان من يرجح الخوف من اولياء الشيطان على الخوف من الله تعالى مشكوك فيه .

ومن تدبر هذه الآية حق التدبر علم ان المؤمن الصادق لا يكون جبانا ابدا ، فاشجاعة وصف ثابت له . ومن بحث عن علل الأشياء يرى أن علة الجبن هى الخوف من الموت والحرص على الحياة ، مما لا يتسع له قلب مؤمن ولا يزال العالم يشهد أن الجيش الإسلامى أشجع جيوش الملل كلها (٣) .
وقال ابن جرير (٤) : (فلا تخافوا أيها المؤمنون المشركين ، ولا يعظمن عليكم أمرهم ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياى ما أطمعتمونى ، واتبعتم أمرى وإنى متكفل لكم بالنصر والظفر ، ولكن خافونى واتقوا ان تعصونى ، وتخالفوا أمرى فتهلكوا إن كنتم مؤمنين) .

وقال تعالى : (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب اليم (٥)) .
قال الأستاذ الإمام (٦) : المسارعة فى الكفر هى المسارعة إلى نصرته والاهتمام بثبوتها والايجاب فى مقاومة المؤمنين . وقوله تعالى : (إنهم لن يضروا الله شيئا) أى إنهم لا يحاربونك فيضروك بذلك وإنما يحاربون الله تعالى ولا شك فى ضعف قوتهم وعجزها عن مناوأة قوته عز وجل فهم لا يضررون بذلك إلا انفسهم) .

وكما أشار سبحانه إلى اسرار قوة الروح المعنوية أشار أيضا إلى عوامل ضعفها ، فحذر المؤمنين المجاهدين منها : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين (٧)) . (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألون فانهم يألون كما تألون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما (٨)) . (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم (٩)) (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين (١٠)) .

قال الزمخشري (١١) : (وأنتم الاعلون) شأننا لأن قتالكم لله وإعلاء كلمته وقاتلهم للشيطان وإعلاء كلمة الكفر ، ولأن قتالكم فى الجنة .. وقتلاهم فى النار ، وهى بشارة بالمو والغلبة . (إن كنتم مؤمنين) متملق بالنهى عن الوهن بمعنى ولا تهنوا إن صح إيمانكم على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالة بأعدائه .

- | | |
|-------------------------------|--|
| ١ (آل عمران / ١٧٢ ، ١٧٣) | ٧ (آل عمران / ١٢٩) |
| ٢ (التفسير الكبير / ١٠٣/٩) | ٨ (النساء / ١٠٤) |
| ٣ (تفسير المنار / ٢٤٦/٤) | ٩ (محمد / ٣٥) |
| ٤ (تفسير الطبرى / ١٨٢/٤) | ١٠ (الأفعال / ١٨) |
| ٥ (آل عمران / ١٧٦) | ١١ (الكشاف / ٤٥٦/١ وانظر تفسير المنار) |
| ٦ (عن تفسير المنار / ٢٤٨/٤) | ١٢ (القرطبي / ٢١٦/٧) |

وقد ضرب الله تعالى مثلا للمجاهدين من اتباع الأنبياء السالفين الذين لم يلحقهم وهن ولا ضعف لما أصابهم في سبيل الله حتى يتأسى المؤمنون بهم . (وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين (١))

ففى الآيات درس من دروس التربية العالية يقصص الأولين فى الصبر وعدم الضعف والاستكانة إذا قتل القائد والمدير ، لأن خالقه سبحانه موجود فليتجه المجاهد بقلبه دائما إلى الله يطلب منه النصر والمغفرة (ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) . وفى هذه الآية إيحاء إلى أن الذنوب والإسراف فى الأمور من عوامل الخذلان ، والطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح ، ومن ثم سألوا ربهم أن يحو من نفوسهم اثر الذنوب ، وأن يوفقهم إلى دوام الثبات حين تنزل الأقدام . وفى طلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التى دل عليها قوله (ربيون كثير) إعلام بأنهم لا يعولون على كثرة العدد بل يطلبون العون والمدد الروحاني من الله بثبات الأقدام (٢) . وقد وعى صحابة رسول الله هذه الدروس القيمة وعملوا بمتقتضاها وأوصوا بها عامتهم وخاصتهم . وما أحرانا اليوم أن نتدبر وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقائد جيشه سعد بن أبى وقاص حتى نحقق النصر على أعدائنا : « آمرك ومن معك من الأجناد أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون لمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولأن عدتنا ليست كعدتهم ، فإن استوتينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا ، وإلا نصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط الله علينا وإن أسانا ، فرب قوم سلط الله عليهم من هم شر منهم (٣) .

وبهذه البيانات الألفية عن أسرار القوة المعنوية ، وبهذا الفهم الصحيح والتطبيق الكامل لها ، شهد العالم قديما وحديثا للمجاهدين الأولين بقوة معنوية فعلت المعجزات ، حتى ظنها البعض ضربا من الخوارق . ونضرب هنا مثلا واحدا لبيان اثر هذه الروح المعنوية فى جند الاسلام الأول .

روى ابن اسحق عن معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بنى سلمة قال : سمعت القوم وهم يقولون : أبو الحكم لا يُخلص إليه . فلما سمعتها جعلته من شأنى فصمدت نحوه ، فلما أمكننى حملت عليه ، فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه ، وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى ، فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضنى القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومى ، وإبنى لأسحبها خلفى ، فلما آذنتى وضعت عليها قدمى ، ثم تمطيت عليها حتى طرحتها (٤) .

فهذا هو سحر الروح المعنوية ، رجل يتخلى عن ذراعه بتلك الطريقة ، ولا يمنعه لها ، ولا الدم الذى ينزف منها عن مواصلة القتال . ذلك لان قوة

١ (آل عمران / ١٤٦ - ١٤٨ .)

٢ (تفسير المراعى / ٤ / ٩٤ .)

٣ (نظم الحرب فى الاسلام / ٤٣ جمال الدين عياض .)

٤ (سيرة ابن هشام / ٢ / ٦٢٤ ، ٦٢٥ تحقيق الأبيارى (أجهضنى : غلبنى واشتد على

روحه طغت على كل ما يؤله . ويسير علينا أن نقدر هذا إذا ذكرنا ما لازدياد القوة المعنوية من أثر في النفس متى توافرت أسباب اؤدياد هذه القوة فيها . والذين يذكرون ما قام به الحلفاء في الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان أساسها أنهم يدافعون عن قضية الحرية والحق ويمهدون لعهد سلام ونور ، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوة في نفوس جنود الحلفاء . وما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب ما كان يدعو إليه رسول الله إلى اتصال الإنسان بالوجود كله اتصالا يندمج به فيه ويصبح معه قوة من قوى الكون . نعم ما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب الوقوف إلى جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عن دينه ، ويصدون عن سبيله ، وإذا كانت النفس يزيد بها حب الوطنية قوة بمقدار ما في الوطن كله من قوة ويزيدها حب السلام للإنسانية كلها قوة . بمقدار ما في الإنسانية من قوة فما أكثر ما يزيد بها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة . إنه ليجعلها قديرة أن تسير الجبال وتحرك العوالم ، وتهيمن بسلطانها المعنوي على كل من كان أقل منها في هذا الأمر إيمانا (١) . وقد كان للقوة المعنوية الفضل الأكبر في انتصارات المسلمين منذ عهد رسول الله وحتى آخر الفتوحات العظيمة التي بلغت الصين شرقا وفرنسا غربا .

وقد أدرك بعض المستشرقين وكتاب الغرب هذه الحقيقة . يقول المستشرق الأمريكي (لوثرود ستودارد Lothrop Stoddard) (قرأت في تواريخ كثيرة ما يدل على حيرة المؤلفين في هذا الحادث العجيب الا وهو سرعة انتشار الاسلام ومنها تأليف حديث العهد اسمه (العالم الاسلامي) لكاتب اسمه (ماكس ماير هوف) قال فيه : يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن أعرابا منقسمين إلى عشائر ، ليست عندهم العدد والعتاد اللازم ، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مرارا في الأعداد والعتاد وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة .

والجواب : إن هذا المستحيل بزعمه ليس في الحقيقة بمستحيل

إذا نظر إلى القوة المعنوية التي أوجدها القرآن في أتباعه (٢) .

القوة الثالثة : هي التنظيم العملي للقتال :

رسم القرآن الكريم للمجاهدين في سبيله طريق النصر واضحا ، وبين لهم الخطة التنفيذية للمعركة ، وهو ما يعرف اليوم باسم (استراتيجية المعركة) . وقد تناول القرآن الكريم هذه الناحية من جوانب متعددة منها :

أولا : القيادة :

لقد ربي الله تعالى المسلمين بالقرآن ، فتخلقوا بأخلاقه ، وجعل لهم في رسول الله أسوة حسنة ، وقيادة حكيمة وامرهم بطاعته واتباع سنته وقال « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٣) . فكان هو الرسول والقائد وشرع والمعلم الأول للإنسانية كلها . وكانت أخلاقه القرآن ، وأثنى تعالى عليه بقوله « وإنك لعلی خلق عظيم » (٤) .

عن سعد بن هشام قال سألت عائشة رضی الله عنها فقلت أخبريني يا أم

١ (حياة محمد / ٢٦٤ محمد حسين هيكل . ٣ (الحشر / ٧)
٢ (حاضر العالم الاسلامي / ٢٨ . ٤ (القلم / ٤)

المؤمنين عن خلق رسول الله فقالت : اتقوا القرآن ؟ فقلت : نعم ، فقالت : كان خلقه القرآن (١) .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة من شأنها أن تعطينا صورة صادقة لصفات قائد الجهاد الإسلامى وبطله دون منازع ، تغنى كثيرا عن المبالغات التى يعمد إليها بعض المتحمسين للإسلام على غير هدى وبصيرة ، وترد على سفهاء المستشرقين والمبشرين الذين يرمون رسول الله بأرذل الصفات ، ويتجاهلون نصوص القرآن الثابتة ، ويتمسكون ببعض الروايات المدسوسة ليشوهوا حقيقة الجهاد وسبعة قائده عليه الصلاة والسلام .

فليس أدل ولا أصدق من وصف القرآن الكريم له (بالخلق العظيم) . فهذه شهادة رب العالمين له بالسمو والعظمة والكمال . وأكدت آية الأنعام « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٢) . على استحقاق الرسول للقيام بهذه الوظيفة التى اختارها الله تعالى لها من بين سائر خلقه .

فهذا تقرير ربانى بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد وصل إلى الذروة من عظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفس وكبر القلب ورجاحة العقل ، فاستأهل بذلك أن يكون موضع اصطفاء الله ورسالته لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

فمقام الرسالة من الرفعة والعظمة لا يُسامى ويقتضى من المؤهلات الشخصية والخلقية والروحية ما لا يمكن أن يوجد فيمن وصلت فيه هذه المؤهلات إلى ذروة الكمال الإنسانى (٣) .

وفى سورة آل عمران قوله تعالى (فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » (٤) . وقد جمعت هذه الآية كل صفات القيادة المثالية التى تعارف عليها قادة الحرب الحديثة بل زادت عليها أمورا لا يدرك كنهها العسكريون المحدثون . (وإذا عزمت فتوكل على الله) فالاعتماد على الله وتفويض الأمر كله إليه (ليس لك من الأمر شيء) بعد اتخاذ كافة أسباب النصر شيء لا يعرفه قادة الحروب الحديثة ، بل ربما لا يعتقدون به .

وقد قررت الآية الكريمة إلى جانب ذلك دماثة خلقه عليه الصلاة والسلام ولين جانبه وحسن معاملته ، والتنزه عن القسوة والغلظة .

قال الاستاذ الامام محمد عبده (٥) : (الفاء للتعقيب لأن الكلام فى واقعه (أحد) التى خالف النبى فيها بعض اصحابه فكان لذلك من الفشل وظهور المشركين ما كان ، حتى أصيب النبى مع من أصيب ، فكان من لينه فى معاملتهم ومخاطبتهم ومن رحمته بهم أن صبر وتجلد فلم يتشدد فى عتب ولا توبيخ اهتداء بكتاب الله تعالى .

فكان الله تعالى يقول : إنه كان من أصحابك يا محمد ما كان ، كما دلت عليه الايات مما يؤاخذون عليه فلنت لهم ، وعاملتهم بالحسنى . بسبب رحمة عظيمة أنزلها الله على قلبك وخصك بها فعمت الناس فوائدها وجعل

١ (تفسير ابن كثير ٤/٤٠٢ .

٢ (الأنعام / ١٢٤ .

٣ (سيرة الرسول ١/٥٨ محمد عزة دروزه .

القرآن ممدًا لها ، لأن الغفظة والشراسة والخسونة في المعاشرة ، وهي من الأخلاق المنفرة للناس مما لا يصبرون معها على معايشة صاحبها ، وإن كثرت فضائله ، بل يتفرقون من حوله ويتركونه وشأنه لا يباليون بما يفوتهم من منافع الاقتبال عليه والتخلق حوله) .

وقد وصف الله الرسول بالرحمة كثيرا (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) (١) .
فهذه الآية تصور رحمته وشفقته المتناهية ، فهو شديد الحرص عليهم ، يتحمل الأذى والآلام في سبيل التخفيف عنهم وتيسير حياتهم .
وكان لهذه الأخلاق الكريمة الفضل في تعلق أصحابه به وحبهم الشديد له وتقانيهم في سبيله وفنائهم فيه ، وهذا ما يفسر نجاح قيادته فيهم وانتصاره بهم على أعداء أقوى منهم عددا وعتادا .

روى ابن هشام عن عروة بن مسعود سفير قريش يوم الحديبية إلى رسول الله حين جاء يفاوض رسول الله على الرجوع عن زيارة البيت الحرام . . وكان في أثناء حديثه يتناول لحية رسول الله وهو يكله ، جريا على عادة العرب عند الملاطفة والرغبة في التواصل والتراحم ، وكان المغيرة بن شعبه واقفا على رأس رسول الله في الحديد ، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ، ويقول : أكف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك ، فيقول عروة وهو لا يعرفه : ويحك . . ما أفظك وأغظك فبيتسم رسول الله . وانصرف عروة عن رسول الله وهو مأخوذ بما رأى من حب أصحابه له ، وتعظيمهم إياه وتسابقهم على طاعته فقال لقريش « لا يتوصأ إلا ابتدروا وضوء ولا يبيصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شعرة إلا أخذوها ، ثم قال : يا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا » (٢) .

وكان خبر انتقاله إلى الرفيق الأعلى صدمة زلزلت أقدام صحابته وأذهلت عقولهم فقال قائلهم من هول المفاجعة (لم يمض رسول الله ، والله ما مات رسول الله ، ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم) . وكان صاحب هذه المقالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، على رجاحة عقله وقوة يقينه وهو من هو .

فلما قام أبو بكر رضى الله عنه وقال « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت وتلا هذه الآية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (٣) .
فقال عمر : « فلكنى لم أسمعها إلا يومئذ . ورجع عن مقالته التي قالها » (٤) .
في هذين المثالين دلالة واضحة على حب صحابة رسول الله له ، أحدهما في حياته والآخر في مماته فكان كما قال الصديق (طبت حيا وطبت ميتا يا رسول الله) وسيرته كلها شواهد صادقة على هذا الحب والوفاء الذي عمر قلوب صحابته فكان حبهم له أكثر من حبهم لأنفسهم .

٣ (آل عمران / ١٤٤)

١ (التوبة / ١٢٨)

٤ (تفسير القرطبي / ٤ / ٢٢٢ ، ٢٢٣)

٢ (سيرة ابن هشام ٧٩/٤ تحقيق

محيى الدين عبد الحميد .

وقد أدرك علماء النفس العسكريون ضرورة المحبة والثقة المتبادلة بين القائد وجنوده حتى تقوى المعنويات ويتحقق النصر .

قال صاحب (فصول من علم النفس العسكرى) : « عامل جديد يبرز أمامنا كمثير هام لاثارة روح معنوية عالية أو منخفضة هو شخصية القائد ومن يعمل تحت إمرته من الضباط . وتبدولنا أهمية هذا العامل إذا أدركنا أن جهاز القيادة إنما هو رمز السلطة التى تدفع الجنود إلى القتال ، فإذا استطاع هذا الجهاز أن يؤدي واجبه من حيث العناية بالجنود والاهتمام بمتاعبهم ومشاكلهم وحاجاتهم وإتاحة الحلول والإشباعات لها ، فإنه يكتسب بذلك ثقتهم فى قدرته وارتياحهم له كمصدر للرعاية » (١) .

ويقول الجنرال (ويفل) فى حديثه عن القائد ، فى كتابه (القادة والقيادة) : « يجب أن يكون القائد على خلق ، وأن يكون متحملا ومتفهما تماما لصفات (الانسانية) والأخلاق هى الناحية المعنوية التى تميز بها الرجال ، من اللمز الضرورات للقيادة فوجب أن يكون القائد قوى الخلق قويم الأخلاق » (٢) .

ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب « مزايا القائد المثالية كما تنص عليها الخدمة السفيرية وهى أوثق المصادر العسكرية الحديثة ، تنحصر فى « الشجاعة الشخصية ، والإرادة القوية الثابتة ، ونفسية لا تتبدل فى حالتى النصر والهزيمة ومعرفة نفسيات مرؤوسيه ، وثقة جنوده به وثقتة بجنوده . والمحبة المتبادلة بينه وبين قواته » . هذه هى الصفات المثالية للقائد الممتاز ، وهى نتيجة لدراسة شخصيات أبرز القادة فى التاريخ ، لذلك هى مجموعة من مزايا شخصيات كثيرة لا شخصية واحدة ، ولكن كل هذه الصفات المثالية قليلة جدا بالنسبة إلى صفات الرسول ، فهناك صفات أخرى يتحلى بها محمد لم تتطرق إليها الكتب العسكرية لأنها صفات يصعب على القادة التحلى بها ، هى فوق طاقة البشر بصورة عامة وذوى السلطان منهم بصورة خاصة » (٣) . هذه الصفات المثالية التى أجمع عليها العسكريون قد ذكرتها آية واحدة من كتاب الله وزادت عليها أمورا لم يتوصل لها العسكريون حتى الآن من ذلك قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) . فقد امتثل رسول الله الأمر ربه وشاور جيشه فى جميع الغزوات وفى كل الأمور العسكرية التى لم ينزل فيها قرآن . وسنذكر ذلك فى مكانه ، وليس هذا فحسب بل كان يعمل بمشورتهم حتى لو كان غير مقتنع بها كما حدث يوم (أحد) وما ذلك إلا تطيبا لنفوسهم ورفعاً لأقدارهم ومعنوياتهم ، وتألفا لقلوبهم ، وتكريما لجهودهم . وقال الحسن البصرى والضحاك « ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم ، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة من الفضل ، ولتقتدى به أمته من بعده » (٤) .

ويقول الرائد محمد عاطف السعيد (٥) : لقد وضعت تصنيفات كثيرة لأنواع القيادة وخصائص كل منها . ولكن أهمها بلا شك هو ذلك التصنيف

١ (فصول فى علم النفس العسكرى / ١١٦)

٢ (راند بحرى) محمد عاطف السعيد .

٣ (محمد القائد / صاغ أركان حرب محمد

٤ (تفسير القرطبي / ٢٥٠/٤)

٥ (فصول من علم النفس العسكرى / ١٢٥)

وما بعدها بتصرف فى العبارة .

عبد الفتاح ابراهيم / ١١٤ .

الذى يميز بين نوعين أساسيين من القيادة : القيادة الديمقراطية
 Democratic Leader Ship والقيادة الاوتقراطية المسيطره Authoritarian
 Leader Ship فالقائد الديمقراطى يتجه إلى اشراك أفراد الجماعه أو
 المنظمة فى رسم سياسة الجماعة وتحديد الخطوط التنفيذية نحو الوصول إلى
 الأهداف . وهو يشعر الأفراد بأهمية فردياتهم حينما يتبع سياسة المشوره ،
 ولا يركز السلطة فى يده بحيث يصبح الآخرون مجرد أدوات للعمل وتنفيذ
 ما يرسمه لهم كما يحدث فى القيادة الأخرى .
**وتسود الروح المعنوية العالية فى نطاق الجماعة الديمقراطية بينما تنخفض
 فى ظل القيادة الاوتقراطية .**

ولقد بحثت هذه المشكلة على نطاق واسع فى الجيش الأمريكى وخاصة
 على ضوء خبرات القتال فى الحرب العالمية الثانية فتأكدوا أن وجود القيادة
 العسكرية يتعارض مع قيام روح معنوية عالية فى المنظمة العسكرية « (١) » .
 وكذلك برزت ظاهرة التمرد فى الجيش النازى فى نهاية الحرب وهو
 الجيش الذى كان معروفا بقيادته الأوتقراطية المتطرفة . ووجد أن كثيرا من
 الجنود المخلصين لقادتهم قد انقلبوا عليهم بعد الهزيمة . وكان انطلاقها من
 العوامل التى بحثت التفكك فى الجيش الألمانى وعجلت بهزيمته « (٢) » .
 ومن صفات القيادة المثالية الشجاعة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى
 شجاعة الرسول القائد فى جميع غزواته التى قادها ، وفى جميع المواقف
 التى تعرض لها ، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى « اذ تصعدون ولا
 تلون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » (٣) .
 نزلت الآية فى ظروف غزوة (أحد) إذ قاتل النبى المشركين قتالا
 شديدا ، فظل يرمى بالنبل حتى فنى نبله وانكسرت سية قوسه وانقطع وتره .
 ثم ظل يرمى بالحجارة حتى وقع لشقه ، وثبت فى الموقعة ثبوت الجبال
 الراسيات بعد أن احاط به الأعداء من كل ناحية وجعلوه هدفا لقتالهم ، وقد
 فر المسلمون عنه وتركوه وحيدا أو كالوحيد لم يثبت معه أكثر من العشرة ،
 وقد كان يدعوهم ويصيح بفلولهم (إلى عباد الله . . إلى عباد الله . . أنا رسول
 الله) ولكنهم معنون فى الفرار لا يسمعون دعاء ولا يجيبون نداء .
 فالآية صورة رائعة لشجاعة النبى وثباته فى هذه الموقعة . والتى استطاع
 بها أن يحول وجه المعركة من هزيمة ساحقة ماحقة للمسلمين إلى خسارة
 فى بعض الجيش اتخذهم الله شهداء .

وقد استطاع فى اليوم التالى للمعركة أن يحول هزيمة جيشه المعنوية
 إلى قوة معنوية خارقة للعادة ، وأن يعيد اليهم ثقتهم بأنفسهم ، وثقة الأعداء
 بهم . وذلك بمطاردة المشركين بمن خرج معه فى موقعة أحد وحدهم حتى
 (حمرأ الأسد) وامرهم أن يوقدوا ليلا خمسمائة نار حتى ترى من المكمان

- 1) Young : Mahd book of Social psychology : Psychology of war, P. 347.
- 2) Kretchand Crutch Field : Theory and Problems of Social Psychology : The Leader as scapegoat, P. 421.

البعيد ، ليفت ذلك في سواعد المشركين » (١) .
واستطاع بثباته وشجاعته النادرة يوم (حنين) أن يحول هزيمة المسلمين الساحقة إلى نصر مؤزر .

ويوم (الأحزاب) الذى زلزل فيه المسلمون زلزالا شديدا ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وظن المنافقون بالله الظنون — كان رسول الله يبشرهم بقصور الشام وفارس واليمن والمشرق والمغرب (٢) . فكان عليه الصلاة والسلام قطب الرعى فى ذلك الموقف العصيب ، فدعا القرآن الكريم المسلمين إلى التأسى بشجاعته وثباته فى ذلك اليوم : حيث أنزل فى سورة الأحزاب « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (٣) .

وقد تحدثت سور كثيرة عن مواقف النبى البطولية مثل سورة البقرة والنساء والانفال والتوبة والمجادلة والحشر والمنتحنة والصف وغيرها .

ومن دراستنا لهذه السور خاصة والسور القرآنية الأخرى عامة ، وما روته كتب التفسير والسير والمغازى ، نجد كثيرا من الأصول العسكرية والأساليب الجديدة التى استعملها الرسول القائد ، والتى تستأهل الدرس والعناية :

أولها : عمل القائد على أن يقوى روح جنوده المعنوية ، والقوة المعنوية يقيسها نابليون إلى القوى المادية ، كالنسبة بين العددين ٣ : ١ ، ولكن أولئك الذين يقدرونها بهذه النسبة يتحدثون فى الواقع عن قوى معنوية تجيء بايضاح منطوق سياسى ، او عاطفة قومية ، ولكن القوى المعنوية التى جاء بها النبى ، إنما كانت مستمدة أصلا من القرآن الكريم ، ثم من وقوف النبى القائد بين جنده ، يقوم صفوفهم ويشجعهم ويمنحهم من عينيه القويتين عزما وقوة « (٤) .

ومن الأساليب الجديدة التى ابتدعها القتال بالصفوف فى (بدر) ، فتغلب على قوات قريش التى قاتلت بأسلوب الكر والفر (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) . وقد حفر الخندق ، ولم يكن للعرب به عهد ، وطبق أسلوب قتال المدن فى غزوة بنى النضير وبنى قريظة وخيبر ، وهو نفس الأسلوب الذى يطبق فى الحرب الحديثة فى مثل هذا القتال ، واستخدم المنجنيق والدبابة ، وكان استعملهما نادرا عند العرب حينذاك .

وانتخب مقرا للقيادة فى غزوة بدر ، مراعىا شروط انتخاب المقر ، وأمن حراسته كما يجرى فى الحرب الحديثة ، وقسم الأعمال وأمن السيطرة على إنجازها ، كما حدث فى حفر الخندق ، وابتكر أسلوب الرسائل المكتومة ، على حين يفاخر الألمان فى العصر الحاضر بأنهم أول من ابتكر هذا الأسلوب . بل طبق الحرب الإجماعية بحذافيرها فحشد كل القوى المادية والمعنوية

١ (الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٥/٢ ، ٣ (الأحزاب / ٢١ .
٢ (سيرة ابن هشام ١٨٤/٣ تحقيق عبد الحميد .
٣ (صاغ أركان حرب محمد عبد الفتاح إبراهيم) .
٤ (محمد القائد / ١١٤ (صاغ أركان حرب محمد عبد الحميد .

للأغراض العسكرية ، وذلك ليؤمن حماية الدعوة من أعدائها الكثيرين بينما لم تعرف هذه الحرب إلا في الحرب العالمية الثانية فقط ، واستأثر الألمان بالمفخرة في ابتكارها (١) . وتبدو عبقرية النبي العسكرية في إدراك أهمية الاستطلاع والكشف عن تجمعات العدو ونيات قادته ورجاله ، وأحسن في اختيـار الأماكن التي يوجه إليها سراياه وبعوثه .

ومن مهارته العسكرية ضرب خطوط مواصلات العدو واقتصاده .
والرسول عليه الصلاة والسلام هو أول من ابتكر أسلوب الحرب الخاطفة الذي يفتخر قواد الحرب الثانية باختراعه . ومن أساليب هذه الحرب أنه عليه السلام كان يقوم بالهجوم فجرا كما فعل في غزوة بنى المصطلق وخيبر . وكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها حيث يقول (الحرب خدعة) فكان ينتصر بهول المفاجأة الذي يقع في قلوب أعدائه فيأخذهم قبل أن يستعدوا فيضطروهم إلى التسليم .

وهكذا رأينا رسولنا القائد قد طبق مبادئ الحرب الحديثة بمهارة فائقة وابتكر أساليب جديدة يُعتبر فيها رائدا حتى في هذا العصر الذي نعيش فيه . مما حدا ببعض الكتاب المحدثين أن يتحدثوا عن عبقريته العسكرية ويؤلفوا فيها الكتب ويعقدوا المقارنات بينه عليه الصلاة والسلام وبين أعظم قواد الحرب في العصر الحديث ك نابليون وغيره . وإن كنت لا أوافقهم على ذلك فشان بطل الجهاد الإسلامي أعظم وأعز من مقارنته بنابليون وغيره . فقد كانت عبقرية الرسول مستمدة من وحى الله تعالى وإلهامه إليه . فقد جاء في (إمتاع الأسماع) « ولما شرع أبو سفيان في الرحيل إلى مكة بعث إلى رسول الله كتابا جاء فيه : باسمك اللهم فإنني أحلف باللات والعزى لقد سرت إليك في جمعنا وإنما لا نريد أن نعود أبدا حتى نستأصلكم ، فرأيت قد كرهت لقضاءنا وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعري من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلنك متا يوم كيوم (أحد) . فكتب إليه الرسول : من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب أما بعد فقدمنا غرك بالله الفرور . أما قولك من علمك ما صنعنا من الخندق ؟ فإن الله الهمني ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك » (٢) .

فهذا هو سر قوة قيادة رسول الله المتصلة اتصالا وثيقا بالله . وهذا طبعا لا يقلل من مواهبه الشخصية وحسن تصريفه للأمور . وقد أكد تعالى هذه الحقيقة في أكثر من موضع في كتابه الكريم « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » (٣) . وقد علم الله سبحانه المؤمنين كل شيء يصلح دينهم ودنياهم « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (٤) .

والدارس المدقق في القرآن الكريم يجد إشارات إلى تنظيمات وتعليمات كثيرة تُعد دستورا كاملا للنصر والفوز ، تحدثت عن كثير منها في هذا الفصل ، ونضيف إليها ما يلي :

ضرورة تطهير الجيش من عناصر الفتنة والتخذيل لقوله تعالى في المنافقين

١ (الرسول القائد / ٢٢٤ محمود شمسيت) النجم / ٢ - ٥ .

٢ (اللواء الركن) .

٣ (الأسماع / ٢٨ .

٤ (إمتاع الأسماع للمريزي / ٢٣٩/١ - ٢٤٠

« ولو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يغفونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين » (١) .

ثم نبه تعالى إلى كتمان الأسرار العسكرية ، وحذر من افشائها أو تسريبها دون علم القائد : « وإذا جاءهم أمر من الأمن والخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » (٢) .

ونبه إلى خطورة الإشاعة والإرجاف بين صفوف المقاتلين ، وتوعدهم مروجي الإشاعات بأشد العذاب « لأن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » (٣) .

ونبه تعالى إلى خطورة الخيانة والتجسس لحساب العدو « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » (٤) .
وطالب سبحانه بضرورة التثبت من الأخبار قبل تصديقها والعمل بها « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٥) .

وقد رسم القرآن الخطة التنفيذية لأسلوب القتال في المعركة فأرشد إلى تنظيم الجيش وتوزيع وحداته على مواضع الدفاع ، وإن هذا التنظيم من اختصاص القائد « وإذ غدوت من أهلك تبؤى المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم » (٦) .

ثم بين أسلوب القتال نفسه « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » (٧) . وأسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال في العصر الحاضر ، فهو يؤمن العمق والاحتياط ليستطيع القائد معالجة المواقف التي ليست في الحسبان (٨) .

ثم نبه سبحانه إلى أسلوب المفاجأة في القتال وأثره الفعال في تحقيق النصر « قال رجالان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلا عليهم الباب فإذا دخلتوه فإنكم غالبون » (٩) ، ودعا القرآن إلى ترتيب الهجوم عند تعدد الأعداء ، وأن تبدأ القيادة بتخذية الطريق من اقرب الأعداء حتى لا يضرب من الخلف « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » (١٠) .

وقد رسم القرآن الخطة التنفيذية للمعركة بقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » (١١) .

قال القرطبي (٦) : أمرهم الله تعالى الا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا ما عندهم ، ويعلموا كيف يردون عليهم فذلك أثبت في القتال . فالامر هنا متروك لظروف المعركة وتقدير القائد إما أن ينفروا في جماعات متفرقات ، أو في جماعات نظامية . أو ينفّر البعض إذا اكتفى بهم في تحقيق الهدف كما كان رسول الله يفعل بإرسال السرايا أو ينفّر الجيش كله كما حدث

- | | |
|----------------------|----------------------------|
| ١ (التوبة / ٤٧ . | ٤ (الصف / ٤ . |
| ٢ (النساء / ٨٢ . | ٨ (الرسول القائد / ٢٨ . |
| ٣ (الأحزاب / ٦٠ . | ٩ (المائدة / ٢٣ . |
| ٤ (الأنفال / ٢٧ . | ١٠ (التوبة / ١٢٣ . |
| ٥ (الحجرات / ٦ . | ١١ (النساء / ٧١ . |
| ٦ (آل عمران / ١٢١ . | ١٢ (تفسير القرطبي / ٢٧٣ . |

فى سائر الغزوات .

وأرشد سبحانه إلى ضرب العدو من صفوفه الخلفية « فشرد بهم من خلفهم » (١) . كما أرشدهم إلى أيسر الطرق لقتل العدو وشل حركته « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (٢) .

ثم أرشد تعالى المجاهدين إلى أسلوب التفجير بالعدو ومراوغته فى القتال للايقاع به « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (٣) . وفى الآية إرشاد إلى نجدة المجاهدين بعضهم بعضا بأن ينتقل المجاهد حسب تعليمات القيادة من فئة قوية إلى فئة ضعيفة لينصرهم على عدو تكاثر عليهم .

وقد قُتِر الزمخشري قوله تعالى (إلا متحرفا لقتال) هو الكر بعد الفر ، يخيل إلى عدوه انه منهزم ثم يعطف عليه ، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها (أو متحيزا إلى فئة) أى منحازا إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها » (٤) .

وقد أرشد تعالى إلى الحد الذى يمكن أن يقف عنده القتل والقتال فاشترط كثرة القتل وتعجز العدو نهائيا عن القتال ، فلا يتحركهم إلا قتلى او أسرى « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » (٥) . « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اخنتوهم فشدوا الوثاق » (٦) . والمراد بالاثخان المبالغة فى كثرة القتل (٧) عن مجاهد وغيره .

وحتى يبقى الجيش متماسكا بعيدا عن أسباب الفشل والنزاع أوجب سبحانه الطاعة التامة للقائد « واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » (٨) . « يأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم مؤمنين تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير لكم واحسن تأويلا » (٩) .

ولقد اذاق الله المسلمين مر الهزيمة يوم (أحد) بسبب مخالفة الرماة أوامر القيادة الحكيمة . فكانت تلك الهزيمة درسا عمليا فى السمع والطاعة وعدم التنازع ومخالفة الأوامر — يعدل النصر ذاته ، فلم يهزم المسلمون بعده .

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . إلى قوله تعالى « فأنايكم بما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » (١٠) . هذه شواهد قليلة للاشارات القرآنية إلى التنظيم العملى للقتال وفى القرآن غيرها كثير .

- | | |
|-------------------------|--|
| ١ (الانفال / ٥٧) | ٦ (محمد / ٤) |
| ٢ (الانفال / ١٢) | ٧ (تفسير القرطبي ٤٦/٨ والكشاف ١٦٨/٢) |
| ٣ (الانفال / ١٥ - ١٦) | ٨ (الانفال / ٤٦) |
| ٤ (الكشاف / ١٤٩/٢) | ٩ (النساء / ٥٩) |
| ٥ (الانفال / ٦٧) | ١٠ (آل عمران / ١٥٢ ، ١٥٣) |

إن وحدة الأمة وتماسك أفرادها وتلاحمهم وتآلفهم هي الخطوة الأولى في الاستعداد لمواجهة العدو ، وإن الخروج عليها يعتبر ثغرة في الإيمان وضعفا في الاستعداد ربما يعرض الأمة كلها إلى الهلاك . لهذا كان أول ما أتجه إليه رسول الله منذ قدومه إلى المدينة تنظيم صفوف المسلمين ، وتوحيد كلمتهم ، فوضع دستور الحياة العامة ، ليكون أساسا لتحقيق الوحدة الداخلية بين جميع سكانها على اختلاف مذاهبهم واجناسهم . وقد اعتمد رسول الله على التعليمات الالهية التي استهدفت بناء مجتمع إسلامي قوي متماسك كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضا . وكان أول عمل في هذا السبيل محاولته عليه الصلاة والسلام تنظيم صفوف المهاجرين والأنصار بالمدينة وتوكيد وحدتهم عن طريق تآلفهم حتى لا تثور العداوة القديمة بينهم ، فأخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة (١) . وكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثا مقدما على القرابة (٢) « وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يرمى من وراء المؤاخاة بين أصحابه المهاجرين والأنصار أن يذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض » (٣) .

وقد ظل التوارث بالمؤاخاة قائما حتى اجتمع شمل الأنصار والمهاجرين وأوقعوا الهزيمة بالمشركين في غزوة بدر وعز شأن الإسلام فأنزل الله تعالى في سورة الأنفال « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم » (٤) . فنسخت هذه الآية ما كان قبلها ورجع كل مسلم إلى نسبه وورثه ذوو قرياه (٥) .

وقد نزلت آيات كثيرة تحث على رابطة الأخوة بين المسلمين وتبادل الولاء بينهم دون غيرهم ومن ذلك قوله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » (٦) .

« إنما المؤمنون أخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٧) وهناك آيات تقرر بأن المسلمين أخوة جاءت في سياق أوامر ونواة مختلفة منها « يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » (٨) .

وفي الآية دلالة على قوة التلقين في تقرير الأخوة بين المسلمين وشمولها . وقد أكد تعالى على هذه القوة بأسلوب آخر جعل ولاية المسلمين بعضهم على بعض صفة لازمة لهم ، لأن بعضهم من بعض . « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم

١ (طبقات ابن سعد ٢/٢ .

٢ (امتاع الاسماع / ٤٩ .

٣ (٤٢ عمران / ١٠٢ .

٤ (سيرة ابن هشام ١٢٣/٢ تحقيق

٥ (الحجرات / ١٠ وانظر التوبة / ١١

٦ (الاحزاب / ٥ والبقرة / ١٧٨ .

٧ محيي الدين عبد الحميد .

٨ (الحجرات / ١٢ .

٩ (الأنفال / ٧٥ .

أولياء بعض « (١) .
« فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم

من بعض « (٢) .
وهكذا وطد القرآن رابطة الأخوة بين المسلمين بكل قوة ، وجعلها من صفات الاسلام . وناهيك بها قوة تدعم كيان المجتمع وتبث بين أفرادها التوافق والولاء والمحبة والصفاء على اختلاف اجناسهم والوائهم وطبقاتهم .
ونظام المؤاخاة عظيم النفع بالغ الأثر فى نفوس المؤمنين ، تكون به حزب الله الذى يدافع عن دينه ، فكان مكانهم المسجد ، ورئيسهم الرسول ، ودستورهم القرآن ، ورباطتهم أخوة فى الله متينة .

وصونا لهذه الرابطة القوية أن تخدم ، ولهذه الوحدة أن تضعف حذر القرآن الكريم المؤمنين من التخاصم والتنازع ، وحثهم على التواد والتحاب واصلاح ذات البين « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفتى الى امر الله فإن فاعت فأصلحوا بينهما بالعدل واقتسما وإن الله يحب المقسطين » (٣) .
فقد أوجبت هذه الآية الكريمة اجتماع المسلمين على بذل الجهد المخلصه للاصلاح بين الأخوة المتنازعين ، واجتماعهم على قتال الباغى حتى يقبل حكم الله وينزل عند واجب الحق والعدل والأخوة .

وقد نهى تعالى عن التنازع والتفرق حتى لا يفقدوا قوتهم ووحدتهم فتكون الدولة عليهم « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (٤) . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » (٥) .
وقد حثت آيات كثيرة على ضرورة تطهير المجتمع من العناصر الفاسدة المفسدة ، وأخذهم بشيء من الشدة حتى لا تتعرض وحدة الأمة إلى التمزق والضعف قال تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب » (٦) . « الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٧) .
« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٨) . « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو السد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » (٩) .
وأفراد هذه الفئات يكونون عادة منبئين فى صفوف المجتمع ، ولهم فيه أو شجاج رحم ، وصلات من دم وعصبية ، وروابط متنوعة أخرى . فالواجب الذى تفرضه الآيات على المسلمين ، هو أن تكون مصلحة الكيان الإسلامى ووحدته وقوته ، وصيانتة من الوهن والتفكك والكيّد ، فوق أى اعتبار وأن

- ١ (الأمل / ٧٢ .
٢ (آل عمران / ١٦٥ والتوبة / ٧١ .
٣ (الحجرات / ٩ .
٤ (الأنفال / ٤٦ .
٥ (آل عمران / ١٠٥ .
٦ (الاحمال / ٢٥ .
٧ (النور / ١٩ .
٨ (المائدة / ٢٣ .
٩ (البقرة / ٢٠٤ - ٢٠٦ .

يقف المسلمون منهم موقف الحزم والشدة والصرامة والحذر ، حتى تشمل حركتهم ويحد أذاهم ، وتضيق دائرة شرهم وكيدهم ، لأن في ذلك مصلحة كيان الأمة وقوتها ، وفي التساهل فيه فشلهم وتصدعهم (١) . ثم فيه مقياس لإخلاص المسلم بقوة إيمانه ، بل وصدقه فيه ، كما تلقنه آية المجادلة هذه تلقينا قويا رائعا « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (٢) .

إن القرآن الكريم يربى الفرد المسلم على أساس ولائه لربه ورسوله وعقيدته وجماعته المسلمة . وعلى ضرورة المفاصلة التامة بين الصف الذي يقف فيه وكل صف آخر لا يرفع راية الله ، ولا يتبع قيادة رسوله . ليكونوا خالصين لله منقطعين لولايته متجردين من كل وشيجة غير وثيغته .

« يأبها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلحقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يتفكروم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » (٣) .

وقد سلك القرآن الكريم طرقا متنوعة ، لنهى الذين آمنوا عن موالة المخالفين لهم في عقيدتهم من أهل الكتاب ومن المشركين ومن المنافقين لعداوتهم الظاهرة والباطنة للمسلمين وتآمرهم جميعا على تمزيق وحدة الأمة من الداخل والقضاء عليها من الخارج .

« يأبها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » (٤) .

ويوجه القرآن الكريم إلى ولاية الله تعالى لهم ، ويجب أن ينفذوا أيديهم من كل ولاية غير ولايته « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » (٥) .

وقد وعت عقول المسلمين هذه التعليمات الآلهية واطمأنت بها قلوبهم فقطعوا وشائج القربى وصلات النسب عندما تعارضت مع عقيدتهم ، حتى كان الواحد منهم يقاتل أقرب الناس إليه فيقتل أباه وأخاه . ففي غزوة بدر وقف أبو عبيدة بن الجراح يحارب مع المسلمين ووقف أبوه يحارب في جيش أبي جهل وحاول الأب أن يضرب ابنه مرة ومرة ، وكان الابن يفر من الضربات ويتفادها ، ولكن عندما استحكمت الحلقات ووجد أبو عبيدة نفسه بين إحدى اثنتين إما أن يضرب أباه أو يخذل عقيدته ، آثر الأولى وأغمد سيفه في أبيه فقتله ، وفي نهاية الغزوة كان رأى عمر رضى الله عنه أن يقتل الأسرى ، وصاح بالرسول

١٢٠ والمائدة / ٥١ - ٥٨ وآل عمران /

١ (الدستور القرآني ٣١/١ .

١٠٠ - ١٠٢ .

٢ (المجادلة / ٢٢ .

٣ (المتحنة / ١ - ٣ والتوبة / ٢٣ والمجادلة ٤ (آل عمران / ١١٨ .

٢٨ وآل عمران / ٢٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٥ (المائدة / ٥٥ ، ٥٦ .

اعطى الى لاقظهم ، وأسلم العباس لآخيه حمزة ليقظله ، ولولا مزيد من الرحمة
أبداها الرسول لكان ما أراد عمر (١) .

المستشرقون وسر انتصارات المسلمين :

قد تحير المؤرخون والاجتماعيون الاوربيون فى تحليل سرعة الفتوحات
الاسلامية فذهبوا فيها مذاهب شتى واخطأوا ، وأصابوا ، وليس من الممكن
حصر تعليقاتهم فى هذا الشأن نظرا لكثرتها ، وانما يمكننا ان نشير ولو بطريق
الإيماء الى بعضها .

فحدث الفتح الإسلامى بهذه السرعة التى اتسقت بها ، لم يسبق له مثيل
فى التاريخ حتى قال الكثيرون ان العرب فتحوا فى ثمانين سنة أكثر مما فتح
الرومان فى ثمانمائة سنة ، وكان نابليون يقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا
فى نصف قرن .

ويعلل نابليون هذه الانتصارات بنظرته العسكرية التى هو عبقرها الى
ان العرب قبل الإسلام كانوا ذوى بصائر بالحرب ، أكثر مما يظن الناس ، وان
حروب القبائل العربية بعضها مع بعض كانت قد نحدتها فى القتال الى الحد
الذى صيرتها أمة محاربة من الدرجة الاولى « (٢) .

وقد ادعى (ارفنج) (٣) ان القتال فى الإسلام من شأنه ان يشجع أعمال
النهب والسلب ، وان روح القتال فى الإسلام هى لرغبة دنيوية وانها سيطرت
على حماسة الرسول الدينية .

ويقول الدكتور عبد الحميد العبادى « ان حركة التوسع العربى الكبير
ما كانت لتأخذ مجراها المعروف فى التاريخ لو ان الدولتين الفارسية والبيزنطية
كانتا قويتين منيعتين ، والواقع ان من مصادفات التاريخ العجيبة ان تقترن نهضة
العرب واجتماعهم على دولة واحدة ودعوة واحدة ، بضعف واختلال عم جميع
مرافق الدولتين الفارسية والبيزنطية « (٤) . ويرى (فليب حتى) ان الروح
الاسلامية لم تكن سببا فى الفتوحات الاسلامية بل كان سببها حماس المجاهدين
البدو الى النهب والسلب والحاجة المادية (٥) .

ومن العلماء المستشرقين الذين فهموا سر الفتوحات الإسلامية وأنصفوا
الإسلام وأهله جماعة أصحاب (تاريخ العالم) (٦) للعلامة غود فروى Guide Foroy
الاستاذ بمدرسة اللسن الشرقية بباريس والعلامة (بلاتونوف) من اعضاء
اكاديمية العلوم الروسية ، تحرى فيه مؤلفاه أقصى آماد التحرى وذهبوا الى
انه يجب العدول عن فكرة انتشار الإسلام حصل على أيدي الاعراب او البدو
الدافقين من الصحارى لاجل الغزو . فقالوا ان الاولى ان يقال ان طائفة من
الناس اجتمعت حول النبى فى المدينة من بعد الهجرة وتشعبت بمبادئه ، وصرفت

١ (الجهاد فى التفكير الإسلامى / ٥٠ الدكتور أحمد شلبى .

٢ (حاضرات العالم الإسلامى للمستشرق ستودارد / ٢٤ .

٣ (Washington Irving, The life of Mohamet P. 103 .

٤ (Histoire dumande Vo—7—P.140

جميعهما إلى الدين وعاهدت الله ورسوله على نشر عقيدة الإسلام وهؤلاء هم المسلمون ثم انضمت إليهم طبقات أخرى في زمان الخلفاء الراشدين ، وتقوت بهم عصابة هؤلاء المتدينين العاكفين على قراءة القرآن ، الذين بثباتهم المتواصل بنوا الإسلام الأول الذي لم تطرا عليه المؤثرات الخارجية ، والمجادلات الكلامية وهو الإسلام القرآني الصرف .

وكانت خلية الإسلام تعمل أيضا في اثناء الفتوحات بين الجيوش في المخيمات وذلك أن من الجند من كانوا حفاظا للقرآن فاهمين لمعانيه فتألفت بينهم في وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى ، وكانوا ييئون العقيدة ويحثون على التقوى ويجاهدون في طلب سعادة العقبى . فكان المسلمون يعملون في الأرض ويعززون وكان غيرهم يسفلون ويذلون ، وانقلبت غزاة البدو حربا مقدسة قد أمر بها الله لاعلاء كلمته .

وهذا الرأي هو ما رآه المستشرق Lothrop Stoddard « وهو أن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به إلى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية التي مكنتهم من نواصي الأمم ، وهذه القوة المعنوية هي الأصل ، والتي بدونها لا تنهض أمة . وما القوة المادية ، مهما دقت أو غلظت إلا تبع لها وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة إلى الروح ، فكل ما يقال إن سبب الفتوحات الإسلامية الباهرة هو مراسم العرب للقتال أو حب البدو للغزو وغرامهم بالفنائم ، أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها ، فهذا تضييع للمعنى الحقيقي ، وزبيغ عن شاكلة الرمية ، وإنما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، وبقوة معنوية أحدثها في النفوس خارقة للعادة . . ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان وكان الأعراب مفرمين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلم لم يفتحوا البلدان إلا بعد بعثة محمد » (1) .

والحق أن هذا الكاتب قد أوتى عقلا ناقدا ، وفهما ثاقبا ، ولسانا صادقا ، وقد كفاني مؤونة الرد على من طمس التعصب على عقولهم وختم على قلوبهم ، ولوى السننهم فهم في جدل ومرء والتواء على الحق وإنحراف عن الحقيقة . ولكنني وإن وافقت هذا المستشرق الفاضل على أهمية القوة المعنوية ودورها الفعال في الانتصارات الإسلامية الباهرة ، إلا أنني لا أوافق على التقليل من شأن بقية عناصر النصر ومقوماته الأخرى التي ذكرتها في هذا الفصل .

وقد أصاب الكاتب التركي (حيدر بامات) كبد الحقيقة حين قال « لقد جعل الإسلام قوة جيشه في سبيل الله وما أمر به الله في الأرض ، وكان مقاتلة الإسلام المجاهدون في سبيل وحدانية الله والمساواة بين الناس يعتقدون أنه موكل إليهم برسالة ربانية ، وكان الإعتقاد يورث بطولة في المعركة ، وأزدراء مطلقا للموت .

ومما حدث في تاريخ البشر غير مرة ، أن كتائب قليلة عددا وضعيفة عدة غلبت أعدادا أقوى جهازا وأكثر جنودا ، ففي مثل هذه الحال يجب دائما ، أن يُبحث عن تفسير أساسي قاطع للنصر في روح التضحية . وأزدراء حطام الدنيا ، وفي الإيمان الذي يُزيل الجبال . ولم يكن أمر الفتوحات الإسلامية غير ذلك . .

بيد أن تفاوت القوى بين امبراطوريتي الزمن العظيمتين والدولة العربية الناشئة كبير جدا ، ولا ريب في أن العامل الأدبي الذي عين حمية مجاهدى الاسلام الصائلة لم يكن في الحقيقة كافيا وحده لقهـر جيوش بيزنطة والفرس المنظمة المدربة لو لم يتعلم العرب فن الحرب في مدرسة خصومهم . فصلح مدربيـ و الفرس والروم ومهندسوم الكثيرون ، الذين جذبوا إلى دين الله ، أن يكونوا معلمين للعرب . وتمضى سنون قليلة فنتحول القبائل العربية إلى جيش منظم مدرب قادر كل القدرة على استخدام جميع آلات الحرب المعروفة في ذلك الزمن (٢) .

وصدق حين قال في موضع آخر : وإذا نظر إلى تلك الأمور بعين الاعتبار عاد الفتح العربى لا يبدو كمعجزة ، ولا مناص من الاعتراف بأنه كان نتيجة طبيعية لقوة أحسن تنظيمها وسمت قيادتها وجعلت خادمة لمثل عليا استعد جميع مجاهدى الاسلام ، من قادة وجنود للتضحية بحياتهم في سبيلها فرحين . وهكذا تكشفت أسرار الفتح الاسلامى لأصحاب العقول النيرة والقلوب السليمة الخالية من الأهواء والتعصب .

الفصل الرابع : الأسرى والغنائم والأطفال والفقراء والجزية

أولا : الأسرى :

إذا نشبت حرب بين طرفين فإن من نتائجها الكثيرة أن يقع فى حوزة المتحاربين بعض أفراد من العدو يعتبرون أسرى حرب .
وأسرى الحرب عند فقهاء المسلمين : هم الرجال المقاتلون من الكفار إذا ظفر المسلمون بأسراهم أحياء .

قال القرطبي (١) : الأسير مشتق من الاسار ، وهو القيد الذى يُشد به الحمل فسمى أسيرا لأنه يُشد وثاقه ، والعرب تقول : قد أسر قتيبه ، أى شده ، ثم سُمى كل أخيد أسيرا وإن لم يُؤسر لأنهم كانوا يشدون الأسير باليد وهو الاسار .

وقال أبو عمرو بن العلاء : (الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون ، والأسارى هم الموثقون ريبطا) .

وقال الراغب (٢) : الأسر الشد بالقيد من قولهم : أسرت القتب وسمى الأسير بذلك ثم قيل لكل مأخوذ ومقيد وإن لم يكن مشدودا ذلك ، وقيل فى جمعه أسارى وأسارى وأسرى والأسر مشروع فى الإسلام لقوله تعالى « وخذوهم وأحصروهم » (٣) ولقوله تعالى « فشدوا الوثاق » (٤) .

والأسر قد يكون بغير قتال ، مثل أن تلتقى السفينة شخصا من الكفار إلى ساحل بلاد المسلمين أو يضل أحدهم الطريق أو يُؤخذ بحيلة (٥) .

تعاليم الإسلام فى الرفق بالأسرى :

وهذا نوع من المفاخر التى لم يتناول إليها دين من الأديان السماوية السابقة ولا يمكن أن يتناول إليها قانون دولى وضعى ، ولن تتسامى إليها قواعد دولية نافذة . فكانت الديانة اليهودية تقضى بالآب يقتل الأسرى فحسب بل يقتل جميع النساء والأطفال والحيوانات التى توجد فى المدن المستولى عليها كما سبق أن نقلنا ذلك من أسفارهم وكذلك فعل المسيحيون قديما وحديثا كما نصت كتبهم .

وفى قديم التاريخ كان الأسرى يذبحون أو يقدمون قرابين للآلهة . ثم صاروا يُستعبدون ويتخذون رقيقا (٦) .

وقد عامل الفرس أسراهم بقسوة لا هوادة فيها ، فكانوا ضحية التنكيل والتعذيب والقتل والصلب وكذلك كان الإغريق يفعلون بأسراهم (٧) .
وتأثر العرب فى جاهليتهم بعبادات مجاورتهم ، فلم تكن معاملة الأسير

-
- | | |
|---------------------------------|--|
| ١ (تفسير القرطبي ٢/٢١ ، ٤٥/٨ . | ٥ (السياسة الشرعية لابن تيمية / ١٢٤ . |
| ٢ (المفردات / ١٩ | ٦ (الشريعة الإسلامية والقانون الدولى |
| ٣ (التوبة / ٥ | العام / ٢٣١ على منصور . |
| ٤ (محمد / ٤ | ٧ (الحرب فى الإسلام ١٢٦ خذورى . |

عندهم . تتصف بصفة الرحمة والانسانية . فلما جاء الاسلام ضرب القرح
المُعلَى فى الرفق بالاسرى والرحمة بهم والعناية بشأنهم (١) .
ولم يعرف التاريخ محاربا رفيقا بالأسرى كالمسلمين الأولين الذين اتبعوا
أوامر دينهم التى دعت الى الرفق بالأسرى ، وذلك أن الأسير تقبض عليه
ونيران الحرب ملتبهة فى الميدان ومشبوبة فى قلوب المقاتلين والفيظ قد
يتحكم فيندفعون الى الأذى يلحقونه بأولئك الذين عنت رقابهم ، ويشنفون
غيظهم فيهم ولقد تعلم المجاهدون المسلمون بهذا نوعين من الجهاد :
أولهما : جهاد فى ميدان القتال حيث يبيعون أنفسهم لله وللحق الخالص .
وثانيهما : جهاد النفس فلا تسترسل فى الغضب ، بل تقاتل من يقاتلها
بالرفق لا بقانون الغابة (٢) .

وقد حض القرآن الكريم على إطعام الأسرى ، وجعله من أقرب القربات
الى الله « وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ
لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا » (٣) .
وكان النبى عليه الصلاة والسلام يوصى أصحابه بالأسرى خيرا كما روى
الطبرانى فى الكبير عن نبىه بن وهب فى أسرى بدر « استوصوا بالأسرى
خيرا » (٤) .

قال أحد أسرى بدر (أبو عزيز بن عمير) : مَرَّ بى أخى مصعب بن عمير
ورجل من الأنصار يأسرني فقتل له : شد يدك به فإن أمه ذات متاع .
قال وكنت فى رهط من الأنصار حين أقبِلوا بى من بدر ، فكانوا إذ قدموا
غذاهم وعشاءهم خصونى بالخبز واكلوا التمر ، لوصية رسول الله إياهم بنا ،
ما يقع فى يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحنى بها ، قال : فاستحى فأردها
على أحدهم فبردها على ما يمسه (٥) . وقد وقع ثمانية بن أثال أسيرا فى أيدى
المسلمين ، وجاعوا به رسول الله فقتل :

« احسنوا إسارة ، ورجع رسول الله الى أهله ، فقتل : إجمعا ما كان
عندكم من طعام فابعثوا به إليه ، وأمر بقلحتة أن يُغدى عليه بها ويراح » (٦) .
وقد نص الفقهاء على أنه لا يجوز تعذيب الأسير بالجوع والعطش وغير
ذلك وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بأحمال التمر
فتنثر على بنى قريظة وكان يقول لأصحابه « احسنوا إسارهم وقيلوهم واسقوهم
لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح وكان يوما صائفا فقيلوهم
واسقوهم وأطعموهم » (٧) .

وروى البيهقى عن ابن عباس رضى الله عنه حديثا يدل على شدة
رحمة الرسول بالاسرى قال : لما أسى رسول الله يوم بدر والأسرى محبسون
بالوثاق ، بات رسول الله ساهرا أول الليل . فقتل له أصحابه : يا رسول الله
مالك لا تنام وقد أسر العباس رجل من الأنصار فقتل : سمعت أنين عمى

- | | |
|---|---|
| ١ (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى / ٤٠٥) | ٥ (مجمع الزوائد ٨٦/٦ وصور من حياة
الرسول / ٣٢٠) |
| ٢ (نظرية الحرب فى الاسلام / ٦٢ للشيخ
محمد ابوزهرة . | ٦ (سيرة ابن هشام ١٠٥٣/٤ تحقيق
محبى الدين عبد الحميد . |
| ٣ (الانسان / ٨ - ١٠) | ٧ (شرح السير الكبير ٢٦٤/٢ وصور من
حياة الرسول / ٤٤٠) |
| ٤ (البداية والنهاية ٣٠٦/٢ ومنتخب كز
العمال من مسند احمد ٣١٣/٢) | |

العباسى فى وثاقه ، فأطلقوه ، فسكت فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم « (١) » .

وقد أمر رسول الله بكسوة الأسرى والمحافظة على كرامتهم الإنسانية وستر عوراتهم « فلما كان يوم بدر أتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي له قميصاً ، فوجد قميص عبد الله بن أبى يقدر عليه فكساه النبي إياه « (٣) » .
وخاصة القول كما قال أبو يوسف : « والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يُطعم ويُحسن إليه حتى يحكم فيه « (٣) فتركه بدون كسوة ليس من الإحسان فى شىء .

وهذه المعاملة الإنسانية الكريمة هى : أقصى ما تمكن رجال القانون الدولى الحديث من التوصل إلى بعضه . فقد نصت لائحة لاهاي للحرب البرية واتفاقية جنيف سنة ١٩٤٩ على ضرورة المحافظة على حياة الأسرى ، وحسن معاملتهم ، ووضعهم فى معتقل خاص بعيد عن مناطق الحرب على أن يُقدم لهم الطعام واللباس . ويجوز تشغيل الأسرى من الجنود دون الضباط بأجر مناسب ، وفى غير الأعمال المرهقة (٤) . وهذا يدل على أن موقف الإسلام من الأسرى قبل ثلاثة عشر قرناً كان موقفاً مثالياً رائعاً قبل أن تأتى اتفاقية جنيف التى ما زالت غير نافذة إلى الآن عند غالب الدول (٥) .

أما مصير الأسرى : فقد نصت اتفاقية جنيف بوجه خاص أن أسير الحرب يعتبر أسيراً للدولة لا أسيراً للشخص أو الوحشدة العسكرية التى أخذته (٦) .

وقد سبق الإسلام إلى هذا الحكم وجعل حق تقرير مصير الأسير بيد إمام المسلمين لا بيد أسرته قال الكمال بن الهمام : ليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه لأن الراى فيه إلى الإمام « (٧) » .

وقد بين القرآن الكريم شروط الأسر بصرامة تامة فى أول آية نزلت فى شأن الأسرى « ما كان نبي أن يكون له أسرى حتى يُنخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم « (٨) » .

وواضح من الآية الكريمة أنها لا تنص من قريب أو بعيد على مصير الأسرى ولكنها تحدد شرط الأسر . ولهذا استشار النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه فى مصير الأسرى ، ولو كان نزل تشريع فى شأنهم لما استشار أحداً .

روى الواحدى والطبرى وابن كثير والقرطبى والزمخشرى وغيرهم أن هذه الآية نزلت فى شأن أسرى بدر قالوا : (لما كان يوم بدر جىء بالأسارى ، وفيهم العباس ، فقال رسول الله (ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟) فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك واهلك ، استبقهم لعل الله يتوب عليهم . وقال

١ (سنن البيهقى ١٤٩/ .

٢ (فتح البارى ١٠٨/٦ والعينى على شرح
٥ (قانون الحرب والحياد للدكتور سامى
البحارى ٢٥٧/١٥ .
جنيئة / ٢٧٧ - ٢٧٨ .

٣ (الخراج ١٤٩/ .

٤ (المواد ٣ و ١٣ من لائحة لاهاي والمادة ٤

من اتفاقية جنيف ١٩٤٩ الخاصة

بالأسرى والمواد ٦ ، ٧ ، ١٧ من لائحة

لاهاي (نقلًا عن كتاب العقيدة والشريعة

١٩٩ .

٨ (الانتفال / ٦٧ .

عمر : كذبوك وأخرجوك ، وتناولوك ، قدمهم ، فاضرب اعناقهم . وقال عبد الله ابن رواحة : يا رسول الله ، انظر واديا كثير الحطب ، ثم اضرمه عليهم نارا ، فقال العباس وهو يسمع : قطعت رحمك .

فسكت رسول الله فلم يجيبهم ، ثم دخل . وقال أناس : يأخذ بقول ابي بكر وقال أناس يأخذ بقول عمر . وقال أناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . ثم خرج رسول الله ، فقال « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألشد من الحجارة ! وإن مثلك يا ابا بكر ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ! وإن مثلك يا ابا بكر ، مثل ابراهيم ، قال : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » (١) . ومثل عيسى إذ قال « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » (٢) . ومثلك يا عمر مثل نوح إذ قال : « ربى لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » (٣) .

وقال رسول الله : (انتم اليوم عالة فلا ينفلتن احد الا بفداء او ضربة عنق) .

فانزل الله عز وجل : « ما كان لنبي أن يكون له اسرى . . إلى آخر الآيتين . فقال النبي عليه الصلاة والسلام « لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ لقول سعد : يا نبي الله كان الاثنان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال » (٤) . اما شرط الأسر فقد حدده قوله تعالى : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) أي حتى يكثر القتل في أعداء الله فيقوى بأسهم ويشتد أمرهم ، ويعظم شأنهم .

وقد ذكر معظم المفسرين (٥) أن معنى الاثنان في الأرض المبالغة في القتل والإكثار منه وقالوا الاثنان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته . والمعنى حتى يُبالغ في قتل المشركين ويفلبهم ويقهرهم فإذا حصل ذلك فله أن يقدم على الأسر . وقيل معناه التمكّن والقهر حتى تظهر شوكة المسلمين وقوتهم ويذل الكفار ولا يخشى بأسهم .

وقال النيسابوري (٦) : (حتى يثخن في الأرض) هذا يدل على أن الأسر كان مشروعا ولكن بشرط سبق الاثنان ، ولا شك أن الصحابة قتلوا يوم بدر خلقا كثيرا ، فظنوا أن ذلك القدر من القتل بلغ حد الاثنان ، فاخطأوا في الاجتهاد) .

ورأى القرطبي (٧) قريبا من هذا الرأي (والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ، ولكنه عليه السلام شغله بفت الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء) . فلا بد من تقديم الاثنان ثم بعده الأسر . على أن للاثنان في الأرض — أي للتمكّن والقوة وعظمة السلطان فيها — سببين لا سببا واحدا . أحدهما : الاستعداد التام للقتال ، وهو الذي

- | | |
|---------------------------------------|--------------------------------------|
| ١ (ابراهيم / ٣٦ . | ٥ (تفسير القرطبي ٤٥/٨ والكشاف ١٦٨/٢ |
| ٢ (المائة / ١١٨ . | فتح القدير ٢١٠/٢ والفتوحات الالهية |
| ٣ (نوح / ٢٦ . | ٥٧/٢ وانوار التنزيل ٢٣٥/٢ والخازن |
| ٤ (أسباب النزول للواحدى / ١١٦ وتفسير | ٥٢/٣ |
| الطبرى ٦١/١٤ وتفسير القرطبي ٤٧/٨ | ٦ (غرائب القرآن ٢٨/١٠ |
| وتفسير ابن كثير ٣٢٥/٢ والخسائز | ٧ (تفسير القرطبي ٤٦/٨ |
| ٤٠/٣ وتفسير الزمخشري ١٦٨/٢ | |

يُرهب الأعداء . والثانى : تقتيل الأعداء فى الحروب ، وهو الذى يُمكن للمنتصر فى الأرض ، ومن أجل هذا قال تعالى (حتى يُنخن فى الأرض) ولم يقل (حتى يثخن فى القتل) .

فإن من المجرىبات التى لا شك فيها أن الاثخان فى قتل الأعداء فى الحرب سبب من أسباب الاثخان فى الأرض ، أى التمكن والقوة وعظمة السلطان فيها (١) .

فإذن شرط الأسر هو كثرة القتل فى الأعداء وقهرهم حتى لا يقدرُوا على مقاومة المسلمين بعد ذلك ليتمكن سلطان الإسلام ويُرهب جانبه .
ولذلك قال تعالى معانبا المسلمين بقوله (تُريدون عرض الدنيا) وذلك على قبولهم الفدية من المشركين وهو الذى لا يصح غيره على حـد تعبير القرطبى (٢) .

قال ابن عباس (كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واثبت سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد هذا فى الأسارى (فلما مَنَّا بعد وإمَّا فداء) . وكلام ابن عباس هذا يُوهم أن مقتضى الآيتين مختلف ، وليس كذلك فإن كليهما تدل على أنه لا بُدَّ من تقديم الاثخان على الفداء (٣) .

وهذا ما قاله الرازى واستشهد برأيه صاحب الفتوحات الالهية : قال الرازى : إن المراد من الآية حصول الأسر لغرض أخذ الفداء ، وذلك لا يدل على أن أخذ الفداء محرم مطلقا . وقال القرطبى (٤) : إنها عوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع والتصريف فى صناديد قريش وأشرفهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملك . وذلك كله عظيم الموقع فكان حقهم أن ينتظروا الوحي ولا يستعجلوا ، فلما استعجلوا توجه اليهم ما توجه) . والذى أراه أن الآية نصت صراحة على شروط الاثخان أولا قبل الاقدام على الأسر ومما ثبت ثانيا لاكثرهم من الأسرى وتقليلهم من القتل لأجل الحصول على الفداء لا لأنهم قبلوا الفداء بعد اتخاذ الأسرى . وهذا الراى يؤيده قول الله تعالى فى سورة القتال « **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا اِثْخَنْتُمُوهُمْ فَشَدُّوا الوَثَاقَ فَلَمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءٌ** » (٥) .

قال سعيد بن جبیر : لا يكون فداء ولا أسر الا بعد الاثخان والقتل بالسيف (٦) . فإتينا نرى أن شرط الأسر فى السورتين هو هو (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) وقوله (فأذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق) .
فالاثخان شرط أساسى لاتخاذ الأسرى .

أما مسألة عتابهم على قبول الفداء ففيها نظر لقوله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) (٧) . فلو كان أخذ الفداء محرما ، وكان العتاب من أجل قبوله لما نزلت هذه الآية عقب قوله تعالى (تريدون عرض الدنيا) مباشرة . وإنما كان العتاب كما يقول ابن كثير على الاستكثار من الأسارى يوم بدر

-
- | | |
|-------------------------------------|----------------------------|
| ١ (تفسير سورة الانفال / ١٨٠ وتفسير | ٤ (تفسير القرطبى ٤٦/٨ . |
| المنار ٨٤/١٠ . | ٥ (محد ٤/ . |
| ٢ (تفسير القرطبى ٤٦/٨ . | ٦ (تفسير القرطبى ٢٢٨/١٦ . |
| ٣ (غرائب القرآن ٢٨/١٠ . | ٧ (الانفال / ٦٩ . |

ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ « (١) . ويؤيد هذا ما روته كتب التفسير وأسباب النزول عن سعد بن معاذ رضى الله عنه حين أخذ المسلمون بأسرون المشركين ، نظر رسول الله إلى سعد فرأى فى وجهه الكراهية لما يصنعون فقال : لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ، قال : أجل — والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله — بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلئى من استبقاء الرجال » .

ولهذا قال رسول الله « لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ » (٢) . أما قوله تعالى (فلما مَنَّا بعد وإما فداء) فهو النص الوحيد فى كتاب الله الذى يتعلق بحكم الأسرى . فالله سبحانه يُخير ولى أمر المسلمين وحاكمهم العادل بين أمرين لا ثالث لهما لأن (إما) تفيد التخخير والحصار (٣) . (فلما مَنَّا بعد وإما فداء) . ولم يقل قتلا أو استرقا ، لأن ذلك خارج عن معنى التخخير .

وكان الحسن وعطاء وسعيد بن جبير يكرهون قتل الأسير وقالوا لو من عليه أو فاداه كما صنع رسول الله بأسارى بدر لأن الله قال (فلما منا بعد وإما فداء) فخير بين هذين بعد الأسر لا غير (٤) .

وقال الترمذى (٥) : العمل عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أن للامام أن يمن على من يشاء من الأسارى « . وكان الحسن رضى الله عنه يكره قتل الأسير إلا فى الحرب ليهيب به العدو . وحماة بن أبى سلمة رحمه الله كان يكره قتل الأسير بعد ما وضعت الحرب أوزارها . وجملة قولهما إن إباحة القتل لدفع محاربتهم .

قال الله تعالى (فإن قاتلوكم فاقتلوهم) وقد اندفع ذلك بالأسر وانقضاء الحرب فليس فى القتل بعد ذلك إلا إبطال حق المسلمين بعد ما ثبت فى رقابهم وذلك لا يجوز . واستدلوا على ذلك بما روى أن عبد الله بن عامر يعث إلى ابن عمر رضى الله عنهما بأسير ليقته فقال : أما والله مصرورا فلا أقتله . . . يعنى بعدما شدتموه وأسرتموه فلا أقتله . واستشهدوا بأية (فلما منا بعد . .) وقالوا إنما أمرنا الله بالقتال إلى غاية الأسر ، ثم جعل الحكم بعد ذلك المن أو الفداء (٦) .

وقال الشيعة الإمامية (٧) إن أخذ الأعداء بعد انقضاء الحرب لم يقتلوا واستدلوا بنفس الدليل الذى استدل به الحسن رضى الله عنه . وإذا تتبعنا صنع رسول الله فى الأسرى فى سائر غزواته لوجدنا أنه قال فى شأن أسارى بدر (لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء الننتى لتركتهم له) أى لأطلقهم له بغير فداء مكافأة له على إحسانه فى السعى فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش فى أن لا يبياعوا الهاشمية

- ١ (تفسير ابن كثير ١٧٣/٤ . ٥ (جامع الترمذى ٢٨٦/٢ .
٢ (كتب التفسير السابقة وصور من حياة ٦ (السير الكبير ١٠٢٤/٢ تحقيق صلاح
الرسول / ٣١٥ . الدين المنجد (مصرورا : أى موثوقا
٣ (تفسير الرازى ٣٦٣/٧ يقول (اما) تفيد مريبوطا) .
الحصار مثل (انما) . ٧ (الروضة البهية ٢٢٢/١ .
٤ (المعنى لابن قدامة ٢٠٤/٩ .

والمطلبية ولا يناكحوهم (١) .

فقد مَنَّ الرسول على أبي عزة الشاعر (عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي) إذ قال لرسول الله : لى خبيس بنات ليس لهن شئء فتصدق بى عليهن يا محمد ، وإنى معطيك موثقا لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً . فأمنه النبي وأرسله من غير فداء (٢) .

وقد نال المن بفداء أبو العاص بن الربيع ثم رده عليه ، وكانت تلك المعاملة الرقيقة سببا فى إسلامه (٣) ومَنَّ رسول الله على ثمامة بن أثال الحنفي سيد أهل اليمامة . قال له رسول الله ما وراعى يا ثمامة ؟ فقال : إن عاقبت عاقبت ذا ذنب ، وإن مننت مننت على شاكر ، وإن أردت المال فعندى من المال ما شئت ، فمن رسول الله عليه بشرط أن يقطع الميرة عن أهل مكة . ففعل ذلك حتى قحطوا .

وقد كانت هذه المعاملة الحسنة سببا فى إسلامه وصدق إيمانه . فقد قال حين أعلن إسلامه لرسول الله لقد كان وجهك أبغض الوجوه إلئى ، ولقد أصبح أحب الوجوه إلئى . وقال فى الدين والبلاد مثل ذلك (٤) .

وقد سألت أم المنذر سلمى بنت قيس رسول الله رفاغة بن سموم القرظى ، فوهبه لها . ووهب رسول الله لثابت بن قيس بن شماس دم الزبير ابن باطا القرظى وامراته وولده وماله يوم مذبحة بنى قريظة (٥) .

وتزوج رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار من سبايا بنى المصطلق ، فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق إكراما لصهر رسول الله ، فما كانت إمراة أعظم بركة على قومها منها ، كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها « (٦) .

ومَنَّ رسول الله على أهل مكة يوم الفتح وقال لهم (اذهبوا فأنتم الطلقاء) وكذلك من على أهل خيبر (٧) .

ومَنَّ رسول الله على ثمانين رجلا (٨) من أهل مكة هبطوا على النبي وأصحابه ليقتلوهم يوم الحديبية فأنزل الله فى شأنهم « هو الذى كَفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة » (٩) . هذا ، وقد نصت لائحة الحرب البرية أن من (أحوال) انتهاء الأسر ، على ما يشبه المن فى الإسلام . فمن أحوال إطلاق الأسرى الإخراج بلا قيد ولا شرط ، أو الإخراج تحت شرط وهو إطلاق سراح الأسير بعد كلمة الشرف على الا يعود إلى حمل السلاح ضد الدولة التى أفرجت عنه ، وليس من حق دولته إلزامه بأى عمل يتنافى مع وعده ، أو

- | | |
|------------------------------------|--|
| ١ (شرح مسلم ٨٧/١٢ ومسند أبى داود | — ١٠٥٤/٤ والسير الكبير ١٠٣١/٣ تحقيق |
| ٢٦/٢ ومسند البيهقى ٣١٩/٦ ونيل | المنجد . |
| الأوطار ٣٠٢/٧ والسير الكبير ١٠٢١/٣ | ٥ (سيرة ابن هشام ٧٢٣/٣ — ٧٢٤ . |
| ٢ (حياة محمد / ٢٧٣ هيكل . | ٦ (سيرة ابن هشام ٧٦٢/٣ . |
| ٢ (حياة محمد / ٢٧٥ هيكل . | ٧ (الاموال / ١١٧ . |
| ٤ (شرح مسلم ٨٧/١٢ ومسند أبى داود | ٨ (معالم المنمنن للبيسستى ٢٨٨/٢ ومسند |
| ٢٦/٢ ومسند البيهقى ٣١٩/٦ ونيل | ابن داود ١٨٢/٣ . |
| الأوطار ٣٠٢/٧ وسيرة ابن هشام | ٩ (الفتح / ٢٠ . |

تقبل منه الاخلال بوعده إذا هو عرض الالتحاق بخدمة جيشه من جديد فإذا أخل بذلك حوكم وعوقب ولو بالإعدام» (١) .

وكل هذه النصوص معمول بها في الشريعة الإسلامية كما ذكرت من الأمثلة السابقة . ومثال ذلك : أبو عزة الشاعر الذي مَنَّ عليه رسول الله وشرط عليه ألا يُظاهر على الرسول احدا . ثم قدم مع المشركين في أحد وحرص بشعره على قتال الرسول فلما أسر للمرة الثانية يوم (أحد) قال للرسول : يا محمد ، إننا خرجت كرها ، ولى بنات فأمنن على فقال رسول الله « أين ما أعطيتني من العهد والميثاق ، لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : سخرت بمحمد مرتين ، ثم أمر بضرب عنقه (٢) .

وأمثلة قتل المخالف لشرط المن كثيرة منها أيضا : ان زيد بن حارثة وعمار ابن ياسر قتلا معاوية بن المغيرة بعد حمراء الأسد ، كان لجا إلى عثمان ابن عفان فاستأمن له رسول الله فأمنه ، على ان وجد بعد ثلاثة قتل ، فأقام بعد ثلاث فوجدها فقتلاه (٣) . وقد ذكرنا انه عليه الصلاة والسلام قد من على ثمامة ابن أثال بشرط أن يقطع (الميرة) عن أهل مكة ففعل .

فداء الأسرى أو مفاداتهم :

وفداء الأسرى ومفاداتهم جائز بنص الآية (فَمَا مَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ) وبسنة رسول الله في معاملة الأسرى .

قال ابن قدامة (٤) « ولنا في جواز المن والفداء قوله تعالى : « فَمَا مَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ » وقد نادى رسول الله أسارى بدر وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا كل رجل منهم بربعمائة درهم وفادى رجلين برجلين . وكان قبول الفداء هو رأى أبى بكر رضى الله عنه ليقوى المسلمون بمال الفداء (٥) .

وجاء في سنن الترمذى عن عمران بن حصين : أن رسول الله فدى رجلين من المسلمين برجل من الكفار (٦) .

وورد عن سلمة بن الأكوع فيما أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه — أنه وهب للرسول امرأة من سبى فزاره ففدى بها ناسا من المسلمين كانوا أسروا بمكة (٧) .

وقال ابن جرير الطبرى : أجمع الفقهاء ، أن لإمام المسلمين أن يفدى أسرى المسلمين من العدو بالعروض من النبات وغيره ، غير السلاح والكراع (٨) .

قال الترمذى (٩) : والعمل على هذا (أى جواز الفداء) عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

- | | |
|---|---|
| ١ (قانون الحرب والحياد/٢٨٠ للدكتور سالى جينية والقانون الدولى العام / ٦٨١ أبو هيف ط ١٩٥٩ . | ٥ (تفسير القرطبى ٤٥/٨ . |
| ٢ (معالم السنن ٢٨٨/٢ وسنن ابى داود ٨٢/٢ وسيرة ابن هشام ١٠٤/٢ تحقيق الأبيارى والسقا . | ٦ (سنن الترمذى ١٣٥/٤ وسنن البيهقى ٣٢٠/٦ و ٦٧/٦ . |
| ٣ (سيرة ابن هشام ١٠٥/٢ تحقيق الأبيارى والسقا . | ٧ (شرح مسلم ٦٨/١٢ وسنن ابى داود ٨٦/٢ وسنن ابن ماجه ١٠١/٢ والمغنى ٣٧٦/٨ . |
| ٤ (المغنى ٢٠٤/٦ . | ٨ (اختلاف الفقهاء — شخت/ ١٨٩ . |
| | ٩ (جامع الترمذى ٣٨٦/٢ وشرح مسلم ٢٢٤/٦ وسنن البيهقى ٦٨/١٢ . |

وقال أبو عبيد (١) : وقد أفتى بالفداء غير واحد من العلماء .
وقد جعل النبي فداء بعض أسرى بدر ممن يعرفون الكتابة أن يُعلم عشرة
من صبيان المسلمين الكتابة (٢) .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة (٣) إما أن يمن القائد أو ولى الأمر من
المسلمين على الأسرى بالحرية إذا لم يكن فداء من مال أو نفس ، وإما أن يفدى
الأسرى بمال أو بأسرى مثلهم من المسلمين وهذا ما يسمى فى لغة العصر
(تبادل الأسرى) وأن ذلك النوع من الفداء أولى بالاتباع لأن فيه إطلاق الحرية
لثافتين كبيرتين من بنى الانسان مسلمين وغير مسلمين ، فان دين الحرية يقدر
الحرية فى غير اتباعه كما يقدرها فى اتباعه إذ أن الداعى إلى الحرية ، إذا
كان حرا لا يخص بها إقليما دون إقليم ، ولا جنسا دون جنس ، ولا دينا دون
دين ، لأن الحرية كالماء والغذاء والهواء حق طبيعى لكل انسان .

وهذا ما نص عليه القانون الدولى الحديث الذى قضى بتبادل الأسير مع
زميل له من جيش العدو ، ويحصل ذلك باتفاق خاص بين المتحاربين يطلق عليه
اسم (كارتل) وينص فيه على شروط هذا التبادل ويراعى فى التبادل عادة
التكافؤ جريح بجريح ، وجندى بجندى وضابط برتبة معينة بضابط من رتبة
تقابلها (٤) .

قتل الأسير :

قال الجصاص : اتفاق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير ، ولا نعلم
بينهم اختلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبي عليه الصلاة والسلام فى قتله
الأسير . منها قتله عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث يوم بدر ، وقتل
النبي ابا عزة الشاعر يوم أحد بعد أسره ، وقتل بنى قريظة بعد نزولهم على حكم
سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بالقتل وسبى الذرية ، ومن على الزبير بن باطا من
بينهم ، وفتح خيبر بعضها صلحا وبعضها عنوة ، وشرط على ابن أبى الحقيق
ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانتته وكتمانه قتله ، وفتح مكة وأمر بقتل هلال
ابن أخطل ، ومقيس بن صبايه ، وعبد الله بن سرح . وقال : اقتلوهم وإن
وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة . إلى أن قال : فهذه آثار متواترة عن النبي
وعن الصحابة فى جواز قتل الأسير وفى استبقائه واتفق فقهاء الأمصار على
ذلك (٥) وأدلة هؤلاء الفقهاء الذين قالوا بجواز قتل الأسير :

١ - أن آية (فإما منا بعد وإما فداء) منسوخة . والذى نسخها آية
السيف فى سورة براءة « فإذا انسلخ الأشرم الحرم فاقتلوا المشركين حيث
وجدتموهم » وهى آخر سورة نزلت بالتوقيف ، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا
من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجزية (٦) .

- | | |
|--|------------------------------------|
| ١ (الاموال / ١٢١) . | ٥ (تفسير الجصاص ٣ / ٢٩١) . |
| ٢ (صور من حياة الرسول / ٢٢٢) . | ٦ (سنن البيهقي ٦ / ٢٢٣ والقسطلانى |
| ٣ (تهديد السير الكبير / ٧٤) . | ٦ / ٣٧٨ والناسخ والمنسوخ فى القرآن |
| ٤ (قانون الحرب والسلام : للدكتور سامى | الكريم للنحاس ٢٢٠ والناسخ |
| جينية ٢٨٢/ والقانون الدولى العام | والمنسوخ/ ٢٨٩ لابن سلامة والاموال/ |
| ٦٦٧ أبو هيف . | ١٢٨ . |

وقالوا : لأن الأمن عن القتل إنما يثبت بالأمان أو الإيمان ، وبالأسر لا يثبت شيء من ذلك فسيبقى مباح الدم على ما كان قبل الأسر (١) .

الرد على القائلين بنسخ الآيتين :

قال النحاس : القول إن الآيتين محكمتان قول حسن ، لأن النسخ لا يكون إلا لشيء قاطع ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمن ، على ما فيه الصلاح للمسلمين . وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد (٢) .

وقال ابن كثير (٣) : ادعى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة والأكثرون ليست بمنسوخة .

وقال ابن جبير (٤) : والصواب من القول عندنا أن هذه الآية بحكمة غير منسوخة ، وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ غير متوفرة . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول وإلى القائمين من بعده بأمر الأمة ، وقد رأى هذا الرأي ابن عباس وابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعي والأوزاعي وأبي عبيد والقاسمي .

وقال القرطبي وهو الاختيار لأن النبي والخلفاء الراشدين فعلوا ذلك (٥) . وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان وهو الصحيح . لأن المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله فيهم من أول حرب حاربهم ، وهو يوم بدر (٦) .

وقال ابن قدامة (٧) : وقوله تعالى « اقتلوا المشركين » عام لا ينسخ به الخاص . والإمام في رأيه مخير في الأسرى تخيير مصلحة واجتهاد لا تخيير شهوة فمضى رأى خصلة أصلح تعينت عليه ولم يجز العدول عنها . فبعض الأسرى له قوة نكاية بالمسلمين ويقاؤه ضرر عليهم فقتله أصلح ، ومنهم الضعيف الذي له مال كثير ففداؤه أصلح . ومنهم حسن الرأي في المسلمين يرجى إسلامه بالمن عليه أو معونته للمسلمين بتخليص أسراهم والدفع عنهم فالمن عليه أصلح . ومنهم من ينتفع بخدمته ويؤمن شره فاسترقاقه أصلح كالنساء والصبيان والإمام اعلم بالمصلحة فينبغي أن يؤمن ذلك إليه .

أما الذي أكاد أجزم بصحته أن الآيتين محكمتان . وآية « فإما منا بعد وإما فداء » . هي الآية الوحيدة في القرآن التي نصت صراحة على حكم الأسرى في الإسلام . وهي ليست منسوخة لأن النسخ إنما يكون عند المعارضة في الحكم وما دامت هي الوحيدة فمن أين تأتي المعارضة . . أما آية براءة المذكورة التي زعموا أنها نسخت هذه الآية فهي ليست في حكم الأسرى وإنما هي في قتال المشركين وقتلهم حيث وجدوا ولا تفيد أبداً أن هذا يكون بعد أسرهم .

وفي رأبي أنه لا يجوز للإمام إلا « المن أو الفداء » ، أما القتل والاسترقاق فهو أقرب إلى التحريم منه إلى الإباحة ، لأن الآية أيضاً لم تمنع القتل وتحرمه تحريماً مطلقاً . وعلى هذا يمكننا القول أن المن والفداء ، هي القاعدة العامة وما عداها فهو شاذ يبيح عن سببه .

١ (السير الكبير ١٠٢٤/٣ تحقيق د. صلاح الدين النجد .
٢ (تفسير القرطبي ٢٢٨/١٦ .
٣ (تفسير ابن كثير ٧٢/٤ .
٤ (تفسير القرطبي ٧٢/٨ .
٥ (محاسن التأويل ٥٢٧٥/١٥ وتفسير القرطبي ٢٢٨/١٦ و ٧٢/٨ .
٦ (تفسير القرطبي ٧٢/٨ .
٧ (المغنى ٢٠٤/١٠ .

ويمكننا معرفة الأسباب التي دعت رسول الله إلى قتل بعض الأسرى . فلم يقتل من أسرى بدر السبعين إلا اثنين لقسوتهما وجرائمهما السابقة في حق المسلمين وفي حق رسول الله نفسه إذ كان كلاهما شيطانا من شياطين قريش ، ومن أشد المشركين إيذاء للنبي وصحبه الكرام ، وأظفهم تقولا على كتاب الله وصداً عن سبيله .

روى الشعبي (١) أنه لما أمر رسول الله بقتل عقبة قال : « انتقلني يا محمد من بين قريش ؟ قال : نعم ! أتدرون ما صنع هذا بي ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة ففسلته عن رأسي . وجاءه مرة وهو يصلي في حجر الكعبة فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي وقال : انتقلون رجلا أن يقول ربى الله فانزل الله في قوله : « انتقلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات » (٢) . . وقال : أبى بن خلف وكان صديقا لعقبة : « وجهي من وجهك حرام إن لم تأت محمدا فنتقل في وجهه ففعل عدو الله ذلك لعنه الله » (٣) .

فأنزل تعالى فيهما « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا » (٤) .

هذه هي بعض جرائم عقبة بن أبى معيط في حق رسول الله وحده ، وما فعله مع المسلمين أشد وأنكى ، أما النضر بن الحارث ، فكان إذا جلس رسول الله مجلسا ، فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن ، وحذر فيه قريشا ما أصاب الأمم الخالية خلفه في مجلسه إذ قام ، فحدثهم عن رستم واسفنديار ، وملوك فارس ثم يقول والله ما محمد بأحسن حديثا منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتبها كما اكتبها (٥) . فأنزل الله تعالى فيه « وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » . إلى قوله « إنه كان غفورا رحيما » (٦) . ونزل فيه أيضا « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » (٧) . ونزل فيه « ويل لكل أفكك أنتم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعباب اليم » (٨) .

وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وأمثالهما ليسا أسرى حرب وإنما هما وأمثالهما مجرمو حرب بلفة العصر الحديث (٩) . فالرسول لم يقتلها بسبب وقوعهما في الأسر ولكن لجرائم سابقة شهد عليها القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة .

ويقف غير واحد من المستشرقين عند قتل هذين المجرمين ويتساءل : اليس في ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدم ، على أن هذا التساؤل لم

- | | |
|---|---|
| ١ (صحيح البخارى ٥/٥٧ . | ٦ (الفرقان / ٥ ، ٦ . |
| ٢ (فانر / ٢٨ . | ٧ (العلم / ١٥ . |
| ٣ (صحيح البخارى ٥/٥٧ و ٥٨ والسيرة النبوية ، لطحان وسيرة ابن هشام ٢/٣٦١ وصور من حياة الرسول/٢٢٩ | ٨ (الجاثية / ٨ . |
| ٤ (الفرقان / ٢٧ - ٢٩ . | ٩ (الشريعة الاسلامية والقانون الدولي العام / ٢٩٤ ابو هيف ٦٥٠ و ٦٥١ ومجلة الرسالة عدد ٦٥٩ لسنة ١٩٤٦ |
| ٥ (سيرة ابن هشام ٢/٣٥٨ . | |

يلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازنا بين صنيع المسلمين ، وما يجرى اليوم وما سيجرى دائما ما دامت الحضارة الغربية التي تنتشع بوشاح المسيحية ، متحكمة فى الأرض ، فهل تراه يوازى شيئا إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها وهل تراه يوازى شيئا مما حدث فى أثناء الثورة الفرنسية الكبرى وفى الثورات التي وقعت وتقع فى أوروبا ، وليس من شك فى أن الأمر بين محمد وأصحابه كان ثورة قوية منذ بعثه الله ليقوم فى وجه الوثنية والمشركين من عابدها (١) .

أما حادثة بنى قريظة التي استشهد بها الجصاص وأصحاب المذهب الحنفى ، وهلل لها المستشرقون ورفعوا عقائرتهم صائحين ! المسلمون متعطشون لسفك دماء اليهود ومتعصبون .. الخ .

إننا نستطيع أن نردها إلى الأسباب التالية :

١ - إنهم ليسوا أسرى حرب ، وإنما كانوا من مواطنى الدولة ورعاياها الذين يدينون لها بالطاعة ويتمتعون بكل حقوق أهلها ، وقد أعطوا على أنفسهم عهدهم ومواثيقهم ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يعينوا عدوا ولا يقدموا يدا بأذى ، فغدروا وخانوا فى أخرج الظروف وطعنوا المسلمين من خلفهم بتأمرهم على الدولة مع أعدائها فى أثناء الحرب ، بانضمامهم إلى جيش الأحزاب ، وإعلانهم الحرب على المسلمين . وكادت خيانتهم تعصف بالمسلمين وتقضى عليهم جميعا لولا عناية الله وكرمه فهم من البغاة الخارجين على الدولة ومن أعتى المجرمين المفسدين الذين يسعون فى الأرض فسادا ليهلكوا الحرث والنسل وقد نص القرآن الكريم على عقوبة أمثالهم بقوله « إنما جزاء الذين يُحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض » (٢) .

٢ - إن الأمر فى شأنهم انتهى إلى تحكيم سعد بن معاذ وهم من مواليه فحكم عليهم بشريعتهم بعد أن سلموا على شرط ، فحكمه جاء موافقا لشريعة اليهود وحيث يحتكم الطرفان المتنازعان فالقول ما قضاه الحكم . ولقد قال رسول الله لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » (٣) .

٣ - كان حكم سعد جزاء وفاقا لجريمة الخيانة العظمى التي ارتكبوها والذي تعمل به كل الدول فى القديم والحديث (٤) .

٤ - إنه على فرض اعتبارهم أسرى حرب فقد نزل فى شأنهم حكم خاص دون الحكم العام فى شأن غيرهم من أسرى الحروب حيث أذن الله تنفيذ حكم سعد بن معاذ بقوله تعالى فى سورة الأحزاب « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا » (٥) . أى تقتلون الرجال وتأسرون النساء والذرية (٦) .

ولم يستنكروا ذلك ؟ أفلم يقرأوا ما جاء فى الأصحاح الثالث عشر من تشيئه الاشتهار فى العهد القديم « فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف

العام ٢٢٢ والرسالة الخالدة للاستاذ

١ (حياة محمد / ٢٧٢ و ٢٧٤ هيك .

عبد الرحمن عزام ١١١ ، ١١٢ والجهاد

٢ (المائدة / ٢٣ .

فى الإسلام للاستاذ محمد شديد / ١٤٨

٣ (البخارى ١٣٤/٥ وسيرة ابن هشام

٥ (الأحزاب / ٢٦ .

٧٢١/٢ تحقيق محبى الدين عبد الحميد

٦ (تفسير القرطبي ١٦١/١٤ .

٤ (الشريعة الاسلامية والقانون الدولى

وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف ، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب الهك فتكون تلا إلى الأبد لا تُبنى بعد (١) .

وما جاء في الاصحاح العشرين (فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالك بل عملت معك حربا فحاصرهما ، وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك . » (٢) .

ويظهر جليا من هذه النصوص أن سعد بن معاذ حليف اليهود في الجاهلية كان على علم بها فحكم فيهم بنص كتبهم بل أراه رحم النساء والذرية لأن شريعة اليهود تفرض حرق الجميع بالنار كما جاء في الاصحاح الثالث عشر .

أما مجرمو الحرب في مكة فكانوا خمسة عشر شخصا فيما تروى كتب السيرة أمر رسول الله بقتلهم ساعة دخل مكة ولم يكن قرار القتل لحقد منه أو غضب عليهم ، فهو لم يكن يعرف الحقد ، ولكن لجرائم كبيرة ارتكبوها فأحدهم عبد الله بن أبي السرح كان قد أسلم وكان يكتب الوحي للرسول فارتد مشركا إلى قريش زاعما أنه كان يزيف الوحي حين يكتبه . وهلال بن خطل كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتد مشركا وأمر جاريته أن تغنيها بهجاء رسول الله ومقيس ابن صباية ، وإنما أمر رسول الله بقتله ، لقتل الأنصاري الذي قتل أخاه خطأ ، ورجوعه إلى قريش مشركا (٣) .

ولما استقر الأمر وهذات الحال ورأى الناس من فسحة صدر رسول الله ومن عفوه الشامل ما راوه ، طمع بعض أصحابه أن يعفو عن هؤلاء الذين أمر بقتلهم فعفى عنهم جميعا ولم يقتل إلا هؤلاء الثلاثة عبد الله بن أبي سرح وهلال ابن خطل ومقيس بن صباية لجرائمهم الشنيعة من كفر وارتداد عن الاسلام وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وهجاء لرسول الله . فكل جريمة من جرائمهم تستحق القتل ولكن الواحد منهم قد جمع أكثر من جريمتين أو ثلاث فهم مجرمو حرب وليسوا أسرى حرب .

وبهذا نؤكد مرة أخرى أن قتل الأسرى أقرب إلى التحريم منه إلى الإباحة ، وإن أبيع فهو دواء ناجع في حالات فردية خاصة وللضرورة القصوى ، لحسم مادة الفساد إن خيف ألا تحسم بغير هذه الذريعة ، وليس ذلك علاجا لحالات جماعية (٤) .

وقد منع الشافعي رحمه الله وأبو يوسف قتل الأسرى إلا لأسباب معينة كالحاجة إلى إضعاف العدو وإغاظته أو ما تُليه المصلحة العامة العليا للمسلمين (٥) .

وبهذا يظهر جليا أن الاسلام بمنأى عما كان سائدا في القرون الوسطى من إعدام الأسرى وذبحهم (٦) . وما يفعله الأوروبيون في حروبهم الحديثة كما

٤٢٤ ، ٤٢٥ هـيل

١ (الاصحاح الثالث عشر ١٥ و ١٦)

٤ (آثار الحرب في الفقه الاسلامي / ٤٠ .

٢ (الاصحاح العشرين (المهد القديم)

٥ (الأم ١٧٦/٤ ، والخراج / ١٦٥ .

١٠ - ١٨ .

٦ (القانون الدولي العام - أبو هيف /

٢ (سيرة ابن هشام ٨٦٧/٤ ، ٨٦٦ تحقيق

٦٧٨ .

محيي الدين عبد الحميد ، وحياة محمد

صنع نابليون بوناپرت معلن حقوق الإنسان في الثورة الفرنسية — في عكا سنة ١٧٩٩ م ، فإنه أباد ما يزيد على أربعة آلاف بعد تسليمهم عن بكرة أبيهم (١) . ولعل هذا وما سبق أن ذكرته في الفصول السابقة عن معاملة الصليبيين للمسلمين وحروب الإبادة الأسرى المسلمين في الأندلس يبطل ما يهذى به المستشرقون والمستغربون من أن المسلمين كانوا يعاملون الأسرى معاملة ليست أقل قسوة من سابقهم (٢) .

استرقاق الأسرى :

كان الرق أمرا مشروعاً عند الأمم القديمة من مصريين وبابليين وبراهمة وفرنس ويونان ورومان وعرب ، وقد أقرته اليهودية واعترفت به المسيحية (٣) . وقد قسم فلاسفة اليونان الجنس البشري إلى قسمين حر بالطبع ، ورقيق بالطبع . وقالوا : إن الثاني ما خلق إلا لخدمة الأول . وجعل أرسطو الرق نظاماً ضرورياً ، ومن الضروري إتخاذ الأرقاء للقيام بأعمال الدولة التي تستدعي مجهوداً جسمانياً (٤) . والفيلسوف أفلاطون اعتبر نظام الاسترقاق نظاماً ملازماً للجمهورية الفاضلة أو للحكومة الإنسانية في مثلها الأعلى ، وحرّم على الرقيق حقوق المواطنة والمساواة (٥) .

وكان أول من استعبد الأسرى وسخر الشعوب المغلوبة هم الرومان وكانت وجوه الاسترقاق عندهم متعددة (٦) .

« فهو نتيجة الأسر أو السبي أو الميلاد أو الدين أو الفرار من الجيش » (٧) أما اليهود فقد وجد عندهم نوعان من الاسترقاق : أحدهما استرقاق بعض أفرادهم لارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعاً أو في دين عليه . والنوع الآخر : استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصبهم شيء من عسف اليهود وحروبهم التي كانوا يقيمونها من غير مسوغ فكانوا يبيعونهم كما يبيعون المتاع ، سواء في ذلك العبيد المستخدمون في المنازل وعبيد الحقول والمزارع ، فإنهم كانوا يقضون حياتهم محقرين مسخرين . وكانت حياتهم طائفة بالمتاعب والشدائد ، إذ كانوا يكابدون الأعمال الشاقة بصفة دائمة في خدمة سادة لا يعرفون الرحمة (٨) .

ثم جاءت المسيحية فأقرت الرق ، ولم تعمل على إلغائه أو تقليده . بل كانت الكنيسة ذاتها تملك الأرقاء وتعترف صراحة بشرعية هذا النظام الجالب للشقاء . وأيد كبار المدنيين الأوربيين الرق بتأثير الكنيسة ،

- | | |
|--|--|
| ١ (الملاحظات السياسية الدولية / ٤٩ | ٥ (الفلسفة القرآنية / ٧٦ للمقاد وروح الاسلام / ١٤٠ - ١٥٢ للسيد أمير على للمعري . |
| ٢ (الحرب في الاسلام / ١٢٧ مجيد خدوري | ٦ (القاتون الدولي / ٥١ أبو هيف والقاتون الروماني بدر بدرأوى / ١٧٤ . |
| ٣ (الرق في الاسلام / ٩-٢٧ أحمد شفيق والوحي المصدي / ٢٤٢ والفضارة الاسلامية / ١/ ٢٧٧ لادم منز ترجمة الدكتور أبو ريده ونجر الاسلام / ٨٧ . | ٧ (النظم الاسلامية / ٣٥٩ د. حسن ابراهيم حسن . |
| ٤ (النظم الاسلامية / ٣٥٩ د. حسن ابراهيم حسن . | ٨ (سفر اللاويين / ٢٥ ، ٤٤ ، ٤٥ والنظم الاسلامية / ٣٦٠ وروح الاسلام / ١٤١ سيد أمير على . |

وأصروا على فائدته ونفعه باعتباره وسيلة لمنع التسول والسرقة ، وبتأثير الكنيسة أيضا اقدم المسيحيون ذوو الثقافة العالية فى الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية على معاملة عبيدهم التعساء بأقصى ضروب القسوة ، وأسألوا الدماء أنهارا للبقاء على هذه الآفة الاجتماعية بين ظهرانيهم (١) . ولا يختلف نظام الرقيق عند العرب فى الجاهلية عنه فى الأمم الأخرى ، فقد كان الرق فى الجاهلية نتيجة الأسر فى الحروب والشراء ، وكانت تجارة الرقيق من أهم موارد الثروة عند القرشيين فى الجاهلية (٢) .

وجاء الإسلام والحالة هذه عند الأمم المجاورة فلم يتمكن من إلغاء الرقيق فى العالم حتى لا تصطدم دعوته مع مألوف الناس ، ولئلا تضطرب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ولكن الإسلام الذى يُقدر معنى الحرية ولذتها ويعتبر الأصل فى الإنسان هو الحرية إلا أنه من خصائص تشريعه التدرج فى الأحكام فلم يمح الرق دفعة واحدة ومضى فى التدرج بالمسلمين مهيناً أسبابا للقضاء على الرق ، وحرّم سائر مصادره ما عدا رِق الأسر بسبب الحرب العادلة لدفع العدوان (٣) ، وعلى أساس المعاملة بالمثل وكانت سياسة التدرج أفضل فى تهيئة الضمير البشرى للقضاء على الرق من المفاجأة بالتحريم البات (٤) .

وقد عمد الإسلام إلى تجفيف منابع الرق ، ولم يرد نص واحد فى القرآن ولا فى السنة يسمح بالرق . والنص القرآنى الوحيد المتضمن حكم الأسرى (فإما منا بعد وإما فداء) لم يسمح بالاسترقاق وهو أقرب إلى المنع منه إلى الإباحة ومن نافذة القول أن رسول الله لم ينشئ فى حياته رقاً على أحد ، وقد كانت أفعاله كلها تتجه إلى استنكاره ، وكان يبحث على العتق بالنسبة لمن جرى عليهم الرق من قبل . وكذلك كان الثبان فى القرآن ، فما عُرِف فيه جواز الرق إلا من الأمر بالعتق (٥) . فقد جعل القرآن الكريم مصير الأسير إلى المن أو الفداء ، وجعل العتق كفارة عن كثير من الجرائم والذنوب (٦) وخصص الإسلام سهما لتحرير الرقاب ، فضلا عن أنه جعل من أسس النجاة فى الآخرة والتقرب إلى الله والفوز برضاه فك رقبة (٧) .

وقد تعددت المنافذ والسبل إلى التخلص من الرق فى الإسلام ، فقد أباح الشرع للعبد أن يشتري حريته بأجر خدمته ، وإذا لم يكن لديه المال الذى كوتب عليه ، سمح له بالاستئغال وكسبه عن طريق آخر ، ومساعدته من بيت مال المسلمين ، وإذا صدر من السيد أدنى وعد بتحريره ولو هازلا وجبت له الحرية . وجعل الشرع ضرب الرقيق بغير تأديب محتمل كفارته العتق (٨) . ومن كل هذا يتضح بجلاء أن الشرع كان يعد الرق أمرا مؤقتا ،

- | | |
|---|---|
| ١ (روح الإسلام / ١٤٤ سيد أمير على . | ١ (روح الإسلام / ١٤٤ سيد أمير على . |
| ٢ (النظم الإسلامية / ٣٦٠ د. حسن إبراهيم حسن . | ٢ (النظم الإسلامية / ٣٦٠ د. حسن إبراهيم حسن . |
| ٣ (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى / ٤٤٢ والإسلام دين الفطرة / عبد الميزيز جاويش / ٧٩ . | ٣ (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى / ٤٤٢ والإسلام دين الفطرة / عبد الميزيز جاويش / ٧٩ . |
| ٤ (الرسالة الخالدة / ٨٧ ومحمد المثل الكامل - محمد أحمد خالد المولى / ٢٠٧ | ٤ (الرسالة الخالدة / ٨٧ ومحمد المثل الكامل - محمد أحمد خالد المولى / ٢٠٧ |
| ٥ (نظرية الحرب فى السلام / ٦٥ للشیخ محمد أبو زهرة . | ٥ (نظرية الحرب فى السلام / ٦٥ للشیخ محمد أبو زهرة . |
| ٦ (تاريخ الفقه الإسلامى / ٤٣ د. محمد سلام محكور . | ٦ (تاريخ الفقه الإسلامى / ٤٣ د. محمد سلام محكور . |
| ٧ (تفسير الرازى / ١٠ / ٤٣٣ . | ٧ (تفسير الرازى / ١٠ / ٤٣٣ . |
| ٨ (العقيدة الإسلامية والقانون الدولى العام / ٣٣٠ . | ٨ (العقيدة الإسلامية والقانون الدولى العام / ٣٣٠ . |

وان استمرار العمل بأحكام الشريعة كفيل بالقضاء النهائى عليه ، لأن القرآن لم يقر إلا رق الحرب الشرعية على أساس مبدأ المعاملة بالمثل .
 ففى عصر الصحابة رضوان الله عليهم أشد الالتحام بين المسلمين والمجوس فى الشرق والمسلمين والروم فى الغرب ، وكان استرقاق الأسرى نظاما متبعا فى حروبهم كما ذكرت ، وقد أسروا فعلا من المسلمين واسترقوهم وباعوهم ، فاضطر قواد المسلمين إلى السير على سنة المعاملة بالمثل ولم يكن من المعقول أن يسترق أعداؤهم أسرى المسلمين ويمن المسلمون على الأسرى منهم فان ذلك يدفع إلى كلب الأعداء فيهم واستمراء أفعالهم ولم يجد قواد المسلمين نصا قويا يمنع الاسترقاق ولا نصا ينهى عنه ووجدوا قانون المعاملة بالمثل (١) .

يوجب ذلك فى قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٢) . وقوله : « والحرمات قصاص » . « ولئن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » (٣) . « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٤) .
 وبتطبيق هذا القانون العادل يكون على المجاهدين أن يسترقوا كما يسترق أعداؤهم والإثم فى الحالين واقع على المعتدى « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة مثلها وترهقهم ذلة » (٥) .

وعليه فالاسلام ينادى بالفداء الرق فى العالم اليوم ويؤيد كل من يرفع صوته بهذا النداء لأن ذلك يتفق مع روح الاسلام السمحة الرحيمة التى تدعو إلى تحرير العبيد وعتق الأنفس .

وهذا ما نصت عليه القاعدة الإيجابية الوحيدة (فإما منا بعد وإما فداء) لانقضاء سبب الاسترقاق .

ولعلنا بهذا نبطل ما يهذى به المستشرقون من وصم المسلمين بالهمجية والقسوة والاتجار بالرقيق كما يزعم الكردينال لافيبرى وغيره (٦) .

ثانيا : الأنفال :

اختلف الفقهاء اختلافا بينا حول مدلول الغنائم ، ومدلول الأنفال ، هل هما شئ واحد ، أم شيان مختلفان ؟

قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم ، واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » (٧) .

ويمكننا إذا تتبعنا الروايات الكثيرة فى أسباب نزول هذه الآية الوحيدة فى حكم الأنفال فى القرآن الكريم الخروج بحكم صحيح لفهوم (الأنفال) .

الرواية الأولى : قال عبادة بن الصامت : فىنا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساعت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله فقسمه بين المسلمين عن بواء . خرجنا مع رسول الله فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله العدو فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون

- | | |
|---|---|
| ٤ (الشورى / ٤٠ . | ١ (العقيدة الاسلامية والقانون الدولى |
| ٥ (يونس / ٢٧ . | العام / ٣٣٣ ونظرية الحرب / ٦٥ |
| ٦ (الرق فى الاسلام / ٦٦ وما بعدها أحد شفيق . | للشيخ محمد ابو زهرة وآثار الحرب فى الفقه الاسلامى / ٤٤٥ . |
| ٧ (الانفال / ١ . | ٢ (البقرة / ١٩٤ . |
| | ٣ (النحل / ١٢٦ . |

وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل ونساء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فنزلت .

والرواية الثانية : عن ابن عباس : قال رسول الله « من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ومن أتى بأسير فله كذا وكذا » فجاء أبو اليسر بأسيرين فقال : يا رسول الله أنت وعدتنا فقام سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله . إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وإنه لم يمنعنا من هذا لا زهادة في الأجر ، ولا جبن عن العدو وإنما تمنا هذا المقام محافظة عليك أن يأتوك من ورائك ، ففتشاجروا فنزلت .

الرواية الثالثة : عن مجاهد : انهم سألوا رسول الله عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت .

وقال ابن مسعود ومسروق : (لانفل يوم الزحف إنما النفل قبل التقاء الصفوف) .

الرواية الرابعة : وقال ابن المبارك : يسألونك فيما شئد من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي عليه الصلاة والسلام يصنع به ما يشاء .

الرواية الخامسة : إنها الزيادة على القسم . ويشهد بذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال عن سعد بن أبي وقاص : قال لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأتيت به النبي فقال : اذهب واطرحه في القبض قال : فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى ، فما جاوزت إلا قريباً حتى نزلت فقال رسول الله اذهب فخذ سلبك) وفى رواية لما سأل سعد رسول الله السيف قال الرسول : ليس هذا لى ولا لك فلما نزلت هذه الآية قال : يا سعد إنك سألتنى السيف وليس لى وأنه قد صار لى فاذهب فخذ (١) .

ويعقب الطبرى على هذه الأقوال فيقول : وأولى هذه الأقوال بالصواب أن يقال إن الله تعالى أخبر فى هذه الآية عن قوم سألوا رسول الله الأنفال أن يعطيهموها فأخبرهم الله أنها لله ، وأنه جعله لرسوله .

ثم يقول أيضا « وإذا كان ذلك معناه ، جاز أن يكون نزولها كان من أجل اختلاف أصحاب رسول الله فيها ، وجائز أن يكون كان من أجل مسألة من سأله السيف الذى ذكرنا عن سعد سألته إياه ، وجائز أن يكون من أجل مسألة من سألته قسم ذلك بين الجيش (٢) . ويرجع ابن جرير أنها زيادات يزيد بها الإمام بعض الجيش أو جميعهم ، إما من سهمه على حقوقهم من القسمة ، وإما بما وصل إليه بالنفل أو ببعض أسبابه ترغيباً له وتحريضاً لمن معه من جيشه على

الزمخشري ١٤٠/٢ - ١٤٢ وتفسير

١ (أسباب النزول للواحدى ١٥٥ وتفسير

الطبرى ٣٦٥/١٢ وامتاع الاسماع ٩٥

ابن كثير ٢٨٢/٢ - ٢٨٢ وتفسير

٢ (تفسير الطبرى ٣٧٩/١٣ .

القرطبي ٣٦٠/٧ - ٣٦٤ وتفسير

ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين (١) .
والذى أراه أن الأتفال غير الغنائم وليست الفىء إنما هى زيادات يشترطها القائد لجنوده تشجيعا لهم وإغراء على قتال العدو . وهذا ما نستنتجه من روايات أسباب النزول السابقة فالنفل فى كل شىء الزيادة على الواجب ، ويقال له النافلة .

قال تعالى : « ومن الليل فتجد به نافلة لك » (٢) وقوله تعالى : « ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة » (٣) . وهو ولد الولد . ويقال نفلته كذا أى اعطيته نفلا ، وNFLه السلطان أعطاه سلب قتيله نفلا أى تقضلا وتبرعا » (٤) .

وفى إسناد صحيح عن ابن عباس أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل وقال ابن عباس أيضا : (الفرس من النفل والسلب من النفل) . وقال ابو عبيد : سُمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشىء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية فى العدو (٥) .

وقال الزمخشري (٦) : والنفل ما ينفله الغازى أى يُعطاه زائدا على سهمه من المغنم ، وهو أن يقول الإمام تحريضا على البلاء فى الحرب : من قتل قتيلا فله سلبه ، أو قال لسرية : ما أصبتم فلكم نصفه أو ربعه ، ولا يُخمس النفل ويلزم الإمام الوفاء به) .

وقال صاحب السير الكبير « المراد من استعمال لفظ الأتفال فى عبارة الفقهاء ما يخص به الإمام بعض الغانمين ، فلذلك الفعل يسمى تنفيلا ، ولا خلاف أن التنفيل جائز قبل الإصابة ، للتحريض على القتال . فان الإمام مأمور بالتحريض قال تعالى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » (٧) فهذا خطاب للرسول ولكل من قام مقامه . والتحريض بالتنفيل واجب فان الشعجان قل ما يخاطرون بأنفسهم إذا لم يخصوا بشىء من المصاب (٨) .

وصورة التنفيل أن يقول : من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أخذ أسيرا فهو له ، كما أمر به رسول الله المنادى حين نادى يوم بدر وحنين ، ولم ينقل أنه قال هذا إلا بعد الحاجة إلى التحريض ، وروى عن أنس بن مالك أن رسول الله قال يوم حنين : من قتل كافرا فله سلبه فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين وأخذ أسلابهم » (٩) .

قال ابن جرير : « وللائمة أن يتأسوا برسول الله فى مغازيهم بفعله فينفلوا على ما كان ينفل إذا كان التنفيل صلاحا للمسلمين » (١٠) .
وعلى هذا يكون معنى آية الأتفال (يسألونك عن الأتفال) أى يسألك

- | | |
|---|--|
| ١ (المرجع السابق ٣٦٥/١٣ . | ٦ (الكشاف ١٤٠/٢ . |
| ٢ (الإسرائ / ٧٩ . | ٧ (الأتفال / ٦٥ . |
| ٣ (الأنبياء / ٧٢ . | ٨ (السير الكبير ٥٩٤/٢ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . |
| ٤ (المفردات فى غريب القرآن / ٥٠٢ | ٩ (المرجع السابق والمحل ل ابن حزم |
| للراغب الاصفهاني وتفسير القرطبي | ١٠ (تفسير القرطبي ٣٩٢/٧ وتفسير القرطبي ٣٦٣/٨ . |
| ٥ (تفسير الطبرى ٣٦٥/١٣ وتفسير ابن كثير ٢٨٢/٢ - ٢٨٤ . | ١٠ (تفسير الطبرى ٣٨٢/٣ . |

الشبان ما شرطت لهم من الأنفال ولذا قرأ ابن مسعود : يسألونك الأنفال (١) أي يطلبون أن تعطيتهم منها فتكون (عن) بمعنى (من) (٢) .
وهؤلاء الشبان هم الذين قال لهم الرسول من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا ، ولهذا سأل سعد بن أبي وقاص ما شرط له الرسول من سلب القتيل وهو السيف الذي قيل إن الآية نزلت به ، وهو ما أرجحه من الحوار الذي دار بين رسول الله وسعد — فليها رفض رسول الله إعطاء سعد كانت عبارة سعد التي قالها في نفسه تشعير أن السيف من حقه (فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبي) .
وهو متسق مع الرواية الثانية ومقالة سعد بن عباد (لو أعطيت هؤلاء لما أبقيت لأصحابك شيئاً) .

وقد نجد في روايات النزول تفسيراً لحرص أهل بدر على الأنفال حتى ساءت فيها أخلاقهم كما يقول عباد بن الصامت . فقد بينت الروايات أنها كانت مرتبطة بحسن البلاء في المعركة وكان الناس يومئذ حريصين على هذه الشهادة في أول وقعة تشفى فيها صدورهم من أعدائهم . وكان الواحد منهم يفتخر قائلاً أنا قتلت فلاناً ، وأسرت فلاناً . ويقول الآخر أنا فعلت كذا وكذا ولذا خاطبهم الله تعالى في نفس السورة « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » (٣) .

ولقد غطى حرصهم على تسجيل هذه المفاخر على الساحة فيما بينهم من التعامل الأخوى الذي دأبوا عليه — اليسوا هم من خيرة المهاجرين الأولين الذين باعوا دنياهم بأخرتهم ، ومن السابقين الأولين من الأنصار الذين آووا ونصروا وآثروا المهاجرين على انفسهم ولو كان بهم خصاصة . إن هذه الظاهرة العجيبة ليس لها من تفسير عندي غير ما قلت ولا أصدق حرصهم وتكالبهم على متاع الدنيا الرخيص أبداً .

وحرصاً على رابطة الأخوة الإسلامية بينهم أن تُخدش ، وأن تتعرض للضعف نزع الله الأنفال من أيديهم وردها كلها إلى الله ورسوله (قل الأنفال لله والرسول) فقسما رسول الله بينهم على سواء حتى تعود إليهم أخوتهم وتآلفهم ويذهب الله عنهم تلك المفاخر التي تسبب النزاع والشقاق . وأحب أن أذكر هنا أن الأنفال لو كانت هي الغنائم لما قسمها رسول الله بينهم على السوية لأن حكم توزيع الغنائم سيأتي تفصيله في السورة نفسها ولا يستطيع رسول الله نفسه أن يبدل كلام الله ولا يجوز أن يخطر ببال أحد من الصحابة أن يأخذ الرسول شيئاً ليس له .

ثم قال تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) وهذا خطاب إلى الشبان الذين اشترط لهم رسول الله الأنفال فلما حصل النزاع وقسمها الرسول بالتساوي ربما حدث بعض الشيء لبعض النفوس فأمرهم الله بتطبيب خاطر إخوانهم حتى تدوم محبتهم وصفاء نفوسهم .

٣ (الأنفال / ١٧)

١ (الكشاف / ١٤١/٢)

٢ (تفسير سورتي الأنفال والنجم / ١١٠ د .

على الجندی .

وقد تنبه الزمخشري (١) إلى هذا المعنى فقال (والمراد الذي اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يُواسى المُقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات فيقاسوهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا ذلك لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافى (فاتقوا الله) في الاختلاف والتخاصم وكونوا متآخين في الله (واصلحوا ذلك بينكم) وتأسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم . وعن عطاء : كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال : اقسوا غنائمكم بالعدل ، فقالوا قد أكلنا وانفقنا ، فنقال : ليرد بعضكم على بعض .

وقد جعل التنوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها (إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم كاملى الإيمان .

الفنائم :

ومفهوم الغنيمة عند الفقهاء : هى كل ما أُخذ من العدو عنوة بطريق القهر والغلبة (٢) وقال الشافعى (٣) رحمه الله (وما أُخذ من مشرك بوجه من الوجوه فهو على وجبين لا يخرج منهما الغنيمة وهى : الموجف عليها بالخيال والركاب ولن حضر من غنى وفقير والفاء وهو : ما لم يُوجف عليه بخيل ولا ركاب) .
والتحقيق أن الغنيمة بالشرع ما أخذه المسلمون من المنقولات فى حرب الكفار عنوة . والأرض لا تدخل فى الفنائم المأمور بقسمتها بل الفنائم هى الحيوان والمنقول ، لأن الله لم يجل الفنائم لأمة غير هذه الأمة ، وهذه هى التى تُخمس لله وللرسول والباقي للفانمين بينهم (٤) .
وتعريف ابن القيم هذا يوافق تعريف فقهاء القانون الدولى للغنيمة ويخالف فقهاء المسلمين .

فهى عند الأولين : كل ما يوجد مع جيش العدو أو فى ميدان القتال من مهمات حربية كالخيول والبنادق والأسلحة والمدافع ونحوها (٥) . وعند الآخرين : تشمل الأسرى والسبى والأرضين والأموال (٦) .
وقال الماوردى : وأما الأموال المنقولة : فهى الفنائم المألوفة (٧) .
وهذا ما فعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يقسم الأرض بل تركها (٨) فيئا للمسلمين عامة .

وقد وضع الله تعالى تشريعا محكما فى توزيع الفنائم التى تنشأ من النصر فى القتال (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى

- | | |
|--|---|
| ١ (الكشاف ١٤١/٢ . | ٥ (قانون الحرب والحياد / ٢٨٩ د . سامى جينيه . |
| ٢ (تفسير الطبرى ٥٤٦/١٣ تفسير القرطبى ١/٨ - ٢ والخازن ٢٧/٣ والنار ٢/١٠ وآثار الحرب فى الفقه الاسلامى / ٥٥٢ وابن كثير ٢١٠/٢ . | ٦ (الأحكام السلطانية للماوردى / ١٢٦ . |
| ٣ (الأم ٦٤/٤ والمراجع السابقة وانظر للعبة الدمشقية ٤٠١/٢ . | ٧ (المرجع السابق / ١٢٤ . |
| ٤ (زاد المعاد ٦٩/٢ لابن القيم . | ٨ (الأموال / ٥٨ والجزية والاسلام دانييل دينيت / ٥٢ وكشف الغمة عن جميع الامة للشعرانى . ١٦٢/٢ |

واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير (١) .

يبين الله تعالى تفصيل ما شرعه لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم (واعلموا أنها غنمتم من شيء) توكيد لتخمين كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيطة (٢) (فإن لله خمسه) فلا بد من ثبات الخمس فيه لله ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (ما لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم) . فكان يوزعه على مستحقه الذين ذكرتهم الآية .

وأما هذا التعقيب من الله على هذا التشريع الحكيم (إن كنتم آمنتم بالله) يعنى إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطعامكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة وليس المراد بالعلم المجرد ولكنه العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله (٤) .

فالله سبحانه يعلق الاعتراف لأهل بدر بالإيمان ، على قبولهم لما شرع لهم ، فى أمر الغنائم ، لأن الإيمان بالله يقتضى اليقين والإذعان ، فمن شأن المؤمنين أن يثقوا بالله ، ويعتقدوا فى قرارة نفوسهم أن ما يأمرهم به الله ، ويشرعه لهم ، إنما هو لمصلحتهم وخيرهم فى الدنيا والآخرة ولقد كان فى تأييد الله ونصره لهم يوم غزوة بدر التى بدأت وانتهت بتدبير الله وقيادته الدليل على حب الله لهم وإن أوامره كانت لمصلحتهم ، فيجب أن يكونوا أعمق إيماناً وأرسخ يقيناً بالله ووعده وأشد قبولاً لأحكامه ، وأسرع تنفيذاً لأوامره عن رضى وثقة لأن فيها خيرهم وسعادتهم . وعلى هذا تكون آية (يسألونك عن الأنفال) تشريعاً فى حكم الأنفال وقوله (واعلموا أنها غنمتم . . .) تشريع للغنيمة وقسمتها . ولا ناسخ ولا منسوخ بين الآيتين كما قال أبو عبيد (٥) قوله تعالى (فإن لله خمسه) ناسخ لقوله عز وجل فى أول السورة (قل الأنفال لله وللرسول) . .

الفىء :

والفء فى اللغة مأخوذ من فاء يفىء إذا رجع . قال تعالى (حتى تفىء إلى أمر الله) (٦) أى حتى ترجع إلى الحق (٧) . قال الراغب : الفىء والفىئة الرجوع إلى حالة محمودة (فإن فاءت) وقال (فإن فاعوا) ومنه فاء الظل ، والفىء لا يُقال إلا للراجع منه قال : (تفيئوا ظلالة) وقيل للغنيمة التى لا يلحق بها مشقة فىء ، وقال (ما أفاء الله على رسوله — مما أفاء الله عليك) قال بعضهم : سُمى ذلك بالفىء الذى هو الظل تنبيهاً إلى أن أشراف الدنيا يجرى مجرى ظل زائل (٨) . ويُراد بالفىء عند الفقهاء (٩) كل ما وصل من الحربيين من الغنائم

- | | |
|---------------------------------------|--|
| ١ (الأنفال / ٤١ . | ٨ (المفردات / ٢٨٩ . |
| ٢ (تفسير ابن كثير ٢ / ٣١٠ . | ٩ (الأحكام / ١١١ للماوردى والمبسوط ١٠ . |
| ٣ (الكشاف / ١٥٨/٢ . | للسرخى والشرح الكبير ١٠/٥٤٠ ، |
| ٤ (المرجع السابق ٢ / ١٥٩ . | وتفسير القرطبي ١/٨ وتفسير ابن كثير |
| ٥ (تفسير القرطبي ٦/٨ . | ٢/٣١٠ وتفسير الزمخشري ٤/٨٢ ، |
| ٦ (الحجرات / ٩ . | والخراج ٢٢/٢٢ لآبى يوسف ، وغاية |
| ٧ (تفسير القرطبي ٢/٨ والمصباح المنير | الإرشاد إلى أحكام الجهاد/ ١٤٨ . |
| مادة (فاء) . | |

المنقولة والثابتة من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كمال الهدنة والجزية والخراج .

وقال الفزاري (١) : (إن مال الفئء وغنيمة شيء واحد عند كثير من أهل العلم قديما وحديثا ، وأختاره أيضا) .

وهذه التفرقة الاصطلاحية مبنية على آيات سورة الحشر التي نزلت فيما شرعه الله للمسلمين في أموال بني النضير (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسوله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى غلله وللرسول ولذی القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب (٢) .

فقوله تعالى : (وما أفاء الله على رسوله فما أوجفتم عليه بخيل ولا ركاب) أي لم تقطعوا إليه شقة ولا لقيتم به حربا ومشقة وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . قال الفراء : مشوا إليه مشيا ولم يركبوا خيلا ولا إبلا ، فافتتحها رسول الله صلحا واجلاهم وأخذ أموالهم فسأل المسلمون النبي أن يقسم لهم فنزلت . فجعلها الله للنبي خاصة يضعها كيف يشاء (٣) . أي أنها لا تقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهرا ، وقد بين لرسوله ما يصنع بها أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوما على الأقسام الخمسة (٤) .

فقسمها النبي بين المهاجرين دون الأنصار كما قال الواقدي : ولم يُعط الأنصار منها شيئا إلا ثلاثة نفر محتاجين ، منهم أبو دجانة وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمة وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيئا من الغنيمة . فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نُشاركهم فيها (٥) .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله خالصة ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وما بقى جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل (٦) .

وقد اختلف الفقهاء حول قسمة الفئء اختلافا واضحا كما اختلفوا في قسمة خمس الغنيمة والأمر عند مالك فيها إلى الإمام ، فان رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فعل وإن رأى قسمتها أو قسمة أحدهما قسمه كله بين الناس ، وسوى فيه بين عربيهم ومولاهم . ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى ينفوا ، ويعطى ذوى القربى من رسول الله من الفئء سهمهم على ما يراه الإمام ، وليس له حد معلوم . واختلف في إعطاء الغنى منهم ، فأكثر الناس على إعطائه لأنه حق لهم . وقال مالك : لا يُعطى منه غير فقرائهم ، لأنه جعل لهم عوضا عن الصدقة .

١ (مسألة الغنائم ٨/ للإمام تاج الدين (تفسير الزمخشري ٨٢/٤ .

الفزاري المتوفى سنة ٦٩٠ هـ . (الكشاف ٨٤/٤ .

٢ (الحشر / ٧ - ٦ . (تفسير ابن كثير ٢٢٥/٤ .

٣ (تفسير القرطبي ١٠/١٨ - ١٣ .

ومذهب الشافعى رحمه الله : أن سبيل خمس الفىء سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كان للنبي عليه الصلاة والسلام ، وهى بعده لمصالح المسلمين . أو للمصدين أنفسهم للقتال بعده خاصة . والاختلاف فى ذلك كثير مؤذن جميعه بأن حكم الفىء والغنيمة راجع إلى رأى الإمام يفعل ما يراه مصلحة ويعتقده قربة (١) وهذا ما أرجحه .

أما قوله تعالى : (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) هنا يبين الله تعالى حكمة تخصيص الفىء للمصارف المذكورة فى آية الغنائم دون أن يكون للمحاربين والأغنياء حق فيه . (كى لا يكون دولة . . .) أى جعلنا هذه المصارف لمال الفىء كى لا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ولا يصرفون منها شيئاً للفقراء (٢) كأن الله تعالى يقول : فعلنا ذلك فى الفىء كى لا يستأثر به الرؤساء والأغنياء والأقوياء يقسمونه بينهم دون الفقراء والضعفاء ، كى لا يكون دولة جاهلية بينهم حيث كان الرؤساء يستأثرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة وكانوا يقولون من عز بز . ومنه قول الحسن اتخذوا عباد الله حولا ومال الله دولا يريد من غلب منهم أخذه واستأثر به (٣) .

فليس من الضرورة توزيع شىء منه على الأغنياء الذين لم يتكلفوا شيئاً فى حيازته ليزيدوا ثروتهم بثروة أخرى بدون جهد وتكون الثروة محصورة التداول فى أيديهم ، فى حين أن هناك فقراء هاجروا فى سبيل الله وفقدوا أموالهم وفقراء أووا المهاجرين وآثروهم على أنفسهم مع ما بهم من خصاصة ورقة حال — وهم الانصار — وفقراء آخرون ممن انضموا إلى المسلمين واتبعوهم باحسان (٤) .

أما حكمة تخصيص أربعة أخماس الغنيمة للمحاربين فيرجع إلى ظروف البيئة النبوية حيث كان المحاربون يتجهزون ويتزودون ويدبرون وسائل ركائبهم وركائب غيرهم وسلاحهم على نفقتهم الخاصة . فأعطاهم الله هذه الغنيمة منحة لتقويتهم على جهاد عدوهم . وهكذا ، يتضح لنا الفروق الدقيقة بين الانفال والغنائم والفىء ، وأنها ليست شيئاً واحداً كما ذهب بعض الفقهاء ، وليست الغنيمة هى الانفال وليست الانفال هى الفىء (٥) .

وعليه فلا ناسخ ولا منسوخ بين أحكام هذه الآيات لأنها لا تعارض بينها أصلاً . لأن كل مسألة من هذه المسائل الثلاث وردت فيها آية واحدة تبين حكمها فمن أين يتأتى التعارض والاختلاف ؟ . فقد قال قتادة أن قوله تعالى : (واعلموا انما غنمتم من شىء) ناسخ لآية الفىء (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) وهذا الذى قاله بعيد لان هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر وتلك (وما أفاء . .) نزلت فى بنى النضير ولا خلاف بين علماء السير والمغازى قاطبة أن بنى النضير بعد بدر . . وآية الانفال نزلت فى بيان الغنيمة وآية الحشر فى بيان الفىء . فكيف تنسخ آية فى الغنيمة آية فى الفىء ؟

سورة الانفال/١٤ وقال بعضهم ان الفىء والغنيمة شىء واحد (الفزارى وابو عبيد) انظر مسألة الغنائم ، وكتاب الاموال) وقال بعضهم الانفال هى الفىء (آثار الحرب فى الفقه الاسلامى / ٥٤٩ وقاله عطاء ورياح ، انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٨٢ .

١ (مسألة الغنائم/٢ للامام تاج الدين الفزارى .

٢ (المرجع السابق / ٣ .

٣ (تفسير القرطبي ١٦/١٨ والكشاف ٨٢/٤

٤ (الدستور القرآنى ١/٢٤٠ دروزة .

٥ (تفسير القرطبي ٧/٣٦٢ قال الغنائم هى

الأنفال وكذلك د. مصطفى زيد تفسير

وقال الماوردي : ودعوى النسخ باطلة أيضا على رأى من جعل أمر الفىء والغنائم إلى رأى الامام حيث لا منافاة بين آية الأنفال والحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام (١) . وقالوا إن قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم) ناسخ لقوله تعالى (قل الأنفال لله والرسول) . وهو قول باطل للأسباب التى ذكرتها .

الجـزـية :

قال القرطبي (٢) : الجزية وزنها فعله ، من جزى يجزى إذا كافأ عما أسدى إليه فكانهم أعطوها جزاء ما مُنِحُوا من الأمن .
وقال القاضى أبو يعلى (٣) : اسمها مشتق من الجزاء إما جزاء على كفرهم ، وإما جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقا) .
أما ابن قدامة (٤) فقال : إنها مشتقة من جزاه بمعنى قضاه ، لقوله تعالى (لا تجزى نفس عن نفس شيئا) فتكون الجزية مثل الفدية .
وليس المسلمون هم أول من اخترع الجزية بل كانت معروفة عند مختلف الأمم السابقة كبنى إسرائيل واليونان والرومان والبيزنطيين والفرس وكان أول من سنّ الجزية من الفرس كسرى أنو شروان وهو الذى رتبّ أصولها وجعلها طبقات . إذن فالحالة العامة بين الأمم كانت تألف نظام الجزية ، والإسلام أقر ذلك فقط (٥) .

وآية الجزية نزلت فى ظروف غزوة تبوك فى السنة التاسعة من الهجرة ، بعد أن أسلمت جزيرة العرب ولم يبق بها أحد من عبّاد الأوثان ، فأخذ رسول الله بعد نزولها الجزية ممن بقى على كفره من النصارى والمجوس ولهذا لم يأخذها من يهود المدينة ولا من يهود خيبر لأنه صالحهم (٦) . قبل نزول هذه الآية . (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (٧) .

وتشريع الجزية يدل على أبلغ معانى الانصاف والرحمة التى جاء بها الإسلام ، فهى ضريبة كالخراج على الأشخاص لا على الأرض نظير الحماية والمنعة والاعفاء من ضريبة الدفاع والجنديّة ، وإنما سلك الإسلام هذا السبيل ولجأ إليه مع غير المسلمين من باب التخفيف عليهم والرحمة بهم وعدم الإحراج لهم حتى لا يلزمهم أن يقاتلوا فى صفوف المسلمين ، فيتهم الإسلام بأنه يريد لهم الموت والاستئصال والفناء والتعريض لمخاطر الحرب والقتال ، فهى فى الحقيقة امتياز فى صورة ضريبة ، ومقتضى هذا أن غير المسلمين من

- ١ (الاحكام السلطانية / ١٣٧ .
- ٢ (تفسير القرطبي ١١٤/٨ والفردات للراغب / ٩٣ .
- ٣ (الاحكام السلطانية / ١٣٧ .
- ٤ (المغنى ١٠/٥٦٧ .
- ٥ (الجزية والاسلام ، دانييل دنيت / ١٥ ، ١٧ ، ٩٩ ، ١١٩ ، ١٢٩ ، وتاريخ الاسلام للسياسى ١/٦٠٥ د . حسن ابراهيم
- ٦ (المراجع السابقة وانظر زاد المعاد ٧/٢
- ٧ (النوبة / ٢٩ .
- حسن والحرب فى الاسلام/ ١٨٩ مجي
- خدورى ، واحكام الذميين لابن قيس
- الجزوية من تقديم د . محمد حميد الله
- ٩١ والحرب فى الشريعة الاسلامية/ ١٢٦
- د . نجيب ارمنازى .

أبناء البلاد التي تدخلت تحت حكم الاسلام إذا دخلوا في الجند أو تكلفوا امر الدفاع أسقط الامام عنهم الجزية .

وقد جرى العمل على هذا فعلا في كثير من البلاد التي فتحها خلفاء الاسلام ، وسجل ذلك قواد الجيوش الاسلامية في كتب ومعاهدات لا زالت تنطق بها صفحات التاريخ (١) . وهذا قول الحنفية (وجبت بدلا من النصر والجهاد . واختاره القاضى أبو زيد وزعم أنه مير الله في المسألة (٢)) . وقال الخطيب الشربيني الشافعى : ولا يجب الجهاد على الكافر ولو ذميا لأنه يبذل الجزية لنذب عنه لا ليذب عنا) .

ومن الشواهد التاريخية المعروفة ما كتبه سويد بن مقرن إلى أهل دهستان وسائر أهل جرجان في زمن عمر (إن لكم الذمة وعلينا النعمة) (٣) . وما كتب خالد بن الوليد رضى الله عنه لصلوبان نسطويا وقومه (إن منافعنا فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم) (٤) . وقال ابن رشد المالكى (إنما تؤخذ الجزية منهم سنة بسنة جزاء على تأمينهم وإقرارهم على دينهم يتصرفون في جوار المسلمين وذمتهم آمنين) (٥) .

وهناك أدلة واقعية على أن الجزية بديل الحماية (٦) مثل ما كان يفعل قادة المسلمين من ردهم الجزية على أصحابها ، إذا تعذر عليهم القيام بواجبهم نحو الذميين كما حصل مثلا من أبى عبيدة بن الجراح ، حينما حشد الروم جموعهم على حدود البلاد الاسلامية الشمالية فكتب أبو عبيدة إلى كل وال من خلفه في المدن التي صالح أهلها أن يردوا عليهم ما جبي من الجزية والخراج ، وكتب اليهم أن يقولوا لهم (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإننا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم) فلما قالوا ذلك لهم ، وردوا عليهم أموالهم التي جبوها منهم قالوا : (ردكم الله علينا ونصركم عليهم) (أى على الروم) . فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء بقى لنا) (٧) .

ويقول (ترتون) (٨) غير أننا نذكر انه مفروض على الذمى من الناحية النظرية مراعاة جميع شروط العهد إذا أراد الحماية ، وقد ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل للقول أن امتناع الذمى عن دفع الجزية يحل المسؤولين من حمايته . . ومن هذا يتضح أن الجزية لم تكن حقا تعطيه القوة للغالب على المغلوب ، وإنما كانت منفعة جزاء منفعة ، وأجرا جزاء عمل بل أن مغسارم الجزية أكثر من مغانمها) .

-
- | | |
|---|--|
| ١ (الدعوة إلى الاسلام / ٧٩ أرنولد | ٦ (المدخل للفقه الاسلامى - محمد سلام |
| والحضارة الاسلامية ٦٠/١ آدم مئز | مذكور هامش ٥٠ . |
| والرسالة الخالدة ١٢ وآثار الحرب في | ٧ (الخراج / ١٢٩ والجزية والاسلام دانييل |
| الفقه الإسلامى/ ٦٩٢ . | دينيت/ ١٠٢ والمهذب ٢٥٥/٢ وقتسوح |
| ٢ (تفسير القرطبي ١١٤/٨ . | البلدان ١٣٤ وآثار الحرب في الفقه |
| ٢ (شرح مجمع البحرين ١٨/٢ والمبسوط | الاسلامى ٢٩٣ . |
| ٧٨/١٠ . | ٨ (أهل الذمة في الاسلام/ ١١ . |
| ٤ (تاريخ الطبرى ١٦/٤ . | |
| ٥ (احكام الذميين لابن قيم الجوزية من تقديم | |

ويرى العلماء ان الجزية تسقط عن الذمى بالاشترار فى صفوف
المجاهدين (١) . وذلك بدليل ما جاء فى كتاب سويد بن مقرن السالف الذكر فقد
ورد نص فى نفس الكتاب يقول :

(ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضا عن جزائه ، ولهم
الأمان على أنفسهم وأموالهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك) (٢) . وفى
معاهدة سراقية بن عمرو أهل أرمينيا سنة ٢٢ هـ اشترط على أهلها الاشترار
فى الجهاد نظير إعفائهم من الجزية فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا
لكل أمر ناب أو لم ينب .. رآه الوالى صلاحا على أن توضع الجزاء عن أجاب
إلى ذلك) (٣) ..

وقد صالح حبيب بن مسلمة الفهرى وإلى أبى عبيدة أهل انطاكية على
أن يكونوا اعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام ، وان لا يؤخذوا
بالجزية (٤) ..

وأسقطت الجزية عن الجراجمة على المشاركة فى الغزو مع المسلمين
« ولا يؤخذ منهم ولا من اولادهم ونسائهم جزية وعلى أن يفزوا مع
المسلمين (٥) .

فالجزية على هذا ليست لونا من ألوان العقاب على الكفر أو عدم الايمان
بالاسلام كما زعم البعض وانها كرامة لاهل الكتاب . فلا يستحقها سواهم .
ولعل كل ما قدمت يبطل ما يهذى به اعداء الاسلام بأن الجزية من ألوان
العقاب على الكفر لاذلال غير المسلمين (٦) ..

وتسقط الجزية بأمر كثيرة غير ما قدمت من الاشترار فى الجهاد فهى
تسقط بالاسلام وذلك باتفاق العلماء لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه
أحمد وأبو داود والبيهقى (ليس فى مسلم جزية) وفى رواية الطبرانى (من أسلم
فلا جزية عليه) (٧) . قال سفيان : إذا أسلم الذمى بعد ما وجبت الجزية
عليه بطلت عنه . وعليه يدل قوله تعالى (حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم
صاغرون) .

لأن الاسلام يزول بهذا المعنى . ولا خلاف فى أنهم إذا اسلموا لا يؤدون
الجزية عن يد وهم صاغرون (٨) . وقد رفع عمر بن عبد العزيز الخليفة
العادل الجزية عن أسلم من أهل الذمة بخلاف ما فعله بعض الأمويين كالحجاج
والأشعث وقال قولته المشهورة : (إنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم
بالحق هاديا ولم يعنه جابيا) (٩) ..

وتسقط الجزية لأمر كثيرة منها العمى والزمانة والمرضية والعجز
الدائم والشيوخة والفقير (١٠) . والمحتاج من أهل الذمة سواء أكان مريضا
أو زمنا أو شيخا هرما فنفتته من بيت مال المسلمين .

- | | |
|-------------------------------------|---------------------------------------|
| ١ (المدخل فى الفقه الاسلامى / ٥٠ . | ٧ (سنن أبى داود ٢٢١/٣ ومسند احمد |
| ٢ (تاريخ الطبرى ٢٥٤/٥ وانظر تفسير | ٢ (٣٠٨/٢ ونيل الاوطار ٦١/٨ . |
| النار ٢٩٧/٧ . | ٨ (تفسير القرطبي ١١٤/٨ . |
| ٣ (تاريخ الطبرى ٢٣٦/٣ . | ٩ (الكامل لابن الاثير ٣٧/٥ طبعة ليدن |
| ٤ (فتوح البلدان / ١٦٦ . | والجزية والاسلام دينيت / ١٧ ، ٣٤ ، |
| ٥ (المرجع السابق / ١٦٨ . | وتفسير الجصاص ١٠٢/٣ . |
| ٦ (الحرب والسلام / ١٩٦ مجيد خدرى . | ١٠ (المبسوط ٧٩/١٠ . |

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى ذميا يسأل الناس وكان شيخا كبيرا يهوديا ضيرير البصر فأخذه إلى داره وأسعفه ببعض ما لديه من مال ثم أمر خازن المال أن يجرى عليه رزقا مستمرا ، وقال له (اتبع مثل ذلك فى هذا وضربائه فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، وتلا هذه الآية (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) (١) . وقال هذا مسكين من أهل الكتاب ووضع عمر عن الرجل جزيته وعن ضربائه (٢) . وبقي له عقد الذمة ولذريته لأبديته .

وجاء فى كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة : وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل وأصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينة يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام) (٣) .

والمساواة التامة بين المسلم والذمى الذى يدفع الجزية من حيث واجب الدولة فى الدفاع عنه وافتداء رقبته سواء بسواء تبرز بشكل واضح فيما روى عن أمير التتر قطلوشاه كان قد أغار على دمشق فى أوائل القرن الثامن الهجرى وأسر من المسلمين والذميين من النصارى واليهود عددا فذهب إليه الامام ابن تيمية ومعه جمع من العلماء وطلبوا فك الأسرى فسمح لهم بالمسلمين ولم يطلق الذميين فقال له شيخ الاسلام (لا بد من افتكك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع لبيدك أسيرا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة فان لهم ما لنا وعليهم ما علينا) فاطلقهم الأمير التترى جميعا (٤) . ولنتأمل عدالة الاسلام فيمن تؤخذ منه الجزية . الذى دل عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين ، لأنه تعالى قال (قاتلوا الذين . . إلى قوله نى يعطوا الجزية) فيقتضى ذلك وجوبها على من يقاتل ، ويدل على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلا لأنه لا مال له وأنه تعالى قال (حتى يعطوا) ولا يقال لن لا يملك حتى يعطى . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يُقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيوخ والرهبان (٥) . وقد قرر الفقهاء أن عقد الذمة المؤبد يشترط فيه شرطان :

أولهما : أن يلتزم الذمى دفع التكاليف المالية متى كان قادرا مساهمة منه فى بناء الدولة وميزانها المالى . وثانيهما : أن نتركهم وما يدينون وأن يلتزموا بأحكام الاسلام فى المعاملات المالية والعلاقات الاجتماعية ولهم حريتهم الشخصية فى أموالهم ومعتقداتهم وفى قوانين الأسرة من زواج ونسب وطلاق . إذ يتبعون فيها ما يأمرهم به دينهم ، ولهم أن يشربوا الخمر ويأكلوا الخنزير . ولو أراق مسلم لذمى خمرا أو قتل خنزيرا ضمن قيمته بعكس ما لو فعل المسلم ذلك بمسلم آخر فلا يجب عليه تعويضه (٦) .

والذمى الذى يقيم بديار المسلمين إقامة دائمة وبلغه العصر فى القانون

- ١ (النسوبة/٦٠ .
- ٢ (الخراج/١٢٦ لابی يوسف .
- ٣ (الخراج/٤٤ لابی يوسف .
- ٤ (الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام/٣٥٨ .
- ٥ (الام ٦٨/٤ - ١٠٠ وتفسير القرطبي ١١٢/٨ ، ١١٣ .
- ٦ (الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام/٣٥٧ .

الدولى يتجنس بجنسية الدولة التى استقر بها ، يتمتع بحقوق لا يتمتع بها مثيله فى العصر الحالى فالمسلم المقيم فى فرنسا أو انجلترا أو روسيا ويتجنس بجنسيتها يخضع فى الأحوال الشخصية للقانون المحلى هناك فإن تزوج بأكثر من واحدة فزواجه باطل وقد يحاكم على ذلك كجرم وإن طلبت زوجته فى قضية النفقة من زوجها لا تسمعها المحاكم (١) . ومن مقتضيات عدالة الاسلام ورحمته الواسعة أن الله لم يحدد فى كتابه الكريم مقدارا للجزية المأخوذة من أهـل الكتاب بل ترك أمر تقديرها إلى اجتهاد أمام المسلمين العادل بحسب ما يرى من حالات اليسار والفقر .

فلما هزم أبو عبيدة جموع الروم ومنح الله المسلمين أكتافهم كتب عمر ابن الخطاب رضى الله عنه (أقر ما أفاء الله عليك فى أيدي أهله واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم) (٢) . . .

وقال القرطبي (٣) : اختلف العلماء فى مقدار الجزية المأخوذة منهم ، فقال عطاء بن أبى رباح لا توقت فيها وإنما هو على ما صولحوا عليه . وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبرى قال الثورى : جاء عن عمر بن الخطاب ضرائب مختلفة . فللوالى أن يأخذ بأياها شاء إذا كانوا أهل ذمة أما أهل الصلح فما صولحوا عليه لا غير .

فقد روى عن معاذ : أن رسول الله بعثه إلى اليمن ، وأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً فى الجزية وقال الشافعى : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإن زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم) .

وهذا ما ذهب إليه أئمة المذاهب فى تقدير الجزية واقلها دينار أو اثني عشر درهما (٤) . وقد قيل إن الضعيف يخفف عنه بقدر ما يراه الامام . قال أبو عمر : يؤخذ من فقرائهم بقدر ما يحتملون ولو درهما . وإلى هذا رجح مالك (والدينار يعادل ٦٥ قرشاً مصرياً) وهذا ما نقلته التواريخ الثابتة . فهذا المقدار الضئيل أشبه ما يكون بضريبة الدفاع أو ضريبة كسب العمل يدفعها العامل القادر دون زوجته وأولاده الصغار . فأين هذا المقدار من اشتراط الدولة الحديثة دفع غرامات حربية وتعويضات باهظة على الطرف المغلوب عند عقد الصلح بشكل لا مبرر له فمثلاً فرضت معاهدة (فرنكفورت) على فرنسا غرامة مقدارها خمسة مليارات من الفرنكات الذهبية (٥) . وأين مبدأ الرضائية فى عقد الصلح بنوعيهما المتميز فى الاسلام مما عرفه العالم بعد الحرب العالمية الثانية من معاهدات الصلح الذى أطلق عليه تسمية (الاستسلام بلا قيد ولا شرط) ومن شأنه ان تقوم الدولة المغلوبة بأذعان دون قيد ولا شرط لبند الصلح التى تفرضها الدولة المنتصرة (٦) . . .

- | | |
|---|--|
| ١ (المرجع السابق / ٣٦٠ ونجيب ارمنازى / | الكبير ٦٠١/١٠ وتفسير القرطبي ١١٢/٨ |
| ١٣٧ . | ٥ (آثار الحرب فى الفقه الاسلامى / ٧٠٢ |
| ٢ (الشريعة الاسلامية والقانون الدولى | والقانون الدولى العام/ ١٤٦ ، ٤٢٢ |
| العام/ ٣٦٠ ونجيب ارمنازى/ ١٣٧ . | للكهور سامى جنيبة . |
| ٣ (تفسير القرطبي ١١١/٨ ، ١١٢ . | ٦ (آثار الحرب / ٧٠٤ والحقوق الدولية / |
| ٤ (الام ١٠١/٤ والبسوط ٧٨/١٢ والشرح | ٥٩٢ مؤاد شباط . |

ولو قارنا ما يدفعه المسلم بما الذمى لشالت الكفة . فالمسلم ملزم بدفع زكاة المال وهى مقدار ٢.٥ ٪ من مما يملك من نقود وعروض تجارة ومواشى وغير ذلك من الأموال السائلة والمنقولة وملزم أن يدفع مقدار ١٠ ٪ من صافى غلات الأموال الثابتة من دار وأرض وغيرها . وعلى المسلم أيضا تكاليف مالية أخرى يلزمه دينه بها كالصدقات المندوبة والنذور التى يندرها والأوقاف التى يحبسها وكفارات الأخطاء التى يرتكبها والمشاركة فى إعداد وسائل الجهاد والخدمة العسكرية والذى بطبيعة الحال لا يكلف هذه الالتزامات المالية، فكان لا بد لكى يكون له مالنا وعليه ما علينا أن تفرض عليه ضريبة هى الجزية ليساهم فى بناء التكاليف العامة وفى التكامل الاجتماعى لأهل الذمة (١) . .

ويقول (ترتون) (٢) : لم تكن طريقة جباية الضرائب قاسية كما تبدو ، وواضح أن الرعايا كان يسمح لهم بمجال واسع فى دفعها ، إذ يرد فى أوراق البردى عدة شكايات عن التأخر فى الدفع وعن صور أخرى من التراخى فى دفعها . . وكانت تأتى أوقات يعفون فيها من تلك الالتزامات ، فقد جاء أحد الأقباط إلى عمرو وقال له (إذا أخذتك إلى مكان أمكن للسفن أن تصل منه إلى مكة فهل تعفينى وأسرتى من الضريبة ، فوافقه عمرو) . . ولما غزيت برقه لأول مرة لم يدخلها أى جامع ضرائب ، بل جرت عادة أهلها أن يرسلوا الضرائب المستحقة متى حان وقتها (٣) . .

وكل هذا يجعل المرء يتساءل ما هدف الاسلام من الجزية ؟

قال السرخسى (٤) : المقصود من الجزية ليس المال ، بل الدعاء إلى الدين بأحسن الوجوه لأنه بعقد الذمة يترك القتال أصلا ، ولا يُقاتل من لا يقاتل، ثم يسكن بين المسلمين فيرى محاسن الدين ويعظه واعظ فربما يسلم) .

وقد ذهب السير توماس أرنولد إلى ما ذهب إليه السرخسى إذ عقد فصلا بعنوان الغرض من دفع الجزية نقتطف منه بعض العبارات (ولم يكن الغرض من دفع الجزية على المسيحيين كما يذهب الباحثون لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن الاسلام وإنما كان يؤديها الذميون مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين . ومن الواضح أن أى جماعة مسيحية كانت تعنى من هذه الجزية إذا ما دخلت فى خدمة الجيش الاسلامى على نحو ما حصل مع قبيلة الجراجمة وما عومل به أهل ميفاريا من مسيحيي البانيا وكذلك أهل هيدرا وأهالى رومانيا الجنوبية إلى أن قال : إن الفلاحين المصريين أعفوا من أداء الخدمة العسكرية رغم إسلامهم مقابل الجزية التى فرضوها على أنفسهم كالمسيحيين . . « ثم ينكر أن الغرض منها جمع المال » (٥) ومن هذا يتضح لنا أن الاسلام لم يهدف من قتال أهل الكتاب فرض الجزية لتحقيق مطامع اقتصادية كما ادعى كثير من أعداء الاسلام من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين كأمثال (فلهازون وكاتيانى وبكر) (٦) فهم يدعون أن

١ (الشريعة الاسلامية والقانون الدولى ٥) الدعوة الى الاسلام ٧٩ ، ٨١ .

٢ (العام/٣٥٧ . الجزية والاسلام ، دانييل دينيت ٣٤ ،

٣ (١٣ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٦١ ، ٧٦ ، ١٤٤ ،

٤ (١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٨٥ .

٥ (فتوح مصر / ١٦٦ ، ١٦٧ لابن عبد الحكم

٦ (احكام الذميين / ١٧ .

الجزية مبالغ إجمالية تُفرض على أجزاء الإمبراطورية وليست على الفرد بعينه، دون أن يهيم العرب طريقة جمعها ، وإنما همهم فقط الحصول على الإتاوات أى الضرائب الجماعية ، ولبت المسألة اقتصرت على هؤلاء فالدكتور مجيد خدورى العرأتى يدلى بدلوه هو الآخر ويتساءل متشككا فيقول : هل فرضت على الذميين من قبل عمر بن الخطاب غير الجزية والخراج (١) ، فـمـاذا يقصد خدورى بسؤاله ؟ ألم يعلم ولو بطول العيش بين المسلمين أن آية الجزية فرضت بنص القرآن وليست من اجتهاد الخليفة عمر بن الخطاب . ولو كانت هناك ضريبة أخرى لنقلها إلينا الفقهاء الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا ذكروها بشأن أهل الذمة والأرض المفتوحة وأفعال الخلفاء وعلى الأمل لم يتأخر هو نفسه عن ذكر ذلك وإبرازه بوضوح ليشفى غيظ قلبه من الإسلام والمسلمين .

أما فيليب حتى (٢) : فقد أعطى هذه المسألة طابعا فلسفيا يوهم القارئ بحقيقة ما يزعم فقال (وما لبعض الباحثين فى الحركة الإسلامية إلى النظرة الدينية التى كررتها المصادر العربية ففسروا التوسع الإسلامى كنتيجة لعامل الدين ولم يعلقوا كبير أهمية على العوامل الاقتصادية . وتمسك بعض كتاب النصرانية بفكرة أخرى خاطئة وهى أن المسلم العربى اكتسح البلدان رافعا القرآن فى يده والسيف فى الأخرى ولا صحة لهذا الزعم فإن العرب فى حروبهم خارج الجزيرة كانوا يعرضون على أهل الكتاب من يهود ونصارى أمرا ثالثا غير القرآن والسيف وهو أقرب إلى مطامع الحاربين وأصلح من كلا الأمرين - الجزية - ثم قضت الأوضاع أن يعرض هذا الاختيار على الجوس اتباع زرادشت وعلى الوثنيين من البربر والترك فجرى عليهم وهم من غير أهل الكتاب وعمولوا معاملة أهل الكتاب فالضرورة قامت مقام النظرية القرآنية .

ولا يكتفى (فيليب حتى) بالفمز فى مسألة الجزية ، بل غمز المسلمين والمعقّدة الإسلامية نفسها إذ ادعى أن المسلمين المجاهدين غيروا النظرية القرآنية وأخذوا الجزية من الجوس والوثنيين طمعا فى المال الذى يحصلونه من الجزية .

ويقول بعد ذلك (وإذا كانت الأمم المغلوبة قبلت الإسلام بعدئذ فلأنها أرادت الخلاص من الجزية (٣) .

وهذا ما رده « سيدىو » (٤) عن الغنائم (وكان من نتائج نظام الغنائم تغذية الروح الحربية إذ كانت أربعة أخماس الغنائم تُعطى للجيش) . وهو ما زعمه بروكلمان (٥) الذى يقول فى حق رسول الله (وكانت الغنائم العظيمة قد أثارت مطامعه إثارة كافية) .

وإذا كانت الغنائم قد أحلت فى الإسلام ونزل فى شأنها تشريع تفصيلى على ما بينا فلم يكن مقصد الجهاد الحصول على الغنائم ، ولم تكن هى الحافز القوى على الجهاد فقد قال الفقهاء : « المقصود الأعظم من الجهاد إعلاء كلمة الله تعالى ، والذب عن الملة والغنائم تابعة » (٦) .

أى أن الغنائم نتيجة فقط تترتب على الحرب ، ويتملكها المسلمون بالإحراز ، ولم يكن المسلمون يوما يهدفون إلى غرض ونيوى حقير ، أو يشنون حربا إقتصادية للسيطرة على مناطق الثروة والنفوذ والأسواق الخارجية

فى العالم كما حصل فى الحرب العالمية الأولى ، او لتحقيق المطامع والأهواء المادية أو لتوسع فى الملك أو لإشباع رغبة التفضيل العنصرى كما هو هدف أغلب الحروب الحديثة (١) . قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن قَتَلَ بَيْنَ يَدَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِتْنَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (٢) .

وفى الآية الرد الحاسم على هذه المزاعم الباطلة وقد سبق أن بينت أهداف الجهاد فى الفصل الثانى فلا حاجة إلى إعادة القول بأن هذه الأهداف السماوية لم يكن للدنيا فيها نصيب .

وقد ترددت أهداف الجهاد على السنة قواد الجيوش الإسلامية الزاحفة لتحرير الإنسان فى كل مكان من العبودية لغير الله ومن جور الأحكام إلى عدل السماء . فهذا ربيعى بن عامر رسول سعد بن أبى وقاص إلى كسرى فى القادسية يقول « إِنَّا لَمْ نَأْتِكُمْ لَطَلْبِ الدُّنْيَا وَوَاللَّهِ لَإِسْلَامِكُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ غَنَائِكُمْ » (٣) .

وهذا مثال آخر لجندى من جنود المسلمين الأعراب الذين يتهمهم المستشرقون بالطمع فى الغنائم والرغبة فى النهب والسلب . روى النسائى أن إعرابيا جاء فآمن بالنبي عليه الصلاة والسلام ثم قال أهاجر معك فأوصى به النبي أصحابه فكانت غزاة غنم فيها النبي فقسم عليه وقسم له ، فقال الرجل : ما هذا ؟ فقال : قسمة لك ؟ قال : ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا (وأشار بيده إلى حلقه) بسهم فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله يصدقك : فلبثوا ثم نهضوا فى قتال العدو ، فأتى به إلى النبي عليه الصلاة والسلام محمولا قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي ، أهو هو ؟ قالوا : نعم قال : صدق الله فصدقه ثم كفن فى جبة النبي ، ثم قدمه فصلى عليه فكان مما قاله مما ظهر من صلواته دعاؤه (اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك فقتل شهيدا ، وأنا شهيد على ذلك) .

ومن أمثال هذا الجندى المجاهد فى سبيل الله ، الذى باع دنياه بأخراه ليشتري لنفسه مكانا عاليا فى جنة الخلد ، كان يتألف الجيش الإسلامى وهذا ما أدركه كثير من المستشرقين المنصفين أمثال جماعة كتاب (تاريخ العالم) (غودفروا ودموبين وبلاتونوف) فقد قالوا عن جنود الفتوح ما نصه (كانوا حفاظا للقرآن فاهمين لمعانيه فيتألف منهم وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى خلصت للإسلام خلوصا لا حد له ، وصرفت معظم حياتها لاستحقاق الثواب الأخرى وكانوا يجاهدون فى طلب عبادة

العقبى) (٤) وهو الرأى الذى دعمه المستشرق الأمريكى Lothrop Stoddard

وقد سبق أن ذكرت رأيه بالتفصيل فى الفصل الثالث .
والتأمل فى حال المجاهدين الاقتصادية يجد أنها كانت سيئة للغاية شهد بذلك خير الشاهدين مولاهم عز وجل (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم

١ (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى / ٥٥٠ . ٤)

بسيماهم لا يسألون الناس الحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم (١) .
وقد أجمعت كتب التفسير أن هذه الآية نزلت في المجاهدين الذين
حبسهم الجهاد عن الاشتغال في معاشهم ، ولم يكسبوا من الجهاد مغنما
ماديا يعوض عليهم ما أنفقوه من أموال في سبيل الله وما تعرضت له مزارعهم
ومتاجرهم من التلف والخسارة فصاروا كما وصفهم الله تعالى (يحسبهم الجاهل
أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم) .

قال قتادة : أمر تعالى باعطاء هؤلاء القوم الذين يقاتلون مع رسول
الله غير مرضى ولا عريان (تعرفهم بسيماهم) قال ابن زيد من صفة الوجه
ورثاة الحال (٢) .

فلو كانوا يجاهدون للدنيا ومغانمها لأثروا ولأخذوا من أعدائهم كل
ما تصل إليه أيديهم ولكانت حالهم غير تلك التي وصفها الله تعالى . ولو
أنهم تعدوا عن الخروج إلى الجهاد وأقاموا في مزارعهم وأصلحوا تجارتهم
فأدروها وأمسكوا أيديهم عن البذل في سبيل الجهاد لكانت حالهم غير الحال
التي ذكرتها الآية .

ولكن الواحد منهم لم يخرج لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها وإنما خرج
جهادا في سبيل الله وطمعا في ثوابه بالجنة وخوفا من عقابه بالنار . وقد
حفظت لنا كتب المغازي والسير العجب عن تعفف هؤلاء المجاهدين عن الغنائم
فلم يأخذوا الأنصار رضوان الله عليهم من غنائم غزوات رسول الله شيئا فقد تنازلوا
عن غنائم بنى النضير وقريظة وقينقاع وحنين الكثيرة كما قال ابن اسحق (فقد
ذهب الناس بالشاة والبعير ورجعوا برسول الله إلى رحالهم) (٣) . وحسبنا
ما قدمنا لقطع شبهات المستشرقين ومن لف لفهم ودار في فلكهم من
المستغربين .

٣ (سيرة ابن هشام ٤٩٩/٦ تحقيق الايباري

والسقا .

١ (البقرة / ٢٧٣ .

٢ (تفسير القرطبي ٣ / ٢٤٠ - ٢٤٢

والكشف / ١ / ٢٩٨ .

الباب الثاني

الدراسة التاريخية

تمهيد

الفصل الأول : دراسة تاريخية لمشروع عيئة الجهاد

الفصل الثاني : مجاهدة المشركين

الفصل الثالث : مجاهدة أهل الكتاب

الفصل الرابع : مجاهدة المنافقين

تقوم دراسة هذا الباب على ترتيب السور المدنية ترتيباً تاريخياً حسب النزول ، لأن البحث يدرس موقف الجهاد من أعداء الإسلام دراسة تاريخية حية من واقع النصوص القرآنية . وهذا يقتضى تمييز القرآن الذى نزل فيهم وترتيبه ترتيباً تاريخياً ، لنشهد من خلاله موقف القرآن من أعدائه ، وموقفهم منه على امتداد عشر سنوات من الصراع الدامى بين الحق والباطل ، وكيف أشرف القرآن على سماء تلك المعركة المجتدمة ، وأسهم فى إدارتها وتوجيهها على النحو الذى أحق الحق ورفعته ، وأبطل الباطل ودفعه .

وسبيلنا إلى تحقيق هذا الهدف هو استعراض أهم الروايات الصحيحة التى وردت فى ترتيب سور القرآن المدنية بحسب النزول . وتمحيصها تمحيصاً علمياً دقيقاً بمناقشة السند وال متن ، وعقد المقارنات والموازنات بينها لاستخلاص النتائج الجديرة بالثقة والاطمئنان .

وقد رأيت لزاماً على أن أقوم بدراسة الظروف التاريخية المختلفة التى أحاطت بنزول السور الجهادية وذلك لأحقق هدفين : أولهما : ربط النصوص القرآنية بالأحداث التى نزلت فيها ، وهذا كفيل بأن يلقى عليها ضوءاً يفسر الطريق إلى البحث . ولكن إذا عرفنا أن آيات القرآن التى نزلت مرتبة على أحداث يندر أن تنص على هذه الأحداث ، وانها تشير إليها أحياناً بإشارة واضحة ، وربما أهملت الإشارة إليها فى بعض الأحيان ، وجدنا أن الصورة الحقيقية التى تحملها تحتاج فى دركها واستجلائها إلى منظار كاشف ، لا بد من تلمسه بين حوادث التاريخ ، وفى القرآن حقيقة ، وفى التاريخ منظار ، وفى القرآن صورة وفى التاريخ اطار .

وهدفنا الثانى توزيع النصوص القرآنية موضوع البحث بين عدة مراحل تاريخية متميزة ، لنتمكن من ملاحظة ادوار التطور التى مرّ بها موقف القرآن من أعدائه فى كل مرحلة على حدة ، ثم فى المراحل جميعاً ، حتى لا نلجأ إلى القول بنسخ الآيات القرآنية التى تتعارض فى أحكامها فى كل مرحلة تاريخية ، كما فعل القدماء ، أو لى أعناق النصوص وتأويلها تأويلاً يبعدها عن حقيقتها كما فعل المحدثون .

وستتيح لنا هذه الدراسة المرحلية لآيات الجهاد فى السور المدنية ، الكشف عن روح الحقيقة التى ننشدها ، وازدياد معالم الصورة التى نستجليها شخوصاً وبروزاً . وتنفيذا لهذه الخطة رأيت أن أفرد الفصل الأول من هذا الباب لدراسة المراحل التاريخية التى مرّ بها فرض الجهاد فى الإسلام . والفصول الثلاثة الأخرى لدراسة تطور موقف الآيات الجهادية من خصوم الإسلام وما دار بين المسلمين وأعدائهم من معارك كما صورها القرآن الكريم ، وعلى رأسهم جميعاً أشد الأعداء خصومه وهم المشركون ، ثم أهل الكتاب من يهود ونصارى ، ثم المنافقون ، مع بيان ارتباط مخططات هؤلاء الأعداء والتقاء أهدافهم فى استئصال شأفة المسلمين ، وكيف استطاع المسلمون القضاء عليهم جميعاً وتطهير دار الإسلام منهم بعون الله ورعايته .

الفصل الأول

دراسة تاريخية لمشروعية الجهاد

بعد دراسة القرآن الكريم دراسة متأنية تأكد لى أن جميع الآيات القرآنية الواردة فى الجهاد تشريعا ودعوة ووقائع مدنية . . ولم أجد فى القرآن المكى شيئا عن الجهاد والدعوة إليه وواجب الدفاع عن الاسلام والمسلمين بالقوة . فالجهاد فى المدينة هو الجهاد الحربى والجهاد فى مكة هو الجهاد السلمى إن صح التعبير .

والذى يهمننا بطبيعة الحال هو العناية بالجهاد المدنى بالدرجة الاولى مع إلقاء نظرة سريعة على الجهاد فى المرحلة المكية لأنها ليست من صميم البحث وان كانت تكون مرحلة من المراحل التى مرت بها مشروعية الجهاد فى سبيل الله .

وقد أسهمت السور المدنية من أولها نزولا إلى آخرها فى رسم خطة الجهاد فى سبيل الله ومعاملة أعداء الاسلام معاملة تختلف من مرحلة إلى أخرى ، مما يتفق مع طبيعة الدعوة الإسلامية ونهجها الحركى المتطور .

وهذا يحتم علينا ترتيب السور المدنية ترتيبا تاريخيا بحسب النزول . وكان بإمكانى لتحقيق هذا الهدف الاعتماد على المقدمات المدونة فى المصاحف أو على بعض الروايات الواردة فى هذا دون تمحيص كما فعل معظم الباحثين . . وهو طريق سهل ميسور لا أشواك فيه ولا عقبات . ولكننى رأيت أن هذه المقدمات ليست حرة بالتسليم والاطمئنان إليها والثقة بها والاعتماد عليها فى بحث علمى كهذا . بل الأسلم والأجدر بى أن أجمع كل ما يمكن أن يهدى إليه التنقيب الجاد من الروايات الواردة فى هذا ودراستها دراسة علمية لاستخلاص نتائج علمية وإصدار أحكام مبنية على أسس سليمة ودعائم ثابتة .

وقد تمكنت من الحصول على الكثير من الروايات منها القوى ، ومنها ما هو دون ذلك ، ومنها الضعيف الذى لا تجدر الثقة به والاعتماد عليه . فاخترت الروايات التى رأيت أنها أهمها وأقواها .

الرواية الاولى :

قال ابن الضريس فى فضائل القرآن : حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى جعفر الرازى قال أنبأنا عمر بن هارون قال حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن ابن عباس قال : كانت اذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء وكان أول ما نزل من القرآن اقرأ باسم ربك . . (ثم يروى القرآن المكى) حتى يقول ثم نزل بالمدينة (سورة البقرة ثم الانفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم القتال ثم الرعد ثم الرحمن ثم النساء ثم الطلاق ثم لم يكن ثم الحشر ثم إذا جاء نصر الله ثم النور ثم الحج ثم المنافقون ثم المجادلة ثم الحجرات ثم التحريم ثم الجمعة ثم التغابن ثم الصف ثم

الفتح ثم المائدة ثم براءة (١) .
وهذه الرواية مأخوذة كما نرى عن ابن عباس الحبر ، البحر ، ترجمان
القرآن ، كما كانوا يقولون له (٢) .
ومن رواها عطاء الخراساني ، وثقة الكثيرون ، وشهدوا له بالعلم
والفتوى والجهاد ، ومنهم النسائي وابن معين وابن شيبة وابو حاتم والدارقطني .
وقال الترمذي : عطاء ثقة روى عنه مثل مالك ومعمر ، ولم اسمع أن أحدا من
المتقدمين تكلم فيه (٣) .
ومما يدعم هذه الرواية ويقويها سندنا ومتنا أن الزركشي قد ساق البرهان
على استقرار الثقات من الرواة عليها (٤) .

الرواية الثانية :

عن سعيد بن جبیر أن ترتيب مصحف جعفر الصادق للسور المدنية هكذا :
البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ثم الزلزلة
ثم الحديد ثم محمد ثم الرعد ثم الرحمن ثم النساء ثم الطلاق ثم البينة ثم الحشر
ثم النصر ثم النور ثم الحج ثم المنافقون ثم المجادلة ثم الحجرات ثم التحريم
ثم الصف ثم الجمعة ثم التغابن ثم الفتح ثم التوبة ثم المائدة (٥) .
والراوى الوحيد لهذه الرواية كما نرى هو سعيد بن جبیر ، وهو إمام
مجمع عليه بالجلالة والعلو فى العلوم والعظم فى العبادة ، وكان يُقال له جهبذ
العلماء (٦) .

وهذه الرواية مأخوذة من ترتيب مصحف جعفر الصادق ، وقد نقلها
محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فى مقدمة تفسيره (مفاتيح الأسرار ومصابيح
الأبرار) عن كتاب الاستغناء عن سعيد بن جبیر (٧) .
وهذه الرواية توافق مصحف ابن عباس فى أسماء السور ، وفى ترتيبها
على تاريخ النزول ، وإن كان بينهما بعض اختلاف فى الترتيب . وقد سبق أن حكمنا
بقوة رواية ابن عباس مما يقوى هذه الرواية أيضا .
وأكد أجزم بأن هذه الرواية المنقولة عن مصحف جعفر الصادق ، قد
أخذت من مصحف على بن أبى طالب رضى الله عنه لأنها رواية ابن عباس السابقة
أقرب إلى مصحف على بن أبى طالب ذلك لأن العلويين كانوا يتوارثون مصحفه
الذى كان مرتبا على حسب النزول (٨) وكانوا يحافظون عليه وعلى آثاره
كلها .

وقد ذكر ابن النديم فى كتابه الفهرست أنه شاهد بنفسه عند أبى يعلى

- | | |
|---|-----------------------------|
| ١ (الاتقان فى علوم القرآن ١/١١٤١) | ١١٤١/١ |
| ٢ (مقدمات فى علوم القرآن ١٠ ، ١١ ، ١٢) | ١٠ ، ١١ ، ١٢ |
| ٣ (والتجويد فى علوم التفسير ١/٢٣) | ٢٣/١ |
| ٤ (البرهان ٢١٥) | ٢١٥ |
| ٥ (النظم الفنى فى القرآن ٢٣) | ٢٣ |
| ٦ (عبدة القارىء ١/٧٠) | ٧٠/١ |
| ٧ (النظم الفنى فى القرآن ٢٣) | ٢٣ |
| ٨ (تفسير القرطبي ١/٥١) | ٥١/١ |
| ١ (الاتقان فى علوم القرآن ١/١١٤١) | ١١٤١/١ |
| ٢ (عبدة القارىء ١/٧٠) | ٧٠/١ |
| ٣ (ميزان الاعتدال ٢/١٩٨ - ١٩٩ - ونيل
الوطار ٦/٢٤٢) | ١٩٨/٢ - ١٩٩ - ونيل
٢٤٢/٦ |

حمزة الحسنى مصحفا سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن علي مر الزمان (١) .

الرواية الثالثة :

حدثنا أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب القرشي ، قال حدثنا سليمان بن حرب المكي ، قال حدثنا حماد بن زيد عن علي بن زيد ابن جدعان ، عن سعيد بن المسيب ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : سألت النبي عليه الصلاة والسلام عن ترتيب القرآن ، فأخبرني بترتيب كل سورة على نحو ما نزلت من السماء : أما ما نزل بالمدينة : سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم المتحنة ثم النساء ثم إذا زلزلت — ثم الحديد ثم محمد ثم الرعد ثم إذا جاء نصر الله ثم النور ثم الحج ثم المنافقون ثم المجادلة ثم الحجرات ثم التحريم ثم الجمعة ثم التغابن ثم الفتح ثم المائدة ثم التوبة ثم النجم فهذا آخر ما نزل بالمدينة (٢) . .

ونرى أن هذه الرواية تكاد تتفق تماما مع الروایتين السابقتين إلا أنه سقط منها سورة الصف وزيد عليها سورة النجم وهي مكية .

الرواية الرابعة :

قال البيهقي في دلائل النبوة أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو محمد ابن زياد العدل حدثنا محمد بن اسحق عن يعقوب بن ابراهيم حدثنا أحمد بن نصر ابن مالك الخزاعي حدثنا الحسين بن واقد عن أبيه حدثني يزيد النحوي عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن قالا أنزل الله من القرآن بالمدينة (ويل للمطفئين والبقرة وآل عمران والأنفال والأحزاب والمائدة والمتحنة والنساء وإذا زلزلت والحديد ومحمد والرعد والرحمن وهل أتى على الإنسان والطلاق ولم يكن والحشر وإذا جاء نصر الله والنور والحج والمنافقون والمجادلة والحجرات ويأبها النبي ليم تحرم والصف والجمعة والتغابن والفتح وبراءة (٣) . .

ومن رواة هذه الرواية عكرمة والحسين بن أبي الحسن . وقد عنون ابن النديم الكتب المؤلفة في نزول القرآن وفكران كتاب عكرمة مأخوذ عن ابن عباس . . وقد أجمع الرواة على توثيق عكرمة بن خالد القرشي ، ومنهم البخاري والنسائي وابن حبان (٤) . .

وقد أفاضوا في توثيق يزيد النحوي ، قال الدار قطنى : حسبك به ثقة ونبيلا (٥) . .

ومنهم مجاهد إمام متفق على توثيقه ، وروى له الجماعة ، عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وكان في ثلاث منها يقف عند كل آية ويسأل فيم نزلت وكيف كانت (٤) .

-
- ١ (الاتقان ١٠/١ ، والتحبير ٢٠/١ - ٢٢) المرجع السابق ٢٢٢/١ .
٢ (مقدمتان في علوم القرآن ١٣ - ١٥ .
٣ (الاتقان ١٠/١ والتحبير ٢٠/١ - ٢٢ .
٤ (تهذيب التهذيب ٢٥٨/٧ - ٢٥٩ .
٥ (المرجع السابق ٤٢/١ - ٤٤ وعمدة الفراء ١١٧/١ .

الرواية الخامسة :

ترتيب مصحف ابن عباس :
(المطففين — ثم البقرة ثم الأنفال ، ثم آل عمران ثم الحشر ثم الأحزاب ثم
النور ثم الممتحنة ثم الفتح ثم النساء ، ثم الزلزلة ثم الحج ثم الحديد ثم محمد ثم
الإنسان ثم الطلاق ثم البينة ثم الجمعة ثم السجدة ثم المنافقون ثم المجادلة ثم
الحجرات ثم التحريم ثم التغابن ثم الصف ثم المائدة ثم التوبة ثم النصر ثم
الواقعة ثم العاديات ثم العلق ثم الناس (١) ..
ولم يذكر الزنجاني رواة هذه الرواية ولذا لا يمكننا الحكم عليهم ، ولكن
يظهر لنا البون الشاسع بينها وبين الروايات الأربع الأولى .

الرواية السادسة :

حدثنا صالح بن محمد الترمذى قال : حدثنا محمد بن مروان ، عن الكلبى ،
عن أبى صالح عن ابن عباس قال : أول شئ نزل بالمدينة (ويل للمطففين —
البقرة — الأنفال — آل عمران — الأحزاب — الممتحنة — النساء — إذا زلزلت
ثم الحديد — محمد — هل أتى على الإنسان — الطلاق — لم يكن — الحشر —
سورة النصر — المنافقون — النور — المجادلة — الحجرات — التحريم —
الجمعة — التغابن — الصف — الفتح — المائدة — التوبة وهى آخر القرآن ،
وسورة المائدة (٢) ..

ولا يخفى علينا أن هذه الرواية ضعيفة سنداً ومقتناً . فمن رواها أبو
صالح ، وأبو صالح فى الرواة كثير ولكن يقال إن أبا صالح الذى يروى عنه ابن
عباس هو أسحق بن نجيح الذى جاء بحديث باطل ، وأجمعوا على أنه عدو الله
وأكذب الناس (٣) . ومنهم محمد بن مروان والكلبى ، وقد أورد الذهبى ما يدل
على ضعفهما ، ومن أخذ عنه وهو أبو صالح . وقال القرطبى ، وأما حديث
الكلبى فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه (٤) .

ومنهم صالح الترمذى : قال الذهبى : صالح بن محمد الترمذى عن محمد ابن
مروان السدى منهم ساقط . وقال أبو حيان (لا يحل كتب حديثه مرجئاً جهمياً ،
داعية ، يبيع الخمر ويبيع شربه) (٥) ..
ومما يقلل ثقتنا بهذه الرواية أيضاً بعد الثقة بينها وبين الروايات
الأربع الأولى مع أن اثنتين منها تمتان بنسب الى ابن عباس وهو الذى قيل أن
الرواية الخامسة نقلت عنه .

-
- ١ (تاريخ القرآن للزنجاني ٥٤-٥٥ (نقلًا)
٢ (ميزان الاعتدال ١/٩٤ ، ٣٦٥/٢)
٣ (تفسير القرطبي ٢/٨٢)
٤ (مفتاح الاسرار ومصابيح الاتوار)
٥ (ميزان الاعتدال ١/٤٥٦)
٦ (مقدماتان فى علوم القرآن ٩ - ١٠)

الرواية السابعة :

حدثنا أمية الأزدي عن جابر بن زيد قال : أول ما نزل من القرآن بالمدينة (البقرة — آل عمران — الأنفال — الأحزاب — المائدة — الممتحنة — النصر — النور — الحج — المنافقون — المجادلة — الحجرات — التحريم — الجمعة — التغابن — سبح الحواريين — الفتح — التوبة خاتمة القرآن (١) .

ونلاحظ أن هذه الرواية متناهية في الضعف فقد سقط منها عشر سور . وهذا يجعل الرواية مضطربة اضطرابا شديدا مما يؤثر على ترتيب السور . وقد قال السيوطي بعد عرضها (هذا سياق غريب ، وفي هذا الترتيب نظر) (٢) . وهناك روايات أخرى ضعيفة سندا ومتنا ولا يمكننا الانتفاع بها كترتيب مصحف أبي بن كعب الذي رواه ابن النديم في كتابه الفهرست والسيوطي في كتابه الاتقان وبينهما خلاف في ترتيبه ، وتحريف في أسماء بعض السور ونقص في عددها لا سيما كتاب الفهرست .

ورواية أخرى أوردتها اليعقوبى وقال : نزل بالمدينة اثنتان وثلاثون سورة وأسقط منها بعض السور المدنية ووضع محلها سوراً مكية : مثل الواقعة والعاديات والموذنين (٣) . .

وبعد الاطمئنان إلى إثبات أقوى الروايات والوقوف على سر قوتها من حيث سندها ومنتها وموافقتها لبعضها تقريبا ، نستطيع أن نضع الروايات الأربع الأولى في الدرجة الأولى ونرى أنها جديرة بالدراسة والمقارنة . أما الروايات الأخرى فاننا نستطيع أن نضع الروايتين الخامسة والسادسة في الدرجة الثانية . أما الرواية السابعة فهي بادية الضعف وتستحق أن تكون في الدرجة الأخيرة . .

وقبل عقد المقارنات بين هذه الروايات واستخلاص النتائج منها نرى لزاما علينا أن نتأكد من أن هذه السور كلها مدنية وليس بينها من السور المكية شيء ، وبمقارنة الروايات المدنية والمكية تأكد لنا أن سورة (المطففين) مثلا سورة مكية وليست مدنية وأنها آخر ما نزل في مكة . قال السيوطي أنها مكية لذكر الأساطير فيها . وقيل نزلت بمكة الاقصة التطفيف (٤) وهي مكية عند ابن مسعود والضحاك ومقاتل أيضا (٥) . وبالنظر إلى ترتيب الروايات الأربع القوية نرى أنها لا تذكر هذه السورة ضمن القرآن المدني . وعليه فيجب أن نسقط هذه السورة عند المقارنة . ونسقط كل سورة مكية مثلها كسورتي النجم والسجدة وهما مكيتان بالاجماع (٦) . .

وبجدر بي أن أشير إلى أن الخلاف بين الروايات الناجم عن سقوط بعض السور لا حكم له ولا اعتداد به عند المقارنة .

وهنا سأعرض جدولا يقارن بين الروايات الخمس الأولى ويحكم في الخلاف بينها على أساس الأخذ بما اتفقت عليه أغلبية الروايات ، فان اختلفت هذه الروايات الخمس فاننا سنعود إلى الترجيح بالروايتين السادسة والسابعة وبمناقشة الخلاف .

١ (الاتقان ٤٢/١ والتعبير ٩٥/١ - ٩٧ . ٤ (الاتقان ١٣/١ .

٢ (الاتقان ٤٢ . ٥ (تفسير القرطبي ٢٥٠/١٩ .

٣ (تاريخ اليعقوبى المجلد الثانى ط . صادر ٦ (تفسير القرطبي ٨١/١٧ والاتقان ٢٥/١ .

٤ والكشاف ٤١٦/٤ والقرطبي ٨٤/١٤ . بيروت .

جدول الترتيب

الرقم	الرواية الأولى	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة	ما أغفت عليه	ما اختلفت عليه	الترجيح النهائي
١	البقرة	البقرة	البقرة	البقرة	البقرة	-	-	البقرة
٢	الأطفال	الأطفال	الأطفال	آل عمران	الأطفال	-	-	الأطفال
٣	آل عمران	آل عمران	آل عمران	آل عمران	آل عمران	-	-	آل عمران
٤	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب	الحشر	-	-	الأحزاب
٥	المتحنة	المتحنة	المتحنة	المائدة	الاحزاب	-	-	المتحنة
٦	النساء	النساء	النساء	المتحنة	النور	-	-	النساء
٧	الزلزلة	الزلزلة	الزلزلة	الزلزلة	المتحنة	-	-	الزلزلة
٨	الحديد	الحديد	الحديد	الزلزلة	الفتح	-	-	الحديد
٩	محمد	محمد	محمد	الحديد	النساء	-	-	محمد
١٠	الرعد	الرعد	الرعد	محمد	الزلزلة	-	-	الرعد
١١	الرحمن	الرحمن	الرحمن	الرعد	الحج	-	-	الرحمن
١٢	الإنسان	الإنسان	الإنسان	الرحمن	الحديد	-	-	الإنسان
١٣	الطلاق	الطلاق	الطلاق	الإنسان	محمد	-	-	الطلاق
١٤	البينة	البينة	البينة	الطلاق	الإنسان	-	-	البينة
١٥	الحشر	الحشر	الحشر	البينة	الطلاق	-	-	الحشر
١٦	النصر	النصر	النصر	الحشر	البينة	-	-	النصر
١٧	النور	النور	النور	النصر	الجمعة	-	-	النور
١٨	الحج	الحج	الحج	النور	-	-	-	الحج
١٩	المنافقون	المنافقون	المنافقون	الحج	المنافقون	-	-	المنافقون
٢٠	المجادلة	المجادلة	المجادلة	المنافقون	المجادلة	-	-	المجادلة
٢١	الحجرات	الحجرات	الحجرات	المجادلة	الحجرات	-	-	الحجرات
٢٢	التحريم	التحريم	التحريم	الحجرات	التحريم	-	-	التحريم
٢٣	الجمعة	الصف	الجمعة	التحريم	التغابن	-	-	الجمعة
٢٤	التغابن	الجمعة	التغابن	الصف	الصف	-	-	التغابن
٢٥	الصف	التغابن	-	الجمعة	المائدة	-	-	الصف
٢٦	الفتح	الفتح	الفتح	التغابن	التوبة	-	-	الفتح
٢٧	المائدة	التوبة	المائدة	الفتح	النصر	-	-	المائدة
٢٨	براءة	المائدة	براءة	براءة	-	-	-	براءة

والذى ظهر لنا من هذا الجدول اتفاق الروايات الخمس القوية على السور المدنية تقريبا فيما عدا اربع سور هي (الجمعة والتغابن والصف والمائدة) . وهى السور التى نزلت فى مرحلة واحدة ما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك .

اما سورة (الجمعة) فقد اتفقت الروايتان الاولى والثالثة على نزولها بعد التحريم وقد وضعتها فى هذا الترتيب الروايتان السادسة والسابعة . فعلى هذا فاننى ارجح نزولها بعد التحريم لمناسبتها لما قبلها من السور التى تنذر الكافرين من المنافقين وغيرهم بعذاب الدنيا والاخرة ، وفيها ذم للمنافقين الذين يتباطئون عن تلبية نداء الصلاة ، وتوبيخ للذين يخرجون من المسجد قبل تمامها .

اما سورة (التغابن) فقد اتفقت الروايتان الاولى والثالثة على نزولها بعد (الجمعة) وهو نفس الترتيب الذى وضعتها فيه الروايتان السادسة والسابعة . وعليه فهى بعد الجمعة .

اما سورة (الصف) فقد روت الرواية الاولى والخامسة نزولها بعد الصف وسقطت من الرواية الثالثة بعد التغابن مباشرة وما يؤيد ذلك الرواية السادسة التى وضعتها فى الترتيب بعد التغابن . فهى اذن بعد التغابن .

اما سورة (المائدة) فقد اتفقت الروايتان الاولى والثالثة على وضعها بعد الفتح وايد هذا الترتيب الرواية السادسة . وهذا ما ارجحه لانها نزلت بعد صلح الحديبية الذى نزلت فيه سورة الفتح . وفى اولها الوفاء بالعقود ، ليفوا للمشركين بما فى ذلك العقد وان كان فى ظاهره عينا لهم ويقوموا بعمرة القضاء ولا يتناقلوا عنها . وقد جاء بعد الامر بالوفاء اول السورة بيان حكم الذبائح والصيد فى الاشهر الحرم وما الى هذا من احكام المناسك ليعين للمسلمين ما يحتاجون اليه من ذلك فى عمرة القضاء ، وهو ما رجحه الاستاذ عبد المتعال الصميدى فى ترتيبه (١) .

وعلى هذا يكون الترتيب الذى توصلنا اليه للسور المدنية كلها (البقرة - الانفال - آل عمران - الاحزاب - المتحنة - النساء - الزلزلة - الحديد - محمد - السعد - الرحمن - الانسان - الطلاق - البينة - الحشر - النصر - النور - الحج - المنافقون - المجادلة - الحجرات - التحريم - الجمعة - التغابن - الصف - الفتح - المائدة - براءة) .

ويحسن التنبيه الى نقطة مهمة - وهى ان هذا الترتيب الذى توصلنا اليه على اساس من التحقيق والتحصيل لا يعنى اطلاقا ان السورة بكاملها قد نزلت فى هذا الترتيب ، فالسور الطويلة قد تعددت فيها المواضع وتنوعت ، وفى بعضها دلالات على ان بعض فصول وايات سورة متقدمة فى ترتيب النزول قد نزلت بعد فصول وايات سورة متأخرة ، وبالعكس ، ومع ان هذا بارز فى السور الطويلة اكثر فانه يلاحظ فى بعض السور المتوسطة ، بل والقصيرة ايضا . ومع ذلك فانه ليس من العسير تمييز ذلك ، كما ان هذا لا يعطل امكان الانتفاع من ترتيب نزول السور المدنية . وسبيلنا الى ذلك هو محاولة ترتيب احداث التاريخ الاسلامى المعاصر لنزول القرآن وفقا لنزول القرآن . ويقتضى هذا مراجعة اسباب نزول كل سورة بل كل فصل من فصولها

لان نزول السور كان يراعى فيه الزمان والمكان ، ويتأثر بالحوادث التى تقترن بنزول السور وقد راعى المتقدمون هذا الاصل فى تقسيمهم السور القرآنية الى مكية ومدنية .

ولا بد لنا ونحن نقتبع المراحل التاريخية التى مر بها تشريع الجهاد فى الاسلام من تقسيم الجهاد الى مرحلتين متباينتين هما المرحلة المكية والمرحلة المدنية لاختلاف الطابع العام للجهاد فى كل من المرحلتين .

والحق أن هذا التقسيم يمثل الطورين الرئيسيين للجهاد فى سبيل الله، ولكنه بطبيعة الحال لا يكفى لبيان حال نزول السور فى كل منهما ، لان النبى عليه الصلاة والسلام مكث ثلاث عشرة سنة فى مكة بعد البعث ، ومكث عشر سنين فى المدينة بعد الهجرة ، ومثل هذا الزمن الطويل فى كل من مكة والمدينة تتغير فيه الاحوال ، وتتجدد الحوادث والمناسبات ، فلا بد من التوسع فى بيان هذه الاطوار ، حتى نصل الى دراسة أتم فيما يتعلق بالمناسبات بين أغراض السور وتواريخ نزولها . وهذا يكون بتقسيم كل من هذين الطورين الطويلين الى أطوار قصيرة الزمن ، يراعى فيها أحداث الجهاد على امتداد ربع قرن من الزمان تقريبا . مع توزيع السور القرآنية على كل مرحلة .

المرحلة المكية :

ان القرآن الكريم هو الوثيقة الكبرى التى نعرف منها تطورات المراحل التى مر بها تشريع الجهاد الاسلامى .

قال الامام ابن القيم (١) : أول ما اوحى الله تبارك وتعالى الى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يقرأ باسم ربه الذى خلق وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ فى نفسه ولم يأمره آنذاك بتبليغ ثم أنزل عليه يأيها المدثر قم فأنذر فنباه بقوله اقرأ وأرسله بآيها المدثر ، ثم أمره أن ينذر عشيرته الاقربين ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين فأقام بضعة عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، حتى أذن له بالهجرة ثم أذن له بمسدها بالقتال . ()

هذا هو الفهم الحقيقى لتطور الدعوة الاسلامية وما صاحبها من جهاد لنشرها واعلاء كلمة الله . وبمثل هذا الادراك الحقيقى لطبيعة الدين الاسلامى ومنهج الجهاد الحركى المتطور بتطور الدعوة وحسب كل مرحلة من مراحلها وظروفها يجب ان يكتب كل باحث يكتب عن الجهاد فى الاسلام .

وقال ابن القيم (٢) فى موضع آخر : شرع رسول الله فى الجهاد من حين بعث الى أن توفاه الله عز وجل فاته لما نزل عليه (يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر) (٣) شمر عن ساق الدعوة وقام فى ذات الله أتم قيام ودعا الى الله ليلا ونهارا وسرا وجهارا) .

وبدأت بهذه الايات مراحل الدعوة الى الدين الجديد — وكانت دعوة سرية فردية واستمرت ثلاث سنوات ثم جاءت المرحلة الثانية من مراحل الدعوة حين أمره الله تعالى أن ينذر قومه ويدعوهم الى الله عز وجل (وانذر عشيرتكم

١ (زاد المعاد ٢/ ٨١ .

٢ (المدثر ١ - ٧ .

٣ (زاد المعاد ٢/ ٤٠ .

الاقربين واخض جناحك لن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون (١) ..

ودعا محمد عشيرته الاقربين فاعرضوا عنه واستهزأوا به ، ورد عليه ابو لهب الذى تصدى للدعوة منذ ذلك اليوم ردا تبيحا وانزل الله فيه قوله (تبت يدا ابي لهب وتب ، ما اغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب) (٢) ..

وكانت دعوة العشيرة وذوى القربى تمهيدا لدعوة الناس عامة حين نزل قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انا كفيينـاك المستهزئين) (٣) . فصدع بأمر ربه لا تأخذه فيه لومة لائم ، فدعا الى الله الصغير والكبير ، والحر والعبد ، والذكر والانثى ، والاحمر والاسود ، والجن والانس ، ولما صدع بأمر الله لقومه بالدعوة وناداهم بسب آلهتهم وعيب دينهم اشتد آذاهم لن استجاب له من أصحابه ونالوهم بأنواع الاذى (٤) .

قال ابن اسحق (٥) : فلما نادى رسول الله قومه بالاسلام وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك اعظموه وناكروه ، واجمعوا خلافه وعداوته . وكانت مراحل مقاومة قريش للدعوة ثلاثا ، اتجهت اولا الى العبيد والضعفاء ، وثانيا الى سواهم من المؤمنين ، وثالثا الى الرسول نفسه (٦) ..

ولم تقف نتائج تعصب قريش عند حد ، بل تذامروا بينهم على من فى القبائل من اصحاب رسول الله الذين اسلموا معه واستضعفوا منهم ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة اذ اشتد الحر يريدون بذلك ان يفتنوه عن دينهم فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ومنهم من يصلب لسه ويعصمه الله (٧) ..

وعن سعيد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس : اكان المشركون ييلفون من اصحاب رسول الله من العذاب ما يعذرون فى ترك دينهم ؟ قال : نعم والله ، وانهم كانوا ليضربون ادهم ويجمعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له ؟ اللات والعزى الهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، حتى ان الجمل ليبر بهم ، فيقولون له : اهذا الهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، افتداء منهم مما ييلفون من جهده (٨) ..

وسورة البروج هى اول سورة احتوت اشارة الى فتنة المؤمنين والمؤمنات (والسماء ذات البروج واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل اصحاب الاخدود .. الى قوله تعالى « ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » (٩) ..

-
- | | |
|---|---|
| ١ (الشعراء ٢١٤) | ١١٨/ د . أحمد شلبى . |
| ٢ (المسد ١ - ٣) | ٧ (هامش الروض الاتف ١٧٢/١ وسيرة ابن هشام ٢٦٨/١ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ . |
| ٣ (الحجر ٩٤ - ٩٥) | ٨ (سيرة ابن هشام ٢٢٠/١ وزاد المعاد ٤٣/٢ . |
| ٤ (زاد المعاد ٤٠/٢ وامتاع الاسماع ١٤) | ٩ (البروج ١ - ١٠ . |
| ٥ (سيرة ابن هشام ٢٦٤/١) | |
| ٦ (التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية) | |

وسورة البروج المكية مبكرة فى النزول مما يدل على أن رؤساء المشركين قد اخذوا يعذبون المستضعفين ويفتنونهم عن دينهم منذ عهد مبكر من الدعوة ، وتحتوى الآية اشارة الى تعذيب (المؤمنين) مما يؤيد الروايات التاريخية ويدعمها .

فقد عذبوا سمية أم عمار برمضاء مكة ، ومر بها عدو الله ابو جهل ، وهى تعذب وزوجها وابنها فطعنها بحرية فى خرجها حتى قتلها (١) .

وكان عمر بن الخطاب يعذب جارية بنى مؤمل لتترك الاسلام ، وهو يومئذ مشرك ، حتى اذا مل قال : انى اعتذر اليك ، انى لم اترك الا ملالة ، فتقول : كذلك فعل الله بك ، فابتاعها ابو بكر ، فأعتقها ، وأعتق كذلك النهدي وابنتها وأم عبيس وزنيرة ، وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها الا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان ، فرد الله بصرها (٢) ..

وقد اشارت سورة النحل الى اثر التعذيب والقسوة فى بعض هؤلاء المستضعفين (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكراهه وقلبه مطمئن بالايمان (٣) ..

وفى سورة العنكبوت مقاطع عدة متصلة بمحنة الاذى والفتنة « الم . احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (٤) ..

قال ابن عباس (٥) : يريد بالناس قوما من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الاسلام . فكانت صدورهم تضيق ، قال مجاهد وغيره الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده اختبارا للمؤمنين وفتنة () .

وقد روى البخارى عن خباب بن الارت (٦) : قال شكونا الى رسول الله وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ، فقلنا له : الا تستنصر لنا ؟ الا تدعو لنا . فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ فيحفر فى الارض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه () .

وكان ابو جهل الفاسق ان سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعه انسه وأخزاه ، وقال له : تركت دين ابيك وهو خير منك ؟ لتسفن حلك ، ولتفلن رايك ، ولنضعن شرفك . وان كان تاجرا قال لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك . وان كان ضعيفا ضربه واغرى به (٧) ..

على أن كثيرا من المسلمين الذين كانت لهم عشيرة تحميهم لم يسلموا كذلك من الاذى وقد عذب عثمان بن عفان وكان من علية القوم أوثقه عمه بحبل من مسد وجعل يضربه ضربا مبرحا . وكان الزبير بن العوام يلف فى حصير ويترك ليستنشق الدخان . وضرب ابو بكر حتى شج رأسه وسال

- ١ (زاد المعاد ٤٣/٢ وسيرة ابن هشام ٤ (العنكبوت / ١ .
 ٢ (سيرة ابن هشام ٣١٨/١ . ٥ (تفسير القرطبي ٢٢٢/١٣ .
 ٣ (النحل / ١٠٦ . ٦ (صحيح البخارى ٥٦/٥ .
 ٤ (السيرة النبوية لابن كثير ٤٦٥/١ .

منه الدم وغشى عليه ، حتى خرج مهاجرا الى الحبشة لولا ان رده ابن الدغنة سيد الاحابيش واجاره من اذى قريش (١) . . .

قال ابن اسحق (٢) : رجع ابو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه ، مما جبذوه بلحيته وكان رجلا كثير الشعر . ولم يسلم رسول الله من الاذى ، رغم ما كان يحوطه من حماية بنى هاشم ، فقد كانوا يضعون الشوك والقذر فى طريقه ، وكانوا يلقون التراب على رأسه وهو سائر ويضعون على ظهره سلى الجوز وهو ساجد يصلى فى البيت الحرام فلا يجزؤ أحد على رفعه عنه الا ابنته فاطمة . وخنقوه حتى كادت تفيض نفسه ، واغرت به ثقيف صبيانها وسفهاءها يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه وكذبوه وسفوهه واستهزأوا به وسخروا منه ، وقالوا : ساحر ، وشاعر ، وكاهن ومجنون ، واسمعه كثيرا من فحش القول وهجر الكلام ، وانثروا به ليقتلوه (٣) .

والسور المكية فياضة بمشاهد الفتنة والاذى للرسول . فقد اتهموه بأن ما جاء به لم يكن جديدا عليهم بل هو من أساطير الاولين (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا الا اساطير الاولين) (٤) . واتهموه بأن أعجميا يلقنه القرآن (وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) (٥) . . .

وقالوا إنه ساحر (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) (٦) . . .

واتهموه بالجنون (ان هو الا رجل به حنة فترصبوا به حتى حين) (٧) . واتهموه بأنه شاعر (ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) (٨) وقالوا كاهن (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) (٩) . وكانوا يسخرون منه (واذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك الا هزوا) (١٠) .

ويظهر من الايات القرآنية التالية أنهم حاولوا تهديده واقتناعه بالعدول عن الدعوة الى الوحدانية فأمره تعالى بأن يثبت لها (ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فما له من هاد) (١١) . (قل أغير الله وليا فاطر السموات والارض . الى قوله) (على كل شىء قدير) (١٢) (قل أغير الله

- | | |
|--|---|
| ٦ (الانعام / ٧ ويونس / ٧٦ وهود / ٧ وسبا / ٤٣ والصفات / ١٥ والزخرف / ٣٠ والاحقاف / ٢٧ والطور / ١٥ والمذثر / ٢٤ . | ١ (صور من حياة الرسول : ١٥٧ . |
| ٧ (المؤمنون / ٢٥ ، ٧٠ والاعراف / ١٨٤ ، وسبا / ٤٦ والطور / ٢٩ والقلم / ٢ والحجر / ٦ . | ٢ (سيرة ابن هشام / ١ / ٢٦٠ . |
| ٨ (الصفات / ٣٦ والحاقة / ٤٠ والطور / ٣٠ . | ٣ (المرجع السابق / ١ / ٢٩١ وصحيح البخارى ٥٧/٥ - ٥٨ وصور من حياة الرسول ١٥٧/ . |
| ٩ (الطور / ٢٩ والحاقة / ٤٢ . | ٤ (المؤمنون / ٨٣ والانعام / ٢٥ والنحل / ٢٤ والنمل / ٦٨ والاحقاف / ١٧ والقلم / ١٥ والمطففين / ١٢ . |
| ١٠ (الانبياء / ٣٦ . | ٥ (الفرقان / ٤ - ٥ والنحل / ١٠٣ والنمل / ١٠١ والتوبة / ٦٥ والانعام / ٢٥ وهود / ٢٨ والنحل / ٢٤ والشعراء / ٦ والروم / ١٠ والحجر / ٩٥ ، والكهف / ٥٦ ، ١٠٠ والجاثية / ٩ ، ٣٥ ... الخ |
| ١١ (الزمر / ٣٦ . | |
| ١٢ (الانعام / ١٤ - ١٧ . | |

تأمروني اعبد ايها الجاهلون (١) . « وان كادوا ليستفتونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافا الا قليلا » (٢) . « وان كادوا ليفتوتك عن الذي اوحينا اليك لتقتري علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا . ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا . اذا لانقناك ضعف الحياة وضعف المبات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » (٣) .

وقد ذكرت الايات بمؤامرة قريش على قتل النبي او حبسه او نفيه من مكة (واذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين . واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين . واذا قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم » (٤) . وقد اشارت الايات المكية الكثيرة الى مؤامرتهم ومكائدهم التي كانوا يدبرونها ويقومون بها « انهم يكيدون كيدا واكيد كيدا . فمهل الكافرين امهلهم رويدا » (٥) « ام يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون » (٦) .

ولما امعنت قريش في تعذيب المسلمين ، واندمعت في وحشية قاسية الى التنكيل بهم نصح لهم رسول الله بأن يهاجروا بدينهم الى الحبشة خشية ان يفتنهم طول العذاب عن دينهم فاضطروا الى الهجرة مرتين . وقد اشار القرآن الكريم الى ذلك في سورة النحل « والذين هاجروا من الله من بعد ما ظلموا لنبؤتهم في الدنيا حسنة ولاجر الاخرة اكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » (٧) . وقد حثت سورة الزمر التي يجيء ترتيها قبل سورة النحل بقليل على تقوى الله والتمسك بدينه ، اذنت للمظلومين بالهجرة « قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وارض الله واسعة ، انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب » (٨) .

وتضمنت سورة النحل ايضا اشارة الى مشهد من مشاهد الفتنة ، ومشهد من مشاهد الهجرة معا « ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ، ان ربك من بعدها لغفور رحيم » (٩) . ولم تدع قريش سلاحا الا استعملته للقضاء على الدعوة وصاحبها والمؤمنين بها ، من مسالة واغراء ، وسخرية واستهزاء ، وارهاب وتعذيب ، ودعاية وتهويش ، فلم تبلغ شيئا من مرادها فلجأت الى سلاح آخر هو سلاح (المقاطعة الاقتصادية) كسلاح من اسلحة المقاومة والتعذيب وكانت مقاطعة عامة في التجارة والمعاملة والمصاهرة والنفقة . وقد استمرت المقاطعة نحو من ثلاث سنين ، وبنو هاشم وبنو عبد المطلب محصورون في الشعب ، حتى اشتد بهم البلاء وبلغ منهم الجهد ، حتى اكلوا الخبط وورق الشجر ، وسمع صراخ اطفالهم من وراء الشعب (١٠) .

١ (الزمر / ٦٤ - ٦٦ .	٨ (الزمر : ١٠ .
٢ (الاسراء / ٧٦ .	٩ (النحل : ١١٠ .
٣ (الاسراء / ٧٣ - ٧٥ .	١٠ (زاد المعاد ٤٦/٢ وتاريخ الطبري ٢٤/٢
٤ (الانفال / ٣٠ - ٣٢ .	والاتوار الحمديّة على المواهب
٥ (الطارق / ١٥ - ١٧ .	اللدنية / ٤٢ والسيرة النبوية لابن
٦ (الطور / ٤٢ .	كثير ٤٤/٢ - ٤٧ .
٧ (النحل / ٤١ - ٤٢ .	

ولسنا هنا بسبيل تفصيل أحداث السيرة وسرد وقائعها ، وإنما الذى يعنيننا هو الحديث عن جهاد الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وبيان طبيعة الجهاد فى هذا العهد ، وموقف القرآن الكريم فى هذه المرحلة .

فقد يكون من المنتظر أن ترى القرآن الكريم مترقفا بهذه القلة المؤمنة المجاهدة فى مكة ، والتي ابتليت فى كل ما تمك ، أو محاولا السير لىسلاقي الكفار فى منتصف الطريق ، ولكن الذى حدث هو السير بالمؤمنين الى نهاية الشوط فى البلاء والتضحية . وكان منطق القرآن الجهاد والجهاد أولا . ولم تكن هناك عدة أو سلاح وإنما ضعفاء أو مستضعفين أو أغنياء رعى الإسلام أموالهم حتى أتى عليها . فإذا زكت هذه الأنفس وتطهرت وثبت نقاؤها فى كل نواحيها فتح الله عليها ابواب الاستقرار فى وطن جديد (١) .

والباحث فى القرآن الكريم لا يجد أمرا بقتال ولا حتى ما يشبه القتال برد الاعتداء عن النفس مثلا ، وكل ما يجده أوامر صريحة متكررة لنبي الله والمؤمنين بالصبر على الأذى والفتنة التي تلحق بهم .

« فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يؤمنون » (٢) .
 « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليه وضائق به صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » (٣) . « واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » (٤) .
 « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار » (٥) « ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » (٦) ، « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » (٧) .
 وقد بشر الله الصابرين ووعدهم بالجنة ، وأنه وليهم فى الدنيا والاخرة :

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم . ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » (٨) .

وقد أمر الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام ان يجاهد الكفار بالحجة والبرهان والنصح والاقناع ، ولقد خاض رسول الله فى هذه المرحلة معارك قاسية استمرت سنوات طويلة ، لم تكن معارك حرب وقتال ، بل كانت معارك عقيدة وفكر ، وكان سلاحه الوحيد هو القرآن الكريم الذى أمره موله سبحانه بمجاهدتهم به (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) أى مجاهدتهم بالقرآن .

- | | | | |
|---|---|---|--------------------|
| ١ | (المحتج الإسلامى فى مكة ٣٧ عبد العزيز كاتل . | ٥ | (الاحقاف / ٢٥ . |
| ٢ | (الروم / ٦٠ . | ٦ | (ابراهيم / ١٢ . |
| ٣ | (هود / ١٢ . | ٧ | (الرعد / ٢٢ . |
| ٤ | (النحل / ١٢٧ . | ٨ | (فصلت / ٣٠ - ٣٣ . |

ولقد قام القرآن في العهد المكي بما تقوم به الاذاعة والصحافة في العصر الحديث(١) ، فلما اعلن المشركون حرب الدعاية ، تولى القرآن المعركة ، فرد عليهم دعايتهم ، واجاب عن أسئلتهم وهاجم عقائدهم وأوضاعهم الفاسدة ، كما هاجم الزعماء الذين تولوا أكبر المقاومة ، وصورهم في جهنم في مشاهد ملأت قلوبهم رعبا ، وطامنت من كبريائهم ، وزلزلت عقائدهم وسلطانهم في نفوس أتباعهم .

ولم تقتصر الايات على تسفيه الالهة بل وصفتهم بأوصاف شديدة « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون »(٢) . « فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسوة »(٣) « أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا »(٤) . « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون »(٥) « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكيا وصما ، ماوهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا »(٦) .

وقد هجم عليهم القرآن هجوما عنيفا في سورة يونس من قوله تعالى « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون . الى قوله « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون »(٧) .

ولقد وصفهم الله بصفات قاسية تتلاءم مع قسوة قلوبهم وافعالهم ، فقد اطلق عليهم أنهم المشركون والكافرون والكنار والضالون والمجرمون والفاستقون والآثيون وغير ذلك من أوصاف الذم . ووصف مصيرهم في النار وعذابهم في السعير ، ووصف مشاهد وأحوال ذلك اليوم الذي سيعذبون فيه على ما قدمت أيديهم .

وقد اولت الايات عناية خاصة لزعمائهم فهاجمتهم هجوما شديدا . فكان أبو لهب من أشد الناس عداوة لرسول الله ، وأكثرهم تكذيبا له ، وصدا عن سبيله ، وكذلك كانت زوجته تقوم بالدعاية ضد الرسول والقرآن بين نساء مكة وبيوتها فنزلت فيها وفي زوجها سورة المسد (تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب ، وأمرته حائلة الحطب في جيدها حبل من مسد) .

وقد جعلتها هذه السورة سخرية أهل مكة ، فكانت الزوجة اذا رآها أحد سخر منها وضحك بملء فيه ، فلم تستطع بعدها أن تغشى البيوت وتسمى بالدعاية كما كانت تصنع من قبل . وقد نزل في أبي جهل حين حاول منع الرسول من الصلاة آيات نارية يتطاير منها الشرر فيحرق كل من يصل اليه

١ (الجهاد في الاسلام ٤٠ محمد شديد . ٥) يس / ٦ - ٩ .

٢ (الانبياء / ٩٨ . ٦) الاسراء / ٩٧ .

٣ (المدثر / ٤٩ - ٥١ . ٧) يونس / ٢٢ - ٤٢ وأنظر النمل ٨٠ ،

٤ (الفرقان / ٤٤ . والاعراف ١٨٦ والنحل ١٠٦ والانعام ٢٥ .

« أرايت الذى ينهى عبدا اذا صلى ؟ أرايت ان كان على الهدى او امر بالتقوى أرايت ان كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى . كلا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة . فلیدع ناديه . سندعو الزبانية . كلا لا تطعه واسجد واقترب » (١) .

وعن ابن عباس قال ابو جهل : لئن عاد محمد صلى عند المقام لاقتلته فأنزل الله عز وجل هذه الايات فجاء النبى ف صلى فقل لابی جهل ما يمنك ؟ قال قد اسود ما بينى وبينه من الكتائب قال ابن عباس والله لو تحرك لاخذته الملائكة والناس ينظرون اليه » (٢) .

وهذا الاخنس بن شريق(٣) أحد زعماء قريش وأشرافهم ، كان يصيب رسول الله ، ويرد عليه ، وقد اشتهر بجرأته على كتاب الله وشدته فى تعذيب المؤمنين ، وصممه الله بتسع صفات غاية فى القبح تناقلت الالسنه فى مكة وعرف بها وعرفت به (ولا تطع كل حلاف مهين ، هزاز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زميم . ان كان ذا مال وبنين اذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم) (٤) .

وقد قال الوليد بن المغيرة(٥) : اينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها : ويترك ابو مسعود وعمر بن عمير الثقفى سيد ثقيف ، ونحن عظيمي القريتين ! فأنزل الله تعالى فيه (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) . الى قوله تعالى (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) (٦) .

وقد كان أمية بن خلف اذا رأى رسول الله همزه ولمزه (٥) فأنزل الله تعالى فيه : (ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده . يحسب ان ماله أخذه ، كلا لينبذ فى الحطمة . وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة . انها عليهم مؤصدة فى عمد ممددة) (٦) .

وما أكثر الحملات العنيفة التى شنها القرآن الكريم على أئمة الكفر من قريش وكان أثرها عليهم شديدا مما جعل بعضهم يميل الى التقرب من الرسول والتفاهم معه .. ولقد روى أنهم كانوا يتحاشونه ويخافونه ويناشدونه الرحمه أحيانا حين يبدو عليه الغضب من موقف حتى لا ينزل عليه قرآن فيهم يدمغهم ويسجل عليهم اللعنة الخالدة .

واذا لاحظنا طبيعة المجتمع المكي آنذاك كان شديد التأثر والاهتمام بالكلمة البليغة ، فقد كانوا يخشون الشعراء والسنتهم ، ويتقربون اليهم ، وكانت القبيلة تحتفل بنبوغ شاعر فيها يذب عن أحسابها ، فقد كان بيت الشعر الواحد يرفع قبيلة ويضع من شأن أخرى .

ولهذا ارتعدت فرائص عتبة بن ربيعة حين سمع من رسول الله قوله تعالى (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) . وقال لرسول

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| ١ (العلق / ٩ - ١٩ . | ٥ (سيرة ابن هشام / ١ / ٢٦١ . |
| ٢ (تفسير ابن كثير / ٤ / ٥٢٩ . | ٦ (الزخرف : ٣١ - ٣٢ . |
| ٣ (سيرة ابن هشام / ١ / ٣٦٠ . | ٧ (سيرة ابن هشام / ١ / ٢٥٦ . |
| ٤ (القلم / ١٠ - ١٦ . | ٨ (الهزرة : ١ - ٩ . |

الله : (حسبك . وامسك على فيه وناشده الرحم ان يكف عنه ، ولم يخرج الى اهله واحتبس عنهم) (١) .

روى ابن اسحق (٢) أن اشراف قريش قالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أعلامنا ، وشتم آبائنا ، وعاب ديننا ، وفترق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، وبيننا هم في ذلك إذ طلع رسول الله ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول . فوقف ثم قال : اتسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح . فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفوه (٣) بأحسن ما يجد من القول ، حتى أنه ليقول : انصرف أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولاً . وكانت تعليمات القرآن للرسول عليه الصلاة والسلام أن يتلطف في دعوته ، وأن يدعو الى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس عليه من هدايتهم من شيء ، ولن يضره كفرهم شيئاً . . .

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) (٤) .
وقد احتوت سورة الشورى (٥) خطة ربانية قرآنية للنبي والمسلمين في الدعوة تحثهم فيها على الصبر والمغفرة والتسامح (وإذا غضبوا هم يغفرون) . (فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين) . (ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور) .

وقد تكررت هذه التلقينات كثيراً في هذه المرحلة المكية (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدعرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار) (٦) .
وقد احتوت سورة « الأنعام والأعراف والإسراء » (٧) وغيرها من السور المكية نفس التعليمات .

وقد نهى سبحانه المسلمين عن شتم آلهة المشركين أو شتمهم ، لأن هذا من شأنه ازدياد نفورهم وكفرهم (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » (٨) .

قال القرطبي (٩) : وفي هذه الآية ضرب من المواعدة ، وفيها دليل على أن المحق قد يكف عن حق له إذا أدى إلى ضرر يكون في الدين ، قال ابن عباس : قالت كفار قريش لأبى طالب إما أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها وإما نسب إلهه ونهجو . فنزلت الآية . وقيل إن أبا جهل لقي رسول الله وقال له يا محمد ، لتتركن سب آلهتنا ، أو لنسبنا إلهك الذي تعبد (١٠) . فنزلت . . .

-
- | | |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| ١ (السيرة النبوية لابن كثير ٥٠٢/١ . | ٦ (الرصد : ٢٢ . |
| ٢ (سيرة ابن هشام ٢٨٩/١ ، ٢٩٠ . | ٧ (الأنعام : ١٥٠ - ١٥٢ والأعراف : ٢١ |
| ٣ (الوصاة : الوصية . ويرفوه : يهدئه | ٨ (الأنعام : ١٠٨ . |
| ويمسكه ويرفق به ويدعو له . | ٩ (تفسير القرطبي ٦١/٥ . |
| ٤ (اللحل / ١٢٥ . | ١٠ (سورة ابن هشام ٣٥٧/١ . |
| ٥ (الشورى : ٣٦ - ٤٣ . | |

والآية تلهم أن بعض اقوياء الشخصية من المسلمين كانوا يحاولون أن
ينفسوا عن أنفسهم بما لحقهم من أذى المشركين فيوجهون إليهم الشتائم وينددون
بعقائدهم . بل لقد طلب بعض هؤلاء الزعماء من رسول الله أن يسمح لهم برد
الاعتداء وقتال المشركين .

وعن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي عليه الصلاة
والسلام بمكة فقتلوا : يا نبي الله ، كنا في عز ونحن مشركون ، فلما آمنا
صرنا أذلة فقال : « إنني أمرت بالعمو فلا تقاتلوا القوم » وفي رواية أخرى
لم أمر بقتال (١) ، وقال تعالى : (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم
وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون
الناس كخشية الله أو أشد خشية) (٢) .

ويجب أن أنبه إلى أن الفريق المتذمرين من فرض القتال كانوا من المنافقين
وضعاف الإيمان ومرضى القلوب ولا يمتون بصلة إلى عبد الرحمن بن عوف
وسعد بن أبي وقاص والمقداد ابن الأسود أولئك الصحابة الأخيار الذين أبلوا بلاء
حسنا في كل الغزوات والمشاهد مع رسول الله كما سنرى .

وقد ظلت الأوامر القرآنية والإرشادات النبوية الكريمة طوال العهد
المكي كله تأمر بالكف عن القتال حتى أواخر ذلك العهد . فقد قال رسول الله -
للعباس بن عباد بن نضلة ليلة بيعة العقبة الكبرى أو (بيعة الحرب) - لم
نؤمر بقتال (حين قال العباس (يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن
على أهل منى غدا بأسيفنا) (٣) .

ويجد ربى التوقف قليلا عند هذه البيعة التي كانت أخطر بيعة في تاريخ
الدعوة الإسلامية إذ كانت خطا فاصلا بين عهدين ، كان أولهما عهد ابتلاء
واختبار ، وهو العهد الذي قضى فيه المسلمون ثلاثة عشر عاما وهم قليل
مستضعفون بين عدو جبار قاهر ، يسومهم سوء العذاب ، ويذيقهم من صنوف
الأذى ما لا يمكن أن يطاق ، ولا يحتمله بشر من الناس ، إلا أن يكون له مدد من
الإيمان الصادق واليقين الثابت ، فقد قتل منهم من قتل ، وفتن منهم من فتن ، وصبر
منهم من صبر ، وفرز بدينه من فر ، وكأنما كان ذلك امتحانا من الله لهم ، أراد به
تمحيصهم وإعدادهم ، ليكونوا نماذج للعقيدة الصالحة ، ونواة للمجاهدين في
سبيل الله واعلاء كلمته .

فلما تأكد نجاحهم في الامتحان ، وتبين صدق إيمانهم وقوة عزمهم ، أدركهم
عهد المكافأة والجزاء على الصبر ، فاستنقذهم الله من هذا العذاب بهذه
البيعة المباركة التي فتحت لهم باب الهجرة إلى المدينة فأوهم أهلها ونصروهم .
وفتح لهم أبواب رحمته فبدل خوفهم أمنا ، وذلهم عزًا ، وهوانهم كرامة .
وقد من الله عليهم بهذه النعمة إذ يقول سبحانه (واذكروا إذ أنتم قليل
مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فأواكم وأيدكم بنصره ،
ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) (٤) . وقد أحست قریش مبلغ الخطر الذي
يهددها من بيعة العقبة الثانية هذه ، إذ بايع الأنصار رسول الله على حرب
الأحمر والأسود من الناس ، وبايعهم رسول الله على أن يكون واحدا منهم ،
يحارب من حاربهم ، ويسالم من سالمهم .

فقد قال العباس بن عباد الأنصاري : يا معشر الخزرج هل تدرون عَلامَ
تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر

١ (تفسير القرطبي ٢٨١/٥ واصحاب عبد

الرحمن بن عوف هم : سعد بن أبي

٢ (سيرة ابن هشام ٤٤٧/١

٤ (الأشفال / ٢٦ .

والاسود من الناس ، فان كنتم ترون انكم انهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتلا اسلمتموه ، فمن الان ، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتوه اليه على نهكة الاموال وقتل الاشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذة على مصيبة الاموال وقتل الاشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها ابدا .

قال ابو التيهان في تلك الليلة : يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت ان فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ثم قال : (بل الدم الدم . . والهدم الهدم ، انا منكم وانتم منى ، احارب من حاربتم واسالم من سالتم) .

وكان اول من مد يده بالبيعة البراء بن معرور قائلا لرسول الله : فوالذى بعثك بالحق لنمنعك ما نمنع منه نساءنا فنحن والله ابناء الحروب ، ورتناها كابرنا عن كابر .

وما كاد بقية القوم يتمون بيعتهم حتى سمعوا صوتا يصيح بقريش : ان محمدا والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم ، ومن الصباح الباكر غدت عليهم جلة قريش يعاتبونهم ويقولون لهم : يا معشر الخزرج انه قد بلغنا انكم قد جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وانه والله ما من حى من العرب ابغض إلينا من ان تتشب بيننا وبينهم منكم (١) .

ولما عرفت قريش ان الخبر حق خرجت تطلب أهل يثرب ، فلم تلحق منهم الا بسعد بن عباد فآخذوه فربطوا يديه الى عنقه بنسج رحله ، ثم اقبلوا به حتى ادخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته ، وكان ذا شعر كثير ولم يخلصه منهم الا جبير بن مطعم والحارث بن أمية لانه كان يجير لهما تجارتهما (٢) . ولم يتبالغ قريش قط في فزعها ولا في تتبعها الذين بايعوا محمدا على قتالها ، فقد عرفته ثلاث عشرة سنة متتابعة منذ بدء نبوته ، ووقفت من الجهود للحرب السلبيه التي اعلنتها عليه ما جهدها وجهده ، ونال منها ونالت منه . ولقد خيل الى قريش بعد ان ارهقته ومن معه بالوان الاذى ، وبعد ان حاصرته في الشعب ، وبعد ان ادخلت الى نفس أهل مكة جميعا من الروع ما صدهم عن اتباعه ، انها توشك ان تظفر به ، وان تحصر نشاطه في الدائرة الضيقة من الاتباع الذين ظلوا على دينه ومن معه لا يلبثون الا قليلا حتى تضمنهم العزلة فيعودوا الى حكمها طائعين .

اما اليوم وازاء هذا الحلف الجديد ، فقد انفتح امام محمد والذين معه باب الرجاء والغلب سيما وان يثرب عاهدت الرسول على الدفاع عنه بالانفس والاموال ، وان تجاهد في سبيله كل عدو ، مهما كان . وكانت قريش تعرف ما كان عليه الاوس والخزرج من قوة البأس ، فجعلت تحسب حساب هذه القوة اذا وقفت في طريق تجارتها الى الشام ، فهددتها في الذهاب وفي الاياب ، ولا سيما اذا هاجر المؤمنون من أهل مكة فانضموا اليهم واصبح الجميع يدا واحدة على قريش (٣) .

لذلك امعنت تفكر فيما تفعل لتحيط ما قام به محمد ، ولتقضى على هذه الحركة الجديدة . ولم يكن من ناحيته اقل تفكيرا وتدبيرا ، ان هذا الباب الذى

١ (السيرة النبوية لابن كثير ١٩٢/٢ - ٢٠٧) ٢ (حياة محمد / ٢٠٧ هيكل .

٢ (المرجع السابق ابن كثير ٢٠٦/٢ .

فتح الله أمامه هو باب العزة لدين الله ، والسمو لكلمة الحق . فالمعركة الناشئة اليوم بينه وبين قريش هي أشد ما وقع منذ البعثة ، وهي معركة حياة أو موت بالنسبة له ولها ، والقلب لا ريب للصادقين .

وقد دبر أمر الهجرة لأصحابه ، يخرجون من مكة الى المدينة واحدا بعد واحد ، وجماعة اثر جماعة ، حتى لا يشعر بهم أحد ، تاركين وراءهم كل ما يثقلهم من مال ومتاع وأهل وعشيرة (١) .

ولكن قريشا فطنت للامر وحاولت أن ترد كل من استطاعت رده الى مكة لتفتنه عن دينه ولتعذبه وتكبل به . وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجته ، ويبدو أن بعض المسلمين تهيّب الهجرة وخاف أن يلقي حتفه من تعذيب قريش أو يلقي العنت والحرمان وضنك العيش في دار الغربة فبدد الله تعالى مخاوفهم بهذه الآيات : (يا عبأدى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فأياى فاعبدون ، كل نفس ذائقة الموت ، ثم الينا ترجعون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرما تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم اجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وياكم وهو السميع العليم (٢) .

ولا شك أن هذه الآيات قد بثت في نفوس الخائفين الطمانينة والثقة ، وكانت بمثابة الاعلان العام والاذن بالهجرة الى الدار الجديدة .

وقد اثنتى الله تعالى على الذين أقدموا على الهجرة غير مبالين بما تركوه وراءهم من أهل وعشيرة ومال ووطن (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) (٣) . « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولا دخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » (٤) .

فالأية تصور حال المسلمين أبلغ تصوير ، فقد جمعت بين الهجرة والاخراج والاذى والقتل ، كل ذلك في سبيل الله وإعلاء دينه فاستحقوا حسن الثواب .

وفي سورة الحج (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو بخير الرازقين . ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حلِيم) (٥) .

والآية تلهم أن فريقتا من المسلمين هاجروا من مكة فلاقوا حتيتهم موتا وقتلا ، وانها بسبيل التنويه بهم .

وفي صدد التشجيع على الهجرة قال تعالى أيضا (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما) (٦) . وقد توعد الذين رغبوا عن الهجرة ورضوا بالذل والبقاء في دار الحرب .

- ١ (صور من حياة الرسول / ٢٢٢ . ٤ (آل عمران / ١٦٥ .
٢ (المنكوبت / ٥٦ - ٦٠ . ٥ (الحج / ٥٨ - ٥٩ .
٣ (الحشر / ٨ . ٦ (النساء / ١٠٠ .

(الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) (١) فقد كثرت الآيات المشجعة على الهجرة ، لما كان يلقاه المهاجرون من الأذى والفتنة ، وما يقومون به من التضحيات إذا عزموا على الهجرة ، فقد فرقت قريش بين أبي سلمة وزوجته وفرقت بينهما وبين وليدها أيضا . فقد قالت أم سلمة (تجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، ففرقوا بيني وبين ابني وبين زوجي) . (٢) وأمثال هذه الأسرة كثير فقد أنزل الله فيهم (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) . (٣)

وكانت الهجرة بداية التحول من عهد السلم والمسألة إلى عهد القتال وامتشاق السيوف ، ورد الاعتداء عن النفس . فاعتبرها المسلمون بداية لتاريخهم الاسلامي المجيد ، لأنها كانت من أعظم حوادث التاريخ خطرا وأكبرها شأننا . وكما نوهت آيات الجهاد بالمهاجرين في سبيل الله ونصرة دينه فقد نوهت أيضا بالذين آوهم ونصروهم . (والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم . يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا يؤثرون على أنفسهم لو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . (٤) وكما نوهت آيات الجهاد بالمهاجرين والأنصار نعت على المتقاعسين عن الهجرة ونهت عن موالاتهم حتى يهاجروا (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا) (٥) (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا) (٦) . وما زال المسلمون يتلاحقون بالمدينة ، فيهجرون مكة حتى هجرت دور بأسرها ، وغلقت أبوابها ، وغدت تصفر فيها الرياح . ولم يبق بمكة إلا من حبس أو فتن ، وهم المستضعفون الذين قال فيهم (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفورا رحيفا) (٧) (والمستضعفين من الرجال والنساء الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لذك وليا واجعل لنا من لذك نصيرا) (٨) .

على أن قريشا كانت تحسب لهجرة النبي الف حساب . قال ابن اسحق (ولما رأت قريش أن رسول الله قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، وراوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم .. عرفوا أنهم قد نزلوا دارا أصابوا منهم منعة ، فحذروا . فخرج رسول الله وعرفوا أنه قد أجمع لحريهم . فاجتمعوا في دار الندوة ، يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله حين خافوه ... وبعد تغليب وجوه الرأي اتفقوا على قتله . وقد دبر لهم أبو جهل طريقة شيطانية للتخلص منه إذ قال : (أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمهم في القبائل جميعها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا

- | | |
|--|--------------------|
| ١ (النساء / ٩٣ . | ٥ (النساء / ٨٩ . |
| ٢ (السيرة النبوية لابن كثير ٢/٢١٥ ، ٢١٦ | ٦ (الانفال / ٧٢ . |
| ٣ (الحج / ٤٠ . | ٧ (النساء / ٩٨ . |
| ٤ (الحشر / ٩ . | ٨ (النساء / ٧٥ . |

منا بالعقل فمعتلناه لهم . (١)

وقد أنزل الله فى مؤامرتهم وما اتفقوا عليه قوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) (٢) . وقوله (أم يقولون شاعر تتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين) (٣) .

وقد أنزل الله تعالى فى مطاردة قريش له لقتله واقتفائها أثره حتى وقفوا على الفار الذى كان يمين فيه ، وسمع أبو بكر ديبب أقدامهم ازاءه ، واشتد خوفه على حياة رسول الله حتى بكى وقال : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر الى موضع قدميه لابصرنا ، فهدأ رسول الله من روع أبى بكر ، وقال (لا تحزن ، إن الله معنا ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما .) (٤) وقال تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما فى الفار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن ان الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم) . (٥)

وهكذا ، تمت الهجرة من مكة الى المدينة وانتهى عهد الاضطهاد والفتنة والبلاء والكفاح السلمى . ولم تكن الهجرة (هروبا) على ما اصطلاح عليه المبشرون والمترجمون للسيرة النبوية فى لغات الغرب ، فقد اطلقوا عليها باللغة الانجليزية Flight, Flee, Escape (٦) فالحقيقة الاجتماعية للهجرة انها لم تكن انعداما للعملية الاجتماعية التى يسميها الغربيون Social Process (٧) كما لم تكن عزلة Isolation لانها لو كانت كذلك لآدت عواقبها الى هدم بناء المجتمع المكى وازالته ، ولكن الذى أثبتته التاريخ أن عواقبها آدت الى اعادة بناء المجتمع المكى على أساس جديد .

ومن هذا العرض الموجز للعهد المكى الذى امتد أكثر من نصف عمر الدعوة الاسلامية والجهاد الاسلامى الذى صاحب الدعوة منذ بعثة النبى عليه الصلاة والسلام الى أن رفع الى الرفيق الاعلى . وقد لاحظنا أن هذا العهد لم يكن عهد مقاومة ولا قتال ، ولم يكن عهد دولة ولا تشريع ، ولم يقم فيه المسلمون بعمل ايجابى دفاعا عن أنفسهم من عدوان المشركين ، تبرز لنا سمات هذا العهد ، التى من أهمها تربية المؤمنین على ضبط النفس والتجرد والصبر والاحتمال ، وهو عمل كبير وجهاد شاق قام به الرسول عليه الصلاة والسلام وفق منهج القرآن فربى جماعة كانت هى الاساس الذى قام عليه مجتمع المدينة وجيش الاسلام الجديد .

وإذا جاز لنا ان نعقد موازنة بين طبيعة الجهاد فى كل من العهدين المكى والمدنى ، من حيث المشقة والجهد الذى تطلبه كل منهما ، ومن حيث الاثر الذى تركه فى سير الدعوة وتاريخ الاسلام ، وأدركنا مدى ما كان فى العهد المكى من مشقة ، ومدى ما بذل فيه من جهد ، وما تطلبه من ايمان ومصابرة ، فالسوت صبيرا اثناء التعذيب ، وتجرع الفيظ ، والصبر على اذى اللئام مع القدرة

١ (سيرة ابن هشام ٤٨٠/١) والسيرة النبوية ٤ (السيرة النبوية لابن كثير ٢٤٢/٢)

٢ (الانتفال / ٣٠) لابن كثير ٢٢٥/٢ - ٢٢٩ .

٣ (النبوة / ٤٠)

Fairchild, Dictionary of Sociology, ٦
P. 150. Muir : the life of Moham
med.

Religious Leaders by: Henry Tho- (٧
mas.

على الدفاع والانتصار ، أشق على النفوس المؤمنة من خوض المعارك وبذل النفس في ميادين القتال .

أما أثر كل من المهديين في سير الدعوة وتاريخ الجهاد ، فهما مرحلتان متلازمتان ، وعهدان متكاملان يؤدي أولهما تلقائيا إلى الثاني ، ولا يقوم الثاني إلا على أساس الأول ، فبناء الجماعة المسلمة وإعدادها في سبيل الله ، وتربية الأسرة المؤمنة التي تسند ظهر المجاهدين وتؤمن بالبذل والاستشهاد لا توهن توتها خسارة الأتفس والأموال .

إن ذلك كله لا بد أن يتم قبل تكوين الدولة وخوض معارك القتال ، وهذا ما فعله منهج الإعداد الإسلامي للجهاد ، وهو سرّ عظمة مجتمع المدينة ، وسر ما رواه التاريخ عن الرعيل الأول في السلم والحرب على السواء . (١)

ومن ثم تتضح الحكمة الربانية في أمر المسلمين بالمسالمة دون قتال في مكة قبل الهجرة وكان الله سبحانه أراد تعويد المسلمين على الطاعة وامتثال الأوامر ولو كانت هذه الطاعة على حساب الأعصاب المرهقة النائرة .

والأمر الثاني الذي يلوح لنا من وراء الكف عن القتال في مكة هو أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة ونجدة .. وقد كان صبر المسلمين على الأذى ، وفيهم من يملك رد الصاع صاعين ، مما يثير النخوة ويحرك القلوب نحو الإسلام . وهذا ما حدث بالفعل حين ثارت النخوة في نفوس بعض المكين ومزقوا صحيفة المقاطعة الاقتصادية ، وانتهى الحصار تحت تأثير هذا الشعور الذي كانت القيادة الإسلامية في مكة تراعيه في خطة الكف عن المقاومة .

ومما يتعلق بهذه الناحية أن القيادة الإسلامية لم تشأ أن تثير حربا دموية داخل البيوت ولو أذن للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم يومذاك لكان معنى هذا الأذن أن تقوم معركة في كل بيت وأن يقع دم في كل أسرة .. مما يجعل الناس ينفرون من الإسلام والمسلمين . أما بعد الهجرة فالوضع مختلف تماما فقد انعزلت الجماعة المسلمة كوحدة مستقلة تواجه سلطة أخرى في مكة . ويضاف إلى هذا قلة عدد المسلمين وضعفهم إلى جانب كثرة عدوهم وقوته ، فلو تعرضوا لقتال قريش في صورة جماعية ذات قيادة حربية ظاهرة ربما يأتي القتل عليهم جميعا . فشاء الله أن يكتروا وأن ينصروا باخوانهم أهل المدينة .

وهذه الاعتبارات كلها — فيما نحسب — كانت بعض ما اقتضت حكمة الله وإرادته العليا في أمر المسلمين بالكف عن القتال في مكة ، حتى تتم تربيتهم وإعدادهم إعدادا قويا للجهاد ، مع الانتفاع بظروف البيئة المكية في تلك الفترة .

وعلى كل حال فقد سارت أحكام القتال بعد ذلك متدرجة وفق طبيعة المنهج الإسلامي وسماته الأصلية العميقة والتي أهمها وإبرزها الواقعية الحركية ، فهو حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية ، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها ، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة ولا بوسائل متجمدة .. والذين يسوقون النصوص الجهادية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ، ولا يدركون طبيعة هذه المراحل التي مر بها هذا المنهج ، وعلاقة

(١) الجهاد في الإسلام ٦/ محمد شديد .

النصوص في كل مرحلة منها يخلطون خلطا شديدا ، ويلبسون منهج هذا الدين لباسا مضللا ، ويخلطون النصوص مالا تحتل من المبادئ والقواعد النهائية . وذلك أنهم يعتبرون النصوص المرحلة كما لو كانت نصا نهائيا ، يمثل القواعد الثابتة لهذا الدين .

وعلى هذا فإن الكف عن القتال في مكة وتحريمه لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة سنرى تفاصيلها في المرحلة الثانية للجهاد وهي المرحلة المدنية .

ثانيا : المرحلة المدنية :

وقد أدرك بعض علمائنا الأفاضل بثاقب فكرهم طبيعة هذا الدين ومنهجه التدريجي في تشريع الأحكام الجهادية وتطورها . ويمكن تلخيص مراحل الجهاد في العهد المدني على النحو التالي :

أولا - الأذن في القتال :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (١) « وكان الله لما بعث نبيه وأمـره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله حتى هاجر إلى المدينة فأذن له وللمسلمين في قوله (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) . وقال الإمام ابن القيم (٢) : فلما استقر رسول الله بالمدينة وأيده الله بنصره وبعياده المؤمنين وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر ، وبنلوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، رمتهم العرب عن قوس واحدة وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب والله سبحانه يامر (٣) بالصفح والصفح حتى قويت الشوكة واشتد الجناح فأذن الله حينئذ في القتال ولم يفرضه عليهم فقال تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ..) ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة وكان محرما ثم ماذونا به ثم ماـمورا به لمن بدأهم بالقتال ثم ماـمورا به لجميع المشركين إما فرض عين على أحد القولين أو فرض كفاية على المشهور) .

وقال الشافعي رحمه الله (٢) : « أعلم أن أول ما أنزل الله عليه » على النبي عليه الصلاة والسلام « اقرأ باسم ربك الذي خلق ولم يؤمر بأن يدعو إليه المشركين ، ثم أمره بدعوتهم فكبر ذلك عليه وخاف التكذيب ثم فرض عليه إبلاغهم ولم يفرض عليه قتالهم ولم يأمره بعزلهم ثم فرض عليه عزلة المشركين ثم أذن له بالهجرة غير محرم على من بقى ترك الهجرة والإقامة في دار الشرك ولم يأذن لهم بجهاد ثم أذن الله عز وجل لهم بالجهاد ثم فرض بعد هذا عليهم أن يهاجروا من دار الشرك) .

١ (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي ٢ زاد المعاد ٥٨/٢ وأنظر سيرة ابن هشام والرمية /٥٦ .

٢ (الام ٨٢/٤ .

وهذا ما قاله (السرخسي) (١) (كان رسول الله مأمورا في الابتداء بالصفح والاعراض عن المشركين ، ثم أمر بالدعاء إلى الدين بالوعظ والمجادلة الحسنة ، ثم أمر بالقتال إذا كانت البداية منهم ، ثم بالبداية بالقتال . فاستقر الأمر على فرضية الجهاد مع المشركين وهو فرض قائم إلى قيام الساعة) . وقال ابن حجر الهيتمي (٢) « وكان في عهده عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة ممنوعا ثم بعدها أمر بقتال من قاتله ثم أُبِيح الابتداء به في غير الأشهر الحرم ثم أمر به مطلقا » .

ومن الطبيعي أن يأذن الله لرسوله وللمؤمنين بالقتال في أول العهد بالمدينة ، وليس صحيحا أن يقال إن الإذن بالقتال كان آخر العهد بمكة . وإنما أرى أن أول آية نزلت في إباحة القتال بعد النهي عنه في نيف وسبعين آية هي قوله تعالى (إن الله يُدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) (٣) .

إن سياق الآيات يدل دلالة واضحة على أن الترخيص في القتال بعد الهجرة وإخراج المسلمين من ديارهم وقد قالت طائفة إن الإذن كان بمكة والسورة مكية . وهذا غلط لوجوه كما قال ابن القيم (٤) : أحدهما : أن الله لم يأذن لهم في القتال ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة .

الثاني : إن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم فإنه قال (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) وهؤلاء هم المهاجرون .

الثالث : أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة ، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به) أي بالقرآن فهذه سورة مكية ، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة ، أما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف .

الرابع : ما رواه الحاكم في مستدركه أن هذه أول آية نزلت في القتال وإسناده على شرط الصحيحين (.

١ (المبسوط ١٢/١٠ . نجيب أرمنازي / ٧٢-٧٣ والاسلام

والحضارة العربية ٢/٢٧٧ محمد كرد

على والسلام والحرب / ٢٦ ، ٢٧

صاغ محمد فرج .

٢ (الحج ٣٨ - ٤١

٤ (زاد المعاد ٢/٥٨ .

٢ فتح الجواد بشرح الارشاد لأبي العباس

ابن حجر الهيتمي على متن الارشاد

للإمام شرف الدين المقرئ ٢/٢٥٩ وانظر

حاشية الشرقاوى ٢/٢٩١ ونظم الحرب

في الاسلام / ٧-١٣ جمال الدين عياد،

وانظر الشرع الدولي في الاسلام د.

والحق الذى لا مرأى فيه أن هذه أول آية نزلت فى القتال للأسباب التى قدمها ابن القيم ولما أجمع عليه الرواة والمفسرون تقريبا ، كما قال الواحدى: قال المفسرون : كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله فلا يزالون يجيئون بين مضروب ومشجوج ، فشكوهم إلى رسول الله ، فيقول لهم : أصبروا فإنى لم أومر بالقتال حتى هاجر رسول الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال ابن عباس : لما أخرج رسول الله من مكة قال أبو بكر رضى الله عنه : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكن ، فأنزل الله (أذن للذين يقاتلون) . قال أبو بكر : فعرفت أنه سيكون قتال (١) . وقال العوفى عن ابن عباس نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم ، هذه أول آية نزلت فى الجهاد (٢) .

وقال الزمخشري : هى أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نهى عنه فى نيف وسبعين آية وقيل نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم فى مقاتلتهم (٣) .

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة (٤) هذه أول آية أذن فيها بالقتال الدفاعى بعد أن كانت الأوامر القرآنية تتوالى بوجوب الاكتفاء بالإنذار والتبشير والترغيب والترهيب والتذكير والتنديد والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة () .

أما قوله تعالى (أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) إن المراد من الإذن هنا الإباحة بدليل سبب نزولها ، فإن الله تعالى أراد رفع الحرج عن المؤمنين الذين لحقهم من إيذاء المشركين (٥) بقوله (ظلموا) فكانوا يأتون رسول الله من بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم (أصبروا فإنى لم أومر بقتال) . وقد قال المفسرون : أذن أى رخص وأباح للمؤمنين إذا قاتلهم المشركون قاتلوهم (٦) . وعلى هذا تكون المرحلة الأولى من مراحل الجهاد فى المدينة هى مرحلة إباحة القتال دون الأمر به وفرضه . وقد امتدت هذه المرحلة من قدوم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة إلى غزوة بدر الكبرى . وهذا الراى يُفسر لنا علة عدم اشتراك الأنصار فى سرايا الجهاد الأولى التى سببها النبى عليه الصلاة والسلام بعد أن استقر بالمدينة . ويُفسر لنا من ناحية أخرى عدم وقوع اصطدامات حربية بين تلك السرايا الكثيرة وبين قوافل قريش ، فقد كانوا يكتفون بمجرد تهديد قريش دون قتالها . وذلك لأن هذه المرحلة لم يسمح فيها الإبتداء بالقتال إطلاقا لا فى الشهر الحرام ولا فى غيره ، ومصادق ذلك استنكار رسول الله عليه الصلاة والسلام على عبد الله بن جحش قتاله قافلة قريش بقوله عليه الصلاة والسلام « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » (٧) .

- | | |
|---|---|
| ١ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . | ٢ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . |
| ٢ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . | ٢ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . |
| ٣ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . | ٣ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . |
| ٤ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . | ٤ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . |
| ٥ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . | ٥ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . |
| ٦ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . | ٦ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . |
| ٧ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . | ٧ (أسباب النزول ٢٠٨ ، وسنن النسائى ٥) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى هامش ١١٥ . |

وكان رسول الله يعلم أن بيعة العقبة بينه وبين الأوس والخزرج كانت بيعة دفاعية تمهدوا فيها بحمايته ما دام في رجالهم في المدينة ولم يعاهدوه ليهاجروا معه . وسنرى ذلك صريحا في غزوة بدر إذ كان رسول الله يخشى ألا يشترك الأنصار معه في قتال قريش ولم يشجع للقتال إلا بعد إعلانهم الموافقة عليه .

وتكاد تكون هذه المرحلة امتدادا للمرحلة المكية مع قليل من الاختلاف وهو السماح بالدفاع عن النفس بعد أن كان محظورا . ولذلك استغلها رسول الله أعظم استغلال في بناء المجتمع المدني من الداخل وعقد المعاهدات التي توثق عـرارة استعدادا للانتقال إلى المرحلة الثانية .

وسنجد أن السياسة الربانية في هذه المرحلة تأمر الرسول والمسلمين أن يصبروا على ما يسمعون من فحش القول ومن الدس والوقعية التي كان يقوم بها اليهود والمنافقون ، ولم يأمر بالرد عليهم أو بقتالهم تماما كالمرحلة المكية . وكل هذا يؤكد لنا بما لا يدع مجالا للشك أن الجهاد الإسلامي مر في مراحل تاريخية تختلف كل مرحلة عن سابقتها ولاحتقتها ، ولم يكن رسول الله والذين آمنوا معه يفعلون أكثر مما تأمرهم به الخطة الالهية في كل مرحلة على ما سنرى تفصيله في المراحل التالية .

وقد نزل في هذه المرحلة سورة البقرة تقريبا إذ هي أول سورة نزلت في المدينة ، كما ساهمت آيات من سور أخرى في المشاركة في توضيح طبيعة تلك المرحلة .

المرحلة الثانية : من غزوة بدر إلى صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة :

وقد نزل في هذه الفترة السور التالية : الأنفال — آل عمران — الأحزاب — الحشر . وقد فرض الله القتال في هذه المرحلة على المسلمين لمن قاتلهم والكف عن من لم يقاتلهم . قال تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١) .

قال الإمام الشافعي رحمه الله (٢) : « ولما مضت لرسول الله عليه الصلاة والسلام مدة من هجرته أنعم الله تعالى فيها على جماعة باتباعه حدثت لهم بها من عون الله قوة في العدد لم تكن قبلها ففرض الله تعالى عليهم الجهاد بعد إذ كان أباحه لا فرضا فقال تبارك وتعالى (كتب عليكم ...) .

قال القرطبي (٣) : قوله تعالى (كتب) معناه فرض وهو مثل قوله (كتب عليكم الصيام) « كتب عليكم القتل » هذا هو فرض الجهاد ، والمراد بالقتال قتال الأعداء من الكفار » .

وقال تعالى في سورة البقرة (٤) « قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

« ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم »

٣ (تفسير القرطبي ٣٨/٣)

١ (البقرة / ٢١٦)

٤ (البقرة / ١٩٠ - ١٩٤)

٢ (الام / ٨٤/٤)

كذلك جزاء الكافرين « (١) » فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين « (٢) » .
وهذه الآيات مبكرة النزول إذ انها أول آيات يُفرض فيها القتال حتى ظن البعض انها أول آيات نزلت في القتال . عن الربيع بن انس عن ابي العالية قال « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » . هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة . فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله ويكف عن كفه عنه « (٣) » .
أما قوله تعالى (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) أي لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام ، إلا أن يبدؤكم بالقتال فيه فلكم حينئذ قتالهم دفعا للصلوات . .
ومن هذه الآية يتضح جيدا أن الله سبحانه لم يسمح لهم بالقتال في الشهر الحرام ولا في المسجد الحرام .
ومن آيات هذه الفترة قوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٤) .

وهذا النص يتعلق بالفريق الذي اعتزل المسلمين ولم يقاتلهم ، وجنح إلى السلم ولم يظهر العداء والمقاومة للدعوة ولا للدولة المسلمة . وقد أمر الله تعالى أن يترك هذا الفريق وأن تقبل مهادنته ومسالته وذلك حتى نزول سورة براءة . وقد عمل رسول الله بهذا النص فعمد محالفات وعهود صلح مع المشركين واليهود . فمن ذلك العهد الذي عقده مع يهود المدينة على المسالمة والموادعة والدفاع عن المدينة ، وأما عهود المشركين فقد كانت كثيرة إذ أنه عليه الصلاة والسلام كان يحالف القبائل العربية المنتشرة حول المدينة على عدم الاعتداء وعلى النصرة أحيانا وقد عقد صلحا مع عيينة ابن حصين الفزاري سيد غطفان يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة ولم يرض عنه الأنصار . وعقد في نهاية هذه المرحلة صلح الحديبية مع قريش .
المرحلة الثالثة : من صلح الحديبية إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة .

وقد نزل في هذه المرحلة السور التالية : المتحنة - النساء - الزلزلة - الحديد - محمد - الرعد - الرحمن - الانسان - الطلاق - البينة - النور - المنافقون - المجادلة - الحجرات - التحريم - التغابن - الصف - الجمعة - الفتح - المائدة .

وفي هذه المرحلة سمح الله للمسلمين بالمبادرة بالقتال من غير تقييد بشرط زمان أو مكان ودون أن يبدأ الكفار بقتالهم .
قال تعالى « واقتلوهم حيث ثقفتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل » (٥) . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (٦) وقوله « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وأخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل » (٧) . أما قوله تعالى « واقتلوهم حيث ثقفتهم » أي حيث وجدتموهم في حل أو حرم (٨) .

- | | |
|---|--------------------|
| ١ (البقرة / ١٩٠ - ١٩٤) | ٥ (البقرة / ١٩١) |
| ٢ (البقرة / ١٩٠ - ١٩٤) | ٦ (البقرة / ١٩٣) |
| ٣ (تفسير ابن كثير ٢٢٦/١ وتفسير القرطبي ٣٤٧/٢) | ٧ (البقرة / ٢١٧) |
| ٤ (الأنفال / ٦١) | ٨ (الكشاف / ٣٤٢) |

ولكن همتمكم منبعثة على قتالهم كما همتمهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجكم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصا (١) « والفننة أشد من القتل » أى الفننة التي حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشد من القتل والقتال فى الشهر الحرام (٢) .

وقوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال القرطبي (٣) امر بالقتال لكل مشرك فى كل موضع ، وهو أمر مطلق لا بشرط أن يبدأ الكفار ، دليل ذلك قوله تعالى (ويكون الدين لله) وجمهور العلماء على أن القتال فى الشهر الحرام مباح (قال ابن خزيمة منقاد) ولا تقاطوهم عند المسجد الحرام (منسوخة لأن الإجماع قد تقرّر بأن عدوّا لو استولى على مكة ، وقال لأتاتلكم ، وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكة لوجب قتاله وإن لم يبدأ بالقتال ، فمكة وغيرها من البلاد سواء ، وإنما قيل هى حرام تعظيما لها) (٤) .

أما قوله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) قال القرطبي قوله تعالى (قل قتال فيه كبير) ابتداء وخير ، أى مستنكر ، لأن تحريم القتال فى الشهر الحرام كان ثابتا يومئذ إذا كان الابتداء من المسلمين . فمعنى الآية على قول الجمهور : إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال فى الشهر الحرام ، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لن أراد الإسلام ، ومن كفركم بالله وإخراجكم أهل المسجد منه ، كما فعلتم برسول الله وأصحابه أكبر جرما عند الله (٥) .

ومن آيات هذه المرحلة (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) (٦) .

قال قتادة : (٧) أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى ذى القعدة ، حتى إذا كانوا بالحديبية صدّهم المشركون ، فلما كان العام المقبل دخلوا مكة ، فاعتصموا فى ذى القعدة ، وأقاموا بها ثلاث ليال ، وكان المشركون قد فجروا عليه حين رده يوم الحديبية فأقصه الله تعالى منهم فنزلت . وقال تعالى أيضا : (هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدى معكونا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطاؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا ليما) . (٨)

وقوله (لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) (٩) .

المرحلة الرابعة :

من غزوة تبوك إلى انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى فى السنة

- | | |
|--|-----------------------------------|
| ١ (تفسير ابن كثير ٢٢٦/١) . | ٢٤٩ - ٢٥١ هـ |
| ٢ (تفسير القرطبي ٢ : ٢٥١) . | ٦ (البهرة ١٩٤) . |
| ٣ (تفسير القرطبي ٢ : ٢٥٢) . | ٧ (أسباب النزول للواحدي / ٢٤) . |
| ٤ (المرجع السابق ٢ : ٢٥٢) . | ٨ (الفتح ٢٥) . |
| ٥ (المرجع السابق ٢ : ٤٥٠ لوالكشاف ١/٢٥٧) . | ٩ (الفتح ٢٧) . |
- وتفسير ابن كثير ٢٥٤/١ وحياة محمد

العاشرة . ونزل في هذه الفترة (سورة التوبة . والنصر) .
وهذه هي المرحلة النهائية التي حددت فيها سورة براءة العلاقات النهائية بين المسلمين وغير المسلمين ، مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقيدية التي يقوم عليها هذا التحديد . وقد عرفنا من التسلسل التاريخي لأحكام الجهاد ان الكفار كانوا من النبي عليه الصلاة والسلام بعد هجرته على ثلاثة أقسام كما يقول المؤرخون (١) والمفسرون : قسم وادعهم عليه الصلاة والسلام على أن لا يحاربوه ولا يؤلبوا عليه عدوه وهم طوائف اليهود الثلاثة بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع ، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة كقريش ، وقسم تركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب فمنهم من كان يحب ظهوره ومنهم من كان معه ظاهرا ومع عدوه باطنا وهم المنافقون) .

ثم قال ابن القيم (٢) : ثم كان الكفار مع صلّى الله عليه وسلم بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام أهل صلح وهذنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة فأمر بأن يتم لاهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفى لهم ما استقاموا على العهد فان خاف منهم خيانة نبذ اليهم عهدهم وأمر بقتال من نقض عهده . ولما نزلت براءة نزلت ببيان حكم هذه الاقسام كلها فأمر بأن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الاسلام (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (٣) .

وأمر فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم اليهم (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسبحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين .. إلى قوله تعالى : (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إنّ الله غفور رحيم) (٤) . أما المنافقون فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكلم سرايرهم إلى الله وأن يجاهدوهم بالعلم والحجة وأمر أن يعرض عنهم ويغلب عليهم وأن يبلغ القول البليغ إلى نفوسهم . ونهى أن يصلى على أحد منهم وأن لا يقوم على قبره وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . قال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم وماوهم جهنم ويئس المصير) (٥) .

وهكذا تنتهي المراحل التي مر بها فرض الجهاد في الاسلام كما تحدثت عنها الآيات الجهادية مكية كانت أم مدنية . ولا يبدو لنا في هذه الدراسة التاريخية أى تعارض أو تناقض بين النصوص القرآنية في المراحل المختلفة ، ومن ثم فلسنا في حاجة إلى القول بنسخ الآيات الجهادية بعضها البعض الآخر كما فعل القدماء . وسيطول بنا المقام لو تناولنا كل آية جهادية ادعوا عليها النسخ ، فلم تسلم آية في زعمهم من أن تكون ناسخة أو منسوخة ، ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك .

١ (الاتوار المحمدية من المواهب اللدنية	١٦٩/ وزاد المعاد ٢/٧٠ .
أرمنازي والاسلام والحضارة الغربية	٢ (زاد المعاد ٢/٨١ وانظر دعائم الاسلام
د. محمد كرد على ٢/٢٣٧ .	لابي حنيفة ٣٤٠ ، ٢٧٥ والشرع
٣ (براءة ٢٩ .	الدولى في الاسلام ٧٢ د. نجيب
٤ (براءة ١ - ٥ .	
٥ (براءة ٧٢ .	

قال الحسين بن الفضل : نسخت آية السيف (فإذا انسلخ الأشهر الحرم
فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) كل آية فى القرآن فيها ذكر الاعراض والصبر
على أذى الإعداء (١) .

وقال ابن سلامة فى الكليات التى ختم بها كتابه (كل ما فى القرآن من
مثل فأعرض عنهم وتول عنهم ، وخلوا سبيلهم ، وما شاكل ذلك ، فناسخه آية
السيف) .

وقال ابن العربى : كل ما فى القرآن من الصفح عن الكفار والتولى
والاعراض والكف عنهم فهو منسوخ بآية السيف التى نسخت مائة وأربعا
وعشرين آية . ثم نسخ آخرها أولها (٢) .

وقال الدكتور مصطفى زيد : (٣) (وتبيننا الآيات التى ادعى عليها النسخ
بآية السيف فإذا هى تناهز الأربعين بعد المائة . هذا مع أنها فى نظر القائلين
بنسخها لهذا العدد من الآيات منسوخة بما أمر به فى آخرها من تخلية سبيل
المشركين ، إن هم تابوا عن شركهم بالله فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ! ولكن هل
بقيت لهم بعد إيمانهم صفة الاثراك بالله ، حتى يعتبر الأمر بإخلاء سبيلهم ناسخا
للأمر بقتلهم) .

وقال ابن الجوزى (زعموا أن آية السيف نسخت آية من سورة البقرة ،
مع أنها تقرر الحكم الذى يقرره الناسخ هنا . قال تعالى فى سورة البقرة (فإن
قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم (٤) وأى
فرق بين قوله تعالى هذا وبين قوله فى آية السيف (فإن تابوا) وقالوا آية
السيف نسخت الآية الثانية من سورة التوبة (فسيحوا فى الأرض) .

وقال فى إبطال هذه الدعوى (زعم بعض ناقلى التفسير ممن لا يدرى ما
ينقل إن هذا التأجيل منسوخ بآية السيف . وقال بعضهم منسوخ بقوله (فأبذ
ليهم على سواء) وهذا سوء فهم وخلاف ما عليه المفسرون (٥) .

وقد زعموا أن آية السيف نسخت قوله تعالى (وإن أحد من المشركين
استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) (٦) . روى السدى (٧)
والضحاك أنها منسوخة بقوله (فاقتلوا المشركين) .

وقالوا إنها نسخت آية البقرة (ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى
يقاتلوكم فيه) قال قتادة ومقاتل نسخها قوله تعالى « واقتلوهم حيث ثقتموهم »
وقال ابن خويز منداد أنها منسوخة بقوله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) وقال
القاضى الزنجانى (ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام) منسوخة بقوله (فاقتلوا
المشركين حيث وجدتموهم) (٨) .

والحق أن القول ما قال ابن الجوزى فى صنيع القدماء فى التوفيق بين
الآيات بالناسخ والمنسوخ (إنهم لا يدرون ما ينقلون) .

وقد عرض لهذه المشكلة (التوفيق بين الآيات المعارضة) الكثير من
المحدثين فعمدوا إلى النصوص المرحلية ، فجعلوا منها نصوصا نهائية ، وإلى
النصوص المتيدة بحالات خاصة فجعلوا منها نصوصا مطلقة للدلالة . فقد

- | | |
|------------------------------------|--------------------------------------|
| ١ (تفسير القرطبى ٦٢/٨ . | ٤ (البقرة / ١٩٢ |
| ٢ (الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ٤٩٤ | ٥ (نواسخ القرآن ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٥ ، ٩٦ . |
| والاقتان فى علوم القرآن للسيوطى | ٦ (التوبة / ٦ . |
| ٢٥/٢ والبرهان للزركشى ٤٠/٢ . | ٧ (الكشاف ١٧٥/٢ . |
| ٣ (النسخ فى القرآن ٥١٠ . | ٨ (تفسير القرطبى ٢٥١/٢ . |

عمدوا مثلا إلى لى أعناق النصوص الختامية في سورة براءة التي تحدد طبيعة العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين وأولوها تأويلا يتمشى مع ضغط الواقع الحاضر وثقله ، وهزيمتنا الروحية أمام حملات المستشرقين والمبشرين على أعظم أصل من أصول الدعوة الإسلامية وهو الجهاد الذي صاحبها من بعثة رسول الله إلى وفاته . فمن أقوال علمائنا المحدثين مثلا ما قاله الدكتور محمد عبد الله دراز (١) بعد أن قرر أن هذه المشكلة من أخطر المشاكل على الباحث في الشريعة الإسلامية إذا وقف عند أطرافها المجبلة ، لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم . حتى إذا سعى في الصلح بينها براهه لم يأمن على نفسه الهوى والزلل في تأويلها . . ثم يمضى بأسلوبه المشرق الفياض يتلمس للجهاد غزوة غزوة أسبابا دفاعية محضة حتى يقول وجملته القول : إن خوض الرسول غمار الحرب لأول مرة كان حادثا فجائيا حقا لم تهمد له مقدمات حياته بالمدينة ، كما لم تهمد له مقدمات ميوله ونزعاته ، ولا شخصيته ومنزلته في قومه . فالواقع إن أول حرب في الإسلام لم يوقدها المسلمون ، بل كانوا وقودها ، وإن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها .

والخلاصة : إن الحرب ليست هي القاعدة ، وإنما هي استثناء من القاعدة ، وإنما لا يخلقتها الإسلام ، ولكن يخلقها أعداؤه ، بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية ، وهي محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم خطوة ولا تستأخر خطوة (قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) ، (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين أن تبروهم . . .) .

هذه هي طريقة تفكير الدكتور الجليل محمد عبد الله دراز للتوفيق بين الآيات (الحرب محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم خطوة ولا تستأخر خطوة) . . ثم يستشهد بالنصوص التي وضعناها في المرحلة الثانية على الجهاد الإسلامي كله ويحكم عليه هذا الحكم الذي لا يمت إليه بصلة .

ويعلق الاستاذ محمد عزة دروزة (٢) على الآيات التي ادعى القدياء نسخها بآية السيف (وفي هذا غلو ومناقضة للتقديرات القرآنية المتضمنة لأحكام محكمة بعدم قتال غير الأعداء وترك المسالمين والموادعين وبرهم والإقساط اليهم) . فالاستاذ الفاضل ينكر الأحكام النهائية التي جاءت في سورة براءة إنكارا تاما ويؤولها تأويلا يخرجها عن طبيعتها وسبب نزولها ليقول في النهاية كما قال الدكتور دراز إن الأحكام المرئية هي المحكمة . والنهائية يمكن تأويلها حسب المرئية . وحتى يحصل على شهادة للجهاد أنه للدفاع عن النفس والأرض فقط .

ولا تكاد آراء علمائنا المحدثين (٣) تخرج عن دائرة رأى الدكتور دراز والاستاذ دروزة .

وبعد ، فأننى أحمد للقدياء فهمهم العميق الأصيل لطبيعة هذا الدين وتطور أحكامه من مرحلة إلى أخرى على مقتضى الواقع الذي يعيشه المسلمون ، ولكننى لا أوافقهم أبدا على أن تلك الأحكام المرئية منسوخة ، بحيث لا يجوز العمل بها

١ (مجلة الأزهر المجلد الرابع والعشرون ٣) (راجع كتاب الشيخ محمود شلتوت ، والاستاذ عبد الرحمن عزام ، والاستاذ ٥٢ ، من ص ١٠ الى ص ٢٠ .
٢ (التفسير الحديث ٦٨/١٢ وانظر سائر مؤلفات الاستاذ الكبيرة .

في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة براءة ، ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والامكنة والأزمنة هي التي تحدد عن طريق الاجتهاد المطلق أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف وفي زمان من الأزمنة ، في مكان من الأمكنة ، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يُصار إليها، متى أصبحت الأمة المسلمة في الحالة التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام ، كما كان حالها عند نزول سورة التوبة ، وما بعد ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التي قامت على أساس هذه الأحكام الأخيرة النهائية .

فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق الأحكام النهائية ، فهم في هذه اللحظة — غير مكلفين بتحقيقها ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ولهم في الأحكام المرحلية سعة يندرجون معها حتى ينتهوا ، إلى تنفيذ هذه الأخيرة عندما يكونون في حال يستطيعون معها تنفيذها . ولكن عليهم ألا يلجأوا إلى النصوص النهائية لتوافق النصوص المرحلية ، وعليهم ألا يحملوا ضغطهم الحاضر على دين الله القوي المتين .

ويرحم الله السيوطي العالم الفهامة الذي استطاع أن يتوصل إلى حل سليم لهذه المشكلة دون القول بنسخ الآيات ، كما فعل القدماء أو تأويلها تأويلا خاطئا كما فعل المحدثون . قال في كتابه الانتقان تحت عنوان (ناسخه ومنسوخه) فيقسم ذلك إلى أنواع ثلاثة حتى يقول الثالث : (ما أمر به لسبب ثم يزول السبب كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح ثم نسخ بإيجاب القتال وهذا في الحقيقة ليس نسخا بل هو من قسم المنسأ . كما قال تعالى (أو ننسأها) فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى وبهذا يضعف ما يلجأ به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف وليس كذلك بل هو من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعله تقتضى ذلك الحكم بل تنتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر . وليس بنسخ إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله . وقال مكي ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مئسمر بالتوقيت والغاية مثل قوله في البقرة فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل والمؤجل بأجل لا نسخ فيه) (١) .

هذا هو الفهم الحقيقي لآيات الله البيّنات ، وهو فهم فاق به السيوطي الأولين والآخرين . ولكن والحق يُقال إن الراغب الأصفهاني قد أدرك طبيعة هذا الدين أيضا وعلّة تدرج أحكامه فقال (أمر الرسول أولاً بالرفق والاقتصار على الوعظ والمجادلة الحسنة ، ثم أذن له في القتال ، ثم أمر بقتال من يابى الحق بالحرب ، وذلك كان أمراً بعد أمر على حسب مقتضى السياسة) (٢) .

والعلاقات الدولية للشيخ محمود شلتوت
٤٢/ وآثار الحرب في الفقه
الإسلامي / ١١٤ .

١ (الانتقان في علوم القرآن ٢١/٢ ط .
الثالثة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
٢ (البحر المحيط لأبي حيان ٦٥/٢ وإسلام

الفصل الثاني

مجاهرة المشركين

حددت أولى آيات الجهاد نزولا عدو المسلمين الأول ، ووجهت انظارهم إلى البدء بقتاله قبل بقية الأعداء (أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » (١) .

وذلك لأنهم هم أول من بادى المسلمين بالعداوة كما شهد بذلك الحق تبارك وتعالى « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدآؤكم أول مرة » (٢) .

وكيف لا يوجه المسلمون الضربة الأولى لعدوهم الأول الذي أخرجهم من ديارهم وأموالهم وأهلبيهم وعشيرتهم . وأعلن العداء لمن آواهم ونصرهم من أهل المدينة منذ إعلان بيعة العقبة الثانية حتى تحرشوا بهم وفتكوا بسيد من ساداتهم كما ذكرت . بل إنهم بعثوا إليهم يهددونهم بالحرب إن لم يُخرجوا محمدا والذين هاجروا معه من مدينتهم ، فقد كتبوا إلى عبد الله بن أبي ابن سلول « أنكم آويتم أصحابنا ، وإنا لنقسم بالله لنقاتلن أو لتخرجن أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم . ونستبيح نساءكم » (٣) .

وقد بذلت قريش (العدو الأول) كل ما في وسعها لكي تجمع القبائل العربية على حرب المسلمين ، فجعلت تحرضهم وتفريهم بقتال المسلمين ، وتأمرت مع اليهود والمنافقين في داخل المدينة ، ولهذا قضى المسلمون أيامهم الأولى بالمدينة بين خوف وذعر ، يترقبون في كل لحظة عدوا يهاجمهم بقوته من الخارج ، أو يُفاجئهم بخيانتته من الداخل .

فقد رمتهم العرب قاطبة عن قوس وتعرضوا لقتالهم من كل جانب ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يُصبحون إلا فيه (٤) .

ولم تكف قريش بكل هذا بل راحت تصب جام غضبها وعذابها على من تعد به العجز والضعف من المسلمين عن الهجرة إلى المدينة . فتعالت صيحات هؤلاء المستضعفين ، وارتفعت أكتفهم إلى الله ضارعين « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » (٥) .

وقد حاول قائد المجاهدين عليه الصلاة والسلام درء الخطر المحقق من كل جانب بالمسلمين ، الذين كانوا كما وصفهم الله تعالى (تخافون أن يتخطفكم الناس) . فكان أول أعماله الحكيمة أن كتب كتابا بين المهاجرين

١ (الحج / ٣٩) ٤ (الشرع الدولي في الإسلام / ٧٢) وصور

٢ (التوبة / ١٣) . من حياة الرسول ٢٧١ .

٣ (السياسة الإسلامية في عهد النبوة / ٧٤) ٥ (النساء / ٧٥) .

عبد الختم الصعدي .

والأنصار وبين اليهود وادعهم فيه وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم
وشرط لهم واشترط عليهم (١) .

ووضع النبي في تلك المعاهدة نصا خاصا بقريش واعتبرها عدو
المدينة الأول ، وحرّم على أهل المعاهدة أن يجير أحدهم مالا لقريش ولا نفسا .
وقد نصت المعاهدة على قيادة النبي عليه الصلاة والسلام لكافة سكان
المدينة مسلمين ومشرّكين ويهود وعلى تعاون أهل المدينة في رد أي اعتداء
عليها من الخارج . فاستطاع بذلك أن يجعلهم يدا على من سواهم وقد
انجز بذلك كافة استحضارات تحشد قواته ، فأصبحت جاهزة للدفاع عن
المدينة (٢) .

ونستطيع أن نقسم المراحل التي مر بها الصراع بين المسلمين والمشرّكين
كالآتي :

المرحلة الأولى : وتبدأ من قدوم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وحتى
غزوة بدر الكبرى .

وقد نزل في هذه المرحلة المبكرة سورة البقرة كما سبق أن ذكرت .
وفي الجزء الأول من هذه السورة يكشف الله تعالى عن تأمر أهل
الكتاب والمشرّكين على المسلمين والتّقائهم على هدف واحد « ما يود الذين
كفروا من أهل الكتاب ولا المشرّكين أن يُنزل عليكم من خير من ربكم والله
يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (٣) .

وهذه الآية تقرّر الصلوات الوثيقة التي جمعت بين اليهود والمشرّكين
منذ وقت مبكر ، وذلك لما كان في قلوب الفريقين من الحقد والحسد على رسول
الله والذين آمنوا معه ، والتعبير القرآني الكريم بقوله (ما يود) بصيغة
المضارع لإفادة استمرار هذا البغض والحسد من جهة الذين كفروا للذين
آمنوا .

وقد عرفنا من السرد التاريخي لمراحل تشريع الجهاد أن الله سبحانه
قد أباح للمسلمين الدفاع عن أنفسهم في هذه المرحلة بقوله تعالى « أذن للذين
يُقاتلون بأنهم ظلّموا وأن الله على نصرهم لقدير » (٤) .

ومن أجل ذلك أخذ رسول الله ينفذ الخطة الربانية في قتال أعداء الله
تنفيذا دقيقا ، فلم يقاتل إلا من أمر الله بقتالهم ، ولم يهاجم قريشا في عقر
دارها لأن (الإذن في القتال) الذي حدّدته هذه الآية الكريمة معناه مجرد إباحة
رد الاعتداء عن النفس بعد أن كان محظورا وهذا ما يفسر لنا أسرار السرايا
الكثيرة التي أرسلها رسول الله منذ قدومه إلى المدينة في طريق قوافل قريش .
فلم يكن يقصد منها الصدام المسلح مع قريش لأن في ذلك خروجا على الخطة
التي أمره تعالى بها . فالمتتبع لأخبار هذه السرايا جميعها في كتب المغازي
والسير لا يجد فيها وقوع شيء من القتال بين المسلمين والمشرّكين في هذه
المرحلة فيما عدا السرية الأخيرة التي خالفت أوامر الرسول عليه الصلاة

١ (سيرة ابن هشام ٥١١/٢ - ٦٠٦ تحقيق

٢ (الرسول القائد ٤٤/ محمود ششيت
خطاب .

٣ (البقرة / ١٠٥ .

٤ (الحج / ٣٩ .

١ (سيرة ابن هشام ٥١١/٢ - ٦٠٦ تحقيق
محيى الدين عبد الحميد ، والسيرة
النبوية لابن كثير ٣٥٦/٢ - ٣٧٢ وزاد
المعاد ٨٣/٢ - ٨٥ ، وحياة محمد
٢٤٣/٢ هيك ، وصور من حياة الرسول

والسلام إليها كما سيأتي ذكره . فقد استطاع أمير السرية الأولى حمزة بن عبد
المطلب رضى الله عنه أن يضبط نفسه عن قتال قافلة قريش تنفيذا لتعليمات
الرسول القائد عليه الصلاة والسلام .

ومما يؤيد ما ذهب إليه أن سرية حمزة رضى الله عنه التي كانت في
رمضان من السنة الأولى من الهجرة لم تكن لتزيد على ثلاثين رجلا من المهاجرين
ولم تزد سرية عبيده بن الحارث ، في ذي القعدة من السنة نفسها ، عن ستين
وكانت سرية سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة من السنة نفسها لم تتجاوز
ثمانية نفر . وكان الموكلون بحماية قوافل قريش عادة أضعاف هذه الأعداد .
فقد لقي أبو جهل حمزة في ثلاث مئة راكب من أهل مكة . وقد لقي أبو سفيان
عبيدة بن الحارث في مائتي راكب . وقد زادتهم قريش عددا وعدة منذ أقام
الرسول بالمدينة وبدأ يحالف القبائل التي بها والقريبة منها ، ففي الغزوة الأولى
التي غزاها النبي بنفسه عمل على التحالف مع القبائل المسيطرة على طريق قوافل
قريش ، فقد حالف بنى ضمرة محالفة عسكرية بالمعنى المفهوم من التحالف العسكري
في اصطلاح عصرنا إذ تعهد كل فريق بالدفاع عن الفريق الآخر في حالتي الدفاع
والهجوم ، فكانت تلك المعاهدة أول فوز عسكري لا يُستهان به .

وكانت تلك المحالفة هي ثالث محالفة عسكرية يعقدها النبي في خلال
أربعة عشر شهرا . وقد تدرج فيها تدرجا يستوقف النظر . فالمعاهدة
الأولى التي عقدها مع الأوس والخزرج ، اشترط عليهم الحماية والدفاع .
والثانية معاهدة المدينة (الصحيفة) قامت على مبدأ التعاون في الدفاع عن
المدينة نفسها إذا هاجمها مهاجم وعدم عقد صلح منفرد (١) .

وعلى آية حال لو كان النبي عليه الصلاة والسلام يريد قتال قريش حقيقة
لما كان عدد السرايا قليلا جدا بالنسبة لعدد حماة قوافل المشركين . . وهذا
يجعلنا نتساءل عن الغرض من هذه السرايا إذن ؟ يقول (الصاغ أركان حرب
محمد عبد الفتاح ابراهيم : الواقع إن التقدير الصحيح لهذه السرايا هي أنه
قصد بها أساسا إلى إعداد قوات تطوف بين المدينة ومكة للكشف والاستطلاع ،
حتى لا تؤخذ المدينة على غرة . والعمل على الاقتراب من قريش في عقر
دارها ، باغارات صغيرة سريعة ، تعمل على خطوط مواصلاتها إلى الشام
وبذلك يستطيع المسلمون أن يحصلوا من قريش على السبق في العمل ،
وهو عامل لازم في الدفاع الهجومى . والقى هذا العمل الرعب في قلوب
قريش فتخوفوا جانب المسلمين .

واستطاع المسلمون أن يبقوا قريشا على حذر ، فحراس القوافل وقادتها
يتوقعون لقاء المسلمين في كل لحظة ، وكل همس في الليل يقدر أن وراءه
الموت ، وهذا الاستعداد الدائم للحرب يثير الاعصاب وهو أشد إجهادا
من القتال ، وكان في هذا كسب معنوي للمسلمين ، وكانت هذه السرايا تعود
في كل مرة بمعلومات قيمة عن نيات قريش وما يعدونه للمستقبل القريب (٢) .
وقد قصد النبي عليه الصلاة والسلام تهديد قريش في تجارتها لعل ذلك
يدعوها إلى التفكير في التفاهم تفاهما طمع المسلمون في أن يكفل لهم ما كانوا
يطمحون إليه من حرية الدعوة إلى الدين ، ولم يكن هذا التفاهم ممكنا ما لم

١٤٤/ أمين سعيد .

١ (سيرة ابن هشام ٥٩٥/١ وما بعدها ،

٢ (محمد القائد ١٨ - ٢٠ .

وحياة محمد ٢٤٤/ هيكل والرسول

القائد / ٥٦ وتاريخ الاسلام السياسى

تقدر قريش قوة المهاجرين من ابنائها على الإيقاع بها وإيصاد طريق التجارة في وجهها (١) .

على أن الشيء الأهم هو أن المسلمين أرادوا أن يُثبتوا أنهم اقوياء ، يستطيعون الدفاع عن أنفسهم تجاه المشركين من قريش والقبائل المجاورة ، وأهل المدينة ، وإرهاب اليهود وتهديدهم في تجارتهم إذا فكروا في الاعتداء على المسلمين (٢) .

وكل هذه الأغراض طبيعية تتلاءم مع المرحلة التهديدية في الصراع مع المشركين .

أما السرية الأخيرة الوحيدة التي خرجت عن الخطة التي رسمت لها فهي سرية عبد الله بن جحش رضى الله عنه وهي الوحيدة التي أشارت إليها الآيات الجهادية .

قال ابن هشام بعث رسول الله عبد الله بن جحش في رجب من السنة الثانية في ثمانية رهط من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا . فلما سار يومين فتح الكتاب ، فنظر فيه فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم) .

وليس أدل من قوله صلى الله عليه وسلم (فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم) على تحديد طبيعة المهمة التي كلفت بها هذه السرية الأخيرة وبالتالي الكشف عن أهداف ما سبقها من السرايا . فهي إذن مهمة إستطلاعية لاستكشاف أخبار العدو ، ولم تكن حربا انتقامية هجومية كما ظن بعض المتحمسين من المسلمين (٣) ومن المتعصبين من المستشرقين .

وذكر ابن هشام بعد ذلك أن عبد الله بن جحش مضى هو وبقية أصحابه حتى نزل نخلة فمرت عبر لقريش تحمل تجارة من تجارة الشام فيها عمرو بن الحضرمي ، فنتشاور عبد الله وأصحابه فيهم وذلك في آخر يوم من رجب . فقالوا والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتعن منكم به ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام فتردد القوم ، وهابوا الأقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا رجلين .

فلما قدموا على رسول الله المدينة قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، فلما قال ذلك رسول الله سقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا وغنمهم إخوانهم من المسلمين فيها صنعوا . وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، فقال

١ (حياة محمد / ٢٤٥ - ٢٤٦ هـ) .

٢ (ثورة الإسلام وطلوئ الانبياء : ٧٨٩ محمد

لطفى جمعة ، وحياة محمد لموير

٢ (الرسول القائد : ٦٠ - ٦١ محمود شيت

وارفنج .

خطاب (اللواء الركن) .

من يرد عليهم من المسلمين ، ممن كان بمكة : إنما أصابوا ما أصابوا في شـعبان (١) .

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله عليه الصلاة والسلام : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فميمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم » (٢) .

وقد صورت هذه الآيات الكريمة الموقف أجمل تصوير ، وفرجت كربة عبد الله بن جحش وأصحابه ، وأتالت عثرتهم ، ووضعتم على أعظم الرجاء . وكشفت الفئاع عن وجه قريش البشع وما الحقته بالمسلمين من الأذى والفتنة ، بإخراجهم من ديارهم ظلما ، وصددهم عن المسجد الحرام وهم أهله وأولياؤه ، وأحق به منهم ، ولا زالت تهدف إلى القضاء عليهم وردهم إلى الكفر بعد الإيمان .

والقرآن هنا يقطع السننهم ويبطل احتجاجهم ويجيب على استنكارهم القتال في الشهر الحرام أهو من الكبائر ويقر أنه أمر كبير . ولكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر ، فالصد عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام . وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والإغراء والتهديد أكبر من القتل في الشهر الحرام . فان كانت قريش وكان المشركون يرتكبون هذه الكبائر جميعها ، فلا جناح على من تقع عليه أوزارهم وكبائرهم أن هو قاتلهم في الشهر الحرام (٣) .

لقد فعلت قريش كل هذه الأفاعيل ، ولكنها تناستها ، ولم تذكر إلا هذه الحادثة ، واتخذتها وسيلة تحاول أن تثير بها حريا شعواء على المسلمين ، وتؤلب عليهم القبائل العربية ، وتنفّر الناس من الدخول في الإسلام وتشكك في صحته ، ولكن الله أفحم حجتها ، ورد كيدها في نحرها ، وجعل هذه الحادثة مفتاح خير ، وسبب النصر والفوز الذي ناله المسلمون في غزوة بدر التي حدثت بعد هذه السرية مباشرة وعلى أثرها .

غزوة بدر الكبرى :

وغزوة بدر هي بداية المرحلة الثانية في الصراع بين المسلمين والمشركين والتي تنتهي في صلح الحديبية في السنة السادسة . وقد نزلت في هذه الغزوة سورة الأنفال التي سماها البعض سورة (بدر) (٤) لأنها تكاد تكون من أولها حتى آخرها حديثا متصلا عن تلك الغزوة التي كانت فرقانا بين

-
- ١ (سيرة ابن هشام / ٦٠٣ - ٦٠٤ تحقيق)
٢ (البقرة / ٢١٧ - ٢١٨)
٣ (حياة محمد ٢٥١ هيكل)
٤ (صحيح البخارى ٧٧/٦)
للواحدى ٤١ - ٤٤ .

الحق والباطل . وقد صورت الوقعة تصويرا حيا ، فى مشاهد متعاقبة ، ترسم المشاعر الباطنة ، والحركات الظاهرة ، والحوار بين الجماعات والانسراد .

وطريقة القرآن الدائمة فى مثل هذه الوقائع أن يرسم الحركة التى وقعت ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة ، ويسلط عليها الأضواء التى تكشف خبايا النفوس ومنحنيات القلوب ، فتبرز الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة فى أعماق الصدور .

وإن النص القرآنى يغفل أسماء الأشخاص ، وأعيان الذوات ، ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع ، ويفغل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ، ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية التى لا تنتهى بانتهاء الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص . ومع أنه يقص القصة على الذين شهدوا أحداثها ، فإنه كان يزيدهم بها خبرا ، ويكشف لهم عن جوانب لم يدركوها وهم أصحابها وأبطالها .

وتحدثت سورة الأنفال عن الغزوة ، فتغلغلت إلى أعماق نفسية المؤمنين ، فحدثتنا عن كره بعضهم للخروج إلى القتال كراهية مليئة بالخوف ، وقد دفعهم ذلك إلى الجدل مع الرسول عليه الصلاة والسلام جدالا عنيفا . ويصور القرآن بطريقته الفريدة فى صراحة تامة جزع هؤلاء إذ يقول « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعدما تبين لهم كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » (١) .

قال ابن اسحق (٢) : لما سمع رسول الله عليه الصلاة والسلام بأبى سفيان مقبلا من الشام ، ندب المسلمين اليهم وقال هذه غير قریش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها . فانتدب الناس فحف بعضهم وثقل بعضهم) . وهكذا رأينا المشهد الأول من أحداث تلك الغزوة العظمى تصوره كلمات قليلات عجزت كتب السيرة على كثرة ما فيها من تفصيلات وجزئيات عن إبراز الجوانب النفسية للمؤمنين ، فقد أبرزت عبارة (يُساقون إلى الموت وهم ينظرون) شدة كراهيتهم للقتال ورغبتهم فى القافلة ، وقد شبّهت حالهم فى فرط فزعهم بحال من يعتل إلى القتل ويساق إلى الموت المتيقن وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها (٣) . ولعل قلة عدد المسلمين يومئذ وعدم استعدادهم للقاء العدو هى التى دفعت هذا الفريق إلى جدال الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال أبو أيوب الانصارى ، قال رسول الله : انى أخبرت عن غير أبى سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يغنمناها ؟ فقلنا : نعم . فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا : ما ترون فى القوم ، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم ؟ فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم ، ولكننا أردنا

١ (الانفال / ٥ - ٨ . النبوة لابن كثير ٦٠٧/٢ .

٢ (سيرة ابن هشام ٦٠٧/١ والسيرة ٣) (الكشاف ١٤٤/٢ .

العير . ثم قال : ما ترون في قتال القوم ؟ فقلنا مثل ذلك (١) .
 وقالوا يا رسول الله : « هلا ذكرت لنا فنستعد » فكره رسول الله أن يجبنوا
 عن لقاء قريش وتغير وجهه وبدا عليه الغضب ، فأدرك القوم ما هنالك من خطر
 عليهم إذا هم خالفوا عن رغبة رسول الله وقام فريق منهم يدعو إلى القتال ،
 فقام أبو بكر فقال وأحسن ، وقام عمر فقال فأحسن وقام المقداد بن عمرو فقال :
 يا رسول الله ، إض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو
 إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون » ولكن اذهب
 أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك
 الغماد لجالدنا معك من دونه ، حتى تبلغه ، فقال له رسول الله خيرا ، ودعا
 له به .

ثم قال رسول الله أشيروا على أيها الناس . وإنما يريد الأنصار ، وذلك
 أنهم عدد الناس ، وأنهم حين يأموه بالعقبة ، قالوا : يا رسول الله إنا برآء من
 ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا . فكان رسول الله
 يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن
 ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله قال سعد
 ابن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال : أجل ، قال : فقد أمانا بك
 وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا
 ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ،
 فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ،
 ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر في الحرب ،
 صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر رسول الله بقول سعد
 ونشطه ذلك ثم قال : سيروا وابشروا ، فان الله تعالى قد وعدني إحدى
 الطائفتين . والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم (٢) .

وهكذا صورت آية واحدة أو آيتان كل هذا السرد التاريخي ، فالتعبير
 القرآني الدقيق قال (وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) ولم يقل (إن المؤمنين
 لكارهون) لأنهم كانوا فريقين كما رأينا في أسباب نزول هذه الآيات . وقوله
 تعالى (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة
 تكون لكم . .) هو الوعد الذي وعد الله به رسوله وأخبره للمؤمنين بعد سماعه
 للكلمات الحماسية التي قالها زعماء القوم من المهاجرين والأنصار فقد وعدهم
 إما بالنصر وإما بالعير ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد الذي وقفت
 عنده كتب السيرة بل يكشف النفس البشرية أمام الخطر المباشر ، حين تتجلى فيها
 أثر المواجهة الواقعية للخطر ، ورغبتها في حطام الدنيا وكراهيتها للموت
 وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) . .

ثم يقرر السياق من بداية الشوط ومن أول غزوة وفي أول لقاء بين الإيمان
 والكفر أنهم ليسوا الا ستارا لقدرة الله وتدبيره ، وأن ما أرادوه لأنفسهم فد كان
 شيئا صغيرا حقيرا إلى جانب ما أراداه الله تعالى من تثبيت دعائم هذا الدين
 الجديد ، ونصر الحق على الباطل ، وخضد شوكة أعداء الله « ويريد الله أن
 يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره

١ / السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٢٩٤ - ٢ / السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦١٥ .

المجرمون » . هذه هي صورة خروج المؤمنين لغزوة بدر وإن شئت قل إخراج الله لهم (كما أخرجك ربك) وعلى الصفحة المقابلة تصور الآيات خروج المشركين تصويرا دقيقا بارعا في أقل لفظ « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورتاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط . وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم قلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب » (١) .

قال ابن أسحق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله ، فارجعوا ، فقال أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نرد بدرا — وكان بدر موسما من مواسم العرب ، يجتمع به سوق كل عام فنقيم عليه ثلاثا ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع العرب بمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها ، ما مضوا » (٢) .
فالأية « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورتاء الناس . . » تعنى أبا جهل وأصحابه خرجوا بالقيان والمعازف والخمر ، فذلك كان بطرهم ورتاءهم الناس باطعامهم فوافوها (بدر) فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ، فنهاهم الله تعالى أن يكونوا مثلهم طربين مرآئين بأعمالهم .

أما قوله تعالى « إذ زين لهم الشيطان » عن عروة بن الزبير ، قال : « لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذى كان بينها وبين بنى بكر ، فكاد ذلك يثنيهم ، فتبدي لهم إبليس في صورة سراقته بن مالك بن المدلجى ، وكان من أشرف بنى كنانة ، فقال لهم : أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ، فخرجوا سراعا » (٣) فلما رأى الملائكة تنزل نكص ، وقيل كانت يده في يد الحارث بن هشام ، فلما نكص قال الحارث : إلى أين أتخذ لنا في هذه الحال ؟ فقال : إنى أرى ما لا ترون . ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهمزوا ، فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقته ، فبلغ ذلك سراقته فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان . . وفى الحديث « ما روى إبليس يوما أصفر ولا أغيط من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما روى يوم بدر » (٤) .

ثم ترسم الآيات مشاهد الواقعة كلها ، فتحدد أولا مواقع الفريقين : « إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم » (٥) .
وهنا يعيد الأسلوب القرآنى العجيب مواقع الفريقين في المعركة شاخصة شاهدة على حسن تدبير الله سبحانه ، وأن يده تكاد ترى وهى تضع هذا

- ١ (الانفال / ٤٨ .
٢ (سيرة ابن هشام ١/ ٦١٨ ، ٦١٩ تحقيق
الابيارى والسقا .
٣ (المرجع السابق ١/ ٦١٢ .
٤ (تفسير القرطبي ٨/ ٢٥٨ — ٢٧ والكشاف
١٦١/٢ ، ١٦٢ .
٥ (الانفال / ٤٢ .

الفريق هنا ، وذاك الفريق هناك . قال الزمخشري (١) : أخبر الله تعالى عن قوة شأن العدو وشوكته وتكامل عدته وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين والتهيات أمرهم ، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعا من الله ، ودليلا على أن ذلك الأمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته ، وذلك لأن العدو القسوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضا لا بأس بها ، ولا ماء بالعدوه الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل ولا يمشی فيها إلا بتعب ومشقة ، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم . وفي ذلك تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر ليقضى أمرا كان مفعولا من إعزاز دينه وإعلاء كلمته حين وغد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة .

(ولو تواعدتم ...) أنتم وهم وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالف بعضكم بعضا ، فشططكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وشططهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله والمسلمين ، فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسبب له (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه (ليهلك من هلك ..) ذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغر المحجلة التي من كفر بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها ، أن الواقعة بكل ظروفها تحمل بينة لا تجحد ، ودلالة لا تنكر على تدبير وراء تدبير البشر وأنها تثبت أن الله تعالى يتولى بنصره ويساند بقوته من أخلصوا له وجاهدوا في سبيله . ولو كان الأمر إلى القوى المادية الظاهرة ما هزم المشركون ولا انتصرت العصبة المسلمة هذا الانتصار العظيم .

وقد روت كتب المغازي والسير أن المنزل الذي نزل فيه المسلمون كان بعيدا عن الماء ، وكان بينهم وبين الماء دهسة تسيخ فيها الأقدام ، فظمىء المسلمون حتى جهدوا ، وأصابهم حرج شديد حين أعوزهم الماء لكي يستقوا ويتطهروا . وهنا وجد الشيطان إلى نفوسهم مدخلا ، فجعل يوسوس إليهم ويلقى في قلوبهم ، ويخوفهم أن يقطع العطش رقابهم ويذهب قواهم ، فيتحكم المشركون فيهم كيف شاعوا . وذلك لأن الماء في الصحراء مادة الحياة ، فضلا عن أن يكون أداة النصر ، والجيش الذي يفقده ، يفقد أعضابه قبل أن يفقد حياته ، والنفوس التي تدخل المعركة في مثل هذا الحرج وفي مثل هذا القلق ، تدخلها مزعزة مهزومة من داخلها .

حينذاك جاءت نجدة السماء ، فأنزل الله المطر ، فشرب المسلمون وتطهروا ، ومألوا الأسقية ، وسقوا الركائب ، وتلبد الرمل تحت أقدامهم فسول عليهم السير ، واستراحوا من الجهد الذي أصابهم ، ومن الحرج الذي أقلقهم ، وأصابتهم غشية من النعاس فانتقلبوا نياما ، فما نهضوا من نومهم إلا وقد تبدل حالهم ، فإذا خوفهم قد صار أمنا ، وإذا تلقهم قد غدا طابئينة ، وإذا خورهم قد أصبح جراءة وثباتا ، وإذ هم شيء آخر غير الذي كانوا (٢) .

وقال ابن القيم (٣) : وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرا واحدا فكان

١ (الكشاف ١٦٠/٢ .
 ٢ (سيرة ابن هشام ٦١٩/١ ، ٦٢٠ تحقيق الإيباري ، وزاد المعاد ٨٦/٢ ،
 ٣ (زاد المعاد ٨٦/٢ .
 وحياة محمد/٢٦١ هيك ، وصور من حياة الرسول/٣٠٤ .
 والسيرة النبوية لابن كثير ٤٠٠/٢ ،

على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلا طهرهم به واذهب عنهم رجس الشيطان ووطأ به الأرض وصلب الرمل وثبت الأقدام ومهد المنزل وربط به على قلوبهم .

ويذكر الله تعالى المؤمنين بتلك النعم الكثيرة ليقدروا الله حق قدره ، وليعلموا ان النصر من عنده لمن يشاء . « إذ يغشيكم النعاس أمانة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجس الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » (١) .

وقد ساهمت الألفاظ في هذه الآية مساهمة قوية في رسم ظلال المشهد فكلمة (يغشيكم .. والنعاس .. وأمنه) كلها تشترك في إلقاء ظل لطيف شفيف ، يصور النعم التي أنزلها الله على قلوب المؤمنين الرقيقة الشفافة لتسكن وتثبت في ذلك اليوم العظيم .

ثم يعود السياق إلى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، يعود إلى المعركة فيعيد عرضها بأسلوب عجيب ، في استحضار مشاهدتها ومواقفها حية شاخصة ، كما لو كانت معروضة فعلا ، ويكشف عن تدبير الله في إدارتها ، وتولى شئونها ، حتى ليكاد الانسان يرى يد الله سبحانه وراء الأحداث والحركات .

ويسجل القرآن الكريم شعور الطائفتين عندما تراءى الجمعان فقد خيل للمسلمين أن اعداءهم قلة ، فأقبلوا مستهينين في القتال دون تهيب ولا تردد ، وخيل للمشركين أن أصحاب محمد قلة ، فحاضوا غمار المعركة مستهينين ، وقد ألقى في نفس الطائفتين هذا الشعور لئتم ما اراده الله من انتهاء المعركة بما انتهت إليه ، انتهاء أوحى إلى نفوس المسلمين الشعور بقوتهم ما داموا ينصرون الحق ، ويذودون عن الدين الصحيح ، حتى لكان الله يدافع عنهم ، ويذود دونهم (٢) .

قال تعالى مصورا كل ذلك (إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) (٣) وقال تعالى في سورة آل عمران « قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء » (٤) .

ولا تعارض بين النصين . قال ابن كثير (٥) : فان المعنى على أصح القولين : إن الفرقة الكافرة ترى الفرقة المؤمنة مثلن عدد الكافرة على الصحيح أيضا ، وذلك عند التحام الحرب والمسايفة أوقع الله الوهن والرعب في قلوب الذين كفروا ، فاستدرجهم أولا ، بأن أراهم بإيهم عند المواجهة قليلا ، ثم أيد المؤمنين بنصره فجعلهم في أعين الكافرين على الضعف حتى وهنوا وضعفوا وغلبوا ، ولهذا قال (ويؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

١ (الأنفال / ١١ .

٢ (الأنفال / ٤٣ ، ٤٤ .

٣ (آل عمران / ١٣ .

٤ (السيرة النبوية ٢/٤٠٦ .

٥ (الرسالة) العدد ٩١٣ سنة ١٩٥١

د . أحمد أحمد بدوى .

وقال ابن اسحق(١) : عن ابي عبيدة بن عبد الله (لقد قتلوا نى اعيننا يوم بدر ، حتى انى اتول لرجل جنبى : اتراهم سبعين ؟ فقال : اراهم مائة ؟ وقد قتل الله المؤمنين فى نظر الكافرين لأول وهلة ليزدادوا طمعا فى المسلمين ، ولتقل مبالاتهم بحرهم ولا يببالغوا فى الاستعداد والتأهب للقتال ، وقد روى أن ابا جهل حين وقعت عينه على المسلمين فى ابتداء القتال فى ذلك اليوم ، قال : إنما هم اكلة جزور ، خذوهم ، واربطوهم فى الحبال(٢) ولما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قال أبو جهل : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعرف ، فأخذه الغداة ، فكان هو المستفتح(٣) فأنزل الله تعالى فيه (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئنتكم شيئا ولو كثرت وإن الله مع المؤمنين) (٤) .

قال الزمخشري(٥) : هذا خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم ، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر اقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأنكنا للعانى ، وإن كان محمد على حق فانصره ، وإن كنا على حق فانصرنا ، وروى أنهم قالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين ، (وإن تنتهوا) خطاب للكافرين ، يعنى إن تنتهوا عن عداوة رسول الله فهو خير لكم وإن تعودوا لمحاربتة نعد لنصرتة عليكم .

ثم عدل رسول الله الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصديق ، ورسول الله يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الأرض ، وأبو بكر يقول : يا نبى الله : بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ، وقد خفق رسول الله خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال : أبشر ابا بكر ، اتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع(٦) فأنزل الله تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم إذ يغشىكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد

العقاب . ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) (٧) . وجاء فى سورة آل عمران (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينتلبوا خائبين) (٨) .

- | | |
|--------------------------------------|---------------------------------|
| ١ (السيرة النبوية لابن هشام ٦٢٣/٢) | ٥ (الكشف ١٥٠/٢) |
| تحقيق محيى الدين عبد الحميد . | ٦ (صحيح البخارى ٩٠/٥ وسيرة ابن |
| ٢ (السيرة النبوية لابن كثير ٤٠٧/٢) | هشام ٦٢٧/١) |
| ٣ (سيرة ابن هشام ٦٢٨/١) | ٧ (الأثفال / ٩ - ١٣) |
| ٤ (الأثفال / ١٩) | ٨ (آل عمران / ١٢٢ - ١٢٦) |

والآيات صريحة الدلالة فى أن الله تعالى أعان المؤمنين بعدد من الملائكة فى موقعة بدر ، ولكن اختلف فى اشتراك الملائكة مع المؤمنين فى القتال اشتراكاً فعلياً ، فقيل إنهم اشتركوا ، عن الربيع بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به ، وقال بعضهم : إن الملائكة كانوا يُقاتلون وكانت علامة ضربهم فى الكفار ظاهرة ، لأن كل موضع أصابت ضربتهم اشتعلت النار فى ذلك الموضع . وإنما كانت الفائدة من كثرة الملائكة لتسكين القلوب ، ولأن الله تعالى جعل الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة . فكل عسكر صبر واحتسب تأتيهم الملائكة ويقاثلون معهم . وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاثل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاثلون إنما يكونون عدداً ومدداً . وقال بعضهم : إنما كانت الفائدة فى كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون ويسبحون ، ويكثرون الذين يقاثلون يومئذ . فعلى هذا لم تقاثل الملائكة يوم بدر وإنما حضروا للدعاء بالثبوت . والأول أكثر (١) . ويؤكد الله سبحانه فى سورتي الأنفال وآل عمران أن النصر من عند الله وليس بسبب الملائكة (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

أما وظيفة الملائكة فقد حددها سبحانه فى السورتين أيضاً بصراحة تامة قال فى سورة الأنفال « وما جعله الله إلا بشرى ولنطمئنن به قلوبكم » . وفى آل عمران « وما جعله الله إلا بشرى لكم ولنطمئنن قلوبكم به » . فيكون المعنى على هذا : إنكم استعتمتم وتضرعتم لقلوبكم وذلتكم ، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكيناً وربطاً على قلوبكم ، ولا تحسبوا النصر من الملائكة وغيرها من الأسباب إلا من عند الله . والمنصور من نصره الله .

وهكذا يدير الله تعالى المعركة ويسيرها بأمره وتدييره . وبجسده ومدده . ويعيدها إلى الأذهان شاخصة بحركاتها وخطراتها وسماتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المحيية للمشهد كما لو كان حاضراً الآن . وإن الألفاظ المصورة تشارك فى رسم الصورة مشاركة بالغة (إذ تستغيثون) بصيغة المضارع وما يحمل اللفظ من إحياء ، وقوله (فاستجاب) — و (إذ يوحى ربك إلى الملائكة) . (إنى معكم) إنها معية الله للملائكة أو للمؤمنين فى المعركة واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المؤمنة ، هذا هو الأمر الذى لا يجوز أن يشغلنا عنه البحث . هل قاتلت الملائكة أم لم تقاثل ولا كيف قتلت ؟ وكم قتلت ؟

إن إحساس المجاهد بأن الله معه ومع الملائكة فى معركة واحدة هذا هو الأهم . وهذا هو ما أراد الله للذين آمنوا أن يعتقدوه ، ومن كان الله معه قلن يقهر أو يذل أبداً .

قال الزمخشري (٢) : « إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا » إنى معينكم على التثبيت فثبتوهم ، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب فى قلوب الكفرة ، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم واجتماعهما غاية النصر ، ويجوز أن يُراد بالثبوت أن

(١) تفسير القرطبي ٣٧٠/٧ ، ٣٧١ ، ١٤٥/٢ .

١٩٤/٤ والكشاف ٤٦١/١ ، ٤٦٢ ، ٢ الكشاف ١٤٨/٢ .

يخطرأوببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم فى القتال ، وان يظهرأوب ما يتقنون به أنهم مددون بالملائكة . وقيل كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفون وجهه فىأتى فىقول : انى سمعت المشركين يقولون : والله لئن حملأوب علينا لننكسفن ويمشى بين الصفين فىقول : ابشروا فان الله ناصركم لأنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه .»

ونرى جند الله تتدخل فى هذه المعركة بتثبيت اقدام المؤمنين ، وان الله سلط الشيطان على المشركين يعدهم ويمنيهم ، ثم يخذلهم وينكص على عقبه، ليلاقوا مصيرهم المحتوم وحدهم .

وان كل هذه الامور الغيبية لا نستطيع التعرض لها هنا بالتفصيل لأن هذا ليس من طبيعة منهجنا فى هذا البحث ، وفى الوقت ذاته لا نستطيع أن نجزم أو ننفى حقيقة من الحقائق ما لم يرد فيها نص قرأنى صريح . فالنصوص القرآنية نصت على قتال الملائكة يوم بدر ، ولكنها لم تنص على الكيفية التى قاتلت بها ، والشيطان زين للمشركين ، ولكننا لا نعرف كيف كان ذلك ، فهذه حقائق لا يمكن انكارها ، ولا سبيل إلى معرفة كنهها . فىجب الا نتعدى حدودنا ونؤول هذه النصوص التى تبحث فى الامور الغيبية تأويلا ينفى عنها الحركة الحسية كما فعلت مدرسة الشيخ محمد عبده(١) وتلبيذه محمد رشيد رضا حين قالوا إن الملائكة لم تشترك فى معركة بدر إلا بمخالطة ارواح المؤمنين وتثبيتهم . فهذا مخالف لظاهر النص ولا اجتهاد مع النص .

وفى نهاية هذا الاستعراض ، وفى أعقاب المشهد الهائل لجو المعركة، يجىء التقرير الموضح لما وراء المعركة كلها ووراء النصر والهزيمة فيها (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . .) أى بسبب معاداتهم لله ورسوله والمؤمنين .

وقد سرت فى نفوس المؤمنين قوة من قوة الله سمت فوق كل قوة حين أمر الله رسوله بتحريضهم على القتال ، فعوضهم ذلك عن قوة عددهم وعدتهم (يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يقبلوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يقبلوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) (٢) .

قال ابن أسحق : ثم خرج رسول الله إلى الناس فحرضهم ، فقال : والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا ادخله الله الجنة ثم ان رسول الله أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشا بها ، ثم قال : شأهت الوجوه ، ثم نفحهم بها ، وأمر أصحابه ، فقال : شدوا(٣) . فهجم المسلمون على المشركين بقلوب ملؤها الإيمان بالحق ، والرغبة فى الشهادة والطمع فى ثواب الله ، وجعلوا أهدافهم رعوس المشركين ، يتصيدونهم وسط الجموع الزاحفة ، ثم يقضون عليهم كالصواعق ، وهم يتصايحون تصايح الأسود يا منصور ، أمت أمت(٤) .

ثم نزل رسول الله إلى أصحابه يشد عزائمهم ، ويبشرهم بنصر الله ،

- | | |
|--|-------------------------------|
| ١ (تفسير المنار ٦٠٧/١ - ٦١٢ يقول ان | باطل |
| الروايات التى تدل على اشتراك | ٢ : الأنفال / ٦٥ . |
| الملائكة فى القتال روايات باطلة لا يصح | ٣ (سيرة ابن هشام ٦٢٧ ، ٦٢٨ . |
| سندها وحتى حديث ابن عباس أيضا | ٤ (صور من حياة الرسول ٢١٢ . |

ويقول لهم : شدوا سيهزم الجمع ويولون الدبر .. من قتل قتيلًا فله سلبه ،
ومن أسر أسيرًا فله سلبه .

فحمل المسلمون حملة صادقة ، تصدعت لها جموع المشركين ، وانهارت
أمامها قواهم فكانت الهزيمة ، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش ، وأسر
من أسر من أشرفهم (١) .

قال ابن أسحق : فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله في
العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، الذى فيه رسول الله ،
متوشح السيف ، فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله يخافون عليه كرة
العدو ، ورأى رسول الله فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له
رسول الله ، والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ، قال : أجل والله ،
والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك فكان الاثنان
فى القتل بأهل الشرك أحب الى من استبقاء الرجال .

فأنزل الله تعالى « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض
تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله
سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن
الله غفور رحيم » (٢) .

وهكذا انتهى استعراض مشاهد غزوة بدر من ساعة خروجهم من بيوتهم
إلى أن وضعوا أيديهم فى القوم يأسرون ويغنمون . ولكن القرآن فى تصويره
للوقات والغزوات لا يقصد السرد التاريخى لذاته ولكنه يريد أن يجعل منه عبرة
وعظة ودرسا للمؤمنين فى كل زمان ومكان . فنجد أن السياق لا يتوقف عند هذا
الحد كما توقفت كتب السير والمغازى بل يعقب على الأحداث ويربى المؤمنين
المجاهدين بها ..

لقد فرح المؤمنون بنصر الله وافتخروا بأفعالهم فى المعركة فيقول بعضهم
أنا قتلنا كذا وكذا ويقول الآخر أنا أسرت فلانا وفلانا ، فيردهم الله إلى الصواب
من القول ويعرفهم حقيقة النصر فيقول « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت
إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ذلكم
وإن الله موهن كيد الكافرين » (٣) .

فقوله تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » أى ليس بحولكم وقوتكم
قتلتهم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم . أى بل هو الذى أظفركم عليهم كما
قال « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » ثم قال تعالى لنبيه عليه الصلاة
والسلام أيضا فى شأن القبضة من التراب التى حصب بها وجوه الكافرين يوم
بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكائه فأوصل الله تلك
الحصباء الى أعين المشركين فلم يبق أحد إلا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا
قال « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » أى هو الذى بلغ ذلك إليهم وكتبهم
بها لا أنت .

« وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا » أى ليعرف المؤمنين نعمته عليهم مع
أظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا
بذلك نعمته .

١ (سيرة ابن هشام ٢/ ٦٢٨ .

٢ (الانفال / ٦٧ - ٧٠ .

« فلکم بأن الله موهن کید الکافرين » هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر انه تعالى أعلمهم بأنه مضعف کید الکافرين فيما يستقبل مصفر أمرهم وانهم کل ما لهم فی تبار ودمار (١) .

وهذه هي طريقة القرآن الکریم فی استعراض المشاهد ، يعيدها حاضرة ، شاخصة للأبصار ، وفي أنسب اللحظات لاستجابة القلوب للتوجيه يعقب على الأحداث « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (٢) .

ويبدو فی التعبير القرآني شدة التحذير ، وتغليظ العقوبة ، وتهديد بغضب من الله ومأوى دائم فی النار . . ولا بد أن نقف عند الإيحاءات العجيبة فی التعبير « فلا تولوهم الأدبار » « ومن يولهم يومئذ دبره » فهو تعبير عن الهزيمة فی صورتها الحسية ، مع التقييح والتشنيع ، والتعريض بإعطاء الأدبار للأعداء ، ثم قال « فقد باء بغضب من الله » فالمهزوم مول ومعه « غضب من الله » يذهب به إلى مأواه « ومأواه جهنم وبئس المصير » .

هكذا تشترك ظلال التعبير مع دلالاته فی رسم الجو العام ، وتثير فی الوجدان شعور الاستبجاح والاستنكار للتولى يوم الزحف والفرار . . ثم يعود السياق إلى الهتاف بالذين آمنوا فی سلسلة متوالية من الهتافات الموحية ، فيهتف بهم أولا إلى طاعة الله ورسوله ، ويحذرهم التولى عنه والتشبيه بأولئك الذين يسمعون فكأنهم لا يسمعونها « ياأيها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون . ياأيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » (٣) .

إن هذه الهتافات جاءت بعد استعراض أحداث المعركة وبعد رؤية الله فيها ، وتدبيره وتقديره ومدده وعونه ، فما يبقى بعد ذلك كله مجال لغير السمع والطاعة لله وللرسول .

ومرة أخرى يتكرر الهتاف للاستجابة لله ولرسوله ، مع الترغيب فی الاستجابة والترهيب من الإعراض ، والتذكير بنعمة الله عليهم حين استجابوا لله .

وقوله « استجبوا . . لما يحييكم » أي للتحريض على الحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل ، ومآكم بعد الضعف ، ومنعكم بها من عدوكم بعد التهر منهم لكم (٤) « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فی الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » (٥) . ودعاهم إلى الثبات وعدم الفرار « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا

١ (تفسير ابن كثير ٢/٢٩٥ ، ٢٩٦ وتفسير ٤ (الكشاف ٢/١٥٢ وسيرة ابن هشام

٠ ٦٦٩/٢

القرطبي ٧/٣٨٤ .

٥ (الانفال / ٢٦ .

٢ (الانفال / ١٥ ، ١٦ .

٣ (الانفال / ٢٠ - ٢٥ .

وتذهب ربحكم وأصبروا ان الله مع الصابرين « (١) .
 وأخيرا يفصل بينهم في مسألة الغنائم والأفئال التي ساءت فيها اخلاقهم .
 « يسألونك عن الأفئال قل الأفئال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم
 وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » (٢) . وقوله في شأن الغنائم « واعلموا
 أنما غنتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين
 وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى
 الجمعان والله على كل شيء قدير » (٣) .

وهكذا ينتهى القرآن من استعراض مشاهد غزوة بدر ، ولا يكتفى بنقل
 أحداث الميدان بل ينقل المعركة إلى داخل النفس الانسانية ، ويعتقب على
 المعركة في الميدانين بما يصلح المجاهدين في دينهم ودنياهم ويكمل لهم النصر
 والفوز في الدنيا والآخرة .

غزوة احد :

في سؤال من السنة الثالثة ، ونزلت فيها سورة آل عمران ثالثة السور
 القرآنية المدنية نزولا . قال ابن اسحق : لما أصيب يوم بدر من كفسار قريش
 أصحاب القليب ، ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى
 عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال
 من قريش ، ممن أصيب أبائهم وأبنائهم وأخوانهم يوم بدر ، فكلوا أبا سفيان
 ابن حرب ، ومن كانت نه في تلك العير من قريش تجارة ، فقتلوا يا معشر
 قريش ، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينوا بهذا المسال على حربيه ،
 فعلنا ندرك منه ثارنا بمن أصاب منا ، ففعلوا (٤) وفيهم انزل الله تعالى « إن
 الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم
 حسرة ، ثم يغفلون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » (٥) .
 فاجتمعت قريش لحرب رسول الله حين فعل ذلك أبو سفيان ، وأصحاب
 العير بأحابيشها ، ومن اطاعها من شبائل كنانة وأهل تهامة ، وخرج أبو عزة
 الشاعر في تهامة يدعو بني كنانة .

فخرجت قريش بحدها وحديدها وجدها وأحابيشها ، ومعهم الظعن
 التماس الحيفظة ، والأيفروا . فأقبلوا حتى نزلوا قريبا من المدينة . فلما سمع
 رسول الله بهم قد نزلوا حيث نزلوا قال : فان رأيتم أن تقبوا بالمدينة وتدعوهم
 حيث نزلوا ، فان أقاموا أقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ، وكان
 رأى عبد الله بن أبي مع رأى رسول الله ، يرى رايه في ذلك . فقتل رجال من
 المسلمين ممن كان فاته يوم بدر : يا رسول الله أخرج بنا الى أعدائنا ، لا يرون
 أنا جينا عنهم وضعفنا . فقتل عبد الله بن أبي : يا رسول الله أقم بالمدينة
 لا تخرج اليهم ، فوالله ما خرجنا منها الى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها

١ () الأنفال / ٤٦ . الدين عبد الحميد والسيرة النبوية لابن

كثير ١٨/٣ .

٢ () الأنفال / ٣٦ .

٣ () الأنفال / ٤٦ .

٤ () الأنفال / ١ .

٥ () الأنفال / ٤١ .

٦ () سيرة ابن هشام ٥٨١/٣ تحقيق محيي

علينا الا اصبنا منه فدعهم يا رسول الله . فان اقاموا اقاموا بشر حبيس .
 وإن دخلوا قاتلهم الرجال نى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من
 فوقهم ، وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاعوا . فقال الذين لم يشهدوا بدرأ :
 كنا نتمنى هذا اليوم ندعو الله ، فقد ساقه الينا وقرب السير . وقال رجال
 من الانصار متى نقاتلهم يا رسول الله اذا لم نقاتلهم عند شعبنا ؟ وقال رجال :
 ماذا نمنع اذا لم نمنع الحرب بروع . فلم يزل الناس برسول الله ، الذين كان
 من امرهم حب لقاء العدو ، حتى دخل رسول الله بيته ، فلبس لامته .
 وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك فلما
 خرج عليهم رسول الله ، قالوا : يا رسول الله ، استكرهناك ، ولم يكن ذلك
 لنا ، فان شئت فاقعد صلى الله عليك ، فقال : ما ينبغي لنبي اذا لبس لامته أن
 يضعها حتى يقاتل ، فخرج رسول الله فى الف من أصحابه (١) ، فأنزل الله
 تعالى فيهم « فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من
 حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فاذا عزمتم فتوكل على الله
 ان الله يحب المتوكلين » (٢) .

قال ابن اسحق : حتى اذا خرجوا بالشوط بين المدينة واحد انخذل عنه
 عبد الله بن ابي بثلث الناس ، وقال : اطاعهم وعصانى : ما ندرى علام نقتل انفسنا
 هاهنا ايها الناس . فأنزل الله فيهم « وليعلم الذين ناققوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا
 فى سبيل الله او اذفموا . قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ اقرب
 منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » (٣) .
 وذكر عروة بن موسى بن عقبة أن بنى سلمة وبنى حارثة لما رجع عبد الله
 ابن ابي واصحابه همتا أن تفسلا ، فثبتهما الله تعالى ، ولهذا قال « اذ همت
 طائفتان منكم أن تفسلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٤) .
 روى البخارى (٥) عن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية فينا « اذ
 همت طائفتان منكم أن تفسلا » بنى سلمة وبنى حارثة وما أحب انها لم تنزل
 والله يقول : « والله وليهما » .

قال ابن اسحق (٦) : ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من (أحد) فى
 عدوة الوادى الى الجبل ، فجعل ظهر عسكره الى أحد ، وقال : لا يقاتلن أحد
 منكم حتى تأمره بالقتال . وتعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال فى سبع
 مائة رجل ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، والرماة خمسون رجلا ، فقال :
 انضح الخيل عنا بالنبل ، ولا يأتونا من خلفنا ، ان كانت لنا أو علينا ، فأثبت
 مكانك لا تؤتتين من قبلك ..

وقد صور القرآن الكريم خروج المسلمين بقيادة الرسول الى معركة أحد ،
 وعرض مشاهدتها ، وتتبع دخائل النفوس ، وخوالج القلوب ، وغزوة أحد لم
 تكن معركة فى ميدان القتال وحده ، بل كانت معركة فى ميدان النفس البشرية ،
 وتصوراتها ومشاعرها ، وأطاعها وشهواتها ، ودوافعها وكوابحها ، وكان

- ١ (السيرة النبوية لابن كثير ٢٢/٣ - ٢٤)
 وسيرة ابن هشام ٥٨٢/٣ تحقيق محبى
 الدين عبد الحميد .
 ٢ (آل عمران / ١٥٩)
 ٣ (آل عمران / ١٦٧)
 ٤ (آل عمران / ١٢٢)
 ٥ (صحيح البخارى ١٢٢/٥)
 ٦ (سيرة ابن هشام ٥٨٦/٣ تحقيق محبى
 الدين عبد الحميد .

القرآن يعالج النفوس بألطف ما يعالج المحاربون أقرانهم فى النزال .
إن النص القرآنى لا يتبع أحداث المعركة للرواية ، ويعرضها عرضاً
مستسلماً بقصد التسجيل ، بل يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة
وراء الأحداث ، ورسم سمات النفوس ، وتصوير الجو الذى صاحبها ، والسنة
الكونية التى تحكمها . .

ويبدأ السياق القرآنى كما رأينا بوصف ما كان بين المسلمين من تشاور
قبل الخروج لأرض المعركة ثم يسير معهم حيث ساروا فما هو ذا يحدثنا عن
خروجهم بقوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال ،
والله سميع عليم . إذ همت طائفتان أن تفتشلا » (١) .

وهكذا يبدأ باستعادة المشهد الأول للمعركة واستحضاره بحرارته
وحيويته وقوته إلى أذهان المخاطبين الأوليين بهذا النص ، ثم يضيف
إلى ما وراء المشهد المنظور — الذى لا يعرفونه — حقائق أخرى لا يتضمنها
المشهد المنظور .

وأولها حقيقة حضور الله سبحانه — معهم — وسمعه وعلمه بكل
ما كان وما دار بينهم (والله سميع عليم) . فيأله من مشهد الله حاضره !
ويأله من موقف الله شاهده !

واللمسة الثانية فى هذا المشهد هى حركة الضعف والفشل التى راودت
قلوب طائفتين من المسلمين ، بعد تلك الحركة الخائبة التى قام بها رأس المناقطين
عبد الله بن أبى .

وهكذا يكشف الله المخبوء فى مكونات الضمائر ، والذى لا يعلمه
إلا أهله ، يكشفه لاستعادة أحداث المعركة ، واستحياء وقائمه ومشاهدها ،
ثم لتصوير خلجات النفوس وإشعار أهلها وجود الله معهم ، وعلمه بما
ظهر وخفى من أفعالهم وأعمالهم (والله سميع عليم) . ثم يوجههم الله تعالى
إلى ركنه المكين ، وحصنه الحصين ، فليجأون إليه فى كل حين (وعلى الله
فليتوكل المؤمنون) على وجه القصر والحصر ، ليس لهم إن كانوا مؤمنين
حقاً غير هذا السند .

وهكذا نجد فى هاتين الآيتين الأوليين ، اللتين يستحضر بهما القرآن
مشهد المعركة وجوها هذين التوجيهين الكبيرين (والله سميع عليم) (وعلى
الله فليتوكل المؤمنون) نجدهما فى أوانهما ومكانهما المناسب ، حيث يلقيان كل
إيقاعاتها وإيحاءاتها فى الموعد المناسب ، وقد تهيات القلوب للتلقى والاستجابة
والانطباع .

ويتبين من هاتين الآيتين كيف يتولى القرآن استحياء القلوب وتوجيهها
وتربيتها بالتعقيب على الأحداث وهى ساخنة ، ويتبين كذلك الفرق بين رواية
القرآن للأحداث وبين كتب السير التى ترويهما بتفصيل أكثر ، فعبارة (تبوء
المؤمنون مقاعد للقتال) شملت كل ما ذكره كتاب السير والمغازى من تعبئة
الرسول صفوف المجاهدين وتعاليمة لهم وتحريضه إياهم على الصبر والجهاد
حتى النصر أو الشهادة ، وفوق هذا فهذه الكتب لا تستهدف القلب البشرى ،
والحياة البشرية ، بالأحياء والاستحاشة ، وبالتربية والتوجيه كما يستهدفها
القرآن بمنهجه القويم .

فالله تعالى حاضر في المعركة يرعى قلوب المؤمنين ويوجه أفعالهم ، فهذا الحيان اللذان هما بالرجوع كادا أن يفشلا كما فشل المنافقون ولكن الله ثبت قلوبهم . فالسياق القرآني حين يعرض أحداث المعركة يعرضها من الخارج من واقع ميدان القتال ، ومن الداخل من واقع النفوس ، ثم يرسم طــــريق النصر في الميدانين معا .

قال ابن عباس (١) : أضر هذا الحيان أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا ، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يردّها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه . ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية وقد ذكرهم الله سبحانه بما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حال قلة وذلة فقال تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فيقبلوا خائبين) (٢) . وقوله تعالى (إذ تقول) بدل من قوله (إذ غدوت) والذي عليه المفسرون وعلماء المسلمين أن الملائكة لم تنزل يوم أحد . قال الزمخشري (٣) : فان قلت كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد ولم تنزل فيه الملائكة ؟ قلت : قال لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله فذلك لم تنزل الملائكة ، ولو تموا على ما شرط لهم لنزلت . وإتيا قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم وليعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله (ألن يكفيكم) إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة . وإنما جرىء بلن الذي هو لتأكيد النفي للاشعار بأنهم كانوا لقلبتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكته كالأيسين من النصر (بلى) إيجاب لما بعد لن بمعنى يكفيكم الإمداد فأوجب الكفاية ثم قال (إن تصبروا وتتقوا) يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسومين للقتل (ويأتوكم من فورهم هذا) والمعنى أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه يمددكم ربكم بالملائكة في حال إتيان المشركين لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم . يريد أن يعجل نصرتمك وييسر فتحكم إن صبرتم واتفقتم . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك والزهرى وموسى ابن عقبة وغيرهم : إن هذا الوعد متعلق بقوله (إذ غدوت) ولم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ ، وزاد عكرمة ولا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى (بلى إن تصبروا وتتقوا) فلم يصبروا بل فروا فلم يعدوا بملك واحد (٤) .

وإلى هنا ينتهي الشوط الأول من المعركة الذي صدق الله فيه وعده واعز جنده ويبدأ الشوط الثاني : (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون

١ الكشاف ٤٦٢/١ . ٢

٣ تفسير ابن كثير ٤٠١/١ . ٤

١ الكشاف ٤٦١/١ . ٢

١ آل عمران ١٢٣ - ١٢٧ . ٣

منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين (١) .

قال ابن اسحق (٢) : ثم انزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده . فحسوهم بالسيوف حتى كشوفهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها . وعن الزبير انه قال : والله لقد رايتنى انظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرت هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير . إذ مالت الرماة إلى العسكر ، حين كشفنا القوم عنه ، وخلصوا ظهورنا للخيل . فأتينا من خلفنا . وصرخ صارخ : ألا إن محمدا قد قتل . فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم . فقد خيل للرماة أن المعركة قد انتهت . وأن الهزيمة قد تمت . وخشوا أن يسبقهم أخوانهم في جمع الغنائم ، فأخذوا يقولون : الغنيمة ، أي قوم الغنيمة . ظهر اصحابكم . فما تنظرون ؟ قال أميرهم (عبد الله بن جبير) أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ قالوا : إنا والله لثنتين الناس فلنصين من الغنيمة (٣) .

واندفعوا إلى العسكر ينتهبون ، ويجمعون الغنائم ، وتركوا أميرهم في نفر من اصحابه لا يجاوزون العشرة ، فانكشف بذلك الحصن الذي كان يحمي ظهور المسلمين .

ويقول الصاغ (٤) : محمد عبد الفتاح ابراهيم (٥) : (وكان سبب معجزة الانتصار صبيحة أحد ، عاملا واحدا هو القوة المعنوية . ولكن الانتصار لم يكن حاسما ، إذ كانت المعركة لا تزال محتدمة . وفي اللحظات التي تفوز فيها إحدى القوتين دون الوصول إلى نتيجة حاسمة فإن أهم شيء هو الاحتفاظ بالأوضاع ولاسيما للقوات التي تقوم بأعمال الوقاية والمطاردة في أدوارها الأولى تبدؤها القوات التي وصلت إلى النجاح الابتدائي ، ما لم يكن هناك قوات خفيفة الحركة ، خاصة للقيام بهذه المطاردة كما يجب أن تظل القوات الخلفية في أماكنها لا تتركها إلا بأوامر من مركز القيادة الذي يكون إذ ذاك وراء القوات المتقدمة .

وفي هذه المرحلة كان خالد يتقهقر وعينه إلى الجبل لا تفارقه ، فلما رأى الرماة يتركون مواقعهم ، انقلب راجعا . ودار دورة واسعة . متخذا من الأراضي المستورة دربا وطريقا له وجاء في أعاقبه عكرمة بلوانه . فتسللوا فوق الجبل . وازاحوا الرماة الباقين من مكانهم . واقتحموا خطوط المسلمين من الخلف فكانت مفاجأة لم يتوقعها المسلمون الذين يعرفون أن مؤخرتهم محروسة . وفي غمرة هذا الاضطراب اختلط المقاتلون . فكان المسلمون يقتل بعضهم بعضا .

وقد صورت آية (ولقد صدقكم الله وعده ...) المعركة بكل جزئياتها ودقائقها في أوجز عبارة وأوضحها . قال الزمخشري (٥) : (ولقد صدقكم الله وعده) قيل إنه لما أصابهم ما أصابهم قال بعضهم من أين أصبنا وقد وعدنا الله النصر . فنزلت .

١ . آل عمران / ١٥٢ . النبوة لابن كثير ٤٩/٣ ، ٥٠ .

٢ . سيرة ابن هشام ٥٩٦/٣ تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

٣ . الكشاف ٤٧٠/١ .

٤ . سيرة ابن هشام ٥٩٦/٣ تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

٥ . صحيح البخارى ١٢/٥ والسيرة

وقال ابن عباس والحسين (١) : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم .. » إنما عنى بهذه الآية الرماة .

وأما قوله تعالى (منكم من يُريد الدنيا ومنكم من يُريد الآخرة ..) فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لو حلفت يومئذ رجوت أن أبر أنه ليس منا أحد يُريد الدنيا حتى أنزل الله هذه الآية .

ويصور السياق القرآنى اضطراب المسلمين ودهشتهم البالغة حين صرخ صارخ (أن محمداً قد قُتل) حيث أخذوا بهذه الصرخة وزلزلوا زلزالاً شديداً ، ودبّ في صفوفهم الفشل . وسرى في روحهم التخاذل ، ففترقوا طرائق قديداً منهم من أمعن في الفرار لا يلوى على شيء ، ومنهم من ثبت وكل همّه أن يدافع عن نفسه أو يقاتل حتى يقتل ، ومنهم من أذهلته المفاجأة فألقى بيديه واستسلم للهزيمة . ومنهم من أخذته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل .

قال تعالى مصوراً كل ذلك (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكلاً تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون) (٢) .

قال ابن اسحق (٣) : فانكشف المسلمون وأصاب منهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة ، حتى خلص العدو إلى رسول الله فحدث بالحجارة حتى وقع لشقه ، فأصيبت ربايعته وشُج وجهه وكُلِّمت شفته ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يُفْلح قوم خضبوا وجه نبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم : فأنزل الله عز وجل في ذلك (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) (٤) .

وقد شاركت كل كلمة في هذه العبارة المصورة في تصوير الهزيمة النفسية التي هزت أعماقهم وزلزلت أقدامهم فكلمة (تصعدون) و (لا تلوون على أحد) و (والرسول يدعوكم في في أخراكم) . فقد أعادت هذه الكلمات المشهد حيّاً شاخصاً كأننا نرى حركة الإصعاد في الجبل والأنفاس لاهثة ، وقد أجهدها الخوف والتعب ، وكان العين تبصر منظر رسول الله وقد وقع لجنبه في حفرة من الحفر التي كان قد حفرها أبو عامر الفاسق وهو يصيح بهم : إلى عباد الله ، إلى عباد الله إلى يا فلان .. أنا رسول الله . عباد الله أرجعوا . وهم ممعنون في الفرار لا يسمعون دعاء ولا يجيبون نداء ، هائمون على وجوههم في ذهول تام .

ثم قال تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يفشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما في صدوركم وليمحس ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى

٢ (سيرة ابن هشام ٥٩٧/٣)

١ (تفسير ابن كثير ٤١٢/١)

٤ (آل عمران / ١٢٨)

٢ (آل عمران / ١٥٢)

الجمعان إنما استنزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم (١) .

روى البخارى (٢) : عن ابي طلحة رضى الله عنهما قال كنت فيمن تغشاد النعاس يوم أحد . حتى سقط سيفى من يدى مرارا يسقط وأخذه . ويسقط فأخذه .

وعن الزبير رضى الله عنه : لقد رأيتى مع رسول الله حين اشتد علينا الخوف . فأرسل الله علينا النوم والله إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا .

وانزل الله تسالى فى الذين قالوا إن محمدا قد قتل فارجموا إلى قومكم (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) (٣) .

وفى التعبير تصوير حى لحركة الارتداد (انقلبتم على اعقابكم) . (ومن ينقلب على عقبيه) فهذه الحركة الحسية فى الانقلاب تجسم معنى الارتداد عن هذه العقيدة . كأنها منظر مشهود . والمقصود أصلا ليس حركة الارتداد الحسية بالهزيمة فى المعركة . ولكن حركة الارتداد التى صاحبها حين هتف الهاتف : ان محمدا قد قتل . فأحس بعض المسلمين أن لا جدوى إذن من قتال المشركين . وانتهى أمر الدين والجهاد . فهذه الحركة النفسية يجسها التعبير هنا ، فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب . وهذا هو الذى حذرهم إياه انس ابن النضر ، إذ انتهى إلى قوم من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله . قال فماذا تصنعون بالحياة من بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله . ثم استقبل القوم . فقاتل حتى قتل ، ووجد به يومئذ سبعين ضربة . فما عرفته إلا اخته . عرفته بينانسه (٤) .

وقد ضرب الله مثلا لهذا النوع من الجاهدين الصادقين الذى لا يتضعع ويتخاذل حين يشتد البأس وتثقل الوطأة ويحمى الوطيس (وكأى من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى امرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين (٥) .

فهؤلاء وأمثالهم من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم ونفوسهم لله ، هم الذين يستحقون نصر الله وتأييده وتسديده .

وكما أنزل الله تعالى فى غزوة بدر سورة الانفال ، يعلم فيها المؤمنين مبادئ القتال وآدابه ، وما يجب عليهم عند لقاء العدو من الثبات والصبر وكثرة ذكر الله وطاعة الرسول ، وما ينبغى أن يحذروه من التنازع والخيانة والغرور والتولى عند الزحف . أنزل الله فى شأن غزوة أحد نحو ستين آية من سورة آل عمران ، بين فيها للمؤمنين ما كان من أخطائهم فى تطبيق

(٤) سيرة ابن هشام ٨٢/٢ تحقيق الابيارى

والسقا .

(٥) آل عمران ١٤٦ - ١٤٨ .

(١) آل عمران ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) صحيح البخارى ١٢٧/٥ .

(٣) آل عمران ١٤٤ .

تلك المبادئ التي تعلموها ، وأراهم نتيجة هذه الأخطاء رأى العين (١) .
ثم بين الله تعالى أن هذه الهزيمة لم تكن شرًا يُراد بهم ، إنما كانت
محنة أراد الله بها تمحيص المؤمنين المخلصين وكشف النقاب عن المخادعين ،
وفرصه صالحة هيأها الله للمؤمنين ليتخذ منهم شهداء ، فالشهداء هم الصفوة
الخالصة التي يختارها الله من بين المجاهدين في سبيله ، ليسبغ عليهم من
فضله ما يشاء . (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إن
يَسْسِكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ . وتلك الأيام نداولها بين الناس ،
وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين ، وليحصر
الله الذين آمنوا ويحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم
الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن
تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) (٢) .

وقد كانت هزيمة (أحسد) بلاء من الله وتمحيصًا للمؤمنين (ليحصر
الله . . .) وتربيتهم بالفعل على إقامة سنن الله تعالى في الأسباب والمسببات
(قد خلّت من قبلكم سنن) وبيان أن هذه السنن حاكمة حتى على الرسول
وإن قتل الرسول لا ينبغي أن يكون مُبْطِئًا لهم ولا داعية إلى الانقلاب على
الأعقاب وأنه ليس له من أمر العباد شيء (ليس لك من الأمر شيء . . .) .
ويقول الشيخ رشيد رضا (٣) : (لو لم يكن لما جرى في غزوة أحسد
حكمة (إلا نزول هذه الآية لكنى فكيف وقد جمع إليها حكما دينية واجتماعية
وحريرية ؟!

كان المؤمنون السابقون إلى الإسلام على ثقة من وعد الله تعالى بنصر
نبيه وإظهار دينه لم يزلزل إيمانهم بذلك ضعفهم وقتلهم . وكانت موقعة
بدر أول تباشير هذا النصر . فلما رأوا أن الله تعالى نصرهم على قتلهم
وضعفهم بعد ما كان من دعاء الرسول وتضرعه واستغاثته ربه زادهم إيمانا
بانهم هم المنصورون . ولكن وقع في نفوس الكثيرين — إن لم نقل نفوس
الجميع — أن نصرهم سيكون بالعناية الخاصة من غير التزام للسنن الإلهية
في الاجتماع البشري . وأن وجود الرسول فيهم ودعاؤه على أعدائهم هما
أفعل في التنكيل بالكفار من التزام الأسباب الظاهرة التي أهمها طاعة القائد
والتزام النظام العسكري وغير ذلك . فالإسلام دين الفطرة لا الخوارق . وكانت
عاقبة تقصيرهم في هذه الأسباب يوم أحسد ظهور العدو عليهم .
وقد قرن الله هذا البيان الإلهي بهذه الواقعة المشهودة حتى يتمكن في النفوس .
ولا يكون فيه مجال للتأويل أو التخصيص أو التقييد .

ولكن الله سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين لم يتركهم بعد أن يبين لهم
أخطاءهم في غمرة هذا اليأس الذي يقتل النفوس ويضعف الحمية . بل
مسح على أجزائهم في رفق ورحمة . ومزج العتاب الرقيق بالدرس النافع .
وبين لهم أن الهزيمة لا تنال من شرف الغاية التي يقاوتون من أجلها . ولا من
سمو المبادئ التي يدافعون عنها . فمبدؤهم هو أسمی المبادئ ، وغايتهم
هي اشرف الغايات . وما النصر والهزيمة إلا عارضان يتداولان الناس . وسنة
من سنن الله في الخليقة .

٣ تفسير التار ١١٨/٤ .

١ (صور من حياة الرسول/ ٢٧٦) .

٢ (ل عمران/ ١٢٩ - ١٤٢) .

ثم ذكّرهم بأن سبب هذه المصيبة التي استغربوا حدوثها أنها من عند أنفسهم (أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير) (١) .

فإن تكن قد أصابكم مصيبة فى أخوانكم بذنوبكم فقد أصبتم مثلها قبل من عدوكم ، فى اليوم الذى كان قبله فى بدر ، قتلاً وأسراً ، ونسيتم معصيتكم وخلافكم عما أمركم به نبيكم ، أنتم أحللتهم ذلك بأنفسكم ، ثم يكشف تعالى لهم عن سبب إحلاله هذه المصيبة بهم (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنون . وليعلم الذين نافقوا ..) (٢) .

فما أصابكم من مصيبة حين التقيتم أنتم وعدوكم فبإذن الله ، كان ذلك حين فعلتم ما فعلتم بعد أن جاءكم نصرى ، وصدقتكم وعدى ، ليميز بين المؤمنين والمنافقين (٣) .

وقد نهى الله تعالى المؤمنين أن يقولوا ما قاله المنافقون فى الذين استشهدوا فى المعركة لأن ذلك من شأنه أن يملأ قلوبهم حسرة وهما وغما دائمين متلازمين . (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقاتلوا لاخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو ممت لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن ممت أو قتلتم لىلى الله تحشرون) (٤) .

نهى الله سبحانه المسلمين عن ذلك لانه سبب التقاعس عن الجهاد . ثم قال لهم : ولئن تم عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل فى سبيل الله ، فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت فى سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا (٥) .

ثم أبان تعالى للمجاهدين عن حقيقة الاستشهاد فى سبيله وما أعده الله للشهداء من النعيم الدائم فى جنة الخلد ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكروا عن الحرب (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٦) .

ولقد حزن المسلمون لما أصابهم فى غزوة أحد ، وأصاب شهداءهم من قتل ومثلة ، وأصاب نبيهم من جراحات خلصت إليه ، وشميت بهم الشامتون من يهود ومنافقين ، حين رأوهم يدخلون المدينة وأهنيين مكدودين ، وقد خيم عليهم الصمت وغشيتهم الكآبة ، وملاًهم الغيظ . فعمد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عمل حاسم يزيل الوهن والضعف من قلوبهم ، ويعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ويستردون هيبتهم ويقطع السنة السوء عنهم . فعزم على أن يخرج بهم وحدهم فى أثر قريش على رغم ما أصابه وأصابهم من الإعياء والجهد والقرح . وفى هذا العمل من الحكمة النفسية ما لا يخفى على أحد .

٤ (آل عمران/١٥٦ - ١٥٨ .

٥ (الكشاف/١/٤٧٢ .

٦ (آل عمران/١٦٩ - ١٧١ .

١ (آل عمران/١٦٥ .

٢ (آل عمران/١٦٦ - ١٦٨ .

٣ (سيرة ابن هشام ٦٣٢/٢ تحقيق محبى

الدين عبد الحميد .

قال ابن اسحق (١) : (فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال اذن مؤذن رسول الله فى الناس بطلب العدو ، وان لا يخرج معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس . فسارع الناس إلى أسلحتهم ، ولم يتخلف منهم جريح ولا صحيح .

ثم قال ابن اسحق معلقا على ذلك : (إنما خرج مُرهباً للعدو ، وليبلغهم انه خرج فى طلبهم ، ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم) . فخرج رسول الله حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثمانية أميال ، ومر ركب من عبد القيس بأبى سفيان حين سمع بخروج الرسول فى أثره وخوفه الشديد من لحاقه بهم ، فقال لهم : هل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم غدا زبيبا بعاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فاخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتكم ، فمر الركب برسول الله ، وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل) . فأنزل الله فيهم : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (٢) .

ورجع رسول الله والذين خرجوا معه وقد استردوا بعضا من هيبتهم التى تزعزعت على اثر أحد . وبالرغم من هذا فقد تركت تلك الغزوة آثارا بعيدة المدى فى موقف المسلمين من أعدائهم وموقف أعدائهم منهم ، فكانت كزلزلة عظيمة هزت كيان المسلمين هزا عنيفا ، فظلوا يعانون من آثارها ما يعانى الزلزل المضطرب ، يحاول أن يتماسك ويستقر فلا يكاد يقدر . لقد ظل المسلمون بعد هذه الغزوة زما طويلا والجو من حولهم ينضج بالانتفاض لهم والغدر بهم ، والأعداء من اليهود والمنافقين ، ومن الأعراب ، والمشركين ، يتحينون فيهم الفرص ، ويتربصون بهم الدوائر ، والمسلمون بين هؤلاء وهؤلاء فى حذر وخوف ، والرسول القائد دائم اليقظة والترقب ، لا يكاد يحس بطائفة تجمع له وتؤلب عليه ، إلا بادرها بالوقية قبل ان يجتمع أمرها ويتفاقم خطرها . ولذا فقد وجه النبى جهوده لتأديب القبائل المتربصة به من أعراب البادية (٣) .

وقد استطاع الرسول والمؤمنون أن يستعيدوا هيبتهم وثقتهم بأنفسهم ، وأن يزيلوا عنهم وصمة هزيمة أحد ، حين خرجوا فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان ، وهذه الغزوة هى المسماة (غزوة بدر الآخرة أو الموعد) فقد نزلوا بدرا وأقاموا عليها ثمانى لىالى ينتظرون أبى سفيان ، ولكنه جبن عن مواجهتهم وقال : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جذب ، وإنى راجع ،

١ (سيرة ابن هشام ٦١٥/٢ تحقيق محيى)
٢ (آل عمران ١٧٢ - ١٧٥)
٣ (صورة من حياة الرسول : ٢٨٧ .
الدين عبد الحميد .

فارجعوا ، فرجع الناس ، فسماهم أهل مكة جيش السويق ، يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق (١) .

وقال الأستاذ الدكتور هيكل (٢) (وهكذا محت غزوة بدر الآخرة أثر أحد محوا تماما . ولم يبق لقريش إلا تنتظر عاما آخر ، رازحة تحت عمار من حينها لا يقل وطأة عن عمار هزيمتها في بدر الاولى) .

غزوة الخندق : في شوال من السنة الخامسة ، ونزلت فيها سورة الاحزاب .

لما رأى اليهود انتصار المشركين في أحد وعلموا بميعاد أبى سفيان لغزو المسلمين فخرج لذلك ثم رجع ، خرج أشرافهم كسلام بن الحقيق وسلام ابن مشكم وكنانة بن الربيع وغيرهم الى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله ويوالونهم عليه ووعدهم من أنفسهم بالنصر لهم وقالوا لهم : انا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله .

ثم خرج أولئك نفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان ، فدعوهم الى حرب رسول الله وانهم سيكونون معهم ، وان قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه .

وخرجت الاحزاب التي حزبها اليهود لحرب رسول الله ، فخرجت قريش وغطفان واثجع ومرة وسليم وبنو سعد وأسد ، فصاروا في عشرة آلاف رجل ، وساروا جميعا تحت إمرة أبى سفيان قاصدين المدينة ، واتصل نبا هذا المسير بالرسول والمسلمين معه ففزعوا . ها هي ذى العرب كلها قد اجمعت أمرها لتسحقهم ولتتقضى عليهم ولتستأصلهم . وها هي ذى قد جاءت في عدة وعديد مالها في حروب العرب جميعا من قبل مثل . فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة هذه الالوف المؤلفة من رجال وخيل وابل واسلحة ونخيرة ؟ لم يكن سبيل غير التحصن بيثرب العذراء على ما وصفها عبد الله ابن أبى . ولكن أيكنفى هذا التحصن أمام تلك القوة الساحقة ؟ وهنا عمل المسلمون بمشورة سلمان الفارسي الذي كان يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفا في بلاد العرب ، فأشار بحفر الخندق حول المدينة وتحصين داخلها ، وسارع المسلمون الى تنفيذ نصيحته .

وندى رسول الله الناس للعمل في الخندق ، وأمر بالجد والطاعة ، ووعدهم النصر إن صبروا واثقوا ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ترغيبا للمسلمين في الأجر ، وتنشيطا في العمل ، فدأب فيه ودأبوا ، وكان الرجل منهم إذا نابتة النائبة ، من الحاجة التي لا بد له منها ، يذكر ذلك لرسول الله ، ويستأذنه في اللقوق بحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير وإحتسابا له (٣) .

فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه . ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله . فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله . إن الله غفور رحيم) (٤) .

١ (سيرة ابن هشام ٢/٦٩٦ ، ٦٩٧ تحقيق محبى الدين عبد الحميد .

٢ (سيرة ابن هشام ٣/٧٠١ تحقيق محبى الدين عبد الحميد .

٣ (حياة محمد / ٣١٣ .

٤ (النور : ٦٢ .

فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من اهل الحسبة والرغبة فى الخير ، والطاعة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام .

وانزل الله تعالى فى امر الخندق وامر بنى قريظة ، واجتماع الأحزاب (سورة الأحزاب) يذكر فيها ما نزل من البلاء ، ونعمة الله على المسلمين ، وكفايته إياهم حين فرج عنهم فقال سبحانه (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فارسنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بها يعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) (١) .

والجنود هم قريش وغطفان وبنو قريظة ، وكانت الجنود التى أرسل الله عليهم مع الريح هى الملائكة . والذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة ، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان .

وفى هذا المقطع يصف سبحانه وتعالى موقفا من المواقف العسيرة التى مر بها المسلمون فلم تكن هذه الغزوة معركة ميدان تتميز فيها البطولة بالكر والفر ، والإقدام والإحجام ، بل كانت معركة أعصاب وامتحان عزائم ، واختبار قلوب .

وإذا تدبرنا هذا النص القرآنى ، وطريقة عرضه للحادث وأسلوبه فى الوصف والتعقيب ، ووقوفه أمام المشاهد والحوادث ، والحركات والخوالج ، وإبرازه للقيم والسنن ، ندرك كيف كان الله تعالى يربى هذه الأمة بالأحداث والقرآن فى آن واحد .

يبدأ السياق القرآنى الحديث عن حادث الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم جيش الأحزاب الذى جاء ليستأصلهم ، لولا تدخل الله وعنايته . ومن ثم يجمل فى الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث ، وبيدائه ونهايته (جاءتكم جنود فارسنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) قبل الشروع فى عرضه وتفصيل مواقفه ، لتبرز نعمة الله التى يذكرهم بها ، ويطلب لإيهم ، أن يتذكروها وليظهر أن الله الذى يأمر المؤمنين باتباع وحيه ، والتوكل عليه وحده ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، هو الذى يحمى القائميين على دعوته ومنهجه ، من كل عدوان .

« ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم » وهكذا يرسم فى هذه البداية المجملية بدء المعركة وختامها ، والعناصر الحاسمة فيها — من مجيء جنود الأعداء وإرسال ريح الله وجنوده التى لم يروها .. ثم يأخذ بعد هذا الاجمال فى التفصيل والتصوير (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ..) .

إنها صورة الهول الذى روع المدينة ، والكرب الذى شملها ، والذى لم ينج منه قلب أحد من أهلها ، وقد أطبق عليها الأحزاب من كل جانب . لقد كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا عنيفا ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسما ، فالموقف بكل سماته ، وكل انفعالاته ، وخطباته ، وحركاته ، مائل أمامنا كائن نراه من خلال هذا النص القصير . ننظر فنرى الموقف من خارجه (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) ثم ننظر فنرى أثر الموقف فى النفوس (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) .. وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق

يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب .

(زاغت الأبصار) مالت عن سنتها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا ، وقيل عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا لعدوها من شدة الروع . .
(وبلغت القلوب الحناجر) أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحلاقيم ، فلولا أن ضاقت عنها لخرجت منها . ويقال إن الرئة تنتفخ عند الخوف وشدة الفزع فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحجرة ، ولهذا قيل للجبان انتفخ سحره ، ويجوز أن يكون ذلك مثلا في اضطراب القلوب ووجيبتها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة (١) . .

(وتظنون بالله الظنونا) ظنون مختلفة دون تفصيل ، يدعها مجملة ترسم حالات الاضطراب في المشاعر والخوارج ، وذهابها بها كل مذهب ، واختلاف التصورات في شتى القلوب ، فليحاسب كل نفسه على ما هجس به . قال الحسن : ظنونا ظنونا مختلفة ، ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون وظن المؤمنون أنهم يُبتلون وينصرون (٢) .

وعن سعيد بن جببر رضى الله عنه : قلنا يوم الخندق يا رسول الله هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، قال : فضرب الله وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح (٣) .

وقال موسى بن عقبة : وأحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتابهم ، فحاصروهم قريبا من عشرين ليلة ، وأخذوا بكل ناحية ، ووجهوا نحو منزل الرسول كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد فقاتلوهم يوما إلى الليل ، فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة فلم يقدر النبي ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا الصلاة فانكفأت الكتيبة مع الليل ، فزعموا أن رسول الله قال : (شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم وقبورهم نارا) . فلما اشتد البلاء نافق ناس كثير وتكلموا بكلام قبيح . فلما رأى رسول الله ما بالناس من البلاء والكرب جعل يبشرهم ويقول (والذى نفسى بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة ، وأنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنا ، وأن يدفع الله الى مفاتيح الكعبة ، وليهلكن الله كسرى وقيصر ، ولتتفخن كنوزهما فى سبيل الله) (٤) .

ولما نقض بنو قريظة عهدهم مع المسلمين فى هذه الظروف العسوية ، اشتد البلاء وعظم الخوف ، وظنوا أنهم أحيط بهم (وهمت بنو قريظة أن يغيروا على المدينة ليلا ، فجاء الخبر بذلك إلى رسول الله فأرسل إلى المدينة من يحرسها وكان الخوف على الذراري بالمدينة من بنى قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان (٥) . فصور السياق هذا البلاء والشدة حينئذ ابلغ تصوير بقوله تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) .

١ (الكشاف) ٢٥٣/٣ وتفسير القرطبي : ٤ (السيرة النبوية لابن كثير : ٢٠٩/٣ ،

٢١٠ .

١٤٥ ، ١٤٤/١٤

٢ (تفسير القرطبي : ١٤٧/١٤

٥ (امتاع الاسماع : ٢٢٧/١ .

٣ (تفسير ابن كثير : ٤٧٢/٣

قال ابن سعد : وحصر رسول الله وأصحابه بضع عشرة ليلة ، حتى خلاص إلى كل امرئ من الكرب ، فأراد رسول الله ، أن يُصالح غطفان ، على أن يُعطيهم ثلث ثمار المدينة ويخذل بين الناس وينصرفوا عنه ، فأبى ذلك الأنصار (١) .

وقال ابن اسحق (٢) وأقام رسول الله وأصحابه ، فيما وصف الله من الخوف والشدة ، لتظاهر العدو عليهم ، وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) . وقد كانت الشدة ابتلاء للمؤمنين ، وأدركوا أن النصر آت بعدها لا محالة إن هم ثبتوا وصبروا وصابروا . وذلك أن الله رباهم بتجارب الأمم السابقة إذ قال تعالى فى صورة البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلا إن نصر الله قريب) (٣) .

فقال تعالى مخبرا عن عباده المؤمنين الصادقين بوعد الله لهم وجعله العاقبة لهم فى الدنيا والآخرة (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما) (٤) .

قال ابن عباس (٥) رضى الله عنهما وقتادة يعنون قوله تعالى فى سورة البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل ...) أى هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب) .

(وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) قال الحسن (٦) رضى الله عنه : ما زادهم الرؤية إلا إيمانا بالرب وتسليما للقضاء . وقال الفراء : ما زادهم النظر إلى الأحزاب) . وقال ابن كثير (٧) : ما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيمانا بالله وإنقيادا لأوامره وطاعة لرسوله عليه الصلاة والسلام . وقد أمر الله عباده المجاهدين أن يتأسوا بالنبي عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) (٨) . . . ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتزجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب هلا اقتديتم برسول الله وتأسيتم بشمائله ولهذا قال (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) (٩) .

وقال القرطبي (١٠) : (ولما اشد الأمر وطال المقام فى الخندق ، قام عليه

- | | |
|---|--|
| ١ (الطبقات الكبير : ١٠٩/٣ وسيرة ابن هشام : ٧٠٨/٣ تحقيق محبى الدين عبد الحميد . | ٥ (تفسير ابن كثير : ٤٧٤/٣ والکشاف : ٢٥٦/٣ . |
| ٢ (سيرة ابن هشام : ٧١١/٣ . | ٦ (تفسير القرطبي : ١٥٧/١٤ . |
| ٣ (البقرة : ٢١٤ . | ٧ (تفسير ابن كثير : ٤٧٥/٣ . |
| ٤ (الأحزاب : ٢٢ - ٢٤ . | ٨ (الاحزاب : ٢١ . |
| | ٩ (تفسير ابن كثير : ٤٧٤/٣ . |
| | ١٠ (تفسير القرطبي : ١٥٧/١٤ . |

السلام على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي ورفع يده يقول (يا صريخ المكروبين ويا مُجيب المضطرين اكتشف همي وغمي وكرمي فقد ترى حالي وحال أصحابي . فنزل جبريل عليه السلام وقال : إن الله استجاب دعوتك وكفك عدوك ، وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحا فيبشر أصحابه بذلك . فحتى هذه اللحظة كان رسول الله وأصحابه قد عملوا كل ما يستطاع عمله ، وأفرغوا جهدهم في الدفاع عن رسالتهم ومدنيتهم ، حتى لم يبق في طوق البشر مدخر . وهنا تدخلت العناية الالهية ، لتأخذ بأيدي أولئك المؤمنين الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، فأخذ سير المعركة يتطور على نحو لا يدرك الناس كنهه (وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكري للبشر) ..

وكان مما صنع الله لرسوله وللمؤمنين أن أتى نعيم بن مسعود الأشجعي مسلما ، فأمره رسول الله أن يخذل الأحزاب عن المسلمين ، واستطاع بمهارته ولباقة حديثه أن يخذل الأحزاب ، ويفك رابطتهم ويوقع الشك والارتياب بينهم فخذل الله بينهم واختلقت كلمتهم (١) ..

وبعث الله عليهم الريح في ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قلوبهم ، وتطرح ابنيتهم ، وحالت بينهم وبين مواصلة القتال وانطلقوا ليلوى أحد على أحد (٢) ...

وقال ابن اسحق (٣) : فلما انتهى إلى رسول الله ما اختلف من أمرهم وما فرق من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم ، لينظر ما فعل القوم ليلا فقال يا حذيفة : اذهب فادخل في القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدث شيئا حتى تأتينا ، قال ، فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء ، فقال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا أني مرتحل ، ثم قام الى جملة وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم . وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

وهكذا نصر الله عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) (٤) . ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد ولكن قال تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى وهم أخلاط من قبائل شتى أحزاب وآراء فتناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم لم ينالوا خيرا لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول عليه الصلاة والسلام بالعداوة وهمهم بقتله واستئصال جيشه .

١ (سيرة ابن هشام : ٧١٢/٣ - ٧١٤ - ٢) سيرة ابن هشام : ٧١٤/٣ - ٧١٥ .
 ٢ (وابتاع الاسماع : ٢٤٧/١ . وابن الاثير : ٢) المرجع السابق : ٧١٤/٣ - ٧١٥ .
 ٣ (٦٦/٢)
 ٤ (الاحزاب : ٢٥)

وقوله تعالى : (وكفى الله المؤمنين القتال) أى لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ونصر عبده ولهذا كان رسول الله يقول : (لا إله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده فلا شىء بعده) .

(وكان الله قويا عزيزا) أى بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيرا ، وأعز الله الاسلام وأهله (١) ..

قال ابن كثير (٢) : وأما قوله تعالى (وكفى الله المؤمنين القتال) ففيه إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ولم يفرهم المشركون بعدها بل غزاهم المسلمون فى بلادهم . وقاتل رسول الله (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونها) فلم تغز قريش بعد ذلك وكان رسول الله هو يفرزهم بعد ذلك حتى فتح مكة .

وأورد المقرئى فى (الامتاع) (٣) : ولما شرع أبو سفيان فى الرحيل من مكة بعث إلى رسول الله كتابا جاء فيه : « باسمك اللهم ، فانى أحلف باللات والعزى لقد سرت إليك فى جمعنا وإنما لا نريد أن نعود أبدا حتى نستأصلكم ، فرأيت قد كرهت لقاعنا وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ؟ فان نرجع عنكم فلکم منا يوم كيوم أحد » . فكتب إليه الرسول : من محمد رسول الله الى أبى سفيان بن حرب ، أما بعد فقدما غرك بالله الغرور أما ما ذكرت إنك سرت إلينا فى جمعكم وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى . وأما قولك من علمك صنعنا من الخندق ؟ فإن الله أهمنى ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح ، وليأتين عليك يوم اكسر اللات والعزى وأساف وناثلة وهبل حتى أذكرك ذلك) ..

ولما اطمان الرسول الى رحيل الأحزاب إلى بلادهم ، اذن للمسلمين فسى الانصراف إلى منازلهم بالمدينة ، فعادوا فرحين مسرورين وبعد أن أيقنوا أنهم مؤيدون بعناية الله ونصره .

وبانتهاء غزوة الأحزاب انتهت حرب المشركين الهجومية على المسلمين ، كما قال رسول الله « الآن نفرزهم ولا يفرزونا » . واستقبل المسلمون عهدا جديدا بأن يبادئوا بالقتال كل من يشتمون منه نية الخيانة والغدر وتبيت العدوان . ولهذا كانت هذه الغزوة نقطة تحول فيما بين النبى عليه الصلاة والسلام وبين قريش ، فقد انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم ، وانتقلت المبادرة الى يد المسلمين بعد هذه الغزوة ، ولم يتركوا هذه السياسة الجديدة حتى شمل الاسلام الجزيرة العربية كلها وارتفعت راية الإسلام شرقا وغربا فوق كل راية (٤) .

ففى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة خرج رسول الله

- | | |
|---------------------------------------|--|
| ١ (تفسير ابن كثير : ٤٧٠/٣) وتفسير | ٢ (امتاع الاسماع : ٢٣٩/١ - ٢٤٠ . |
| القرطبي : ١٤٢/١٤ - ١٤٤ . | ٣ (الرسول القائد : ١٥٨) الزعيم الركن |
| ٢ (تفسير ابن كثير ٤٧٧/٣) وطبقات ابن | ٤ (محمود شيت خطاب) . |
| سعد ١٤٠/٣ ، وامتاع الاسماع : | |

الى بنى لحيان الذين غدروا بأصحاب (الرجيع) . وأرسل سرية من أصحابه فى مائتى راكب الى سَعْفَان ليرى أهل مكة أن المسلمين قد غزوههم ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم ثم كرا راجعا إلى المدينة (١) . وقد أثرت هذه الغزوة فى معنويات قريش والقبائل المجاورة وخافوهم أشد الخوف ولم يخرج أحد منهم للقائه .

وأقام رسول الله بالمدينة بعد ذلك شهرين ، فقد بلغه أن بنى المصطلق يجمعون له وأنهم يحرضون عليه يريدون قتله وعلى رأسهم قائدهم الحارث بن أبى ضرار . فأسرع رسول الله فى الخروج ليأخذهم على غيرة ، كعادته فى أخذ أعدائه فى هذه المرحلة من جهاده وكان خروجه لهم فى شعبان سنة ست وسار اليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له : المريسيع فتراحف الناس واقتتلوا ، فهزم الله بنى المصطلق ، وقتل من قتل منهم ، ونفل رسول الله أبناءهم ونساءهم وأموالهم (٢) .

ويقول الصاغ (١. ح) محمد عبد الفتاح ابراهيم : ولا نجد فى حديث هذه الغزوات شيئا من الناحية العسكرية إلا انصراف النبى عليه الصلاة والسلام إلى الدفاع الهجومى ، فهو لا يهاجم معتديا ، وإنما هو يدافع عن المدينة وعن المسلمين بأن يهاجم الكفار قبل أن يحتشدوا ، وقبل أن يجمعوا أمرهم ، والأمر الثانى هو استناد (تكتيكات) النبى إلى عامل المفاجأة ، أبرز أصول الحرب التى استخدمها فى قتاله .

وفى هذه الفترة كان النبى عليه الصلاة والسلام يبيت العيون والأرصاد على القبائل العربية التى تحالفت على حربه ، فإذا علم أن قبيلة منها تريد أن تأخذه بغتة أخذها قبل أن تأخذه ، وبأغتها بحربه قبل أن تباغته (٣) . إن المباغته أهم مبادئ القتال قديما وحديثا ، وقد حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ فى أكثر غزواتهم ، مما ساعدهم على النصر (٤) .

صلح الحديبية : فى آخر السنة السادسة . ونزلت فيها سورة الفتح كلها .

من هنا تبدأ المرحلة الثالثة من الصراع بين المسلمين والمشركين والتى تنتهى فى غزوة تبوك .

قال ابن اسحق (٥) : خرج رسول الله فى ذى القعدة معتمرا ، لا يريد حربا ، واستنفر العرب من حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب — وخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له .

وقد أنزل تعالى فى شأن تفاقل كثير من الأعراب قوله : (سيقول المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى

١ (سيرة ابن هشام : ٧٥٠/٣ — ٧٥١ ، ١١٤)

تحقيق محبى الدين عبد الحميد .

٤ (الرسول القائد : ١٦٦ .

٢ (المرجع السابق : ٧٥٨/٣ .

٥ (سيرة ابن هشام : ٧٧٤/٣ وزاد المعاد

٢ (السياسة الإسلامية فى عهد النبوة : ١٢٢/٢ .

قلوبهم . قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم توما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا اعتدنا للكافرين سعييرا (١) .

وقد كشف تعالى عن مكنون ضمائرهم ، وأبان عن علة تخلفهم ، واعتذارهم عن الخروج مع رسول الله ، وطلبهم الاستغفار الذي لم يكن عن اعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ولهذا قال تعالى : (يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم) وبين السر الحقيقي لتناقلهم (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا) . قال ابن عباس ومجاهد (٢) : بل اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر) .

وهؤلاء هم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والديل وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة تناقلوا عن رسول الله حذرا من قريش واعتلوا بالشغل فنزلت (٣) .

وكانت حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام في طلبه اشترك غير المسلمين من الأعراب في أداء هذه الفريضة ، أن تعلم قريش والناس أجمعين أنه خرج حاجا ولم يخرج غازيا . فان أصرت قريش مع ذلك على مقاتلته في الشهر الحرام ومنعه من أداء ما يؤمن به العرب على اختلاف آلهتهم ، لم تجد قريش من العرب من يؤيدها في موقفها ولا من يعينها على قتال المسلمين . بذلك يأمن المسلمون أن تجتمع عليهم اجتماع الأحزاب من قبل ، ويزداد دينهم رفعة على رفعتهم عند العرب الذين لا يؤمنون به (٤) .

أما قريش فقد أخذتها حمية الجاهلية حين بلغها أمر مسير الرسول إلى الحج ، وصممت على ألا يدخل محمد عليها مكة مها كان الأمر وأخذت تعد عدتها للحرب ، فأرسلت خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، في مائتين من فرسانها إلى كراغ الغميم ، ليعترضوا طريق المسلمين عند مدخل مكة ، واستنفروا من اطاعهم من الأحابيش ومن رجال ثقيف ، وخرجوا إلى (بلدح) بظاهر مكة فضربوا بها القباب والأبنية ، ووضعوا على الجبال عيونا يراقبون حركات المسلمين ، ويوحى بعضهم إلى بعض بالصوت (فعل محمد كذا وكذا فعل محمد كذا وكذا ، حتى ينتهي اليهم في معسكرهم) (٥) .

وقال الزهري : وخرج رسول الله حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر ابن سفيان الكلبى فقال : يا رسول الله هذه قريش ، قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النهور ، وقد نزلوا بذي طوى ، يعاهدون الله لا تدخلونها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراغ الغميم ، فقال رسول الله : يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وأقرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد

١ : الفتح / ١١ - ١٣ . ٤ (حياة محمد / ٣٦٦ هيكل .

٢ (تفسير ابن كثير : ١٨٩/٤ والكشاف : ٥) إمتاع الأسماع : ٢٨٠/١ - ٢٨٤

٣ : ٥٤٤/٣ . وصور من حياة الرسول : ٤٥٤ .

٤ (تفسير القرطبي ١٦/٢٦٨ .

هذه السالفة ، ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فجاء رجل من قبيلة أسلم ، فسلك بهم طريقا وُعزا شق على المسلمين اجتيازه ، ثم أمضى بهم الى أرض سهلة عند منقطع الوادى ، فأمر رسول الله أن يسلكوا ذات اليمين ، حتى بلغ مهبط « الحديبية » من أسفل مكة ، فلما رأت خيل قريش قفزة الجيش قد خالفوا عن طريقهم رجعوا راكضين الى قريش ، وخرج رسول الله ، حتى سلك ثنية المرار بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت الناقة قال : ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم الى خطة يسألونى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها ، ثم أمر الناس أن ينزلوا حيث كانوا .

فلما استقر رسول الله بالحديبية — أتى اليه بنديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة ، يسألون عن سبب مجيئه ، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا ، وإنما جاء زائرا للبيت ، ومعظما لحرمة ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، إن محمدا لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت ، فاتمهموم وجبهوم ، وقالوا : وإن كان لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تحدث بذلك عنا العرب .

ثم بعثوا الحلبي بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله قال : « إن هذا من قوم يعظمون الهدى فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه فبعثوه ، واستقبلوه يضحون بالتلبية ، فلما رأى الهدى يسيل فى الوادى عليه قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، ورأى القوم محرمين قد تفلوا وشعثوا . . . رجع ولم يصل إلى النبي إعظاما لما رأى ، فقال لهم ذلك فقالوا له : اجلس ، فإنا أنت من الأعراب لا علم لك . فغضب الحلبي عند ذلك وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عائدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ! والذى نفس الحلبي بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن الأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا : مه ، كف عنا يا حلبي حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى » (١) .

وقال تعالى مخبرا عن صنيع الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مآلهم على نصره رسول الله وصدده عن المسجد الحرام (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوبا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء ولو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (٢)) .

فقوله تعالى : (هم الذين كفروا) يعنى قريشا ممنوعكم دخول المسجد الحرام عام الحديبية حين أحرم النبي عليه الصلاة والسلام بعمرة ، ومنعوا الهدى وحبسوه أن يبلغ محله (٣) .

« وصدوكم عن المسجد الحرام » أى وأنتم أحق به وأنتم أهله فى نفس الأمر (والهدى معكوبا أن يبلغ محله) ومنعوا الهدى أن يبلغ المحل الذى ينحر فيه وهذا من بغيهم وعنادهم (٤) .

١ (السيرة النبوية لابن كثير : ٣/٣١٥ ، ٤ (تفسير القرطبي : ١٦/٢٨٢ - ٢٨٥ ،

٢١٦ .

٢ (الفتح : ٢٥ .

٠٥٤٧/٣ .

٣ (تفسير ابن كثير : ٤/١٩٣ .

(ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) أى من المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار بين أظهرهم ممن يكتنم إيمانهم ويخفيه خوفا على أنفسهم من قومهم لكننا سلطناكم عليهم فقتلتهم وأبدتم خضراءهم ولكن بين أنفسنا من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ولهذا قال تعالى : (لم تعلموهم أن تطاؤهم فتصيبكم منهم معرة) .

وقال الزمخشري : والمعنى انه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين فيهم ولا معروفى الاماكن ، فقيل ولولا كراهة أن تهلکوا ناسا مؤمنين بين ظهرائى المشركين وأنتم غير عارفين بهم فيصيبكم باهلاكهم مكروه ومشقة لما كف أيديكم عنهم (١) . أو يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ ويقول المشركون قتلوا أهل دينهم . ولكن الله يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين وليرجع كثير منهم إلى الاسلام .

فأله سبحانه أبان عن حكمة كف أيدي المسلمين عن أهل مكة ليسلم بعد الصلح من قضي أن يسلم منهم « ليُدخل فى رحمته من يشاء » وقد أسلم معظمهم وحسن إسلامهم ، ودخلوا فى رحمته .

ورحمة أيضا بالمؤمنين الذين لم يعرفهم المسلمون (ولو تزيلوا) أى لو تميزوا من الكفار الذين بين أظهرهم لسلط الله المسلمين على الكفار فقتلوهم قتلا ذريعا (لعذبنا الذين كفروا عذابا ليليا (٢)) .

وقد وبخ الله المشركين ، وبين أنهم ليسوا أهل المسجد الحرام ولا يحق لهم صد الناس عنه ، وتوعدهم بالعذاب الأليم (وما لهم إلا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إن الذين كفروا وينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغفلون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون (٣)) .

وكانت قريش إذ ذاك قد بعثت فريقا من رجالها ليهاجموا المسلمين على غرة بالحديبية فظفر بهم محمد بن مسلمة مما دعاهم إلى إرسال نفر آخر من أصحابها ليعاودوا الاعتداء على المسلمين ، فوقف المسلمون فى وجههم وأسروا بعض فرسانهم (٤) .

وقال ابن اسحق (٥) : إن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين رجلا ، وأمرهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ، ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، فأخذوا أحدا فأتى بهم رسول الله ، فعفا عنهم ، وخلق سبيلهم ، وقد كانوا رموا فى عسكر النبى الحجارة والنبل .

وقد أنزل الله فى شأن هؤلاء المحاربين قوله تعالى : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا (٦)) .

- | | |
|---------------------------------|--------------------------------------|
| ١ (الكشاف : ٥٤٨/٣ . | ٤ (امتاع الاسماع : ٢٨٩/١ . |
| ٢ (تفسير القرطبي : ٢٨٧/١٦ ، | ٥ (سيرة ابن هشام : ٧٧٩/٣ تحقيق محيى |
| والكشاف : ٥٤٩/٣ وتفسير ابن كثير | الدين عبد الحميد . |
| ١٩٣/٤ . | ٦ (الفتح : ٢٤ . |
| ٢ (الانتقال : ٣٤ - ٣٦ . | |

وجاء فى تفسير القرطبي : عن ثابت بن أنس أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبى عليه الصلاة والسلام من جبل التعميم متسلحين يريدون غيرة النبى وأصحابه ، فأخذناهم سلما فاستحييناهم فأنزل الله هذه الآية (١) . وأرسل النبى عثمان بن عفان الى قريش يقول لهم : إنا لم نأت لقتال احد ، وإنما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين حرمة ومعنا الهدى فنحره وننصرف . فرفضوا السماح للرسول بدخول مكة ، واحتبسوا عثمان عندهم فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل (٢) .

قال ابن اسحق (٣) : فلما بلغ رسول الله أن عثمان قد قتل قال : لا نبرح حتى نناجز القوم فدعا رسول الله الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضثوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله على الموت . فبايع الناس لم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها .

وقد نوه القرآن الكريم بشأن هذه البيعة فقال تعالى : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتية اجرا عظيما (٤)) .

وقد سجل الله تعالى رضاه عن المبايعين ووعدهم حسن الثواب بقوله فى السورة نفسها : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا . ومغانم كثيرة يأخذونها . وكان الله عزيزا حكيما (٥)) .

وقد استحق الصحابة رضوان الله عليهم كل هذا الثناء من مولاهم عز وجل لأنهم لم يكونوا يحملون من السلاح سوى السيوف ، وليس عليهم من لباس الحرب ما يقى أجسامهم ضربات العدو عند اللقاء . فى قلة من العدد ، فكانت تلك البيعة بيعة الموت حقا وصدقا ولكنهم أقدموا عليها مع حماسة منقطعة النظير حتى أن أحدهم بايع رسول الله ثلاث مرات ، فاستهانوا بالموت ، وهانت عليهم نفوسهم ابتغاء رضوان الله ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وتقبل بيعتهم وباركها لهم ، وجعلها معه سبحانه مباشرة (يد الله فوق أيديهم) فكانت فتحا مبينا صار الاسلام بعدها من قوة الى قوة ومن نصر الى نصر .

وقد أرهبت هذه البيعة قريشا فاضطرت الى ارسال من احتجزتهم من المسلمين ، ودعت الى المودة والصلح (٦) .

قال ابن اسحق (٧) : ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو الى رسول الله وقالوا له : أئت محمدا فصالحه ، فأتاه سهيل ، فلما رآه مقبلا ، قال : (قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فلما أنتهى سهيل بن عمرو الى رسول الله تكلم فأطال الكلام ، ثم جرى بينهما الصلح . ثم دعا رسول الله على بن أبى طالب فقال : أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن أكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله أكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال أكتب هذا

- | | |
|-------------------------------------|----------------------------------|
| ١ (تفسير القرطبي : ٢٨٢/١٦ . | ٢ (طبقات ابن سعد : ١٤١/٣ وتاريخ |
| ٢ (سيرة ابن هشام : ٧٨١/٢ . | ٣ (الفتح : ١٠ . |
| ٤ (الفتح : ١٨ ، ١٩ . | ٥ (تفسير ابن كثير : ١٨٦/٤ . |
| ٦ (سيرة ابن هشام : ٧٨١/٣ ، ٧٨٢ . | ٧ (الفتح : ١٠ . |
| ٨ (تفسير القرطبي : ٢٨٢/١٦ . | ٩ (طبقات ابن سعد : ١٤١/٣ وتاريخ |
| ١٠ (الطبرى : ٢٧٨/٢ - ٢٧٩ وسيرة ابن | ١١ (هشام : ٧٨٠/٢ وامتاع الاسماع |
| ١٢ (المقريزى : ٢٨٩/١٧ . | |

ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله : أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو) .
وقد أنزل الله تعالى في شأن تشدد سهيل وحميته في كتابة العقد هذه الآية :

(اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليما) (١) .

وقال الزهري (٢) : حميتهم أنفتهم من الاقرار للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة والاستفتاح بيسم الله الرحمن الرحيم ، ومنهم من دخول مكة) .
فلما استكبر سهيل ومن معه من المشركين عن كتابة بسم الله الرحمن الرحيم هم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه . فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا) (والزهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) وكلمة التقوى (بسم الله الرحمن الرحيم) (ومحمد رسول الله) قد اختارها الله لنبيه وللاذين معه من أهل الخير ومستحقه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم (٣) .
وقال الزهري : هي بسم الله الرحمن الرحيم . لم يقر بها المشركون . فخص الله بها المؤمنين (٤) .

وكان أبى بن كعب يقرأ (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) ، ولو حميتهم كما حموا لفسد المسجد الحرام (٥) .
وكان رسول الله قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام فلما وقع ما وقع من قضية صلح الحديبية رجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعضهم رضوان الله عليهم شيء حتى سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا بكر : ليس هذا نبى الله حقا ؟ قال : بلى ، قال : السنن بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا على الحق وعدونا على الباطل قال : بلى . قال : فلم نعطى الدنيا في ديننا اذن ؟ قال أيها الرجل ، انه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بفرزه فوالله انه على الحق . قال عمر : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت نطوف به ، قال : بلى . فأخبرك انه تأتية هذا العام ؟ قال : لا قال أبو بكر : فانك تأتية وتطوف به .

قال عمر رضى الله عنه فأتيت رسول الله فقلت : الست نبى الله حقا ؟ قال : بلى . قلت : السنن على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنيا في ديننا اذن ؟ قال : انى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى . قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به . قال : بلى فأخبرتك أنا تأتية العام . قلت : لا ، قال صلى الله عليه وسلم : فانك آتية ومطوف به (٦) .

- | | | | |
|---|----------------------------|---|---|
| ١ | الفتح : ٢٦ . | ٥ | (تفسير ابن كثير : ١٩٤/٤ . |
| ٢ | (تفسير القرطبي : ٢٨٩/١٦ . | ٦ | (تفسير ابن كثير : ١٩٤/٤ وسيرة ابن هشام : ٧٨٢/٣ ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد . |
| ٣ | (الكشاف : ٥٤٩/٣ . | | |
| ٤ | (تفسير القرطبي : ٢٨٩/١٦ . | | |

فأنزل الله في شأن عمر وأصحابه : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » (١) .

قال الزمخشري (٢) : وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقضي لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون اليه فتح مكة) .

وقد بين الله للمسلمين حكمة تأخير دخولهم المسجد الحرام الى العام القابل بقوله (فاعلم ما لم تعلموا) أى علم ما فى تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه انتم وقد تكشف ذلك لهم فيما بعد . فمن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام لما رجع من الحديبية الى خيبر فافتتحها ، ورجع بأموالها وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه فى ذلك العام ، وأقبل الى مكة على أهبة وقوة وعدة بأضعاف ذلك . (فجعل دونه فتحا قريبا) . أى من دون رؤيا النبى فتح خيبر قاله ابن زيد والضحاك ، وقبيل فتح مكة . وقال مجاهد هو صلح الحديبية . وهو الذى رجحه أكثر المفسرين .

قال الزهري : هو الأرجح عندي . ما فتح الله فى الاسلام فتحا كان أعظم من صلح الحديبية ، لأنه إنما كان القتال حين تلتقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضا ، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة فلم يكلم أحد يعقل بالاسلام الا دخل فيه ، فلقد دخل فى تينك السنيتين فى الاسلام مثل ما كان فى الاسلام قبل ذلك وأكثر . يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفا وأربعمائة وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان عشرة آلاف (٣) .

والأرجح عندي أيضا أن صلح الحديبية كان أعظم الفتوح وأكثرها بركة على المسلمين وصدق الله العظيم اذ يقول : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك نصرا عزيزا) (٤) .

عن قتادة عن أنس قال : لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة ، أنزل الله عز وجل — إنا فتحنا لك فتحا مبينا — فقال رسول الله : قد أنزلت على آية هى أحب الى من الدنيا ومن فيها كلها (٥) . فلما نزلت (انا فتحنا لك) قرأها النبى على الناس فقال عمر بن الخطاب : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده انه لفتح . . وقال موسى ابن عتبة : قال رجل عند منصرفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت . فقال النبى عليه الصلاة والسلام : (بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوك عن بلادهم بالراح ويسألونكم القضية ، ويرغبوا اليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا) .

وقال الشعبي : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب بها ما لم يصب فى غزوة ،

١ (الفتح : ٢٧ ، ٢٨ .
 ٢ (تفسير الزمخشري : ٥٥٠/٣ .
 ٣ (تفسير القرطبي : ٢٩١/١٦ .
 ٤ (الفتح : ١ - ٣ .
 ٥ (أسباب النزول : ٢٥٥ للواحدى وتفسير القرطبي : ٢٩١/١٦ .

غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خبير ، وبلغ الهدى محله وظهرت الروم على فارس ، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس (١) .

وهكذا ، نرى من كل هذا أن الله سبحانه أراد بالمسلمين خيرا بما يسره الله عليهم من صلح الحديبية ، وانزل الله سكينته على قلوب المؤمنين فاطمأنت ، وايقنت أن الله أراد بهم خيرا وأنه يعلم وهم لا يعلمون أين تكون مصلحتهم (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما . ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) (٢) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : لما نزلت (إنا فتحنا لك) قال أصحاب رسول الله : هنيئا لك يا رسول الله ما أعطاك ، فما لنا ، فأنزل الله ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات (٣) .

ولم يبق أذن أدنى شك أن صلح الحديبية فتح مبين ، كسب به المسلمون أعظم مكسب ، إذ انتزع الرسول قريشا من القبائل العربية التى كانت تقودها لحربه ، فخلت بينه وبين غيرها من العرب ، ومكنته بهذه المواقعة مما أراد وفتحت أمامه الأبواب لنشر رسالته على أوسع وجه ، فكان ذلك فتحا عظيما حقا (٤) .

ومهما بحثنا عن حكمة هذا الفتح فاننا يجب أن نسلم أنه ليس من تدبير رسول الله ، بل من صميم الخطة التى رسمها الله تعالى للمؤمنين ، فى صراعهم مع أعدائهم فى تلك المرحلة . وقد أحس رسول الله بذلك حين بركت ناقته عند مهبط الحديبية . وقال : (حبسها حابس الفيل لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها) . . وهذا ما يفسر تنازلات الرسول وتسامحه فى شروط العقد مع قريش . فقد أهملت عليه شروطا قاسية . فقبل تلك الشروط التى لم يكن ليملئها مثل قريش فى ضعفها على مثل المؤمنين فى قوتهم ، وقد رأينا أن وقع هذا الصلح كان سيئا على نفوس الصحابة حتى أنهم إذا دخلوا يخلقون بعضهم لبعض كادوا يقتل بعضهم بعضا ذهولا وغما . أفلم يكن من الطبيعى إذ ذاك لو كان الرسول القائد هو الذى وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك فى وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار الصحابة حكمة هذه التصرفات التى هى فوق العقول ، حتى يطفىء نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها ، ولكن كان جوابه حين راجعه عمر : إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى (٥) .

وقد بينت سورة الفتح الحكمة الباهرة والبشارات الصادقة فاذا الذى ظنوه

-
- ١ (صحيح البخارى ، ١٦٨/٦ وتفسير
القرطبي : ٢٦٠/١٦ وتفسير ابن كثير
١٣٢ .
٢ (الفتح / ٤ - ٥ .
٣ (أسباب النزول للواحدى : ٢٥٦ .
٤ (السياسية الاسلامية فى عهد النبوة :
٥ (النبأ العظيم ٢٣ الدكتور محمد عبد الله
دراز .

ضئما واءءانا فى باءى الرأى كان هو النصر المبين والفتح الاكبر ، وأبن ءءبفر
البشر من ءءبفر القءر ؟

عمرة القضاء : فى ذى القعدة من السنة السابعة ءرء رسول الله الى

مكة معتمرا عمرة القضاء هو واهل الءءبفة . وقء أنزل الله ءعالى فى هءه العمرة
قوله ءعالى : (وءاتلوا فى سبفل الله الءفن فءاتلونكم ولا ءءءءوا إن الله لا فءب
المءءءفن . واءقلولهم ءفء ءففءمولهم وأءرءولهم من ءفء آءرءولكم والفءنة أءء
من القءل ولا ءفءاتلولهم عنء المسءء الءرام ءءى فءاتلولكم فىه فأن ءاتلولكم فاءقلولهم
كءلك ءراء الكافرفن . فأن انءءلوا فأن الله ففور رءفم . وءاتلولهم ءءى لا ءون
فءنة وفكون الءفن لله فأن انءءلوا فلا عءءوان إلا على الظالمفن . الشهر الءرام
بالشهر الءرام والءرامء قءاصص فمن اعءءى علفكم فاعءءلوا علىه بمءل ما اعءءى
علفكم واءقلوا الله واعلموا أن الله مع المءءفن) (١) .

قال ابن عباس : أنزلء هءه الآفة (وءاتلوا فى سبفل الله ...) فى صلء
الءءبفة وءلك أن رسول الله لما صء عن البفء هو وأصءابه ، نءر الءءى
بالءءبفة ، ثم صالحه المءركون على أن فرءع عامه ثم فآئى القابل على أن فءلوا
له مكة ءلاءة أفام ، ففءوف بالبفء وففعل ما فشاء ، فلما كان العام المقبل ءءء
رسول الله وأصءابه لعمرة القضاء ، وآافوا أن لا ءفى لهم قرفش بءلك ، وأن
فصءولهم عن المسءء الءرام فءاتلولهم ، وكره أصحابه قءالهم فى الشهر الءرام ،
فأنزل الله ءعالى هءه الآفاء (٢) .

ثم نرى أن الله ءعالى فشاء المسلمفن على قءال المءركفن فى الشهر الءرام
وفى المسءء الءرام أن هم صءولهم عن ءءول المسءء الءرام أو ءاتلولهم فىه
(الشهر الءرام بالشهر الءرام والءرامء قءاصص ...) قال عكرمة وابن عباس
والضءاك والسءى وقءءاءة ومءسم والربع بن أنس وعطاء ورفهم أنها نزلء
فى عمرة القضاء (٣) .

وروى عن الءسن رضى الله عنه : أن المءركفن قالوا للنبى علىه الصلاة
والسلام : أنءفء فآ مءء عن القءال فى الشهر الءرام ؟ قال : نعم . فأراءوا
قءاله فنزلء . والقول الأول أشهر وعلىه الاكءر (٤) .

وهكذا ءءقق وعء الله ءعالى للمؤمنفن فءءلوا المسءء الءرام آمنفن مطمئنفن
« لءء صءق الله رسوله الرؤفا بالءق لءءءلن المسءء الءرام أن شاء الله آمنفن
مءلقفن رعولسكم ومءصرفن لا ءءافون فعلم ما لم ءعلموا فءعمل من ءون ءلك فءءا
قرففا » (٥) .

١ (البقرة / ١٩٠ - ١٩٤ .

٢ (أسباب النزول : ٢٤ للواءى والءشاف

٣ (٢٤١/١ وءفسفر ابن كءفر ٢٢٦/١

٤ (ءفسفر الرطبى : ٢٥٤/٢ .

٥ (الفءء / ٢٧ .

٦ (ءفسفر الرطبى : ٢٤٧/٢ .

٧ (المراء السابفة للواءى : ٢٤ وابن

فتح مكة :

فى رمضان سنة ثمان . ونزلت فيه سورة الممتحنة ووردت ايضا فيه اشارة فى سورة الفتح (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) فهو أثر من آثار مفتاح الفتح كلها (صلح الحديبية) . فقد كان صلح الحديبية بين رسول الله وقريش فى أواخر السنة السادسة أول مفاتيح هذا المعقل المتيد ، ثم كانت عبرة القضاء بعد ذلك بعام هى المفتاح الثانى من مفاتيح ذلك الحصن ، ثم أراد الله تعالى بعد ذلك أن يفك كل ما بقى من أغلاق هذا الحصن ، فكان فى السنة الثامنة من نقض قريش لعهد الحديبية . . فقد أمر الرسول بالجهاز ، وتجهيز الناس ، وقال رسول الله اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها(١) .

ولما أجمع الناس على المسير الى مكة كتب حاطب بن أبى بلتعمة كتابا الى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله من الامر فى السير اليهم . واتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب وأنسد الله صنيعة . فدعا الرسول حاطبا ، وقال له : يا حاطب ما حملك على هذا ؟ فقال يا رسول الله : أما والله انى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت أمرا ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليه . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعنى فلاضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق ، فقال رسول الله : وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد أطلع على أصحاب بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

فأنزل الله تعالى فى حاطب قوله (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالموودة وأنا أعلم بما أخفيتم وبما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يتقفوكم يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم أيديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) (٢) .

فى الآيات نهى صريح عن اتخاذ المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء كما قال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم) وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد .

ثم فى الآيات تهيبج على عداوتهم وعدم موالاتهم لانهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله

١ (سيرة ابن هشام : ٨٥٧/٢ ، تحقيق

محبى الدين عبد الحميد ، وأسباب

٨٨/٤ - ٨٩

النزول : ٢٨١ - ٢٨٥ للواحدى

٢ (الممتحنة / ١ - ٤

وحده (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) . أى لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين كقوله تعالى (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وكقوله تعالى : (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) وقوله تعالى : (إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) أى إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى باغين مرضاتى عنكم فلا توالوا أعدائى وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقا عليكم وسخطا لدينكم .

ثم يعمد السياق إلى تهيجات أخرى على عداوتهم (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم والسنتهم بالسوء) فهم إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم يكونوا خالصى العداوة ولا يكونوا أولياء كما أنتم « وودوا لو تكفرون » وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم ، فهم يريدن أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ، وردكم كفارا أسبق المضار عندهم وأولها ، لعلهم أن الدين اعز عليكم من أرواحكم لأنكم بذالون لها دونه ، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد اعز شيء عند صاحبه ، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة فكيف توالون مثل هؤلاء ؟

ثم يعمد السياق الى تهيج آخر على عداوتهم هو قوله (لن تنفعكم أرحامكم ولا اولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) أى قراباتكم ولا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءا ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتوهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيه فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ولو كان قريبا إلى نبي من الأنبياء . وقد صرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله وما دام هذا السبب قائما كانت العداوة قائمة حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالة والبغضاء محبة . . . ولما نزلت هذه الآيات تشدد المؤمنون فى عداوتهم آباءهم وأبناءهم وجميع اقربائهم من المشركين ومقاطعتهم ، فلما رأى الله عز وجل منهم الجد والصبر على الوجد الشديد وطول التمنى الذى يبيح لهم الموالة ومواصلة رحمتهم فوعدهم تيسير ما تمنوه فلما يسر فتح مكة أظفرهم الله بأمنيتهم فأسلم قومهم وتم بينهم من التحاب والتصافى ما تم (١) (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) . . .

وقد يسر الله تعالى على المسلمين فتح مكة بلا مقاومة تذكر ، ودخل رسول الله البلد الأمين خائضا متواضعا شاكرا لله بما أنعم به من هذا الفتح المبين ولم يزل يقرأ سورة الفتح حتى انتهى إلى الكعبة . ويعتبر فتح مكة نهاية مرحلة الصراع السياسى والعسكرى بين المسلمين وقريش ، كما أنه كان الدعامة التى بنتى عليها الفتح الاسلامى كله (٢) .

غزوة حنين :

وردت إشارة إلى هذه الغزوة فى قوله تعالى (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) . (٣)

١ (تفسير ابن كثير : ٢٤٤/٤ - ٢٤٨ ، ٢) محمد القائد : ٨٤ وصور من حياة

الرسول : ٥٣٩ .

والكشاف : ٨٨/٤ - ٩٢ .

٢ (التوبة / ٢٥ .

عن جابر بن عبد الله : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من اودية تهامة اجوف حطوط ، انما ننحدر فيه انحدارا ، وفي عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا في شعابه واحنائه ومضايقه ، وقد اجمعوا وتهيئوا واعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد وانتشر الناس راجعين ، لا يلوي أحد على أحد . وانحاز رسول الله ذات اليمين ، ثم قال : أين الناس ؟ هلموا إليّ ، انا رسول الله ، انا محمد بن عبد الله ، قال : فلا شيء ، حملت الابل بعضها على بعض ، فانطلق الناس ، إلا أنه بقي مع رسول الله نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله من جفاة مكة هذه الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال ابو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وقال آخر : الا بطل السحر اليوم « وقال شيبة بن عثمان ابن طلحة (اليوم أدرك ثأري من محمد . . . اليوم أقتل محمدا) (١) .

وقال الزمخشري : (٢) (حنين واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين ، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فبين ضامهم من امداد سائر العرب ، فلما التقتوا قال رجل من المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة فساعت رسول الله ، وقيل بل قائلها رسول الله نفسه ، وقيل ابو بكر الصديق . وذلك قوله تعالى (إذ عجبتكم كثيرا) فاقتلوا وادركت المسلمين كلمة الاعجاب بالكثرة وزل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود ، فاتهزموا حتى بلغ فلهم مكة) .

وقال القرطبي : فولكوا إلى هذه الكلمة فكانت الهزيمة (٣) .

وقال ابن كثير (٤) : نبههم أن النصر من عند الله سواء قل الجمع أو كثر فان يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين الا القليل منهم ليعلمهم أن النصر من عنده وحده وبإمداده وتأنيده .

أما قوله تعالى (وضائق عليكم الأرض بما رحبت) فهو تعبير مصور يجسم فرارهم وهزيمتهم أعظم تجسيم ، فكانهم لا يجدون موقعا يستصلحونه لهربهم إليه ونجاتهم لفرط الرعب ، فكانما ضاقت عليهم الأرض على اتساعها (٥) .

فالنص القرآني من القوة والحيوية بحيث استحضر في اذهاننا صورة الهزيمة الكاملة ، حتى لكأن الواحد منا يعيش تلك المعركة ، فيرى ويسمع ويحس ، بكل ما يدب فيها من خواطر ، وما يشتجر فيها من مشاعر ، ولو أغمض عينيه فلربما تراءت له شخصوس المسلمين الفارين بارزة ، وهم يتدافعون أمام عدوهم تدافع السيل ، ويتككبون تككب الانقاض من البناء الشامخ حين ينهار أعلاه على أسفله . وكاننا نسمع صوت العباس الجهير يهتف بالناس هتافا يملأ أسماعهم وقلوبهم ويتردد صده في جنبات الوادي (يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر اصحاب الشجرة ، يا اصحاب سورة البقرة ، فكثروا وعتقوا واحداً وهم يتواثبون الى رسول الله ويقولون : لبيك لبيك . حتى أن

(١) سيرة ابن هشام : ٨٩٥/٣ تحقيق محيي (٢) تفسير القرطبي : ١٠٠/٨ .

الدين عبد الحميد وامناع الاسماع : (٤) تفسير ابن كثير : ٢٤٢/٢ .

(٥) الكشاف : ٤٠٦/١ .

(٢) الكشاف : ١٨٢/٢ .

الرجل ، يذهب ليثنى بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ،
ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت ، حتى
ينتهى إلى رسول الله .

قال العباس : فوالله لكان عطفهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر
على أولادها (١) .

فلما اجتمعت شزيمة عند رسول الله أمرهم أن يصدقوا الحيلة ودعا ربه
واستنصره « اللهم انجز ما وعدتني » . وقد استطاعت هذه الفئة القليلة التى
لاذت بإيمانها وأحاطت برسول الله أن تنقذ الموقف ، فجعل رسول الله يدها
بثقتة ويقينه ، وينجح بقلوبها ونفوسها إلى الله القوى لتستمد منه العون
والقوة ، فلما أخلصت قلوبها ونفوسها لله ، وأحسننت الصلة به والاتجاء إليه ،
جاء المدد سريعا ، فانقلب ضعفها قوة وآسها بأسا ، وهزيمتها نصرا مؤزرا .
« ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها
وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » (٢) .

ولقد أخذ رسول الله حفنة من تراب ورمى بها القوم فما بقى انسان منهم
إلا أصابه منها فى عينه وفمه ما شغله عن القتال ، ونظر إلى مجتلد القوم وهم
يجتلدون ، فقال : الآن حمى الوطيس . ثم قال : « انهزموا ورب الكعبة » ،
وتابع المسلمون أقتفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى
مجدلة بين يدى رسول الله .

وهكذا تصور هذه الآية الشوط الثانى من المعركة كما صورت الآية التى
قبلها الشوط الأول ، وقد جمعت هاتان الآيتان كل ما روته كتب المغازى والسير
والتفسير فى صدق ووضوح . فقد كانت الهزيمة أولا ثم كان النصر ثانيا « ثم
أنزل الله سكينته » أى أنزل عليهم ما يسكنهم ويذهب خوفهم ، حتى اجترأوا
على قتال المشركين بعد أن ولوا هاربيين « وأنزل جنودا لم تروها » وهم
الملائكة ، يقوون المؤمنين بما يلقونه فى قلوبهم من الخواطر والتثبيت ، ويضعفون
الكافرين بالتجيبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال « وعذب الذين كفروا »
أى بأسيا فكم بالقتل والأسر ويسبى النساء والذرى .
ثم قال تعالى بعد هذه الآية موضحا ما تم بعد الواقعة والنصر والغنيمة
(ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) (٣) .

روى أن ناسا منهم جاءوا فبايعوا رسول الله على الاسلام ، وقالوا
يا رسول الله : أنت خير الناس وأبر الناس ، وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت
أموالنا ، فقال عندى ما ترون ، إن خير القول أصدقته ، واختاروا إما ذراريكم
ونسائكم وإما أموالكم ، قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا ، فقام رسول الله
فقال : إن هؤلاء جاءوا مسلمين وأنا خيرناهم بين الذرارى والأموال فلم يعدلوا
بالأحساب شيئا ، فمن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يرده فثأنه ، ومن لا
فليعطينا ، وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه ، قالوا : رضينا

(١) تفسير القرطبي : ٩٨/٨ . (٢) التوبة / ٢٧ .

(٣) التوبة : ٢٦ .

وسلمنا . فرد عليهم رسول الله نساءهم وأولادهم (١) .
ولما انهزم المشركون في حنين أتوا الطائف ، وتحصنوا بها ، وطاردهم المسلمون مطاردة لا هوادة فيها ، حتى حاصروهم فيها بضعا وعشرين ليلة . فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يريد نصر حاسما ينتهي به الشرك من الجزيرة العربية مهما كانت التضحيات .

ولما حل شهر ذى القعدة وهو من الأشهر الحرم رفع رسول الله عنهم الحصار ، ودعاهم (اللهم أهد ثقيفا وأت بها) (٢) وسرعان ما دخل أهل الطائف في الإسلام وأصبحوا بعد إسلامهم من أخلص العرب للدين الإسلامي وأشدهم حرصا على الذود عنه . (٣) وقد عبر المغيرة بن شعبه عن تمسك ثقيف بالإسلام بقوله (فدخلوا في الإسلام ، فلا أعلم قوما من العرب بنى أب ولا قبيلة ، كان أصح إسلاما ولا أبعد أن يكون فيهم غش لله ولكتابه منهم) (٤) .

وهكذا انتهت سنة ثمان بفتح مكة ، وزالت العقبة الكنود التي طالما سدت الطريق وعاققت المسير ، فانبعث الإسلام بعدها فيأضاً في أرض الجزيرة ، وانطلق يغمر كل ناحية من نواحيها ، كما يغمر السيل الدافق جديب الأرض ، فيعمرها بالرى والخصب والنماء .

واقبلت السنة التاسعة فأقبلت معها وغود العرب من أنحاء الجزيرة ، تأتي طائفة إلى المدينة لتعلن إلى رسول الله إسلامها وطاعتها ، وتدخل في دين الله راضية مطمئنة . (٥)

المرحلة النهائية :

من غزوة تبوك إلى وفاة النبي عليه الصلاة والسلام .
وأخيرا تأتي المرحلة النهائية من مراحل الصراع بين الإسلام والوثنية في الجزيرة العربية ، وتطهيرها من الشرك بنزول سورة (براءة) وإعلانها نبذ عهد المشركين ، وتحديد العلاقات النهائية معهم مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقيدية التي يقوم عليها هذا التحديد ، بالأسلوب القرآني الموحى المؤثر ، وفي تعبيرات قوية الأيقاع حاسمة فاصلة . وقد تضمن المقطع الأول من سورة براءة من أولها — إلى ختام الآية الثامنة والعشرين تحديد هذه العلاقات النهائية .
ويبدأ هذا المقطع بهذه القوة والصراحة والحزم (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . . إلى قوله تعالى (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) . (٦)

- | | |
|------------------------------------|-----------------------------------|
| ٢ (سيرة ابن هشام : ٨٩٢/٣ — ٩٠١ | والكشف : ١٨٢/١ — ١٨٢ . |
| تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، وابن | ٢ (سيرة ابن هشام : ٩٢٥/٣ . |
| الاثير : ١٩٥/٢ ، ٢٠٠ — ٢٠١ ، | ٣ (تاريخ الإسلام السياسي : ١١٨/١ |
| والطبرى : ١٤١/٣ ، وامتاع الاسماع | د. حسن ابراهيم حسن . |
| ٤٠١/١ — ٤٠٦ ، وروح الإسلام : | ٤ (طبقات ابن سعد : ٨٧/٢ . |
| ١٨١/٢ — ١٨٢ سيد أمير على ، | ٥ (صور من حياة الرسول : ٥٥٥ |
| وتفسير ابن كثير : ٢٤٣/٢ — ٢٤٦ ، | ٦ (التوبة : ١ — ٢٨ . |
| وتفسير القرطبي : ٩٦/٨ — ١٠٢ ، | |

فقد روى أن رسول الله أقام بالمدينة بعد انصرافه من الطائف ذا الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ، وخرج في رجب سنة تسع بالمسلمين الى غزو الروم ، (غزوة تبوك) ، وهي آخر غزوة غزاها .

قال مجاهد : لما انصرف رسول الله من تبوك اراد الحج ثم قال : (إنني يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك) فأرسل أبا بكر أميرا على الحج سنة تسع . وأعطى على بن أبى طالب (براءة) فلما كان يوم النفر الأول العام قام أبو بكر فخطب الناس ، فلما فرغ قام على ابن أبى طالب يوم النحر عند جمره العقبة فقال : يا أيها الناس إني رسول رسول الله اليكم ، فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية من براءة ، ثم قال : أمرت بأربع : أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده ، فقالوا عند ذلك : يا على أبلغ ابن عمك ، أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف (١) .

ومن خلال استعراضنا للصراع الدامى بين المسلمين والمشركين فى الوقائع والغزوات ، نرى الواقع التاريخى للمنهج الحركى الإسلامى ، وطبيعة هذا المنهج ومراحله وأهدافه . نرى بوضوح أن هذه الخطوة الأخيرة الحاسمة فى العلاقات بين المعسكر الإسلامى فى الجزيرة وسائر معسكرات المشركين التى تقرر فى هذه السورة كانت قد جاءت فى موعدها ، وتهدت لها الأرض وتهيأت لها الأحوال ، وقد أصبحت هذه الخطوة الطبيعية فى أوانها المحتوم . فكان قد تبين فى الواقع العملى مرحلة بعد مرحلة ، وتجربة بعد تجربة أنه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده بلا شريك ، والآخر يقوم على عبودية البشر للآلهة المدعاة للأرباب المنفرقة ، ومن ثم يقع بينهما التصادم فى كل خطوة من خطوات الحياة ، لأن كل خطوة فى أحد المنهجين لا بد أن تكون مختلفة مع الأخرى ، ومتصادمة معها وهذا هو المراد بقوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله . . . إلى قوله تعالى) فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلمهم ينتهون (٢) .

والمراد أنه لا يمكن أن يعيش المسلمون معهم بحكم المعاهدات المرعية فىأمان كل منهم شر الآخر وعدوانه مع بقائهم على شركهم الذى ليس له شرع يدان به . وهذا هو الأصل الشرعى الذى جاءت به هذه السورة ، وأما حكمة ذلك فهو محو بقية الشرك من جزيرة العرب بالقوة ، وجعلها خالصة للمسلمين (٣) . ولهذا قال تعالى (فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة

البغدادي : ٢٩٢/٣ ، ومجمع البيان

للطبري : ١٩/٣ .

٢ (التوبة : ٧ - ١٢ .

٣ (تفسير المنار : ١٧٧/١٠ ، وزاد المسير

٤٠٤/٣ ، وتفسير ابن كثير : ٢٥١/٢ .

١ (تفسير ابن كثير : ٢٣٣/٢ ، وتفسير

الطبري : ٥٨/١٠ ، وتفسير القرطبي

٦٨/٨ ، وتفسير الرازي ٢١٨/١٥ ،

والكشف ١٧٢/٢ و ١٧٣ ، وأحكام

القرآن لابن العربي : ٨٨٢/٢ ، وزاد

المسير فى علم التفسير لآبى المرز

وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم (١) .
(فاقتلوا المشركين) حيث وجدتموهم من الأرض في الحرم وغير الحرم ،
وفي الشهر الحرام وفي غير الشهر الحرام .

(وخذوهم) وأسروهم واحصروهم وامنعوهم من التصرف في البلاد .
(واقعدوا لهم كل مرصد) أي لا تكتفوا بوجودكم لهم ، بل أقصدوهم
بالحصار في منازلهم ومعاملهم وحصونهم بالمرصد في طريقهم ومسالكهم حتى
تضيقوا عليهم وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام (٢) .

ثم يبين الله تعالى الغاية من قتال المشركين (فإن تابوا وأقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة . .) فالإسلام يريد لهم الهداية ، لا الإبادة والقتل ، وقال صلى الله
عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة
ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم
على الله) (٣) . والمقصود بالناس هنا هم مشركو الجزيرة كما سبق أن ذكرت
وقد دلت على ذلك سائر الأحاديث ونصوص القرآن الكريم .

وبهذه الآية يتحدد الحكم النهائي في معاملة المشركين إما الإسلام أو
السيف . فلا يجوز لأحد أن يستشهد بالنصوص التي مرت في المراحل السابقة
على أنها أحكام نهائية ويؤول هذا النص تأويلاً باطلاً .

وظاهر من الأسلوب القرآني في هذا المقطع كله ، ومن التحضيض والتأليب
على قتال المشركين ، وأخذهم بالثبته والقوة ، مدى ما كان يعتلج في نفوس بعض
أفراد الجماعة المسلمة من التخرج والتخوف والتردد في اتخاذ هذه الخطوة
الحاسمة في ذلك الحين لألمهم في هدايتهم عن طريق الحجة والإقناع . ولكن الله
سبحانه يريد بهذه الأحكام النهائية تطهير جزيرة العرب من الشرك وخراباته
وتحريض المؤمنين من النفاق ودناءته .

فالنصوص القرآنية في هذا المقطع تواجه المترددين والمتهميين باستجاشة
قلوبهم بالذكريات والأحداث القريبة والبعيدة ، وتذكركم بنقض المشركين لما أبرموا
من عهود وعقود . وتذكركم باعتداءاتهم المتكررة على المسلمين وإخراجهم من
ديارهم ، ثم تثير فيهم الحياء والنخوة أن يكونوا إنما يخشون لقاء المشركين ، والله
أحق أن يخشوه إن كانوا مؤمنين حقاً ، ثم تشجعهم على قتال المشركين لعل الله
يعذبهم بأيديهم فيكونوا هم ستارا لقدرته في تعذيبهم وقهرهم ، وشفاء لصدور
المؤمنين الذين أودوا في الله .

ثم تواجه العتلات التي تحيك في الصدور من بعض الأمل في دخولهم
الإسلام دون حرب ولا قتال ، تواجه هذه العتلات بأن الرجاء الحقيقي في أن
يفيء هؤلاء إلى الإسلام أولى بأن يتعلق بانتصار المسلمين ، وهزيمة المشركين
فيؤمنذ يفيء من يقسم الله له التوبة إلى الإسلام المنتصر الظاهر الظاهر ، وفي
النهاية تلفتتهم الآيات إلى أن سنة الله هي ابتلاء الجماعات بمثل هذه التكليف
ليظهر حقيقة ما هم عليه .

(ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدعواكم أول مرة
اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم

١ ١٧٥/٢ .

٢ التوبة : ٥ .

٣ (تفسير ابن كثير : ٢٣٦/٢ ، وتفسير صحيح البخاري : ٥٨/٤)

الطبري : ٧٨/١٠ والكشاف :

ويخزهم وينصرم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على ما يشاء والله عليم حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون (١) .

ثم تتوالى الآيات النزاعة للمخاوف من نفوسهم من كل شيء (يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم (٢)) . . (وتاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين (٣)) .

ثم تأتي الآية الفاصلة في العلاقات بين المسلمين والمشركين (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين (٤)) .

وهكذا انطلق الإسلام في جهاده مع المشركين خطوة بعد خطوة ، وغزوة بعد غزوة ، ومرحلة بعد مرحلة ، لنشر منهج الله في الأرض ، وإيلاغ كلمة الله إلى العشيرة الأتريين ثم إلى أم القرى ومن حولها ، ثم إلى الناس كافة . وكانت إزالة الحواجز المادية حين خضعت شوكة قريش العقبة الكنود في طريق الدعوة وفتح الله أغلاق قلوبهم لها ، أصبحت للإسلام قوة مرهوبة ، وكلمة مسموعة في داخل الجزيرة وخارجها .

ولم يأت العام العاشر حتى كانت بلاد العرب جميعها خاضعة للقوة الإسلامية وتدين بالإسلام ، وبذلك دالت دولة الأئمان واستؤصلت الوثنية من الجزيرة . وأصبحت قاعدة خالصة للإسلام والمسلمين .

ويقول (السير أرنولد) : (وقبيل وفاة محمد نرى جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبا تدين له بالطاعة ، وإذ ببلاد العرب التي لم تخضع إطلاقا لأمير من قبل تظهر في وحدة سياسية وتخضع لإرادة حاكم مطلق) .

ومن تلك القبائل المتنوعة صغيرها وكبيرها ، ذات العناصر المختلفة والتي لم تنقطع عن التنازع والتناصر خلقت رسالة محمد أمة واحدة . وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد ، ذلك النظام الذي سرت مزايه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب (٥) .

وتكلفت المهمة الضخمة بالنجاح ، فعندما انتقل محمد إلى جوار ربه كانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة ، بصورة لم تكن القبائل تعرفها من قبل ، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثار ، وكان الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل إلى هذا الائتلاف (٦) .

٤ (التوبة ٢٣ ، ٢٤) .

٥ (الدعوة إلى الإسلام : ٢٧) .

٦ (A. Ivon, Kremer (3) PP. 309) .

١ (التوبة ١٣ - ١٦) .

٢ (التوبة ٢٨) .

٣ (التوبة ٢٦) .

الفصل الثالث

أولا - اليهود : مهاجرة اليهود والنصارى

شغل اليهود فى القرآن الكريم حيزا كبيرا منه ، حتى لقد ورد ذكرهم نصريحا أو تلميحا ومسهبيا أو مقتضبا فى نحو خمسين سورة مكية ومدنية من سورة البالغة مائة وأربع عشرة .

والوارد فى القرآن المكى هو الأغلِب فى صدد قصصهم السابقة للبعثة النبوية من لدن موسى عليه السلام وما كان بينهم وبين فرعون . ففى سورة القصص وهى من أواسط القرآن المكى . تبدأ هذه السورة بحديث مفصل عن موسى عليه السلام ، وما كان من فرعون وتسلطه على بنى إسرائيل (طسم تلك آيات القرآن المبين . . .)

فهذا الاستفتاح يصيب غرضين معا ، ويضرب ضربتين فى آن واحد ، تهديد ووعيد لفراعنة قريش ، الذين ساروا سيرة فرعون ، ولفت أنظار اليهود الى الدعوة الاسلامية .

وإذ تبلغ الآيات الكريمة غرضها من قص القصص وضرب الامثال وسوق العبر والمثالات تلتفت لفئة خاصة الى أهل الكتاب ، وتجمع بينهم وبين قريش وفرعون ، فيقول تبارك وتعالى (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون . الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا . . . الى قوله تعالى (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين (١) .

والقول الذى وصله الحق سبحانه وتعالى هو ما وصل فيه القرآن بين قريش وبين القرون الماضية ، وقد أشرف بهم على فرعون وأشرف فرعون عليهم ، وأراهم موقفه من رسول كريم ، ليروا فيه صورة لموقفهم هم من رسول كريم ، ثم يصلهم من جهة أخرى بأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى وبالتوراة والانجيل ليروا فى هذا المشهد مستقبلهم أو مستقبل الاسلام مع الذين يؤمنون به .

ثم تكشف الآيات بعد ذلك عن معدن الرسالة المحمدية وتبين عن حقيقتها ، وأنها من عند الله ، ولها دلائل يعرفها بها أهل الكتاب ، ولذلك فانه إذا يتلى القرآن على بعض أهل الكتاب يؤمنون به ، ويقولون إنه الحق من ربنا . . إنسا كنا من قبله مسلمين . .

إن دين الله واحد ، ورسول الله هم حملة هذا الدين (إن الدين عند الله الاسلام) .

ولاشك أن هذا تحريض قوى لأهل الكتاب ، وإغراء لهم بالالتفات إلى دعوة الاسلام ، ومقابلتها بما عندهم ، فإنهم إن فعلوا ذلك بقلوب سليمة ، وعقول محررة من الهوى والتعصب ، عرفوا ، وأذعنوا له ، وآمنوا به ! وقد قرر القرآن

المكى مواقفه من الأديان السابقة وموقف أهل الكتاب منه ، وإشار إلى انحرافات الكتابيين واختلافاتهم .

ففى سورة المدثر المبكرة النزول قال تعالى : (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) (١) .

فألاية تلفت أنظارهم إلى توافق ما جاء فى القرآن وما عندهم ، وتستهدف استيقانهم بصحة الرسالة وصدق الرسول ، فلا مجال للشك والارتياب .

وفى سورة يونس (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرعون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين) (٢) .

وما بالرسول الكريم شك من هذا القرآن الذى بين يديه ، ولكنه استدعاء إلى أهل الكتاب وخاصة بنى إسرائيل أن يقوموا لله ، وأن يقولوا كلمة الحق فى هذا القرآن ، فهم أعرف الناس به ، بشهادة الكتاب الذى بين أيديهم وأنهم ليعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

ثم إن التعقيب على هذه الآية (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين) . إن فى هذا التعقيب تهديدا لأهل الكتاب ، ووعيدا لهم أن ينكروا الحق الذى يعرفونه عن القرآن ، وأن يفتروا على الله الكذب فيه ، وذلك ما سيكون منهم بعد أن يلقاهم الرسول وجها لوجه بعد قليل (٣) .

ثم فى سورة الأنعام تتغير لهجة القرآن الكريم شيئا فشيئا ، فتكشف عن بعض ما تنطوى عليه نفوس اليهود من خبث وفساد ، وعن بعض ما ينتظر الدعوة الإسلامية فى لقاءها معهم من دس ومداورة والتواء . (الذين آتيناها الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) (٤) . وقد تضمنت الآية تقريرا بمعرفتهم صحة التنزيل معرفة لا يتطرق إليها أى شك كما يعرف الأب ابنه . وهم مع هذا لا يبادرون إلى الإيمان به والوقوف إلى جانبه فى المعركة المحتدمة بينه وبين الشرك ثم يغمز القرآن اليهود غمزة موجعة بقوله : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) (٥) . وفى سورة العنكبوت ، وهى من أواخر السور المكية نزولا ، يكشف القرآن وجها جديدا من وجوه اليهود التى سيلقون بها القرآن بعد أن يتصل بهم الرسول ، ويلقاهم لقاء مباشرا ، وأنهم لسوف يقولون فى القرآن وفى الرسول كذبا وبهتاناً ، وأنهم لسوف يدخلون مع المسلمين فى جدل ومماحكة ليفسدوا عليهم دينهم ، ويردوهم من بعد إيمانهم كفاراً حسداً وبغضاً ، ولهذا يدعو الله المسلمين — مقدما — إلى أن يأخذوا حذرهم من هذا الكيد ، والا يستهويهم أهل الكتاب من اليهود بهذه الحرب الكلامية التى لا تغنى من الحق شيئا وتذكر السورة فصولا

- ١ (المدثر ٣١ . على اختلافات الكتابيين هود ١١٠ ،
- ٢ (يونس ٩٤ ، ٩٥ . فصلت ٤٥ والشورى ١٣ ، ١٤
- ٣ (أعجاز القرآن ٨٥/٢ — ٨٧ عبد الكريم الخطيب .
- ٤ (الأنعام ٢٠ .
- ٥ (الأنعام ٩١ . وقد اشتملت السور المكية

موجزة من قصص الانبياء — ابراهيم ولوط ، وصالح ، وموسى . ثم يجيء عقب هذا قوله تعالى مخاطبا نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام (اتل ما أوحى إليك من الكتاب . وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون . ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ..) . إلى قوله (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون (١)) .

فهذه الآيات تهجد تهيدا واضحا للمرحلة الثانية للمسلمين ، وتشير في قوة إلى الوطن الجديد الذي سيحلون فيه ، وتكشف عن معدن الجماعات التي ستلقى الدعوة وتحثك بها .

وقد رسم القرآن المكي خطة ريبانية في مخاطبة أهل الكتاب بصورة عامة واليهود بصورة خاصة حيث أنهم يكثرون في المدينة التي اتخذوها موطنًا لهم : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) (٢) . وبهجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وجد المسلمون أنفسهم وجها لوجه مع اليهود حيث كانوا أصحاب الغلبة والسيادة ، وأهل العلم والتقدم ، ويفخرون بدينهم على الأوس والخزرج ، ويعيرونهم بأنهم عباد الأوثان ، وكانوا على بينة من بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ، إذ كانوا يستنصرون على المشركين إذا حاربهم فيقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة ، ويقولون لأعدائهم المشركين لقد اطل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا ، فنقتلكم قتل عاد وأرم) (٣) .

وقد حكى القرآن قولهم هذا في سورة البقرة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) (٤) .

وتهديد اليهود للأوس والخزرج بنبي آخر الزمان هو الذي جعلهم يسارعون إلى مبايعة النبي ليلة العقبة . قال ابن اسحق : فلما كلم النبي عليه الصلاة والسلام أولئك النفر عند العقبة ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمن إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود ، فلا تستبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام (٥) . والحق الذي لا مرأى فيه أن اليهود قد بذروا بذور الفتنة واشعلوا نيران حرب متواصلة بين الأوس والخزرج حتى أنهكت قواهم ودقوا بينهم عطر منثم .

وكان اليهود يستغلون ذلك أسوا استغلال فكلما خبت نار الحرب أشعلوها حتى استحكمت العداوة بين القبيلتين ففنى رجالهم وذهبت أموالهم ، وكان اليهود يحالفون القبيلة المهزومة على المنتصرة حتى تضعف شوكتها وتمنع تسلطها فيحتفظون دون القبيلتين بالسيادة وموارد المال والأعمال المهمة تاركين لهم أحقر الاعمال ، ولذلك كانت القبيلتان في حاجة لليهود وتبعًا لهم . وذلك ملحوظ في يوم الفجار الثاني ويوم بعث . فقد أوقعهم حبهام لاشعال نار الفتنة والسيادة والاستغلال في نقض عهودهم مع الله

- (١) المنكوت ٤٥ — ٤٦ .
 (٢) المنكوت ٤٦ .
 (٣) تفسير ابن كثير ١٢٤/١ .
 (٤) البقرة ٨٩ .
 (٥) سيرة ابن هشام ١/٢٢٨ — ٢٢٩ .

سبحانه فكانوا يقتلون بعضهم ويمقدون الاحلاف بينهم وبين المشركين . فبنو
 النضير وبنو قينقاع حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الاوس .
 وكانت الحرب اذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي
 اعداءه ، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الاخر ، وذلك حرام عليهم بنص
 كتابهم ودينهم ، ويخرج بعضهم بعضا من ديارهم وينتهبون منها الاثاآ والأمتعة
 والأموال ، ثم اذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسرى من الفريق المغلوب
 عملا بحكم التوراة .

وقد حكى القرآن هذه المخازي وغيرهم بها في سورة البقرة أول السور
 المدنية نزولا : (وإذ أخذنا ميثاآكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من
 دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا
 منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى فنادوهم
 وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما
 جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد
 العذاب وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة
 فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) (١) .

قال السدي (٢) : إذا أسر رجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتى يفدوه
 فتعيرهم العرب بذلك ويقولون كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن
 نفديهم وخرم علينا قتالهم . قالوا : فلم تقاتلونهم . قالوا : نستحي أن تستذل
 حلفاؤنا . فذلك حين غيرهم الله تبارك وتعالى) .

وعلى أية حال فقد برم الاوس والخزرج بهذه الحروب وعزموا على
 فض الخلاف بينهم بأية وسيلة ، وهما بتملك عبد الله بن ابي عليهم جميعا
 حتى يتوحدوا وينتهي ما بينهم من نزاع وحروب مستمرة .

ومهما يكن فلا شك أن المدينة كانت تتوق إلى القيادة الرشيدة الواعية
 في وقت عجز فيه الأوس والخزرج عن سياسة أنفسهم (٣) . ولم يكن يرضى
 أحدهما أن تكون القيادة للآخر ، فوجدوا متنفسا أن تكون القيادة في غيرهم ،
 فوجدوا في النبي عليه الصلاة والسلام ضالتهم المنشودة ، وقد عثروا أيضا
 على المبدأ الذي نفذ الى قلوبهم وشحذ عزائمهم وقبلوا أن يجتمعوا عليه ،
 وهذا ما أعلنوه ليلة بيعة العقبة الصغرى . كما روى ابن اسحق : (قال
 يا رسول الله : انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ،
 فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، وتعرض عليهم
 الذي أجبتناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك (٤) .
 وهذا القول يكشف عن حقيقة بيعة الخزرج إذ أنهم رموا الى توحيد
 القبيلتين وتسكين ما بينهما من الفتنة والنزاع والشقاق . لا رغبة في الاستعانة
 بالرسول في قتال أعدائهم من اليهود . كما يقول سليل اليهود الدكتور
 اسرائيل ولفنسون (٥) (ان الغاية التي كان يرمى اليها بنو الخزرج سياسية

١ (البقرة ٨٤ - ٨٦ .

٢ (تفسير ابن كثير ١/١٢١ والكشاف
 ٤ (سيرة ابن هشام ١/٢١٦ تحقيق اليباري
 والسها .

٢٩٤/١ ، ٢٩٥ ، وتفسير القرطبي ٢/١٨

٥ (تاريخ اليهود ١٠٤ - ١٠٥ .

- ٢٢ .

٣ (محمد وبنو اسرائيل / ١٧ الدكتور

قبل كل شيء . وهى ايجاد قوة لمحاربة عدوهم الذى بالغ فى قتلهم واذلالهم وهم بطون اليهود فى يثرب) .

ويعلق على بيعة العقبة الثانية بقوله : (وإذا سلمنا بصحة هذا الحديث فاننا نقرر أن الغاية التى كان بنو الخزرج يرمون إليها من مشروعات بيعة العقبة الكبرى ظاهرة جلية إذ هى مقاتلة يهود يثرب وهدم كياناتهم . ويحتمل أن الرسول وعد النفر من الخزرج الذين التقى بهم فى البيعة الأولى بأن يقاتل أعداءهم من الأوس واليهود جميعا) .

فأى قلب للحقائق أكثر من هذا ، ولكن اليهود هم اليهود ، المرء فى الحق والجدال بالباطل دينهم ودينتهم . وقد أراد ولفنسون ان يمهّد بهذا القول لما سيقتهم به رسول الله والمسلمين فى تنكيلهم باليهود بأن ذلك كان مبينا منذ بيعة العقبة الاولى والثانية .

والحق أن المسلمين لاقتوا من اليهود عند قدومهم الى المدينة عداوة اشد وانكى من عداوة قريش فلم يتركوا وسيلة من وسائل الدس والموتيمة والفتنة والتآمر مع المشركين والمنافقين واعلانهم الحرب للسافرة أخيرا الا واستعملوها وتفننوا فيها .

ولا ادعى أننى استطع الاحاطة بكل حروبهم الظاهرة والباطنة للمسلمين فهذا يحتاج الى رسالة قائمة بنفسها ، ولكننى سأحاول تقسيم المراحل التى مرت بها حروبهم مع المسلمين منذ قدوم رسول الله الى المدينة وحتى القضاء على آخر حصن من حصونهم فى خيبر ، معتمدا فى ذلك على ما ذكره القرآن الكريم .

المرحلة الاولى : من هجرة النبى عليه الصلاة والسلام الى غزوة بدر : ونزلت فى هذه الفترة سورة البقرة التى تكاد تكون حديثا متصلا عن اليهود .

وقد أضمر اليهود العداوة للرسول والذين آمنوا معه منذ الساعة الاولى لقدمهم الى المدينة ومنذ رؤيته الاولى .

قال ابن اسحق (١) : ونصبت أخبار اليهود لرسول الله العداوة ، بغيا وحسدا ووضفنا ، لما خص الله به تعالى العرب من أخذه رسول الله منهم .

قالت صفية بنت حبي بن أخطب سيد اليهود : كنت أحب ولد أبى اليه والى عمى أبى ياسر لم القهما فى ولد قط وأهش اليهما الا أخذانى دونه ، فلما قدم النبى ونزل فى قباء فى بنى عمرو بن عوف ، غدا اليه أبى وعمى ابو ياسر مغلسين ، قالت : فوالله ما رجعا الا مع مغيب الشمس فاترين كسلائين ساقطين يمشيان الهوينى ، فهششت اليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما نظر الى واحد منهما ، مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمى ابا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه بنعمته وصفته ؟ قال : نعم والله ، قال : فماذا فى نفسك منه ؟ قال : « عداوته — والله — ما بقيت » .

وقيل انه قال : أتيت من عند رجل — والله — لا أزال له عدوا ، ولم يزل ذلك رايه حتى هلك (٣) .

وقد كشف تعالى عن سر هذه العداوة فى كثير من السور والآيات فقال

(١) سيرة ابن هشام ١٢٢/١ تحقيق الابيارى (٢) الرجوع السابق ٥١٦/١ .

(٣) البداية والنهاية ٢٤٢/٣ .

والسقا .

تبارك وتعالى : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا » (١) .

وقوله « بثبنا اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباعوا بغيض على غضب وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل أن كنتم مؤمنين » (٢) . وقوله : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » (٣) . .

ومع أن عداوة اليهود لم تكن خافية على رسول الله ، فقد بدأ معهم عهدا ليئا ، ومد لهم يد التعاون على النهوض بالمدينة والدفاع عنها ضد أي اعتداء خارجي ، فعقد بينه وبينهم معاهدة عادلة آمنهم فيها على حريتهم الدينية وطقتسهم ومعابدهم وأموالهم وأوجب لهم النصر والحماية مشترطا عليهم أن لا يقدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدوا ولا يمدوا يدا بأذى .

فمن نصوص هذه الصحيفة الخاصة باليهود : « أنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، ومواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته . وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للظلوم . وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وإن الله جار لمن بر وأتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٤) . .

ولكن اليهود لم يخلصوا لهذه المعاهدة التي لم يحدث مثلها فى دين من الاديان بل أبرموها ليخضعوا المسلمين ، ويدبروا فى السر ما يفسدون به أمرهم .

وقد كشفت أول آيات سورة البقرة نزولا عن موقفهم العدائى من المسلمين وانكارهم لما جاء به رسول الله : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بمهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (٥) . .

هذه هي أول الآيات التي نزلت فى شأن اليهود — ويدل الخطاب صراحة على هذه الأولية وأنهم لم يقابلوا الدعوة مقابلة حسنة ، وولفت النظر الى ما فيها من تعريض بهم بأنهم يجب أن يكونوا أول من يؤمن بالقرآن وبالرسول لمعرفتهم به وبصفته ، ولأنهم المبشرون بزمان من أوحى اليه والمستفتحون على الذين كفروا

٤ (البداية والنهاية ٣/ ٢٢٤ .

١ (النساء / ٥٤ — ٥٥ .

٥ (البقرة / ٤٠ — ٤٤ .

٢ (البقرة / ٩٠ — ٩١ .

٣ (البقرة / ٢١٣ .

به ، فلما بعث كان أمرهم على العكس ، وخططوا الحق بالباطل وكتبوا الحق وهم يعرفون ، وذلك « ليشترتوا بآيات الله ثمنا قليلا » من متاع الدنيا وشهواتها الزائلة .. فقد كان أحبارهم يحرسون على الرياسة التي كانت لهم في قومهم ، وخافوا على مكاسبهم الفوات لو صاروا أتباعا لرسول الله ، وقد كانت عاقبتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم ويهدون اليهم الهدايا ، ويرشونهم الرشى على تحريفهم الكلم وتسهيلهم ما صعب عليهم من الشرائع ، وكان ملوكهم يدرون عليهم الاموال ليكتبوا او يحرفوا .

ثم هذا السؤال الاستنكاري « أتأمرون الناس بالبر .. » قال الزمخشري : « الهمة للتقريب مع التوبيخ والتعجيب من حالهم (وأنتم تتلون الكتاب) تبيكت ، يعنى تتلون التوراة وفيها نعت محمد عليه الصلاة والسلام ، او فيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول والعمل (افلا تعقلون) توبيخ عظيم ! افلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدمكم استقباحه عن ارتكابه وكانكم فى ذلك مسلوبوا العقول لأن العقول تأباه وتدفعه » (١) .

وفى كل هذا دلالة على موقف الجحود والتعطيل الذى وقفوه من الدعوة ورسولها منذ قدومه الى المدينة . وقوله تعالى « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٢) .

ويحاول ولفنسون أن يلقى بتبعة عداء اليهود وكرهيتهم للمسلمين على رسول الله لانه دعاهم إلى الاسلام ، وحقته فى ذلك هى ترديد لأقوال أجداده الذين عبدوا العجل وظنوا أنهم اهدى من الذين آمنوا ، قال ولفنسون : « ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين . فالعقبة اليهودية لا تلين أمام شىء يزحزحها عن دينها وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بنى اسرائيل بل يعتقدون عقيدة راسخة أنه بعد أن ختمت صحف التوراة وكتب العهد القديم قد انقضى عهد بعث الرسل وظهور الانبياء سواء اكانوا من بنى اسرائيل او من غيرهم كما يعتقد المسلمون أنه لن يبعث نبي بعد محمد » (٣) .

وقد حكى آيات سورة البقرة أقوالهم ودحضت حجتهم قال تعالى : « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا أنؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فليم تقتلون انبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذا أخذنا ميثاقتكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بنسبنا يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » (٤) .

وقوله « أفكلها جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم فغريبا كذبتم وغريبا تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلما يؤمنون » (٥) .
واسلوب التمويه والخداع سلاح يهودى معروف قديما وحديثا . أحسن استعماله ولفنسون حين أراد أن يجعل فريته مسلمة من المسلمات حين جعل عبادة الله كعبادة العجل ورثبه اعتقاد المسلمين بأنه لن يبعث نبي بعد محمد

- ١ (الكشاف ٢٧٦/١ ، ٢٧٧ وتفسير ابن
كثير ٨٤/١ - ٨٥ وتفسير القرطبي
٢٣٠/١ وسيرة الرسول ٥٧/٢ دروزة .
٢ (البقرة ٨٩ .
٣ (تاريخ اليهود ١٢٢ .
٤ (البقرة ٩٢ ، ٩٣ .
٥ (البقرة ٨٧ ، ٨٨ .

باعتقاد اليهود بأنه لن يبعث احد بعد موسى .
وقد عجز اليهود فى المدينة فى أول العهد عن مواجهة الرسول والمسلمين
بالعداء السافر ، فآثروا الالتجاء الى حروب خفية ، حشدوا لها كل ما عرفوا
به من دهاء ومكر وذكاء ومال . ويمكننا أن نكشف عن نشاطهم العدائى فى
وجوه التالية :

- ١ - الجدل والحجاج .
- ٢ - الدس والوقيعه .
- ٣ - تأمرهم مع المنافقين فى الداخل .
- ٤ - تأمرهم مع المشركين فى الخارج .
- ٥ - استعمال القوة واللجوء إلى السيف والوقائع الحربية بينهم وبين المسلمين .

وقد استنفذ اليهود فى مناصبه الدعوة الاسلامية كل ما جبلوا عليه من
لؤم ومكر . وكان لمواقفهم العدائية هذه اثر شديد بعيد المدى فى القوة
الاسلامية ، مما اثار فى النبى عليه الصلاة والسلام والمسلمين القلق والهم
واستنفذ كثيرا من قواهم وجهودهم ووقتهم ، واستمر ذلك نحو خمس سنوات
إلى أن تم تطهير المدينة منهم . ولقد كان لعدائهم تأثير سلبي فى سير الدعوة
وانتشارها وفى مركز النبى والمسلمين ، وتأثير ايجابى لم يكادوا يختفون عن
مسرح الدينونة حتى ضعف امر المنافقين وخفت صوت المشركين على
ما سنوضحه .

وأهم ما يميز المرحلة الأولى من مراحل الصراع بين المسلمين وبين اليهود
فى هذه المرحلة التى سبقت معركة بدر الكبرى - حرب الجادلات الدينية
والمواقف التشكيكية - والدس والوقيعه والتآمر مع المنافقين والمشركين .

اولا : الجدل والحجاج :

الجدل والمارة من طبع اليهود وفطرتهم التى جبلوا عليها . وقد استعملوا
هذا السلاح الرهيب فى الكيد للرسول ، والتهجم عليه ، والسخرية منه ،
والتشكيك فيما جاء به ، وإثارة الفتنة من حوله ، وإظهار عجزه حتى يستسلم
لهم ويهادنهم أو يتبع دينهم . وظنوا أنهم سينتصرون فى هذه المعركة ، ولكن الله
تعالى كان مع رسوله صلى الله عليه وسلم فى هذه المعركة فأنزل عليه ما يرد
به كيدهم فى نحورهم .
قال ابن اسحق : « كان أحيار اليهود يسألون رسول الله ويعنتونه ،
ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون
عنه » (١) .

وكانت هذه المعركة من أخطر المعارك واعنفها ، وخاصة أنها بدأت منذ اليوم
الأول لهجرة النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، ولم يكن الاسلام قد رسخ
فى قلوب الأنصار بطبيعة الحال لأنهم كانوا حديثى عهد بالاسلام . ولذلك فقد
عهد اليهود أول ما عهدوا إلى الأرجاف حول الاسلام والتشكيك فيه وتكذيب
النبى وتنفير القلوب منه وصرافها عن الايمان . فجلسوا حلقات حول رسول الله
يفاجئونه بين الفينة والأخرى بما يوقع الاضطراب فى النفوس والزرعزة فى

(١) سيرة ابن هشام ٥١٢/١ تحقيق اليبارى

المعقيدة . فمن ذلك تهجمهم على ذات الله . قال ابن اسحق (١) : اتى رهط من اليهود اتى رسول الله ، فقالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، ممن خلق الله لا فغضب رسول الله حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضبا لربه . فجاءه جبريل فسكنه ، فقال : خفض عليك يا محمد ، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه : « قل هو الله احد الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا احد » . فلما تلاها عليهم ، قالوا : صف لنا يا محمد كيف خلقه لا كيف ذراعه لا وكيف عضده لا فغضب رسول الله اشد من غضبه الاول ، وساورهم . فاتاه جبريل عليه السلام ، فقال مثل ما قال له اول مرة ، وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه . يقول الله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » (٢) .

واتى رسول الله النحام بن زيد ، وقروم بن كعب ، وبحرى بن عمرو ، فقالوا له : يا محمد اما تعلم مع الله الها غيره ؟ فقال رسول الله : الله لا اله الا هو ، بذلك بعثت . والى ذلك ادعو (٣) . فأنزل الله فيهم وفى قولهم : « قل اى شىء اكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى الى هذا القرآن لاتذركم به ومن بلغ ، انكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى ، قل لا اشهد ، قل انها هو اله واحد ، واننى برىء مما تشركون . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم الذين خسروا انفسهم لا يؤمنون » (٤) .

وقال كعب بن اسد ، وابن صلوبا ، وعبد الله بن سوريا ، وشأس بن قيس ، بعضهم لبعض : اذهبوا بنا الى محمد ، لعلنا نفتنه عن دينه ، فانما هو بشر ، فاتوه ، فقالوا له : يا محمد ، انك قد عرفت ان احبار يهود واشرافهم وساداتهم ، وانا ان اتبعناك اتبعناك اليهود ولم يخالفونا ، وان بيننا وبين بعضنا خصومة ، ائفحناكم اليك فتتضى لنا عليهم ، ونؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله (٥) . فأنزل الله فيهم : « وان احكم بينهم بما انزل الله ، ولا تتبع اهواءهم ، واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاستقون . ائفحكم الجاهلية يبيغون ، ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون » (٦) .

وكان من مواقفهم الحجاجية التى اتبعوها للطعن فى نبوة الرسول محاولتهم انكار ان يكون القرآن من عند الله .

قال ابن اسحق (٧) : ودعا رسول الله اليهود الى الاسلام ورغيبهم فيه ، وحذرهم غير الله وعقوبته ، فأبوا عليه ، وكفروا بما جاءهم ، فقال لهم معاذ ابن جبل ، وسعد ابن عباد ، يا معشر اليهود ، اتقوا الله ، فوالله انكم لتعلمون انه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه ، وتصفونه لنا بصفته ، فقالوا : ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده . فأنزل الله تعالى فى قولهم : « يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد

- (١) سيرة ابن هشام ٥٧١/١ ، ٥٧٢ تحقيق
 (٢) سيرة ابن هشام : ٥٦٧/١ .
 (٣) المائدة / ٤٩ - ٥٠ .
 (٤) سيرة ابن هشام ٥٦٣/١ .
 (٥) الزمر ٦٧ .
 (٦) سيرة ابن هشام : ٥٦٨/١ .

جاعكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » (١) .

ومن الوسائل المأكرة التي لجأوا إليها للطعن في نبوة النبي وانكار نزول القرآن عليه من عند الله ، أنهم قالوا أنهم أعداء جبريل ، لأنه يأتي بالشدة وسفك الدماء ، وقالوا لولا ذلك لاتبعتك (٢) فأنزل الله عز وجل فيهم (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشري للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكل فإن الله عدو للكافرين . ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون . أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » (٣) .

وقد وقفوا من النبي موقف التحدى والتعنّت ، فكانوا يطالبونه أن يأتي اليهم بالمعجزات « الذين قالوا إن الله عهد إلينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاعكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين . فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاعوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » (٤) ..

وجحدوا نبوة عيسى عليه السلام ، تشكيكا فيما جاء به رسول الله ، فهم يشيعون أن عيسى أتى عن طريق غير شرعى ، وأن أمه كانت بغيا . قال ابن اسحق (٥) : وأتى رسول الله نفر منهم أبو ياسر بن أخطب ، ونافع ابن أبي نافع ، وعازر بن عازر ، فسألوه عن يؤمن به من الرسل فقال رسول الله : نؤمن بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وأسحق ويعقوب والأنباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . فلما ذكر عيسى بن مريم جحدوا نبوته ، وقالوا : لا نؤمن بعيسى بن مريم ولا بمن آمن به . فأنزل الله تعالى فيهم : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ، وإن أكثركم فاسقون » (٦) ..

وقد سجلت عليهم هذه الآية أعظم أنواع المكابرة والجحود إذ جعلوا الايمان برسول الله موجبا للنقمة والجحود والكفر . وقد أنكروا نبوة داود عليه السلام ، وقالوا إن سليمان بن داود كان ساحرا ، للتشكيك في القرآن . قال ابن اسحق (٧) : لما ذكر رسول الله سليمان ابن داود في المرسلين قال بعض أحبارهم : الا تعجبون من محمد ، يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا ، والله ما كان إلا ساحرا ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » (٨) .. ومن القضايا التي أكثروا فيها الجدل ، ابتغاء الفتنة والطعن في الشريعة الإسلامية ، واتهامها بالتناقض ، وأن هذا القرآن من عند محمد ، قضية النسخ .. فدحض الله شبهاتهم بقوله تعالى في سورة البقرة « ما ننسخ من آية أو

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| ١ (المائة / ١٩ . | ٥ (سيرة ابن هشام ٥٦٧/١ . |
| ٢ (سيرة ابن هشام ٥٤٣/١ . | ٦ (المائة / ٥٩ . |
| ٣ (البقرة / ٩٧ - ١٠١ . | ٧ (سيرة ابن هشام : ٥٤٤/١ . |
| ٤ (آل عمران / ١٨٢ - ١٨٤ . | ٨ (البقرة / ١٠٢ . |

نفسها نات بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير . أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان ، فقد ضل سواء السبيل » (١) . وسبب نزول هذه الآيات أن اليهود لما حسدوا المسلمين فى التوجه الى الكعبة وطعنوا فى الاسلام بذلك ، وقالوا : ان محمدا يأمر اصحابه بشيء ثم ينهاهم عنه ، فما كان هذا القرآن إلا من جهته ، ولهذا يناقض بعضه بعضا (٢) ..

ومسألة تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة المشرفة من المسائل التى اشتدت فيها حملات اليهود الحجاجية حتى الحقوا بالرسول وبالمسلمين الهم والحزن .

قال ابن اسحق (٣) : ولما صرفت القبلة من الشام الى الكعبة فى رجب على رأس سنة سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله المدينة ، اتى رسول الله رفاعة بن قيس ، وقرم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، وغيرهم ، فقالوا : يا محمد ، ما والأك عن قبلك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه ؟ ارجع الى قبلك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك ، وانما يريدون بذلك فتنته عن دينه . فاتزل الله تعالى فيهم « سيقول السفهاء من الناس ما والأهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .. إلى قوله « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ » (٤) .

ورد تعالى على عرض اهل الكتاب على رسول الله الرجوع إلى القبلة الأولى « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من المكثرين » .. إلى قوله تعالى « فلا تخشوهم واخشونى ولاتم نعمتى عليكم ولعلمكم تهتدون » (٥) ..

وكان تحويل القبلة آخر أمل من آمال اليهود فى تهويد الرسول والمسلمين ، فقد كانوا يشيعون فى الناس أن النبى قد اتبع قبلتنا وعما قريب سيتبع ملتنا ، فلما تم تحويلها إلى الكعبة اثاروا الشبهات واستهزأوا وجحدوا لبلبله الأفكار ، وتشكيك المسلمين فى عقيدتهم فقد اثناعوا فى المسلمين أن صلاتهم باطلة ضائعة إما فى الفترة التى سبقت تحويل القبلة وإما فى الفترة التى بعد تحويلها .. فرد الله تعالى عليهم : « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرعوف رحيم » (٦) ..

ولقد لعب حى بن أخطب وجماعة من اليهود دورا خطيرا فى هذه المسألة ، فقد قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه ، وإن كانت على ضلالة ، فقد دنتم لله بها مدة ، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة . وقالوا : « أيضا ما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا ؟ وقد كان مات جماعة من المسلمين قبل تحويل القبلة — فانطلقت

٤ (البقرة / ١٤٢ ، ١٤٣)

٥ (البقرة / ١٤٥ — ١٥٠)

٦ (البقرة / ١٤٣)

١ (البقرة / ١٠٦ — ١٠٨)

٢ (تفسير القرطبي ٦١/٢)

٣ (سيرة ابن هشام ٥٥١/١)

عشائرهم إلى النبي فقالوا : يا رسول الله : كيف يأخواتنا الذين ما توا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله تعالى « وما كان الله ليضع أعمالكم .. » (١) .

ثانيا : الدس والوقيمة واثارة الفتنة بين المسلمين :

لقد صال اليهود وجالوا في هذا الميدان الذي هم فرسانه ، وكادوا ينتصرون لولا أن ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت .
 فمن ذلك قصة شاس بن قيس المشهورة (٢) . وقد كان عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، مَرَّ ذات يوم على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من الفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية . فقال : قد اجتمع لأبني قبيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها قرار . فأمر فتى شابا من اليهود كان معهم . فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم ذكرهم بيوم بعثت وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تناولوا فيه من الأشعار . ففعل . فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب . فتقاولا . ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها جذعة ، فغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم - الظاهرة - السلاح السلاح فخرجوا إليها . فبلغ ذلك رسول الله ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال : يا معشر المسلمين : الله،الله ، ابدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم من الكفر ، والفر بين قلوبكم ، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين ، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس .

فأنزل الله في شأن شأس بن قيس وما صنع : « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » (٣) .

فأنزل الله في شأن شأس بن قيس وما صنع : « قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . يأيتها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . إلى قوله تعالى « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » (٤)

١ (صحيح البخارى ١٨/١ باب الصلاة

٢ (٢٣/٤ وتفسير ابن كثير ٢٨٩/١

٣ (٢٢٣/١ والكشاف

٤ (٢٣/١ والنزول للنيسابورى

٥ (٢٢٣ - ٢٢٧

٦ (٢٢٣ - ٢٢٧

٧ (آل عمران / ٩٨ - ٩٩

٨ (سيرة ابن هشام ٥٥٦/١ وتفسير الطبرى

٩ (آل عمران / ٩٩ - ١٠٥

قال ابن كثير (١) : وفي هذه الآيات تعنيف من الله سبحانه للكفرة من أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصددهم عن سبيل الله ، وقد توعدهم الله على ذلك وأخبرهم بأنه شهيد على صنيعهم ذلك فأخبر تعالى — أنه ليس بغافل عما يعملون » .

وقد ابتكروا طريقة شيطانية تعتبر من أقوى وأخطر أسلحة الدس والخداع والتبليس ذلك ما رواه ابن أسحق من أن عبد الله بن صيف ، وعدى بن زيد ، والحارث بن عوف ، قال بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ، ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما صنع ، ويرجعون عن دينه (٢) .

فأنزل الله تعالى فيهم « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتبون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » (٣) .

قال الإمام محمد عبده (٤) : « هذا النوع الذي تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام ، مبني على قاعدة طبيعية في البشر ، وهي أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه وقد فقهه هذا (هرقل) ملك الروم ، فكان مما سأل أبا سفيان عنه من شئون النبي عندما دعاه إلى الإسلام « هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل الإسلام ؟ فقال أبو سفيان : (لا) وقد أرادت هذه الطائفة من اليهود أن تفتش الناس وتخدعهم من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على بواطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب » .

ومما يزيد في خطورة هذه الحركة الخبيثة أن المسلمين كانوا لا زالوا يثقون باليهود ويقدررون رأيهم في هذه المسائل العقيدية لأنهم أهل كتاب . ولكن الله كان لهم بالمرصاد .

وقد أظهر رجال منهم الإسلام نفاقا للكيد والدس وقد حكى سورة البقرة والمائدة ذلك « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتخ الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » (٥) .

وفي سورة المائدة « وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون . . إلى قوله تعالى « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين » (٦) .

ثالثا : تأمرهم مع المنافقين للقضاء على قوة المسلمين في داخل المدينة :

قد نزل في أحبار اليهود ، والمنافقين من الأوس والخزرج من صدر سورة

٤ (عن تفسير النار ٢/٢٢٢ .

٥ (البقرة / ٧٦ — ٧٧ .

٦ (المائدة / ٦١ — ٦٤ .

١ (تفسير ابن كثير : ٢٨٧/١ .

٢ (سيرة ابن هشام / ١ / ٥٥٣ .

٣ (آل عمران / ٦٩ — ٧٢ .

البقرة من الآية السادسة إلى نهاية الآية المائة الأولى منها .
 وأول آية ذكرت صلات اليهود بالمنافقين وتأمروهم معهم على المسلمين هي
 قوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا
 إنا معكم إنما نحن مستهزئون » (١) ..

قال ابن عباس وابن جبير والسدي ان قوله تعالى « وإذا خلوا إلى
 شياطينهم » يعنى إلى سادتهم من أحبار اليهود يأمرهم بالتكذيب بالحق وخلاف
 ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام (٢) فهؤلاء الأحبار قد ماثلوا الشياطين
 فى تمردهم (٣) .

ووصف اليهود بأنهم شياطين المنافقين أى الذين يوسوسون إليهم ويعوونهم
 من جهة وذكر اختلاء المنافقين بهم وإسراهم لهم من جهة أخرى ، يدلان بصراحة
 على الأثر الكبير لليهود فى حركة النفاق والمنافقين ، كما يدلان على التضامن
 الوثيق الموطن بين الفريقين فى الكيد للمسلمين .

وهذه الآية من أبكر الآيات المدنية نزولا . وهذا التبكير يدل على ما كان
 من جد اليهود فى تغذية جبهة النفاق وتقويتها ، وعلى نجاحهم فى تكوين هذا
 العدو الخطير لتسليطه على المسلمين والفتك بهم .

وإذا لاحظنا الدور الباغى الذى قام به المنافقون على ما سوف نشرحه
 فى الفصل القادم ، وما كان له من آثار ضارة وخطيرة ، ثم لاحظنا ما كان يربط
 بين المنافقين وبين المخلصين من الأوس والخزرج من وشائج القربى ، وما كان
 لعصبية القربى من قوة فى المجتمع العربى . بدت لنا شدة النكالية وبعد مدى
 الأذى فيما كان من جد اليهود فى تغذية جبهة النفاق ونجاحهم فى سعيهم ،
 وقيام حالة التضامن والتآمر بينهم وبين المنافقين منذ الوقت المبكر على ما تلهمه
 هذه الآية (٤) .

وقد حملت آيات البقرة حملة قوية على المنافقين ، والمتبادر تضامنهم مع
 اليهود من الأسباب المباشرة لهذه الحملة .
 وقد حكى كثير من السور المدنية الصلة الوثيقة التى انعقدت بين المنافقين
 واليهود على حرب المسلمين .

فى سورة النساء قوله تعالى « بشر المنافقين بأن لهم عذابا اليما . الذين
 يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فإن العزة لله
 جميعا » (٥) .

ذكر ابن عباس أنهم بنو قينقاع فان ابن أبى كان يوالىهم (٦) .
 وفى سورة (محمد) صورة من صور التآمر بين اليهود والمنافقين ،
 فقد رسم اليهود خطة عدوانية للكيد للمسلمين ووعد المنافقون بطاعتهم
 والسير على خطتهم (إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى
 الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله
 سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم أسرارهم) (٧) .

- | | |
|--|----------------------------------|
| ١ (البقرة : ١٤ . | فى القرآن ١١٩ دروزة وتاريخ الجنس |
| ٢ (تفسير ابن كثير ٥١/١ وسيرة ابن هشام | العربى ٢٤٤/٦ دروزة . |
| ٣ ٥٣١/١ . | ٥ (النساء ١٢٨ - ١٣٩ . |
| ٤ (الكشاف ١٨٤/١ . | ٦ (تفسير القرطبى ٤١٧/٥ . |
| ٥ (سيرة الرسول ١٠٥/٢ دروزة واليهود | ٧ (محمد / ٢٥ ، ٢٦ . |

وفى سورة (المجادلة) صورة أخرى من صور ذلك التآمر (ألم ترّ إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويلفون على الكذب وهم يعلمون) (١) .

وفى سورة (الحشر) : (ألم ترّ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتهم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون) (٢) .

وفى سورة المائدة (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) (٣) .

ونزلت هذه الآية فى شأن عبد الله بن أبى حنن قال (إننى رجل أخاف الدوائر ، ولا أبرأ من ولاية موالى ، فقال رسول الله لعبد الله بنى أبى ، يا أبا الحباب ، ما بخلت به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه ، قال : قد قبلت (٤) .

ونكتفى بهذه الشواهد التى تدل بصرحة على تحالف اليهود مع المنافقين للكيد للمسلمين طوال السنوات الخمس الأولى للعهد المدنى . ويمكننا القول أن اليهود هم الذين أوجدوا طائفة المنافقين وساعدوا على تقويتها فى المدينة ، بما بثوا فيهم من الشكوك ، وما زدوهم به من مكائد ودسائس . وأن المنافقين ما قويت شوكتهم إلا بمساعدة اليهود إياهم ، وليس أدل على ذلك من أنه مجرد أن ضعفت قوة اليهود بعد تنكيل المسلمين بهم رأينا المنافقين — أيضا — يخفت صوتهم وتنهار دولتهم كما وصفتهم آخر آيات القرآن المدنى نزولا فى سورة التوبة : (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون) (٥) . ثم نستطيع القول أن وجود اليهود فى المدينة من الأسباب القوية التى علمت بعض أهلها من العرب خلق النفاق (٦) .

رابعا : تأمرهم مع المشركين :

لعب اليهود دورا خطيرا فى اثاره المشركين وتآليبهم على قتال المسلمين ، وقد كانوا وراء كل غزوة من الغزوات التى استهدفت القضاء على المسلمين واستئصال شأفتهم .

وقد صور القرآن مواقف اليهود التآمرية الخطيرة مع المشركين . فمن ذلك هذه الآيات الكريمة من سورة النساء : (ألم ترّ إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ، أم

٥ (التوبة / ٥٧ .

١ (المجادلة / ١٤ .

٦ (بنو إسرائيل فى القرآن والسنة ١/٣٠٦ .

٢ (الحشر / ١١ ، ١٢ .

د . محمد سيد طنطاوى .

٣ (المائدة / ٥٢ ، ٥٣ .

٤ (تفسير ابن جرير الطبرى ٦/٢٧٥ .

لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا ، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا (١) .

روى المفسرون : أن كعب بن الاشرف خرج فى سبعين راكبا من اليهود الى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على غدر رسول الله وينتقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ، فنزل كعب على ابي سفيان ، ونزلت اليهود فى دور قريش ، فقال أهل مكة : إنكم أهل كتاب ، ومحمد صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكرًا منكم ، فان أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ، ففعل ، ثم قال كعب لاهل مكة : ليحيى منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزمك اكبانا بالكعبة ، فنعاهد رب البيت لنجهدن على محمد ، ففعلوا ذلك ، فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب : انك امرؤ تقرا الكتاب ونحن أميون لا نعلم ، فإينا اهدى طريقا واقرب الى الحق ؟ نحن أم محمد ؟ فقال كعب : أعرضوا على دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن ننحر الكوماء للحجيج ونسقيهم الماء ، ونقرى الضيف ، ونفك العانى ، ونصل الرحم ، ونعمر البيت . فقال كعب : أنتم والله اهدى سبيلا مما هو عليه ، ودينكم خير من دينه . فانزل الله هذه الايات (٢) .

ولعل أشنع ما فى الصورة ، بل أشنع ما كان من اليهود ، ان يدفعهم الحقد والحسد والعداء للنبي ودعوته الى عدم التورع فى الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير من التوحيد ، وان آلهة المشركين واصنامهم خير من الهة محمد رب العالمين وان ما عليه المشركون من عادات وتقاليد اهدى مما يدعو اليه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم عدم التورع فى اعلانهم وايمانهم بالآلهة المشركين وتكريمهم لاصنامهم ، وهكذا ينكرون أساس دينهم الذى هو الايمان بالله وحده ، وفى سبيل محاربة النبي الداعى الى ذلك . وليس من ريب فى أن موقف هذا الفريق يدمغه بطابع من العار لا يمكن أن ينسى . وقد كان من نتيجة رحلة الوفد اليهودى وعقده الحلف مع زعماء مكة أن استنفر هؤلاء أهل مكة وأحزابهم وحلفاءهم ، وان زحفوا بجيوش جرارة على المدينة الزاحفة على المسلمين ، مما زاد فى حرج الموقف وشدة خطورته وهو ما أشارت اليه آيات سورة الاحزاب (٣) .

وجاء فى سورة المائدة (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون . لتجدن أئسذ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . . .) (٤) .

كشفت الآيات القناع عن وجوه اليهود البشعة ، وبينت الأسباب التى حملتهم على التآمر مع المشركين .

قال تعالى (ولكن كثيرا منهم فاسقون) فهم خارجون عن دائرة الايمان

١ كثير ٥١٢/١

٢ النساء ٥١ ، ٥٢ .

٣ (أسباب النزول ١٠٣ ، ١٠٤ للواحدى) سيرة الرسول ١٠٨/٢ ، ١٠٩ دروزة .

٤ (المائدة / ٧٨ - ٨٢ .)

(ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) فكفى بموالاة المشركين دليلا على فسقهم وتمردهم وكفرهم ونفاقهم . ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون ، ووصف الله سبحانه شدة شكيتهم وصعوبة إجابتهم إلى الحق ، أن جعلهم الله قرناء المشركين من شدة العداوة للمؤمنين بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا (ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) وكذلك فعل تعالى في قوله (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ..) ولعمري انهم لكذلك وأشد ، وعن النبي عليه الصلاة والسلام (ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله) (١) .

ويعتبر تأمرهم مع المشركين من اخطر الأدوار التي قاموا بها لأن المسلمين كانوا في حرب مستمرة مع المشركين منذ أول يوم نادى فيه الرسول بالاسلام . وقد كان عملهم هذا أشبه ما يكون بمظاهرة حربية شديدة الخطورة بعيدة المدى والأثر .

ويلخص الدكتور ولفنسون مراحل النزاع بين النبي واليهود بقوله (بدأ النزاع بين النبي واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين ، ثم انتقلت المناقشة الى مخاصمة كلامية ، ثم ظهرت العداوة ، فنجم من ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوما بعد يوم وشعر النبي بأنه لم يوفق الى النجاح في تحقيق الفكرة التي كان يرمى اليها من التآليف بين قلوب اليهود والعرب وإيجاد أمة مؤلفة من جميع عناصر يثرب .

وهكذا لم يمض ثمانية عشر شهرا من قدوم النبي الى يثرب حتى تلبد الجو بالغيوم الكثيفة وجعل كل فريق يتوأسى بالحذر والنفور من الفريق الآخر . وقد استمرت هذه الأزمة الشديدة الى يوم واقعة بدر الكبرى . ويظهر ان اليهود كانوا يرجون أن يضجر الرسول من عنادهم وحملهم على قبول دين جديد فيكتفى بنشر دعوته بين القبائل العربية .

وكان النبي لا يريد محاربة اليهود في تلك الفترة التي لم تكن ملائمة بل كان يؤجل الدخول معهم في حرب حتى تتحسن فيها الاحوال وتكون أكثر ملائمة . وفي الواقع كان اليهود يفضلون السلام والسكينة على المشاحنات والمخاصمات ، لأن السلام والسكينة كانا أساس النجاح في الاعمال التجارية والصناعية) .

وغنى عن البيان ان ولفنسون قد قلب الأمور رأسا على عقب في كل ما كتبه هنا فقد سمى حرب الجدل (مناقشة دينية متبادلة بين الطرفين) . واتهم رسول الله انه لم يعلن الحرب على اليهود لأن الظروف غير ملائمة لذلك . وأكثر من ذلك تمويه هذه الحقيقة في قوله (والواقع ان اليهود كانوا يفضلون السلام والسكينة على المشاحنات والمخاصمات) . اللهم الا اذا كان السلام والسكينة يعنيان عنده وعند اليهود قديما وحديثا حرب الأعصاب والفتنة والتآمر على سلامة الدولة الإسلامية الناشئة من الداخل والخارج للقضاء عليها واقتلاع جذورها .

ليس كلام ولفنسون هو كلام قادة المنظمة العسكرية في اسرائيل اليوم (انهم يبحثون عن السلام والأمن) وأيديهم ملطخة بدماء الأبرياء في كل مكان . ومهما يكن من شيء فان رسول الله والذين آمنوا معه لم يقاتلوا اليهود في هذه المرحلة امثالا لأوامر الله في العفو والصفح عنهم في هذه الفترة . قال

تعالى (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) (١) .
 قال ابن كثير (٢) : (ويقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلما إياهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وأمر إياهم بالصفح والصبر والصفح حتى يفرج الله فقال (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) . وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه كان النبي وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى حتى أذن الله فيهم) .

وهكذا نرى أن رسول الله تحمل سفه اليهود ، وصبر هو وصحابته على أذاهم وكيدهم ومكرهم الذى تزول منه الجبال ، واكتفى بجادلتهم بالتي هى أحسن ، واحباط مؤامراتهم ، وتقنيد ادعاءاتهم ، ودحض شبهاتهم .
 وقد جرى رسول الله فى هذه الفترة على السياسة التى رسمتها الخطة الربانية فى مطاولة أعدائه الى أن ينقطع عذرهم لقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ولا يكون هناك شىء فى أخذهم بالحزم والشدة ويكونوا هم الذين جنوا على أنفسهم .

الفترة الثانية : من غزوة بدر الى صلح الحديبية :

انقضت فترة مسالة اليهود الذين كانوا يناوئون المسلمين فى الفترة السابقة والنبي والذين آمنوا معه يصبرون ويعفون عن اليهود عليهم يرجعون عن غيرهم ، ويثيرون الى رشدهم ، ولكنهم عتوا عن أمر ربهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، وبدت العداوة والبغضاء من أفواههم ، وأفعالهم . وكان أول ما ظهر من بوادر هذه العداوة ، أنهم جزعوا أشد الجزع حين بلغهم نبأ انهزام قريش فى وقعة بدر ، فلم يطبقوا بعدها أسرار العداوة ، بل أعلنوها وجأهروا بها . حتى قال قائلهم يومذاك (كعب بن الأشرف) : (هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس . والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها) ونقضوا عهد المسالة الذى عاهدوا عليه رسول الله منذ قدم المدينة ، فانطلق شعراؤهم يستهزئون بالمسلمين ، ويهونون من شأن انتصارهم فى بدر . فنظمت عصماء بنت مروان الشاعرة اليهودية كثيرا من القصائد فى هجاء الرسول بالكلام القارص والفعل الساخر . كما أنشد الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف عدة قصائد فى رثاء قتلى القلب ، ويحث فيها القرشيين على الإخذ بثأر قتلاهم ، بل بلغ من وقاحته أن أنشد هذه القصائد عند عودته الى المدينة وفى حضور بعض المسلمين بل نظم القصائد التى شيب فيها بنساء المسلمين حتى آذاهم ، وهجا الرسول ، وحررض على قتله ، وشيد بقريش ، وأظهر الولاء والإخلاص لهم . مما آثر غضب الرسول فقال يوما : من لى من ابن الأشرف ؟ وبعد عدة أيام دفع كعب بن الأشرف حياته ثمنا لقصائده ، وكذلك لاقت نفس المصير عصماء بنت مروان (٣)
 وهكذا أصبح الجو بين المسلمين واليهود مشحونا بالعداوة ، وفاضت النفوس أى فيض ، وأصبح أى عمل من أعمال الاستفزاز كافيا لأن يشعل نار

محمد واشنجتون أرفنج ١٦٢ وحياة

١ آل عمران ١٨٦ .

محمد ٢٧٨ هيكل وصور من حياة

٢ تفسير ابن كثير ١/٢٣٥ .

الرسول ٢٣٦ .

٣ سيرة ابن هشام ١/٥١ - ٥٧ وحياة

الحرب بين الفريقين ، وكانت الشرارة التي أشعلت هذه النار حادثة تلك المرأة المسلمة التي قدمت الى سوق بني قينقاع فجلست الى صائغ منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تآبى ، وفاجأها يهودى فى غفلة منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها ، فضحكوا بها فصاحت ، فاندفع أحد المسلمين الى اليهودى فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وتنادى المسلمون واليهود ، وأوشك الأمر أن يكون مذبحه ، لولا أن رسول الله تغلب بحكمته على اطفاء الشرارة . (١)

وقد أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام أن اليهود يعملهم هذا لا يبتغون الفتنة فقط بل يريدون بجانب ذلك محاربة سلطانه ، ونفوذ أمره ، وتحطيم قوته واظهاره ومن معه من المسلمين بمظهر العاجز الذى لا يستطيع أن يرد اعتداء ، ولا يحرك ساكنا لاهانة أصابت عرضه وشرفه . ولهذا فقد جمع رسول الله هؤلاء اليهود (بنو قينقاع) فى سوقهم ، وحذرهم عاقبة البغى ونكث العهد بعد أن كانوا أول من أظهر البغى والحسد ونقض العهد ، (وكانوا أشجع اليهود وأكثرهم مالا وأشدهم بغيا) (٢) .

وانزل الله تعالى فيهم (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم يتقنون . فاما تتقنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلمهم يذكرون . واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين . .) (٣) .

فلما نزل قوله تعالى (فاما تخافن من قوم خيانة) قال النبى عليه الصلاة والسلام (انى أخاف بني قينقاع) (٤) . ثم سار اليهم عليه الصلاة والسلام وقال لهم : ما معشر اليهود : احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة ، واسلموا فانكم قد عرفتم انى نبى مرسل : تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله اليكم ، فقالوا له : يا محمد ، لا يفرنك من نفسك انك قتلت نفرا من قريش ، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، انك والله لئن قاتلتناك لتعلمن اننا نحن الناس ، وانك لم تلق مثلنا) (٥) .

وانزل الله تعالى فيهم (قل للذين كفروا سَتُعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخبرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) (٦) .

وقد روى المفسرون والرواة عن ابن عباس (٧) أن هذه الآيات نزلت فى بنى قينقاع وردهم الجريء الوقح على رسول الله وقد أشارت آية فى سورة البقرة اشارة صريحة الى نبذ فريق من اليهود لعهودهم : (أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون) (٨) . وهذه الآية ختام المائة آية الأولى التى نزلت فى حق اليهود كما ذكرت .

- | | |
|--------------------------------------|--|
| ١ (سيرة ابن هشام ٤٨/٢ تحقيق اليبارى | ٥ (سيرة ابن هشام ٤٧/٢ تحقيق اليبارى |
| والسقا . | وامتاع الاسماع ١٠٤/١ . |
| ٢ (شرح المواهب ٤٥٥/٢ للزقانى وطبقات | ٦ (آل عمران ١٣٢ . |
| ابن سعد ٦٨/٣ وسيرة ابن هشام | ٧ (اسباب النزول ٦٢ للواحدى وتفسير ابن |
| ٤٨/٢ تحقيق اليبارى وامتاع الاسماع | كثير ٣٥٠/١ وتفسير القرطبي ٢٤/٤ |
| ١٠٤/١ والمواهب اللدنية ٤٥٦/١ . | والكشفاف ٤١٤/١ . |
| ٣ (الانفال ٥٥ - ٥٨ . | ٨ (البقرة ١٠٠ . |
| ٤ (المواهب اللدنية ٤٥٦/١ . | |

وهي من أبكر ما نزل من القرآن المدني ، فيسوغ القول أن الإشارة التي تضمنتها هي أول نقض بدا من فريق من اليهود ، وهم على الأرجح بنو قينقاع لأنهم أول من نقض العهد من اليهود (١) .

فلم يبق بعد ذلك إلا مقاتلتهم ، فقد أصبحوا أعداء بعد أن كانوا أولياء ، فلم يستطع المسلمون أن يأمنوا جانبهم وقد انبعثت ريح الحرب من أقوالهم وأفعالهم ، وأصبح شرهم متوقعا بين اللحظة والأخرى ، ولا سيما أنهم يجاورون المسلمين في مساكنهم ، ، ويخالطونهم في أعمالهم ، ويعرفون كثيرا من دخالهم ، ويطلعون على كثير من أسرارهم فلم يكن بد من عمل حاسم يؤمن المسلمين شرهم . وهذا ما فعله رسول الله ، فقد نذ إليهم عهدهم ، فصارحهم بالعداوة وأنذرهم بالحرب ، فاعتصموا بحصونهم ، فحاصرهم خمسة عشر يوما متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد ، فلما طال عليهم الحصار وعجزوا عن المقاومة بأنفسهم ، وانقطع أملهم في مساعدة حلفائهم المنافقين لهم ، أدركهم الرعب ، حتى لم يبق لهم إلا النزول على حكم النبي عليه الصلاة والسلام والتسليم بقضائه .

قال قتادة : فلما نزلوا على حكمه صلى الله عليه وسلم ، قام عبد الله ابن أبي ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فأبطأ عليه رسول الله ، فقال : يا محمد أحسن في موالى ، فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له رسول الله : أرسلني ، وغضب حتى راوا لوجهه ظللا ، ثم قال : ويحك ! أرسلني ، قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى ، أربع مئة حاسر وثلاث مئة دارع ، قد منعونى الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ، انى والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله : هم لك .

وكان عبادة بن الصامت رضى الله عنه حليفا لبنى قينقاع أيضا . فلما حاربت بنو قينقاع وتشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سللول ، وقام دونهم ، وخلعهم عبادة بن الصامت الى رسول الله ، وتبرا الى الله عز وجل ، والسى رسول الله من حلفهم ، وقال : يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرا من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم (٢) . وفيه وفى عبد الله بن أبي نزلت هذه الآيات :

(ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ؛ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لعمركم ، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله لا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتية من يشاء والله واسع عليم . انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يقول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) (٣) .

١ (تفسير القرطبي ٤٠/٢ وسيرة الرسول

وتاريخ الطبرى ٤٨٠/٢ طبعة دار

المعارف .

١١٥/٢ دروزة وسيرة ابن هشام ٤٧/٢

٢ (المائدة / ٥١ - ٥٦ .

تحقيق الإيبارى .

٣ (سيرة ابن هشام ٤٩/٢ تحقيق الإيبارى

قال عطية العوفى (١) : جاء عبادة بن الصامت فقال : يا رسول الله ان لى موالى من اليهود كثير عددهم ، حاضر نصرهم ، وانى ابوء الى الله ورسوله من ولاية اليهود ، وآوى الى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن ابي : انى رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية اليهود ، فقال رسول الله : يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه ، فقال قد قبلت ، فأنزل الله تعالى فيهما (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض) الى قوله تعالى (فترى الذين فى قلوبهم مرض) يعنى عبد الله بن ابي (يسارعون فيهم) وفى ولايتهم (يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة) .
 وذكر لتولى عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا معه ، وتبرئة من بنى قينقاع وحلفهم وولايتهم (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) .

وقد حاول عبد الله بن ابي ان يتحدث مرة اخرى الى الرسول عليه الصلاة والسلام فى بقائهم ومقامهم ، لكن أحد المسلمين حال دون ابن ابي ولقاء رسول الله واشتجرا حتى شج عبد الله بن ابي . فقالت بنو قينقاع لما بلغهم ذلك ، وبعد ان يئسوا من البقاء فى المدينة (والله لا نقيم ببلد تشج فيه يا ابن ابي ولا نستطيع عنك دفاعا) .

وجلوا عن المدينة بنسائهم واولادهم وما سمح لهم بحمله من اموالهم ومتاعهم حتى نزلوا بأذرعات على حدود الشام ، وبها اقاموا (٢) .

وقصة وقوف عبد الله بن ابي الى جانب اليهود والحاحه الشديد على الرسول مرتين متتاليتين فى صفاقة تامة . حتى شج رأسه ، ومبادلة اليهود له النفاق (والله لا نقيم ببلد تشج فيه يا ابن ابي) . ان دل كل هذا على شيء فانما يدل على الصلة الوثيقة التى كانت معقودة بين اليهود والمنافقين . وعلى قوة الدور الذى لعبه اليهود فى تأمرهم مع المنافقين فى حرب المسلمين .

وقد حاول اعداء الاسلام ان يطعنوا فى رسول الله بسبب اجلاء بنى قينقاع ومن هؤلاء ولنفسون (١) اذ يقول (ان بنى قينقاع لم يكونوا يرغبون فى محاربة الانصار مع ان يوم بدر كان فرصة نادرة لمن كان فى مركزهم) ..

فهو يحاول هنا اظهارهم بمظهر المسالم واظهار المسلمين بمظهر المعتدى على هؤلاء الضعفاء ! ثم يقول : (فقد أصبح المسلمون بعد النصر العظيم فى بدر اصحاب الامر والنهى فى مدينة يثرب وشرعوا يأخذون بالنار من الافراد والجماعات التى اساءت اليهم وطعنات فى اعراضهم) .

وكان النبى فى اول الامر يرجو ان يدخل اليهود فى الاسلام بطريق المجادلة والمناقشة فلما لم تنجح معهم هذه الطريقة صبر عليهم الى يوم بدر حيث صارت الظروف ملائمة للدخول معهم فى حرب دموية . لذلك ظهرت عند الانصار بعد موقعة بدر الكبرى سياسة جديدة جلية حيث صمموا على أحد أمرين : اما ان يندمج اليهود مع المسلمين بواسطة اعتناق الاسلام أو يحاربوهم حتى يجلوهم . وكان المهاجرون ينتظرون بفارغ الصبر مقاومة اليهود فى يثرب لأن حالتهم كانت سيئة جدا اذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل ، وكان اعداء اليهود من الخزرج يشجعون النبى الشروع فى محاربة اليهود .. وانى لاعتقد أن لاصرار

(١) اسباب النزول للواحدى / ١٢ .

(٢) حياة محمد / ٢٨٠ هيكلم ومحمد وينو (٣) تاريخ اليهود / ١٢٧ - ١٢٨ .

النبي على دخول اليهود في الاسلام سببا فوق الاسباب التي ذكرتها وهو ان دخول اليهود في الاسلام يزيد هيئته ويكبر شأنه في نظر قريش ذات المجد القليل وتدخل الجماعات الكثيرة في الاسلام بدون مقاومة) . وهذه هي سياسة النبي مع جميع اليهود كما يزعم اليهودي « ولفنسون » أما الاسباب التي حملت النبي على البدء في محاربة بنى قينقاع من جميع اليهود فترجع إلى أن بنى قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة في حي واحد من أحياء الأقسام العربية فأراد النبي أن يظهر المدينة وأحياء الأنصار من المشركين ومن جميع من يخالفون دينه . وغنى عن البيان أن بنى قينقاع كانوا أغنى طوائف اليهود في مدينة يثرب فكانت بيوتهم تحتوي على الأموال الطائلة من الذهب والفضة والحلى الكثيرة . وكان العرب يطمعون في ذلك . ثم كان عدد بنى قينقاع غير كثير ومن السهل مقاتلتهم واستئصال شأفتهم .

وينفي قصة المرأة التي اعتدى عليها اليهود أن تكون سببا في إعلان الحرب على بنى قينقاع بحجة أن المستشرقين لاحظوا أن هذه القصة لم يروها ابن هشام عن ابن اسحق الذي هو المرجع الثقة له . ثم هي ليست موجودة في كتاب الواقدي لذلك يعتبرونها قصة متأخرة وغير واقعية

وأقول ان كان الواقدي لم يذكر هذا السبب فقد ذكره أكثر المؤرخين والمفسرين للقرآن والحديث وليس ابن هشام وحده والقول بغير ذلك تخبط ومغالطة .

أما الاسباب التي يعتقدونها (ولفنسون) فهي ان دلت على شيء فانما تدل على الحقد الدفين ، والتحامل الشديد على نبي الإسلام والمسلمين . ولا ننكر عليه عاطفته نحو بنى جلدته ، ولكننا ننكر أشد الإنكار أن ما يزعمه من أكاذيب ليس لها أدنى صلة بالأمانة العلمية والبحث العلمي المجرد عن التعصب والأهواء . وهي شبهات أقل من الوقوف عندها للرد عليها ، ولولا أنه دونها باسم العلم والسعي وراء الحقيقة العلمية لما كلفت نفسى اثباتها .

وقد لمست هذا التحامل على المسلمين والتعاطف مع اليهود في عبارات كارل بروكلمان ، إذ يقول (وكان موقف النبي من اليهود قاسيا عنيفا ، وكان على بنى قينقاع وهم من الصاغة ، أن يستشعروا قبل غيرهم قوته وحزمه ، فلم يكذب ينقضى شهر على معركة بدر حتى وجه محمد رجاله لقتلهم) (١) .

وحسبى ما قدمت من أدلة تؤكد أن النبي لم يبيت نية الغدر باليهود ، وإثارة حرب دينية عنصرية ضدهم منذ البدء ، وأنه كان يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ نيته . فقد كان اعتداؤهم هو السبب المباشر لقتالهم ، بقصد إزالة ضررهم وتجنب خطرهم ، تنفيذاً لأوامر الله في الناكثين لعهودهم منهم (وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) . وقد التزم رسول الله بالوفاء للموفين منهم . ولغيرهم حتى ولو كانوا مشركين (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) (٢) . . .

فرسول الله لم يقاتل اليهود جميعهم بجريرة قبيلة منهم نكثت عهدها بل أخلص للمخلصين ولم يتعرض إليهم ، فما زال بنو النضير وقريظة ينعمون بالأمن والاطمئنان لحافظتهم حتى تلك الفترة على عهودهم ، فليس من السهل أن يتهم إسرائيل ولفنسون وغيره من أعداء الإسلام رسول الله بالغدر ونقض العهود . والله سبحانه يقول : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد

توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى
نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون امة هي اربى
من امة انما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون (١) .

بنو النضير :

ولقد كان ما حدث ليهود بنى تينقاع فى السنة الثانية من الهجرة كافيا لحمل
من بقى من اليهود بجوار المدينة على التفكير فيما هم فيه من البغى والحسد ،
وعدم الوفاء بعهودهم ولكن حقدهم وكراهيتهم للمسلمين أصمهم وأعمسهم ،
فمضوا يديرون المكاييد بالتآمر مع المنافقين والمشركين للقضاء على المسلمين . ومع
مطلع السنة الثالثة من الهجرة زحفت قريش بجموع كثيرة تريد الأخذ بثأرها
واستئصال المسلمين ، فأخذ يهود بنى النضير ، يتآمرون على المسلمين ويخذلون
فى صفوفهم ، وأظهروا عداوتهم وكراهيتهم للمسلمين ، ويبدو أن رسول الله
قد حثهم على المساهمة بالمال للدفاع عن المدينة ضد الخطر الذى دهمها كما نصت
الصحيفة فى وجوب الدفاع المشترك بالمال والنفس عن المدينة . فأرسل اليهم ابا
بكر رضى الله عنه ، فقابلوا ابا بكر مقابلة سيئة أعلنوا فيها كفرهم واستهزأوا
بالله واستخفوا برسوله .

فقد روى ابن هشام أن ابا بكر قال لحبرهم (فنحاص) بعد مناقشة حادة
(ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله انك لتعلم أن محمدا لرسول الله ،
قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، فقال
فنحاص : والله يا ابا بكر ، ما بنا الى الله من فقر ، وانه الينا لفقير ، وما نتضرع
اليه كما يتضرع الينا ، ولأنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما
استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا
غنيا ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال : والذى نفسى
بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت عنقك ، أى عدو الله ، فذهب فنحاص
الى رسول الله ، فقال : يا محمد ، انظر ما صنع بى صاحبك ، فقال رسول الله
لأبى بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ان عدو الله
قال قولا عظيما ، انه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما
قال وضربت وجهه . فجدد ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك (٢) .

فأنزل الله فيما قال فنحاص ردا عليه ، وتصديقا لأبى بكر : (لقد سمع الله
قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق
ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت ايديكم وأن الله ليس بظلام
للعبيد) (٣) .

وقوله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا
بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا

١ (النحل / ٩١ ، ٩٢ .

٢ (سيرة ابن هشام / ٥٥٨ - ٥٥٩ تحقيق

٣ (آل عمران / ١٨١ .

وكفرا والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين (١) .
وهكذا أعلن اليهود كفرهم بالله ونكثهم لما عاهدوا عليه رسول الله بالاتفاق معه في الدفاع عن المدينة وقد اكتفى منهم الرسول بالمساعدة المادية ، ولم يطلب اليهم الاشتراك بأنفسهم في الدفاع ، ولو طلب منهم ذلك لتثاقلوا ولخذلوا المسلمين كما استطاعوا تخذيل حلفائهم من المنافقين .

وقد ناشد (مخيرق) اليهودى قومه في الاشتراك مع رسول الله في الدفاع عن المدينة فقال لهم (يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق . فقالوا له : ان اليوم يوم السبت . فقال لهم : لا سبت لكم . فأخذ سيفه وعدته . وقال : ان أصبت فمالي لحمد يصنع فيه ما يشاء ، ثم غدا الى رسول الله ، فقاتل معه حتى قتل ، فقال : رسول الله (مخيرق خير يهود) (٢) .
وذلك لأنه كان اليهودى الوحيد الذى اشترك في الدفاع عن المدينة ، وحافظ على العهد والميثاق .

وقد أعلن اسلامه واعترافه بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فاستحق بذلك ثناء الرسول عليه ، ولما أصيب المسلمون في غزوة « أحد » أظهر بنو النضير الشماتة فيهم ، وأظهروا ما كانوا يخفونه من العداوة والبغضاء ، وأخذوا يطعنون في النبي عليه الصلاة والسلام ويشككون في نبوته بما حصل للمسلمين من الهزيمة في هذه الغزوة ، كانوا يشيعون في الناس : ما محمد الا طالب ملك تكون الدولة له وعليه ، ولو كان نبيا ما ظهروا عليه ولا أصيب بمثل هذا نبى قط ، أصيب في بدنه ، وأصيب في أصحابه (٣) .

وكررت أقوال المنافقين واليهود ، حتى فارت المدينة بالاراجيف فور الرجل ، وحتى أوشك الأمر أن يكون فتنة .

وقد شهد (واشنتجون أرنج) على غدرهم رغم تعصبه الشديد على المسلمين قال (فرح بعض العرب ، وبخاصة القبائل اليهودية لهزيمة الرسول في موقعة (أحد) . فقد شجعته هذه الهزيمة على الغدر بالمسلمين) (٤) .
وليست هذه هي المرة الاولى التى نقض فيها بنو النضير عهودهم وأعانوا على المسلمين عدوهم . فقد آووا أبا سفيان بن حرب بعد موقعة بدر بشهرين . وأرشدوه الى مواطن الضعف في المدينة ليأخذ بثأره وينال من المسلمين انتقاما ليوم بدر .

فقد روى ابن اسحق (٥) : أن أبا سفيان نذر الا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا عليه الصلاة والسلام ، فخرج في مئتى راكب من قريش ، ليبر بيمينه ، فسلك النجدية حتى نزل قريبا من المدينة ، ثم خرج من الليل ، حتى أتى بنى النضير تحت الليل ، فأتى حبي بن أخطب ، فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح له وخافه ، فانصرف عنه الى سلام ابن مشكم ، وكان سيد بنى النضير في زمانه ذاك وصاحب كنزهم ، فاستأذن ، فأذن له ، فقرأه وسقاه ، وبطن له من خبر الناس ، ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث رجالا منهم الى المدينة ، فأتوا ناحية منها يقال لها : العريض ، فحرقوا فى أصوار من نخل بها ، ووجدوا بها رجلا من الانصار ، وحليفا فى حرث لهما ، فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين) .
هذا وقد رأينا أنهم رفضوا أن يعينوا الرسول بسلاحهم وبأموالهم مخالفين

٤ (حياة محمد / ١٧٢ واشنتجون أرنج .

٢ (سيرة ابن هشام ٨٩/٢ تحقيق الإبيارى

٣ (السياسة الاسلامية فى عهد النبوة / ٩٥ وغيره .

بذلك نص الصحيفة التي عاقدوا رسول الله عليها وأما غدرتهم الثالثة تلك التي استطاعوا بها أحداث هزة عنيفة وخلخلة قوية في صفوف المسلمين حين اقتنعوا حليفهم عبد الله ابن أبي بآن ينخذل بثلك الجيش ، وكان من أثر ذلك أن همت طائفتان من المسلمين الرجوع عن القتال .

وقد تجاوز رسول الله عن كل هذه الجرائم التي كادت أن تقضى على المسلمين وعفا وغفر لهم لعلهم يرجعون عن غيهم وضلالهم ، ولكنهم ازدادوا غداً وطفياناً .

وقد حذر الله سبحانه المسلمين من غدورهم وكيدهم في تلك الفترة ، (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا : وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور . ان تمسسكم حسنة تسؤهم ، وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون محيط) (١) .

قال القرطبي (٢) : (ان من كانت هذه صفته من شدة العداوة والحقد والفرح بنزول الشدائد على المؤمنين ، لم يكن أهلاً ان يتخذ بطانة ، لا سيما في هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذي هو ملاك الدنيا والآخرة) ولم يقف غدر بني النضير عند حد ، فقد استهدفوا هذه المرة اغتيال النبي عليه الصلاة والسلام نفسه .

ذكر ابن أسحق (٣) : ان رسول الله خرج الى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف . فلما اتاهم رسول الله يستعينهم في دية ذينك القتلين ، قالوا نعم ابا القاسم ، نعينك ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : انكم لم تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله الى جنب جدار من بيوتهم قاعد — فمن رجل يعلو هذا البيت فيلتي عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فقال أحدهم : انا لذلك ، فصعد ليلتي عليه صخرة كما قال ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً الى المدينة فلما استلبث النبي أصحابه ، قاموا في طلبه فلحقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسأله عنه فقال : رأيته داخل المدينة ، فاقبل أصحاب رسول الله ، حتى انتهوا اليه ، فأخبرهم الخبر ، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله بالتهيؤ لحربهم ، والسير اليهم) .

وقد ذكر الله تعالى المؤمنين بهذه النعمة التي نجى بها نبيهم عليه الصلاة والسلام من غدر اليهود .

قال تعالى (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٤) . هذا ما رواه مجاهد والكلبي وعكرمة في سبب نزول هذه الآية (٥) . هكذا بلغ غدر بني النضير منتهاه ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام كان رحيماً بهم ، فلم يأمر بقتلهم ، كما أرادوا قتله ، وانما أرسل اليهم محمد بن مسلمة

١ / ١٧٨

١ (آل عمران ١١٨ - ١٢٠)

٢ (المائدة / ١١)

٢ (تفسير القرطبي ١٨٢/٤)

٣ (أسباب النزول / ١٢٩ للواحدى)

٣ (سيرة ابن هشام ١٩٠/٢ وامطاع الاسماع)

أن أخرجوا من بلادى فلا تسلكونى بها ، وقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى منكم بعد ذلك ضربت عنقه (١) .

فلما بلغهم محمد بن مسلمة ما أرسل به مكثوا أياما يعدون العدة للرحيل ، وهما بالخروج ، ولكن عبد الله بن أبى أرسل اليهم أن أثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلّمكم ، إن قوتلتهم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، ولا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا فى حصونكم فإن معنى الفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، فعادت لليهود بعض ثقتهم ، وتشجع كبيرهم (حى بن أخطب) فأرسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم من يقول له : (إنا لن نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك) فكبر النبى عليه الصلاة والسلام وكبر معه المسلمون وقال (حاربت يهود) وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم .

وفى شهر ربيع الأول ، حاصره رسول الله فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه أن يا محمد : قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ، ولم يتحرك عبد الله بن أبى لمساعدتهم ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله أن يُجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فاحتلوا أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خير ، ومنهم من سار إلى بلاد الشام (٢) .

وأنزل الله تعالى فى بنى النضير وجلائهم عن المدينة سورة الحشر بأسرها . وقد سُمى ابن عباس رضى الله عنه سورة الحشر بسورة بنى النضير . روى البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس — رضى الله عنهما — سورة الحشر ، قال قل سورة النضير (٣) .

قال الله تعالى (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ، ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين) (٤) .

قال ابن عباس ومجاهد والزهرى (٥) وغير واحد كان رسول الله لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهدا وذمة على أن لا يقاظهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذى لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذى

-
- | | |
|---------------------|--|
| ٢/١٦ . | (١) فتوح البلدان / ٣١ . |
| ٥ - ١ / الحشر (٤) | (٢) سيرة ابن هشام ١٩١/١ تحقيق الأبيارى |
| ٦ والكشاف | وطبقات ابن سعد ٩٩/٣ وتاريخ |
| ٣٣٠/٤ | اليعقوبى ٣٧/٢ وفتوح البلدان ٢١ |
| ٣٣٣ - | وامتاع الاسماع ١٦٥ . |
| | (٣) صحيح البخارى ١٨٣/٦ وتفسير القرطبي |

لا يَصْدُ فاجلاهم النبي عليه الصلاة والسلام واخرجهم من حصونهم الحصينة التي قال الله في شأنها مصوّراً نفسية المؤمنين من الداخل (ما ظننتم ان يخرجوا) لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقه حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم) .

ثم يسلط الله تعالى الأضواء الكاشفة على نفسية الأعداء على الناحية الأخرى للصورة (وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله) وما كانوا هم يتوقعون خروجهم من ديارهم ، فقد غرّتهم حصونهم وقوتهم ، وانستهم قوة الله التي لا تغالب ، وجعلتهم يستبعدون ان ينالهم المسلمون بسوء ما داموا قد تمنعوا بحصونهم ، وظنوا انها ستمنعهم من بأس الله (فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب) فما أغنت عنهم حصونهم من الله شيئا ، وجاءهم الهلاك من حيث لم يتوقعوا ولم يخطر لهم ببال ، وهو قتل رئيسهم وسيدهم كعب ابن الأشرف ، مما أضعف قوتهم وفلّ شوكتهم ، وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب الذي زلزلهم زلزالا شديدا ، وبما كان من خذلان إخوانهم المنافقين لهم وقد وعدوهم ومنوهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .

ثم تسجل لهم الآيات هذه الصورة الفريدة وهم (يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين) وكان العين تتبعهم في حركاتهم واضطرابهم وتخطيهم ، وقد حملوا معاول الهدم بأيديهم وأخذوا يخربون حصونهم الحصينة من الداخل حتى لا تبقى صالحة للاستعمال من بعدهم ، وليأخذوا معهم ما يرغبون فيه من الخشب والأبواب . وقد عمل المؤمنون فيها تخريبيا وإفسادا من الخارج ليُزيلوا مُحْتَصِنَهُمْ ومُتَمَنِعَهُمْ حتى يتسع لهم مجال الحرب ليستأصلوا شأفتهم وأن لا يبقى لهم بالمدينة دار ولا منهم ديار . .

ثم يلتفت السياق إلى التعقيب على هذا المشهد ليكون عبرة لمن يعتبر (فاعتبروا يا أولى الابصار) أى اتعظوا يا أصحاب العقول والالباب ويا من عاين ذلك ببصره ، بما دبر الله ويسر من أمر إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال ، ولو أنهم تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله ورسوله وكذب كتابه لما حلّ بهم ما كان ليخطر على بال ، ولكنهم عموا ووصموا فأوقدوا نارا كانوا هم وقودها . ثم تتوعدهم الآيات وتهدهم وتخبرهم بأن عذابا آخر كان سيلحقهم في الدنيا لو لم يخرجوا من ديارهم . (ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار) .

قال الزمخشري (١) : إن الله قد عزم على تطهير ارض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم ، وتوريثهم أموالهم ، فلولا أن كتب الله عليهم الجلاء واقتضته حكمته ودعاه إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت لعذبهم في الدنيا بالقتل كما فعل باخوانهم بنى قريظة ولهم سواء أجلوا أو قتلوا عذاب النار ، فان نجوا من عذاب الدنيا فلن ينجوا من عذاب الآخرة ، بسبب بغيهم ومشاققتهم (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله من يشاق الله فإن الله شديد العقاب) .

ثم يطمئن الله تعالى المؤمنين على صواب ما أوتعوا بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه ، أو تركه كذلك قائما ، وبيان حكم الله ، ويبدو أنه دخل نفوس المؤمنين شىء من هذا ، فمسح الله على قلوبهم بهذه الآيات الكريمة (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين) .

روى الواحدى (١) : لما أمر رسول الله بقطع نخيل بنى النضير وإحراقها قالوا : زعمت يا محمد أنك تُريد الصلاح ، فمن الصلاح عقر الشجر المثمر وقطع النخيل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض ؟ فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا ، فقال بعضهم : لا تقطعوا فإنه مما آفأ الله علينا . وقال بعضهم : بل اقطعوا ، فأنزل الله تبارك وتعالى — ما قطعتم من لينة — تصديقا لمن نهى عن قطعه وتحليلا لمن قطعه ، وأخبر أن قطعه وتركه باذن الله تعالى) . فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك باذن الله ، فهو الذى تولى بيده هذه الموقعة ، وأراد فيها ما أراد ، وكان كل ما وقع من هذا باذنه ، ليخزي الفاسقين ، فقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه ، وقد خص القرآن بالذكر كرام النخل (ما قطعتم من لينة) ليكون أغيب لليهود وأشد وأشق عليهم ليلذلهم ويغيبهم ، وأما ترك النخيل فإنه يغيبهم ويخزيهم فوته وضياعه من أيديهم إلى أيدي المسلمين . وإرادة الله وراء هذا وذاك .

وبذلك تستقر القلوب المتحرجة ، وتشفى النفوس مما حاك فيها ، وتطمئن إلى أن الله أراد وهو الذى فعل ، والله فعال لما يريد ، وما كانوا هم إلا أداة لانتفاذ ما يريده ثم يكشف الله تعالى بعد ذلك عن طبيعة النفس اليهودية وأسباب ضعفها وجبنها ويفرى المؤمنين ويشجعهم على قتالهم فيقول عز من قائل (لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) (٢) .

هكذا يسلط الله سبحانه الأضواء الكاشفة على أسرار قلوبهم حتى لا ينخدع المؤمنون بظاهريهم الذى يدل على القوة والبأس ، فبين تعالى حقيقة أمرهم بأنهم يخافون المؤمنين أكثر من خوفهم من الله (لأنتم أشد رهبة ...) وهذا مثل قوله تعالى : (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) وبين سر ذلك فقال (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) فلا عجب ولا غرابة إذن فالله لا يجمع فى قلب مخافتين ، فهؤلاء لا يقدر الله حق قدره ولا يخشونه وإنما يخشون الناس .

وقد صورت الآيات جنبهم تصويرا بليغا (لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة) فهم من جنبهم وهلعهم لا يقدرين على مواجهة جيش المسلمين بالبارزة والمقاتلة وجها لوجه ، ولكنهم لا يقاتلون إلا فى حصون محصنة بالخنادق والدروب أو من خلف حيطان يستترون بها لجنبهم ورهبتهم . وقد أكدت الحروب التى شهدتها اليهود قديما وحديثا صدق هذه الحقيقة . فهام يتحصنون بحصونهم فى المدينة وخير قديما ، ولا زالوا إلى يومنا هذا لا يقاتلون إلا فى المستعمرات المحصنة والسراديب تحت الأرض أو فى الدبابات التى ربطوا أنفسهم فيها بالسلاسل خوفا من الفرار عند مواجهة القتال ، فكان الآية تنزلت فيهم ابتداء فسبحان العليم الخبير بطباع النفوس .

ثم كشف القرآن الكريم عن سببين من أسباب خورهم وجبنهم بقوله تعالى : (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) أى عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى (ويذيق بعضكم بأس بعض) وأكد ذلك بقوله

١ أسباب النزول / ٢٧٩ والكشاف (٢) الحشر ١٣ ، ١٤ .

(تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) أى تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون .

وقال الزمخشري (١) : (قلوبهم شتى) أى متفرقة لا ألفة بينها ، يعنى أن بينهم إحنا وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة) .

وقال القرطبي (٢) : أهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهاداتهم ، مختلفة أهواؤهم ، وهم مجتمعون على عداوة أهل الحق) .

ويقول (الفريد ليلنتال) (٣) : (إن الأعضاء اليهود الجبناء الذين يعيشون فى صهيون ولندن وأمريكا هؤلاء الزعماء الصهانية هم الذين تركوا ستة ملايين من أبناء جلدتهم يُحرقون ويُخنقون ويُسُنقون دون حماية وبعدم إكتراث . وقد كانوا يعلمون مقدما بالوقت ، والأسلوب والمكان الذى ستجرى فيه عمليات الإبادة ، ويرفضون أن يذروا الضحايا) .

وهكذا تنتهى قصة إجلاء بنى النضير كما صوّرها القرآن ، وهى تختلف فى روايتها عما فى كتب البشر ، بمقدار ما بين صنع الله وصنع البشر من فوارق لا تقاس .

وقد أنكر المشركون والمستشرقون ما رواه القرآن الكريم عن بنى النضير وما ذكرته كتب المغازى والسير من غدر هؤلاء اليهود ومحاولتهم اغتيال رسول الله فقال ولفنسون (وان الذى يظهر لكل ذى عينين أن بنى النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبي واغتياله على مثل هذه الصورة لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلهم من أنصاره ، ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله لما كانت هناك ضرورة لالقاء صخرة عليه من فوق حائط بل كان فى استطاعتهم أن يفاجئوه وهو يحدثهم إذ لم يكن معه إلا نفر قليل) (٤) .

ويلاحظ ما فى قوله من التناقض فبسبب أنهم كانوا يخشون عاقبة فعلهم من أنصاره لم يكن فى استطاعتهم أن يفاجئوه بالقتل العمد الظاهر بل لا بد أن يفتعلوا الإصابة قضاء وقدرًا مخافة غضب أنصاره . ومن ناحية أخرى فقد نفى هو والمستشرقون صحة قصة حادثة المرأة فى إجلاء بنى تينقاع لأن ابن أسحق لم يذكرها ، وقصة محاولة اغتيال بنى النضير رواها ابن هشام عن ابن أسحق وأشار القرآن أيضا إلى اعتدائهم وغدرهم ، وذكر المؤمنين بنجاة رسول الله منهم . ولن تجد فى القرآن تصريحا لمثل هذه القصص لأنه ليس كتاب تاريخ كالذى كتبه اليهود بأيديهم ونسبوه إلى الله تعالى . ومع ذلك فقد ذكرت آية فى سورة المائدة (يأيتها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٥) . تلك الفعلة الشنيعة وسجلت على اليهود غدرهم ومحاولتهم اغتيال رسول الله كما أجمعت على ذلك كتب التفسير وأسباب النزول .

وأشارت آية فى سورة الحشر إلى ذلك فى قوله تعالى (ذلك بأنهم شاقوا لله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) .

والغدر بالأنبياء وقتلهم ليس غريبا ولا مستبعدا على أخلاق اليهود ، فقد سجل تبارك وتعالى ذلك عليهم فى كثير من المواقع من ذلك قوله : (أفكلما جاءكم

١ (الكشف ٨٥/٤ . د. محمد سيد طنطاوى .

٢ (تفسير القرطبي ٣٦٦/١٨ . ٤ (تاريخ اليهود ١٣٦ .

٣ (بنو اسرائيل فى القرآن والسنة ٣٧٣/٢ . ٥ (المائدة / ١١ .

رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون (١) . وقوله تعالى (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) (٢) . ولكن الدكتور ولفنسون ينفي هذه القصة ليفترى علينا قصصا غيرها ليلقى باللائمة على رسول الله وليبزيء اليهود من فعلتهم الخبيثة . . فقد زعم أن النبي غضب على يهود بني النضير لأنهم لم يشاركوه في واقعة أحد ، فأراد أن ينتقم منهم (وكان إنذار الرسول لهم بذلك بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في واقعة أحد) (٣) .

وكأنما أحس أنه أخرج نفسه بهذا التعليل ، لأن هذا الوضع ينطبق تمام الانطباق على يهود بني قريظة ، فاستدرك بعد هذا مباشرة يقول (ثم يظهر أن بني قريظة كانوا مرتبطين بعهد آخر غير عهد بني النضير ، وأن الشروط غير شروط عهد بني النضير ، إذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك في واقعة أحد كما طالب بني النضير ، ولم يثار منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثار من بني النضير . ثم قال ذلك مبرراً عدم اشتراك اليهود في أحد (وكانت موقعة أحد يوم سبت ، فأبى اليهود أن يحملوا السلاح في ذلك اليوم ، ورفضوا الاشتراك مع رسول الله معتمدين على أن المعاهدة التي كانت بينهم وبين الرسول تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيدا عن المدينة) (٤) .

ثم عاد إلى القول مبررا غضب الرسول عليهم لعدم اشتراكهم (وليس معقولا أن يغضب الرسول على بني النضير لعدم خروجهم إلى الوغى في واقعة أحد ، دون أن يكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها) (٥) .

فالمعاهدة في رأيه غير ملزمة لليهود بالاشتراك في الحرب خارج المدينة . حين يريد أن يبرر بها تعودهم عن الخروج إلى (أحد) ، وهي في الوقت نفسه ملزمة لهم ، حين يريد أن يبرر بها غضب رسول الله عليهم . ليس هذا هو التناقض بعينه ؟ ثم ليس من التناقض أن يكون العهد الذي بين الرسول واليهود ملزما لبني النضير في الدفاع عن المدينة ، وغير ملزم لبني قريظة ؟ أليس الجميع أبناء ملة واحدة وأبناء وطن واحد ووقعوا مع النبي اتفاقية واحدة .

ولكن ولفنسون لا يفي إلا الوصول إلى غرضه وهو اتهام الرسول عليه الصلاة والسلام بالتعصب والغدر ببني النضير وتبرئة اليهود من كل سوء ، وإن خالفه في ذلك كل المؤرخين وإن تناقض مع نفسه (٦) .

والذي أجمع عليه المؤرخون وكتاب السيرة أن اليهود خرجوا يوم أحد مع عبد الله ابن أبي لاشترار في القتال ، ولكن رسول الله ردهم وقال (لا حاجة لنا فيهم ولا نستعين بأهل الشرك على أهل الشرك) (٧) .

ويظهر أن ولفنسون رأى أن الأكذوبة مكشوفة بشكل واضح فسررد رواية ابن سعد عند رفض رسول الله اشتراك اليهود في غزوة أحد وعقب على ذلك بقوله (أما نحن فنغض الطرف عن هذه الرواية كما تتناقض مع ما قصصنا عن

- | | |
|--------------------------------|---|
| ١ (البقرة / ٨٧ . | ٧ (سيرة ابن هشام ٦٤/٢ تحقيق الأبياري |
| ٢ (المائدة / ٧٠ . | والسيرة الطيبة ٢٣٤/٢ وشرح |
| ٣ (تاريخ اليهود / ١٣٥ . | المواهب للزرقاني ٢٥/٢ وامتاع الاسماع |
| ٤ (المرجع السابق / ١٢٤ . | ١١٨/١ والسيرة النبوية والاثار الحمديدية |
| ٥ (تاريخ اليهود / ١٢٥ . | ٢٨/٢ لزبني دحلان وطبقات ابن سعد |
| ٦ (صور من حياة الرسول / ٣٩٥ . | ٢ والواقدي وغيرهم . |

ابن اسحق) مع انه لم يذكر شيئاً عن ابن اسحق فى هذا الصدد . . ثم يقول إنه يفض الطرف عن هذه الرواية ، ونحن لا يهمننا طرفه هذا أن يفضه أولاً يفضه فإن الله تعالى يقول عنه وعن أمثاله (حتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) (١) .

وإنما نعجب أن يوضع غض الطرف دليلاً علمياً فى تمحيص واقعة تاريخية على مستوى أكبر شهادة علمية فى الدولة وهى الدكتوراه (٢) .

غزوة بنى قريظة :

على أن زعماء بنى النضير وأشرافهم أمثال حبي بن أخطب ، وسلام بن الحقيق وكنانة بن الربيع ، هم الذين حزبوا الأحزاب على المسلمين يوم الخندق كما ذكرت ودعوا قريشاً وغطفان وسائر القبائل لحرب المسلمين وقالوا : إنا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله (٣) .

وإرضاء للمشركين ، وتأليباً وتشجيعاً لهم على قتال المسلمين سجدوا للأصنام ، وقالوا لهم دينكم خير من دين الله وتعاليدكم أفضل من تعاليمه . ونزل فيهم قوله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبيت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) (٤) .

ولما طال حصار الأحزاب لقتال المسلمين بدون جدوى عزموا على العودة إلى بلادهم فجن جنون حبي بن أخطب واحتال للموقف بأن أقنع الأحزاب بأنه يستطيع إقناع بنى قريظة بنقض عهدهم مع المسلمين ، ويفتح الطريق للأحزاب من الجهة التى يسكنها بنو قريظة ، ففرحوا بفكرته ، وسارع هو لتنفيذها .

قال ابن اسحق : وخرج عدو الله حبي بن أخطب النضرى ، حتى أتى كعب بن أسد القرظى ، صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله وقومه ، وعاقدهه على ذلك وعاهده ، فلما سمع كعب بحبي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه حبي : ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر وبيحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، وبغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه . قال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبيجهاهم قد هراق ماءه ، فهو يرعد ويبرق ، ليس فيه شيء ، ويحك يا حبي ! فدعنى وما أنا فيه ، فأبى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء . . فلم يزل حبي بكعب يفتله فى الذروة والغارب حتى سمح له ، على أن اعطاه عهداً من الله وميثاقاً : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله .

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله وإلى المسلمين بعث رسول الله من يستوثق منه ، فوجدهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، فيما نالوا من رسول الله ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وبلغ الغضب بسعد بن معاذ منتهاه ، فشاطمهم وشاتمهم واستهزأوا به . فقال سعد بن عبادة — دع عنك

٣ (سيرة ابن هشام ٢/٢١٤ تحقيق الإبيارى

١ (البقرة / ٧ .

٤ (النساء / ٥١ ، ٥٢ .

٢ (أنظر النفاق والمنهتون .

مشاراتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة (١) .
قال المقرئى : (وهبت بنو قريظة أن يُغيروا على المدينة ليلا ، فجاء الخبر بذلك إلى رسول الله ، فبعث سلمة بن أسلم فى مائتى رجل ، وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة رجل ، يحرسون المدينة ، وكان الخوف على الذرارى بالمدينة من بنى قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان) (٢) .

وامتألت قلوب المسلمين بالغيظ على بنى قريظة الذين نقضوا عهودهم فى ساعة الشدة بعد أن زلزل المؤمنون زلزالا شديدا حيث اتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم . ولكن الله تعالى أيد المؤمنين بنصره فهزم الأحزاب وحده ، وكفى الله المؤمنين القتال . وعادوا إلى دورهم فرحين بنصر الله وقد القوا سلاحهم ليستريحوا من طول الحصار والجهاد .

ولكن الله تعالى الذى يخطط دائما لمعارك المسلمين مع أعدائهم أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بالسير إلى بنى قريظة لينالوا الجزاء العادل على غدرتهم الشنيعة التى كادت تعصف بالإسلام والمسلمين نهائيا . فقد أخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما رجع النبى من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال : قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه فأخرج إليهم ، فقال النبى فىلأى أين ؟ قال ها هنا وأشار بيده إلى بنى قريظة فخرج النبى إليهم) (٣) . ثم أذن مؤذن النبى عليه الصلاة والسلام بالإسراع فى الخروج لقتال بنى قريظة فأخرج البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب (لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم لا نُصلى حتى نأتيها وقال بعضهم بل نُصلى لم يرد منا ذلك فذكر ذلك للنبى فلم يعنف واحدا منهم) (٤) .

وقد رأى النبى عليه الصلاة والسلام أن يباغتهم قبل أن يستكملوا عدتهم ويقبوا حصونهم ولهذا سارع المسلمون إليهم يحمل رأيهم على بن أبى طالب . فلما اقترب من حصونهم وجدهم مصرين على غايتهم وغرورهم وسمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله فرجع حتى لقي رسول الله بالطريق ، فقال : يا رسول الله ، لا عليك أن تدنوا من هؤلاء الأخابث ، قال : لِمَ ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله (٥) . فلما رأوا رسول الله تحصنوا بحصونهم فحاصرهم رسول الله خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب .

ولما اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله ، فأمر برجالهم فكتفوا بالحبال ونحوا ناحية وأخرج النساء والذرية فنحوا ناحية أخرى فتواثب رجال من الأوس فقالوا : يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت بموالى أخواننا بالأمس ما عملت فقال لهم رسول الله : الا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال رسول الله : فذاك لسعد بن معاذ . فلما حكمه

١ (سيرة ابن هشام ٢/٢٢٢ ، تحقيق

الإبيارى . وبنو اسرائيل فى القرآن
والسنة ٣٨٠ الدكتور / محمد سيد
طنطاوى .

٤ (صحيح البخارى ١٤٣/٥ وصحيح مسلم

١٣٩١/٣ .

٥ (سيرة ابن هشام ٢/٢٣٤ .

٢ (امتاع الاسماع ١/٢٢٧ .

٣ (صحيح البخارى ١٤٢/٥ وصحيح مسلم

رسول الله في بنى قريظة آناه قومهم وجعلوا يقولون له : يا ابا عمرو ، احسن في مواليك ، فان رسول الله إنما وذاك ذلك لثخن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم .

فحكّم فيهم سعد بأن تقتل الرجال ، وتقسّم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء . فقال رسول الله لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرتعة (١) .

وقد أنزل الله تعالى في شأن بنى قريظة وما حل بهم جزاء غدرهم قوله تعالى : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم وقذف في قلوبهم الرعب ، فربما تقتلون وتأسرون فريقتا ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شيء عقيداً) (٢) .

وهكذا تشير الآيتان إلى ما حلّ ببني قريظة إشارة سريعة ولكنها دقيقة وشاملة ، فقوله تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم) أشارت هذه العبارة إلى معاونة بنى قريظة للأحزاب ، وأن الله سبحانه أذلهم وأخرجهم من حصونهم التي تمنعوا فيها ونزلوا على حكم رسول الله بدون شروط (وقذف في قلوبهم الرعب) أي القى في قلوبهم الخوف والفرع الذي زلزل قلوبهم ، وأذهل عقولهم ، فنزلوا على حكم رسول الله صاغرين (فربما تقتلون وتأسرون فريقتا) قتلوا مقاتلتهم وسبوا نساءهم وأطفالهم وورثوا أرضهم وحصونهم وممتلكاتهم .

فقد أشارت الآية الأولى إلى غدر بنى قريظة بقوله (ظاهروهم) . وأشارت الآية الثانية إلى جزاء الغادرين . ولم يزد السرد التاريخي شيئاً على ما ذكرت هاتان الآيتان .

وبتنفيذ حكم سعد بن معاذ في اليهود تمّ القضاء على آخر معقل لهم في المدينة المنورة ، فتمّ تطهيرها من دنسهم ورجسهم ، وكيدهم ومكرهم . وخفت بخروجهم صوت المنافقين وسكنت قريش وأحلافها وصدق رسول الله حين قال بعد غزوة الأحزاب وقريظة : (الآن نغزوهم ولا يغزونا — نحن نسير إليهم) (٣) . ويقول ولفنسون (ومهما يكن من شيء فلقد قضت هذه الغزوة على بطون اليهود في يثرب ، وكان القضاء على اليهود هو رائد الأوس والخزرج ، منذ الساعة الأولى لجاورتهم في يثرب ، وقد بُذلت في هذا السبيل جهود عظيمة في فترات مختلفة ولم توفق ، حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة فحققت آمالهم وأطماعهم السياسية في وقت كانت خامدة فيه تلك الآمال (٤) .

وهذا باطل من وجوه كثيرة منها : أن الأوس والخزرج لم يكونوا على وفاق قبل الهجرة ، بل كانوا تبعاً لليهود وحلفاء لهم في حروبهم المتواصلة التي كان آخرها يوم بعاث ، ولم يحدثنا التاريخ عن وقوع حوادث بين الأوس والخزرج مجتمعين وبين اليهود . أما بعد الهجرة فلم يحقد الأوس والخزرج على اليهود بل كانوا على وفاق وكانوا يحبونهم ويوالونهم ويثقون بهم وقد صرح بذلك القرآن الكريم في كثير من المواضع : (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله (٥) .

١ (صحيح البخارى ١٤٣/٥ وسيرة ابن هشام ٢٤٠/٢ تحقيق اليبارى وامناع الاسماع ٢٤٤/١ - ٢٤٦ وطبقات ابن سعد ١١٧/٣ .
٢ (الأحزاب ٢٦ ، ٢٧ .
٣ (صحيح البخارى ١٤١/٥) غزوة الخندق) .
٤ (تاريخ اليهود / ١٣٩ .
٥ (آل عمران / ١١٩ .

وقد أيدت الحوادث التاريخية تعاطف كل من الأوس والخزرج مع مواليتهم من اليهود فقد سأل الخزرج رسول الله في الأحسان إلى مواليتهم من بني قينقاع وبنى النضير ففعل ، والح الأوس على رسول الله أن يحسن في مواليتهم من بني قريظة أسوة بإخوانهم . ووكل رسول الله هذا الأمر إلى سيدهم سعد بن معاذ تطليا لخاطرهم . ولكن سعد بن معاذ حكم في اليهود بحكم التوراة ، ولم تأخذ في الحق لومة لائم .

فتح خيبر :

لم ينته خطر اليهود ببلاد الحجاز بإجلالهم عن المدينة ، فقد نزل يهود بني قينقاع والنضير على إخوانهم في منطقة خيبر ، وتجمعوا بها للكيد والتآمر على المسلمين ، فهم الذين حزبوا الأحزاب يوم الخندق وكادوا يقضون القضاء النهائي على المسلمين .

ويقول (ولفنسون) : (ارتعدت فرائص يهود خيبر لما وصل إليهم ما حلّ بإخوانهم في يثرب من التنكيل والتقتيل وأوجسوا خيفة من نقمة المسلمين عليهم جزاء تحريضهم لبنى قريش وغطفان مع حنبي بن أخطب على محاربة الأنصار وقد صرح سلام بن مشكم لزعماء خيبر بأن خطرا يتهدد كيان اليهود في الحجاز وبأن الواجب عليهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء ثم يزحفوا على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية في هذه الغزوة . وقد علم الرسول بما يدور في خلد يهود خيبر فأخذ يتهيأ لقتالهم ، واخذ الأنصار يرسلون الوفود لقتل زعماء خيبر كمقدمات للغزوة . . وكان من تلك الضحايا زعيمان كبيراء النفوذ والسيطرة في خيبر هما سلام بن أبي الحقيق وأسير ابن رزام . وكان أبو الحقيق من أصحاب العقول الراجحة فأرادوا أن يتخلصوا منه قبل أن تدور المعارك بينهم وبين يهود خيبر (١) .

ورغم ما في هذا الكلام من تحامل إلا أن الحقيقة بدت منه دون أن يحس بذلك . فقد صرح بأن جميع اليهود قد هياوا أنفسهم للزحف على المدينة وعلم بذلك رسول الله ثم تهيأ لرد كيدهم .

والحق أن مذبحه قريظة قد تركت في نفوس اليهود قديما وحديدا أثرا بالغ العمق بعيد المدى ، فاشتعلت صدورهم نارا وعاطفة عنيفة من البغض والعداوة ورغبة قوية في الانتقام والتشفى .

ومع أن اليهود كانوا هم البادئين بالشر ، وكانت الدائرة تدور عليهم في كل مرة ، فإنهم لم يروعوا ولم يزدجروا ، ولم يحاولوا قط أن يطامنوا من شعور العداوة في نفوسهم للإسلام ورسوله ، وأن يعيشوا مع المسلمين في سلام ووثام ، بل هي فكرة واحدة تملكتهم وسيطرت على رعوسهم ، وتواصى بها زعمائهم وسادتهم — وهي القضاء على الإسلام وأهله تارة يدفعهم إليها حب الانتقام والأخذ بالثأر ، وكلما رأوا قدم الإسلام ترسخ ، زادت هذه الفكرة في نفوسهم رسوخا ، فاندفعوا تحت تأثيرها يفكرون ويقدررون ، ويتخذون لتنفيذها الوسائل ، ويتلمسون الأسباب ، ويتحينون الفرص — وكانت الكلمة التي قالها زعيمهم حنبي بن أخطب ، منذ رأى رسول الله يقدم إلى المدينة ، هي الدستور

الذى سار عليه اليهود جميعا (عداوته — والله — ما بقيت) (١) .
ولما فرغ رسول الله من صلح الحديبية ، اراد ان يبدا يهود خيبر قبل ان
يبداوه ، وان يفاجئهم قبل ان يستكملوا استعداداتهم لمهاجمته . فخرج اليهم بأهل
الحديبية وحدهم .

قال ابن اسحق : وكان رسول الله إذا غزا قوما لم يفر عليهم حتى يصبح ،
فإذا سمع آذانا أمسك ، وإن لم يسمع آذانا أغار ، فنزل خيبر ليلا ، فبات حتى
أصبح ولم يسمع آذانا ، فركب وركب المسلمون معه ، واستقبلهم عمال خيبر
غادين ، قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله والجيش ، قالوا :
محمدا والخميس معه ، فأدبروا هرابا فقال رسول الله : الله أكبر خربت خيبر ،
إننا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . ثم أقبل رسول الله بواد يقال
له الرجيع ، فنزل بينهم وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ،
وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله . فلما سمعت غطفان بمنزل رسول الله
جمعوا له ، ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه ، حتى إذا ساروا منقلة سمعوا
خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسبا ، ظنوا أن القوم خالفوا إليهم ، فرجعوا على
أعقابهم ، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم ، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر ، وتدنى
رسول الله الأموال يأخذها مالا مالا ، ويفتحها حصنا حصنا (٢) .

ولما فرغ رسول الله من أهل خيبر انصرف إلى « وادى القرى » فحاصر
أهلها ليالى حتى سلموا وأذعنوا للصلح ، فصالحهم على ما صالح عليه أهل
خيبر . أما يهود (تيماء) فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال . وبذلك دانت
اليهود كلها لسلطان النبى عليه الصلاة والسلام ، وانتهى كل ما كان لهم من
سلطان فى بلاد العرب (٣) .

وهكذا حقق الله تعالى وعده للمسلمين يوم الحديبية إذ يقول : (لقد رَضِيَ
الله عن المؤمنين إذ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ
عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ،
وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ
آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٤) .

والذى عليه جمهور المفسرين ان (الفتح القريب) و (المغانم الكثيرة) هي
فتح خيبر وغنائمه ، إذ كان فتح خيبر بعد بيعة الرضوان بنحو شهرين ، وكانت
مغانمها أكثر مغانم حصل عليها المسلمون .

ويؤكد هذا قوله تعالى للمخلفين من الأعراب الذين اعتذروا عن الخروج مع
النبى يوم الحديبية لما سمعوا بوعد الله للمسلمين بفتح قريب ومغانم كثيرة
يأخذونها دون كبير قتال طلبوا من النبى عليه الصلاة والسلام السماح لهم
بالخروج مع المسلمين فقال تعالى :

(سيقول الخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن
يبدلوا كلام الله قل لن تتبعوننا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل
كانوا لا يفقهون إلا قليلا (٥) .

١ (صور من حياة الرسول : ٤٧٥ — ٣ (المرجع السابق : ٢٣٨/٢ .

٢ (٤٧٦ .

٣ (سيرة ابن هشام : ٢٣٠/٢ تحقيق

٤ (الفتح : ١٨ — ٢٠ .

٥ (الفتح : ١٥ .

الابيارى .

قال ابن كثير (١) : يقول تعالى مخبرا عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله في عرة الحديبية إذ ذهب رسول الله وأصحابه إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، وقد وعد الله أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركون فيها غيرهم) .

ويقول ولفنسون : وهكذا قضى قضاء تاما على القوة السياسية والاقتصادية والدينية التي كانت لليهود في أقاليم الحجاز . ووقف تيار المطاعن والمثالب التي كانت متبادلة بين الطرفين ويدل على ذلك أن الرسول لم ينزل عليه شيء من الآيات القرآنية التي تتضمن ذم اليهود والظعن فيهم بعد هذه الغزوة على خلاف ما كان في تلك الفترة التي كانت بين يوم بدر وغزوة خيبر (٢) .

ثانيا - النصرارى :

في السور المدنية آيات كثيرة في النصرارى وعقائدهم ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ، وفي عيسى عليه السلام وأمه والحواريين ، وقد جاء بعضها بأسلوب محبب وثناء جميل ، وفي بعضها تحذير وتثديد ، وفي بعضها جدل ومناظرة ، وحكاية صد وكيد ، وفي بعضها شيء من العنف وأمر بالقتال ، واستنفار إليه . .

ومعنى هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام قد لقي في العهد المدني نصرارى ودعاهم واحتك بهم ، وأن بعضهم أظهر روحا طيبة وتلقى الدعوة بالامتثال ، وأن بعضهم تردد ونأى وجادل وكابر ، وأن بعضهم قد صدر منه ما تجاوز حد الجدل والمكابرة إلى البغى والعدوان .

والآيات في النصرارى وعقائدهم ومواقفهم في القرآن المدني أكثر وأصرح منها في القرآن المكي . ففي القرآن المكي اشارات إلى انحراف عقيدة النصرارى في المسيح والتثديد بهم بأسلوب عام . وبشكل عام كان الذين لقيهم النبي عليه الصلاة والسلام في العهد المكي أكثر تجسدا عن الهوى والرغبات المادية ، وأكثر استعدادا إلى الاستجابة إلى الدعوة والاندماج فيها (٣) .

وفي سورة البقرة أول القرآن المدني نزولا صور متنوعة لحالة النصرارى في العهد المدني ومواقفهم إزاء الدعوة الإسلامية وما وقع بينهم وبين اليهود من صدام حربى . . قال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء ما أقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد (٤) .

ويبدو أن النصرارى كاليهود لجأوا إلى أسلوب الحرب الجدلية مع رسول الله منذ قدومه إلى المدينة ، وهذا ما روته كتب السير وما تلهمه مشاهد سورة البقرة ، فقد ذكر تعالى ادعاءهم ، وغرورهم بقوله : (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصرارى تلك أمانيتهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى

٣ (سيرة الرسول : ١٩٨/٢ دروزة .

١ (تفسير ابن كثير : ١٨٩/٤ .

٤ (البقرة : ٢٥٣ .

٢ (تاريخ اليهود : ١٧٤ .

من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقالت اليهود ليست النصرارى على شىء وقالت النصرارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (١) .

وقوله تعالى أيضا فى نفس السورة (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصرارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير . الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون (٢) .

وقد جادلوا فى سيدنا ابراهيم كما جادل فيه اليهود أيضا : (يا اهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . . إلى قوله تعالى (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما (٣) .

وقد كشف الله سبحانه عما تكنه صدور بعضهم للمؤمنين من كراهية وحسد (ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤) .

وقوله تعالى : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كِفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥) .

وقوله تعالى : (وقالوا كونوا هودا أو نصرارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . . إلى قوله (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم (٦) .

وقوله تعالى : (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) وقوله : (فسيكفيكم الله) يدل على شدة الخصومة التى وقعت بين النبى عليه الصلاة والسلام وأهل الكتاب فى مطلع العهد المدنى . ويدل على السياسة الربانية الحكيمة التى رسمها الله لرسوله وللمؤمنين ، بالعمو والصفح عن أهل الكتاب والتوكل عليه وحده فى الرد عليهم ومقاومتهم ولم يأمرهم بقتال أو غيره . وقد احتوت سورة آل عمران تقريرا عن انحرافات عقيدة النصرارى ، وشقاقهم ونزاعهم وجدالهم مع النبى عليه الصلاة والسلام .

وقد روى ابن اسحق (٧) : خبر قدوم وفد نصرارى نجران فى ستين رابكا على المدينة . وقال رسول الله للحبران اسلما : قالا : قد اسلما ، قال : إنكما لم تسلما فأسلما ، قالا : بلى قد اسلما قبلك ، قال : كذبتما ، يمنكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير . قالا : فمن أبوه ، فصمت عنهما رسول الله فلم يجيبها ؟ فأنزل الله تعالى فى قولهم ، واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها فقال عز وجل : (ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم) . . فافتتح السورة بتنزيه نفسه عما قالوا . . . إلى قوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى

- | | |
|--------------------------|---------------------------------|
| ١ (البقرة : ١١١ - ١١٢ . | ٥ (البقرة : ١٠٥ . |
| ٢ (البقرة : ١٢٠ - ١٢١ . | ٦ (البقرة : ١٣٥ - ١٣٧ . |
| ٣ (آل عمران : ٦٧ . | ٧ (سيرة ابن هشام : ٥٧٥/٢ تحقيق |
| ٤ (البقرة : ١٠٩ . | الأيبارى . |

الآخرة من الخاسرين (١) .

وفى سورة المائدة تنديد بعقيدتهم وانحرافاتهم (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير) (٢) .

وفى السورة نفسها (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب اليم . . إلى قوله تعالى (قل اتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم) (٣) .

وفى السورة نفسها (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك . . إلى قوله (فلما توقّيتى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) (٤) .

وفى كل ذلك تنديد وإفحام وإنذار للذين يجادلون النبى عليه الصلاة والسلام . .

وفى آخر سور القرآن الكريم نزولا جاء قوله تعالى (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يظاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أجبازهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا الله الها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) (٥) .

وقد وصمهم الله تعالى بالشرك (يظاهئون قول الذين كفروا من قبل) . . وقد بين تعالى للمؤمنين أهداف أهل الكتاب من مجادلتهم للمؤمنين ومرائهم فى الحق ، بأنهم أرادوا ردّ المؤمنين إلى الكفر والضلال حسدا وبغضا وهم فى هذا الهدف سواء بسواء مع المشركين . (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) (٦) . (إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) (٧) (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم) (٨) . (ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) (٩) . (ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) (١٠) (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلّوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) (١١) (كيف وان يظهروا عليكم لا يزيقنوا فيكم إلاّ ولا ذمّة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون اشترؤا بآيات الله ثمنا قليلا فصّدوا عن

- | | |
|--|-------------------------|
| ١ (آل عمران : ١ - ٨٥ . | ٦ (البقرة : ٢١٧ . |
| ٢ (المائدة : ١٧ . | ٧ (آل عمران : ١٠٠ . |
| ٣ (المائدة : ٧٢ - ٧٦ . | ٨ (البقرة : ١٠٩ . |
| ٤ (المائدة : ١١٧/١١٦ . | ٩ (آل عمران : ١٤٩ . |
| ٥ (التوبة : ٣٠ ، ٣١ وانظر أيضا النساء | ١٠ (آل عمران : ٦٩ . |
| ١٧١ - ١٧٣ والمائدة : ٧١ - ٨٠ . | ١١ (النساء : ٤٤ - ٤٥ . |

سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) (١) .

وبعد مراجعة هذه النصوص نجد أن الأهداف النهائية لأهل الكتاب من يهود ونصارى — تكاد تكون بلفظها — هي الأهداف النهائية للمشركين من قتالهم للمسلمين . وقد وردت هذه التقريرات القرآنية بصيغ نهائية تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة ، لا على وصف حالة مؤقتة كقوله تعالى في شأن المشركين (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) . وقوله في شأن أهل الكتاب (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) وقوله (ويريدون أن تضلوا السبيلا) . الخ .

وإذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى تأويل للنصوص أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات ، ولا تصف حالة مؤقتة ولا عارضة . وذلك أننا إذا استثنينا حالات فردية — أو حالات جماعية قليلة — من التي تحدث القرآن عنها وحوادثها الواقعية التاريخية بدت فيه المادة ، للإسلام والمسلمين ، والاعتناق بصدق رسول الله وهذا الدين ثم الدخول فيه والانضمام لجماعة المسلمين . فإننا لا نجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة ، إلا تاريخاً من العداء العنيد ، والكيد الناصب ، والحرب الدائبة ، التي لا تفتقر على مدار التاريخ .

من تلك الحالات الفردية الاستثنائية ما حكته آيات سورة المائدة قصة النجاشي وأساقفته حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب صدرا من سورة مريم كما روى ابن اسحق (٢) الحوار الذي دار بين النجاشي وجعفر : قال : قال النجاشي لجعفر : هل معك شيء مما جاء به (يعنى رسول الله) من عند الله من شيء ؟ فقال جعفر : نعم ، فقال النجاشي : فأقرأه على ، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم) . .

وقد أنزل الله تعالى فيهم (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم مسيحين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . . إلى قوله تعالى (فأتابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) (٣) .

عن ابن عباس نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين تلا عليهم جعفر ابن أبي طالب رضى الله عنه بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم . وقال سعيد بن جبير والسدى وغيرهما نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ليسمعوا كلامه ويروا صفاته فلما راوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا وقال عطاء ورباح هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين ، وقال قتادة هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم فلما راوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا .

وأختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء أكانوا من الحبشة أو غيرها) (٤) .

فهذه الآيات تصور حالة وتقرر حكما في هذه الحالة ، تصور حالة فريق من اتباع عيسى عليه السلام الذين قالوا : (إنا نصارى) وتقرر أنهم (أقرب مودة للذين آمنوا) فهوؤلاء الذين زعموا أنهم نصارى فيهم مودة للإسلام وأهله ذلك لما

١ (التوبة : ٨ — ١٠ .

٢ (سيرة ابن هشام : ٣٢٦/١ .

٣ (المائدة : ٨٢ — ٨٥ .

٤ (تفسير ابن كثير : ٨٥/١ .

فى قلوبهم من الرقة والرأفة اذ كانوا على دين المسيح . . كما قال تعالى (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) . ولهذا قال تعالى (ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا) تضمن وصفهم بان فيهم العلم والعبادة والتواضع ثم وصفهم بالانقياد للحق والانصاف (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) أى مما عندهم من البشارة ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام (١) .

فهذا مشهد حى يرتسم من التصوير القرآنى لهذه الفئة من الناس ، الذين هم اقرب مودة للذين آمنوا . . انهم اذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهترت مشاعرهم ، ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثير العميق بالحق الذى سمعوه .

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ، ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذى تأثروا به هذا التأثير عند سماع القرآن ، انهم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً ايجابياً صريحاً ، موقف إعلان هذا الايمان بلهجة قوية عميقة صريحة (يقولون ربنا آمنا فاكنتنا مع الشاهدين) . . (وما لنا لا نؤمن بالله . عن ابن عباس : (فاكنتنا مع الشاهدين) أى مع محمد عليه الصلاة والسلام وأمته هم الشاهدين الذين يشهدون لقبهم عليه الصلاة والسلام انه قد بلغ وللرسول انهم قد بلغوا (٢) .

وقال الزمخشري (٣) (فاكنتنا مع الشاهدين) أى مع أمة محمد الذين هم شهداء على الناس يوم القيامة ، وقالوا ذلك لانهم وجدوا ذكرهم فى الانجيل (وما لنا الا نؤمن بالله) انكار استبعاد لانتفاء الايمان مع قيام موجب وهو الطمع فى انعام الله عليهم بصحبة الصالحين — وقيل لنا رجعوا إلى قومهم لآموهم فأجابوهم بذلك) . . ولا يقف السياق القرآنى عند هذا الحد فى بيان أمر هؤلاء المؤمنين من النصارى بل يكمل الصورة برسم مصيرهم عند الله ، (فأنابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق . وقد شهد الله تعالى (لهذا الفريق من الناس انهم من المحسنين) وذلك جزاء المحسنين) . أى فى اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان واين كان ومع من كان (٤) .

ولكن السياق القرآنى لا يقف عند هذا الحد فى تحديد ملامح هذا الفريق المقصود من الناس بل انه ليمضى فيميزه من الفريق الشقى من ذلك الوفد الذى سمع القرآن فأنكره وكفر به فقال تعالى (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى جحدوا بها وخالفوها (أولئك أصحاب الجحيم) أى هم أهلها والداخلون فيها (٥) وقد سبّاهم القرآن بالكافرين فضمهم إلى زمرة الكفار والمشركين ، ما داموا فى موقف التكذيب لما أنزل الله على رسوله من الحق وفى موقف الامتناع عن الدخول فى الاسلام الذى لا يقبل الله من الناس ديناً غيره (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) .

وخلاصة القول : إن هذه الآية ميّزت بين فريقين من النصارى : فريق قال :

٤ (تفسير ابن كثير : ٨٦/١)

٥ (المرجع السابق : ٨٧/١)

١ (تفسير ابن كثير : ٨٥/١)

٢ (تفسير ابن كثير : ٨٦/١)

٣ (الكشاف : ٦٣٩/١)

إننا نصارى وصفهم الله بتلك الصفات السابقة حتى آمنوا بالله ورسوله وأدخلهم جناته جزاء تصديقهم .
والفريق الآخر : جحدوا وانكروا وبقوا على دينهم فوصفهم الله بالكفر وتوعدهم بأشد العذاب . وقد استطردت قليلا فى تبيان هذه الحقيقة لإزالة كل لبس أو غموض حول فهم هذه الآيات التى يستشهد بها كثير من الناس — دون فهم صحيح لها — على طبيعة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين فيما يتعلق بالجهاد فى سبيل الله .

الصراع الحربى مع النصارى :

لم يكن فى المدينة جالية ذات شأن وكيان يمكن أن يقع بينها وبين المسلمين صدام ، وأن يصدر منهم مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كان شأن اليهود .
أما خارج المدينة فالأمر يختلف حيث كان غالب سكان مشارف الشام نصارى تابعين لنفوذ دولة نصرانية كبرى . وقد ذكرت الروايات أخبار اعتداء بعض قبائل هذه المشارف كقضاة وبنى كلب على قوافل التجار ، وخبر قتل أحد رسل رسول الله فى هذه المنطقة ، وأخبار سرايا جهادية مثل سرية ذات الإطلاح التى قتل أكثر رجالها بيد قبائل العرب ، ومثل سرية دومة الجندل ، ومثل سرية مؤتة المشهورة التى وصلت الى أبواب البلقاء فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة . وكانت البلقاء موطن نفوذ الغساسنة ، ولما وصلوا الى بلدة معان ، بلغهم أن هرقل نزل بمكان يقال له (مآب) فى مائة ألف من الروم ومعه من قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام فى مائة ألف ، يتولى قيادتهم رجل من بلى يقال له مالك بن رافلة . ثم دار القتال بين الفريقين ، فاستشهد قواد المسلمين الثلاثة ، ثم ولى المسلمون عليهم خالد بن الوليد فبذل جهده فى إنقاذ بقية جند المسلمين وعاد بهم إلى المدينة (١) .

وقد بدأت هذه السرايا منذ السنة السادسة على ما يستفاد من تلك الروايات التى ليس بينها خلاف جوهرى ، وهكذا يكون الصدام المسلح بين المسلمين ، وسكان مشارف الشام منذ أوائل النصف الثانى من العهد المدنى واستمر حتى غزوة مؤتة .

وقد رأى رسول الله أن يقضى على الآثار التى خلفتها غزوة مؤتة ويقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أى تهديد من قبل الروم .

فلما تم له فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة وانصرف عائدا إلى المدينة عول على غزو حسدود الشام الجنوبية المتاخمة لأعلى الحجاز ليوطد نفوذه بتلك المنطقة ويدعو أهلها إلى الإسلام ، فبين لانصاره الجهة التى سيفوزونها ليتدبروا أمرهم ويأخذوا أهبتهم . وكان قد بلغه أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وضموا اليهم لخم وجذام وغسان وعاملة (٢) .

وقد أراد النصارى أن يسبقوا المسلمين إلى الحرب ، لأن المسلمين كانوا قد وقعوا فى ضيق وعسر بجذب حصل لهم ، وربما من توالى الحروب عليهم ، فكتب أولئك النصارى إلى ملك الروم . إن هذا الرجل الذى خرج يدعى النبوة

(١) إمتاع الأسباع : ٣٤٧/١ وطبقات ابن سعد : ١٧٥/٣ ، وتاريخ الطبرى : ٤٤٦/١ وطبقات ابن سعد : ٢٢٢/٢ ، وسيرة الرسول : ١٦٤/٢ .
دروزة .
٢ : إمتاع الأسباع : ٢١٨/٣ .

هلك ، وأصابتهم سنون شديدة ، فهلكت أموالهم ، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن . فبلغ النبي عليه الصلاة والسلام تجمعهم لحربه من الأتباط الذين كانوا يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة ، فأراد أن يغزوه قبل أن يغزوه ، وأمر المسلمين بالتجهيز لغزوه .

وكان قلما يخرج في غزوة إلا ورى بغيرها ليعمى الأخبار عن العدو إلا في هذه الغزوة ، فإنه أخبر بمقصده فيها لبعد الشقة ، وكثرة العدو ، فيأخذ الناس عدتهم ويعلموا أنهم قادمون على عدو قوى ، فيوطنوا أنفسهم على حربه ، ولا يهنوا إذا التقوا به (١) .

وقد بعث رسول الله إلى رؤساء العشائر يحثهم على الخروج ويرغبهم في الجهاد (٢) .

كما حض رسول الله على بذل المال في سبيل الله ، فسارعوا إلى تلبية طلبه ، فجاء أبو بكر الصديق بكل ماله ، وجاء عمر بنصف ماله ، وجهاز عثمان ثلث الجيش (٣) ، وكذلك أقبل أهل الغنى من الرجال والنساء على التبرع ببعض أموالهم (٤) .

وكانت حرارة الصيف ومقتذاك شديدة ، والثمار قد طابت ويؤثر الناس البقاء بجوار ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخصوص على الحال من الزمان الذي هم عليه .

فجمع النبي ثلاثين ألفا ، ثم سار بهم في السنة التاسعة من الهجرة حتى وصل إلى تبوك ، وهي موضع بين وادي القرى والشام وسُميت هذه الغزوة باسمه ، فأقام به نحو عشرين ليلة . وكان لبادرته بهذا الجيش أثرها في صرف أولئك النصارى عما كانوا عزموا عليه ، فلم يجد منهم أحدا يحاربه ، ولم يشأ أن يثير حربا عليهم هذه المرة ، شفقتة بالمسلمين فيما كانوا فيه من ضيق وعسر ، وقد جمع الصحابة يستشيرهم في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من بلاد الشام ، فقال له عمر بن الخطاب : إن كنت أمرت بالسير فسر . فقال له : لو كنت أمرت بالسير لم استشر . فقال عمر : يا رسول الله ، إن للروم جموعا كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الاسلام ، وقد دنونا ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرا (٥) . فأخذ براى عمر . ولم يجاوز تبوك إلى ما بعدها . ولم يقع قتال بينه وبين الروم كما كان متوقعا ، بل اكتفى بتوطيد سلطانه السياسى على شمال الحجاز ، وقد تم ذلك بأن وجه رسالة إلى أحد الأمراء المقيمين على الحدود الشمالية ويدعى يوحنا بن رؤبة — صاحب أيلة — يطلب اليه فيها أن يعلن إسلامه أو يؤدى اليه الجزية (٦) فأقبل إليه هذا الأمير ومعه أهل جرباء وأنرح وبعض أهل الشام واليمن فصالحهم وغرض عليهم الجزية وكتب كتبا ليوحنا ولأهل جرباء ، ولأهل أنرح ولأهل مقنا وكانوا يهودا (٧) .

- ١ (السياسية الاسلامية في عهد النبوة : ١٨٦ . عبد المتعال الصميدى .
٢ (تاريخ اليعقوبى : ٥١/٣ .
٣ (الانوار المحمدية من المواهب اللدنية : ٥٢٦ ، ٥٢٧ .
٤ (امتاع الاسماع : ٤٤٦/١ - ٤٤٧ .
٥ (سيرة ابن هشام : ٥١٦/١ ، تحقيق
الابيارى وامتاع الاسماع : ٤٣٦/١ .
٦ (طبقات ابن سعد : ٤٢/٢ .
٧ (سيرة ابن هشام : ٥٢٥/٢ ، ٥٢٦
وطبقات ابن سعد : ٥٥/٢ ، ٥٦ .
٨ (امتاع الاسماع : ٤٦٨/١ ، ٤٦٩ .

كذلك رأى الرسول عليه الصلاة والسلام اثناء اقامته بتبوك ان يبعث خالد ابن الوليد الى دومة الجندل على رأس حملة خشية خروج ملكها اكيدر بن عبد الملك ومعاونة جيوش الروم اذا ما أتت من ناحيته ، وتحققا لسياسته التي ترمى الى بسط سلطانه على شمال الحجاز ، أمر رسول الله خالد بن الوليد بأن يأتي بأكيدر حيا ونهاه عن قتله . ثم إن خالدا قدم بأكيدر على رسول الله فحقت دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع إلى قريته وكتب له رسول الله كتاب صلح حين أجاب إلى الاسلام (١) .

وعلى كل حال فقد كانت غزوة تبوك معركة ذات غرض استراتيجي ، وقد وصل اليه النبي عليه الصلاة والسلام دون قتال . فقد أمنت للمسلمين حدودهم الشمالية ، وجعلت أمراء اطراف بلاد الشام حلفاء لهم ، وأوضحت للقبايل العربية التي لا تزال على الشرك ، أن دولة الروم قد خافت قوة المسلمين ، فبدأوا يفدون إلى المدينة ويدخلون في دين الله أفواجا وعلى هذا القياس الاستراتيجي وحده ، يجب أن تقدر غزوة تبوك (٢) .

وقد نزلت سورة التوبة في ظروف غزوة تبوك ، وشجعت آياتها على قتال النصارى الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ، وتفصح نواياهم الخبيثة بأنهم يريدون أن يطفنوا نور الله بأفواههم ، وأن احبارهم ورهبانهم يصدون عن سبيل الله ويأكلون أموال الناس بالباطل .

ونزلت الآيات التالية تمهيدا للغزوة ، وتوضيحا للأسباب الموجبة لقتالهم ، حتى لا يبقى في نفوس المجاهدين أى تردد ، أو تهييب في قتال أهل الكتاب . (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهنون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون . اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفنوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) (٣) .

هذه الآيات هي أول الآيات في الأمر بقتال أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون . . .) بعد أن تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا واستقامت جزيرة العرب ، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى (٤) .

وقد جاءت هذه الآيات بعد الحملة الشديدة على المشركين وتحديد العلاقات

- | | |
|--|------------------------------|
| ١ (طبقات ابن سعد : ٥٤/٢ ، ٥٥ وفتوح البلدان : ٧٢ - ٧٣ وامتناع الاسماع ٤٤٦/١ - ٤٦٧ وقيام الدولة العربية الاسلامية ١٦١ الدكتور جمال سرور . | ٢ (محمد القائد : ٩٥ . |
| | ٣ (التوبة : ٢٩ - ٣٤ . |
| | ٤ (تفسير ابن كثير : ٢٤٧/٢ . |

النهائية معهم والأمر بقتالهم حتى يسلموا ، والتحذير من مؤامرتهم أو أن تأخذ المؤمنين بهم شفقة أو رحمة في دين الله . وقد أخذت هذه الحملة حيزا كبيرا من آيات هذه السورة بدأت من أول السورة حتى الآية الثامنة والعشرين .. وإذا كان الانطلاق لمجاهدة المشركين قد اقتضى كل هذه الحملة وأمرهم ظاهر ، فقد كان الانطلاق لمجاهدة أهل الكتاب في حاجة إلى حملة أشد وأعمق . تستهدف أول ما تستهدف إلى تعريتهم من حقيقة الإيمان حتى لا يُحجم المؤمنون عن قتالهم ، وتظهرهم على حقيقتهم الواقعية . مشركين كالمشركين .. كفارا كالكفار ، محاربين لدين الله الحق كأمثالهم من المشركين والكفار ، ضلالا يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . في مثل هذه النصوص القاطعة الحاسمة الصريحة فقد بدأت الحملة عليهم بهذا الأمر الصارم : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ...)

هذا بالإضافة إلى التقريرات القرآنية الحاسمة في السور المكية والمدنية على السواء عن حقيقة ما انتهى إليه أمر أهل الكتاب من الشرك والكفر والخروج عن دين الله الذي جاءهم به أنبيأؤهم من قبل ، فضلا عن جحودهم الرسالية المحمدية . (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين) (١) .

وقد أزاح الله تعالى الستار عن حقيقتهم ، حتى لا تحول دون مقاتلتهم كالمشركين . قال الأوسى (٢) : وأمرهم سبحانه بقتال أهل الكتاب إثر أمرهم بقتال المشركين ، والتعبير عنهم بالموصول للائذان بانضمامهم في سلك المشركين . وأن إيمانهم الذي يزعمونه ليس بشيء) .

وقال ابن كثير (٣) : فهم لما كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيها هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقاتلهم ذلك إلى الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه ، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله . بل لحظوظهم وأهوائهم فلماذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وخاتمهم وأفضلهم) .

وقال القرطبي (٤) : أمر الله تعالى بمقاتلة جميع الكفار لإجماعهم على هذا الوصف ، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم ، ولكونهم عاملين بالتوحيد والرسل والثرائع والمثل وخصوصا محمد عليه الصلاة والسلام وملكته وأمه ، فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة . فقال تعالى (قاتلوا) ذلك أمر بالعقوبة ، ثم قال (الذين لا يؤمنون) وذلك بيان للذنب الذي أوجب العقوبة وقوله (ولا باليوم الآخر) تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد . ثم قال (ولا يُحرمون ما حرم الله) زيادة للذنب في مخالفة الأعمال (ولا يدينون دين الحق) ، إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأئنة) .
وقوله (ولا يُحرمون ما حرم الله) فهم لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم ،

٣ (تفسير ابن كثير : ٢٤٧/٢)

١ (المائدة : ٦٨)

٤ (تفسير القرطبي : ١٠٠/١٠)

٢ (روح المعاني : ٧٨/١٠)

ومجموع الأميين سبب لقتالهم (١) (ولا يدينون دين الحق) وهذا سبب آخر من أسباب قتالهم . عن قتادة فهم لا يدينون بدين من الأديان التي أنزل سبحانه على أنبيائه وشرعها لعباده (٢) .

وقوله تعالى (من الذين أوتوا الكتاب) تأكيد للحجة ، لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل (٣) .

وقد أكدت الآيات التالية شركهم وتوافقهم مع المشركين فى معتقداتهم ، كما اتفقوا فى أهدافهم من قتال المسلمين (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصرارى المسيح ابن الله) . فقد صرحت الآيات أنهم مشركون مقيمون على الشرك ، وبينت أسباب وقوعهم فيه وإقامتهم عليه وفى ذلك إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتالهم (٤) كما أغراهم بقتال المشركين الذين قالوا الملائكة بنات الله (٥) .

ثم يزيد تعالى فى تشجيعهم على قتال هؤلاء الكفرة المشركين بكشف ما يبيتونه للمسلمين ، وما تتطوى عليه نفوسهم (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) . فهم يسعون للقضاء على الاسلام والمسلمين بكل الوسائل وهم فى ذلك يلتقون مع أخوانهم المشركين فى نفس الهدف .

ثم يهتف الله سبحانه هذا الهتاف بالمؤمنين مبينا لهم حقيقة الرهبان والأخبار حتى لا يخذعوا بظاهرهم ويترددوا فى قتالهم : (ياأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ..) .

فقد وصفهم الله تعالى بأخس صفتين من صفات المشركين (فهم يأكلون أموال الناس بالباطل) . (ويصدون عن سبيل الله) وكتلتها مما موجب لقتالهم وتطهير الأرض من شرورهم وفسادهم . قال ابن كثير (٦) : وفى الآية تحذير من علماء السوء هؤلاء والتشبه بهم فى أقوالهم وأفعالهم) .

وعلى هذه التقارير وهذه الأوصاف المحددة الصريحة الكاشفة لحقيقة ما عليه أهل الكتاب قرر سبحانه الأحكام النهائية التى تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ..) حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . هذا هو الحكم النهائى إما الاسلام أو الجزية أو القتال ..

وقد كانت هذه الأوصاف الواردة فى هذه الآيات التى مهدت لغزوة تبوك قائمة بالروم وعمالهم من نصرارى العرب ، ولم تذكر الآيات أنها شروط لقتال أهل الكتاب ، وإنما ذكّرت على أمور واقعة فى عقيدة هؤلاء الأقوام وواقعهم ، وأنها مبررات ودوافع للأمر بقتالهم ومثلهم فى هذا الحكم كل من تكون عقيدته كعقيدتهم وواقعه كواقعهم .

والشرط الذى يشترطه هذا الحكم النهائى للكف عن قتالهم ليس ان يسلموا فلا إكراه فى الدين ، ولكن أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فما حكمة هذا الشرط ولماذا كانت هذه هى الغاية التى ينتهى عندها قتالهم ؟

٤ (تفسير ابن كثير : ٢٤٨/٢ .

٥ (الكشاف : ١٨٥/٢ .

٦ (تفسير ابن كثير : ٣٥٠/٢ .

١ (روح المعانى : ٧٨/١٠ .

٢ (الرجوع السابق : ٧٨/١٠ والكشاف : .

١٨٤/١ .

٣ (تفسير القرطبي : ١٠٠/١٠ .

إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله اعتقادا وسلوكا ، كما أنهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج الله ومنهج الجاهلية المتمثلة في عقيدتهم وواقعهم . وفق ما تصوره هذه الآيات . كما أن الواقع التاريخي قد أثبت حقيقة هذا التعارض والتصادم ، وعن إمكان التعايش بين المنهجين ، وذلك بوقوف أهل الكتاب في وجه دين الله ، وإعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآيات وخلال الفترة اللاحقة لها إلى يومنا هذا .

فإذن الوسيلة العملية لضمان الأمن والسلام للمسلمين أن يُقاتلوا هؤلاء حتى يكسروا شوكتهم ويعلموا استسلامهم وعدم مقاومتهم وقتالهم للمسلمين بإعطاء الجزية كدليل على هذا الاستسلام . وبعد هذا العلاج الشافي لما كان يعتلج في نفوس المجاهدين من مقاتلة أهل الكتاب ، عالجت هذه السورة ظروف هذه الغزوة كلها . وكانت عناية الله بالمؤمنين ورعايته لهم فائقة من ساعة الإعداد للغزوة وفي الطريق إليها وحين إعادتهم إلى ديارهم سالمين موفورين .

وقد ذكرت ما روته الروايات التاريخية من أن هذه الغزوة كانت في سنة مجدية وفي عسرة من الزاد والماء إذ كانت في وقت الصيف . قال قتادة : خرجوا إلى الشام في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ، فأصابهم فيها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان الثمرة بينهما وكان النفر يتداولون الثمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها الماء ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها الماء . وروى أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : حدثنا عن شأن العسرة . فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيط شديد ، فنزلنا منزلا ، وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع وحتى أن الرجل لينحر بعيه فيعتصر فرثه فيشربه ، ثم يجعل ما بقي على كبده) .

فقد كانت العسرة حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر يعتقب العسرة على بغير واحد ، وفي عسرة من الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة (١) .

وقد سميت إحدى آيات سورة التوبة هذه الغزوة (بساعة العسرة) في قوله تعالى : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة (٢) . وسميت الغزوة بغزوة العسرة (٣) . وأشارت بعض الآيات أنها كانت في القيط والحر (وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون (٤) . وأشارت بعضها إلى بُعد الشقة وصعوبة السفر (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة (٥) .

وقد حكمت هذه الآيات صورة رائعة لنفر من فقراء المسلمين عجزوا عن تجهيز أنفسهم فجاءوا رسول الله يسألونه أن يحملهم على ما عنده من فضل الركائب ، ولم يكن عند رسول الله ما يحملهم عليه ، فجعل يصرفهم ويقول لهم : (لا أجد ما أحملكم عليه) فتولوا وعيونهم تفيض من الدمع ، حزنا على ما فاتهم من شرف الجهاد ، بسبب فقرهم وعجزهم عن تجهيز أنفسهم . وعرف هؤلاء النفر

١ (تفسير ابن كثير : ٢٩٦/٢ والكشاف : ٣) صحيح البخاري : ٨٨/٥ .

٢١٨/٢ وتفسير القرطبي : ٤ (التوبة : ٨١ .

٥ (التوبة : ٤٢ .

٢ (التوبة : ١١٧ .

بالبكائين . قال تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من حساب والله غفور رحيم ، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً إلا يجدوا ما ينفقون (١) .

قال ابن اسحق (٢) : (إن رجلاً من المسلمين أتوا رسول الله وهم البكاؤون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف ، استحملوا رسول الله ، وكانوا أهل حاجة ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع .

ولقد لقي رجل من المسلمين اثنين منهما وهم يبكيان ، فقال : ما يبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله ليحملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه ، فأعطاها ناضحاً له ، فارتحلها ، وزودها شيئاً من تمر ، فخرجنا مع رسول الله) .

ومن هنا نتبين كم قاسى رسول الله والمسلمون فى غزوة العسرة ، فقد جمعت بين بعد الشقة وثدة الحر ، وجهد الحال وشح المؤونة وقلة الظهر ، فكانت عسرة فى المال ، وعسرة فى النفقة ، وعسرة فى الظهر) .

ولهذا أخذت الآيات تستنهض هم المسلمين ، وتستثير نخوتهم ، وترغبهم فى الجهاد ، وتتوعد المتخلفين بالعذاب الاليم (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض . أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضره شيئاً ، والله على كل شىء قدير . . إلى قوله تعالى : (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون (٣) .

وقوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (٤)) وقد أثنى الله تعالى على المجاهدين المنفقين أموالهم فى سبيل الله من الأعراب (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول إلا أنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم (٥) . ثم قال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم (٦) .

وقوله تعالى مثجعاً على الانساق والخروج للغزوة (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون (٧) .

وقبلها جاء قوله : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يظنون موطناً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل

- | | |
|---------------------------------|--------------------|
| ١ (التوبة : ٩١ ، ٩٢ . | ٤ (التوبة : ١١١ . |
| ٢ (سيرة ابن هشام : ٥١٨/٢ تحقيق | ٥ (التوبة : ٩٩ . |
| الابيارى . | ٦ (التوبة : ١٠٠ . |
| ٣ (التوبة : ٣٨ - ٤١ . | ٧ (التوبة : ١٢١ . |

صالح إن الله لا يضيع أجر الحسنين (١) .
وقال ابن كثير (٢) : ما ازداد قوم في سبيل الله بعدا من أهليهم إلا ازدادوا قربا من الله .

ويبدو أن إقبال المؤمنين المخلصين على الجهاد كان شديدا للغاية ، حتى اقتضت حكمة التشريع أن يخبرهم تبارك وتعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كه فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (٣)) .

ويبدو أن ذلك كان نتيجة للحملات الشديدة على المشركين ، وذلك أن هذه السورة نزلت في ثلاث مراحل ، ما قبل الغزوة وفي أثنائها وبعد العودة منها . فقد نزلت مجموعة كبيرة من الآيات في كشف المترددين ، وأهانت طلاب الذعة والراحة الذين آثروا القعود في بيوتهم على حر الصحراء ، ووعثاء السفر ، والآيات التي أنزلها الله على رسوله في شأن هذه الغزوة ، هي أطول ما نزل في قتال بين المسلمين وخصومهم . وانها أشد ما نزل من القرآن في شأن المتخلفين ، مع أن هذه الغزوة لم يقع فيها قتال ، ولم يلاق المسلمون فيها عدوهم ، ويبدو أن الأمر في شأن الجهاد ليس أمر قتال يقع أو لا يقع ، إنما هو أمر واجب على المسلمين في حماية أمتهم من كل عدو يريد أن ينال منهم ، سواء أكان بالفعل أم بالنية (٤) .

وتكاد تكون الغزوة حديثا متصلا عن المنافقين على ما سنفضله في الفصل القادم . وقد حكي سبحانه وتعالى ما فعله المخلفون منهم عند عودة رسول الله من تلك الغزوة وأنهم رغبوا عن الجهاد تكذيبا وشكا .

وبعد ذلك شرعت الآيات تبين حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقتهم بالحق (٥) . قال تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وإن الله هو التواب الرحيم » (٦) .

فقوله تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » أي أقرروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ولهم أعمال أخرى صالحة خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه ..

وقال ابن عباس : هم جماعة من أصحاب رسول الله تخلفوا عنه في غزوة تبوك فلما رجع رسول الله من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ويرضى عنهم . فقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزوة مع المسلمين . فأنزل الله هذه الآية . فلما نزلت أرسل إليهم فأطلقهم وعذرهم . فلما أطلقوا قالوا يا رسول الله ، هذه أموالنا التي خلفتنا عنك ، فنصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا . فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا . فأنزل الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة .. » فأخذ ثلث أموالهم وكانت

٤ (صور من حياة الرسول : ٥٦٨ .

١ (التوبة : ١٢٠ .

٥ (تفسير ابن كثير : ٢٨٥/٢ .

٢ (تفسير ابن كثير : ٤٠٠/٢ .

٦ (التوبة : ١٠٢ - ١٠٤ .

٣ (التوبة : ١٢٢ .

كفارة الذنوب التي أصابوها (١) .

وقال تعالى في شأن ثلاثة آخرين من المؤمنين تخلفوا عن هذه الغزوة « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم » (٢) . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد (٣) : نزلت هذه الآية في الثلاثة الذين تيب عليهم ، وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ، ومرارة ابن الربيع وكانوا قد تعدوا عن غزوة تبوك في جملة من تعد كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكا ولا نفاقا ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما ذكرنا وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة فنزلت توبة أولئك قبل توبة هؤلاء وأرجىء هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآيات التالية : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (٤) . قال كعب بن مالك رضى الله عنه (أحد الثلاثة) : فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله يومئذ أن لا أكون كذبتة فاهلك كما هلك الذين كذبوه . قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قيلَ منهم رسول الله حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال عز وجل « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو وإنما عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه (٥) .

وقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية بأحسن الوجوه وأبسطها (٦) . فقد ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكره وهجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها « حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم .. » فضاقت الأرض على سعتها وسدّت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون فصبروا لأمر الله واستكانوا وثبتوا حتى فرّج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله في تخلفهم وأنه كان من غير عذر فمعتبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم (٧) .

ولهذا قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » . قال كعب بن مالك (٨) : حين تخلف عن قصة تبوك فوالله ما أعلم أحداً أبلاه الله في صدق الحديث مما أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومى هذا كذباً » .

- | | |
|---|------------------------------|
| ١ (تفسير ابن كثير : ٢٨٥/٢ وتفسير القرطبي : ٢٤٤/٨ . | ٢٧٨/٨ - ٢٨٠ وابن كثير : |
| ٢ (التوبة : ١٠٦ . | ٢٩٦/٢ - ٢٩٩ والزمخشري : |
| ٣ (تفسير ابن كثير : ٢٨٧/٢ . | ٢١٩/٢ - ٢٢٠ وغيرهم . |
| ٤ (التوبة : ١١٧ - ١١٩ . | ٦ (تفسير ابن كثير : ٢٩٩/٢ . |
| ٥ (صحيح البخارى : ٨٨/٦ - ٨٩ وقد روى قصته كاملة كما رواها القرطبي : | ٧ (المرجع السابق : ٢٩٩/٢ . |
| | ٨ (صحيح البخارى : ٨٩/٦ . |

وبهذه الغزوة تمّت كلمة ربك فى شبه جزيرة العرب كلها ، وأمن رسول الله كل عادية عليها . فما كاد النبى عليه الصلاة والسلام ليستقر بعد أن عاد إلى المدينة من هذه الغزوة حتى بدأ كل من أقام على شركه من أهل شبه الجزيرة يفكر فى أمر انتصار المسلمين بانسحاب الروم وخوفهم من مواجهة جيش رسول الله . فلقد ترك هذا الانسحاب فى نفوس القبائل العربية أثرا عميقا ، وترك فى نفوس قبائل الجنوب باليمن وحضرموت وعمان أثرا أشد عمقا . ولتكن السنة العاشرة من الهجرة اذن سنة الوفود ، وليدخل الناس فى دين الله أفواجا . وليكن لغزوة تبوك ولانسحاب الروم امام المسلمين من الأثر أكثر مما كان لفتح مكة ولانتصار حنين وحصار الطائف (1) .

الفصل الرابع

مجاهدة المنافقين

يقودنا الحديث عن موقف الآيات الجهادية من خصوم المسلمين إلى ما صنع القرآن في حديثه عن النفاق والمنافقين ، فقد انتهج أقصى ما انتهج مع أهل الكفر الصراح . . ليس لأن الكافرين بدعوة القرآن أحب إليه ممن نافقوا ، ولكن لأن الكفر يعتبر من الوجهة الاجتماعية عنادا سافرا وعداء مكشوفنا . أما النفاق فعداء ملفوف وضمن كامن ، فيه ما في الكفر الصراح من قبح ، وفيه فوق ذلك مكر يبيتونه ، وشباك ينصبونها وراء ذلك الود البراق ومن السهل على المرء أن يتحاشى عدوا سافرا أكثر مما يتحاشى عدوا كامنا (١) .

وقال علماء اللغة إنما سُمي المنافق منافقا لظهاره غير ما يضمهر ، تشبيها له باليربوع له جحر يقال له : النافقاء ، وآخر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخترق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب ، فإذا رابه ريب رفع ذلك التراب برأسه فخرج ، فظاهر جحره تراب ، وباطنه جحر ، وكذلك المنافق ظاهره إيمان ، وباطنه كفر (٢) .

ولكن الزرقاني لا يرى ذلك ويقول إن النفاق اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وهو فعل المنافق الذي يستر كفره ويقيه بالإسلام كما يستر الرجل (بالنفاق) فإن قيل إن النفاق اشتق من هذا ، وقيل من نفاق اليربوع إذا دخل في قاصعائه وخرج من نافقائه وأنه بالعكس فإن لجحر اليربوع النافقاء والقاصعاء والرهطاء والداماء (٣) .

وعلى كل حال فالظاهر أن الكلمة إسلامية بحتة وأن أول من تكلم بها القرآن الكريم بمفهوم واضح يفهمه العربي بسليقته بمجرد سماعه (٤) . وقال الحسن البصري (٥) : إنه اختلاف السريرة والعلانية ، واختلاف القول والعمل ، والمدخل والمخرج .

وقال ابن كثير (٦) : « النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر . وقال ابن جريح : المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه » .

ومهما يكن من شيء فالنفاق هو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب ، وعلى ذلك نبه تعالى بقوله « إن المنافقين هم الفاسقون » أي الخارجون من الشرع ، وجعل الله المنافقين شرا من الكافرين فقال : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » (٧) .

والناس لا يعرفون في تاريخ التصادم بين الحق والباطل — وهو فيما بينهم قديم قدم الشهوات والأهواء وتنازع الرغبات — عنصرا يستر من

- ١ (مجلة الأزهر : ١٣٦٦ ص ٦٠٢ .
- ٢ (تناظر الخبيرات : ٣٦٦ لابي طاهر
- ٣ (شرح الواهب : ٢٨٦/١ للزرقاني .
- ٤ (النفاق والمنافقون : ٢ .
- ٥ (تناظر الخبيرات : ٣٦٦ .
- ٦ (تفسير ابن كثير : ٤٧/١ .
- ٧ (النساء : ١٤٥ .

الحق جلالة وإن عظمت مادته ، ويصنع للباطل زبدة وإن وهنت قوته ، أقوى ولا أشد من عنصر النفاق ، يتصل بالصفوف فيمزقها ، وبالقلوب فيفسدها ، وبالعزائم مُبْضعفها ، ويلقى بظله الكثيف أمام المؤمنين المخلصين ، فيعوقهم عن التقدم والظفر (١) .

وحركة النفاق تعتبر من أهم الأحداث والحركات المميزة للعهد المدني ، ومن أخطرهما ولا أدل على خطورة النفاق والمنافقين أكثر من ذلك الحيز الكبير الذي شغله الحديث عنهم إذ بلغ عشر القرآن الكريم تقريبا ، ونزول سورة بكاملها فيهم سميت باسمهم .

وعلة ظهور هذه الحركة في المدينة واضحة . فالنبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم فتمتلقهم وتزلف إليهم وتظاهر أنها منهم وعلى دينهم ، وتكون في الوقت نفسه غير مؤمنة ولا مخلصه وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء كما كان شأن المنافقين في المدينة . . ولقد كان أهل مكة وزعماءهم بخاصة ينارئون النبي جهارا ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى والاضطهاد ويقاومون الدعوة بكل وسيلة ودون تحرز أو تحفظ وكانت القوة لهم حتى أضطر المسلمون إلى الهجرة فرارا بدينهم ودمهم إلى الحبشة أولا ، ثم إلى المدينة ثانيا (٢) .

ومن ناحية أخرى فالذين دخلوا في الإسلام آمنوا عن رغبة وعقيدة صلبة تحملوا في سبيلها كل صنوف الأذى والعذاب ، فلا وجود للنفاق في قلوبهم وللمنافقين في صفوفهم .

أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفا جدا ، فالنبي عليه الصلاة والسلام استطاع قبل الهجرة إليها أن يكسب انتصارا أقوياء من الأوس والخزرج . ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ولم يبق بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام (٣) . ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين يؤمنوا به إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد موقف الجحود والعداء العلني .

وقد روت كتب السيرة والتاريخ أن الأوس والخزرج قد سئموا القتال وأرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي ملكا عليهم قبل بيعة العقبة الكبرى . فلما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون إلى المدينة وفسخ الإسلام في كل بيت من بيوت الأنصار تقريبا ، اضطرب عبد الله ابن أبي بادية الأمر إزاء إسلام الغالبية من قومه وعشيرته أن يدخل الحلف - الذي عقده رسول الله لأهل المدينة - باتيا على شركه . وأن يتظاهر بالود والمناصرة داخل شروط الحلف . بيد أن أتونا من الحقد كان يتلظى في أعماق نفسه . فهذا التاج الذي كانت تتلألا خرزاته أمام عينيه في يقظته ومناحه ، وهذا السلطان الذي كان يمني نفسه به ليصل إلى الملوك من آل غسان والمنافرة وكندة واليمن ذهب جفاء ، فطار عقله من أجله شعاعا ، والتاعت نفسه عليه أشد الوعة وخيّل إليه أنه واسع الحيلة قادر أن ينتهز الفرصة إذا سنحت أو يخلقها إذا لم تسنح فيقضي على من اعتقد أنهم حرموه التاج والسلطة . على أنه لم يجد لديه للوصول إلى بغيته إلا أحد الطريقتين :

١ (من توجيهات الإسلام : ٢٢٥ للشيخ الرسول : ١٧٦/٢ للاستاذ : محمد

درزة .

محمود شلتوت .

٢ (تاريخ الجنس العربي : ١٤٢/٦ وسيرة (٣) سيرة ابن هشام : ٤٢٦/٢ - ٤٢٨ .

أحدهما : أن يجمع شتات الذين لم يدخلوا فى الإسلام من الأوس والخزرج ويضم إليهم يهود المدينة من بنى تينقاع وبنى قريظة وبنى النضير والقبائل المحيطة بالمدينة .

والثانى : أن يستعين بالنعرة القبلية ليوثد نار الفتنة بين المسلمين أو بينهم وبين القبائل الأخرى .

وقد وجد ابن أبى من اليهود آذانا مصفية وعقولا مدبرة ، وأقدا ما راسخة فى النفاق فالإهم يرجع الفضل الأكبر فى ظهور النفاق والمنافقين فى المدينة وانتشاره فيها . وأن يلقنوا ابن أبى وغيره من المنافقين النفاق تلقينا ويعلموه لهم تعليما بوسائلهم الخاصة التى هم سادتها . ونجحوا أن يشبعوا غرور عبد الله بن أبى فى أن يصبح ملكا على ثلاثمائة منافق ، كانت لهم أعمال ومكائد خطيرة أبرزها ما كان فى الغزوات ووقت الشدة . فقد حكى القرآن مواقفهم الخبيثة فى كل غزوة . وقد أعطت الآيات الجهادية سجلا تاريخيا حافلا لأعمال المنافقين منذ قدوم النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وحتى غزوة تبوك فى السنة التاسعة .

وستنتج فى إيجاز حركتهم مرحلة مرحلة ليتبين لنا موقف القرآن منهم ، فى كل مرحلة وموقفهم من الجهاد وما آل إليه أمرهم أخيرا .
الفترة الأولى : من الهجرة إلى موقعة بدر : نزلت فى هذه الفترة سورة البقرة .

حين قدوم النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة عقد معاهدة بين أهلها ، اعترف بوجود المشركين وأن لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم بشرط (أن لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن) (١) . وبالرغم من هذا فقد نصب المنافقون العداء للمسلمين منذ قدوم النبى ، وتحالفوا مع شياطينهم من يهود المدينة على الكيد والفساد والتآمر على المسلمين ، مع أن نصوص المعاهدة ضمنت لهم الأمن والأطمئنان . قال ابن اسحق (٢) : ونصبت عند ذلك أجبار اليهود لرسول الله العداوة ، بغيا وحسدا وضغنا ، لما خص الله به العرب من أخذ رسول الله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسى (٣) على جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام ، واتخذوه جنة من القتل ، وناقوا فى السر ! وكان هواهم مع اليهود ، لتكذيبهم النبى وجودهم الإسلام) .

والحق إن قول ابن اسحق (اتخذوا إسلامهم جنة من القتل) خطأ ظاهر ، لما ذكرت من شروط المعاهدة التى عقدها رسول الله لأهل المدينة ، ولأنه لا توجد أوامر قرآنية بقتال المنافقين أو قتل من بقى على دينه . ولكن

١ (سيرة ابن هشام : ٥٠٣/١ تحقيق
الابيارى .
٢ (سيرة ابن هشام : ٥١٣/١ تحقيق
الابيارى .
٣ (عسى : أى بقى .

الذي اعتقده أنهم اتخذوا إسلامهم وسيلة للتجسس على المسلمين وليكونوا عيوناً وأرصاداً للشياطينهم من اليهود ، ووسيلة لتنفيذ المؤامرات التي يدبرونها في الخفاء مع اليهود . وقد لجأ نفر من اليهود أنفسهم إلى اعتناق الإسلام نفاقاً لأجل الدس والخداع .

ولقد كان المنافقون في هذه الفترة على شيء كبير من القوة والاعتداد والترفع بسبب مآلوقه من تعضيد اليهود وما انعقد بينهم من تضامن وتوافق ، وهذا ما تلمه آيات سورة البقرة أول القرآن المدني نزولاً فقد حملت عليهم حملة عنيفة من الآية السادسة وحتى ختام المائة الأولى منها . وهذا يدل أيضاً على أن حركتهم بدأت منذ وقت مبكر من العهد المدني .

قال تعالى في سورة البقرة (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يُخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون .. إلى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (١) .

قال القرطبي : (٢) لما ذكر الله تعالى المؤمنين أولاً ، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم ، ذكر الكافرين في مقابلتهم ، إذ الكفر والإيمان طرفان . ثم ذكر المنافقين بعدهم والحقهم بالكافرين قبلهم ، لنفي الإيمان عنهم بقوله تعالى : (وما هم بمؤمنين) .

وقد أجمع علماء (٣) المسلمين على أن المنافقين أشد خطراً على الإسلام من الكفار ، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله لأنهم قد مؤهوا الكفر وخلطوا بها خداعاً واستهزاء ولذلك طول تعالى في بيان خبثهم إذ اقتصر تعالى في وصف الكفار المصزين على الكفر على آيتين وأطنب في وصف المنافقين في ثلاث عشرة آية . ولهذا توعدهم الله المنافقين بما لم يتوعد به الكافرين من عذاب ونكال (ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) فالعذاب الأليم أشد هولاً ونكالا من العذاب العظيم الذي توعدهم الكافرين في الآية السابقة لها : (ولهم عذاب عظيم) .

وفي سورة النساء : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (٤) تحت عنوان (المنافقون كفار) . وقد نطق القرآن بكفر المنافقين في غير موضع وجعلهم أسوأ حالاً من الكافرين ، وأنهم في الدرك الأسفل من النار) .

وقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) أي يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر كما قال تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) (٥) إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط ولهذا يؤكدون الشهادة بأن ولام التأكيد في خبرها . وهم في هذه الآية قد أكدوا أمرهم

١ (البقرة : ٨ - ١٦ .
 ٢ (تفسير القرطبي : ١٩٣/١ .
 ٣ (جامع التاويل لحكم التنزيل : ٣٥/١ (الصارم المسلول : ٣٦ .
 ٤ (المنافقون : ١ .
 ٥ (المنافقون : ١ .
 للاصفهانى المتوفى سنة ٣٢٢ ،
 والتفسير القرآنى للقرآن ١٣/١ عبد

وقالوا آمنا بالله وباليوم الآخر فكذبهم الله بقوله : (وما هم بمؤمنين) .
 (يخادعون الله والذين آمنوا) دل هذا على أنهم لا يعرفون حقيقته ،
 فهم يعتقدون بجهلهم أنهم باظهارهم الايمان مع إسرارهم الكفر يخدعون
 الله ، وأن ذلك نافعهم عنده وأنه يروج عليه سبحانه كما يروج على بعض
 المؤمنين ومثله قوله تعالى : (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون
 لكم ويحسبون أنهم على شيء إلا أنهم هم الكاذبون) ولهذا قابلهم على اعتقادهم
 ذلك بقوله : (وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) ومثله قوله : (إن
 المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) .

وقد أخبر الله تعالى عباده المؤمنين أن المنافقين باساعتهم إلى أنفسهم
 في إسقاطهم عليها بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين ، ولكنهم
 على عى من أمرهم مقيمين (١) (وما يشعرون) . وهذه أول صفة من صفاتهم
 اللاصقة بهم أن الخداع لاصق بهم لا يعدوهم إلى غيرهم ولا يتخطاهم إلى
 سواهم (٢) .

وقد وصفتهم هذه الآيات بالفساد والإنسداد (وإذا قيل لهم لا تفسدوا
 فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)
 أى لا تفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاته أهله وتفريق الناس عن الايمان
 بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها)
 فقد كانت الأرض قبل أن يبعث النبى عليه الصلاة والسلام يفعل فيها الفساد
 والمعاصى ، فلما بعث ارتفع الفساد وصلحت الأرض ، فنهاهم عن عملهم
 وإفسادهم (٣) .

وقال الزمخشري : وكان فساد المنافقين فى الأرض أنهم كانوا يمالئون
 الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم وإغرائهم عليهم ، فلما كان
 صنيعهم مؤديا إلى الفساد قيل لهم لا تفسدوا . ولما تبجحوا فى الرد قالوا :
 (إنما نحن مصلحون) ففضح الله باطلهم الخبيث ، وما انطوى عليه من سوء
 نية ، فكذبهم بهذا الحكم القاطع المؤكد أوثق التوكيد بجملة أدوات . إلا
 الاستفتاحية ، وإن المؤكدة وهم (ضمير الفصل) وآل المعرفة للخبر ، بما
 يدل على قصر الفساد عليهم وحدهم (٤) .

وقال ابن عباس (٥) : (قالوا إنما نحن مصلحون) أى نريد أن نُدارى
 الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطرح مع هؤلاء وهؤلاء ، ونريد الإصلاح
 بين الفريقين من المؤمنين ، وأهل الكتاب ، فبين لهم تعالى أن هذا الذى يزعمونه
 أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادا) .
 وقال القرطبي (٦) : إنهم كانوا يعملون الفساد سرا ويظهرون الصلاح
 وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبى عليه الصلاة والسلام) .

وعلى أية حال فالآية تشير إلى خطورتهم وفسادهم الكبير وتأمرهم مع
 اليهود منذ وقت مبكر . وتبدو لنا قوتهم وعنجهيتهم وترفعهم واضحة فى
 هذه الفترة بوصفهم المؤمنين المتفانين فى طاعة النبى (بالسفهاء) : (وإذا قيل

١ (تفسير ابن كثير : ٤٨/١ وتفسير ٤) التفسير القرآنى للقرآن : ٢٣/١ .
 ٢ (الكشاف : ١٧٤/١ .
 ٣ (تفسير القرطبي : ٢٠٢/١ .
 ٤ (تفسير ابن كثير : ٥٠/١ .
 ٥ (تفسير القرطبي : ٢٠٤/١ .

لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أتؤمن كما آمن السفهاء الا إنهم هم السفهاء
ولكن لا يعلمون) .

وعن ابن عباس رضى اله عنه ان هذه الآية نزلت فى عبد الله بن أبى
وأصحابه ، ذلك أنهم خرجوا يوما فاستقبلهم نفر من أصحاب النبى عليه الصلاة
والسلام ، فقال عبد الله بن أبى : أنظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ؟ فذهب
وأخذ بيد أبى بكر فقال : مرحبا بالصدىق سيد بنى تيم ، وشيخ الاسلام ، وثانى
رسول الله فى القار ، الباذل نفسه وماله ، ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحبا بسيد
بنى عدى بن كعب ، الفاروق القوى فى دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول
الله ، ثم أخذ بيد على فقال : مرحبا بابن عم رسول الله وختنه ، سيد بنى هاشم
ما خلا رسول الله ، ثم افترقوا . فقال عبد الله لأصحابه : كيف رأيتمونى فعلت ؟
فأثنوا عليه خيرا ، فقال : فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت ، فرجع المسلمون
إلى رسول الله وأخبروه بذلك ، فأنزل الله هذه الآية (١) .

وإن صح هذا السبب فهو على سبيل التدرىب من عبد الله بن أبى — ملك
النفاق والمنافقين — لأصحابه على النفاق والسخرية والاستهزاء بالمسلمين .
قال القرطبى : وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء
واستهزاء فاطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك ، وقرر ان السفه ورقة الحلوم
وفساد البصائر إنما هى فى حيزهم وصفة لهم (٢) فقد أكد سبحانه وحصر
السفاهة فيهم (٣) .

ويبدو أنهم كانوا يستهزئون بالمؤمنين منهم إرضاء لحلفائهم من اليهود
الذين كانوا يديرونهم على ذلك ويفرونهم عليه إغراء (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا
آمننا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله
يستهزىء بهم ويدهم فى طغيانهم يعمهون) (٤) .

فإذا ما انتهوا من سخريتهم واستهزائهم بالمؤمنين طاروا إلى شياطينهم من
اليهود وحدثوهم بها مؤكدين لهم الولاء والحب ، والاستخفاف بالمؤمنين
والسخرية بهم . فتوعدهم الله تعالى على صنيعهم هذا شرا وقال (الله
يستهزىء بهم) .

وقال الزمخشري (٥) : وهذا استئناف فى غاية الجزالة والفخامة ، وفيه
ان الله عز وجل هو الذى يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذى ليس استهزاء
إليه باستهزاء ولا يؤبه له فى مقابلته لما نزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان
والذل ، وفيه ان الله سبحانه هو الذى يفولى الاستهزاء بهم انتقاما للمؤمنين
ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله (٦) .

وفى الآية الاشارة إلى ان المؤمنين غير مأذونين برد السخرية والاستهزاء
فى هذه المرحلة ، وعليهم الصبر والصفح وتوكيل الأمر كله لله .

وقد وصف الله تعالى صنيعهم هذا بالضلال والخسران المبين (أولئك
الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) . فقد
استبدلوا واختاروا الكفر على الايمان . وأخذوا الضلالة وتركوا الهدى
واستحبوا العمى على النور .

قال ابن عباس (٧) : فما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة وما كانوا راشدين
فى صنيعهم ذلك .. وقال قتادة : (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قد

١ (أسباب النزول : ١٣ للواحدى والكشاف ٥ (تفسير الزمخشري : ١٨٧/١)

٦ (الكشاف ١٨٧/١)

١٨٤/١

٧ (تفسير ابن كثير ٥٢/١ وتفسيري

٢ (تفسير القرطبي : ٢٠٥/١)

القرطبي ٢١٠/١)

٣ (تفسير ابن كثير : ٥٠/١)

والله رأيتوهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة .

وقد عقب الله تعالى على صفات المنافقين هذه بمثلين يدلان على حيرتهم واضطرابهم وقلقهم وما يترتب على ذلك من صفات حقيرة نذلة (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون) (١) .

فهذا هو المثل الأول فى استبدالهم الضلالة بالهدى واستحبابهم الفسى على الرشد .

وعن السدى أنهم بايمانهم اكتسبوا نورا ثم بنفاقهم ثانيا ابطلوا ذلك فوقعوا فى حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين . وتقدير هذا التمثيل أن الله سبحانه شبههم فى اشتراكتهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينما هو كذلك إذ أطفئت ناره وصار فى ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى (٢) .

وقال قتادة (٣) : فهم صم عن استماع الحق ، بكم عن التكلم به ، عمى عن الإبصار له ، فلهذا لا يرجعون إلى الحق ، وقال الزمخشري (٤) : وصف تعالى وقوع المنافقين فى ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بمن يكابد من أطفئت ناره بعد إيقادها فى ظلمة الليل . وكذلك من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق . ولذلك قال تعالى : (فهم لا يرجعون) أى أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه ، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها ، تسجيلا عليهم بالطبع ، أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين فى مكانهم لا يبرحون ولا يدرون أين يفتقدون أم يتأخرون) .

ثم ثنى الله تعالى فى شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف وإيضاح غيب إيضاح فقال تعالى : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) (٥) .

قال ابن كثير (٦) : هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وترددهم كمطر نزل من السماء فى حال ظلمات وهى الشكوك والكفر والنفاق ورعد يزعج القلوب من الخوف فان من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع . (يحسبون كل صيحة عليهم) وقال : (ويحلفون بالله أنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) ، وقوله : (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون) .

قال الزمخشري (٧) : وهذا التمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وبما يدرون ، إذا

٥ (البقرة : ١٩ ، ٢٠ .

٦ (تفسير ابن كثير ١/٥٤ .

٧ (الكشاف ١/٢١٩ .

١ (البقرة : ١٧ ، ١٨ .

٢ (تفسير ابن كثير ١/٥٣ .

٣ (تفسير القرطبي ١/٢١٥ .

٤ (الكشاف : ١/٢١٢ ، ٢٠٧ .

صادفوا من البرق وخفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهبوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة ، فإذا خفى وفتّر لعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة ، ولو شاء الله لزاد في قصيف الرعد فأصمهم أو فى ضوء البرق فأعماهم) .

والتأمل فى هذين المثلين يرى أنهما يجسدان فى صورة حية جميع صفات المنافقين وأحوالهم وتفصيل أمورهم فى السلم والحرب . وتظل هذه الصورة ملازمة لهم وتلاحقهم حتى فى الدار الآخرة (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراعكم فالتمسوا نورا ... الى قوله « وماؤاكم النار هى مولاكم وبئس المصير » (١) .

ويلفت النظر هذا التعقيب من الله تعالى على المثلين (إن الله على كل شىء قدير) فإنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شىء فى هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وخطوته وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير (٢) ، وفى ذلك ما فيه من التهديد والوعيد لهم لعلهم يرجعون عن غيهم وضلالهم .

واكتفت هذه السلسلة القوية من آيات سورة البقرة بابرار صفات المنافقين وتصوير نفسياتهم ومكونات ضمائرهم حتى يكون المؤمنون على بينة من أمرهم ومعرفة بأقوالهم وأفعالهم ، فلا يخدعهم ما يظهرونه لهم من معسول القول . وفى الوقت نفسه فى الآيات توبيخ وتعمير للمنافقين عسى أن يرتدعوا بالتشنيع عليهم وينتهوا بتقبيح صورة حالهم وتفضيحه بالتمثيل بهم وبطريقتهم فتلين قلوبهم وتنقاد نفوسهم وتركوا بوطنهم وتضحل رذائلهم (٣) .

وقد حكى سورة البقرة صورة أخرى للمنافقين قوية الملامح للناس الذين يستثيرون الإعجاب بأقوالهم المنمقة وأيمانهم المفلظة ويظهرون الود ويبطنون العداوة والشر والفساد قال تعالى : (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) (٤) .

قال السدى (٥) : نزلت فى الأحنس بن شريق الثقفى ، أقبل على النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، فأظهر له الإسلام وأعجب النبى عليه الصلاة والسلام ذلك منه وقال : إنما جئت أريد الإسلام ، والله يعلم إنى لصادق ، وذلك قوله — (يشهد الله على ما فى قلبه) ثم خرج من عند رسول الله ، فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر ، فأحرق الزرع ، وعقر الحمر فأنزل الله تعالى قوله (وإذا سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) .

ومن أمثال الأحنس بن شريق ، عبد الله بن أبى الذى صدرت منه أقوال مؤذبة لرسول الله فى هذه الفترة إذ قال له مرة : (يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا فأجلس فى بيتك فمن جاعك له فحده إياه ، ومن لم

١ (الحديد ١٣ - ١٥ .
٢ (تفسير ابن كثير ٥٦/١ .
٣ (روح البيان : ٣٥/١ اسماعيل حتى .
٤ (البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦ .
٥ (أسباب النزول : ٣٩ للواحدى وتفسير القرطبى : ١٤/٣ .

يأتك لا تفتته به ، ولا تأتته فى مجلسه بما يكره منه (١) .

وكاد عبد الله بن أبى يشعل نار الفتنة بين المسلمين بسبب كلمة سوء انطلقت من قلبه الملتهب حقدا على رسول الله . فعن أنس رضى الله عنه أنه قيل لرسول الله لو أتيت عبد الله بن أبى متألفا له ليكون ذلك سببا لاسلامه ومن تخلف من قومه فانطلق النبى وركب حمارا ، وانطلق المسلمون يمشون بين يديه ، فلما أتاه النبى قال : (إليك عنى فوالله لقد آذانى نتن حمارك) . فقال رجل من الأنصار : لحمار رسول الله أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، وكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدي والنعال . فانزل الله تعالى فيهم (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تفتى حتى تفتى إلى أمر الله فإن فاعت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) (٢) .

وقال ابن اسحق (٣) : وكان المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ، ويسخرون ويستهزئون بدينهم ، فاجتمع يوما فى المسجد منهم ناس ، فرآهم رسول الله يتحدثون بينهم ، خافضى أصواتهم ، وقد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله فأخرجوا من المسجد أخرجاً عنيفا) . وكان تحويل القبلة من أوائل الإبتلاء الذى امتحن الله به القلوب وكشف به سرائر المنافقين واليهود ومن على شاكلتهم ، فأظهر المنافقون نفاقهم على أثر ذلك ، وقالوا : (ما بال محمد يحولنا مرة ها هنا ومرة ها هنا) (٤) وقصدوا من ذلك الطعن والاستهزاء . وزعموا أن التردد بين الجهات وتمييز بعضها عن بعض ليس له دليل معقول وأنه ضرب من العبث والتشهى (٥) .

وقد شارك المنافقون واليهود والمشركون فى هذه الأقوال . ولهذا وصفهم القرآن جميعا (بالسفه) تلك الصفة المشتركة بينهم والتى تتضمن خفة العقل والطيش مع الحق والعناد والواقع أنهم كانوا يسيرون فى عنادهم للاسلام فى خطوط متوازية كانت تتلاقى فى مثل هذه المناسبات من ميادين السفه أو الحفيظة أو المكابرة ، بل كثيرا ما تالقت فى بؤر المؤتمرات والكيد والحروب لأن هدفهم جميعا واحد ، وهو القضاء على الاسلام والمسلمين (٦) .

قال تعالى (سيقول السفهاء من الناس ما ولأهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) (٧) . ويتضح لنا جليا من آيات سورة البقرة التى وصفت المنافقين وحكت أقوالهم وأفعالهم وتآمرهم مع اليهود والمشركين أنهم كانوا لا يخافون القتل ، ولا يخشون بأس النبى عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا معه ، وإنما كانوا يؤذون النبى بالقول القبيح ، ويسعون فى الأرض فسادا .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يطاولهم ويصبر عليهم ويتفرق بهم ، ولكنه

- | | |
|---------------------------------|-------------------------------------|
| ١ (سيرة ابن هشام : ٥٨٧/١ ، ٥٨٨ | ٢ (الحجرات : ٩ ، ١٠ . |
| تحقيق الإبارى والسقا . وأسباب | ٣ (سيرة ابن هشام : ٥٢٨/١ . |
| النزول للواحدى : ٢٦٣ وصحيح | ٤ (تفسير الطبرى : ٨/٢ . |
| البخارى وصحيح مسلم والسيرة | ٥ (غرائب القرآن : ٦/٢ النيسابورى ، |
| الحلبية : ٦٨/٢ وتفسير ابن كثير | ٦ (النفاق والمنافقون : ٩٠ . |
| ٢١١/٤ . | ٧ (البقرة : ١٤٢ . |

كان يذم النفاق والمنافقين من غير تصريح بأسمائهم كما رسمت له آيات سورة البقرة الخطة التي يجب أن ينتهجها معهم كاملة . فالسورة وصفت المنافقين وذمت النفاق دون تصريح باسم (المنافقين) .

وقال الأستاذ دروزة (١) : (إن النبي عليه الصلاة والسلام قد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك للنبي أمر تقدير ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) : (كان النبي عليه الصلاة والسلام يسمع من الكفار والمنافقين في أول الإسلام أذى كثيرا ، وكان يصبر عليه امتثالا لقوله تعالى : (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم (٣) لأن إقامة الحدود عليهم كان يفضى إلى فتنة عظيمة ومفسدة أعظم من مفسدة الصبر على كلماتهم) .

وقال القرطبي(٤) : (إنما لم يقتلهم مصلحة لتأليف القلوب عليه لئلا تنفر عنه ، وكان يعطى للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألفا ، وهذا هو قول علمائنا وغيرهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك .

فكان عليه الصلاة والسلام يعاملهم في هذه الفترة بسعة صدر وحلم وصبر ، لما كان بينهم وبين المؤمنين المخلصين من روابط القربى والرحم . وكان خلاف هذه الخطة قد يفتح في صفوف المسلمين ثغرات واسعة . ويثير أزمات داخلية حادة لا سيما أنه كان مطمئن القلب بوعد الله بالنصر النهائي ، وإظهار دينه على الدين كله (٥) .

الفترة الثانية : من غزوة بدر إلى صلح الحديبية .

كانت هذه الفترة كسابقتها فيما بين المسلمين والمنافقين ، فاستمر المنافقون على الكيد والدس للمسلمين فيما بينهم . واستمر النبي يفضى عنهم ، وينفذ أوامر ربه في العفو والصفح ، ومطاولتهم مع الحذر منهم ، ومراعاة قراباتهم لأنصاره من الأوس والخزرج .

وكانت لهم مواقف خطيرة في الغزوات في هذه الفترة ، كما عملوا في الدس والوقيعه بين المسلمين والتآمر مع اليهود والمشركين .

ففي غزوة بدر الكبرى شككوا في قدرة المسلمين على ملاقاته عدوهم من المشركين وسخروا من قلة عدد المسلمين وقالوا : (غرّ هؤلاء دينهم) وورطهم في هذه المعركة . وقد حكى الله تعالى مقاتلتهم هذه المثبطة للعزائم والمزعزعة للنفوس (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم (٦)) .

قال ابن كثير(٧) : (لما رأوا قلة أصحاب رسول الله قالوا غرّ هؤلاء دينهم حتى قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم .

وقد كان انتصار المسلمين في بدر ضربة قاصمة للنفاق والمنافقين ، وهزة

- | | |
|--------------------------------------|---------------------------------|
| ١ (سيرة الرسول : ١٨١/٢ دروزة . | كثير : ٤٨/١ ، ٤٩ . |
| ٢ (الصارم السلول : ٢٢٣ . | ٥ (سيرة الرسول : ١٨١/٢ دروزة . |
| ٣ (الأحزاب : ٤٨ . | ٦ (الأنفال : ٤٩ . |
| ٤ (تفسير القرطبي : ١٩٩/١ وتفسير ابن | ٧ (تفسير ابن كثير : ٣١٩/٢ . |

عنيفه زلزلت كيانهم ، وملأت قلوبهم خوفا ورعبا ، وأحسوا بالخطر يتهدهم ويحذق بهم من كل جانب ، فما هو ذا رأس المنافقين (عبد الله بن أبى) وشياطين اليهود يرجفون بهزيمة المسلمين فى بدر ويشيعون قتلهم عن بكرة أبيهم ، حتى امتلأت نفوس المسلمين الذين لم يشاركوا فى الغزوة حزنا وكبدا . وكان ذلك قبل عودة المسلمين من الغزوة . وقد روت كتب السير والمغازى أن رسول الله أرسل عبد الله بن رواحة بشيرا لأهل العالية وزيد بن حارثة بشيرا لأهل السافلة ، وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء . فلما وصلا المدينة وأخذوا يبشران الناس بما فتح الله على المسلمين ، كذبها زعماء المنافقين واليهود . . وقد لجأ رجل من المنافقين إلى اختراع رواية من رأسه لا أصل لها وصار يُرَجَف بها فى المدينة فلقى أبا لبابة رضى الله عنه وقال له : لقد تفرَّق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا فقد قتل محمد وغالب أصحابه وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدرى ما يقول من الرعب . قال أسامة بن زيد رضى الله عنه : (فبلغنى ذلك فجنّت حتى خلوت بأبى وسألته عما يقول الرجل ، وقلت : أحق ما تقول ؟ قال : أى والله إنه لحق ما أقول يا بنى ، فقويت نفسى ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت : أنت المرجف برسول الله لتقدمك إلى رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك) . فقال : إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه (١) .

وقال ابن كثير (٢) : (ولما قدم النبى المدينة بعد أن أظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله) قال عبد الله بن أبى : (هذا أمر قد توجه) . (أى ظهرت له وجهة هو ماض فيها لا يرده عنها راد) فأظهر الدخول فى الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب ومن ثم وجد النفاق فى المدينة ومن حولها من الأعراب) .

وبهذا الانتصار الحاسم اضطرت المنافقون وزعيمهم إلى تغيير سياستهم من العداء الصريح إلى الملاينة والتستر إلا إذا لاحت لهم فرصة مناسبة للتيل من الإسلام والمسلمين . فكان أول عمل يقوم به (ابن أبى) ليغافل عقول المسلمين ويمتلك قلوبهم أن كسا العباس ابن عبد المطلب قميصه حين وقع أسيرا فى موقعة بدر .

وفى سورة الأنفال وهى السورة الثانية حسب ترتيب النزول حملة تنديدية عنيفة على المنافقين وصفتهم بأرذل الصفات وأقبحها ، وحذرت المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بأن يستمعوا إلى الحق ولا يعملوا به (يأبىها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (٣)) .

قال ابن أسحق (٤) : هم المنافقون الذين يظهرون للنبى الطاعة ، ويسرون له المعصية . وقوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) أى المنافقون الذين نهيتكم أن تكونوا مثلهم ، بكم عن الخير ، صم عن الحق ، لا يعرفون ما عليهم فى ذلك من النعمة والتباعة فهم شر الخلق والخليفة لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيها خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكرهوا ولهذا شبههم بالأنعام فى قوله : (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (٥)

٤ (سيرة ابن هشام : ٦٦٩/١)

٥ (تفسير ابن كثير : ٢٩٧/١ والكشاف :

١٥١/١)

١ (النفاق والمنافقون : ٩٩)

٢ (تفسير ابن كثير : ٤٧/١)

٣ (الأنفال : ٢٠ - ٢٣)

(ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم) اى لانفذ لهم قولهم الذى قالوا بالسنتهم ولكن القلوب خالفت ذلك منهم ، ولو خرجوا معكم (لتولوا وهم معرضون) ما وفوا لكم بشيء مما خرجوا عليه (١) . وتولوا عن ذلك تصددا وعنادا بعد فهمهم (٢) .

وتلهم هذه الآيات ان المنافقين كانوا يعتدون بأنفسهم ويبطنون العداوة والبغضاء ويصرون على الكفر والعناد وإن اظهروا الملاينة والمصانعة وشهدوا شهادة الحق بالسنتهم ولما يدخل الايمان فى قلوبهم .

وقد وقف المنافقون إلى جوار حلفائهم وشياطينهم من يهود بنى قينقاع موقفا يدل على ما كانت تنضح به قلوبهم من بغض للمسلمين وما تكنه صدورهم من مودة لليهود والمشركين ذلك أن رسول الله حذر بنى قينقاع من مغبة طغيانهم كما سبق أن ذكرت . فأجابوه بكل جراءة وتبجح وغرور ووقاحة أيضا : (يا محمد لا يفرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لو حاربناك لتعلمن انا نحن القوم) .

ويقول إسرائيل ولفنسون (٣) : (ويظهر من هذا الرد أن بنى قينقاع كانت تعتمد على معاضدة حلفائهم من الخزرج فى نزاعهم مع الرسول قبل كل شيء إذ لا يتصور أن بطنا كبطن بنى قينقاع يجرؤ على إعلان الحرب ضد بطون يثرب ، ولكن بنى الخزرج خذلوهم ولم يتحركوا لنجدتهم رغم أنهم مواليهم) .

والحق أن بنى قينقاع اعتمدوا على صنائعهم من المنافقين ولكن المنافقين غيروا سياستهم بعد انتصار المسلمين فى بدر ، وراوا أن الطريق الأسلم أن يصانعوا المسلمين واليهود والا يجاهروا بالعداوة إلى المسلمين وهى السياسة التى عبرت عنها الآية الكريمة (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون (٤) . يتظاهرون بالاسلام مع المسلمين ويبطنون الكفر مع الكافرين ، وبذلك يمسكون العصا من الوسط ، ويميلون مع الريح حيث تميل .

وقوله تعالى : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (٥) وتمشيا مع هذه السياسة الجديدة للمنافقين لم يقف المنافقون للقتال فى صف اليهود ، بل اكتفى زعيمهم عبد الله بن أبى بن يسترضيهم فيطلب من رسول الله الاحسان فيهم بالأا يقتلهم ويتركهم له . ثم يلح لمرّة الثانية على السماح لهم بالبقاء فى المدينة ولكنه لم يفلح فى المرّة الثانية كما ذكرت . وقد كمال له اليهود النفاق قيراطا بصاع وقالوا (والله لا نقيم فى بلد تشج فيه يا ابن أبى ولا نستطيع عنك دفاعا) .

وقد نزلت فى عبد الله بن أبى وتشبته بولاية اليهود الآيات التالية : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر

- ١ (سيرة ابن هشام : ٦٦٩/١ . ٤ (البقرة : ١٤ .
٢ (وتفسير ابن كثير : ٢٩٧/١ . ٥ (النساء : ١٤٣ .
٣ (تاريخ اليهود : ١٢٩ .

من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين .. ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمدكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) .. إلى قوله : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون (١)) .

وقد كشفت هذه الآيات الكريمة عما يعتلج في نفوس المنافقين من جبن وشك وتردد وتريب فقد هالهم انتصار المسلمين في بدر فأعلنوا الإسلام تقيية القتل وطعنا في المكسب والمغنم ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخشون أن يكون هذا النصر مؤقتا ، يعود بعده المسلمون إلى الضعف والاستكانة ، فلا يكونون قد كسبوا شيئا باسلامهم إلا عداوة جيرانهم من يهود ، و عداوة إخوانهم في الدين من مشركي العرب ، فحذرهم تعالى مما يسرون في أنفسهم بقوله : (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) .

قال الزمخشري (٢) : فعسى الله أن يأتي بالفتح لرسول الله على أعدائه وإظهار المسلمين فيقطع شأفة اليهود ويجليهم عن بلادهم ، فيصبح المنافقون نادمين على ما حدثوا به أنفسهم ، وذلك أنهم كانوا يشكون في أمر رسول الله . فقد كانوا يقولون : ما نظن أن يكون له الأمر ، وبالحرى أن تكون الدولة والغلبة لهؤلاء) .

وفي الآيات أيضا نهى صريح عن موالة اليهود ، وتهديد للمخالفين بالخسران والندم (فيصبحوا على ما أسروا نادمين) بفضح أمرهم وكشف سترهم ، وخسران أعمالهم في الدنيا والآخرة إن استمروا على موالاتهم لليهود ..

وبعد سورة الأنفال تجيء سورة آل عمران حسب ترتيب النزول . وقد تناولت هذه السورة أحداث غزوة (أحد) سردا وتعقيا ، واحتوت اشارات عديدة إلى أقوال المنافقين الخبيثة وأعمالهم المخذلة المزلة للصف المسلم ، حتى كادوا يردون أكثر من نصف الجيش عن القتال .

قال ابن اسحق (٣) : خرج رسول الله في ألف من أصحابه حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، انخذل عنه عبد الله بن أبي بلثه الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، وما ندري علام تقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب . واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة ، يقول : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبئكم عندما حضر عدوهم فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أن يكون قتال . قال : فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم ، قال : أبعدم الله أعداء الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه) .

وقد أحدثت هذه الفعلة الشنيعة خلخلة عظيمة في بناء الجيش ، وزلزلة شديدة في صفوف المسلمين ، حتى لقد همت طائفتان من المسلمين أن تفعل كما فعل ابن أبي وأصحابه ، ولكن الله عصمهما وثبت أقدامهما وعادا إلى السير في صفوف المسلمين .

وقد أنزل الله في توتلة رأس المنافقين وعمله : (وما أصابكم يوم التقى

٢ (سيرة ابن هشام : ٦٤/٢ .

١ (المائدة : ٥١ - ٥٥ .

٢ (الكتاب : ٦٢٠/٢ .

الجمعان فبأذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو اذفعا قاتلوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله اعلم بما يكتمون (١) .

فالآيتان تصوير دقيق لما دار من حوار بين عبد الله بن حرام ورأس المنافقين عبد الله بن أبى . (وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو اذفعا) تسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا كما يقاتل المؤمنون للأخرة وبين أن يقاتلوا دفعا عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم . فأبوا القتال لنفاقهم ودغلهم وقالوا (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) تلك هى مقالة عبد الله بن أبى المثبطة للعزائم وهو يعنى بها أن ما أنتم فيه خطأ رأيكم وزللکم عن الصواب ليس بشيء لا يقال لمثله قتال إنما هو لقاء بالانفس الى التهلكة .

وقد كانوا بقولهم وعملهم هذا أقرب نصرة لأهل الكفر منهم لأهل الايمان ، لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخدال تقوية للمشركين . وقد كشف الله سبحانه ما كانوا يتظاهرون به من إيمان كاذب وهم للكفر أقرب منهم للايمان) .

وصور نفاقهم تصويرا دقيقا (يقولون بأفواههم) ذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم وأن إيمانهم لا يتجاوز مخارج الحروف منهم ولا تعى قلوبهم منه شيئا . . فيتوجه إليهم رب العزة بالتهديد والوعيد بأخراج ما كانوا يكتمون من النفاق وبما يجرى بينهم من ذم المؤمنين وتجهيلهم وتخطئة رأيهم والشماتة بهم (والله اعلم بما يكتمون) يعلم علم إحاطة بتفاصيله وكيفياته (٢) .

ثم يصور سبحانه ما أحدثته تلك الفعلة الخبيثة الماكرة من هزة نفسية فى قلوب المجاهدين (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٣) .

وكانت موقعة أحد من المواقع التى كشفت عن المنافقين وفضحت كثيرا من مكائدهم ونواياهم . وقد ذكر الله تعالى ذلك (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فأمنوا بالله ورسوله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم (٤)) .

ولقد كان المنافقون مختلطين بالمسلمين اختلاطا شديدا فى شتى القبائل وكان نفاقهم خافيا عن المسلمين ، وكانت الصلة بين المنافقين واليهود تجرى فى خفاء وتكتم ، وكان لهم مكر وتدبير وخبث ، فاقترضت حكمة الله وسنته فى خلقه أن يعلم المسلمون أكثر أمورهم بالاختبار والكسب ، لا بالاطلاع على الغيب وخفايا النفوس ومكنونات الصدور ، ولهذا كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ، ومحق به المنافقين ، فانكشفوا وأظهروا ما أظفروه من القول والفعل ، وعرف المسلمون أن لهم أعداء فى دورهم يقيمون بين ظهرانيهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم .

ولم يظهر شأن واضح جماعى للمنافقين قبل يوم أحد سوى ما أحدثه عبد الله بن أبى عند إخراج يهود بنى قينقاع من المدينة ، لكن كان على كل حال

(٢) آل عمران : ١٢٢

(١) آل عمران : ١٦٦ - ١٦٧ .

(٤) آل عمران : ١٧٩ .

(٢) الكشاف : ٤٧٨/٢ .

ظهورا فرديا من ابن أبى ، أما موقعة أحد فقد ظهر فيها من المنافقين أمران : أولهما : أنه اجتمع مع ابن أبى وتحت زعامته عدد كبير من المنافقين ناهز الثلاثمائة تميزوا إذ ذلك بانضوائهم فى كتيبة تحت زعامته ثم تخلفهم معه عن القتال عندما أمرهم بذلك . والثانى : أنه اجتمع مع ابن أبى وتحت زعامته أيضا عدد كبير من اليهود ناهز الستمائة رفض الرسول اشتراكهم فى الجيش ، مما يدل بجلاء أن تنظيميا واتحادا كان قد أنشئ سرا بين المنافقين واليهود . وأن هذا التنظيم كان يدبر كيدا خبيثا ومؤامرة ضد المسلمين . وقد كانت خطوات المنافقين واليهود ومناوراتهم بزعامه ابن أبى مثلا للخديعة والمكر السئ ، وكانت جديرة بادخال الفشل فى ذلك الوقت الحرج الذى بدأت فيه الموقعة لولا أن عصم الله المسلمين وانخذل المنافقون بعد طرد اليهود ، وتطهر الجيش أو كاد من تلك الجيوب الخبيثة (١) .

وبعد انخذال ابن أبى بثلك الجيش سار النبى عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا معه إلى المعركة وقد سلخوا فى مال لربيع بن قبيطى ، وكان رجلا منافقا ضير البصر ، فلما سمع حس رسول الله ومن معه من المسلمين قام يحثو فى وجوههم التراب ، ويقول : إن كنت رسول الله فانى لا أحل لك أن تدخل حائطى وأخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال رسول الله : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب ، أعمى البصر (٢) .

وما أن التقى الجمعان يوم أحد حتى خرج من بين صفوف قريش (أبو عامر الفاسق) أحد رؤوس المنافقين من الأوس كان قد خرج إلى مكة مباعدا لرسول الله ، ومعه خمسون غلاما من الأوس ، وقيل خمسة عشر رجلا ، وكان يعد قريشا أن لو قد لقى قومه لم يتخلف عليه منهم رجلان ، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق — وكان أبو عامر يسمى فى الجاهلية : الراهب ، فسماه رسول الله ، الفاسق — فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومى بعمدى شر ، ثم قاتلهم قتالا شديدا ، ثم راضخهم بالحجارة (٣) .

ولقد انتصر المسلمون فى الجولة الأولى من المعركة انتصارا كبيرا ولكنه لم يكن نهائيا ، ثم دارت الدائرة عليهم فى الجولة الثانية لما خالف الرماة أمر رسول الله وتركوا أماكنهم على الجبل ، فانتهاز المشركون هذه الفرصة وقاموا بحركة التفاف نشأ عنها قتل كثير من المسلمين وحرموا ثمرة النصر . واضطرب الناس اضطرابا شديدا لهول المفاجأة ، فانتهاز المنافقون الذين بقوا فى صفوف المسلمين ولم يرجعوا مع عبد الله بن أبى هذه الفرصة ، وأطلقوا سهام القيل والقال والإرجاف والمفتريات الكاذبة المزوجة بالشتمات ، ولعل أشد ما وصل إليه الإرجاف ما أشيع فى العسكر من قتل رسول الله ، أشاع ذلك مشرك خبيث من قريش كان يدعى (ابن قمئة) فهب بعض المنافقين يقول : (لو كان نبيا ما قتل ،

١ (التفاق والمنافقون : ١١٠ ، ١١١ . ٢ (المرجع السابق : ٦٧/٢ .

٢ (سيرة ابن هشام : ٦٥/٢ .

فارجعوا إلى دينكم الأول) . وقال بعضهم (ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي ليستأمن لنا من أبي سفيان ، يا قوم إن محمدا قد قُتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فإنهم يدخلون البيوت (١)) .

وأنزل الله سبحانه في هذا الشأن ردا على المنافقين وتعليقا للمؤمنين :
(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين (٢))
ونقل زيني دحلان عن الحافظ ابن حجر أن المؤمنين عندما أُشيع قتل الرسول صاروا ثلاث فرق : فرقة استمروا في الهزيمة إلى قرب المدينة ، فما رجعوا حتى انفض القتال ، وهم قليل وهم الذين نزل فيهم قول الله تعالى (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حلِيم (٣)) .

وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبي عليه الصلاة والسلام قد قُتل فصارت غاية الواحد منهم أن يذب عن نفسه أو يستمر على بصيرته في القتال إلى أن يقتل ، وهم أكثر الصحابة ، وفرقة ثبتت مع النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم تراجعت الفرقة الثانية شيئا فشيئا لما عرفوا أن رسول الله حي (٤) .

والصنف الثاني من المنافقين الذين استمروا في صفوف المسلمين الذي دلت عليه النصوص القرآنية ظهر حين عادت صفوف المسلمين إلى نظامها وأنزل الله النعاس على المسلمين أمنة منه ونعمة حتى نام أكثرهم ، ولم يغش هذا النعاس المنافقين ، فعرفوا وتميزوا عن سائر المسلمين .. إذ يقول الله تعالى (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحس ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور (٥)) .

روى البخارى (٦) عن أبي طلحة رضى الله عنهما قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا يسقط وأخذه ، ويسقط فأخذه . وعن الزبير بن العوام رضى الله عنه : لقد رأيتني مع رسول الله حين اشتد علينا الخوف فأرسل الله علينا النوم ، وإنى والله لأسمع كالحلم قول متعب ابن قشير والنعاس يغشاني : لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا فحفظتها فأُنزل الله تعالى في ذلك قوله : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة) .

وروى أيضا عن كعب بن عمرو الأنصارى رضى الله عنه قال : لقد رأيتني يومئذ في أربعة عشر رجلا من قومي إلى جنب رسول الله ، وقد أصابنا النعاس

- | | |
|-----------------------------------|--|
| ١ (السيرة الحلبية : ٢٤٠/٢ وامتاع | ٤ (السيرة النبوية والآثار المحمدية / أحمد |
| الاسماع : ١٥٨/١٥٧ ، والزرقانى : | زيني دحلان : ٣٨/٢ وشرح الزرقانى |
| ٢٣/٢ . | على المواهب : ٣٣/٢ وسيرة ابن كثير |
| ٢ (آل عمران : ١٤٤ . | ٤٦/٣ والسيرة الحلبية : ٢٥٢/٢ . |
| ٣ (آل عمران : ١٥٥ . | ٥ (آل عمران : ١٥٤ . |
| | ٦ (صحيح البخارى : ١٢٧/٥ . |

أمنة ، ما منهم رجل الا يغط غطيظا حتى ان الحجف لتناطح ، وقد رأيت سيف
بشر بن البراء بن معرور سقط من يده وما يشعر (١) .

وقوله تعالى : (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) هم المنافقون (٢) ما بهم إلا هم
أنفسهم لا هم الدين وهم الرسول والمسلمين ويظنون ظن الجاهلية) فقد ظنوا
انها النهاية والساعة الفاصلة للإسلام والمسلمين . وقد انتهر الشيطان هذه
الفرصة ، فجعل يوسوس في القلوب الواهنة ويستزل النفوس الضعيفة حتى
قال بعض المنافقين : (غلامٌ تقتل أنفسنا إذا كان محمداً قد قتل) .

فهذه هي الطائفة المنافقة التي ظنت بالله ظن الجاهلية ، ولا يظن مثل هذا
الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) فيكشف
سرهم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . فهم يقولون للرسول فيما
يظهر هل لنا من الأمر شيء سؤال المؤمنين المسترشدين وهم فيما يبطنون على
النفاق (يقولون في أنفسهم) أو بعضهم لبعض منكروين لقولك لهم : إن الأمر كله
لله (لو كان لنا من الأمر شيء) أي لو كان الأمر كما يقول محمد : إن الأمر كله
لله ولأوليائه وأنهم لعالمون لما غلبنا قط ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه
المعركة (٣) .

وهكذا كان النعاس مميذا نزل على صادقى الإيمان أمنة من الله تعالى
فاستعادوا قوتهم ونشاطهم ولكنه لم يصب أهل النفاق والشك يومئذ لما امتلأت
به قلوبهم من القلق والاضطراب نتيجة النفاق والشك . ثم فاح نتن ذلك من
أفواههم فتكلموا بما في أنفسهم . ولا غرابة في ذلك فالنعاس في الحرب علامة
الإيمان والثقة ، وهو في الصلاة من الشيطان ضعف النفس (٣) . وقد شمت
المنافقون أيما شماتة ، بما أصاب المسلمين لكثرة القتلى وقتل حمزة بن عبد
المطلب رضى الله عنه ، ثم شتموا أكثر من ذلك لما أصاب الرسول نفسه من الأذى
والجراح حيث شج وجهه وكسرت رباعيته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في
وجنته وصاروا يتذفون أتبع القول وأسوأه وجدوا في التفريق عن رسول الله ،
وفي تحزين المسلمين على مسمات من شهدائهم وبالغوا في اللوم والتكبر عليهم ،
ويقولون لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل ، متظاهرين بأنهم كانوا أحزم وأحكم
حين رجعوا من الطريق ولم يحضروا القتال ، وان المسلمين لو أطاعوهم فرجعوا
كما رجعوا ما أصابهم الذى أصابهم (٥) .

وقد أنزل الله تعالى بيانا يكشف ما يكنه المنافقون من حقد وبغض للمسلمين
ويفضح أهدافهم ويكشف عن نواياهم الخبيثة من وراء ترديد تلك الأقوال المحزنة
للمؤمنين . (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا
في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك
حسرة في قلوبهم ، والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم في
سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم

- ١ (السيرة النبوية لابن كثير : ٤٤/٣) ٣ (نفس المرجع السابق : ٤٧٢/١)
والسيرة الحلبية : ٢٤٠/٢ الحجف : ٤ (النفاق والمنافقون : ١٢٤)
وهي القرص من الجلد . ٥ (صور من حياة الرسول : ٣٧٩)
٢ (الكشف : ٤٧٢/١)

إلى الله تحشرون (١) .

أما عبد الله بن أبي فقد اضطرب عليه الأمر ، وتدافعت في قلبه اشتات النزعات من غرور وكبرياء ، وضمن مستعر ، زادته الحوادث شدة وشماتة يحاول إخفاءها فيفور ننتها من جوفه وزاد في بلائه أن ابنه وغلظة كبده كان يؤمن بدعوة الاسلام إيمانا صادقا ، وكان والده يود أن يجد فيه عضده المتين وساعده القوي ليعتمد عليه في تدبير وتنفيذ رغباته . وقد أصيب الابن في الموقعة ، واثبتته الجراح ، فرأى أبوه أن يوبخه لعله يرجع عما يراه غيا ، وذلك أن رآه جريحا قد بات يكوى جراحه بالنار فقال له : (ما كان خروجك معي إلى هذا الوجه برأى ، عصاني محمد وأطاع الوالدان ، والله لكأنى كنت أنظر إلى هذا) فيرد عليه ابنه مُسفاها رأيه في أدب جميل حيث يقول (الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير (٢)) .

وهنا شعر ابن أبي أن مركزه قد انكشف بانخذه من الجيش ، وأن قریشا قد انصرفت إلى مكة وعادت الأمور إلى مجاريها ولم يتغير مركز القوة المنعة التي للرسول وللمؤمنين بالمدينة كثيرا . فحاول أن يستعيد مركزه وزعامته القبلية وخاصة أمام المسلمين فلم يُبعد كثيرا عن الصفاة ، وذلك أنه كان له مقام يقومه في صلاة الجمعة ، أقام نفسه فيه فلم ينكره عليه أحد ، تأليفا لقلبه ، ودرءا لشره وذلك بأن يقدم رسول الله إلى الناس عند خطبة الجمعة ، يقصد بذلك أن يذكر الناس ويعلنهم بشرفه في قومه وراثسته عليهم ، ويدخل الوهم على ذوى النفوس الضعيفة حتى لا ينسوا تلك الزعامة والرئاسة ، فإذا جلس رسول الله على المنبر ليخطب قام ابن أبي فقال : (ياأيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله تعالى وأعزكم ، فانصروه وعززوه واسمعوا له وأطيعوا) ثم يجلس . ولم تمنعه صفاقته أن يعاود ذلك عقب موقعة أحد ، وقام يفعل كما كان يفعل ، ولكن المسلمين لم ينسوا له ما صنع وعودته بالناس والأقوال التي صدرت عنه ، فأخذوا بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس عدو الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت) . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول :

(والله لكأنما قلت بجرا ان قمت أشدد امره)

فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال له : (مالك ويك ، قال : قمت أشدد امره فوثب على رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بجرا ان قمت أشدد امره قال : ويك ارجع ليستغفر لك الرسول . قال : والله ما ابتغى أن يستغفر لى (٣) ..

وقد صبر رسول الله على أقوال المنافقين وأفعالهم الخبيثة امتثالا لأوامر الله بمطاولتهم في هذه المرحلة . وقد ضاقت صدور بعض الصحابة بالمنافقين ، حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استأذن رسول الله في قتلهم هم واليهود ، فقال عليه الصلاة والسلام : (يا عمر ، إن الله مظهر دينه ومعز نبيه واليهود ذمة

٣ (السيرة الحلبية : ٢٧٠/٢ ، والسيرة

النبوية : ٧٢/٢ لدحلان وسيرة ابن

هشام : ١٠٥/٢ والتفقي والمنافقون

١٤٤

١ (آل عمران : ١٥٦ - ١٥٨ .

٢ (السيرة الحلبية : ٢٧٠/٢ والسيرة

النبوية : ٧٢/٢ لدحلان والتفقي

والمنافقون : ١٤٣ .

فلا اقتلهم) . قال : فهؤلاء المنافقون ؟ قال : (ليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال : بلى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف ، فقد بان لنا أمرهم وأبدى الله أضعافهم عند هذه النكبة . فقال صلى الله عليه وسلم : (نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا ابن الخطاب ، إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا حتى تستلم الركن (١)) وهكذا كان رسول الله لا يحيد عن الخطة التي رسمها الله له فى معاملة أعدائه قيد أنملة . وكان واتقاكم الثقة بنصر الله وتأييده وإظهار دينه .

غزوة بنى النضير : علم عبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين قبول بنى النضير الجلاء تنفيذاً لآذار رسول الله اليهم ، فعز عليه أن يتصالح أعداء المسلمين يوماً بعد يوم ، فأرسل عدو الله ورهط من المنافقين إلى بنى النضير : أن أثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، أن قوتلتهم قاتلتنا معكم ، وأن أخرجتم خرجنا معكم (٢) . وأرسل اليهم عدو الله أيضاً : (لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم فان معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون فى حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل اليكم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من من غطفان (٣) .

وما كادت هذه الرسائل تصل الى مسامع زعيم اليهود حبي بن أخطب حتى داخله الغرور والاعجاب ، فأرسل الى رسول الله : (انا لن نخرج من ديارنا فافعل ما بدا لك) .

وحاصرهم رسول الله حتى تم له النصر عليهم ولم يخف أحد من المنافقين لنجدتهم ، ونكص ابن أبى على عقبيه كالشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر نكص على عقبيه وقال انى أرى ما لا ترون . وقد أنزل الله تعالى فى وعود ابن أبى الكاذبة لبنى النضير قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطبع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لانتهم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون (٤))

ترسم هذه الآيات صورة دقيقة للمنافقين وحكاية لأقوالهم ، وفى كل جملة من هذه الآيات لفظة تقرر حقيقة وتمس قلباً ، وتبعث أنفعلاً .

وأول لفظة فى هذا المشهد الحى هو تقرير (القرابة والصلة الوطيدة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب) (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم) فهى أخوة العقيدة والهدف المشترك ، فأهل الكتاب كفروا ، والمنافقون إخوانهم وشركاؤهم فى هذا .

قال الزمخشري (٥) : (لإخوانهم) للذين بينهم وبينهم أخوة الكفر ، ولأنهم كانوا يوالونهم ويؤاخونهم وكانوا معهم على المؤمنين فى السر .
إن هذا التوكيد الشديد فى وعد المنافقين لإخوانهم (لئن أخرجتم لنخرجن

- | | |
|---|------------------------------|
| ١ (السيرة الحلبية : ٢٧٠/٢ والسيرة النبوية : ٧٢/٢ دحلان وشرح الزرقانى | ٢ (السيرة الحلبية : ٢٧٧/٢ |
| على الواهب : ٥٧/٢ وامتاع الاسماع | ٤ (الحشر : ١١ - ١٢ |
| ١٦٥ | ٥ (الكشاف : ٨٥/٤ والقاسمى : |
| ٢ (سيرة ابن هشام : ١٩١/٢ تحقيق | ٥٧٤٦/١٦ والطوسى : ٥٦٨/٦ |

معكم ولا نطيع فيكم احدا ابدا وان قوتلتم لننصرنكم) .

وعود كاذبة وايمان مغلظة ، هي كل سلاح المنافقين مع اعدائهم واخوانهم (والله يشهد انهم لكاذبون) في مواعيدهم لليهود فالله وحده الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون ، ويؤكد غير ما يؤكدون لئن (أخرجوا لا يخرجون معهم) ولئن نصرهم ليولن الأديار ، ثم لا ينصرون . وصدق الله ورسوله وكذب المنافقون فيما أعلنوه ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ما يقولون لا يقدر الله حق قدره ، وهم يخشون بأس المؤمنين أشد مما يخشون الله ، (لانتم أشد رهبة في صدورهم من الله) . . .

ويستفاد من نتائج هذه الغزوة فيما يتعلق بالمنافقين أن عبد الله بن أبي الذي كان عدوا لليهود بنى النصير وبنى قريظة من وقت يوم بعث وقبله لحلفهم مع الأوس إذا حاربوه ، انقلب في هذه الموقعة وصار حليفا لهم . ومعنى هذا أن حلفا قد انعقد بين ابن أبي وبين اليهود جميعا بعد إجلاء بنى قينقاع . ولا بد أن ذلك الحلف قد انعقد سرا لمخالفة العهد الذي أبرمه يهود بنى النصير وغيرهم مع رسول الله أول مقامه بالمدينة إلا يحاربوه ولا يظاهروا على المسلمين أحد . وهذا ما يؤكد ما سبق أن ذكرناه عن تضامن اليهود مع المنافقين في موقعة أحد . وأن هناك تنظيما خططوه سرا ولكنه باء بالفشل ولم يكن ما جرى من ابن أبي إلا محاولة فاشلة لرفع الروح المعنوية لدى حلفائه الجدد ، ثم الرغبة الجامحة الملحة لانتهاز هذه الفرصة للإيقاع بالمسلمين ، ولكن الله عصم المسلمين من محاولات اليهود والمنافقين ورد كيدهم إلى نحورهم في موقعة أحد ، ثم خرج سراخ المنافقين وتشجيعهم يهود بنى النصير على التمرد والعصيان إلى أن يكون مهزلة سمة لا معنى لها ولا اثر (١) .

غزوة الأحزاب :

لعب المنافقون في هذه الغزوة أدوارا خطيرة ، كادت تعصف بالمسلمين وتزلزل أقدامهم ، فكانوا أشد خطرا من جميع الأحزاب التي حاصرت المسلمين من الداخل والخارج .

قال ابن اسحق (٢) : لما سمع رسول الله بخروج الأحزاب ، وما أجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله ترغيبا للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فداب فيه ودأبوا . وأبطأ عن رسول الله وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نائبته نائبة ، من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ، ويستأذن في اللحق بحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير واحتسابا له) . . . فأنزل الله تعالى في صنيعهم جميعا قوله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله

(١) النفاق والمنافقون : ١٥٩ ، ١٦٠ . (٢) سيرة ابن هشام : ٢١٦/٢ تحقيق

فاذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم (١) .

ثم يلتفت السياق الى أولئك المنافقين يصورهم أبرع تصوير (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة ، او يصيبهم عذاب اليم . الا ان الله ما فى السموات والارض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم) (٢) .

وهو وصف دقيق للطريقة التى كانوا يتخذونها للهرب من العمل فى حفر الخندق ، وإن خفيت على الناس فهى ليست بخافية على رب الناس (الا إن لله ما فى السموات والارض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون . .) فالله تعالى لا تخفى عليه خافية ، فالويل لهم يوم يبعثهم الله فيجزئهم الجزاء الأوفى على ما قدمت أيديهم وعلى ما أبدوه وأخفوه (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، او يصيبهم عذاب اليم) .

وقد نزلت سورة الأحزاب بكاملها فى غزوة الخندق ، وتكاد تكون حديثا متصلا لتصوير مواقف المنافقين ودسائسهم فى ظروف هذه الغزوة ، وقد حملت عليهم حملات عنيفة قاسية تتناسب مع قوة الدور الذى قاموا به وخطورته . وقد فاح من قلوبهم نفن الكفر ، لأنهم ظنوا ان تلك الغزوة ستكون القاضية على المسلمين ولن تقوم لهم بعدها قائمة ، وفى أثناء حفر الخندق كان رسول الله يُشجع المسلمين ويُبشّرهم بالنصر والفتح المبين شحذا للهمم وتثبيتا للأقدام ، فبشّرهم بفتح الشام وفارس واليمن ، فاستبشر المسلمون وفرحوا واغتم المنافقون وكفروا وأخذوا يُرجفون ويثبطون (الا تعجبون من محمد ، يمينكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وانها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا) (٣) .

ولما نقضت قريظة العهد عظم البلاء عند ذلك واشتد الخوف ، واتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى نجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتب بن قشير : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط ، ما هذا إلا وعد غرور) (٤) .

ويبدو أن خطورة الموقف هى التى جرأتهم على هذا القول . وقد حكى سورة الأحزاب جراتهم هذه على الله ورسوله وقولهم ما وعدوا به من نصر ليس إلا غرورا أو تغريرا بالناس (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) (٥) . وفى الآية التالية تبدو صورة أخرى لتثبيطهم اهل المدينة وتخويفهم إياهم ودعوتهم الى المدينة ، وصورة ثانية فى استئذانهم النبى عليه الصلاة والسلام بالعودة الى بيوتهم وزعمهم كذبا أنها مكشوفة للعدو وأنهم يريدون حمايتها ، وكشف الله حقيقتهم وفضحهم ، فهم لا يبغون إلا الفرار (وإذ قالت طائفة منهم يا اهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى

١ (النور : ٦٢ . القرطبي : ١٤٧/١٤ .

٢ (سيرة ابن هشام : ٢٢٢/٢ والكشاف :

٢ (النور : ٦٣ ، ٦٤ .

٣ ٢٥٤/٣ .

٤ (السيرة الحلبيه : ٢٣٤/٢ والمسيرة

٥ (الأحزاب : ١٢ .

النبوية : ١٢٤/٢ لابن كثير ، وتفسير

يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا (١) .
قال أوس بن قبيطى (من منافقى الأوس) على ملاء من قومه (يارسول
الله إن بيوتنا عورة من العدو ، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا ،
وليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا فائذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع
ذرائنا ونساعتنا) . فبلغ ذلك سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله لا تأذن
لهم ، إنه والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا ذلك (٢) .
ومن ذلك ما روى عن ابن عباس أن اليهود قالت لعبد الله بن أبى بن سلول
وأصحابه من المنافقين (ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بين أبى سفيان وأصحابه
فارجعوا إلى المدينة فإننا مع القوم فأنتم آمنون) (٣) .
وقوله تعالى (فارجعوا) أمرهم بالهرب من عسكر رسول الله ، وقيل
لهم ارجعوا كفارا واسلموا محمدا وإلا فليست يثرب لكم بمكان (٤) .
وقوله : (يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا) . .
حكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى قبيلتين من الأنصار من بنى حارثة وبنى
سلمة ، هتوا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق ، وفهم أنزل الله تعالى (إذ همت
طائفتان منكم أن تفتشلا) فلما نزلت هذه الآية قالوا : والله ما ساعنا ما كنا هممنا
به ، إذ الله ولينا . وقال الضحاک ورجع ثمانون رجلا بغير إذنه (٥) .
وقال الزمخشري (٦) : فقد اعتذروا أن بيوتهم معرضة للعدو ممكنة للسراق
لأنها غير محرزة ولا محصنة فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا إليه ، فأكذبهم الله
بأنهم لا يخافون ذلك وإنما يريدون الفرار) . وقد ذم الله تعالى هذه الفئة غاية
الذم وفضحهم وشنع عليهم فى قوله تعالى (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم
سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من
قبل لا يولون الأديار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من
الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد
بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) (٧) .
يخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين يتعللون بإعورار بيوتهم ويتمحلون ليفروا عن
نصرة رسول الله والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملأوهم هولاً ورعباً ،
وهؤلاء الأحزاب لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعرضوا عليهم الكفر وقيل لهم
كونوا على المسلمين لسارعوا إليه وما تعللوا بشيء ، وما ذاك إلا لمقتهم الإسلام
وشدة بغضهم لأهله وحبهم الكفر وتهالكهم على حزبه (٨) . وقوله تعالى (وما
تلبثوا بها إلا يسيرا) قال أكثر المفسرين : ما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا
ولأجابوا بالشرك مسرعين ، وذلك لضعف نياتهم وفرط نفاقهم ، فلو اختلطت
بهم الأحزاب لأظهروا الكفر (٩) (إلا يسيرا أى ريثما يكون السؤال والجواب من
غير توقف (١٠)) .

- | | |
|---|------------------------------|
| ١ (الأحزاب : ١٢ . | ٦ (الكشاف : ٢٥٤/٣ . |
| ٢ (امتاع الاسماع : ٢٢٩ ومسيرة ابن هشام : ٢٢٢/٢ . | ٧ (الأحزاب : ١٤ - ١٧ . |
| ٣ (تفسير القرطبي : ٤٨/٤ . | ٨ (الكشاف : ٢٥٤/٣ . |
| ٤ (الكشاف : ٢٥٤/٣ . | ٩ (تفسير القرطبي : ١٥٠/١٤ . |
| ٥ (تفسير القرطبي : ١٤٩/١٤ . | ١٠ (الكشاف : ٢٥٤/٣ . |

وقوله (لقد كانوا عاهدوا الله من قبل) يلهم كما يقول يزيد بن رومان : هم بنو حارثة . هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم (١) . . فالآية هنا فيها تذكير وتأنيب وتنبيد .

وقد رسمت الآيات التالية صورة أخرى لطائفة من المنافقين كانوا يعوقون ويخذلون إخوانهم وذوى قرباهم عن القتال مع رسول الله (قد يعلم الله المعوقين منكم والقاتلين إخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا) (٢) .

قال مقاتل : هم عبد الله بن أبى وأصحابه المنافقون (والقاتلين إخوانهم هلم إلينا) فيهم ثلاثة أقوال : أحدها : أنهم المنافقون قالوا للمسلمين : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه فظلوهم ، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا .

والثانى : أنهم يهود بنى قريظة ، قالوا لإخوانهم من المنافقين : هلم إلينا ، أى تعالوا إلينا وفارقوا محمدا غائبه هالك ، وأن أبا سفيان إن ظفر بكم لم يبق منكم أحدا .

والثالث : قال ابن زيد انطلق رجل من عند النبى عليه الصلاة والسلام فوجده أخاه بين يديه رغيف وشواء ونبذ فقال له : أنت فى هذا ونحن بين الرماح والسيوف ؟ فقال : هلم إلى هذا فقد تبع لك ولأصحابك — أى أحبط بكم — والذى تحلف به لا يستقل بها محمد أبدا . فقال : كذبت ، فذهب إلى النبى يخبره فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية (٣) .

وقوله تعالى : (ولا يأتون البأس إلا قليلا) أى لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة (٤) . أو إتيانا قليلا يخرجون مع المؤمنين ويوهمونهم أنهم معهم ولا تراهم يبارزون ولا يقاتلون الا شيئا قليلا إذا اضطروا إليه كقوله تعالى (وما قاتلوا إلا قليلا) .

وقد رسمت الآية التالية صورة فريدة لجبنهم وشحهم الشديدين ، فهم جنباء عند البأس ، أشحاء عند الفتح ، ويطلقون السننهم بالنقد الشديد والتبجح العريض ، لما فى نفوسهم من العداوة والضغن (أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا) (٥) .

وهكذا خاف هؤلاء الجبناء من لقاء الأعداء فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم تكلموا كلاما بليغا فصيحا عاليا وادعوا لأنفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة ونسوا تلك الحالة الأولى وقالوا : قسمتنا فإنا قد شهدنا معكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتكم . وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسواه مقاسمة اعطونا اعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق وهم مع ذلك أشحة على الخير أى ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير فهم كما قال

١ (تفسير القرطبي : ١٥٠/٤ . ٤ (المرجع السابق : ١٥٢/٤ والكشاف : ٢٥٥/٣ . ٢ (الأحزاب : ١٨ . ٣ (تفسير القرطبي : ١٥٢/١٤ . ٥ (الأحزاب : ١٩ .

الشاعر فى أمثالهم :

أفى السلم أعار جفاء غلظة * وفى الحرب أمثال النساء العوارك (١) .

ويلتقط لهم السياق القرآنى صورة أخرى من صور الجبن والخور والخوف (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبئكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا) (٢) .

(يحسبون) فهم يظنون أن الأحزاب لم يهزموا وقد انهزموا ، فانصرفوا عن الخندق الى بيوتهم راجعين لما نزل بهم من الخوف الشديد ودخلهم من الجبن المفرط (وان يأت الأحزاب) أى أن يرجعون للقتال مرة ثانية ، تمنوا لخوفهم أن يكونوا مع الأعراب حذرا من القتل وتربصا للدوائر . (يسألون) عن أخبار النبى عليه الصلاة والسلام (هل هلك محمد وأصحابه . أما غلب أبو سفيان وأحزابه ؟ أى يودوا لو أنهم بادون سائلون عن أنبئكم من غير مشاهدة القتال لفرط جبنهم . وقيل : كان منهم فى أطراف المدينة من لم يحضر الخندق ، وجعلوا يسألون عن أخباركم ، ويتنون هزيمة المسلمين « ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » ، أى لو كانوا بين أظهركم ما قاتلوا الا تعلقه رياء وسعة لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم (٣) .

وهكذا نرى أن هذه السورة قد سجلت تسجيلا كاملا دقيقا كل أقوال المنافقين وأفعالهم وصفاتهم . وان دل هذا على شىء فانما يدل على شدة نكائتهم وخطورتهم فى تلك الغزوة التى هى أشد ما تعرض له المسلمون من أخطار .

المنافقون فى غزوة بنى المصطلق :

لم تكن هذه الغزوة فى حد ذاتها من الغزوات الكبيرة ولكنها صارت ذات أهمية كبيرة بالنسبة لما قام به المنافقون . فقد لعبوا فيها دورين هامين كان لهما أثر كبير وهزة شديدة كادت أن تؤدى الى غتن مستعرة ، لولا أن الله عصم المسلمين ومنّ عليهم ، ورد كيد المنافقين الى نحورهم وفضح أكاذيبهم . أما الدور الاول فهو بذر الفتنة بين المهاجرين والانصار حتى كادوا أن يقتتلوا ، ومحاولة توسيع شقة الخلاف بينهم بسبب تافسه عارض ، والدور الثانى اتهام السيدة عائشة المبرأة الطاهرة إفكا وبهتاناً . وكان كلا الدورين بعد انتهاء الغزوة وانتصار المسلمين .

وقد خرج المنافقون فى هذه الغزوة فى كثرة لم يخرجوا قط فى مثلها ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى يزيد بن الصلت ، لا رغبة فى الجهاد ولكنهم كانوا يوقنون بنصر المسلمين فخرجوا ليصيبوا الغنائم وهم فى مظهر المؤمنين الصادقين . وقد صدق ظنهم وأنعم الله على المؤمنين بالنصر .

وفى أثناء العودة حدث تافسه فاذا بعبد الله بن أبى وأشياعه من المنافقين يظهرون بمظهرهم الحقيقى فاندفعت السننهم تخرج من أفواههم خبثا منتنا من النفاق والفتنة .

٢ ٣ تفسير ابن كثير : ٤٧٤/٣ ، وتفسير

١ (الكشاف : ٢٥٤/٣ .

القرطبي : ١٥٥/١٤ والكشاف :

٢ (الأحزاب : ٢٠ .

قال ابن اسحق (١) : بينما رسول الله على ماء المريسيع ، وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن ووبر الجهنى حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء ، فافتتلا ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبى وعنده رهط من قومه فيهم ، زيد بن أرقم ، غلام حدث ، فقال : أوقد فعلوها ، قد نافرنا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، احللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحتوا الى غير داركم . ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أغراضا للمنايا وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد (٢) . فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى إلى رسول الله فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مَرَّ عباد ابن بشر فليقتله ، فقال له رسول الله : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه لكن أذّن بالرحيل ، وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها فارتحل الناس .

فلما استقل رسول الله وسار ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يا نبى الله ، والله لقد رحمت فى ساعة منكراً ، ما كنت تروح فى مثلها ، فقال له رسول الله : أَوْماً بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : وأى صاحب يا رسول الله قال : عبد الله بن أبى قال : وما قال ؟ زعم انه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل ، قال : فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت ، وهو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاعنا الله بك وأن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد سلبته ملكاً . . .

ثم مشى رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبى ، ويبدو أن بعض الأنصار ذهبوا إلى عبد الله بن أبى وقالوا له : (يا أبا الحباب إن كنت قلت ما نقل عنك فأخبر به النبى فليستغفر لك ولا تجعده فينزل فيك ما يكذبك وإن كنت لم نقله فأنت رسول الله فاعتذر له واحلف له ما قلته (فحلف بالله ما قال من ذلك شيئاً ، ثم مشى عبد الله إلى رسول الله إذ أرسل اليه ، فلما حضر عنده قال له : أنت صاحب الكلام الذى بلغنى عنك ؟ فقال : والذى أنزل عليك الكتاب ما قلت من ذلك شيئاً وإن زيدا لكاذب فقال بعض من حضر من الأنصار يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ، وقال البعض الآخر يا رسول الله ، شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه كلام غلام حدبنا على ابن أبى ، ودفعنا عنه .

وقد بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان من أمر ابيه فأتى رسول

١ (سيرة ابن هشام : ٢٩٠/٢ ، تحقيق (٢) السيرة الحلبية : ٣٠١/٢ .

الأيبارى .

الله فقال : يا رسول الله ، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلافمرنى به ، فأنا أحمل لك رأسه ، فوالله لقد علمت الخرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله : بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا (١) .

وهذه هى السياسة التى أمر رسول الله باتباعها مع المنافقين (الرفق والصفح حتى يأتى الله بأمره) .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم ، كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله ، لأرعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى .

ونزلت فى ابن أبى ومن كان على شاكلته (سورة المنافقون) التى سميت باسمهم لأنها كلها فيهم . وقد أنزل الله فى زيد بن أرقم تصديقا له وتكذيبا لعبد الله بن أبى هذه الآيات (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتمهم تُعْجِبْكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مِّنْ سِنْدَةٍ يُحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ) (٢) .

فى هذا المشهد الأول من سورة المنافقين حملة تنديدية عنيفة على أخلاقهم وأكاذيبهم ودسائسهم ومؤامراتهم . وتكشف عما تكنه قلوبهم الخربة من عداوة وكيد ، وما فى نفوسهم من لؤم وجبن وانطماس بصائرهم وقلوبهم . فيقول عز وجل (إذا جاءك المنافقون . . .) .

التعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه ، فهو يبادر إلى إثبات الرسالة وتوكيدها قبل تكذيب مقالة المنافقين التى نزلت السورة كلها فى حقهم . ويعلل حالهم هذه من شهادة كاذبة ، وحلفان آتمة اتخذوها وسيلة تقيهم القتل وصدوا الناس عن كل خير أنهم ساء ما كانوا يعملون من الخبائث . وسبب ذلك أنهم (آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) فإنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفر واستبدالهم الضلالة بالهدى فجسروا على كل عظمة ، فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير فلا تعى ولا تهتدى (٣) .

ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة ، تُثير السخرية والهزء والزراية ، صورة ذلك الصنف المسوخ المموس من الناس ، وتسمهم بالفراغ والخواء ، والجبن والفرع ، والحقد والكنود بل تنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية فى معرض

(١) تفسير ابن كثير : ٣٧٠/٤ - ٣٧٢ (٣) تفسير ابن كثير : ٣٦٨/٤ وتفسير القرطبي : ١٢٧/١٨ والكشاف : ١١٠/٤

(٢) المنافقون : ١ - ٤

الوجود (وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم) .

فهم أجسام وأشكال حسنة تعجب العيون ، لا أناس تتجاوب ، والسنة طويلة فصيحة إذا سمعهم السامع يصفى إلى قولهم لبلاغتهم . وهم مع ذلك (كأنهم خشب) ولكنها ليست خشبا فحسب ، إنما هي خشب مسندة إلى الحائط فارغة غير منتفع بها . لا يسمعون ولا يعقلون ، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام . وهم جهامات وصور بلا معانى .

قال الزمخشري (١) : شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط ، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو في جدار أو غيرها من مظان الانتفاع وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط فشبهوا به في عدم الانتفاع . ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان ، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم) .

قال ابن عباس (٢) : يعنى عبد الله بن أبى وكان وسيما جسيما صحيحا صبيحا ذلق اللسان فإذا قال سمع النبي مقالته .

ولا يكتفى السياق بهذه الصورة المضحكة بل يصفهم بأرذل الصفات وأحطها ، فهم في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجنون (يحسبون كل صيحة عليهم) فيرسم لها هذا التعبير صورة المذعور التلفت حواليه ، يتوجس في كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف ، يحسبونه يطلبهم . وقد عرف حقيقة أمرهم . فهم أبداً وجلون من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم (٣) .

ويأبى الله إلا أن يفضح سترهم ويكشف عن أمرهم ، وينزل فيهم ما كانوا يحذرون (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) هم الأعداء الكاملون الحقيقيون الكاملون داخل الصف ، فلذا نبه تعالى عليهم وأمر بأخذ الحذر والحيطه منهم فقال (فاحذرهم) ولكنه لم يقل (فاقتلهم) .

وقد رأينا أن رسول الله لم يأمر بقتل أحد منهم امثالاً لأوامر ربه سبحانه في أخذهم بالحكمة وسعة الصدر والحلم مع الثقة الكاملة بالنجاة من كيدهم وتوكيل أمرهم لله وحده (قاتلهم الله) فالله مقاتلهم ومخزيهم ولا عنهم حيثما صرفوا وأينما توجهوا ، ومن قاتله الله فهو هالك لا محالة .

قال القرطبي (٤) : (قاتلهم الله) أى أحلهم محل من قاتله عدو قاهر ، لأن الله تعالى قاهر لكل معاند) . ولما نزلت هذه الآية في تكذيب ابن أبى وتصديق زيد بن أرقم صار قوم عبد الله بن أبى يعاتبونه ويعنفونه ويقولون له : لقد نزلت فيك آيات شديدة فاذهب إلى رسول الله ليستغفر لك ، فألوى رأسه (حركة استهزاء) وقال : أمرتمونى أن آمن فأمنت ، وأمرتمونى أن أعطى زكاة مالى فأعطيت ، فما بقى إلا أن أسجد لحمد) (٢) .

وذكر المقرئ (٦) (إن عبادة بن الصامت ، أحد رؤساء الخزرج ، قال

٤ (تفسير القرطبي : ١٢٦/١٨) .

١ (الكشاف : ١٠٩/٤) .

٥ (تفسير القرطبي : ١٢٧/١٨ ، ١٢٨) .

٢ (تفسير القرطبي : ١٢٥/١٨) .

والكشاف : ١١٠/٤) .

٣ (تفسير القرطبي : ١٢٦/١٨ والكشاف : ١٠٩/٢) .

٦ (إمتاع الأسماع : ٢٠٣) .

لابن ابي : ايت رسول الله ليستغفر لك فلوى راسه . فقال : عبادة : والله لينزلن
فى لى راسك قرآن يصلى به) .

فأنزل الله فيه قوله تعالى : (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله
لووا رؤوسهم وأرأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم أستمغرت لهم أم
لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين) (١) .
ثم سجلت آيات هذه السورة أقوال عبد الله بن أبى الخبيثة ودعوته إلى
عدم الانفاق على من عند محمد صلى الله عليه وسلم حتى يفرقوا عنه ، وأعلمه
الله أن خزائن السموات والأرض له سبحانه ، يُنطق كيف يشاء . وفى ذلك
سخرية لاذعة به وبأمثاله من المنافقين البخلاء : (هم الذين يقولون لا تنفقوا
على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكم
المنافقين لا يفقهون) (٢) .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف
ابن عبد الله ابن أبى — وكان مؤمناً مخلصاً صادق الإيمان — على باب المدينة
واستل سيفه فجعل الناس يمرّون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى اتاخ به
ثم وطئ على يد راحلته ، فقال له أبوه : ويلك ما تريد يا لكح ، فقال : والله
لا تدخلها — أى المدينة — حتى تقر أنك أنت الذليل وأن رسول الله هو العزيز ،
وحتى يأذن لك رسول الله ، لتعلم من الأعمى من الأذل .

فقال له أبوه : أنت من بين الناس ؟ والله لأنت لأشد على من محمد
وأصحابه . قال : أنا من بين الناس فوالله إن لم تقر لرسول الله بالعزة لأضربن
عنقك قال : ويحك : أفاعل أنت ؟ قال : نعم . فلما رأى منه الجد لم يجد مناصاً
إلا أن يخضع ويقر بمذلتة قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . ولأننا
أذل من النساء . ووصل الخبر إلى رسول الله فأرسل إلى ابنه أن خل سبيله .
وقال الرسول لابنه (جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً) (٣) .

فأنزل الله تعالى فى مقالة ابن أبى (ليخرجن الأعمى منها الأذل) قوله تعالى
(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعمى منها الأذل ولله العزة ولرسوله
وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) (٤) .

ومن عجيب الأمر أن هذه الزواجر التى نزلت فى ابن أبى وهذه المذلة
والفضيحة التى لطخت وجهه لم تردعه عن عداوته لله ولرسوله ، فقد رأى
السيدة عائشة رضى الله عنها المبراة الصديقة بنت الصديق تدخل المدينة متأخرة
عن الركب حين حجزه ابنه عن دخول المدينة ، فوجد فى ذلك فرصة تتفق مع
طبيعة خلقه التى لم تمنعه من قبل أن يشتغل قوادا للبغايا ، فتلقفها واستغلها
وأشعلها فتنة طاغية لعلها كانت من أشد ما قام به من الفتن ، وقد سببت آلاماً
كثيرة للنبي والأهل بيته وفتنة كادت تعصف بأخوة الأوس والخزرج ، وتمزق
وحدثهم . ذلك أنه لما استعذر رسول الله من عبد الله بن أبى صاحب حديث
الإفك ومروجه كاد الاستعذار ينقلب إلى إثارة الفتنة والخلاف بين الأوس
والخزرج ورفعت النعرة العصبية رأسها من جديد حين قام رسول الله فى الناس

١ (المنافقون : ٥ ، ٦ .
٢ (المنافقون : ٧ .
٣ (تفسير ابن كثير : ٤ / ٣٧٢ وتفسير
القرطبي : ١٢٩ / ١٨ والكشاف :
٤ / ١١٠ .
٤ (المنافقون : ٨ .

يخطبهم وقال : يا أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى . فلما قال رسول الله تلك المقالة ، قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، إن يكونوا من الأوس نكفيكمهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج ، فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم ، فقام سعد بن عبادة — وكان قبل ذلك يرى رجلا صالحا — فقال : كذبت لعمر الله ، لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ، فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتساورا — قام بعضهم لبعض — حتى كاد يكون بين الحيين من الأوس والخزرج شر ، لولا حكمة رسول الله وحسن مداخلته (١) .

وقد أنزل الله تعالى فى تبرئة السيدة عائشة مما نُسب إليها عشر آيات من سورة النور من قوله تعالى : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . . . إلى قوله تعالى : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا والآخرة) (والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وإن الله رؤوف رحيم) (٢) .

وكان دور عصبة الإفك مجرد الكلام ما عدا عبد الله بن أبى ، قد كان الراس المدبرة لتفريق الإفك وتزعم الحديث فيه ، وكان يجمعه بالبحث والمسألة ، ثم يفشيه ويحركه ولا يدعه يخمد واليه أشارت الآية الكريمة (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) فإن عبد الله بن أبى هو الذى بدأ به ثم تولاه بأسلوبه ليفشو بين الناس ، وذلك إمعانا فى عداوة رسول الله (٣) .

ومن السور التى نزلت فى هذه المرحلة وتضمنت حملات عنيفة على المنافقين : سورة النساء التى صورت موقفهم من الجهاد وموقف الجهاد منهم (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، فكيف إذا أصابهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا . . . إلى قوله تعالى (ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كان لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) (٤) .

قال ابن عباس كان بين رجل من المنافقين يقال له — بشر — وبين يهودى خصومة ، فقال اليهودى : انطلق بنا إلى محمد ، وقال المنافق بل إلى كعب ابن الأشرف — وهو الذى سماه الله الطاغوت ، فابى اليهودى أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ، فلما رأى ذلك المنافق أتى معه إلى رسول الله فمضى لليهودى ، فلما

١ (سيرة ابن هشام : ٣٠٠/٢ تحقيق (٢) المنافق والمنافقون : ٢٠٦ .

الأبيارى .

٤ (النساء : ٦٠ - ٧٢ .

١ (النور : ١١ - ٢٠ .

خرجنا قال المنافق : لا أرضى ، انطلق بنا إلى أبي بكر ، فحكم لليهودى فلم يرض ، وقال انطلق بنا إلى عمر فأتبلا على عمر فقال اليهودى : إننا صرنا إلى رسول الله ثم إلى أبي بكر فلم يرض ، فقال عمر للمنافق : أكذاك هو ؟ قال : نعم . قال : رويدكما حتى أخرج إليكما . فدخل وأخذ السيف ثم ضرب به المنافق حتى برد (مات) وقال : هكذا أقتضى من لم يرد بقضاء الله وقضاء رسوله ، وهرب اليهودى ، ونزلت الآية . وقال صلى الله عليه وسلم (أنت الفاروق) . ونزل جبريل وقال : ان عمر فرق بين الحق والباطل ، فسمى الفاروق ، وفى ذلك نزلت الآيات كلها إلى قوله (ويسلموا تسليما) (١) .

وإذا صح سبب النزول فالآيات تلهم أنها كانت فى أوائل العهد المدنى وقبل إجلاء بنى قينقاع وقتل كعب بن الأشرف ، يوم كان للمنافقين صولة ، ولحلفائهم اليهود قوة لم تخضع بعد . ويكشف سبحانه للمسلمين عن أسلحة المنافقين التى منها كثرة الحلف واتخاذ الأيمان الكاذبة ستاراً لأعمالهم الخبيثة ووقاية لأنفسهم من القتل (يحلفون بالله ما أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) . أى يعتذرون إليك ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق والمداراة والمصانعة لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة (٢) .

وقبل جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله فقالوا : ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه وما خطر ببالنا أن يحكم له بما حكم به (٣) . أو نريد بطلب ديته الإحسان وموافقة الحق (٤) .

وأيا ما كان سبب هذه الأقوال فهى تعطى صورة مخزية للمنافقين فى تحاكمهم إلى اليهود وموالاتهم لهم والثقة فى مودتهم أكثر من المسلمين . ومع هذا يوجه الله تعالى المسلمين إلى الرفق بهم والصفح عنهم ، والنصح لهم بالكف عن هذا الالتواء بقوله : (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) . ولم يأمر بقتلهم أو تعنيفهم أو إجلائهم من ديارهم . . . وترك أمرهم إلى الله وحده يجزيهم على ذلك فإنه لا تخفى عليه خافية وهو عالم بظواهرهم وبواطنهم ، ولهذا قال (فأعرض عنهم) أى لا تعنفهم على ما فى قلوبهم (٥) . وأمره بالإعراض عنهم والمبالغة فى وعظهم وإنذارهم (وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) قولا بليغا مؤثرا يغتمون به أغماما ويستشعرون منه الخوف استشعارا ، وهو التواعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق وأطلع ، وأخبرهم أن ما فى نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله ، وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين ، وما هذه المكافة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراكم الكفر وإضماره ، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف ، فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداوواها من مرض النفاق (٦) .

ثم يرشد الله تعالى العصاة والمذنبين من المنافقين إذا ما وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فيستغفروا الله عنده

- | | |
|---------------------------------------|----------------------------|
| ١ (أسباب النزول : ١٠٨ للواحدى وتفسير | ٣ (الكشف : ٥٣٧/١ |
| ابن كثير ٥١٩/١ وتفسير القرطبى : | ٤ (تفسير القرطبى : ٢٦٤/٥ |
| ٥٢٦/١ . | ٥ (تفسير ابن كثير : ٥١٩/١ |
| ٢ (تفسير ابن كثير : ٥١٩/١ . | ٦ (الكشف : ٥٣٧/١ |

ويسألوه أن يستغفر لهم فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم وغفر لهم (١) (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا) (٢) .

ثم يسلط السياق الأضواء الكاشفة على دخيلة نفوسهم ومكونات ضمائرهم فيبرز حقيقتهم البشعة واضحة للعيان بعد تعريبتهم من كل فضيلة وذلك في موقفهم من الجهاد في سبيل الله (وإن منكم من لبيطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) (٣) .

فهاهم أولاء ، بكل بواعثهم ، وبكل أعمالهم وأقوالهم ، مكشوفين للأعين ، كما لو كانوا وضعوا تحت مجهر يكشف النوايا والسرائر ، ويكشف البواعث والدوافع (وإن منكم من لبيطئن) وهذه الكلمة المختارة (ليبطئن) بكل ما فيها من ثقل وتعثر في النطق ، ترسم صورة دقيقة لتخذيل المنافقين للمجاهدين بالتناقل عن تلبية الدعوة إلى الجهاد فهم يتناقلون ويتخلفون عن الجهاد ويثبطون ويخذلون الناس عن الخروج فيه (٤) .

وكذلك يشي تركيب الجملة كلها (وإن منكم من لبيطئن) بأن هؤلاء المخذلين ، كانوا يزاولون عملية التخذيل والتبטئة والتعويق كاملة ، ويصرّون عليها بإصراراً ، ويجتهدون فيها اجتهاداً ، وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكّدات في الجملة ، مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة المنافقة على التبطئة ، وشدة خطورتها على الصف المسلم .

ثم يمضى السياق في الكشف عن أخلاقهم الدنيئة وهمهم الموضيعة ، وعداوتهم الكامنة ، للمؤمنين ، وتربصهم بهم الدوائر ، كل ذلك يصوره قوله تعالى (فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) .

إنهم يربطون أنفسهم في الإقدام والإحجام بما يترقبون من النتائج المادية للجهاد ، ويجعلونها كل همهم ، دون أن يكون لهم من الحذب النفسى ، والإيمان القلبى ، ما يدفعهم إلى التضحية في سبيل الله إيمانهم ونصرة دينهم . إنهم يمسكون العصا من وسطها فإن أصاب المجاهدين محنة من قتل وشهادة وغلب العدو يفرحون بنجاتهم وتخلفهم عن الخروج للجهاد معهم . (ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) أى كأنهم ليسوا من أهل دينكم (٥) . وقال الزمخشري : كان لم تتقدم له معكم مودة لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر ، وإن كانوا يبيغون لهم الفوائى فى الباطن ، والظاهر أنه تهكم لأنهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين وأشدّهم حسداً لهم فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تهكما بحالهم (٦) .

وعلى أية حال فالآية تصوّر نههم وجشعهم وحرصهم على الكسب الرخيص

-
- ١ (تفسير ابن كثير : ٥١٩/١ .
٢ (النساء : ٦٤ .
٣ (النساء : ٧٢ ، ٧٢ .
٤ (تفسير ابن كثير : ٥٢٤/١ وتفسير
القرطبي : ٢٧٦/٥ والكشاف ٥٤١/١ .
٥ (تفسير ابن كثير : ٥٢٤/١ .
٦ (الكشاف : ٥٤٢/١ .

وحسداهم للمؤمنين إن أصابهم نصر وغنيمة من الله وفرحهم وشماتتهم إن كانت الأخرى . ولا تصدر هذه الأمنيات إلا من أعدى الأعداء .

وفى السورة نفسها حملة أخرى على موقف المنافقين من الجهاد (ألم تَرَ إلى الذين قيل لهم كنوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبنا علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والأخرة خير لمن أنقى ولا تظلمون فتىلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) (١) .

قال بعض المفسرين إن هذه الآيات نزلت فى جماعة من خيرة المهاجرين أمثال عبد الرحمن بن عوف ، وأصحابه . أتوا نبي الله بمكة وقالوا : يا نبي الله ، كنا فى عز ونحن مشركون ، فلما آمننا صرنا أذلة ، فقال : إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا . . . والحق أن هذا القول لخطأ جسيم لا يجوز أن يردده مسلم عاقل . .

قال القرطبي (٢) : (معاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابى جليل كريم يعلم أن الآجال محدودة وأن الأرزاق مقسومة بل كانوا لأوامر الله ممثلين سامعين طائعين ، يرون الوصول إلى الدار الآجلة خيرا من المقام فى السدار العاجلة ، على ما هو معروف من سيرتهم رضى الله عنهم ، اللهم إن قاتله لم يرسخ فى الايمان قدمه ، ولم يشرح بالاسلام جنانه) . والحق أن هذه الأقوال هى مما يردده المنافقون فهى الصق بهم وأبعد أن يتقوه بها مؤمن صادق الايمان لا سيما وإن السياق كله حديث متصل عن المنافقين ، يسرد أقوالهم ، ويشرح أفعالهم ويشخص أمراضهم ويصف العلاج لهم .

فهو يقول مؤمن من الرعيل الأول كعبد الرحمن بن عوف الذى يتحرق شوقا إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله مثل هذه الأقوال (إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولون هذه من عندك) يرد السيئة إلى الرسول دون الحسنه . فرائحة النفاق فواحة فى هذه العبارة ، وملامح المنافقين تكاد تلمس باليد ، وترى بالعين .

ثم يضى السياق فى حكاية أقوالهم وأفعالهم (ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيئت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيفا) (٣) . وهذه الآية تؤكد من جديد ما ذهبنا إليه من الآيات السابقة فى حلق المنافقين ولا صلة لها من قريب أو بعيد بالمؤمنين فهؤلاء هم (المبيتون من المنافقين الذين يسهرون الليل يتآمرون فيما بينهم على وضع الخطط والمكائد للقضاء على المسلمين بمساعدة شياطينهم من اليهود .

(فالتبئيت) من أسلحة المنافقين ومن صميم أخلاقتهم ، وقد ذكرت الآيات الجهادية ذلك فى أكثر من موضع ففي السورة نفسها قوله (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) (٤) .

٣ (النساء : ٨١)

١ (النساء : ٧٧ ، ٧٨)

٤ (النساء / ١٠٨)

٢ (تفسير القرطبي : ٢٨١/١٥)

والتبئيت : هو قضاء الأمر وتدبيره بالليل ، يقال هذا أمر بُئيت ليل إذا أحكم وإنما خُص بذلك لأنه وقت يُتفرغ فيه (١) .
والحق انهم كالخفافيش لا يظهرون إلا بالليل يستترون عن أعين المؤمنين حتى لا ينكشف أمرهم وينفضح سترهم . ولذا قال تعالى (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم) .

قال ابن كثير (٢) : إنه تعالى يهددهم بأنه عالم بما يضره ويبرونه فيما بينهم وما يتفوقون عليه ليلا من مخالفة الرسول وعصيانه وإن كانوا قد أظهروا له اللطف والموافقة ، وسيجزئهم على ذلك بما يستحقون (فهم) يبيتون ما لا يرضى من القول) والله تعالى (يكتب ما يبيتون) فى صحائف أعمالهم ليجازيهم عليه فرائحة التهديد والوعيد والتنديد العنيف تقشعر لهولها الأبدان .

وبعد ذلك يتجه السياق إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يُسليهم ويُهون عليه أمرهم وأنهم لن يضره شيئا لأن الله معه . وقد أمره بالإعراض عنهم والتوكل على الله والثقة بوعده فى نصره عليهم (فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيفا) ولم يقل فأقتلهم بل أصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ، ولا تكشف أمورهم للناس (٣) ولا تخبر بأسمائهم (٤) ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم . .
ثم يلتفت السياق اليهم (للمنافقين) مرة أخرى يأمرهم رب العزة بأن يتدبروا القرآن وينهاهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة والفاظه البليغة ، ومخبرا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا تعارض ولا اضطراب لأنه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق ، وليس من عند محمد كما يظنون (٦) . (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (٧) .

وقد حذر الله تعالى رسوله من المنافقين الذين يُشيعون ويفشون ما يسمعونه من أسرار المسلمين إلى الأعداء (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) (٨) .

وقد أنزل الله سبحانه حكما قاطعا حاسما فى شأن المنافقين حين انقسم المسلمون فئتين فئة تقول نقتلهم وفئة لا تجيز ذلك فقال تعالى (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا . إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما رَدُوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتمزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكنوا أيديهم فخذوهم

١ (تفسير القرطبي : ٢٨٩/٥ والكشاف : ٥) الكشاف : ٥٤٦/١ .

٢ (تفسير ابن كثير : ٥٤٦/١ .

٣ (تفسير ابن كثير : ٥٢٩/١ .

٤ (تفسير ابن كثير : ٥٢٩/١ .

٥ (تفسير القرطبي : ٢٩٠/٥ .

واقتلوهم حيث ثَقَّفْتُمُوهُمْ وأولائكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا (١) .
قال ابن عباس : نزلت في قوم بككة تركوا الهجرة وقالوا : إن ظهر محمد
عرفنا ، وإن ظهر قومنا فهو أحب إلينا . فصار المسلمون فئتين قوم يتولونهم وقوم
يتبرأون منهم . فنزلت . .

وعن عبد الله بن ثابت أن قوما خرجوا مع رسول الله إلى أحد فرجعوا ،
فاختلف فيهم المسلمون ، فقالت فرقة نقلتهم ، وقالت فرقة لا نقلتهم . فنزلت هذه
الآية .

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن قوما من العرب أتوا رسول
الله فأسلموا وأصابوا وباء المدينة وحماها فأركسوها ، فخرجوا من المدينة
فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ، فقالوا : ما لكم رجعتم ؟ فقالوا : أصابنا
وباء المدينة فاجتويناها ، فقالوا : ما لكم في رسول الله أسوة ؟ فقال بعضهم :
نافقوا ، وقال بعضهم : لم ينافقوا هم مسلمون ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال مجاهد : هم قوم خرجوا من مكة حتى جاءوا المدينة يزعمون أنهم
مهاجرون ، ثم ارتدوا بعد ذلك ، فاستأذنوا النبي عليه الصلاة والسلام إلى مكة
ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها ، فاختلف فيهم المؤمنون ، فقاتل يقول : هم
منافقون ، وقاتل يقول : هم مؤمنون ، فبين الله تعالى نفاقهم وأنزل هذه الآية ،
وأمر بقتلهم في قوله — فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم — فجاجوا
ببضائعهم يريدون هلال بن عويمر الأسلمي وبينه وبين النبي عليه الصلاة والسلام
حلف ، وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين ، فرفع عنهم القتل بقوله تعالى
— إلا الذين يصلون إلى قوم — الآية (٢) .

والذي اعتقده أن رواية ابن عباس هي الصحيحة وذلك أن الآيات كلها تشير
إلى قوم لم يهاجروا من مكة إلى المدينة .

فيقول تعالى منكرًا على المؤمنين اختلافهم في المنافقين : ما لكم اختلفتم في
شأن قوم نافقوا نفاقًا ظاهرًا وتفترقتم فيهم فرقتين ، وما لكم لم تثبتوا القول بكفرهم .
(والله أركسهم بما كسبوا) فهي شهادة من الله حاسمة في أمرهم بأنهم واقعون
في السوء بما أضمرُوا وبما عملوا فالله سبحانه ردهم إلى الكفر ونكسهم بسبب
عصيانهم وارتدادهم ولحوقهم بالمشركين وإقامتهم بينهم ولم يهاجروا إلى دار
الإسلام وهذا ما رجحته ، لقوله تعالى بعد ذلك (حتى يهاجروا) ثم يتبع ذلك
استنكار آخر (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا)
إلى الرشاد والهدى .

ثم يخطو السياق خطوة أخرى يكشف فيها عن موقف المنافقين بأنهم لم
يضلوا فحسب ولم يضلهم الله لاختيارهم طريق الضلالة فحسب . . إنما هم فوق
ذلك يسعون سعيًا جادًا إلى إضلال المؤمنين ليستوتوا وإياهم فيها وماذا إلا
لشدة عداوتهم وبغضهم للمسلمين (ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء) .
ثم يتكئ المنهج القرآني التربوي على هذه الحقيقة ، فيوجه إليهم الأمر في لحظة
التوفز والتحفز والانتباه للخطر البشع الفظيع الذي يتهددهم من قبل هؤلاء (فلا

١ (النساء : ٨٨ — ٩١ . ابن كثير : ٥٢٢/١ والكشاف

. ٥٥٠/١

٢ (أسباب النزول : ١١٢ ، ١١٣ للواحدى

وتفسير القرطبي : ٣٠٦/٥ وتفسير

تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) وهذه العبارة تأكيد آخر لما ذهب
إليه وهى مثل قوله (ما لكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا) فهؤلاء هم الذين
لم يهاجروا من دار الحرب فى مكة إلى دار الاسلام فى المدينة .

ومن هنا يقرر الله تعالى حكمه فى شأن هؤلاء المنافقين (فإن تولوا فخذوهم
واقتلوهم حيث وجدتموهم) وهو مثل قوله تعالى فى شأن منافقى المدينة بعد
غزوة الأحزاب : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى
المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا
تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا من قبلك ولن تجد لسنة الله تبديلا) (١) .

والذى يلفت النظر أن هاتين الآيتين اللتين تقرران حكم الله فى نوعين
مختلفين من المنافقين أحدهما منافقو أهل مكة والآخر منافقو المدينة ، أنهما تعلقان
القتل بشرط عدم الانتهاء عما هم فيه فى قوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين
فى قلوبهم مرض . . .) وعلق قتلهم فى سورة النساء بقوله (فلا تتخذوا منهم ولدا
حتى يهاجروا فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم . . .) ثم استثنى من
هؤلاء الذين لم يهاجروا قوما بين المسلمين وبينهم عهد وميثاق (إلا الذين يصلون
إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا
قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا
إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) .

فقوله تعالى : (إلا الذين يصلون) استثناء من قوله (فخذوهم واقتلوهم)
هذه واحدة والآخرى (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم . . .) فقرر أن كنهم عن القتال
أحد سببى استحقاقهم لنفى التعرض عنهم وترك الإيقاع بهم (٢) .
فإذن الكف عن قتل منافقى أهل مكة مشروط أن يكونوا من قوم بينهم وبين
المسلمين عهد وميثاق . وبإلا يتعرضوا لقتال المسلمين . .

وهناك نوع من المنافقين بين الله سبحانه حكمهم (ستجدون آخرين يريدون
أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا
إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأولئك جعلنا لكم
عليها سلطانا مبينا) .

قال ابن كثير : هؤلاء فى الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ولكن نية هؤلاء غير
نية أولئك فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي عليه الصلاة والسلام ولأصحابه
الاسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم ويصانعون الكفار فى الباطن
فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم فى الباطن مع أولئك . .

وقال مجاهد : إنها نزلت فى قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي عليه الصلاة
والسلام فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان يبتغون بذلك
أن يأمنوا ها هنا وها هنا فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا) (٣) .

ثم يأخذ السياق فى حملة متنوعة الأساليب على المنافقين — من بقى منهم
على حالة النفاق ، ومن أعلن كفره بعد إعلان إسلامه ، حملة يُصور فيها طبيعة
المنافقين ويرسم صورا زرية لهم ، من واقع ما يقومون به فى الصف المسلم ،
ومن واقع مواقفهم المقلونة حسب الظروف ، وحين يلقون المسلمين إذا انتصروا

١ (الأحزاب : ٦٠ - ٦٢ . ٢) تفسير ابن كثير : ٥٣٢/١ وتفسير

القرطبي : ٣١١/٥ .

٢ (الكشف : ٥٥٢/١ .

بالملقى والنفاق ، ويلقون الذين كفروا إذا انتصروا كذلك بدعواهم انهم سبب انتصارهم ، فهم مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ..

وترد في ثنايا هذه الحملة توجيهات للمؤمنين وتحذيرات تدل على مدى ما كان لأشاعيل المنافقين في الصف حينذاك من آثار ، وعلى مدى ضخامة الجبهة المنافقة وتغلغلها في حياة الجماعة المسلمة ، مما استدعى هذه الحملة ، مع مراعاة الواقع يومئذ ، وأخذ المسلمين خطوة خطوة في الابتعاد عن المنافقين واجتنابهم ، من ذلك ما أمرهم به من اجتناب مجالس المنافقين البتة ، وكذلك تردد في ثناياها تحذيرات من التشبه بالمنافقين في بعض سماتهم كموالاة أهل الكتاب والمشركين ، وابتغاء العزة عندهم ، واستمداد القوة منهم ، وإعلامهم بأن العزة لله جميعا ، وأن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا . كل ذلك مع رسم صورة بشعة منقورة للنفاق والمنافقين في الدنيا والآخرة ، وتقرير أن مصيرهم في الدرك الأسفل من النار .

وهذه التوجيهات والتحذيرات — بهذا الأسلوب — تشى بقوة الدور الذي لعبه المنافقون في تلك الفترة وخطورته وبعد مداه .

وتبدأ هذه الحملة بتهكم وسخرية لأذعة من الله بهم (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا . وقد نزلَ عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره إنكم إن مثلهم إن الله جامعُ المنافقين ، والكافرين في جهنم جميعا (١) .

فقد وضع سبحانه كلمة (بشر) مكان (أذّر) تهكما بهم ، وفي جعل العذاب الأليم الذي ينتظر المنافقين بشارة . (والذين) نصب على اللم أو رقع بمعنى أريد الذين أو هم الذين وكانوا يوالون الكفار ويقول بعضهم لبعض : لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود (٢) .

فتبين سبحانه سبب هذا العذاب الأليم ، بولايتهم لليهود ، وسوء ظنهم بالله وعدم إدراكهم أن العزة والقوة لله (فإن العزة لله جميعا) يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم . وقال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) . ثم يرسم لهم صورة زرية منفرة وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكافرين بوجه ويمسكون العصا من وسطها ، ويتلون كالديدان والنعابين : (الذين يترصبون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم وتمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراعون الناس ولا يذكرن الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) (٣) .

وهي صورة منفرة تبدأ بتقرير ما يمكنه المنافقون للجماعة المسلمة من الشر ، وما يترصبون بهم من السوء (الذين يترصبون) أى ينتظرون ما يتجدد لكم من ظفر أو إخفاق ، وهم مع ذلك يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون فتح من الله

١ (النساء : ١٣٨ — ١٤٠ .

٢ (النساء : ١٤١ — ١٤٢ .

٣ (الكشاف : ٥٧٢/١ .

فيقولون حينئذ (ألم نكن معكم) مظاهرين فأسهموا لنا من الغنيمة (وان كسان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ومنعكم من المؤمنين) يقولون إننا ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفتم به قلوبهم وتوانينا في مظاهرتهم عليكم فهاتوا نصيبا لنا مما أصبتم (١) .

ثم يستمر السياق في التقاط صور متنوعة كلها حقيرة شائنة تثير الإشمئزاز في قلوب المؤمنين (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) و (إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراعون الناس و (مذذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء) نذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون (٢) . ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك . وعن النبي عليه الصلاة والسلام (مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ولا تدرى أيها تتبع) (٣) .

ويعقب على هذه الصور الزرية ، وهذه المواقف المهزوزة ، بأنهم حقت عليهم كلمة الله ، واستحقوا أن يبقوا في الضلالة ، ولا يجدون لهم هاديا إلى الطريق المستقيم (ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا) . وإلى هنا يكون السياق قد بلغ القمة في إثارة الإشمئزاز والاحتقار لشأن المنافقين في نفوس المؤمنين فإلتفت بالخطاب إلى المؤمنين محذرا إياهم أن يسلكوا طريق هؤلاء المنافقين في اتخاذ الكفار أولياء وموادة المنافقين الذين أعد الله لهم عذابا اليها مفرعا (بأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا . إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليهما) (٤) .

ولا يفرق قلب المؤمن ويرتجف أكثر من فرقه وارتجافه من التعرض لبطش الله ونقمته . ومن ثم جاء التعبير في صورة الاستفهام ، ومجرد التلويح بالاستفهام يكفي في خطاب قلوب المؤمنين الحساسة ونفوسهم الرقيقة الشفافة . وطريقة أخرى عالية على هذه القلوب ، غير موجهة إليها مباشرة ، ولكن عن طريق التلويح والتلميح إلى مصير المنافقين المهين (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) .

قال ابن مسعود : يجعلون في توأبيت من نار تطبق عليهم في أسفل درك من النار (٥) .

فالمنافق في الدرك الأسفل وهي الهاوية ، لفظ كفره ، وكثرة غوائله ، وتمكنه من أذى المؤمنين . والنار دركات سبعة وأعلى الدركات جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ، وقد يسمى جميعها باسم الطبقة الأولى (٦) .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم كان المنافق أشد عذابا من الكافر ؟ قلت : لأنه مثله في الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالاسلام وأهله ومداجاتهم .

- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| ١ (الكشف : ٥٧٣/١ . | ٤ (النساء : ١٤٤ - ١٤٧ . |
| ٢ (المرجع السابق : ٥٧٤/١ . | ٥ (تفسير ابن كثير : ٥٧٠/١ . |
| ٣ (تفسير ابن كثير : ٥٦٨/١ . | ٦ (تفسير القرطبي : ٤٢٥/٥ . |

وبعد كل هذا يفتح الله تعالى باب التوبة والاستغفار للمنافقين ليسارعوا إلى النجاة ، والمغفرة ، فأخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب الله عليه ، وقبل ندمه إذا أخلص توبته وأصلح عمله ، واعتصم بربه في جميع أمره فقال تعالى : (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا وأخلصوا دينهم لله) . أى بذلوا الرياء بالإخلاص وأصلحوا ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق ووثقوا بالله كما يثق المؤمنون الخالص لا يبتغون بطاعتهم إلا وجه الله (فأولئك مع المؤمنين) فهم أصحاب المؤمنين ورفقاؤهم في الدارين وسوف يؤتاهم الله جميعا أجراً عظيماً (١) .

وهكذا يعالج الحكيم العليم تلك النفوس المريضة بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى وبهما معا لعلمهم يرشدون .

المنافقون في صلح الحديبية :

نزلت في هذا الصلح سورة الفتح التي تحدثت عن نوع آخر من المنافقين هم منافقو الأعراب صنائع عبد الله بن أبي من قبائل غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والديل وهم الذين كانوا حول المدينة استنفرهم رسول الله للخروج معه إلى المسجد الحرام لأداء العمرة في السنة السادسة ، وليعلم الناس أنه لا يريد حرباً فتثاقلوا عنه واعتلوا بالشفغل . وقال بعضهم لبعض أو في أنفسهم : يذهب إلى قوم غزوة في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقتاتلهم ، وظنوا أنه يهلك ولا ينقلب إلى المدينة (٢) .

قال تعالى : (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم ومن الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً (٣) .

فآيات الكريمة لا تكتفى بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ، ولكن يجعل منها مناسبة لعلاج أمراض نفوسهم ، وهو اجس قلوبهم ، وتسليط الأنوار الكاشفة على مواطن الضعف والانحراف فيها ، ووصف العلاج الناجع لها .

(يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) تكذيب لهم في اعتذارهم وأن الذي خلقهم ليس ما يقولون وإنما هو النفاق ، وطلبهم الاستغفار أيضاً على سبيل التقية والمداواة والمصانعة . . (قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً . . .) سؤال يوحى بالاستسلام إلى قدر الله والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ ، فلا راد لقضاء الله وإن انتحلتم المعاذير الكاذبة ، وصانعتم ونافقتم . فهذا أول توجيه تربوي لهم جاء في مناسبتة على طريقة القرآن الكريم في التعقيب على الأقوال والأفعال . (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول . . .) هكذا يتركهم عرايا

١٦ / ٢٧ .

١ / ٥٧٥ .

٢ (الكشاف : ٣ / ٥٤٣ وتفسير القرطبي : ٣) الفتح : ١١ - ١٣ .

مكشوفين ، ويخرج ما يسرون وما يبطنون فى قلوبهم الخيبة ، ونفوسهم الخبيثة حين اعتقدوا أن المسلمين ستستأصل شأفتهم وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر (وكنتم قوما بورا) تعبير عجيب موح ، فالأرض البور قاحلة جرداء لا خير فيها ولا نماء ، وكذلك قلوبهم ، أى فكنتم قوما فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم وهالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه (١) .

ثم يتوعدهم ويتهددهم بأشد العقاب إذا لم يتوبوا من نفاقهم ويصلحوا أنفسهم ويطهروا قلوبهم ، وبهذا يفتح لهم سبحانه باب التوبة ليخرجوا انفسهم من العذاب (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيمًا) .

وقد أشارت السورة إلى بيعة الرضوان التى لم يتخلف عن مبايعة رسول الله أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس (أحد المنافقين من بنى سلمة) ، فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بابط ناقتة ، وقد ضبا إليها « لصق بها واستتر » يستتر بها من الناس (٢) .

وروى ابن كثير عن جابر رضى الله عنه قال رسول الله (يدخل الجنة من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر) قال : فانطلقنا نبتدره فإذا هو رجل قد أضل بعيره فقلنا له تعال فبايع قال أصيب بعيرى أحب إلى من أن أبايع وقال رسول الله : من يصعد ثنية المرار فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل ، فتبادر الناس إلى ذلك فقال النبى : (كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر) فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله . فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم فإنما هو رجل ينشد ضالة (٣) .

ولا ندرى إذا كان صاحب (الجمل الأحمر) هو الجد بن قيس الذى ذكره ابن هشام أم هو منافق آخر قد طمس الله على قلبه .

وقد أثرت ذكر خبره لنستدل من قوله على أن المنافقين كانوا لا زالوا أقوياء مضرين معاندين ، وكانت بيعة الرضوان خيرا عميما على المسلمين وشرا مستطيرا وعذابا اليما على المنافقين . قال تعالى : (ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما . ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا (٤) .

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فى صفة ظن السوء بالله وعدم الثقة بنصره للمؤمنين ، وأنهم جميعا سيشترون فى مصير واحد فى الآخرة كما اشتهروا فى هدف واحد فى الدنيا (عليهم دائرة السوء) عليهم جميعا ، بأن ينسلط الله عباده المؤمنين عليهم بالقتل والسبى والأسر فى الدنيا ، وبغضب الله ولعنته وجهنم فى الآخرة . ذلك لأنهم (ظنوا بالله ظن السوء) وهو قوله : (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم) . وقال عبد الله بن أبى لما جرى صلح الحديبية (٥) : أظن محمد أنه إذا

٣ (تفسير ابن كثير : ١٨٨/٤ .

١ (الكشاف : ٥٤٤/٤ .

٤ (الفتح : ٥ - ٧ .

٢ (سيرة ابن هشام : ٣١٦/٢ تحقيق

٥ تفسير القرطبي : ٢٦٥/١٦ ، ٢٦٦ .

الأيبارى .

صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم ! فبين الله سبحانه أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم فقال : (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً (١)) .

ولا يخفى أن المراد تهديد المنافقين وتخويفهم ، فلو أراد الله إهلاك المنافقين والمشركين والانتقام منهم لم يعجزه ذلك ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى لعلمهم بهتدون .

وعاد المسلمون من الحديبية موفورين ولأنعم الله شاكرين . وقد وعدهم الله بالفتح القريب والمغانم الكثيرة (وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً . وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ .. (٢)) .

فلما ترامى إلى أسمع هؤلاء المخلفين من الأعراب خبر هذا الوعد بالفتح القريب والمغانم الكثيرة سال لعابهم طمعا فيها ، فلما انطلق النبي والمسلمون بعد صلح الحديبية بشهرين إلى خيبر يفتحونها ، ولم يسمح النبي لأحد بالخروج معه إلا أهل الحديبية ، جاء أولئك المخلفون يسألون النبي الخروج معهم ليصيبوا من الغنيمة فلم يأذن الله لهم ، تحقيقاً لوعده لأهل الحديبية ، وعقاباً للمخلفين عن الجهاد في سبيله .

فقال : (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعوننا كذا قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا ، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً (٣)) . وبعد هذا الدرس التأديبي لهؤلاء المخلفين يضعهم الله على باب الأمل والرجاء والأجر الحسن من الله تعالى إن هم استجابوا لداعى الجهاد إذا دعاهم رسول الله بعد ذلك ، وفى الوقت نفسه يتهدهم بأعظم العذاب إن تخلفوا كما دعتهم عن النفرة للجهاد ..

(قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تنولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً (٤)) .

الفترة الثالثة : من صلح الحديبية الى فتح مكة :

تمتد هذه الفترة من صلح الحديبية إلى السنة السادسة إلى فتح مكة فى السنة الثامنة وقد تطهرت المدينة من قبائل اليهود الثلاثة (بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة) . وجرى أمر المنافقين فى هذه الفترة على ما جرى عليه قبلها من الاكتفاء بدم نفاقهم ، وتقبيح أفعالهم وأقوالهم ، ومطاولتهم وأخذهم بسعة الصدر والعفو والتسامح ، سيما أنهم فى هذه الفترة التى قل فيها القتال ، آثروا أن يركنوا إلى السكنة والهدوء ، وأن يتركوا ما دأبوا عليه فى الفترتين السابقتين من تدبير المؤامرات والمكائد للمسلمين والسعى فى إشعال نار الفتنة بينهم وكان ذلك لأسباب منها :

١ (الفتح : ٧ .

٢ (الفتح : ١٥ .

٣ (الفتح : ١٨ - ٢٠ .

٤ (الفتح : ١٦ .

اولهما : اليهود هم الذين احتضنوا المنافقين ، وكانوا يتولون تنظيمهم وتغذيتهم بما لديهم من اغانين النفاق التي جبلوا عليها وشهروا بها من تقديم العصور ، فان المعروف فى تاريخهم أنهم اساطين النفاق يصطنعونه خططا مدروسة وانظمة محددة . فلم يكن ابن ابي ايمىلا لهم ، يأتمر بأمرهم ، ووجدوا فيه طموحا حسيسا ونفسا وضيعة واستعدادا لانتهاك كل القيم الخلقية واصطناع ضروب التلون والنفاق . ولم يكن هو الذى جمع هذا القطيع من المنافقين ولكن التنظيم هو الذى جمعه وموله وجعل عليه ابن ابي الذى يترجم قبيلته عاملا ومنفذا (١) .

وقد رأينا طوال المرحلتين السابقتين أن المنافقين يوالون اليهود ويأترون بأمرهم لاعتقادهم أنهم أقوى من المسلمين شأنًا ، وأنهم سيقترون المسلمين ويخرجونهم من المدينة ، فكانوا يطلبون عندهم العزة والمنعة كما رأينا فيما حكته الآيات الكريمة .

فلما أذل الله اليهود وكسر شوكتهم ودالت الدولة عليهم بتطهير المدينة منهم ، فقد المنافقون بذلك الرأس المدبر واليد المحركة ، والأمل المنشود وخافوا أن يحل بهم ما حل باليهود سيما وأن الآيات الجهادية بدأت تتغير لهجتها من اللين إلى الشدة بعد غزوة بنى قريظة ، فقد وجهت اليهم تهديدا بالقتل إذا استمروا على ما هم عليه (لئن لم ينته المنافقون والرجفون فى المدينة . . .) فمالوا إلى الهدوء والتخفى ، وانصرفوا عن المجاهرة بالعداوة حتى يجدوا لهم سيدا جديدا بدل اليهود .

أما السبب الثانى : فكان يكمن فى صلح الحديبية والقضاء على عدو المسلمين الأول وحليف المنافقين القوى ، فقد كانوا طوال المرحلتين السابقتين يعملون لحساب قريش ينسمعون أخبار المسلمين ويفشونها لهم ، لا سيما الأسرار الحربية ، وكانوا يعملون على تعويق المسلمين وتثبيطهم عن قتالهم ، وتخويفهم وإرهابهم من قوة قريش والمشركون ، كما رأينا ذلك فى كل الغزوات كما شهدت النصوص القرآنية بذلك ، فلما عقد صلح الحديبية انكسر جناح المنافقين الثانى ، وذلك أن قريشا انصرفت عن قتال المسلمين ، فانقطعت صلتها بالمنافقين ، لأنها لم تعد محتاجة إليهم ، وهذا ما أحس به عدو الله عبد الله بن ابي يوم توقيع صلح الحديبية من اختناق إذ قال : (ايظن محمدا انه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو فأين فارس والروم) .

ولهذه العبارة التى فاه بها ابن ابي أهمية خاصة فهى تدل دلالة واضحة على أن المنافقين لا يعيشون إلا على حساب التجسس لعدو لدود للمسلمين ، ولا تنشط حركتهم ، إلا وقت الغزوات والحروب . وكانت معاهدة الحديبية بمثابة المسار الأخير فى نعش المنافقين لولا أن امتدت أنظارهم إلى الروم والعمل لحسابهم كما سنرى بعد قليل .

وكل هذا يدل على خطورة الدور الذى قام به المنافقون على الحركة الجهادية طوال الفترة السابقة . فقد عملوا مع اليهود والمشركون على القضاء على المسلمين من الداخل والخارج . فلما تمّ للمسلمين القضاء على قريش واليهود

(١) النفاق والمنافقون : ١٢٧ .

خفت صوت المنافقين ، وتضاعل شأنهم وبدأوا يسعون فى الحصول على عدو جديد للمسلمين . . وقد نزلت فى هذه الفترة سورة الحديد التى تأتى فى ترتيب النزول بعد سورة النساء آخر السور التى تحدثت عن المنافقين فى الفترة السابقة .

وقد رسمت سورة الحديد صورة مثيرة للمصير السيء الذى ينتظر المنافقين يوم القيامة . (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا نَفْسِنَا نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاعِكُمْ فَاَلْتَمِسُوا نُورًا مَضًى بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بلى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ، فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أُوَكِّمُ النَّارَ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبئس المصير (١) .

والمشهد هنا باجماله وتفصيله من المشاهد المثيرة العجيبة التى يحياها الحوار ، بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسماً قويا ، فنحن نشهد هنا منظراً عجيباً لجماعة من المنافقين والمنافقات وهم كعادتهم فى الدنيا أولو ملق وتظاهر ، أو لعلهم صادقون فيها يطلبون هذه المرة لأن فى هذا الطلب مصلحة لهم (انظرونا نقتبس من نوركم) وهذا ما كانوا يقولونه فى الدنيا (ذرونا نتبعكم) ان أرادوا الغنيمة ومكاسب الدنيا .

فالله سبحانه يذكر المنافقين بما يقع يوم القيامة من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة وأنه لا ينجو من عذاب يومئذ إلا من أتى الله بقلب سليم .

ويجربى رب العزة هذا الحوار بين المؤمنين والمنافقين (انظرونا نقتبس من نوركم) فيرد المؤمنون (ارجعوا وراعكم فالتمسوا نورا) ثم يفصل بينهما بسور له باب فينادى المنافقون (ألم نكن معكم) فيرد المؤمنون (بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم) . وهذا هو الذى سلكهم فى سقر (فتنتم أنفسكم) محتتموهما وأهلكتموهما بالنفاق (وتربصتم) بالمؤمنين الدوائر (وارتبتم) بالبعث بعد الموت (وغررتكم الأمانى) طول الآمال والطمع فى امتداد الأعمار (حتى جاء أمر الله) وهو الموت (وغرركم بالله الغرور) وغرركم الشيطان ومناكم . قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان والله ما زالوا عليها حتى قذفهم فى النار (٢) .

قال ابن كثير(٢) : ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها وإنما كنتم فى حيرة وشك فكنتم ترأعون الناس ، ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

ثم يقرع هذا المشهد أذانهم بقوة ، ويهز قلوبهم بعنف (ما أوكم النار هى مولاكم وبئس المصير) . . النار مولاهم تتولاهم ، كما تولوا فى الدنيا أهل النار من المشركين وأهل الكتاب ، جزاء وفاقاً .

ثم يهتف الله تعالى بهم ويدعوهم إلى التوبة والاستغفار (سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله

٠ ٦٤/٤

٠ الحديد : ١٣ ، ١٤ .

٢ (تفسير ابن كثير : ٣٠٩/٤ والكشاف : ٣) تفسير ابن كثير : ٣٠٩/٤ .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (١) .
والذى يلفت النظر فى هذه السورة هو اختلاف الأسلوب الذى يخاطب الله به المنافقين عن ذى قبل ، فهو سبحانه يخوفهم بعذاب الآخرة وأهوالها بعد أن كان فى الفترة السابقة يندب بالقتل فى الدنيا .

وتأتى سورة (محمد) بعد سورة الحديد فى ترتيب النزول . وقد جاء منها قوله تعالى (ومنهم من يستمعُ إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبعَ الله على قلوبهم وأتبعوا أهواءهم . والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم . فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم . فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم مقلبكم ومثواكم) (٢) .

وهنا أيضا يهدد الله تعالى المنافقين بعذاب يوم القيامة (فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة) .

ثم تصور آيات السورة بعد ذلك هلع المنافقين وفزعهم إذ أنزلت سورة محكمة يذكر فيها القتال : (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظير الغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) (٣) .

قال قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال محكمة ، وهى أشد القرآن على المنافقين (٤) .

ثم نرى هنا أيضا أن يد الرحمن تمتد اليهم بالزاد الذى يقوى عزائمهم المنهارة لو تناولوه فى إخلاص (فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر وصدقوا الله لكان خيرا لهم) .

ثم بعد ذلك وصف هذا العلاج لجبنهم وقلوبهم ، يلتفت اليهم السياق مهددا بسوء العاقبة فى النكوص عن الجهاد (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض .

ثم يصب على رعوسهم هذه اللعنة المفزعة لو انتهوا إلى ما حذرهم منه (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) .

ثم يخطو السياق خطوة أخرى يتساءل منكرا على المنافقين موقفهم المتخاذل من الجهاد (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (٥)) . أى بل قلوب مطبقة لا يخلص إليها شئ من معانيه (٦) . ثم يعرض السياق مشهدا مفزعا من مشاهد تعذيب المنافقين يوم القيامة (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنعتطيكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ، فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط

٤ (الكشف : ٥٣٥/٣ .

١ (الحديد : ٢١ .

٥ (محمد : ٢٤ .

٢ (محمد : ١٦ - ١٩ .

٦ (تفسير ابن كثير : ١٨٠/٤ .

٣ (محمد : ٢٠ - ٢٣ .

أعمالهم (١) .

التعبير رسم معنى رجوعهم عن الهدى بعد ما تبين لهم ، فى صورة حركة حسية ، حركة الارتداد على الأديار ، ويكشف ما وراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه ، فان ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان ، وهم المنافقون الذين يتخلفون ويستترون . ثم يذكر السبب الذى جعل للشيطان عليهم هذا السلطان وانتهى بهم إلى الارتداد على الأديار بعدما عرفوا من الهدى وتبينوه (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله وظلوا إليها منذ أول يوم وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد ، حينما عجزوا عن مناصبته العداء جهرة فى ميادين القتال ، وانضم إليهم كل حائق وكل منافق .

ثم يلتفت إليهم السياق مهددا (والله يعلم إسرارهم) فالله مطلع على ما يُسرون ويخفون وعالم به ومحصيه عليهم ليعذبهم به يوم القيامة (والله يكتب ما يبيتون) .

ثم يفتح المشهد عيونهم على مصيرهم الذى ينتظرهم بما قدمت أيديهم (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأديبارهم) .

فكيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة تقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح فى أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر وضرب الوجوه والأديبار التى ارتدوا عليها بعد ما تبين لهم الهدى . (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) ذلك جزاؤهم بسبب ما اختاروه لأنفسهم من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله .

ولا يكتفى المشهد بتلك النذر المتعاقبة والتهديدات المتلاحقة بل يلحقهم فى نهاية الشوط وقد بهرت أنفاسهم بتهديدهم بكشف أمرهم وفضح سترهم لرسول الله وللمسلمين (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج أضغانهم . ولو نشاء لأريناكنهم فلمعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم (٢)) .

لقد ظن المنافقون أن أمرهم سيبقى خافيا على المسلمين ، فسفه الله ظنهم ، وخبب آمالهم بكشف حالهم وإظهار نفاقهم وعداوتهم للمسلمين . وهذا النص يلهم أن الله تعالى لم يكشف أمر المنافقين فى المرحلتين السابقتين لخطبة ربانية حكيمة ، فأساء المنافقون الظن بالله وبالمسلمين واعتقدوا أنهم من المهارة والدهاء بحيث استطاعوا إخفاء حالهم على مولاهم سبحانه وعباده المؤمنين .

فهذا أول تهديد من نوعه للمنافقين بكشف سترهم ، وإظهار خفاياهم ونواياهم الخبيثة وهم لا يخشون شيئا أكثر من هذا . ثم وعد الله ابتلاء المسلمين كلهم ليميز الخبيث من الطيب وليعلم الذين نافقوا من المجاهدين الصابرين ، ولا يبقى مجال للمنافقين ، ولا للضعفاء الجزعين (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلوا أخباركم (٣)) .

(٢) محمد : ٣٠ ، ٣١ .

(١) محمد : ٢٥ - ٢٨ .

(٢) محمد : ٢٩ ، ٣٠ .

ولقد كانت وطأة هذه الآية شديدة على المؤمنين المخلصين فما بال المنافقين ؟
 روى عن الفضيل بن عياض : أنه كان إذا قرأها بكى وقال : اللهم لا تبطلينا
 فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا وعذبنا (١) . .

ومن هنا نرى أن الله سبحانه هدد المنافقين في هذه السورة بما كان
 يهددهم به في السورة السابقة في هذه الفترة — بعذاب يوم القيامة ، ثم هددهم
 بتهديد جديد أشد على نفوسهم وأكثر تأثيرا في قلوبهم وهو كشف أشخاصهم
 للرسول إذا هم أصروا على نفاقهم ومرض قلوبهم ، وهذا تطور جديد في موقف
 القرآن من المنافقين والتدرج في معاملتهم من مرحلة إلى مرحلة . ثم تجيء سورة
 (المجادلة) بعد ذلك وهي في الترتيب بعد سورة (المنافقين) وجاء فيها قوله
 تعالى : (ألم تر إلى الذين نُهوا عن التَّجَوُّي ثم يعودون لما نُهوا عنه ويتناجون
 بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤك حَتِّوْكَ بما لم يُحَيِّكَ به الله ويقولون
 في أنفسهم لولا يُعَذِّبْنَا اللهُ بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير (٢)) .
 وفي الآية استمرار للتهديد باليوم الآخر وعذابه .

وقال تعالى أيضا في نفس السورة : (ألم تر إلى الذين تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ
 اللهُ عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم
 عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتَّخَذُوا أيمانهم حِجَّةً فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ
 اللهِ فلهم عذاب مُهِين . لَنْ نَغْنِيَّ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون
 لكم ويحسبون أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون . استحوذَ عليهم الشيطانُ
 فأنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣))
 فالله تعالى يتوعدهم مرات في هذه الآيات (أعد لهم عذابا شديدا) (فلهم عذاب
 مهين) (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم
 فيها خالدون) .

ونلاحظ أنه تعالى توعدهم بعذاب يوم القيامة . ثم يستمر السياق في رسم
 لهم صورة مهينة يوم القيامة وهم يحلفون لله تعالى كما يحلفون للمسلمين (يوم
 يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) مما يشير إلى أن النفاق قد
 تأصلت جذوره وتغلغلت في كياناتهم حتى أنه ليصاحبهم إلى يوم القيامة وفي حضرة
 الله ذي الجلال الذي يعلم خفايا القلوب وما تكنه الصدور (يحسبون أنهم على
 شيء) وهم على هواء لا يستندون إلى أي شيء . ويدفعهم إلى ذلك الكذب الأصيل
 الراسخ في عروقهم (إلا إنهم هم الكاذبون) . .

ثم تجيء سورة (التحريم) التي تأتي في الترتيب بعد سورة المجادلة بسورة
 واحدة وفيها هذه الآية : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلِبْ عَلَيْهِمُ مَوَاوَاهُمْ
 جَهَنَّمَ بئس المصير (٤)) .

رأينا الحملات التنديدية العنيفة على المنافقين في السور السابقة قد بلغت
 القمة . وما هو ذا القرآن في نهاية الشوط يأمر فيه الله تعالى رسوله بمجاهدة

١ (تفسير القرطبي : ٢٥٤/١٦ ، ٢ (المجادلة : ١٤ — ١٩ .

والكشاف : ٥٢٨/٣ . ٤ (التحريم / ٩ .

٢ (المجادلة : ٨ .

الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم .

واختلف المفسرون فى كيفية مجاهدة المنافقين :

قال القرطبى (١) : أمره أن يُجاهد المنافقين بالغلظة وإقامة الحجة ، وأن يعرّفهم أحوالهم فى الآخرة ، وأنه لا نور لهم يحوزون به الصراط مع المؤمنين . وقال الحسن رضى الله عنه : أى جاهدهم بإقامة الحدود ، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود .

وهو ما ذهب إليه ابن كثير (٢) : بأن مجاهدتهم بإقامة الحدود عليهم .. وقال الزمخشري (٣) : بالاحتجاج واستعمال الغلظة والخشونة والمحاجة . وعن مجاهد : مجاهدة المنافقين بالوعيد ، وقيل بإفشاء أسرارهم .. والذى أرجحه هو مجاهدتهم بالوعد والوعيد ، والإغراء والتهديد ، بإفشاء أسرارهم والخشونة فى معاملتهم والابتعاد عن مجالستهم ، وعدم التساهل معهم أو التجاوز عن أخطائهم .

ويبدو أن هذه الآية جاءت تمهيدا لصدور الأحكام النهائية فى شأنهم . فهى أول آية من نوعها تأمر بمجاهدتهم . وقد وردت بنصها فى سورة التوبة آخر سورة القرآن الكريم نزولا مما يرجح ما ذهب إليه أن هذه الآية تعتبر تطورا كبيرا فى سياسة الآيات الجهادية مع المنافقين ..

الفترة الرابعة : من فتح مكة إلى آخر عهد النبوة :

أن الأوان فى هذه الفترة الأخيرة لأخذ المنافقين بسياسة الحزم والشدة والغلظة . فقد صبر المسلمون على كيدهم وإذاهم طوال الفترات السابقة لحكمة ربانية كان فيها الخير كل الخير لمصلحة الجماعة المسلمة الناشئة التى كانت تواجه عداوة اليهود فى داخل المدينة والأعراب من حولها وقريش وأحلافها من خارجها ، فلم يكن من المصلحة إثارة حرب أهلية فى داخل المدينة ، وإثارة الفترات العصبية القبلية إذا تعرض المسلمون لقتل منافق من المنافقين . خاصة وأنهم كانوا من قبيلتين بينهما من الإحن والعداوة ما لا يعلمه إلا الله ، ومن ناحية أخرى كانت رابطة الدم والعصبية لا زالت قوية بين مسلمى الأنصار الذين لم ينضج إسلامهم بعد وبين إخوانهم وذوى قرباهم من المنافقين . ومهما اجتهدنا فى التعرف على الأسباب فيجب أن نسلم بأن الله سبحانه هو الذى رسم هذه الخطة وأمر المسلمين بتنفيذها وليس لهم من أمرها شئ .

أما فى هذه المرحلة الأخيرة — وقد فتحت مكة وأسلمت قريش التى كان المنافقون يعملون لحسابها فى المدينة ، وانتشر الإسلام انتشارا عظيما فى جزيرة العرب كلها ، واندمج المهاجرون والأنصار فى أخوة الإسلام اندماجا كاملا ، وذابت العصبية القبلية ، وانتهت رابطة الدم وحلت محلها رابطة العقيدة ، فنسى الأنصار قربانهم لأولئك المنافقين وتطهرت الجزيرة من اليهود — لم يبق بعد هذا إلا تطهير صفوف المسلمين من المنافقين آخر الأعداء وأشدّهم خطرا سيما أن

١ (تفسير القرطبى : ٢٠١/١٨ .

٢ (تفسير ابن كثير : ٣٩٣/٤ .

المنافقين أخذوا يبحثون عن أعداء جند للمسلمين يعملون لهم ، فاصحبت أقطارهم إلى نصارى الشام من عرب وروم ، فتجدد فيهم الأمل بعد اليأس ، وأحسوا بالقوة بعد الضعف ، وبدأوا يرغمون رعويسهم من جديد بعد أن خمدت أنفاسهم في الفترة السابقة التي قضى فيها على أعداء المسلمين . .

وقد أشارت سورة التوبة التي نزلت في هذه المرحلة إلى ما انعمد بين المنافقين والروم من صلوات قبل غزوة تبوك وكان حلقة الوصل فيها (أبو عامر الفاسق) أحد زعماء المنافقين وهو الذي قال لرسول الله : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فقاتله مع مشركى قريش يوم أحد قتالا شديدا ولم يزل يقاتله حتى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن فرّ هاربا إلى الشام وذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي عليه الصلاة والسلام فوعده وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب يعدمهم ويمينهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله إلى تبوك ، وجاءوا رسول الله فسألوه أن يأتى فيصلى في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء ، وأهل العلة في الليلة الثمانية فعصمه الله من الصلاة فيه . فلما قفل راجعا من تبوك إلى المدينة ولم يبق بينه وبينها الا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم — مسجد قباء الذى أسس من أول يوم على التقوى — . فبعث رسول الله إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة (١) .

وانزل الله تعالى فيه هذه الآيات : (والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين آمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم . والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) (٢) .

فقوله تعالى : (وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل) أى أنهم أعدوا هذا المسجد لأجل عدو الله وهو أبو عامر الفاسق (٣) .
وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم أنها نزلت في أبى عامر الراهب (الفاسق) لأنه كان خرج إلى تيصر وتنصر ووعدهم قيصر أنه سيأتيهم ، فبنوا مسجد الضرار يرصدون مجيئه فيه (٤) .

وقد حكى القرآن الكريم أقوال المنافقين وأفعالهم المؤذية في غزوة تبوك

- | | |
|-----------------------------------|-----------------------------|
| ١ (سيرة ابن هشام : ٥٢٩/٢ ، ٥٣٠) | ٢ (التوبة : ١٠٧ - ١١٠) |
| وأسباب النزول ١٧٥ للواحدى وتفسير | ٣ (الكشاف : ٢١٤/٢) |
| ابن كثير ٢٨٧/٢ وتفسير القرطبي | ٤ (تفسير القرطبي : ٢٥٣/٨) |
| ٢١٣/٢ . | |

التي نزلت فيها سورة التوبة والتي تناولت المنافقين إذ أنها تكاد تكون قاصرة عليهم . وهي بإجماع علماء المسلمين أشد ما نزل في شأنهم حتى أنهم سموها بأسماء تدل على ذلك . قال سعيد بن جبير سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة ، ما زال ينزل ، ومنهم ومنهم ، حتى خفنا ألا تدع أحدا . وقال القشيري أبو النصر عبد الرحيم : هذه السورة كشفت أسرار المنافقين . وتسمى الفاضحة والبحوث لأنها تبحث عن أسرارهم ، وتسمى المبعثرة والمبعثرة البحث (١) .

وأورد الزمخشري (٢) : لها أسماء أخرى : فهي المشقشة ، والمبعثرة ، والمشردة ، والخزية ، والفاضحة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمثكلة ، والمدممة ، وسورة العذاب . وهي نقشقتش من النفاق : أى تبرئ منه ، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتكلمهم وتشردهم وتخزيهم وتدمم عليها .

وعن حذيفة رضى الله عنه : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هى سورة العذاب ، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه .

وتبدأ السورة بالنعى على المتناقلين فى هذه الغزوة الذين دعوا إلى التجهيز فتناقلوا إلى الأرض ومالوا إلى الراحة وهؤلاء ليسوا كلهم من المنافقين (يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير .. إلى قوله تعالى : (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٣)) .

وظاهر من صيغ التائب والتهديد والتوكيد المكررة فى هذا المقطع ، ومن تذكير الذين آمنوا بنصر الله لرسوله ، ومن الأمر الجازم بأن ينفروا خفافا وثقالا . وظاهر من كله أن الله سبحانه يبين للمخلصين والمنافقين على السواء أنه لا يقبل لدينه والجهاد فى سبيله التردد فى أمر الجهاد دفعا عن العقيدة والحوزة (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم) هذه الصيغة من أشد ما وقع على أسماع المؤمنين وقلوبهم الشفافة الرقيقة التى يغنيها التلميح عن التصريح . ثم يعود السياق مشددا (انفروا خفافا وثقالا) فلم يعذر الله أحدا فى هذه الآية .

ثم تجيء بعد هذه الآية مباشرة الحملات القارعة التى تفضح نفاق المنافقين وتسجل عليهم الكفر وسوء النية ، ثم تحكى أقوالهم وأفعالهم الخزية فى تهكم وسخرية لاذعة ، ويستغرق الحديث عنهم أكثر من نصف السورة .

ويتجلى لنا من هذا القطاع الذى يتحدث عن المنافقين والذى يمثل جسم السورة كيف عاد النفاق بعد فتح مكة فاستشرى بعد ما كاد يتلاشى من المجتمع المسلم ..

وفى هذا القطاع يوضح لنا كيف حدد الله سبحانه الخطة النهائية لاستئصال جذور النفاق فأول مشاهد هذا المقطع قوله تعالى : (لو كان عرضا

(٢) التوبة : ٢٨ - ٤١ .

(١) تفسير القرطبي : ٦١/٨ .

(٢) الكشاف : ١٧١/٢ .

قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون (١) .

هذا هو شأن المنافقين دائما ، فهم يكثرون في الغزوات القريبة المضمونة النصر والغنيمة . ويقتلون في الغزوات الشاقة البعيدة الخطرة ، فقد رأيناهم يكثرون في غزوة بنى المصطلق كثرة لم يسبق لها مثل ويتسابقون إلى المشاركة في فتح خيبر ، وها هم يتخلفون عن غزوة تبوك (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة) . ثم يقول تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) (٢) .

الآية تلهم أن هؤلاء المتخلفين قد استأذنوا في عدم الخروج فأذن لهم الرسول عليه الصلاة والسلام ولكن الله لم يعذرهم . وتوحى هذه الآية أيضا أن رسول الله لم يكن يومئذ يعرف المنافقين ، وإنما عرفهم بعد نزول سورة (التوبة) وهذا ما قتله ابن عباس (٣) . وهو مفهوم من قوله تعالى (حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) .

وهنا يبدأ السياق في وضع الأسس التي يميز بها رسول الله المؤمن من المنافق فيقول في الآية التي تليها (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) (٤) . هذه هي القاعدة التي لا تخطئ . فالاستئذان في التخلف عن الجهاد ليس من عادة المؤمنين ولا من أخلاقهم وإنما هو من صميم أخلاق المنافقين ومن علاماتهم المميزة .

ثم يبصر الله تعالى نبيه بأكاذبيهم ويكشف عن حكمة كراهيته سبحانه خروجهم مع المسلمين إلى الجهاد (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كرهه الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اتعدوا مع القاعدین لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم بيغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) (٥) . قاله تعالى هو الذي ثبطهم ولم يبعث فيهم الهمة للخروج لما يعلمه من نواياهم السيئة . (وقيل اتعدوا مع القاعدین) غاية في الذم والتحقير وإلحاق لهم بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت . فكانه تعالى يقول : هذا مكانكم اللائق بهمكم الساقطة وقلوبكم المرتابة ونفوسكم المضطربة المترعدة .

ثم يبين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم بيغونكم الفتنة . . .) ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قسوة بخروجهم بل ل زادوهم اضطرابا وفسادا (ما زادوكم إلا خبالا) لأنهم جناء مخذلون (ولأوضعوا خلالكم بيغونكم الفتنة) وهذه هي عادتهم في كل غزوة خرجوا فيها يسعون بين المسلمين بالفتنة وإفساد ذات البين والوقيعة والتفرقة والتخذيل (وفيكم سماعون لهم) وهذه العبارة توحى أن المسلمين لا زالوا لم يكتشفوا حقيقة نوايا المنافقين ولم يقطعوا ما بينهم من حبال

٤ (التوبة : ٤٤ - ٤٥ .

٥ (التوبة : ٤٦ ، ٤٧ .

١ (التوبة : ٤٢ .

٢ (التوبة : ٤٣ .

٣ (تفسير القرطبي : ١٥٥/٨

المجودة ، فكان من المسلمين من يسمع لهم ويطيعهم فيما يدعونه اليه . . وهذا خطر على قوة المجاهدين وتماسك صفوفهم . ويذكر السياق رسول الله والذين آمنوا معه بتاريخ المنافقين الأسود معهم فيقول تبارك وتعالى (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقبلوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) (١) .

قال لهن كثير (٢) : لقد عملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده ، مدة طويلة . وذلك أول مقدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربتهم يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبي وأصحابه هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهرا ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ، ولهذا قال تعالى (حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) . ثم يأخذ السياق في عرض معاذيرهم الكاذبة ، ويكشف عما تنطوي عليه صدورهم من التريص بالرسول وبالمسلمين (ومنهم من يقول إئذني لى ولا تفتنى إلا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) (٣) .

قال ابن عباس (٤) : نزلت في الجد بن قيس إذ قال : إئذني لى في القعود وهذا ما لى أعينك به ، فأنزل الله تعالى فيه (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) (٥) .

فالجدة بن قيس أراد أن يمسك العصا من الوسط وأن يخدع المسلمين بنفقتهم ولكن الله لم يتقبلها منه ومن أمثاله وأحبط أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأبان عن سر ذلك بقوله تعالى (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) (٦) . وقوله (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم يعدونها مغرما ومنعها مغنما . من صفاتهم الميزة لهم سلاطة السننهم التي لا يسلم منها أحد من المسلمين المتبرعين بصدقة كبيرة أو صغيرة للجهاد في سبيل الله (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم) (٧) .

روى أن رسول الله حث على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب ، وقيل بأربعة آلاف درهم وقال : كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة وأمسكت أربعة لعيالى ، فقال له رسول الله : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت ، وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من التمر . وجاء أبو عقيل الأنصارى رضى الله عنه بصاع من تمر فقال : بت ليلتى أجر بالجربير على صاعين ، فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع ، فأمره رسول الله أن ينثره في الصدقات ، فلمزه المنافقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ، ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت (٨) .

وقد نددت الآيات بالمتخلفين وحقرتهم تحقيرا شديدا (فرح المخلفون

- | | |
|------------------------------|--------------------|
| ١ (التوبة : ٤٨ . | ٥ (التوبة : ٥٣ . |
| ٢ (تفسير ابن كثير : ٣٦١/٢ . | ٦ (التوبة : ٥٤ . |
| ٣ (التوبة : ٤٩ . | ٧ (التوبة : ٧٩ . |
| ٤ (تفسير القرطبي : ١٦١/٨ . | ٨ (الكشاف : ٢٠٤ . |

بمقتدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .
وقالوا لا تنفروا فى الحرب قتل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا
قليلًا وليكفوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون (١) .

وقوله تعالى : (وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله
استئذناك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدین . رضوا بأن يكونوا
مع الخوالم وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) (٢) وقال أيضا (إنما السبيل فى
الذين يستئذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع الله على قلوبهم
فهم لا يعلمون . يعتذرون إليكم إذا رجعتن إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد
نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب
والشهادة فبينكم بما كنتم تعملون) (٣) .

وقد تكررت عبارة (رضوا بأن يكونوا مع الخوالم) كثيرا ليطعنهم الله
تعالى فى صميم رجولتهم وشرفهم ، وأنهم كالنساء والصبيان ، وقد سخر منهم
وتهمك على أفعالهم الدنيئة وهمهم الهابطة .

وقوله (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله
ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم) (٤) .
قال ابن اسحق (٥) : هم نفر من غفار ، اعتذروا للرسول عليه الصلاة
والسلام فلم يعذرهم الله تعالى .

وروى أن قوما من المنافقين اجتمعوا ، فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن
ثابت ، وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقره فتكلموا وقالوا : إن
كان ما يقول محمد حقا لنحن شر من الحمر . فغضب الغلام وقال : والله إن ما
يقول حق وأنتم شر من الحمير ، فأخبر النبى عليه الصلاة والسلام بقولهم ،
فحلفوا أن عامرا كاذب ، فقال عامر : هم الكذبة ، وحلف على ذلك وقال : اللهم
لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب (٦) . فأنزل الله هذه
الآية (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله
ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم
عذاب اليم . يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا
مؤمنين . ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك
المخزى العظيم) (٧) .

وقيل نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون الرسول ويقولون ما لا
ينبغى ، قال بعضهم : لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلفه ما تقولون فيقع بنا فقال
الجلاس بن سويد نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول ، فإنما محمد أذن
سامعة ، فأنزل الله هذه الآية (٨) .

وكان أكثر ما يخشاه المنافقون أن تنزل على الرسول سورة تفضح سترهم ،
وتفشى سرهم . (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل

- | | |
|-----------------------------|---------------------------------------|
| ١ (التوبة : ٨١ ، ٨٢ . | ٦ (أسباب النزول : ١٦٨ للواحدى وتفسير |
| ٢ (التوبة : ٨٦ ، ٨٧ . | القرطبى : ١٩٣/٨ . |
| ٣ (التوبة : ٩٣ ، ٩٤ . | ٧ (التوبة : ٦١ - ٦٣ . |
| ٤ (التوبة : ٩٠ . | ٨ (أسباب النزول : ١٦٨ وتفسير |
| ٥ (سيرة ابن هشام : ٥١٨/٢ . | القرطبى : ١٩٣/٨ . |

استهزئوا ان الله مخرج ما تحذرون (١) .
 قال السدى : قال بعض المنافقين : والله لو ددت انى قدمت فجلدت مائة
 جلدة ولا ينزل فينا شيئا يفضحنا ، فأنزل الله هذه الآية . وقال مجاهد : كانوا
 يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا سرنا (٢) .
 وقوله (قل استهزئوا) هذا وعيد وتهديد (إن الله مخرج ما تحذرون) فإن
 الله منزل عليهم ما يفضحهم ويبين أمرهم . فأنزل سورة البراءة فى شأن المنافقين
 تخبرهم بمساويهم ومخازيهم ومثالبهم ، ولهذا سُميت الفاضحة والمثيرة
 والمبعثرة . وقال الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الحفارة لأنها
 حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته . وقال قتادة : هى فاضحة المنافقين (٣) .
 وقال تعالى : (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته
 ورسوله كنتم تستهزئون) (٤) .

هذه الآية نزلت فى الطريق إلى تبوك بينما رسول الله يسير فى غزوة
 تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا بعضهم لبعض : هذا يفتح
 قصور الشام ويأخذ حصون بنى الأصفر : اتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال
 العرب بعضهم بعضا : والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال ، إرجافا وترهيبا
 للمؤمنين ، فقال مخش بن حمير : والله لو ددت انى أقاضى على أن يضرب كل
 رجل منا مائة جلدة ، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه . وقال رسول
 الله لعمار بن ياسر أدرك القوم فإنهم قد احترقوا — هلكوا ، وذلك للذى يخضون
 فيه — فسلمهم عما قالوا ، فإن انكروا فقل بلى قلتكم كذا وكذا فانطلق
 إليهم عمار ، فقال لهم ذلك : فأتوا رسول الله يعترفون فقال وديعة بن ثابت
 ورسول الله واقف على ناقته فجعل يقول وهو آخذ بحقيها : يا رسول الله إنا
 كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية (٥) : (لا تعتذروا قد كفرتم
 بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) (٦) .
 والذى تاب الله عليه هو مخش بن حمير — كان منافقا — ثم تاب توبة
 نصوحا ، ودعا الله أن يقتل شهيدا ولا يعلم بقبوره فاستشهد باليامة ولم يوجد
 له أثر .

ثم يبين الله صفات المنافقين الذين كانوا يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف
 ولا ينفقون فى سبيل الله ولا يشاركون فى الجهاد (المنافقون والمنافقات بعضهم
 من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم
 إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم
 خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) (٧) .
 ويتوعددهم بالخسران فى الدنيا والآخرة للذى يخوضون فيه ويقترفون من
 الخبائث كحلفائهم من اليهود : (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا

- | | |
|--|--|
| ١ (التوبة / ٦٤ . | ٤ (التوبة : ٦٥ . |
| ٢ (أسباب النزول : ٦٨ للواحدى وتفسير القرطبي : ١٩٥/٨ وتفسير ابن كثير : ٣٦٦/٢ . | ٥ (أسباب النزول : ١٦٩ للواحدى وسيرة ابن هشام : ٥٢٥/٢ وتفسير القرطبي : ١٩٧/٨ وتفسير ابن كثير : ٣٦٧/٢ . |
| ٣ (تفسير القرطبي : ١٦٨/٨ وتفسير ابن كثير : ٣٦٧/٢ . | ٦ (التوبة : ٦٦ . |
| | ٧ (التوبة : ٦٧ ، ٦٨ . |

وأولاداً فاستمتعوا بخلاقتهم فاستمتعتم بخلاقتكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقتهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون (١) .

ثم يلتفت السياق إلى المنافقين بالتحذير والتهديد بأن الله سيحل بهم ما حل بالأمة السابقة قبلهم من الهلاك والدمار (ألم يأتيهم نبي الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (٢) .
وتنتقل الآيات بعد كل هذا البيان إلى حكم الله النهائي في المنافقين . فقال تعالى : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم وماواهم جهنم وبئس المصير) (٣) .

وقد أمر تعالى أيضاً بمجاهدة الكفار والمنافقين في سورة التحريم كما سبق أن ذكرت . واختلف العلماء في طريقة مجاهدة المنافقين . فقد قال قتادة : جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وقاتلوا أكثر ما يصيب الحدود . وكذلك قال الحسن رضي الله عنه وابن عباس مع شدة الزجر والتغليظ . أما ابن مسعود فقد قال : جاهد المنافقين بيديك ، فإن لم تستطع فبلسانك فإن لم تستطع فأكفهم في وجوههم (٤) .

ولكن اختار الإمامان ابن جرير وابن كثير رأياً آخر هو ما أرجحه : قال ابن كثير : أمر الله تعالى رسوله : بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم وأخبره أن مصيرهم إلى النار . وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : بعث رسول الله بأربعة أسياف : سيف للمشركين (فإذا انسلك الأشر الحرم فاقتلوا المشركين) . وسيف للكفار وأهل الكتاب - وسيف للمنافقين (جاهد الكفار والمنافقين) وسيف للبطانة (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) . وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير (٥) .
وقد رجحت هذا الرأي (مجاهدتهم بالسيف) لأنه يتفق مع طبيعة المنهج الحركي للجهاد . فما ذكره علماؤنا من مجاهدتهم بالحجة واللسان وبالغلظة وإقامة الحدود يصح في مرحلة أسبق من هذه المرحلة الأخيرة فقد وافقتهم في المرحلة الثالثة على مجاهدة المنافقين بإفشاء أسرارهم والقسوة عليهم إذ كان ذلك يعتبر تطوراً جديداً في معاملتهم . أما وقد وضعت الأحكام النهائية للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين (فمجاهدتهم بالسيف أولى) وهم بالقتل أحق ، وله أهل .

قال ابن العربي (أما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة ، وأما بالحدود لأن أكثر إصابتها بالحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها ، وليس العاصي بمنافق ، وإنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كما ، لا بما تلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقتها أنهم لم يكونوا منافقين) (٦) .

- ١ (التوبة : ٦٦ . القرطبي : ٢٠٤/٨ ، وفتح القدير :
٢ (التوبة : ٧٠ . والكشاف : ٢٠٢/٢ .
٣ (التوبة : ٧٣ . تفسير ابن كثير : ٣٧١/٢ .
٤ (تفسير ابن كثير : ٣٧١/٢ وتفسير ٦ (تفسير القرطبي : ٢٠٤/٨ .

ويستطرد السياق في ذكر مبررات هذا القرار النهائي — مجاهدتهم بالسيف دون رحمة ولا شفقة — في دين الله — (يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، فإن يتوبوا بك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا ليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولى ولا نصير) (١) .

قيل نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد ، ووديعه بن ثابت ، وقمعا في النبي وقالوا لئن كان محد صادقا على إخواننا (المنافقين) الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير) .

فهذه هي كلمة الكفر ، ولما دعا رسول الله الجلاس أنكر وحلف (يحلفون بالله ما قالوا) (وهبوا بما لم ينالوا) هبوا بقتل رسول الله في طريق عودته من غزوة تبوك . وروى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله أقود وعمار بن ياسر يسوق الناقة حتى إذا كنا بالعقبة فإذا بائنى عشر راكبا قد اعترضوه فيها فصرخ بهم رسول الله فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله (هل عرفتم القوم) ؟ قلنا : لا يا رسول الله قد كانوا ملثمين ولكننا عرفنا الركاب ، قال رسول الله : (هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا ، قال : (أرادوا أن يزاحموا رسول الله فى العقبة فيلقوه فيها . وفى رواية (أرادوا أن ينفروا برسول الله راحلته فيطرحوه) . وقد أعلم رسول الله حذيفة وعمارا بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات الله عليه . ولهذا يقال لحذيفة صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى تعيين جماعة المنافقين وهم هؤلاء وقد أطلعهم رسول الله دون غيره (٢) . وهذه الرواية تؤكد عداوة المنافقين ونقمتهم على رسول الله والمؤمنين . وهذا من مبررات أعمال السيف فى رقابهم حتى لا يعمثوا فى الأرض فسادا ويهلكوا الحرث والنسل .

ثم يمضى السياق مبينا أصناف المنافقين الذين يجب أن يؤخذوا بالشددة والقسوة .

(ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) (٣) .

نزلت فى ثعلبة بن أبى حاطب قال لرسول الله (ادع الله أن يرزقنى مالا) وقال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله لى فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، فقال رسول الله (اللهم ارزق ثعلبة مالا) فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود . حتى ضاقت عليه المدينة . فنزل واديا من أوديتها وترك الصلوات إلا الجمعة . ولما أرسل رسول الله يطلب منه صدقة ماله : قال : ما هذه إلا أخت الجزية) فبخل فقال رسول الله : يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة . فنزلت (٤) .

- | | |
|---------------------------------------|-------------------------------------|
| ١ (التوبة : ٧٤ . | ٤ (أسباب النزول : ١٧٠ - ١٧٢ وتفسير |
| ٢ (أسباب النزول : ١٧٠ للواحدى وتفسير | ابن كثير ٣٧٤/٢ وتفسير القرطبي : |
| ابن كثير : ٣٧٢/٢ . | ٢٠٩/٨ . |
| ٣ (التوبة : ٧٥ - ٧٨ . | |

ثم شرع الله تعالى فى بيان أحوال منافقى الأعراب اثر بيان منافقى أهل المدينة .

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (١) . أخبر تعالى أن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد . والتعبير يعطى وصفا ثابتا متعلقا بالبدو وبالبدواة . والمعروف عنهم شدة جفوتهم وفضاظتهم وغلظتهم المتأصلة فى نفوسهم بالطبع والنشأة فى الصحارى وحياة البدو . فقد عرفوا بالنفاق والالتواء إذا تهرؤا وغلبهم غيرهم ، والاعتداء على غيرهم إذا آنسوا فى انفسهم قوة وفى غيرهم ضعفا (واللّه عليم) بأحوال عباده وصفاتهم وطباعهم (حكيم) فيما قسم بينهم من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق لا يسئل عما يفعل لعلمه وحكمته .

وبعد هذا الوصف العام للأعراب يشرع للسياق فى بيان تشعب جنس الأعراب الى فريقين حسبما أحدث الإيمان فى نفوسهم من تعديلات (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم) (٢) .

وقوله : (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) (٣) . أخبر تعالى أن فى الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد . وقد عجل سبحانه بذكر المنافقين من الأعراب قبل المؤمنين منهم لإحاطا لهم بمنافقى المدينة الذين كان يتحدث عنهم فى المقطع السابق .

فهذا الصنف من الأعراب (يتخذ ما ينفق مغرما) أى يرون ما ينفقون فى الجهاد والزكاة غرما لا يرجون عليه ثوبا لأنهم لا ينفقون إلا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله وابتغاء الثواب من عنده . (ويتربص بكم الدوائر) أى ينتظرون بكم دوائر الدهر ونوائبه ودوله (لتذهب غلبتكم عليهم فيتخلصون من إعطاء الصدقة ، فهم يجمعون إلى الجهل بالانفاق سوء الدخلة وخيب النية (عليهم دائرة السوء) دعا سبحانه عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على سبيل الاعتراض — أى عليهم دائرة العذاب والبلاء ، وهى منعكسة عليهم ومحيطة بهم لا يفلتون منها) (٤) .

وقد كشفت الآيات عن صنف ثالث من المنافقين بعد أن كشفت عن منافقى أهل المدينة ومنافقى الأعراب هؤلاء (هم مردة المنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب) (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) . . . فهوؤلاء صنف خاص حذق النفاق ومرن عليه ، ولج فيه ، ومرد عليه ، حتى ليخفى أمره على رسول الله مع كل فراسته وتجربته (لا تعلمهم نحن نعلمهم) أى لا يعلمهم إلا الله ولا يطلع على سرهم غيره ، لأنهم يبتنون الكفر فى سويداوات

٤ (تفسير القرطبي : ٢٢٤/٨ وتفسير ابن

١ (التوبة : ٩٧ .

كثير : ٢٨٢/٢ والكشاف : ٢٠٩/٢

٢ (التوبة : ٩٨ — ٩٩ .

وآبو السمود : ٢٨٦/٢ .

٣ (التوبة : ١٠١ .

قلوبهم إبطانا ، ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين لا تشك معه فى إيمانهم ، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به فلهم فيه اليد الطولى . ومنه يقال شيطان مريد ومارد (١) .

ولهؤلاء المردة ضعفان من العذاب (سننعبدهم مرتين) جزاء عتوهم وتجبرهم وتبردهم .

قال ابن عباس رضى الله عنه فى هذه الآية : قام رسول الله خطيبا يوم الجمعة فقال : « أخرج يا فلان فانك منافق ، وأخرج يا فلان فانك منافق . . » فأخرج من المسجد ناسا منهم فضحهم . ثم قال : فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثانى عذاب القبر ، وكذا قال الثورى والسدى . وقال مجاهد فى قوله « سننعبدهم مرتين » يعنى القتل والسبى ، وقال سعيد بن قتادة والحسن البصرى وعبد الرحمن بن زيد « عذاب الدنيا وعذاب القبر » . وقيل الفضيحة وعذاب القبر والقتل (٢) .

وهناك عقوبات أخرى كثيرة شرعها الله فى هذه السورة لمجاهدة المنافقين غير « القتل بالسيف » . ربما تكون للأصناف الأقل خطورة من (المردة) منها قوله تعالى : « فإن رجعتك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالعودة أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » (٣) .

قال الزمخشري (٤) : « وكان إسقاطهم من ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذى علم الله أنه لم يدعمهم إليه إلا النفاق » .

فهذه أول عقوبة وهى الحرمان من الاشتراك فى الجهاد . .

وقال تعالى أيضا : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون » (٥) .

وهذه هى العقوبة الثانية : « فأعرضوا عنهم إنهم رجس » . قال ابن عباس : « لا تجالسوهم ولا تكلموهم » (٦) لأنهم أنجاس لا سبيل إلى تطهيرهم .

وحرى بأمثالهم أن يُعزلوا عن المجتمع كما يُعزل البعير الأجرب ، حتى لا تتسرب أمراضهم الخبيثة إلى المسلمين فتفسد حياتهم « إنهم رجس » كالمشركين سواء بسواء « إنها المشركون نجس » .

وعقوبة ثالثة : هى عدم رضاء الله ولا المؤمنين عنهم لأنهم خرجوا عن طاعة الله ورسوله « يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (٧) .

وعقوبة رابعة : إنه لا يجوز لأحد من المؤمنين أن يواد المنافقين أو يستغفر لهم حتى ولو كان رسول الله نفسه ، لأنهم ليسوا أهلا للرحمة والاستغفار

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين » (٨) .

- | | |
|--------------------------------------|------------------------------|
| ١ (تفسير ابن كثير : ٢/٢٨٤ ، والكتاب | ٤ (الكتاب : ٢/٢٠٦ . |
| ٢ (تفسير ابن كثير : ٢/٢٨٥ ، والكتاب | ٥ (التوبة : ٦٥ . |
| ٣ (تفسير ابن كثير : ٨/٢٤١ . | ٦ (تفسير ابن كثير : ٢/٢٨٢ . |
| ٤ (التوبة : ٨٣ . | ٧ (التوبة : ٩٦ . |
| | ٨ (التوبة : ٨٠ . |

وعقوبة خامسة : وهى عدم الصلاة على من يموت منهم « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » (١) .

وعقوبة سادسة : عدم قبول نفقاتهم فى الجهاد : « قل انفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى أولا ينفقون إلا وهم كارهون . فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون » (٢) .

ومن هنا نرى أن هذه العقوبات الكثيرة قد ضيقت عليهم الخناق فأصبحوا مذبذبين معزولين عن المجتمع المسلم وان من أظهر منهم غشا أو كيدا للمسلمين فالسيف جزاؤه . . وقد ذكرت هذه السورة آخر هذه العقوبات الشديدة على المنافقين وصورت ذلك أدق تصوير « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » (٣) . فقد رسمت لهم هذه الآية صورة حافلة بالحركة تشى بالضعف والهزال الذى آل إليه أمرهم « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض « كانوا إذا حضروا مجالس الرسول وهو يتلو قرآنا فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم ينظر بعضهم إلى بعض نظرة الرعب والفزع والهلع فيترامقون على تدبير الانسلاخ لو اذا ، يقولون : هل يراكم من أحد ، فتولوا دون أن يشعر بهم أحدهم كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » فانصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » كقوله تعالى « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » .

ثم ترسم لهم السورة صورة أخرى هزيلة تشى بما آل إليه أمرهم « ويلفون بالله أنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون » (٤) .

فما هم أولاء يلجأون إلى الأيمان المغلظة يتقون بها القتل « يلفون بالله أنهم لمنكم » والذى حملهم على ذلك « لكنهم قوم يفرقون » جزعهم وفزعهم وهلعهم من المؤمنين أن يؤذن لهم فى قتلهم فيستأصلون شأفتهم ويقطعون خضراءهم فهم يتظاهرون بالإسلام تقية القتل والسبى والأسر .

وتصور السورة شدة خوفهم فى صورة مزرية تُثير الضحك والسخرية « لو يجدون ملجأ » أى حصنا يتحصنون فيه ويتحرزون به أو مغارات يأوون إليها ويغيرون فيها أشخاصهم أو حفرا يدفنون فيها أنفسهم ، لالتجأوا إليها مسرعين ولا يرددهم شئ « وهم يجمعون » كالخيل أو الحمر .

والآية توحى بالضعف والهزال الذى أصاب المنافقين فى هذه الفترة ، فلم تعد لهم قوة ، ولم يجدوا وليا ولا نصيرا ، وقد انكشف أمرهم ، وانفضح سرهم ، وباتوا عرايا مكشوفين يتوقعون الموت والهلاك فى كل لحظة « يحسبون كل صيحة عليهم » .

ويبدو أن هذه الآية من أواخر ما نزل من سورة التوبة لأنها صورت أثر تلك الحملات القارعة المزلزلة للنفاق والمنافقين .

٣ (التوبة : ١٢٧ .

١ (التوبة : ٨٤ .

٤ (التوبة : ٥٦ ، ٥٧ .

٢ (التوبة : ٥٢ - ٥٥ .

وقد كان لانتصار المسلمين في تبوك على الروم خيبة أمل للمنافقين في إيجاد عدو جديد للمسلمين يعملون لحسابه ، فلم يجدوا بُدًّا من الاستسلام والرضا بالأمر الواقع .

وما زاد في ضعفهم موت زعيمهم وراشدهم المدير : « عبد الله بن أبي » . ولكل هذه الأسباب مجتمعة قتل عددهم ، وأقلعوا عن تدبير الفتن والمؤامرات ، وانصهروا في مجتمعهم الإسلامي ، فأمنت طائفة منهم إيماناً صادقاً ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل ماتوا بغيظهم ولم يسمع من أحد منهم بعد غزوة تبوك كلمة سوء (١) .

وهكذا تطهرت أرض شبه الجزيرة العربية من آخر عدو للإسلام والمسلمين قبل انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى . فأصبحت قاعدة صلبة خالصة للمسلمين . ومنها انطلق الإسلام كالسيل الجارف يكتسح الأقطار والأمصار .

(١) الصلوات المسلول - لابن تيمية : ٢٢٤ .

الباب الثالث

الدراسة الفنية

تمهيد

الفصل الأول دراسة فنية للآية الجهادية

الفصل الثاني تصوير المعاني الجهادية

التمهيد

إن السمة البارزة في أسلوب الآيات الجهادية هي التصوير . فهو يميل إلى التعبير بالصورة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد . وإذا النموذج الانساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية .

فأما الحوادث والمشاهد ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يخيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه ، حتى تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات ، المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضرة ، إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة .

فإذا ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية وتشخص النموذج الانساني أو الحادث الروي ، إنما هي الفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ولا شخوص تعبر ، أدر كنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن . فالتصوير هو القاعدة الأساسية المتبعة وليس هو حلية أسلوب ولا فلتة تقع حيث اتفق . إنما هو مذهب مقرر . وفي أوضاع مختلفة ، ولكنها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة .

ويجب أن نوضح مفهوم التصوير عندنا ، فهو تصوير باللون وتصوير بالحركة وتصوير بالإيقاع ، وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار ، وجرس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق ، في إبراز صورة من الصور ، تتلاها العين ، والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان .

وهو تصويرٌ حتى منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة ، وتصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات ، بالمشاعر والوجدانات . فالعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة (١) . ولما كانت السمة الأساسية للآيات الجهادية هي التصوير ، فقد رأيت أن أجعل الفصل الأول من هذا الباب لدراسة الآية القرآنية التي تميل إلى التصوير في سبكها وتركيبها ، وحتى الفاظها ، فقد تستقل لفظة مفردة برسوم صورة شاخصة بجرسها الذي تلقيه في الأذن تارة ، وبظلمها الذي تضفيه على الخيال تارة أو بجرسها وظلمها معا . وجعلت الفصل الثاني لتصوير المعاني الجهادية ، التي جاءت مجسمة مشخصة ، فالعاني الذهنية والحالات المعنوية ، لم تستبدل بها صور محسب ، ولكن اختيرت لها صورة حية ، وتميست بمقاييس حية ، ومرت من خلال وسط حي .

(١) اقتبس هذا القول من بعض الكتاب المحدثين .

الفصل الأول

الآية الجهادية

أولا : الألفاظ المفردة :

الكلمة في الحقيقة الوجودية إنما هي صوت النفس ، لأنها تلبس قطعة من المعنى . وصوت النفس أول الأصوات التي لا بد منها في تركيب النسق البليغ حتى يستجمع الكلام به أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها ، وبين هذه المعاني وصورها النفسية .

والصوت الثاني : صوت العقل وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام ، وبين الوجوه البيانية التي يدور بها المعنى ، لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتهى إليها .

والصوت الثالث : صوت الحس ، وهو أبلغهن شأنًا ، ولا يكون إلا من دقة التصوير المعنوي والإبداع في تولين الخطاب ومجازبة النفس مرة وموادعتها مرة واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان أو يسوق إليها من طرائف المعاني حتى بدعها من موافقته والإيثار له كأنها هي التي تريده وكأنها هي التي تحاول أن يتصل أثرها بالكلام إذ يكون قد استحوذ عليها ، وانفرد منها بالهوي والاستجابة . وذلك أن صوت النفس الطبيعي في تركيب لغتهم ، وإن كان السى التفاوت كمالًا ونقصًا ، وصوت الفكرة لا يعجزهم أن يستبينوه في كثير من كلام بلغائهم .

أما صوت الحس فقد خلت لغتهم من صريحة وانفرد به القرآن ، وقد كانوا يجدونه في أنفسهم منذ افتتوا في اللغة وأساليبيها ولكنهم لا يجدون البيان به في ألسنتهم لأنه من الكمال اللغوي الذي تعاطوه ولم يعطوه وإنما كانوا يبتغون الحيلة إليه بألوان من العادات وضروب من التعبير النفسي إذا هي اتصلت بالحس البياني الذي ميزتهم به الفطرة أثبتت أن تكون استواء حسيًا ، وبهذا خلص اليهم كلام شعرائهم وخطبائهم وبلغ من أنفسهم ومازجها وكان منها في محل وموقع ، على أننا نقرأ اليوم أكثره ولا نجد في تلك المنزلة (١) ..

ولذلك وقع في أنفسهم نظم القرآن ، ولم يستطيعوا أن يجاروه أو يحاكوه . وقد تأنت الآيات الجهادية في اختيار الكلمة الدقيقة المصورة للمعنى أكمل تصوير ، ليشعرك به أتم شعور وأقواه . وقد يستقل لفظ واحد في نسق تعبيرى برسم صورة شاخصة يزيد من قيمتها أن لفظًا مفردًا هو الذي يرسم الصورة ، بجرسه الذي يلقيه في الأذن تارة وبظله الذي يضيفه على الخيال تارة ، أو بجرسه وظله معا . فاستمع إلى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله أثألتكم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل (٢) . وتأمل في كلمة (اثألتكم) الرائعة المصورة

(١) أعجاز القرآن : ٢٢٩ - ٢٣١ (٢) السورة : ٢٨ .
للراعي .

العجيبة . فيتصور الخيال ذلك الجسم المتناقل يرفعه الرافعون فى جهد ، فيسقط من أيديهم فى ثقل . ان هذه الكلمة (طن) على الأقل من الأثقال . ولو أننا قلنا : تناقلتم ، لُخف الجرس الموسيقى ، ولضاع الأثر المنشود ، وتوارت الصورة المطلوبة التى رسمها هذا اللفظ ، واستقل برسمها .

ونقرأ قوله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ لَنْ لَيُطِئُنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مَصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (١) فترسم كلمة (ليطئن) صورة التبطئة والتعويق عن الجهاد فى جرس العبارة كلها - وفى جرس (ليطئن) خاصة - وان اللسان ليكاد يتعثر ، وهو يتخبط فيها ، حتى يصل ببطء الى نهايتها . وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصورة كلها يكاد يكون ذلك فنا من التناسق الفنى الرفيع . ويبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية اللتين يحسبهما بعض الباحثين فى القرآن أعظم مزايا القرآن .

وهذا الميل القرآنى الى ناحية التصوير ، نراه عبّر عن المعنى المعقول بالفاظ تدل على محسوسات ، ذلك ان تصوير المعنوى فى صورة المحسوس يزيد تمكنا من النفس ، وتأثيرا فيها . ويكفى ان نقرأ قوله تعالى فى وصف المناقطين بالجبن وأن ما يتظاهرون به من الشجاعة كذب ، وأن الرعب سرعان ما يستولي على قلوبهم فينهزمون ، لا يلوون على شىء (لو يجدون ملجأ أو معارز أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون (٢) لنرى كيف بسط معنى الهزيمة والجبن على هذه اللوحة التصويرية الرائعة ، وأخرج هذا المعنى الفكرى فى صورة جماعات من الناس تائهة زائغة العين لما سيطر عليها من الرعب ، فهى تنفذ هنا وهناك بحثا عن المأمن والمهرب فى حركات عجيبة غريبة . وقد يحسب صاحب النظرة العجلى أن هذه الكلمات الثلاث : ملجأ ، مغارات ، مدخل مترادفة المعنى . ولكنها فى الحقيقة ليست كذلك ، بل كل منها تصور فى الذهن شكلا معينا للملاذ الذى يبحث عنه المنهزم والخائف بدءا من الشكل الطبيعى المألوف وهو الملجأ العادى من دار أو غرفة أو جماعة من الناس ، إلى الشكل الذى لا يألفه ويرتضيه إلا من اشتد خوفه وهو المغارة فى باطن الأرض أو بطن جبل ، إلى الشكل الذى هو أبعد فى القبول والإلف من كليهما وهو : المدخل ، أى المكان الضيق الذى لا يستطيع هذا الخائف أن يقتحمه إلا بجهد ولا يكاد يستطيع أن يستقر فيه الا تضأولا والتصاقا . وانظر كيف تؤدى كلمة (مدخلا) هذه الصورة وتجسمها فى الحس بوزنها وجرسها وشدة الدال فيها . ولو ذهبت تحذف هذه الشدة وتقول (مدخلا) لضاعت الصورة كلها وتبدل المعنى واختلف تناسق الوزن ، ثم تأمل فيما تصوره فى خيالك كلمة : (لولوا إليه) ثم فيما تتركه كلمة : يجمحون من الصورة المضحكة الساخرة . تأمل فى صورة هاتين الكلمتين ، فمهما شرحت وفصلت ، فلن أبين أكثر مما يبينه خيالك وشعورك وأنت تتأمل جرسهما ووقعهما . (٣) ..

ثم أرجع النظر مرة أخرى الى الجملة كلها لتبصر الريشة الالهية العجيبة وهى تصور الهزيمة والجبن والقلق النفسى هذا التصوير المتحرك الساخر ، وكيف تتجسد الصورة فى خيالك حتى لتكاد العين تراها واليد تلمسها . ونستمع الى قوله تعالى فى سورة البقرة (وما هو بمزحزحه من العذاب أن

١ (النساء : ٧٢ .

٢ (أحسن الحديث للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى .

٣ (التوبة : ٥٧ .

يَمَمَّرَ (١) وقوله تعالى في سورة آل عمران (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٢) ..

ففي الآية الأولى صورت كلمة (بهزحزحه) المقدمة على الفاعل لابرزها صورة الزحزحة كاملة من وراء هذه اللفظة المفردة .

وفى الآية الثانية رسمت كلمة (زحزح) صورة لقوة العذاب ، فكل فرد على وشك أن يسقط في النار ، وأنه يحتاج في مجاوزتها قليلا إلى جهد عنيف .. جهد الزحزحة ، وهي الحركة البطيئة العنيفة . وزحزح نفسها ترسم صورة لمعناها . فمن تمت له النجاة بعد هذا الجهد المضني البطيء العنيف ، فقد فاز ، ونجا من الخطر ذي الجاذبية العنيفة في مجاوزة منطقتها الخطرة . وعندئذ يدخل الجنة فلقد بعد عن خطر الجاذبية للنار . مشهد بطيء عنيف للزحزحة ، ولادخال الجنة يستقر في الحس منه أنها محاولة خطيرة ، وأنها مجازفة رهيبية .

ومن هذا الباب قوله تعالى (فكبكبا فيها هم والفاوون وجنود إبليس أجمعون) (٣) ..

انك تسمع من جرس الكلمة (كبكبا) صوت دفعهم وسقوطهم بلا عناية ، وبلا نظام ، وصوت الدبذبة الناشئ عن الكبكية .

ومن هذا الوادي قوله تعالى (ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) (٤) .

فكلمة (يكبتهم) بجرسها الذي تلقيه في الحس يصور معناه . يقال كبته بمعنى كبده : إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقه (٥) .

ومنه قوله تعالى « كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » (٦) . وقوله تعالى (ومن جاء بالسينة فكبت وجوههم في النار) (٧) . هكذا (كُتِبَ) بالعنف الشديد ، والجرس المصور للحركة ، الموجى بالفزع . ولنتأمل قوله تعالى (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح يصف فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) (٨) ..

فجرس كلمة (صر) فيه تصوير لدلولها كأنها تذائف صغيرة تنطلق على الحرث فتهلكه وذلك لون من التناسق المعجز .

قال ابن القيم (٩) : (واختلف في الصر : فقيل البرد الشديد . وقيل النار . قال ابن عباس : وقال ابن الأنباري : أنها صفت الريح بأنها صر لتصريتها عند الالتهاب . وقيل الصر الصوت الذي يصحب الريح من شدة هبوبها . والأقوال الثلاثة متلازمة . فهو برد شديد محرق ليبسه الحرث ، كما تحرقه النار وفيه صوت شديد) .

وقال الزجاج (١٠) : (الصر : صوت لهيب النار ، وقد كانت في تلك الريح ،

- | | |
|-------------------------|---|
| ١ (البقرة : ٩٦ . | ٧ (النمل : ٩٠ . |
| ٢ (آل عمران : ١٨٥ . | ٨ (آل عمران : ١١٧ . |
| ٣ (الشعراء : ٩٤ ، ٩٥ . | ٩ (التفسير القيم : ٢١٤ واعلام الموقعين |
| ٤ (آل عمران : ١٢٧ . | ٢٢٣/١ ، ٢٢٤ . |
| ٥ (الكشاف : ٤٦٢/١ . | ١٠ (روح المعاني : ٥٧/٤ . |
| ٦ (المجادلة : ٥ . | |

وقيل أصر الصر ، كالصرصر ، الريح الباردة .
ومنه قوله تعالى « سأرهقه صعودا » (١) . وقوله تعالى (إذ تصعدون ولا
تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ..) (٢) .
فكلمة (صعودا) و (تصعدون) ترسم صورة حسية للأصعاد في الوعر من
الطريق والتوقل في عسر ومشقة . قال الحسن (٣) رضى الله عنه (تصعدون) :
يعنى في الجبل .

وعبارة (تصعدون ولا تلوون) ترسم صورة مجسمة شاخصة للهزيمة
والفرار ، وتستحضر في الأذهان هزيمة المسلمين في أحد كأنها حاضرة الآن .
ولننظر الى هذه الصورة الفريدة التي ترسمها كلمة (يصعد) بجرسها الثقيل
الذي تلقيه في الأذن (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن
يضلّه يجعل صدره ضيقا حرجا كأنها يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس
على الذين لا يؤمنون) (٤) . فقد أبرزت هذه الكلمة صورة مجسمة لك المخلوق
المتعيس المبهور الأنفاس وهو يصعد في السماء . وقد انطبعت تلك الصورة
المتخيلة في الحس ، واتصلت بالنفس وأخرجت حالة المشرک النفسية في صورة
حسية منفرة .

ومن التناسق الفنى الرائع بين الألفاظ ومدلولاتها ، قوله تعالى (تبت يدا أبى
لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذاب لهب . وامراته حمالة
الحطب . فى جيدها جبل من مسد) (٥) .

تناسق فى اللفظ وتناسق فى الصورة . فجهنم هنا نار ذات لهب ، يصلها
أبو لهب وامراته حمالة الحطب تحمل الحطب وتلقيه فى طريق الرسول عليه
الصلاة والسلام لا يذائه ، والحطب مما يوقد اللهب . وهى تحزم الحطب بحبل ،
فعداها فى النار ذات اللهب ، أن يغل عنقها بحبل من مسد ، ليتم الجزء من جنس
العمل . وتمم الصورة الفنية الرائعة بمحتوياتها البسيطة : الحطب والحبل والنار
واللهب ، يصلى به أبو لهب ، وامراته حمالة الحطب .

وتناسق فى جرس الكلمات ، مع الصوت الذى يحدثه شد أحمال الحطب ،
وجذب العنق بحبل من مسد . اقرأ : (تبت يدا أبى لهب وتب) تجد فيها عنف الشد
والحزم ، التشبيه بشد الحطب وحزمه ، والتشبيه كذلك بغل العنسق وجذبه ،
والتشبيه بجو الحنق الشديد والتهديد الشائع فى جو السورة .

وهكذا يلتقى الجرس الموسيقى ، مع حركة العمل الصوتية ، بتناسق
الصورة فى جزئياتها المناسبة ، يتناسق الجنس اللفظى مع مراعاة النظير فى
التعبير ، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول . ويتم هذا كله فى خمس فقرات
قصار ، وفى سورة من أقصر سور القرآن ، قد لا يبدو فى ظاهرها جمال ، حين
يتجه الذهن الى البحث عن المعانى ، ولكن حين يتجه الوجدان الى الصورة
والظلال ، وتلك اللبحات والألوان ، التى تجتمع فى فقرات قصار جد قصار !
واستمع الى قوله تعالى (يوم يدعون الى نار جهنم دعوا) (٦) . فلفظة (الدع)
لفظة مصورة بجرسها وظلها لمعناها ، يكاد سامعها يحس بالدفع فى ظهور

٤ (الاتمام : ١٢٥ .

٥ (المسد : ١ - ٥ .

٦ (الطور : ١٢ .

١ (الدثر : ١٧ .

٢ (آل عمران : ١٥٣ .

٣ (الكتاب : ٤٧١/١ .

المكذبين . وهذا الدفع في كثير من الاحيان يجعل المدفوع يخرج صوتا غير ارادى فيه عين ساكنة هكذا (أع) وهو في جرسه أقرب ما يكون الى جرس (الدع) . وأنظر الى هذه الصورة الفريدة لتزعزع عقيدة المنافقين (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمان به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة (١) . ان الخيال ليكاد يجسم هذا الحرف الذي يعبد الله عليه هؤلاء المنافقون وانه ليكاد يتخيل هذا الاضطراب الحسى في وقتهم ، وهم يتأرجحون بين الثبات والانتلاب . وان هذه الصورة لترسم حالة التزعزع مما يؤديه وصف التزعزع ، لأنها تنطبع في الحس ، وتتصل منه بالنفس .

ومما هو بسبيل ذلك في غرض آخر غير هذا الغرض ، تلك الصورة التى رسمها للمسلمين قبل ان يسلموا ، يوم ان كانوا معرضين لجهنم بما هم فيه من الكفر ، فقال تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمه الله عليكم اذ كنتم اعداء فآلف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) . (٢)

هكذا : كنتم على شفا حفرة من النار ، موشكين على الوقوع ، تكاد أقدامكم تزل فتهبون ، ولسنا هنا بصدد بيان دقة التشبيه وصدقه ، انما نحن بصدد هذه الصورة القلقة المتحركة الموشكة في الخيال على الزوال . ولو استطاعت ريشة مصور بالالوان أن تبرز هذه الحركة المخيلة في صورة صامتة لكانت براعة تحسب في عالم التصوير . والمصور يملك الريشة واللوحة والالوان ، وهنا الفاظ فحسب بصور بها القرآن لوحاته الفنية الرائعة .

ثم ننظر الى جمال التعبير من زوايا أخرى : إذ يرسم الله تعالى هذه الصورة ، ثم يجعل هذه الحفرة من النار ، ويجعلهم على شفا منها ، فيطوى الحياة الدنيا كلها — وهى الفاصل بينهم وبين النار — يجعلهم وهم بعد احياء في هذه الحياة الدنيا واقفين هذه الوقفة ، على شفا حفرة من النار ، حينما كانوا من الكفار !

وشبيه بهذه الصورة صورة أخرى ، رسمها الله تعالى للمسجد الذى بناه المنافقون ارسادا وكفرا وصداء عن سبيل الله وكيدا للمسلمين . أمين أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين) (٣) .

فهنا قد أكمل الحركة الأخيرة التى كانت متوقعة هناك : (فانهار به في جهنم) وبذلك طوى الحياة الدنيا كلها ، دون أن يذكر كلمة (ثم) في موضع (الفناء) (فانهار) لأن هذا المدى الطويل ، قصير عند الله ، حتى لا ضرورة لهذا التراخي القصير !

فلنقف نتطلع لحظة الى هذه الصورة الفريدة الحافلة بالحركة والحياة . اننا نرى بناء التقوى راسخا مطمئنا . ثم نرى على الجانب الآخر للصورة مسجدا قائما على حافة هاوية سحيقة فوق تربة مخلخلة آيلة للانهار ، واننا نبصره اللحظة يتأرجح ويتردى في تلك الهوة .

إنه مشهد عجيب ، حافل بالحركة المثيرة ، ترسمه وتحركه بضع كلمات ..

٢ (التوبة : ١٠٩)

١ (الصبح : ١١)

٢ (آل عمران : ١٠٣)

ومشهد آخر يرسمه التعبير القرآني الفريد لآثار مسجد الضرار في نفوس بناته الأشرار ، (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) (١) . .

لقد انهار الجرف المنهار . انهار بناء الضرار الذي أقيم عليها في نار جهنم وبئس القرار ! ولكن ركاب البناء ظل باقيا في قلوب بناته .
وان صورة البناء المنهار لهي صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار . تلك صورة مادية وهذه صورة شعورية . وهما تتقابلان في اللوحة الفنية العجيبة التي يرسمها التعبير القرآني الفريد . . هذا هو الاعجاز الذي يرسم الواقع النفسى بريشة الجمال الفنى ، فى مثل هذا التناسق ، وبمثل هذا اليسر فى التعبير والتصوير على السواء .

وانظر الى هذه الصورة التى رسمتها كلمة (لوأذا) لتهرب المنافقين من العمل فى حفر الخندق مع المسلمين : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا فليحذر الذين يخفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم) (٢) .
فقوله (يتسللون منكم لوأذا) يرسم صورة حركية مليئة بالحياة لتسلل المنافقين عن الجماعة فى الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض .

قال الزمخشري (٣) : اللوآذ والملاوذة ، هو أن يلوذ هذا بذاك وذلك بهذا .
وصورة أخرى شبيهة بهذه الصورة للمنافقين أيضا : (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) (٤) . .

واننا حين نتلو هذه الآية نستحضر مشهد هؤلاء المنافقين وقد نزلت سورة يذكر فيها القتال تفضحهم وتهتك أستارهم ، فاذا بعضهم ينظر الى بعض ويمتمز غمزة المريب (هل يراكم من أحد ؟) .

ثم تلوح غرة من المؤمنين وانشفال فاذا هم يتسللون لوأذا على اطراف الأصابع فى حذر . انه مشهد كامل حافل بالحركة ترسمه بضعة كلمات ، فاذا هو شاخص للعيون كأنها تراه ! . .

وهذه صورة سريعة الحركات ، عنيفة الخطوات للذى يشرك بالله : (ومن يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء ، فتخطه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) (٥) . .

هكذا يخر من السماء من حيث لا يدري أحد ، فلا يستقر على الأرض لحظة .
وان الطير لتخطفه ، أو ان الريح لتهوى به فى مكان سحيق . حيث لا يدري أحد كذلك .

انها صورة مؤثرة فى الحس والنفس معا رسمتها كلمة (تخطفه) العجيبة الصورة لمعناها وانظر اليها ترسم هذه الصورة العجيبة المتنوعة فى كل سياق توضع فيه من النظم القرآنى المعجز (يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه (٦) . وقوله تعالى : (تخافون أن يُخطفنكم الناس فأواكم وأبسدكم

١ (التوبة : ١٢٧ .

٢ (الصغ : ٢١ .

٣ (البقرة : ٢٠ .

١ (التوبة : ١١٠ .

٢ (النور : ٦٣ .

٣ (الكشاف : ٧٩/٣ .

بنصره (١) . وقوله تعالى (وقالوا أن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) (٢) .
 وقوله تعالى (أولم يروا أننا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم) (٣) .
 وانظر الى هذه الصورة الفريدة التي ترسمها كلمة (استهوته) للحيرة التي
 تنتاب من يشرك بالله بعد التوحيد . ومن يتوزع قلبه بين الاله الواحد والآلهة
 المتعددين ، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيرسم هذه الصورة المحسه
 المتخيلة : (قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونردّ على أعقابنا بعد
 إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى
 الهدى أئتنا . قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) (٤) .
 قد أبرزت لفظه (استهوته) المصورة لمعناها صورة هذا المخلوق شاخصة
 مجسمة ..

وانظر الى هذه الصورة الرائعة التي تصورها كلمات بفردتها في قوله
 تعالى (حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) (٥) ..
 وقوله تعالى (وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) (٦) . وقوله
 تعالى (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) (٧) وقوله (فان أحصرتهم فما
 استيسر من الهدى) (٨) ..

فكلمة (حصر) ومشتقاتها مأخوذة من الحصار ، وهو تضيق المذاهب ،
 والمنع من التصرف رسمت هذه الصور المتنوعة في هذه الآيات الكريمة .
 وهذه كلمة (زلزلوا) ترسم أيضا صورا فريدة للاضطراب والقلق الشديد .
 قال تعالى (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين
 آمنوا معه متى نصر الله) (٩) . وفي سورة الاحزاب (هنالك ابتلى المؤمنون
 وزلزلوا زلزالا شديدا) (١٠) ، فكلمة (زلزل) فيها لفظ (زل) مكرر الى درجة
 حدوث الاضطراب والاشراف على الزلل .

وهذه صورة رهيبة ترسمها كلمة (حس) في قوله تعالى : (ولقد صدقكم
 الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد
 ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم
 ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) (١١) ..
 قال أبو عبيدة : الحس معناه الاستئصال بالقتل ، يقال جراد محسوس اذا
 قتله البرد ، وسنة حسوس ، أى جدبة تأكل كل شيء .. وقيل أصله الحس الذي
 هو الإدراك بالحاسة ، فمعنى حسه : أذهب حسه بالقتل ، وتحسونهم تقتلونهم
 وتستأصلونهم (١٢) ..

وعلى أية حال فالكلمة مصورة لمعناها أبدع تصوير .
 وانظر الى هذه الصورة المتحركة التي عمدت الى معنى فكري مجرد فأخرجته
 في مظهر حرب متلاحمة بين طرفين تبصر أحداثها أمامك حية مجسمة : (بل نقذف

- | | |
|---------------------|---------------------------|
| ١ (الانفال : ٢٦) | ٧ (البقرة : ٢٧٣) |
| ٢ (القصص : ٥٧) | ٨ (البقرة : ١٩٦) |
| ٣ (العنكبوت : ٦٧) | ٩ (البقرة : ٢١٤) |
| ٤ (الانعام : ٧١) | ١٠ (الاحزاب : ١١) |
| ٥ (النساء : ٩٠) | ١١ (آل عمران : ١٥٢) |
| ٦ (الصوبة : ٥) | ١٢ (فتح القدير : ٣٥٢/١) |

بالحق على الباطل **فَيَدْمَعُهُ** فإذا هو زاهق ، ولكم الويلُ مما تصفون (١) .
فالتذف ، والدفع ، والزهق ، كلمات ما كان ليخطر فى بال أى متأمل أن
يستعملها فى مجال التعبير عن أن الحق هو الذى تتقبله النفوس والعقول الحرة
دائما ، ولكن المعجزة القرآنية هى التى طوعت مختلف النفاذ اللغة لمختلف
المعانى والأفكار .

ثم تأمل هذه الصورة المفزعة التى رسمتها كلمات معدودة فى قوله تعالى :
(واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم وَيَسْقَى من ماء صديد .
يتجرَّعُهُ ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بيت ومن ورائه
عذاب غليظ) (٢) .

هذا تصوير مفلطح تنخلع لهوله قلوب السامعين ، فتصور خيبة الجبار العنيد
التى تحيق به فتذله حتى تجعله سخرية الساخرين ، وتأمل كلمة (يتجرعه)
بجرسها وشدتها التى تتناسب مع عنف الجبارة وطغيانهم . وتصور حالة هذا
الجبار الذى (يأتيه الموت) فيغير حاله ويكفره وجهه وتتقلص عضلاته ويدخل
بعضه فى بعض ينبض وينتشر ثم تأمل كلمة (غليظ) ، (من ورائه عذاب غليظ)
التى وصف بها العذاب ، حيث جمع كل وصف من أوصاف الهول والبشاعة ، وما
عليك لتعرف مكانها من براعة البيان إلا أن تديرها مع ما ترى من أساليب الخطباء
والمرسلين وانظر هل تجدها الاقلقة نابية ، تحاول أن تتمطى لتمزق نظام الكلام
لكنها فى مكانها من الآية لم تكن مجرد لفظه تصد بها أداء معناها السطحى الذى
تمليه أوضاع اللغة بل هى صورة مستقلة كاملة وضع فى إطارها كل ما تطلبه
صورة العذاب الذى ستنتظر الجبار العنيد من الوان منكرة سوداء فى خطوط
متعرجة بشعة .

وتأمل المناسبة بين الجبار العنيد ووصف عذابه بالغلظ والجبار والعنيد
فى الدنيا أكثر ما يكون حاله أن يكون عتلا جواظا غليظ الكبد عريض القفا ، ثم
تأمل بعد ذلك كيف تم التلاؤم بين العذاب والغلظ حتى وقع الوصف موقعه من
الموصوف فكان من بديع التصوير (٣) .

وتصوير العذاب بأنه غليظ تجسيم للمعنوى يبرزه للحس محسوسا . وله
فى الآيات الجهادية خاصة والقرآن الكريم عامة نظائر كثيرة . من ذلك قوله
تعالى : (نمتهم قليلا ثم **نَضَطَرَّهُمْ** إلى عذاب غليظ (٤) وقوله تعالى : (يأبها
النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغظ عليهم (٥) . وقوله : (ولو كنت فظا غليظ
القلب لانفضوا من حولك (٦) . وقوله : (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ
فاستوى على سوقه (٧) وقوله : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجندوا
فيكم غلظة (٨) وقوله : (وآخذنا منهم ميثاقا غليظا (٩) .
وانظر إلى هذا اللفظ المصور لمعناه (**سِيحُوا** فى الأرض) فى قوله تعالى :

- | | |
|--|---------------------------------|
| ١ (الاتبيه : ١٨ . | ٥ (التحريم : ٩ والتوبة : ٧٣ . |
| ٢ (سورة ابراهيم : ١٥ - ١٧ . | ٦ (آل عمران : ١٥٩ . |
| ٣ (القرآن العظيم هدايته واعجازه فى
أقوال المفسرين : ١٦٢ محمد الصادق
مرجون . | ٧ (الفتح : ٢٩ . |
| ٤ (لقمان : ٢٤ . | ٨ (التوبة : ١٢٣ . |
| | ٩ (الاحزاب : ٧ والنساء : ١٥٤ . |

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (١)) . فالسياحة والسيح الذهاب في الأرض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس في (سيروا) ونظائره وزيادة قوله عز وجل (في الأرض) لقصد التعميم لأقطارها . والمراد إباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم من الاستعداد للحرب أو تحصين الأهل وتحصيل المهرب أو غير ذلك لا تكليفهم بالسياحة فيها (٢) .

فالفعل مصور لعناه . بجرسه الخفيف الذي يشبه سريان الماء . وقد تكون كلمة أو كلمتان أمرا لازما في إحياء الصورة ، وبعث الحركة بين أجزائها ، استمع الى قوله تعالى : (أَيُودُ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهَا نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ (٣)) .

فانظر الى كلمة (احترقت) التي بعثت الحياة في الصورة وبرزتها شاخصة ناطقة . فلو ذهبنا نضع كلمة (تمزقت) مكان كلمة (احترقت) لتشوهدت الصورة لأن التمزيق ليس بلازم أن يحولها أثرا بعد عين ، وحينئذ يكمل منظر الخوف الذي تلقىه الآية في روع الذين يبخلون عن الإنفاق في سبيل الله ، والأعصار يمزق ويحرق واكتملت الصورة بقوله : (فيه نار) فكان ذلك قمة الذعر الذي يسقط في بال هؤلاء المانعين ، لأن جنتهم الى زوال ، فلا بد أن يعيدوا النظر الى حالهم . ومن الكلمات الصورة لإدولها بجرسها الذي تلقىه في الأذن كلمة (فيحفكم) في قوله تعالى : (وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِنْ يَسْأَلُكُمْ فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّرُوا وَيُخْرِجْ أَضْمَانَكُمْ (٤)) . أي يهدمكم بطلب الكل ، فان الإحفاء والإلحاف والمبالغة بلوغ الغاية . يقال : أحفى شاربه إذا استأصله (٥) .

وتهيل الألفاظ الجهادية الى جانب التصوير الى القوة والجزالة والفخامة ، استمع الى قوله تعالى : (وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (٦)) . وفي سورة النساء : (فَخَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (٧)) . وفي سورة الأنفال : (فَهَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهَمٍ مِنْ خَلْفِهِمْ (٨)) . وفي سورة الأحزاب : (مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا ثَقِيلًا (٩)) .

فكلمة (ثقف) ومشتقاتها تفيد الحدق والمهارة في عمل الشيء ، وصيغها هنا كلها مشددة وجرسها قوى عنيف يتناسب مع جو القتل والقتال . ومن أمثلة ذلك كلمة (أئخذن) في قوله تعالى : (حتى إذا أئخذنتموهم فشدوا الوثاق) (١٠) . وقوله : (ما كان لنبي أن يكون له أمرى حتى يُئخذن في الأرض) (١١) قال أبو السعود (١٢) : (أئخذنتموهم) : أي أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشيء

- | | |
|---------------------------------------|--------------------------------------|
| ١ (التوبة : ٢ . | ٧ (النساء : ٩١ . |
| ٢ (أبو السعود : ٢٥٢/٢ وروح المعاني : | ٨ (الأنفال : ٥٧ وأنظر المحتنة : ٢ ، |
| ٤٣/١٠ . | وآل عمران : ١١٢ . |
| ٣ (البقرة : ٢٦٦ . | ٩ (الأحزاب : ٦١ . |
| ٤ (محمد : ٣٦ ، ٣٧ . | ١٠ (محمد : ٤ . |
| ٥ (البحر المحيط : ٧٢/٨ . | ١١ (الأنفال : ٦٧ . |
| ٦ (البقرة : ١٩١ . | ١٢ (تفسير أبي السعود : ٧٢/٤ . |

الثخين ، وهو الغليظ أو اتقلتوهم بالقتل والجراح حتى اذهبتهم عنهم النهوض . واستعملت الآيات الجهادية كلمة (ضرب) بدل كلمة (قتل) استمع الى قوله تعالى : (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) (١) . وفى سورة القتال : (فاذا لقيتم الذين كفروا فمضرب الرقاب) (٢) . فضرب الرقاب : أصله اضربوا الرقاب ضربا ، محذف الفعل وقدم المصدر فأُنِيب منابه مضافا الى المفعول وفيه اختصار مع اعطاء معنى التوكيد . على أن فى هذه العبارة من الغلظة ما ليس فى لفظ القتل . لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن . وقد زاد فى هذه الغلظة فى قوله تعالى : (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) (٣) .

ومن ذلك قوله تعالى : (ولكن كره الله انبيائهم فنبطهم) (٤) . فكلمة (فنبطهم) بجرسها الثقيل توحى بالفخامة والجزالة .

واستمع الى قوله تعالى : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم وقذف فى قلوبهم الرعبَ فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) (٥) . فكلمة ظاهروهم ، وصياصبيهم ، وقذف ، والرعب ، وتقتلون ، وتأسرون ، كلها ألفاظ موحية بالقوة والشدة فى القتل والقتال .

والأمثلة على ذلك كثيرة مبنوثة فى سائر الآيات التى تدعو الى مجاهدة اعداء الاسلام والمسلمين . . منها قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى بهم وليبذلنهم من بعد خوفهم أمنا) (٦) . فكلمة (ليستخلفنهم ، وليمكن لهم ، وليبذلنهم) كلمات شديدة الجرس تصور معناها أبداع تصوير .

ونجد الإعجاز فى اختيار الألفاظ لمواضعها ، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها ، مثل التعبير عن النوم بالنعاس ، وعن التنويم بغشية النعاس قال تعالى : (إذ يُغشىكم النعاس أمنةً منه وينزل عليكم من السماء ماء) (٧) . وقوله تعالى : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) (٨) . تجد جو النعاس الرقيق اللطيف وكأنه غشاء شفيف ، يغشى الحواس فى لطف ولين : (أمنة منه) . فالجو كله أمن ودعة وهدوء .

وهذا يتناسب مع لطف الله تعالى ورعايته وعنايته الكاملة بالمجاهدين المؤمنين .

فمن هنا يتضح أن الألفاظ تشتد وتغلظ اذا وجهت الى الكفار والمنافقين وتلين وتعذب اذا القيت على أسماع المؤمنين . فلكل مقام مقال . وهناك نوع من الألفاظ يرسم صورة الموضوع ، ولكن لا بجرسه الذى يلقى فى الأذن ، بل بظله الذى يضيفه فى الخيال ، فللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير ، حينما يوجه اليها انتباهه ، أو عندما يستدعى صورتها الحسية . مثال ذلك : (واتل عليهم نبأ الذى آتينا آياتنا فانسأخ منها) (٩) .

- | | |
|--|----------------------|
| ١ (الانفال : ١٢) | ٥ (الاحزاب : ٢٦) |
| ٢ (محمد : ٤) | ٦ (النور : ٥٥) |
| ٣ (تفسير أبى السعود : ٧٢/٢ والكتشاف : ١٤٨/١) | ٧ (الانفال : ١١) |
| ٤ (التوبة : ٤٦) | ٨ (آل عمران : ١٥٤) |
| | ٩ (الامراف : ١٧٥) |

وقوله تعالى : (فإذا ايسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) (١) فالظل الذي تلقيه كلمة (انسلخ) يرسم صورة عنيقة للتملص من هذه الآيات ، لان الانسلاخ حركة حسية قوية . واصله من السلخ بمعنى الكشط يقال : سلخت الإهاب عن الشاة أى كشطته ونزعته عنها ، ويجيء بمعنى الإخراج ، كما يقال : سلخت الشاة عن الإهاب اذا أخرجتها منه (٢) .

وقال ابن القيم (٣) : (فانسلخ منها) أى خرج منها ، كما تنسلخ الحية من جلدها ، وفارقها فراق الجلد يسيلخ عن اللحم . ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو الذى تسبب الى انسلاخه منها باتباعه هواه .

وقد يشترك الجرس والظل فى لفظ واحد مثل قوله (خذوه فاعتلوه إلى سِوَاءِ الجحيم) (٤) . وقوله تعالى : (عُنْتَلْ بعد ذلك زَنِيم) (٥) . فالعتل جرس فى الأذن وظل فى الخيال ، يؤدىان المدلول للحس والوجدان .

ونستطيع أن نضيف الى هذه الألفاظ مما ذكرناه هناك فى الألفاظ السدالة بجرسها على رسم الصورة مثل (النعاس) و (أمانة) و (الدع) .. وغيرها . ويتأنق أسلوب القرآن فى اختيار الألفاظ ، ولما بين الألفاظ من فروق فردية دقيقة فى دلالتها ، يستخدم كلا حيث يؤدى معناه فى دقة فائقة ، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنها خلقت له تلك الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفيقه المعنى الذى وقت به أختها فكل لفظة وضعت لتؤدى نصيبها فى المعنى أقسوى أداء ، ولذلك لا نجد فى القرآن ترادفا ، بل فيه كل كلمة تحمل اليك معنى جديدا . ولما بين الكلمات من فروق ، ولما يعينه بعضها فى النفس من إحياءات خاصة ، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر (٦) . فقال تعالى : (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) (٧) .

فهو لا يرى التهاون فى استعمال اللفظ ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه .

ولما كانت كلمة (راعنا) لها معنى فى العبودية مذموم ، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها فقال : (ياأيها الذين آمنوا ، لا تقولوا : راعنا ، وقولوا : انظرونا) (٨) . فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ ، يؤدى به المعنى . واستمع الى قوله تعالى : (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يَدْبِجُونَ أَسْوَاقَكُمْ وَيَسْتَعْتِبُونَ نَسَائِكُمْ ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) (٩) . تجده قد اختار الفعل (دَبَجَ) مصورا به ما حدث ، وضمف عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل ، فى أبناء إسرائيل يومئذ ، ولا تجد ذلك مستفادا اذا وضعنا مكانها كلمة (يقتلون) واختار كلمة (يسومونكم) بدل (يذيقونكم) لأن معنى الاول يولونكم إياه ، ويرونكم عليه ، وهذا المعنى لا يوجد فى (يذيقونكم) . وتذكير كلمة (حياة) فى قوله تعالى : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) (١٠) . يعبر تعبيرا دقيقا عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها ، مهما كانت حقيرة

- ٦ (من بلاغة القرآن : ٥٧ .
- ٧ (الحجرات : ١٤ .
- ٨ (البقرة : ١٠٤ .
- ٩ (البقرة : ٤٩ .
- ١٠ (البقرة : ٩٦ .

- ١ (التوبة : ٥ .
- ٢ (روح المعاني : ٤٣/١٠ .
- ٣ (التفسير القيم : ٢٨١ .
- ٤ (اللخسان : ٤٧ .
- ٥ (القلم : ١٣ .

القدر ، ضئيلة القيمة ، حتى ولو كانت حياة الحشرات والديدان . وعندما اضيفت هذه الكلمة الى ياء المتكلم ، فى قوله تعالى : (وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الانسان ، وانى له الذكرى ، يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى) (١) . عبرت ادق تعبير عن شعور الانسان يومئذ وقد أدرك فى جلاء ووضوح ، ان تلك الحياة الدنيا لم تكن الا وهما باطلا ، وسرابا خادعا ، اما الحياة الحقبة الباقية ، فهى تلك التى بعد البعث ، لانها دائمة لا انقطاع لها ، فلا جرم ان سماها حياته ، وندم على أنه لم يقدم عملا صالحا ، ينفعه فى تلك الحياة .

ونقرأ قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٢) فجاء تنكير كلمة (قلوب) لتهويل حالها وتفظيع شأنها بابهام أمرها فى القساوة والجهالة . كأنه قيل على قلوب منكرة لا يعرف حالها ، ولا يقادر قدرها فى القساوة . وفى قوله (أقفالها) بالتعريف نوع تأكيد . فانه لو قال (أقفال) . لذهب الوهم الى ما يعرف بهذا الاسم . فلما أضافها الى ضمير القلوب علم ان المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التى لا تكون لغيرها (٣) .

وقال البلاغنى : (واختيار الكلمة ادق من السحر ، واهول من البحر ، وأعجب من الشعر وكيف لا يكون كذلك ، وأنت تحسب أن وضع (الصبح) فى موضع (الفجر) يحسن فى كلام الا أن يكون شعرا أو سجعا ، وليس كذلك ، فان إحدى اللفظتين قد تنفر فى موضع وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى بل تتمكن فيه وتضرب بجرائنها ، وتراها فى مظانها وتجدها فيه غير منازعة الى أوطانها ، وتجدد الأخرى لو وضعت موضعها — فى محل نفار ، ومرمى شراد ، ونابية عن استقرار) (٤) .

ومن دقة التمييز بين معانى الكلمات ، ما تجده من التفرقة فى الاستعمال بين (يعلمون) ، و (يشعرون) فى الأمور التى ترجع الى العقل وحده أمر الفصل فيها ، تجد كلمة (يعلمون) صاحبة الحق فى التعبير عنها ، أما الأمور التى يكون للحواس مدخل فى شأنها ، فكلمة (يشعرون) أولى بها (٥) ، وتأمل لذلك قوله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء إلا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) (٦) .

وقال الزمخشري (٧) : فان قلت : فلم فصلت هذه الآية (بلا يعلمون) والى قبلها (بلا يشعرون) ؟ قلت : لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج الى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة ، وأما النفاق وما فيه من البغى المؤدى الى الفتنة والفساد فى الأرض فأمر دنيوى مبنى على العادات معلوم عند الناس خصوصا عند العرب فى جاهليتهم وما كان قائما بينهم من التفاور والتناحر والتجاذب ، والتحايز فهو

٥ (من بلاغة القرآن : ٥٩ .
٦ (البقرة : ١٢ ، ١٤ .
٧ (الكشاف : ١٨٢/١ .

١ (الفجر : ٢٤ .
٢ (محمد : ٢٤ .
٣ (التفسير القيم : ٢٩١ .
٤ (اجاز القرآن : ١٨٤ البلاغنى .

كالحسوس المشاهد ، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل ، فكان ذكر العلم معه
أحسن طباقا له .

وقوله تعالى : (ولا تقولوا لمن يُقتلُ في سبيلِ الله أَمْواتٌ بل أحياءٌ ولكن
لا تشعرون) (١) .

وقوله تعالى : (وَدَّتْ طائفةٌ من أهلِ الكتابِ لو يُضِلُّوكُمْ وما يُضِلُّونَ إلا
أنفُسَهُمْ وما يشعرون) (٢) . وتأمل قوله تعالى : (ولله العزة ولسروله
وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) (٣) . وقوله تعالى : (وما لهم ألا يعذبهم
الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءً إن أولياؤهُ إلا المتقون ولكن
أكثرَهُمْ لا يعلمون) (٤) . وقوله : (وان أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى
يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) (٥) . وقوله :
(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا مَصْدُوقًا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون .
لا يرتقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون . فان تابوا وأقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون) (٦) .

ولاختيار الآيات الجهادية للكلمة الدقيقة المعبرة عن المعنى أصدق تعبير
أهية خاصة في الدلالة على العدالة المطلقة في أحكام الله سبحانه في تطبيق
أوامره بالجهاد . فالأحكام الجهادية تميل الى التخصص والتجديد وتتعد عن
التعميم والشمول . تأمل قوله تعالى في أهل الكتاب (ما يؤدُّ الذين كفروا من
أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزلَ عليكم من خير من ربكم) (٧) . وقوله (وقالت
طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزلَ على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا
آخره لعلهم يرجعون) (٨) وقوله تعالى : (ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمَنَّهُ بقنطار
يؤده اليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائما . . .) (٩)
وقوله أيضا : (وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم
خاشعين لله لا يشترتون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إنَّ الله
سريع الحساب) (١٠) .

فالذي يلفت النظر في هذه الآيات وأمثالها استعمال الحذر من التعميم
واستعمال (من) التبعيضية إحقاقا للحق ، وتمسكا بالعدل الإلهي المطلق . ولذا
حين أمر سبحانه بقتالهم . قال (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا
يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوْتُوا الكتاب حتى
يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (١١) .

فالقتال اذن للذين لا يؤمنون بالله . . . دون من آمنوا بالله وحتى في الآيات
التي حرض فيها سبحانه على قتالهم نجده لا يحيد عن الدقة في التعبير قيد أنملة
(بأبيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل
ويَصُدُّونَ عن سبيلِ الله) (١٢) . فقال (ان كثيرا من الأحبار . . .) ولم يقل (ان

١ . البقرة : ١٥٤ .

٢ . آل عمران : ٦٩ .

٣ . آل عمران : ٧٥ .

٤ . آل عمران : ١٦٦ .

٥ . التوبة : ٢٩ .

٦ . التوبة : ٢٤ .

١ . البقرة : ١٥٤ .

٢ . آل عمران : ٦٩ .

٣ . المنافقون : ٨ .

٤ . الانفال : ٢٤ .

٥ . التوبة : ٦ .

٦ . التوبة : ٩ - ١١ .

الإعجاب والرهبان) ولو قال ذلك لكان أكثر تحريضا واشد تحميسا وإثارة للهمم على قتالهم . ولكنه القرآن العادل فى لفظه ومعناه وحكمه . وتأمل قوله تعالى : (ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنةً منه نُعَاسًا يَعْبَثِي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ) (١) فلم يقل (وانزل عليكم نعاسا) ويسكت والا لذهب الوهم ان النعاس قد غشى كل من حضر موقعة (أحد) وهذا لم يحدث . اذ ان المنافقين الذين اهتمهم انفسهم حُرِّمُوا من هذه النعمة العظيمة .

ويتضح هذا المعنى اكثر فى قوله تعالى : (فانزل الله بُرْهَانًا عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (٢) ، ولم يقل (وعلينكم) لانه كان بينهم بعض المنافقين الذين لم يخالط الايمان قلوبهم .

وتأمل قوله تعالى : (الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم) ... ولو انتهى التعبير عند هذا الحد لقلنا ان هذا الحكم يشمل جميع الاعراب وانه لا خير فيهم ولا ايمان لهم . ولكن صدق التعبير يتبع هذه الآية بقوله : (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مفرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم . ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم) (٣) .

فالاعراب صنفان : مؤمن كل الايمان ، وكافر كل الكفر ، والقاعدة العامة ان اكثرهم اشد كفرا ونفاقا ...

ويقول البارزى فى اول كتابه (انوار التحصيل فى اسرار التنزيل) : اعلم ان المعنى الواحد قد يخبر عنه بالفاظ بعضها احسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزاى الجملة ، قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ، ولا بد من استحضار معانى الجمل ، واستحضار جميع ما يلائمها من هذه الالفاظ ، ثم استعمال انسبها وافصحها واستحضار هذا متعذر على البشر فى اكثر الاحوال ، وذلك عتيد حاصل فى علم الله ، فلذلك كان القرآن احسن الحديث واوضحه ، وان كان مشتبلا على الفصيح والافصح ، والمليح والاملح) (٤) .

وكل كلمة فى نظم القرآن توضع فى مكانها كاللبنه فى البناء ، لا يصلح غيرها فى موضعها ، لان لكل كلمة دلالة خاصة ، وايحاء خاصا ، وانسجاما فى التركيب . ويضع الكلمة المعبرة عن المواقف والاحداث ، والمصورة لخلجات النفوس ، وخطرات الضمائر اصدق تصوير ، ولا يستطيع هذا الا العليم الخبير ، الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور .

ولو ذهبنا نستبدل كلمة مكان اخرى تدل على نفس المعنى فانها لا تنفى بالمعنى والجرس والتناسق اللفظى كما تنفى به الكلمة القرآنية ، وان اى تغيير او تبديل فى الجملة القرآنية يزيل منها وجهها قاتما او ضعيفا او متناقرا .

ومن هذا التمازج العجيب بين اللفظ والمعنى وتوافقهما وتطابقهما ، اننا لا نشعر ان حرفا واحدا يفيض فى جانب اللفظ عن المعنى ، ولا نجد اى جانب فى المعنى - مهما دق ولفظ - قد قصر عن الدلالة عليه اللفظ والتعبير ، فاللفظ يدل

٢ (التوبة : ٩٦ - ٩٩)

١ (آل عمران : ١٥٤)

٤ (الاعتان فى علوم القرآن ١٢٥/٢ للسيوطى

٢ (الفتح : ٢٦ وانظر التوبة : ٢٦)

على المعنى ، والمعنى بدوره يدل على اللفظ ، فكل منهما مرآة للآخر .
 من ذلك قوله تعالى (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) (١) .
 ولما كان الركون الى الظالم دون فعل الظلم وجب ان يكون العقاب عليه دون عقاب
 الظالم ومس النار فى الحقيقة دون الاحراق ، ولما كان الاحراق عقابا للظالم اوجب
 العدل ان يكون المس عقاب الراكن الى الظلم ، فلهذا عدل عز وجل عن قوله :
 ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمدخلوا النار لكون الدخول مظنة الاحراق ، وخص
 لمس ليشير به الى ما يقتضى الركون الى العقاب ، ويميز بين ما يستحق الظالم ،
 وبين ما يستحق الراكن اليه من العقاب ، وان كان مس النار قد يطلق ويراد به
 الاحراق . ولكن هذا الاطلاق مجاز ، والحقيقة ما ذكرناه ، لان حقيقة المس ملائمة
 الجسم حرارة النار ، واذا احتل اللفظ احتمالات صرف منها الى ما تسدل عليه
 القرائن ، والانتلاف فى هذه الآية معنوى وهو فى التى قبلها لفظى .

ومن الدقة القرآنية اختيار كلمة (ميراث) فى قوله تعالى (ولا يحسبن الذين
 يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوون ما بخلوا
 به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير) (٢) .
 فهى أدق من كلمة (ملك) لانها توحى بأن مآل هذا المال الذى بخل به الاغنياء
 مرجعه الى الله الذى يرث الارض ومن عليها . واختيار كلمة (يطوقون) كلمة
 مصورة للمعنى ادق تصوير ، لتشعر بها أتم شعور واقواه ..

واستخدم القرآن كلمة (التراب) ، ولكنه حين اراد هذا التراب الدقيق
 الذى لا يقوى على عصف الريح ، استخدم الكلمة الدقيقة وهى (الرماد) ، فقال
 (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اثثتت به الريح فى يوم عاصف) (٣) .
 كما انه أثر عليها كلمة (الثرى) ، عندما قال تعالى (له ما فى السموات وما فى
 الارض وما بينهما وما تحت الثرى) (٤) . لانه تعالى يريد الارض المكونة من
 التراب ، وهى من معانى الثرى ، فضلا عما فى اختيار الكلمة من المحافظة على
 الموسيقى اللفظية ، فى فواصل الآيات .

ومن الدقة القرآنية فى استخدام الالفاظ انه لا يكاد يذكر المشركين ، الا
 بأنهم أصحاب النار ، ولكننا نجدته قال فى سورة ص : (وقالوا ما لنا لا نرى رجلا
 كنا نعددهم من الأشرار ؟ اتخذناهم سخرىا ، أم زأغت الأبصار ؟ إن ذلك لحق
 نخاصم أهل النار) (٥) . فنراه قد استخدم كلمة (أهل) وهى هنا أولى بهذا
 المكان من كلمة (أصحاب) لما تسدل عليه من الاتامة فى النار والسكنى بها (٦) .
 ومن دقة أسلوب القرآن فى اختيار الفاظه ما أشار اليه الجاحظ حين

قال (٧) : -

(وقد يستخف الناس الفاظا يستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، الا
 ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع ، الا فى موضع العقاب ، أو
 فى موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ، ويذكرون
 الجوع فى حالة القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر . لانتك لا تجد القرآن يلفظ

- | | |
|----------------------|----------------------------|
| ١ (هود : ١١٢ . | ٥ (ص : ٦٢ . |
| ٢ (آل عمران : ١٨٠ . | ٦ (من بلاغة القرآن : ٦٢ . |
| ٣ (ابراهيم : ١٨ . | ٧ (البيان والتبين : ٣٤ . |
| ٤ (طه : ٦ . | |

به الا فى موضع الانتقام ، والعامه واكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر ، وذكر الفيث .

وصفوة القول : اذا تأملنا الكلمات التى تتألف منها الجمل القرآنية ، رأيتها تمتاز بجمال توقيتها فى السمع ، وباتساقها الغريب مع المعنى ، حتى لكأننا نشم منها رائحة المعنى المطلوب أو لكان فيها إثرا تلح فيه صورة المعنى أمام عينيك ، وباتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الاخرى من المعانى والمدلولات ، ورب معنى لا يستطيع الانسان أن يعبر عنه الا بوضع كلمات أو جبل ، يعبر عنه القرآن تعبيراً جبلياً بكلمة واحدة لا اكثر . ويمكن الاعجاز فى ذلك ان الالفاظ ليست الاحرف صوتية جامدة فتحولها الى ريشة تنبع من رأسها الاصباغ والالوان المختلفة المطلوبة لتحليل المعنى الى صورة فى لوحة يتأملها الخيال ، بل وتكاد أن تدركها العين قبل أن يستوعبها العقل . فالالفاظ ينبوع للصور والاحاسيس ولم يزد مرور الزمن بالفاظ القرآن الا حفظاً لاشراقها ، وسياجاً لجلالها لم تنه لفظية ولم تتخل عن نصيبها ، فى مكانها من الحسن . وقال الباقلانى (١) : كل كلمة لو أفردت كانت فى الجمال غاية ، وفى الدلالة آية ، تستقل بالاستتمال على نهاية البديع ، وتتضمن شرط القول البليغ) .

وقال المرحوم / مصطفى صادق الرافعى : (ولو تدبرت الفاظ القرآن فى نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجرى فى الوضوع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هى له من أمر الفصاحة فيهيء بعضها لبعض ويساند بعضها بعضاً ولن تجدها الا مؤتلفة مع اصوات الحروف مساوقة لها فى النظم الموسيقى حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة فى نفسها لسبب من الاسباب الثقل أيها كان أعذب فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين فى حظ الكلام من الحروف والحركة فاذا هى استعملت فى القرآن رأيت لها شأنها عجيبياً ورأيت اصوات الاحرف والحركات التى قبلها قد امتهدت لها طريقاً فى اللسان واكتنفها بضروب من النغم الموسيقى حتى اذا خرجت كانت أعذب شئ وأرقه وجاءت متمكنة فى موضعها وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة (٢) .

وقال فى موضع آخر (٣) : وقد وردت فى القرآن الفاظ هى أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه ، ولكنها خرجت فى النظم القرآنى مخرجا سرياً من أحضر الالفاظ حلاوة وأعذبها منطفاً ، وأخفها تركيباً إذ تراه قد هيا لها اسباباً عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات فلم يجرها فى نظمه الا وقد وجد ذلك فيها كقوله تعالى : (ليستخلفنهم فى الارض) فهى كلمة واحدة من عشرة احرف وقد جاءت عذوبتها فى تنوع مخارج حروفها ومن نظم حركاتها فانها بذلك صارت فى النطق كأنها أربع كلمات إذ تنطق على أربعة مقاطع .

وقوله تعالى (فسيفتيكهم الله) فانها كلمة من تسعة احرف ، وهى ثلاثة مقاطع وقد تكررت فيها الباء وتوسط بين الكافين هذا المد الذى هو سر الفصاحة فى الكلمة كلها . والحق ان كلمات القرآن المفردة صورة من المعانى والحقائق ، فكل كلمة رسالة فى كتاب وتحليلها وتفصيل ما طوى فيها ..

٢ (اعجاز القرآن : ٩٠ للباقلانى .

١ (اعجاز القرآن : ٢٢٧ للرافعى .

ثانيا : الافعال :

والجملة القرآنية هي مظهر الكلام وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي اذ يحيل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة الى معان تصورها في نفسه أو تضعها حتى ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها على حين قد لا يراها المتكلم الذي اهدفها لكلامه غرضا ولكنه بالكلام كأنه يراها (١) وخير ما توصف به الجملة القرآنية قوله تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (٢) فهي بناء قد أحكمت لبناته ، ونسقت أدق تنسيق لا تحس فيها لكلمة تضيق بمكانها ، أو تبنو عن موضعها ، أو تعيش مع أخواتها ، متى صار من العسير بل من المستحيل ، أن تغير في الجملة كلمة بكلمة ، أو أن تستغنى فيها عن لفظ ، أو تزيد فيه شيئا ، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة في القرآن ، أن ترجع بعد طول المطاف اليها ، كأنما لم يخلق الله لاداء تلك المعاني غير هذه الالفاظ . وكأنها ضاقت اللغة ، ثم تجد فيها ، وهي بحر خضم ، تؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الاداء .

والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسى ، فتصوره بالفاظها ، لتلقيه في النفس حتى اذا استكملت الجملة أركانها ، برز المعنى ظاهرا فيه المهم والأهم ، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب ، ولكن المعنى هو الذى جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه ، والا اختل وانهار (٣) .

وتركيب القرآن يعتمد على الجملة الاسمية أو الفعلية ، مع ما يستتبع كل منهما من مكملات ، وان هذا التركيب يميل الى التصوير الفنى . وتعتمد في ذلك اعتمادا رئيسيا على الافعال بصيغها المختلفة في تصوير المعانى الحاضرة واستحضار صورة الحالات الماضية .

وتستخدم الجملة الفعلية في الآيات الجهادية الافعال المضارعة كثيرا لاستحضار الصورة ، وابرازها حية شاخصة تراها العين ، وتسمعها الاذن ، وتحس بها النفس ، كأنها حدثت اللحظة .

لننظر كيف استحضرت الافعال المضارعة موقعة بدر بكل ما حدث فيها من اقوال وافعال فقال تعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . .) (١) .

لنتأمل الافعال (يجادلونك ، يساقون ، يعدكم ، وتودون ، ويريد ، ويقطع) . كيف تنقلنا نقلا سريعا الى معركة (بدر) بل إنها تنقل معركة بدر الينا بصورة محسوسة ، وحية متحركة ، وبارزة شاخصة ، بحركاتها وخطراتها من خلال هذه الافعال المحيية للمشهد الذى كان كأنه يكون الآن . ثم يمضى السياق في استحضار جو المعركة من خلال الافعال المضارعة ،

١ (اعجاز القرآن : ٢٤٨ للراسمى .

٢ (من بلاغة القرآن : ١٠٥ .

٣ (الافعال : ٥ - ٧ .

في قوله تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مودكم بالف من الملائكة مردفين) (١) .

(إذ تستغيثون ربكم) بدل من (إذ يعدكم) وان كان زمان الوعد غير زمان الاستفاضة لانه بتأويل أن الوعد والاستفاضة وتعا في زمن واسع . وصيغة الاستقبال في (تستغيثون) لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة . ثم لتأمل كيف عطف الفعل (فاستجاب) الماضي على (تستغيثون) لاستحضار الصورة بكمالها وتامها . وحتى يبقى المشهد حيا في الأذهان والقلوب ، مائلا أمام الإبصار في كل زمان . ثم يقول تعالى (إذ يفثيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام) (٢) .

وقوله (إذ يفثيكم) بدل ثان من (إذ يعدكم) وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (وينزل عليكم من السماء ماء) عطف على (يفثيكم) وتقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر . وتقديم (عليكم) لما أن بيان كون التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء . ثم تتابع الافعال المضارعة في شريط واحد يعرض مناظر مختلفة لمسرح الاحداث في تلك الواقعة العجيبة (يفثيكم النعاس - ثم ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم ، ويربط على قلوبكم - ويثبت به الأقدام) ثم تحملنا الافعال لنرى ونسمع التحام المسلمين مع المشركين فيقول تعالى (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) (٣) .

(إذ يوحي ربك إلى الملائكة والمراد بالملائكة ، الملائكة الذين وقع بهم الامداد ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة .

وانظر الى هذه الافعال كيف تعرض شريط الاحداث عرضا عجيبا (إذ يريكم الله في منامك قليلا ولو أراكم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إته عليهم بذات الصدور . وإذ يريكم وهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) (٤) .

فقد عبر بالمضارع لاستحضار الصورة في الأذهان والقلوب معا . . وحرصا من التعبير القرآني على استحضار الصور الماضية رأيناها عطف الفعل الماضي على المضارع ، وها هو يعطف الفعل المضارع على الاسم . في قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) .

والمعروف عند علماء البلاغة أن الاسم يدل على التمكين والاستمرار والفعل على التجدد والحدوث .

وقال الواحدى : معناه وصدا عن سبيل الله ، ليكون عطا للاسم على الاسم ، أو يكون الكل احوالا على تأويل بطرين مرأئين صادين أو ييطرون ويراعون ويصدون . واعترض عليه الرازى في التفسير الكبير بأنه تارة يقيم الاسم مقام الفعل ، والاخرى بالعكس ليصح له كون الكلمة معطوفة على جنسها ، وكان من

٣ (الاتصال : ١٢) .

١ (الاتصال : ٩) .

٤ (الاتصال : ٤٣ - ٤٤) .

٢ (الاتصال : ١١) .

الواجب عليه ان يذكر السبب الذي لاجله عبر عن الاولين بالصدر ، وعن الثالث بالفعل . ثم ذكر السبب فقال : إن ابا جهل ورهطه كانوا مجبولين على البطر والرياء فذكر بلفظ الاسم تنبيها على اصلاتهم فيها ، وأما الصد فانما حصل فى زمان ادعاء محمد النبوة بلفظ الفعل الدال على التجدد (١) .

ولا يقتصر عمل الافعال المضارعة على استحضار مشاهد الغزوة ، بل تحكى الاقوال كأننا نسمعها الآن : (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) (٢) .

ثم تنقلنا الافعال المضارعة لتشهد عذاب المشركين المعاندين فى الآخرة كما شهدناه فى موقعة بدر على ايدى ملائكة الله وجنود محمد عليه الصلاة والسلام . فيقول (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ي ضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) (٣) .

قال الزمخشري (٤) : (ولو ترى) ولو عاينت وشاهدت ، لان (لو) ترد المضارع الى معنى الماضى . كما ترد (أن) الماضى الى معنى الاستقبال .

وها هى الافعال المضارعة تستحضر مشاهد غزوة أحد كاملة من ساعة خروج الرسول عليه الصلاة والسلام والذين معه لقتال المشركين وحتى عودتهم الى منازلهم وما حدث بعد ذلك من اقوال وافعال من خصوم المسلمين الذين شتموا بهم وفرحوا لما أصابهم من القرع . يقول تعالى (وإذ غدوت من أهلك تبوؤء المؤمنین مقاعد للقتال والله سميع عليم) (٥) .

قال أبو السعود (٦) : و (توجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها) .

ثم تمضى الافعال تعرض علينا أحداث الموقعة : (إذ تقول للمؤمنين ان يكفيمكم أن يديكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُزَلِّين ..) (٧) .

(إذ تقول) .. صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها ، أى نصركم وقت قولك (للمؤمنين) حين اظهروا العجز عن المقاتلة .

ثم يقول تعالى (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تجبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ نُصَعِدُونَ ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فسى أحرأكم ..) (٨) .

هكذا نرى مشهد انتصار المسلمين فى اول النهار مصورا شاخصا بارزا

- | | |
|---------------------------------------|-------------------------------------|
| ١ (التفسير الكبير : ١٧٢/١٥ وخرائب | وتفسير أبى السعود ٢٨/٢ . |
| القرآن : ٩/١٠ . | ٥ (آل عمران : ١٢١ . |
| ٢ (الانفال : ٤٩ . | ٦ (تفسير أبى السعود ٢٢٦/٢ . |
| ٣ (الانفال : ٥٠ - ٥١ . | ٧ (آل عمران : ١٢٤ وانظر ما بعدها . |
| ٤ (الكشاف : ٢٢٨/٢ والنظر روح المعانى | ٨ (آل عمران : ١٥٢ وما بعدها . |
| ١٦/١٠ وانظر غرائب القرآن ١٥/١٠ | |

فى قوله (اذ تحسونهم بإذنه) .. ثم تدور الدائرة عليهم فنرى صورة الهزيمة مجسمة فى شخوص المصعدين الى الجبل فى ذهول لا يلوون على أحد (اذ تصعدون ولا تلوون ..) .

ولنتأمل هذه الصورة الفريدة لموقعة الاحزاب التى اعادتها الافعال المضارعة الى الاذهان حية متحركة قوية مؤثرة . بحرارته وحيويتها . اذ يقول تعالى (اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض وما وعدنا الله ورسوله الا غرورا . واذ قالت طائفة منهم يا اهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا ..) (١) .

فقوله (اذ زاغت الابصار ، وتظنون بالله الظنونا) صيغة المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار (وتظنون بالله الظنونا) معطوف على (اذ زاغت الابصار) .

(واذ يقول المنافقون) عطف على زاغت وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته (ويستأذن فريق منهم النبى) عطف على قالت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة ايضا (يقولون) إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون الا فرارا) ايثار صيغة المضارعة ايضا لاستحضار الصورة .

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع لتصوير مشاهد هذه الغزوات : بدر ، وأحد ، والاحزاب بالافعال المضارعة . ان تصوير المشاهد الجهادية يعتمد اعتمادا كبيرا على صيغة الافعال المضارعة لحكاية الحال الماضية واستحضار صورتها .

ولا يقتصر عمل الافعال المضارعة فى الآيات الجهادية على ذلك بل إنها الصيغة المفضلة فى الامور التى تدل على التجدد والاستمرار . فالافعال المضارعة هنا للدلالة على تكرار الفعل وحدثه وتجديده باستمرار .

قال تعالى (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) (٢) .

وقوله (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) (٣) .

وقوله (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (٤) .

وقوله (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) (٥) . وقوله (لا يقاتلونكم جميعا الا فى مَرِيٍّ محصنة او من وراء جُدُرٍ) (٦) (ولو آمن اهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم الا اذىً

٤ (البقرة : ١٩٠ .

٥ (التوبة : ٣٦ .

٦ (الحشر : ١٤ .

١ (الاحزاب : ١١ - ١٢ .

٢ (النساء : ٧٦ .

٣ (الصف : ٤ .

وإن يقاظوكم يولوكم الأديار ثم لا يُنصرون (١) .
 وقد عبر تعالى عن أهداف أعداء المسلمين من القتال بالانفعال المضارعة
 دون الانفعال الماضية ليأخذ المسلمون حذرهم منهم ويعدوا العدة لمواجهة لانهم
 لا ينفكون أبدا عن قتال المسلمين حتى يحققوا أهدافهم . قال تعالى مخبرا عن
 أهداف المشركين (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن
 استطاعوا) (٢) .

وقال تعالى ناهيا المؤمنين عن موالاتهم واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين
 (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون اليهم بالموودة ، وقد
 كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم ،
 إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالموودة ، وأنا
 أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم
 يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن
 تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) (٣) .
 فقوله تعالى (يخرجون الرسول وإياكم) بصيغة المضارع لاستحضار الصورة
 لما فيه من مزيد الشناعة والتفجير من موالاتهم ومحبتهم (وأنظر قوله تعالى (إن
 يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ...) إنها الحالة المستمرة للمشركين في عداوتهم
 للمؤمنين .

ومن أفعالهم المستمرة الصد عن سبيل الله — فلذا عبرت الآيات الجهادية
 عنه بصيغة المضارع (ينفقون أموالهم ليدردوا عن سبيل الله) (٤) وقوله
 (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) (٥) وقوله (خرجوا
 من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله) (٦) .
 ويشترك معهم في الصد عن سبيل الله كل أعداء الله من منافقين ويهود
 ونصارى ..

فقال في المنافقين (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا
 رعوسهم ورايتهم يصنون وهم مستكبرون) (٧) وفي أهل الكتاب (الذين يصدون
 عن سبيل الله ويبغونها عوجا) (٨) وقال في أحبارهم ورهبائهم (لياكلون أموال
 الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) (٩) .

ويشترك أهل الكتاب والمنافقون مع المشركين في نفس الأهداف التي
 يقاتلون المسلمين من أجلها ، إذ يقول : (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ
 (من بعد إيمانكم كفارا) (١٠) . وقوله (وِدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
 يَضِلُّوكُمْ) (١١) وقال في المشركين وأهل الكتاب (مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) (١٢) .
 وقال تعالى في المنافقين (وَدَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا

- | | |
|-----------------------------|---|
| ١ (آل عمران : ١١٠ ، ١١١ . | ٧ (المنافقون : ٥ والنساء : ٦١ . |
| ٢ (البقرة : ٢١٧ . | ٨ (الاعراف : ٤٥ وهود : ١٩ وإبراهيم : ٣ . |
| ٣ (المتحنة : ١ - ٣ . | ٩ (التوبة : ٣٤ . |
| ٤ (انفال : ٣٦ . | ١٠ (البقرة : ١٠٩ . |
| ٥ (انفال : ٣٤ . | ١١ (آل عمران : ٦٩ . |
| ٦ (انفال : ٤٧ والصح : ٢٥ . | ١٢ (البقرة : ١٠٥ . |

تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيَاءَ وَلَا نَصِيرًا (١) .

وقد حكى الآيات الجهادية أقوال المنافقين بصيغة المضارع للدلالة على
استمرار قولهم وفعلهم وأنهم موجودون في كل زمان ومكان ، فيجب الحذر
منهم .

قال تعالى (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ ..) (٢) .

فاستعمل الفعل المضارع (يخدع ، يكذب) للدلالة على أن الكذب
والخداع صفة ملازمة لهم وهم مستترون على الكذب والخداع . والافتيان
بالأفعال المضارعة في أخبار الأفعال الماضية الناقصة أمر مستفيض - كاصبح
يقول كذا ، وكادت تزيغ قلوب فريق منهم - ومعناه إنه في الماضي كان مستترا
متجددا بتعاقب الأفعال والمضى والاستقبال بالنسبة لزمان الحكم ، وقد عد
الاستمرار من معاني (كان) (حيث دلت (كان) على انتساب الكذب إليهم في
الماضي (ويكذبون) على انتسابه إليهم في الحال والاستقبال (فكان) دالة
على الاستمرار في جميع الأزمنة (ويكذبون) دل على الاستمرار التجددي
الداخل في جميع الأزمنة .

وقوله تعالى فيهم أيضا في نفس السورة (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا
آمنوا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله
يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) (٣) .

وتأمل قوله تعالى (الله يستهزئ بهم ويمدهم ..) بصيغة المضارع بدل
قوله (الله مستهزئ بهم) طبقا لقوله (إنما نحن مستهزئون . ذلك لأن
يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجده وقتا بعد وقت وهو أبلغ من الاستمرار
الثبوتى الذى تفيدته الجملة الاسمية ، لأن البلاء إذا استمر قد يهون وتآلفه
النفوس ، وهكذا كانت نكيات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم ، ونزول الآيات في
شأنهم أمرا متجددا مستترا (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين)
- وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من أن تهتك أستارهم وتكشف أسرارهم (٤) .
وقال العز بن عبد السلام (٥) : الذى يقتضيه علم البيان أن يقابل اسم الفاعل
بمثله لا بالفعل ، فلم يعدل عنه ؟ الجواب : أن الفعل المضارع يستعمل في
لسان العرب للحال المستمرة ، نحو فلان يعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ،
فجاء به ليدل على دوام الاستهزاء بهم ، واسم الفاعل وان كان يستعمل بمعنى
الدوام ، إلا أن ذلك قليل الى الفعل) .

ومن أسلحة المنافقين الدائمة كل زمان ومكان الإيمان الكاذبة . قال
تعالى (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) (٦) .

- | | |
|--------------------------------------|--|
| ١ (النساء : ٨٩ . | ٥ (الفوائد في مشكل القرآن ٢٢ للمز ابن |
| ٢ (البقرة : ١٠ ، ٩ . | عبد السلام . |
| ٣ (البقرة : ١٤ ، ١٥ . | ٦ (التوبة : ٧٤ ، ١٠٧ ، ٤٣ ، ٥٦ ، |
| ٤ (الكهف : ١٨٨/١ وروح المعاني ٣١٢/١ | ٦٢ ، ٩٥ ، ٩٦ والنساء : ٦٢ |
| وتفسير أبى السعود : ٢٩/١ . | والمجادلة : ١٤ ، ١٨ . |

وايثار صيغة الاستقبال في (يظفون) لاستحضار الصورة وللدلالة على تكرار الحلف . وقد تكررت هذه الصيغة في حكاية احوال المنافقين في القرآن أكثر من عشر مرات ولم ترد في القرآن آية واحدة عن المنافقين بغير هذه الصيغة . وعبر عن استمرارهم على الكذب بقوله (فأعقبهم نفاقا في قلوبهم .. إلى قوله (بما كانوا يكذبون) (١) .

وقال تعالى فيهم (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب . الذين يلجؤون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم) (٢) .

فقوله (ألم يعلموا ...) أي المنافقون ، والهزة للانكار والتوبيخ والتهديد واطهار اسم الجلالة في الموضوعين لالقاء الروعة وتربية المهابة في ايراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدالة بصيغة الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى .

وقد آثرت الآيات الجهادية التعبير بهذه الصيغة في كل الامور التي من شأنها الدوام والاستمرار . فقال تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وللمحصن الذين آمنوا ويحق الكافرين) (٣) .

فصيغة المضارع هنا للدلالة على التجدد والاستمرار في هذه الامور ، وللإعلام بأن تلك الداولة ستنة مسلوكة فيما بين الامم قاطبة ، الى ان يأتي امر الله تعالى (٤) .

وقد يعدل عن المضارع للماضي ، للتأكيد . في مثل قوله تعالى (ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) (٥) . في نسبة اصابة الفضل إلى جانب الله تعالى ، دون اصابة المصيبة ، تعليم لحسن الأدب مع الله تعالى ، وان كانت المصيبة فضلا من الله في الحقيقة . وتقديم الشرطية الأولى ، لما أن مضمونها لمقصدهم ، اوفق ، واثرت نفاقهم فيها ، اظهر ، (ليقولن) ندامة على تشبيطه وتهالكا على حطام الدنيا وحسرة على فواته .

وفي تأكيد القول ، دلالة على فرط التحسر المفهوم من الكلام ، ولم يؤكد القول الأول ، وأتى به ماضيا ، إما لأنه لتحققه غير محتاج إلى التأكيد ، أو لأن العدول عن المضارع للماضي ، تأكيد (٦) .

وقد يستعمل في الآيات الجهادية أحد الفعلين - الماضي أو المضارع مكان صاحبه في مثل قوله تعالى (أفكلما جاءكم رسولٌ رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) (٧) . فاستعمل (تقتلون) وهو مضارع مكان (قتلتم) الماضي لتمثيل صورة القتل أمام المشاهدين ، وهي صورة متحركة متجددة ، حدثت منهم قبل ، وقد تحدث منهم بعد وفيها تشنيع فظيع على هؤلاء

١ (التوبة : ٧٧)

٢ (التوبة : ٧٨ ، ٧٩)

٣ (النساء : ٧٢)

٤ (آل عمران / ١٤٠ ، ١٤١)

٥ (روح المعاني : ٨٤/٤)

٦ (روح المعاني : ١٠٥/٤ وفتح القدير .

٧ (البقرة : ٨٧)

الذين يتكبرون على ما جاء به رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، ويكذبون بعضهم ، ويقتلون البعض الآخر .

ويستخدم الماضي مكان المضارع إشارة الى تأكيد وقوع الفعل فكأنه قد وقع بالفعل ، وذلك فيما يستعظم من الأمور (ويوم ينفخ في الصور فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وكل أتوةٌ داخرين) (١) .

فالنفخ في الصور يكون يوم القيامة ، ويوم القيامة يتحقق الفزع الأكبر للناس جميعا ، ويتحقق الاتيان لهم اذلاء صاغرين .

ومن أمثلة عطف المستقبل على الماضي لانادة الاستمرار قوله تعالى (إِنَّ شَرَّ الشُّرَاكِبِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) (٢) .

خص من الظلمة شرهم فقال (ان شر الدواب) فجعلهم شر الدواب ، لان شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصرون منهم ، وأشار اليهم بقوله (فهم لا يؤمنون) وشر المصرين الناكثون للمهود ، وأشار اليهم بقوله (الذين عاهدت منهم) وقال (ثم ينقضون) عطف المستقبل على الماضي لفائدة الاستمرار وان شأنهم نقص العهد في كل مرة) من مرات المعاهدة (٣) .

قال ابن الاثير (٤) : تحت عنوان : (الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل ، وعن المستقبل بالماضي : اعلم ان الفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى لكان السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي ، فان قيل : إن الفعل الماضي أيضا يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل . قلت : إن التخيل يقع في الفعلين معا ، لكنه في أحدهما : وهو المستقبل — أوكد وأشد تخيلا — لأنه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه . وهذا لا يوجد في الفعل الماضي ، لأنه لا يتخيل السامع منه فعلاً وقد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه ، وهذا لا خلاف فيه .

وأما عطف المستقبل على الماضي في مثل قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) . فإنه إنما عطف المستقبل على الماضي لأن كفرهم كان وجد ، ولم يستجدوا بعده كفرا ثانيا ، وصددهم متجدد على الأيام لم يبيض كونه ، وإنما هو مستمر مستأنف في كل حين .

أما الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فهو عكس ما تقدم ذكره ، وفائدته ان الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده . لأن الفعل الماضي يعطى المعنى أنه قد كان وجد ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها . والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذلك يتبين هيئة الفعل واستحضار صورته ، ليكون السامع كأنه يشاهدها) .

ومن أمثلة التعبير بالماضي عن المستقبل قوله تعالى (ما لكم إذا قيل لكم

٢ (غرائب القرآن : ١٧/١٠ .

١ (النمل / ٨٧ .

٤ (المثل السائر : ١٤/٢ - ١٨ .

٢ (الانفال : ٥٥ ، ٥٦ .

انفروا في سبيل الله اناقلتم الى الارض (١) فالفعل (اناقلتم) ماضي لفظا مضارع معنى كأنه قيل تتناقلون (٢) ، وقوله تعالى (هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون) (٣) وكان كما ذكرت لاستحضار الصورة الماضية .
 وقوله تعالى (لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى (٤) . فقوله تعالى (وقالوا لاخوانهم) وإن جاء في لفظ الماضي ، فانه بمعنى المستقبل لاستحضار الصورة (٥) .

ومن ذلك قوله تعالى (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) (٦) فردّ يصدون على كفروا ، لأن (الذين) غير مؤقتة ، فقوله (كفروا) وإن كان في لفظ الماضي ، فمعناه الاستقبال ، وكذلك قوله (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا) (٧) وقوله (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) (٨) . فمعناه إلا الذين يتوبون من قبل أن تقدروا عليهم ، وإلا من يتوب ويؤمن ، ونظائر ذلك في القرآن الكريم كثير ، والعلة في كل ذلك واحدة .

ومنه قوله تعالى : (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليؤنن الأديار ثم لا ينصرون) (٩) . جاء على تقدير المستقبل كما يجيء في الماضي بـ (لو) لتبين خورهم وضعف قلوبهم (١٠) .

وقد يؤثر التعبير عن المستقبل بالماضي لتحقيق وقوعه . مثل قوله تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) (١١) . والمراد به فتح مكة وهو المروي عن انس رضي الله عنه بشر به رسول الله عند انصرافه من الحديبية . والتعبير عنه بصيغة الماضي عن سنن سائر الاخبار الربانية للايدان بتحقيقه لا محالة تأكيدا للتبشير (١٢) .

وقال الالوسي (١٣) : والاسناد إلى ضمير العظمة لكونه من الأمور القريبة العجيبة التي يخلقها الله تعالى على يد أنبيائه عليهم السلام كالرمي بالحصى المشار اليه بقوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (١٤) والتعبير عن ذلك بالماضي لتحقيقه وفيه تسلية قلوب الاصحاب . وهذا التعبير من قبيل الاستعارة التبعية على ما حققه السيد السند في حواشي المطول حيث قال : اعلم أن التعبير عن المضارع بالماضي وعكسه يعد من باب الاستعارة بأن يشبه غير الحاصل بالحاصل في تحقق الوقوع ويشبه الماضي بالحاضر في كونه نصب واجب المشاهدة ثم يستعار لفظ أحدهما للآخر .

وقال المحقق ميرزخان يمكن توجيه الاستعارة ههنا بوجه آخر وهو أن يشبه الزمان المستقبل بالزمان الماضي ووجه التشبه أنه كما أن الثاني ظرف أمر محقق الوقوع كذلك الزمان الأول واللفظ الدال على الزمان الثاني وهو لفظ الفعل الماضي من جهة الصيغة جعل دالا على الزمان مستعملا فيه .

- | | |
|--------------------------------|------------------------------------|
| ١ (التوبة : ٢٨ . | ٨ (المائدة : ٢٤ . |
| ٢ (تفسير أبي السعود : ٢٦٧/٢ . | ٩ (الحشر : ١٢ . |
| ٣ (التوبة : ٢٥ . | ١٠ (مجمع البيان : ٥٦٩/٩ للطبرسي . |
| ٤ (آل عمران : ١٥٦ . | ١١ (الفتح : ١ . |
| ٥ (تفسير الطبري : ١٤٧/٤ . | ١٢ (تفسير أبي السعود : ٧٩/٥ . |
| ٦ (الحج : ٢٥ . | ١٣ (روح المعاني : ٧٩/٦ . |
| ٧ (مريم : ٦٠ . | ١٤ (الأنفال : ١٧ . |

ومن أمثلة وضع الماضي في موضع المضارع ، قوله تعالى (أَيُودُّ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ ...) (١) .

قال الفراء (٢) : (وأصابه الكبر) الواو للعطف ، ووضع الماضي موضع المضارع أي لو كانت له جنة وأصابه الكبر . ويجوز ذلك في يود لأنها تلتقي مرة ب (أن) ومرة ب (لو) فجاز أن يقدر أحدهما مكان الأخرى ، لاتفاق المعنى فكانه قال : أيود أحدكم لو كانت له جنة من نخيل وأعناب وأصابه الكبر .

قال الرماني : وعندي أنه قد دل على الاستقبال ، ويتضمن الكلام معنى لو على التمني كأنه قيل أحب ذلك متمنيا له . والتعنى يقع على الماضي والمستقبل إلا ترى أنه يصح أن يتمنى أن كان له ولد . ويصح أن يتمنى أن يكون له ولد . والمحبة لا تقع إلا على المستقبل ، لأنه لا يجوز أن يقال أحب أن كان لي ولد ويجوز أحب أن يكون لي ولد ...

وفي سورة الأحزاب قوله تعالى (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا) (٣) . هؤلاء هم بنو حارثة وسلمة قد جبنوا يوم أحد ثم تابوا وعاهدوا يومئذ قبل الخندق أن لا يفروا (وكان عهد الله مسئولا) عن الوفاء به . والتعبير بالماضي لتحقيق الوقوع .

وفي سورة المتحنة قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ... إلى قوله تعالى (وودوا لو تكفرون) (٤) .

فقوله تعالى (وودوا لو تكفرون) أي تمنوا ارتدادكم وصيغة الماضي للايذان بتحقيق ودادتهم .

قال أبو السعود (٥) : فان قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعا ثم قال (وودوا) بلفظ الماضي ؟ قلت : الماضي وان كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الأعراب ، فان فيه نكتة ، كأنه قيل ، وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم ، يعني : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا . من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ، وردكم كفارا ، وهو أسبق المضار عندهم وأولها ، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذالون لها دونه ، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عنده صاحبه .

وقال الألوسي (٦) : (وودوا لو تكفرون) التعبير بالماضي وان كان المعنى على الاستقبال للأشعار بان ودادتهم كفركم قبل كل شيء وأنها حاصلة وان لم يتفكروكم .

وفي سورة التوبة قوله تعالى (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ) قوله (وارتابت) عطف على الصلصلة وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقيق الريب وتقررته فهم في حالة ريبهم وشكهم المستقر في

- | | |
|----------------------------------|--------------------------------|
| ١ (البقرة : ٢٦٦ . | ٤ (المتحنة : ٢ ، ٤ . |
| ٢ (معاني القرآن للفراء وانظر | ٥ (تفسير أبي السعود : ١٥٥/٥ . |
| روح المعاني : ٢٢/٢ مجمع البيان : | ٦ (روح المعاني : ٦٨/٢٨ . |
| ٢٤١/٢ للطبرسي . | ٧ (النبوة : ٤٥ . |
| ٣ (الأحزاب : ١٥ . | |

قلوبهم (يترددون) أى يتحيرون فان التردد ديدن المتحير كما أن الثابت ديدن المستبصر والتعبير عنه بما لا يخفى حسن موقعه (١) .
ومن كل ما تقدم نرى أن الآيات الجهادية استعملت أحد الفعلين : الماضى والمضارع موضع صاحبه ، فتأتى بالمضارع مكان الماضى ، لاحضار صورة الفعل أمام السامع ، حتى لكأنه يشاهده ، وليس ذلك مما يثيره الفعل الماضى ، لأن سامعه قد يكتفى بأن يتخيل فعلا قد مضى ، وربما لا يستحضر صورته ، أو تكرر .

أما الأعمال الماضية فقد استخدمت مكان المضارعة ، إشارة إلى تأكيد وقوع الفعل ، حتى كأنه قد وقع ، وذلك فيما يستعظم من الأمور ، لإيقاع الرهبة فى النفوس .

قال الزركشى (٢) : والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضى يغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها ، فيعدل فيه إلى لفظ الماضى تقريرا وتحقيقا لوقوعه ، كقوله تعالى : ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات) . (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم) . أى نحشرهم . ثم تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع فيؤتى بصيغة الماضى مرادا الماضى ، تنزيلا للمتوقع منزلة ما وقع ، فلا يكون تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضى ، بل جعل المستقبل ماضيا مبالغة ، ومنه (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقد يعبر عن المستقبل بالماضى مرادا به المستقبل ، كقوله (ويوم ينفخ فى الصور ففزع) . وفائدة التعبير عنه بالماضى إلى استحضار التحقيق ، وأنه من شأنه لتحقيقه من يعبر عنه بالماضى وإن لم يرد معناه .

ويكثر فى الجملة الجهادية تلوين الأسلوب ، فقد يتغير اتجاه الجملة تبعاً لتغير الاتجاه النفسى ، ولإستحضار الصورة الفنية حية شاخصة بارزة . استمع الى قوله تعالى : (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) (٣) .

فقوله تعالى (إذ تقول للمؤمنين . . .) تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله عليه الصلاة والسلام ولتشريفه والإيدان بأن وقوع النصر كان ببيشارته عليه الصلاة والسلام .

ثم تأمل قوله تعالى : (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن قلوبكم به) حيث عطف على (بشرى) وهو اسم الفعل (لتطمئن) . وعطف الفعل على الاسم مستنكر ، فكان من الواجب أن يقال إلا بشرى لكم واطمئنانا ، أو يقال إلا ليبشركم ولتطمئن قلوبكم به فلم ترك ذلك وعدل عنه الى عطف الفعل على الاسم ؟
قال الرازى (٤) : الجواب عنه من وجهين : الأول : فى ذكر الامداد مطلوبان وأحدهما أقوى فى المطلوبية من الآخر فأحدهما إدخال السرور فى قلوبهم وهو المراد بقوله (إلا بشرى . . والثانى :

١ : تفسير أبى السعود : ٢٦٧/٢ وروح

٢ (آل عمران : ١٢٦/١٢٤ .

٣ (التفسير الكبير : ٢٣٠/٨ .

المعنى : ٨٩/١٠ .

٤ (البرهان : ٣٧٢/٢ .

حصول الطمأنينة على أن إعانة الله ونصرته معهم فلا يجنبوا عند المحاربة ، وهذا هو المقصود الأصلي ، ففرق بين هاتين المبارتين تنبيها على حصول التفاوت بين هذين الأمرين في المطلوبة فكونه بشرى مطلوب ، ولكن المطلوب الأقوى حصول الطمأنينة فلماذا أدخل حرف التعليل على فعل الطمأنينة () .

ومن أساليب تلوين الخطاب قوله تعالى (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) (١) . فقوله (ولكن الله يهدي من يشاء : الجملة معترضة جيء بها على طريق تلوين الخطاب بأولئك المكلفين بمبالغة في حملهم على الامتثال ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن رضى الله عنه (٢) .

وقد يعدل عن الخطاب بالجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية أو بالعكس لضرب من التوكيد والمبالغة . ولأن الجملة الفعلية تستخدم للدلالة على التجدد والحدوث ، والاسمية للثبوت والاستمرار ، والمراد بالتجدد في الماضي حصوله ، وفي المضارع تكراره . استمع الى قوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) (٣) .

فخاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة (بأن) المشددة ، لأنهم في مخاطبة اخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر ، والبعد من أن يزلوا عنه على صدق ، ورغبة ووفور نشاط ، فكان ذلك مقبلا منهم ، ورائجا عند اخوانهم ، وأما الذى خاطبوا به المؤمنين فانما قالوه تكلفا وإظهارا للإيمان خوفا ومداجاة ، وكانوا يعلمون أنهم إنما قالوه بأوكد لفظ لما وجدوا قبوله عند المؤمنين لأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث سوى على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم في أسلوب مؤكد (٤) .

وقال صاحب البرهان في علوم القرآن (٥) : إن الفعل يدل على التجدد والحدوث ، والاسم على الاستقرار والثبوت ، ولا يحسن وضع احدهما موضع الآخر . مثل قوله تعالى : (هل من خالق غير الله يرزقكم) لو قيل : رازقكم لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئا بعد شيء ، ولهذا جاءت الحال في صورة المضارع ، مع أن العامل الذى يفيد ماض وقوله (وجاعوا أباهم عشاء يبكون) إذ المراد يريد صورة ما هم عليه وقت المجيء ، وأنهم آخذون في البكاء . ومن هذا يعرف لم قيل (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٦) ولم يقل (المنفقون) وقيل كثيرا ، المؤمنون ، والمنقون ، لأن حقيقة النفقة أمر فعلى شأنه الانقطاع والتجدد ، بخلاف الإيمان فان له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها ، وان غفل عنها وكذلك التقوى والإسلام والصبر والشكر ، والهدى والضلال ... الخ .

وقوله تعالى حاكيا عن المنافقين (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) (٧) .

- | | |
|------------------------------------|----------------------|
| ١ (البقرة : ٢٧٢ . | ٥ (البرهان : ٦٦/٤ . |
| ٢ (روح المعاني : ٤٥/٣ . | ٦ (البقرة : ٢٧٤ . |
| ٣ (البقرة : ١٥/١٤ . | ٧ (البقرة : ٨ . |
| ٤ (المثل السائر : ١٨٥/٢ والكشاف : | |
| ١٨٥/١ والبغوى : ٩٤/١ والخازن : | |

جاءت الجملة الاسمية في الرد عليهم بقوله (وما هم بمؤمنين) لانه ابلغ في نفي الفعل اذ يقتضى اخراج انفسهم وذواتهم من ان يكونوا طائفة من طوائف المؤمنين، وينطوى تحته على سبيل القطع نفي ما اثبتوا لانفسهم من الدعوى الكاذبة كقوله تعالى ايضا (يريدون ان يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) (١) .
 مبالغة في تكذيبهم . واذا قيل (انا مؤمن) ابلغ من (اومن) ونفي الابلاغ يستلزم نفي ما دونه . ولو قال تعالى (وما آمنوا) لم يفد الانفيه عنهم في الماضي ، ولم يفد ذمهم ان كانوا آمنوا ثم ارتدوا ، وهذا افاد نفيه في الحال ، وذمهم بكل حال ، ولان ما فيه (مؤمنين) احسن من (آمنوا) لوجود التمكين بالمد والوقف عقبه على حرف له موقف . وقوله تعالى (واذا يَكْفُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ او يَقْتُلُوكَ او يُخْرِجُوكَ ويمكرون ويمكر الله ، والله خبير الماكرين) (٢) . لا يخفى ما في تغيير الأسلوب من المبالغة لان الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت .

وقوله تعالى (الا في الفتنة سقطوا ، وان جهنم محيطه بالكافرين) (٣) وعيد لهم على ما فعلوا ، معطوف على الجملة السابقة (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) وايتار الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار وان جهنم محيطه بهم الآن تنزيلا لشيء سيقع عن قريب منزلة الواقع .

وقوله تعالى (ان تصبِكُ حسنة تسؤهم وان تصبِكُ مصيبة يقولوا قد اخذنا امرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) (٤) فقوله (وهم فرحون) اى بما صنعوا او بما اصابك من السيئة ، وايتار الجملة الاسمية للدلالة على دوام استمرار السرور .

وقوله تعالى « لو يجدون ملجأ او مفرات او مدخلا لولوا اليه وهم يجحون » (٥) فقوله (وهم يجحون) لإنادة استمرار عدم الوجدان .

ثالثا : الالتفات :

قال ابن الاثير (٦) : هذا النوع هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن .
 واليها تستند البلاغة ، وحقيقته مأخوذة من التقات الانسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا ، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لانه ينتقل من صيغة إلى صيغة ، كالانتقال من خطاب غائب إلى حاضر ، او من ماض إلى مستقبل او من مستقبل إلى ماض) .

وقال الزركشى (٧) : هو نقل الكلام من اسلوب إلى اسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع ، وتجديدا لنشاطه ، وصيانة لخاطره من الملل والضجر ، بدوام الاسلوب الواحد على سماعه) .

١ - فمفه الالتفات من التكلم إلى الخطاب مثل قوله تعالى (انا فتحنا

- | | |
|--------------------|-------------------------------------|
| ١ (المائدة : ٢٧ . | ٦ (المثل السائر : ٤/٢ وانظر تحصيل |
| ٢ (الانفال : ٢٠ . | التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيدع |
| ٣ (التوبة : ٤٦ . | القرآن : ١٢٣ . |
| ٤ (التوبة : ٥٠ . | ٧ (البرهان : ٣١٥/٣ . |
| ٥ (التوبة : ٥٧ . | |

لك فتحا مبينا ليغفر لك الله) . . (١) ولم يقل لنغفرك تعليقاً لهذه الفقرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه الحسنى ، ولهذا علق به النصر ، فقال (وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

وقوله تعالى (ولله ميراث السموات والارض والله بما تعملون خبير) (٢) فقوله تعالى (والله بما تعملون) . من المنسوع والبخل (خبير) فيجازيكم على ذلك واطهار الاسم الجليل لتربية المهابة ، والالتفات من التكلم الى الخطاب للمبالغة في الوعيد ، لان تهديد العظيم بالمواجهة اشد .

٢ - والالتفات من التكلم الى الغيبة في قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا في سبيلى وابتغاء مرضاتى) (٣) . تعليل للاخراج وفيه تغليب المخاطب على الغائب والتفات من التكلم الى الغيبة للاشعار بما يوجب الايمان من الالوهية والربوبية .

٣ - ومن الخطاب الى التكلم في قوله تعالى (قل الله أسرع مكرا ان رسلنا يكتبون ، ما تمكرون) (٤) على انه سبحانه نزل نفسه منزلة المخاطب .

٤ - ومن الخطاب الى الغيبة في قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) (٥) ، الضمير للناس والعدول عن الخطاب الى الغيبة للتبعية على انهم لفرط جهلهم وحمقهم ليسوا اهلا للخطاب بل ينبغي ان يصرف عنهم الى ما يعقله .

٥ - والالتفات من الغيبة الى الخطاب في قوله تعالى (يوم يحىٰ عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فحوقوا ما كنتم تكفرون) (٦) . فقوله (فتكوى بها جباههم وجنوبهم) . إشارة الى حكاية الحال واستحضار الصورة . وقوله تعالى (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا إن نصر الله قريب) (٧) . والالتفات هنا ابلغ ، وأكثر تأثيرا في النفس ، وفيه استحضار للصورة ايضا .

ومنه قوله تعالى (فسيحوا في الأرض اربعة أشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين) (٨) فيه التفات من الغيبة الى الخطاب وهو ابلغ لزيادة التعجيز والانذار والوعيد .

ومثله قوله تعالى في نفس السورة (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله وبشّر الذين كفروا بعداب اليم) (٩) .

١ (الفتح : ١)

٢ (آل عمران : ١٨٠)

٣ (البقرة : ٢١٤)

٤ (المتحنة : ١)

٥ (التوبة : ٢)

٦ (يونس : ٢١)

٧ (التوبة : ٣)

٨ (البقرة : ١٧٠)

فقوله (فإن تبتم فهو خير لكم) يعنى من الكفر والغدر بنقض العهد فهو خير لكم فى الدارين .

والالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد ، والنساء الأولى لترتيب مقدم الشرط على الاذان المذيل بالوعيد الشديد المؤذن بلسين عريكتهم وانكسار شدة شكيتهم (١) .

وقوله تعالى (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فاتَّبوا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين) (٢) .

فقوله تعالى (إلا الذين عاهدتم) وقال الزمخشري (يجوز أن يكون قوله فسيحوا خطاباً من الله تعالى للمشركين غير مضمحل قبله القول ، ويكون استثناء على هذا من قوله إلى الذين عاهدتم ، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين لا الباقين على العهد ، فاتموا إليهم أيها المسلمون عهدهم ، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين فى قوله : (إلا الذين عاهدتم) إلى خطاب المشركين فى قوله فسيحوا ، ثم التفت من التكلم إلى الغيبة . بقوله (واعملوا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين) واصله واعلموا انكم غير معجزي ، وفى هذا الالتفات بعد الالتفات الأول افتتان فى أساليب البلاغة وتفخيم للشأن وتعظيم للأمر ، ثم بعد هذا الالتفات يعود إلى خطاب المسلمين بقوله : (إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم فاتموا) . وكل هذا من حسنات الفصاحة (٣) .

وتأمل سر تلوين الأسلوب فى قوله تعالى : (قل : أمر ربى بالقسط ، واتبعوا جوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون) (٤) . فقد أبرز هذا التلوين العناية بكل واحد مما أمروا به على حده ، فاتجه أمر الرب إلى القسط وحده ، ثم أمروا أمراً جديداً ، بأن يقيموا جوههم عند كل مسجد ، وأمراً جديداً آخر بأن يدعوه مخلصين له الدين ، وفى ذلك من العناية بتوكيد كل أمر ما فيه ، ولم يجعل أحد هذه الأمور ملحقاً بصاحبه .

وانظر تفخيم أمر النبى صلوات الله عليه من تغيير نهج الأسلوب ، فى قوله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ، جاؤك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله تواباً رحيماً) (٥) . إذ لم يقل : واستغفرت لهم .

وتأمل قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) (٦) .

فقوله (ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا) التفت إلى خطابهم

-
- ١ (تفسير أبى السعود : ٢٥٢/٢ وفتح) (٤) الأعراف : ٢٩ .
القدر : ٢١٨/٢ .
٢ (التوبة : ٤) .
٣ (الكاف : ١٧٤/٢) .
٤ (النساء : ٦٤) .
٥ (التوبة : ١١١) .

لزيادة التشريف والاستبشار إظهارا لسرورهم .
 قال ابن الأثير (١) : والذى عندى أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ،
 أو من الغيبة إلى الخطاب ، لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة
 أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، غير أنها لا تحدّ بحدّ ، ولا تضبط
 بضابط ، لكن يشار إلى مواضع ليقاس عليها غيرها ، فإننا قد رأينا الانتقال
 من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ثم رأينا ذلك بعينه
 وهو ضدّ الأول قد استعمل فى الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلينا
 حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجرى على وتيرة
 واحدة وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب
 شعبا كثيرة لا تنحصر وإنما يؤتى بها على حسب الموضوع الذى ترد فيه) .
رابعاً - التكرار :

ظاهرة التكرار من الصور البيانية الرائعة فى الآيات الجهادية ، ففيه
 من الجمال والتهويل والتصوير ما ليس فى غيره ، سواء كان تكرار الكلمة أو
 تكرار الجملة ، أو تكرار المعنى . وظاهرة التكرار فى الآيات الجهادية ، نوعان :
 فالنوع الأول منه يأتى على وجه التأكيد ، ثم هو ينطوى بعد ذلك على نكت
 بلاغية أخرى كالتهويل ، والإنذار والتجسيم والتصوير ، وللتكرار أثر بالغ فى
 هذه الوجوه البلاغية فى الكلام . غير أنه لا ينبغي أن يذهب بنا الوهم إلى
 أن أى تكرار للكلمة أو الجملة يفى بهذا الغرض ، وإنما وسيلة قريبة المنال
 لكل قادر على الكلام .

فالتكرار الذى من شأنه أن يرتفع بقيمة الكلام إلى الفصاحة والسمو
 فى التعبير له قيود وحالات معينة لا ينبغي أن يتجاوزها ، وليس أى تكرار فى
 فى الكلام يبعث فيه التهويل أو التجسيم ولو ذهبنا نشرح الصور المحوذة
 للتكرار ولو شرحا يسيرا - لطلنا بنا البحث - وخرجنا عما نحن بصدده ،
 فيحسن الرجوع إلى ذلك فى مظانه وأماكنه (٢) .

وأما النوع الثانى منه ، وهو تكرار المعنى ، كتكرار بعض الأحكام
 والأوامر الجهادية ، وأخبار الأمم السابقة وقصصهم الجهادية ، ومرد ذلك إلى
 غرضين هامين : الغرض الأول : إنهاء حقائق الجهاد ومعانى الوعد والوعيد
 إلى النفوس بالطريقة التى تألفها وهى تكرار هذه الحقائق فى صور وأشكال
 مختلفة من التعبير والإسلوب وفى بيان هذه الحكمة يقول عز وجل (وَصَرَّفْنَا
 فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لِمَنْ يُقَوِّنُ أَوْ يُخَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا) (٣) .

قال الزركشى (٤) : وحقيقته - أى وحقيقة التصريف - إعادة اللفظ
 أو مرادفة لتقرير معنى خشية تناسى الأول لطول العهد به) . وهى من الطرائف
 التربوية التى سلكها هذا الكتاب المبين .
 أما الغرض الثانى : فهو إخراج المعنى الواحد فى قوالب مختلفة من

- (١) المثل السائر : ٥/٢ .
 (٢) مشكل القرآن لابن تقيية ، واعجاز
 القرآن للباتلى ، والبرهان للزركشى ،
 والمثل السائر لابن الأثير ، واعجاز
 القرآن للرامسى ، واعجاز القرآن
 لعبد الكريم الخطيب وغيرهم .
 (٣) طه : ١١٢ .
 (٤) البرهان : ١٥/٣ .

الالفاظ والعبارة وبأساليب مختلفة تفصيلا واجمالا ، وتصريف الكلام فى ذلك ، حتى يتجلى اعجازه ويستبين تصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه .

ومن هنا كان من المحال أن نعثر فى القرآن عامة على معنى يتكرر فى أسلوب واحد من اللفظ ويدور ضمن قالب واحد من التعبير ، بل لا بد أن تجده فى كل مرة يلبس ثوبا جديدا من الاسلوب وطريقة التصوير والعرض (١) . وعلاقة التكرار بالصور البيانية جد وثيقة ، يتضح ذلك فى كل تكرار نراه فى آيات الجهاد فى القرآن .

ويقول الرافعى (٢) : وههنا معنى دقيق فى أمر التحدى ما نظن العرب قد بلغوا منه عجا و هو التكرار الذى يجىء فى بعض آيات القرآن فتختلف فى طرق الاداء وأصل المعنى واحد فى العبارات المختلفة ، كالذى يكون فى بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعدة وتثبيت الحجة ونحوها أو فى بعض عباراته لتحقيق النعمة وترديد المنة والتذكير بالمنعم واقتضاء شكره ، وهو مذهب للعرب معروف ولكنهم لا يذهبون إليه إلا فى ضروب من خطابهم للتهويل والتوكيد والتخويف ومما يجرى مجراها من الأمور العظيمة بيد أن وروده فى القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته وأنهم يخلون عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توها ولضعف غريب فى انفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة ، لأن المعنى الواحد يتردد فى أسلوبه بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجها أو عبارة وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة ومستثمرون على العجز لا يطبقون ولا ينطقون . فهذا أبلغ فى الاعجاز واشد عليهم فى التحدى إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار المعجز النفسى .

والحق أن التكرار بنوعيه سمة من ابرز سمات الآيات الجهادية وخاصة من أخص خصائصها . فالمعنى الواحد قد يكرر أكثر من خمسين مرة كعبارة (فى سبيل الله) التى قيد بها الجهاد بأنواعه كلها فقد وردت كلمة القتال أو الجهاد فى أكثر من اثنتين وثلاثين مرة كلها مقيدة بهذه العبارة . وتستجد هذا القيد (فى سبيل الله) على الانفاق ، والهجرة والقتل ، والاستشهاد .. الخ .

من أمثلة ذلك قوله (وتاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) (٣) . وقوله فى الانفاق (وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) (٤) . وقوله (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله) (٥) .

- | | |
|---|--|
| ١ (أحسن الحديث : ١٠٤ - ١٠٥ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى . | ٦٠ ، ٧٤ والتوبة : ١٠ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٨١ ... الخ . |
| ٢ (اعجاز القرآن : ١١٩ . | ٤ (البقرة : ١٩٥ ، ٢٤٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ والافتال : ٦٠ . |
| ٣ (البقرة : ١٩٠ ، ٢٤٤ وآل عمران : ١٣ ، ١٦٧ والنساء : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ والمائدة : ٥٤ والأنفال : ٢٠ . | ٥ (البقرة : ٢١٨ والأنفال : ٧٤ والتوبة : ٢٠ . |

وعلى العموم فكل ما يتصل بالجهاد لا بد ان يكون (فى سبيل الله) .
والسر فى ذلك تقرير هذا الامر وتاكيدته فى النفوس وترسيخه فى القلوب
والمعتول .

وجميع المعانى الجهادية مكررة فى اكثر من عبارة للغرض نفسه .
استمع الى قوله تعالى فى سورة البقرة (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون
الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) (١) . وقال فى سورة
الأنفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله
بما يعملون بصير) (٢) .

فهذا هدف من اهداف الجهاد فى سبيل الله كرر بلفظه ومعناه تقريبا .
مع اختلاف يسير ، يكمن فيه سرّ الفصاحة والبلاغة ، والدقة الفنية فى
التعبيرات الجهادية . فلنا أن نسال عن فائدة قوله تعالى فى سورة البقرة
(ويكون الدين لله) ولم يؤكد ، وعقبه بقوله (فلا عدوان إلا على الظالمين)
وفى سورة الأنفال (ويكون الدين كله لله) فوكده وأتبعه بقوله : (فان الله
بما يعملون بصير) .

قال ابو الفرج الاردستانى (٣) : الجواب على ذلك أن يقال إن الآية
الأولى فى هذه السورة جاءت فى قتال أهل مكة ، الا ترى ما قبلها (وقاتلوهم
حيث تقتلوهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم) ثم قال (ولا تقتاتلوهم عند
المسجد الحرام) هذا مختص بقتال قوم مخصوصين حيث هؤلاء ، لا فى كل
مكان لأنه لا يحصل بقتل مشركى مكة الدين فى كل البلاد ، وقوله (فان انتهوا
فلا عدوان إلا على الظالمين) اى إن انتهوا عن كفرهم فلا عدوان عليهم ، إنما
العدوان على من اقام على الضلالة وظلم نفسه بلزوم الجهالة .

وأما فى سورة الأنفال فالامر ورد عاما فى قتال كل الكافرين (الا ترى)
أن قبل هذه الآية (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) وليس هذا
فى طائفة من الكفار دون طائفة . فاذا كان ذلك كذلك وقال بعده (وقاتلوهم
حتى لا تكون فتنة) اى لا يكون شرك وكفر اقتضى هذا أن يكون بمسده
(ويكون الدين كله لله) فأمرؤا بابطال كل كفر قدرؤا عليه وأتبعه بقوله
(فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) . وهى عبارة غاية فى التخيؤف
والوعيد فى العقاب الاليم وغاية فى الترغيب فى الثواب العظيم لفرقتى
الطاعة والمعصية) .

وتأمل قوله تعالى : (ام حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين
خلؤا من قلبكم) (٤) .
وفى آل عمران (ام حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدؤا
منكم) (٥) .

المعروف بأبى الفرج الاردستانى المتوفى

سنة ٤٢١ هـ من ٤٠ ، ٤١ .

(٤) البقرة : ٢١٤ .

(٥) آل عمران : ١٤٢ .

١ (البقرة : ١٦٣ .

٢ (الأنفال : ٣٩ .

٣ (درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان

الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز

للشيخ الامام أبى عبد الله الاسكافى

وفى التوبة (أم حسبتم ان تتركوا وما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) (١) .

وتكرار هذه الآيات فيه من الحز على الجهاد والتشهير للقتال والصبر بعد صبر الأعداء حتى يدخلوا الجنة وينالوا النصر والظفر فى هذه الحياة الدنيا . وقد قيل لبعض العرب ما كان سبب كثرة ظفركم بأعدائكم ؟ فقال : كنا نصبر بعد صبرهم ساعة فيكون ذلك سبب الظفر (٢) .

وتأمل سر هذا التكرار فى قوله تعالى فى سورة آل عمران (كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ) والذين من قبلهم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٣) . وفى سورة الأنفال (كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ) والذين من قبلهم كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٤) . وقبلها آية واحدة فى نفس السورة (كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ) والذين من قبلهم كفروا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥) . فالتكرار واضح فى هذه الآيات ، وقد قصد به التهويل والانتذار والتهديد بمعذاب الدنيا والآخرة وفيه من جمال التعبير والتصوير ما فيه .

ولما أراد سبحانه وتعالى التركيز على حقيقة النصر ، وإنه ليس من قبل الملائكة ولا من جهة العدد والعدة وفضل القوة ولكنه من عند القادر الذى لا يغلب ولا يمنع عما يريد فعله ، والحكيم الذى يضع النصر موضعه . كرر تعالى هذه الحقيقة فى موضعين فقال عز شأنه فى سورة آل عمران : (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) (٦) . وفى سورة الأنفال (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) (٧) .

ولنسا ان نسأل عن حكمة قوله تعالى فى سورة الأنفال (وما النصر إلا من عند الله إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) وفى سورة آل عمران (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) فآية سورة الأنفال انما هى فى قصة بدر وبين الله ذلك فيه بلفظ جعله كالعلة يكون النصر بيده فكانه قال فى المعنى النصر ليس إلا من عند الله العزيز الذى لا يمنع عما يريد فعله والحكيم الذى يضع النصر فى موضعه ففصل ذلك فى خبرين على الأصل الواجب فى توفيه كل معنى حقه من البيان . والآية فى سورة آل عمران هى فى قصة يوم أحد وهو بعد يوم بدر ، وكان هذا البيان قد حصل فيها جعل خبرا عن النصر فى اليوم الأول فاقصر من ذكر مثله فى اليوم الثانى على خبر واحد يجرى عليه مجرى الوصف لاختصار المعنى عن البسط اعتمادا على ما فصل فى الخبر الأول . فكان الاختصار بالثانى اللىق ، وكان الثانى له أجمل فخص كل موضع بما يناسبه (٨) .

ولنتأمل هذا التكرار الذى يؤكد حقيقة الجهاد فى سبيل الله . قال

- | | |
|----------------------------------|------------------------|
| ١ (التوبة : ١٦ . | ٥ (الأنفال : ٥٤ . |
| ٢ (درة التزليل : ٤١ لاردستانى . | ٦ (آل عمران : ١٢٦ . |
| ٣ (آل عمران : ١١ . | ٧ (الأنفال : ١٠ . |
| ٤ (الأنفال : ٥٢ . | ٨ (درة التزليل : ٦٢ . |

تعالى فى سورة البقرة : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) (١) . وفى سورة الأنفال (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) (٢) وقوله تعالى فى نفس السورة وبعد هذه الآية بآيتين (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) (٣) وفى سورة التوبة (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم اعظم درجة عند الله) (٤) وفى نفس السورة (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) (٥) .

فيكاد يكون التكرار فى هذه الآيات باللفظ والمعنى لتقرير حقيقة الجهاد فى نفوس المؤمنين وترسيخ معناه فى النفوس . فنحن نرى باستمرار أن الآيات الجهادية تجعل الايمان بالله شرطا أساسيا للجهاد وتقرن بينه وبين الهجرة ، والجهاد بالمال والنفوس ، وكل هذا يجب أن يكون (فى سبيل الله) .

وتأمل هذا التكرار فى الدعوة إلى الانفاق فى سبيل الله : قال تعالى (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون) (٦) . وفى الآية التالية من نفس السورة قوله (وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) (٧) وفى سورة آل عمران (وما تنفقوا من شئ فإن الله به عليم) (٨) وفى سورة الأنفال (وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) (٩) وفى سورة البقرة (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) (١٠) وفى سورة سبأ (وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين) (١١) .

فالتكرار واضح كل الوضوح فى اللفظ والمعنى والملة معروفة هى التقرير والتأكيد والتشجيع على الانفاق دون خوف من ضياع أجر ، وعظيم ربح .

ولكن الآيات الجهادية حددت شروط الانفاق الذى يؤدي إلى الفوز والكسب فى الدنيا والآخرة ، وبينت أيضا النفقة التى لا يستفيد منها صاحبها شيئا وعاقبتها الخسران المبين فى عشرات الآيات فى الذين ينفقون فى سبيل الله جاء قوله تعالى (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم) (١٢) وقوله (وما لكم إلا تنفقوا فى سبيل الله) (١٣) وقوله (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل

- | | |
|---------------------------------------|---------------------|
| ١ (البقرة : ٢١٨ . | ٧ (البقرة : ٢٧٣ . |
| ٢ (الأنفال : ٧٢ . | ٨ (آل عمران : ٩٢ . |
| ٣ (الأنفال : ٧٥/٧٤ . | ٩ (الأنفال : ٦٠ . |
| ٤ (التوبة : ٢٠ . | ١٠ (البقرة : ٢٧٠ . |
| ٥ (التوبة : ٨٨ والنحل : ١١٠ والحجرات | ١١ (سبأ : ٣٩ . |
| ١٥ والصف : ١١ . | ١٢ (البقرة : ٢٦٣ . |
| ٦ (البقرة : ٢٧٢ . | ١٣ (الحديد : ١٠ . |

الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل (١) . وقوله (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله) (٢) وقوله (وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) (٣) أما الذين لا ينفقون في سبيل الله فقد جاء فيهم قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشروهم بعذاب اليم) (٤) . وقوله تعالى (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسيفقونها ثم تكون حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) (٥) .

ولنتأمل هذا التكرار العجيب في آيتين باللفظ والمعنى دون زيادة ولا نقص ، قال تعالى في سورة التحريم (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُئَسُّ الْمَصِيرُ) (٦) وفي سورة التوبة (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُئَسُّ الْمَصِيرُ) (٧) وذلك في رأيي تأكيد في تشديد النكير عليهم ، وأخذهم بالعنف والقسوة جزاء وفاقا لأعمالهم وأقوالهم الخبيثة في الكيد للإسلام والمسلمين .

وتأمل هذا التكرار في اللفظ والمعنى أيضا ، في قوله تعالى (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) (٨) وفي سورة الحشر (ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب) (٩) . وقد استخدم التكرار في هاتين الآيتين كما استخدم كثيرا في الآيات الجهادية وسيلة لتثبيت المعاني في النفوس ، وإقرارها في أفئدتهم ، حتى تصبح عقيدة من عقائدهم . وهذا سر تكرار القرآن لجمال ألفاظها نفسها ، لما في ذلك من أثر في تثبيت المكرّر في النفس .

ومن الجمل المكررة بألفاظها قوله تعالى في سورة الفتح في الآية الرابعة (ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليما حكيما) وفي الآية السابعة من السورة نفسها (ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عزيزا حكيما) .

قال القاشاني (١٠) : كرر ليفيد تغليب جنوده على جنود المنافقين والمشركين . وبدل (عليما) بقوله (عزيزا) ليفيد معنى القهر والقهر المقمع ، لأن العلم من باب العطف ، والعزة من باب القهر .

ولنا أن نسال عن أثر التكرار في النفس وآراء العلماء قديما وحديثا في ذلك ؟

قال الزركشي (١١) : وفائدته العظمى التقرير ، وقد قيل : الكلام : إذا تكرر تقرر . وقد أخبر تعالى عن سبب تكرار الأقايس والأخبار في

- | | |
|--------------------|---|
| ١ (البقرة : ٢٦١) | ٧ (التوبة : ٧٣) |
| ٢ (البقرة : ٢٦٥) | ٨ (الأنفال : ١٣) |
| ٣ (البقرة : ١٩٥) | ٩ (الحشر : ٤) |
| ٤ (التوبة : ٢٤) | ١٠ (محاسن التأويل : ٥٤٠٠/١٥ هـ للقاسمي) |
| ٥ (الأنفال : ٣٦) | ١١ (البرهان : ٩/٣) |
| ٦ (التحريم : ٩) | |

القرآن ، فقال : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) (١) وقال تعالى (وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا) (٢) .
 وقال لوبيون (٣) : والتكرار من أهم العوامل لبث الفكرة في النفوس ،
 وقرارها في القلوب ، اقرارا ينتهي الى الايمان والعمل بها ، فإذا تكرر
 الشيء رسخ في الأذهان رسوخا ، تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة ، في عقول
 المستنيرين ، وتأثير أكبر في عقول الجماعات من باب أولى ، والسبب في ذلك
 كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية ، التي تختبر فيها أسباب
 افعال الانسان ، فاذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار ،
 وانتهى بتصديق المكرر) .

ويقول صاحب الحضارة الاسلامية (جرونباوم) (٤) في صدد الحديث
 عن التكرار في القرآن ، والرد على الذين يعيبون القرآن من هذا الوجه
 (يجب الا يغرب عن البال أن محمدا كان ينبغي ان يعلم أن الواعظ والمعلم
 مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل التكرار بنفس الألفاظ تقريبا .
 ونحن الذين لا نقرأ القرآن من أجل اصلاح امرنا ، ولا ابتغاء التهذيب الخلقى
 لنفوسنا ، تساورنا آمال خاطئة حين ننظر في كثير من فقرات الكتاب ، فان
 كثيرا من آيات الكتاب لم يكن قصد النبي من نقله إلى الناس هو الاستثارة
 الذهنية ، بل توطيد معايير جديدة للتقوى والاخلاق) .

ويخطئ المؤلف حين يظن أن القرآن من عمل محمد عليه الصلاة
 والسلام ومقترحاته ، كما يخطئ أندح الخطأ اذ يقدر أن القرآن ليس الذي
 وقع فيه التكرار ، إذ قرأه القارئ غير المسلم ، لا يطلب فيه التهذيب الخلقى
 لنفسه ، بل مجرد قراءة لكتاب أدبي تساوره آمال خاطئة في بلاغة القرآن
 الذي وقع فيه التكرار . . فان التكرار الذي وقع في القرآن مع صرف النظر
 عما فيه من تهذيب نفسي وخلقى ، هو في الفاظه — مجردة عن المعاني
 الكريمة التي فيه — نغم موسيقى متناسق ، متساق ، يلذ السمع ، ويهز
 القلب ، وينعش الروح . وحسن من المؤلف أن يعترف هنا بالأثر النفسى للتكرار
 وسمو موقعة من القلب ، وأنه تدبير حكيم في مقام الدعوة لإصلاح النفوس ،
 وإحياء القلوب . فهذا مقصد أصيل من مقاصد التكرار في القرآن .

إن داعية التكرار قائمة في المواقف التي يكون الأمر فيها ذا شأن
 وخطر في الحياة الروحية والنفسية ، فتقضى الحال أن يقابل هذا الموقف
 بما ينبغي له من الحضور النفسى والعقلى ، وهذا لا يكون إلا بالتنبيه لهذا
 الموقف ، والدعوة له ، والتهاتف به . والتكرار أداة فعالة من أدوات الايقاظ
 والتنبيه (٥) .

وعلى هذا فان التكرار في الآيات الجهادية كان أسلوبا من أساليب
 التمكين لحقائق الجهاد في النفوس ، وترسيخ قواعده في القلوب .
 ويقول الاستاذ امين الخولى (٦) : هذا التكرار في القرآن قال فيسه

- | | |
|--|--|
| ١ (القصص : ٥١ . | ٤ (الحضارة الاسلامية : ١٠٩ آدم مقر |
| ٢ (طه : ١١٢ . | ٥ (إجاز القرآن : ٣٨٣ عبدالكريم الخطيب |
| ٣ (روح الاجتضاع : ١٢٩ جوستاف لوبيون . | ٦ (البلاغة وعلم النفس : ١٥٩ . |

القدماء منذ عهد بعيد ولا يزال يقول فيه المحدثون حتى أمس القريب ، ولعل القائلين جميعا جاؤوا هذه المسألة من غير طريقتها النفسى ، الذى هو سبيل الإعجاز الفنى فى القرآن .

وبعد أن ذكر آراء القدماء والمحدثين . مثل صاحب الطراز والرافعى والباقلانى والسكاكى . قال (١) : (وتلك آراء فى التكرار ، أشعر أنها لا تزال تفسح مكانا لمحاولة تحليل يقوم عليها اعتبار نفسى انساني عالمى ، تؤيده شواهد من أحوال النفس البشرية واتجاهاتها ، ولعله يصح أن يكون من وجه ذلك ما يسوقه النفسيون من أن التكرار من أقوى طرق الإقناع ، وخير وسائله تركيز الرأى والعقيدة فى النفس البشرية ، على هيئة وفى هـوادة دون استتارة لمخالفتها بالجدل او المشادة ، فى نظم البرهان ، والتعرض البادى للاستدلال) .

خامسا - الذكر والحذف :

لا تذكر كلمة فى القرآن الا اذا اقتضاه السياق ، وتطلبها النظم ، ولا تحذف كلمة الا وحذفها ابلغ وانسب ، وأكثر ترابطا فى الاسلوب ، وأحكم للصياغة الفنية المعجزة . ويذكر القرآن ما يذكره عندما يكون فى هذا الذكر تثبيت للمعنى ، وتوطيد له فى النفس ، فللذكر مجاله فى الصياغة القرآنية ، وللحذف مجاله هو الآخر ، ومنه قوله تعالى (يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول) (٢) ، ولم يقل : قل هى لله والرسول . ولو قال ذلك لاختل النسق .

ويذكر المسند اليه تأكيدا لوقوع المسند ، إذا كان ذكر اسمه مما يطمئن السامع إليه ، فى مثل قوله تعالى (لا يستوى القاعدون من المؤمنين ، غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله ، بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما) (٣) .

ونذكر لفظ الجلالة بعد الوعد ضمانا لتنفيذه ، كما يذكر للتصوير الباعث على الرهبة ، فالآية تبرر كرامة المجاهد ومنزلته فى تكرار لفظ الجلالة صريحا وقد وقع منه التفضيل مرتين ومن تكرار لفظ (المجاهدين) مرتين قد وقع عليه التفضيل ، فكانه قال : فضل الله المجاهدين ومرة ثانية فضل الله المجاهدين ، وليس المقصود انه فضلهم بذلك مرتين فقط ، بل المقصود اطلاق التفضيل لهم على المؤمنين القاعدين غير أولى الضرر .

فالآية بهذا النظم قد وضعت الملامح الاصلية لفضيلة الجهاد فى الاسلام ، واقتنعت بها الخواطر والمدارك معا .

كما يذكر المسند اليه تأكيدا لنعمة اداها ، فيكون ذكره مثيرا لشكره كما فى قوله تعالى (وَرَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا) (٤) ولا شك أن هذه النعمة الكبرى

٣ (النساء : ٩٥ .
٤ (الأحزاب : ٢٥ .

١ (البلاغة وملم النفس : ١٦٤ .
٢ (الأنفال : ١ .

جديرة بذكر المنعم ، ليشكر .

وفى ذكر المسند أيضا تثبيت لمعنى الجملة فى النفس ، وقد يثير حذفه برغم ما قد يدل عليه معنى لا يراد ، وتأمل قوله تعالى (أولئك الذين لم يُرد الله أن يُطهّر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) (١) . ففى تكرار (لهم) ما يشمر بكمال قوة الجزعين ، ويؤكد أن العذاب العظيم قد أعد لهم فى الآخرة .

أما الحذف فهو لغة الإسقاط ، ومنه حذفت الشعر إذا أخذت منه . واصطلاحا إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل . ويصفه عبد القاهر أنه من باب دقيق المسلك . لطيف المأخذ ، عجيب الامر ، شبيه بالسحر ، فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجسدك انطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر (٢) .

وما من اسم أو فعل تجده قد حذف ، ثم أصيب به موضعه ، وحذف فى الحال ينبغى أن يحذف فيها ، إلا وائت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره ، ترى اضماره فى النفس أولى وأنس من النطق به (٣) .

١ - وقد يكون الحذف اسما أو فعلا أو حرفا ، فمن الاسم حذف المبتدأ ، وذلك عندما يكون ذكر الخبر المتصف بصفة ، كأنه يشير إلى هذا المبتدأ ، وكأنما بلغ من الشهرة بهذا الوصف مبلغا يفنى عن ذكره ، كما تجد ذلك فى قوله سبحانه : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لذن حكيم خبير) (٤) . فالكتاب الذى أحكمت آياته لا شك يشير الى انه القرآن فالذكر هنا تطويل لا داعى له ، ولا فنية فيه .

ويحذف لان ذكره يبعث السأم فى النفس ، لشدة وضوحه ، لقرب الحديث عنه ، كما تحس بذلك فى قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين) (٥) . أو لا ترى أن فى ذكر الضمير العائد على الكتاب قلنا ، لشدة قرب الكتاب المائل أمام النفس ، ومن قوله تعالى : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) (٦) . وكقوله تعالى : (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة) (٧) . أى احداهما فئة ، فلطلب الإيجاز والاختصار حذف ، ولأن فى الحذف يتم ارتباط الجملة أكثر من الذكر .

٢ - حذف الخبر عندما يقوم دليل فى الكلام عليه ، فيكون ذكره كاللفو ، وتفقد الصياغة سمة من سماتها البارزة فى البلاغة ، وهى الإيجاز بلا اخلال بالمقصود من الكلام كقوله (أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ للإسلام فهو على نور من ربه ، فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله) (٨) وهنا زيادة لذة للنفس بسبب استبطاء الذهن للمحذوف الذى دل عليه دليل فى الآية .

٣ - ويحذف الفاعل لمناسبة تقدمه كقوله تعالى فى سورة براءة (رضوا

- | | |
|-----------------------------|-----------------------|
| ١ (المائدة : ٤١) . | ٥ (البقرة : ٢) . |
| ٢ (دلائل الإعجاز : ١١١) . | ٦ (البقرة : ١٨) . |
| ٣ (دلائل الإعجاز : ١١٧) . | ٧ (آل عمران : ١٣) . |
| ٤ (هود : ١) . | ٨ (الزمر : ٢٢) . |

بأن يكونوا مع الخوالف وَطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون (١) لأنها قبلها (واذا أنزلت سورة) على بناء الفعل للمفعول فجاء قوله (طبع) ليناسب بالختام المطلق ، بخلاف قوله فيما بعدها (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) (٢) . فانه لم يقع قبلها ما يقتضى البناء ، فجاءت على الأصل (٣) .

٤ - ويحذف المفعول ، عندما يكون المراد الاقتصار على اثبات المعانى ، التى اشتقت منها الأفعال لفاعليها ، من غير تعرض لذكر المفعولين ، فيصبح الفعل المتعدى كغير المتعدى ومن أمثلة هذا الحذف قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون) (٤) .

إذ المعنى أيسوى من له علم ومن لا علم عنده ، من غير أن يقصد النص على معلوم .

٥ - حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه . ولا بدّ من وجود دليل على المحذوف من عقل أو قرينة نحو (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعقُ بما لا يسمعُ إلا دُعاءً ونِدَاءً) (٥) . وهذا من أجمل ما حذف فيه المضاف . فأصل الجملة : ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى لا ينعق بما لا يسمع ، ثم حذف المضاف وهو داعى ، وفعالشأنه ، فى اللفظ عن أن يقرن بهذا الذى ينعق بما لا يسمع ، وبقي المراد ، وهو أن هؤلاء الكفار صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

وقد يضاف المضاف إلى مضاف ، فيحذف الأول والثانى ، ويبقى الثالث ، كقوله ، عز وجل (أَسْحَبَةٌ عَلَيْهِمْ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك تدور أعينُهُمْ كالذى يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الْخَوْفُ سَلَقوكم بالسنة حداد أسْحَبَةٌ على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) (٦) . فقوله (تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى كدوران عين الذى يغشى عليه الموت . وقوله تعالى (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) (٧) . أى من أموال كفار أهل القرى ، ولو ذكرت هذه الإضافات لا تصف النظم بضعف التأليف ، وكان فيه الثقل الكبير ، وهذا ما ينتزه القرآن عنه .

٦ - حذف الصفة : وأكثر ما يرد للتخميم والتعظيم فى النكرات ، وكان التنكير حينئذ علم عليه كقوله (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (٨) أى الناس الذين يعادونكم .

سادساً - الإطناب :

الإطناب يوجد تارة فى الجملة الواحدة من الكلام ، ويوجد تارة فى الجمل المتعددة والذى يوجد فى الجمل المتعددة أبلغ لاتساع المجال فى إيراده .

- | | |
|--------------------------------|----------------------|
| ١ (التوبة : ٨٧ . | ٥ (البقرة : ١٧١ . |
| ٢ (التوبة : ٩٢ . | ٦ (الأحزاب : ١٩ . |
| ٣ (البرهان : ١٤٥/٣ للزرركشى . | ٧ (الحشر : ٧ . |
| ٤ (الزمر : ٩ . | ٨ (آل عمران : ١٧٣ . |

وعلى هذا فإنه بجملته ينقسم قسمين :
القسم الأول : الذى يوجد فى الجملة الواحدة من الكلام ، وهو يرد حقيقة ومجازا ، أما الحقيقة فمثل قوله تعالى : (ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) (١) . فمن ذلك تأكيد للامر ، وزيادة فى تصوير المعنى المقصود .

وقال ابن الاثير ايضا (٢) : والقسم الثانى المختص بالجمال فإنه يشتمل على ضروب أربعة : الأول منها : أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة ، إلا أن كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر .

والثانى : يسمى النفى والاثبات ، وهو أن يذكر الشيء على سبيل النفى ، ثم يذكر على سبيل الاثبات ، أو بالعكس ، ولا بد أن يكون فى أحدهما زيادة ليست فى الآخر ، وإلا كان تكريرا ، والغرض به تكرير ذلك المعنى المقصود . فما جاء منه قوله تعالى (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليهم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) (٣) .
وان لهذا الضرب من الإطناب فائدة كبيرة ، وهو من أوكد وجوهه ، الا ترى أنه

قال : لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . ثم قال : « إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر » . والمعنى فى ذلك سواء ، إلا أنه زاد فى الثانية قوله : « وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين الآيتين حكم التكرير وهذا الموضع ينبغى أن يتأمل وينعم النظر فيه . ومنه قوله تعالى : « ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » (٤) وهو التعقيب القرآنى على قول اليهود عزيز ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله يثبت أنهم فى هذا الايمان يماثلون قول الذين كفروا من قبل فى معتقداتهم وتصوراتهم : فهو أولا يثبت أن هذا القول صادر منهم ، وليس مقولا عنهم ، ومن ثم يذكر أفواههم لاستحضار الصورة الحسية — على طريقة القرآن فى التصوير — إذ أنه مفهوم أن قولهم يكون بأفواههم ، فهذه الزيادة ليست لغوا — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — وليست اطنابا زائدا ، وإنما هى طريقة التعبير القرآنية التصويرية فهى التى تستحضر صورة القول ، وتحيلها واقعية كأنها مسموعة مرئية ! وذلك فضلا على ما تؤديه من معنى بيانى آخر — الى جانب استحياء الصورة واثباتها — وهو أن هذا القول لا حقيقة له فى عالم الواقع ، إنما هو مجرد قول بالأفواه ، ليس وراءه موضوع ولا حقيقة .. !

وقال ابن اثير (٥) : « ان الاطناب يأتى فى الكلام مؤكدا كالذى يأتى بزيادة التصوير للمعنى المقصود اما حقيقة أو مجازا والتطويل ليس كذلك ، فان التعبير عن المعنى بلفظ زائد عليه يفهم ذلك بدونه ، فإذا حذف تلك الزيادة بقى المعنى المعبر عنه على حاله لم يتغير منه شيء ، وهذا بخلاف الاطناب ، فإنه إذا حذف

(١) التوبة : ٣٠ .
(٢) المثل السائر : ١٣٣/٢ .
(٣) التوبة : ٢٠ .
(٤) المثل السائر : ١٣٤/٢ .
(٥) التوبة : ٤٤ — ٤٥ .

تلك الزيادة المؤكدة للمعنى تغير ذلك المعنى وزال ذلك التأكيد عنه ، وذهبت
فائدة التصوير والتخييل التي تفيد السامع ما لم يكن الا بها .

سابعا : التقديم والتأخير :

عرفنا ان الآية القرآنية بناء فنى تتمثل فيه المواقف المختلفة فى تصوير
دقيق ، تقصر دونه قدرات البشر ، وتمعجز عنه فى كل زمان ومكان . وإنما بلغ
القرآن حد الإعجاز بطريقة النظم وهىة الوضع ، وما يشذ فى القرآن الكريم
حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز . حتى انك لو تدبرت الآيات التى لا تقرا فيها
إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة وهى بالطبع مظنة أن لا يكون فيها شىء من
دلائل الإعجاز ، فانك ترى إعجازا ابلغ ما يكون فى نظمها وجهات سردها من
تقديم اسم على غيره أو تأخير عنه لنظم حروفه ومكانه من النطق فى الجملة أو
لنكته أخرى من نكت المعانى التى وردت فيها الآية . تأمل قوله تعالى :
« فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » (١) .

وإنك مهما قلبت هذه الاسماء الخمسة فانك لا ترى لها فصاحة إلا فى
الوضع فلو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر ولأعنتك أن تجيء منها بنظم
فصيح ، ثم لاحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطعك دون غايتها ، ثم لخرجت
الاسماء فى اضطراب النطق على ذلك بالسوء ، ليس يظهر أخفها من أثقلها ،
فانظر كيف يكون الإعجاز فيما ليس فيه إعجاز (٢) .

والتقديم والتأخير باب كثير الفوائد جم المحاسن ، واسع التصرف بعيد
الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضى الى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا
يروقت مسعاه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم ننظر فتجد سبب أن رائق ولطف
عندك ، أن قدم فيه شىء ، وحول اللفظ عن مكان الى مكان » (٣) .

وللتقديم والتأخير أسباب فنية تقتضيه ، من ذلك قوله تعالى : « زَيْنٌ
لِلنِّسَاءِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَيْنِ وَالْقَنَاظِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ » (٤) .

وإنما أخر ذكر الذهب والفضة على النساء والبنين ، لأنها أقوى من
الشهوة الجبلية من المال ، فان الطبع يحث على بذل المال ، لتحصيل النكاح
والولد . والنساء أقعد من الأولاد فى الشهوة الجبلية ، والبنون أقعد من
الأموال ، والذهب أقعد من الفضة ، والفضة أقعد من الأنعام ، أو وسيلة إلى
تحصيل النعم ، فلما صدرت الآية بالحسب وكل المحبوب مختلف المراتب اقتضت
حكمة الترتيب أن تقدم ما هو الأهم فالأهم من رتبة المحبوبات .

ولنتأمل هذا التقديم والتأخير فى هاتين الآيتين ، قال تعالى « وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى
سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ، وَلَئِن مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ
إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ » (٥) .

٢ (دلائل الإعجاز : ٨٣ ط . رشيد رضا .

١ (الأعراف : ١٣٣ .

٤ (آل عمران : ١٤ .

٢ (إعجاز القرآن : ٢٤٦ ، ٢٤٧ مصطفى

٥ (آل عمران : ١٥٧/١٥٨ .

صادق الراسمى .

ولنا أن نسال لم قدم سبحانه القتل على الموت فى الآية الأولى ، ولم قدم الموت على القتل فى الآية الثانية . . ؟

إنّ حكمة التقديم والتأخير هنا واضحة وهى من دقائق القرآن اللطيفة وإسارره العجيبة . فالآية الأولى جاءت مشجعة للمسلمين على القتال فى سبيل الله ، وعدم التقاعس عنه بسبب الخوف من القتل . ولما كان القتل كثيرا ما يقع فى ميدان القتال فكان تقديمه على الموت الذى يحصل على الفراش غاية من الحسن والدقة . . وكان تقديمه على الموت فى الحصول على وعد الله تعالى بالمغفرة والرحمة أفضل . وفى الآية الثانية قدم الموت الذى هو أعم من القتل ويحدث فى ميدان القتال وغيره . فسواء مات المسلم أو قتل فمصييره إلى الله يحشره فيحاسبه على ما قدمت يداه ان خيرا فخير وان شرا فشر : « لالى الله تحشرون » . ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن ليس بالخفى .

ومن هنا ندرك سر تقديم المال على الولد فى التعويق عن الجهاد والفتنة فى الدين .

قال تعالى فى سورة الأنفال : « واعلموا انها أموالكم وأولادكم فتنة وان الله عنده اجر عظيم » (١) . وفى سورة (المنافقون) « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » (٢) . وفى سورة التغابن : « انها أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم » (٣) . وقوله « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقرىكم عندنا زلفى » (٤) . وقوله : « وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » (٥) . وقوله « كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا » (٦) .

ولذا قال المعذرون والمتقاعسون عن الجهاد : « شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » (٧) . ويكاد يكون تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس دائما فى الآيات الجهادية لأن المال شقيق الروح وربما يتطوع الانسان لبذل روحه ويضن بماله . ومن أمثلة ذلك : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما » (٨) وقوله تعالى : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم » (٩) وقوله تعالى : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم » (١٠) .

وتقديم (سميع) على (عليم) من نوع التقديم بالرتبة ، فان ذلك يتضمن التخويف والتهديد ، فبدأ بالسمع ، لتعلقه بالأصوات ، وأن من يسمع حسك قد

٢٠. والإسراء : ٦ ، ٦٤ ، الخ .

٧ (الفتح : ١١) .

٨ (النساء : ٩٥) .

٩ (الأنفال : ٢٦) .

١٠ (الأتكال : ٧٢ ، والتوبة : ٤٤ و ٨١) .

و٨٨ والحجرات : ١٥١ .

١ (الأنفال : ٢٨) .

٢ (المنافقون : ٩) .

٣ (التغابن : ١٥) .

٤ (سبأ : ٢٧) .

٥ (سبأ : ٢٥) .

٦ (التوبة : ٦٩ ونوح : ١٢ والحديد

يكون أقرب اليك في العادة من يعلم ، وان كان علم الله تعالى يتعلق بما ظهر وبما بطن . أستمع الى قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم » (١) . وقوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنون منه بلاء حسنا ان الله سميع عليم » (٢) وقوله تعالى : « إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتن في الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وان الله لسميع عليم » (٣) .

وقوله : « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مفرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم » (٤) .

وتقديم (الغفور) على (الرحيم) من باب الرتبة أيضا ، فان المغفرة سلامة والرحمة غنمية ، والسلامة مطلوبة قبل الغنمية . من ذلك قوله في سورة الأنفال : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم » (٥) وقوله تعالى : « يأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » (٦) . وقوله « فاذا انسلكم الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » (٧) .

ولنتأمل هذا الترتيب العجيب للمعوقات الدنيوية عن الجهاد وفي سبيل الله « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » (٨) . هذه هي كل حظوظ الدنيا يضعها الله مرتبة ترتيبيبا طبيعيا ثم يضع في الكفة الأخرى حب الله أولا ورسوله ثانيا والجهاد في سبيله ثالثا .

وقد رأينا النظم القرآني يقدم الأموال على الأولاد عند التحذير من الفتنة ، لأن الأموال أكثر فتنة من الأولاد ، ولكنه عند ذكر الشهوات ، يقدم النساء والبنين عليها ، فقال تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقنطير المقنطرة ، من الذهب والفضة ، والخيول المسومة ، والإنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » (٩) . ويتقدم في النظم القرآني الكثير على ما دونه ، في مثل قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا ، ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ، فاحذروهم ، وان تعفوا وتصفحوا ، وتغفروا ، فان الله غفور رحيم » (١٠) لأن العداوة في الأزواج أكثر منها في الأولاد . ولما كان اليهود أشد عداوة للمؤمنين من المشركين قدم ذكرهم على

- | | |
|----------------------|---------------------|
| ١ (آل عمران : ١٢١ . | ٦ (الأنفال : ٧٠ . |
| ٢ (الأنفال : ١٧ . | ٧ (التوبة : ٥ . |
| ٣ (الأنفال : ٤٢ . | ٨ (التوبة : ٢٤ . |
| ٤ (التوبة : ٩٨ . | ٩ (آل عمران : ١٤ . |
| ٥ (الأنفال : ٦٩ . | ١٠ (التغابن : ١٤ . |

المشركين فقال تعالى : « لتجدنَّ أشدَّ الناسَ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ذلك بأن منهم تسييسين ورهبانا وإنهم لا يستكبرون » (١) .

وتتقدم الكلمة لتقدمها في الزمن ، أو العمل ، كقوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (٢) . فالتوراة أسبق في النزول من الانجيل ، والانجيل أسبق من القرآن .

وهكذا جاءت مرتبة ترتيبياً زمنياً « التوراة والانجيل والقرآن » . ومثله قوله تعالى « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى » (٣) .

ومن ذلك تقديم الإيمان على الهجرة ، والهجرة على الجهاد بالمال والنفس . قال تعالى « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » (٤) وقوله « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » (٥) .

ويتقدم العدد القليل في ترتيب الجملة الجهادية على العدد الكثير . قال تعالى : « ياأيها النبي حرّض المؤمنین علی القتال ان ینکن منکم عشرون صابرون یغلبوا مائتين وان ینکن منکم مائة یغلبوا الفا من الذین کفروا بأنهم قوم لا یفقهون . الان خفف الله عنکم وعلم ان فیکم ضعفا فان ینکن منکم مائة صابرة یغلبوا مائتين وان ینکن منکم ألف یغلبوا الفین باذن الله والله مع الصابرين » (٦) . ومنه قوله تعالى « مثل الذین ینفقون أموالهم فی سبیل الله کمثل حبة أنبتت سبع سنابل فی کل سنبله مائة حبة والله یضاعف لمن یشاء والله واسع عليم » (٧) .

وتتقديم الإشرف والاعلی منزلة ، لعلو شرفه ورتبته ، ولهذا قدم اسمه تعالى في قوله سبحانه : « یاأيها الذین آمنوا أطیعوا الله ، وأطیعوا الرسول ، وأولی الأمر منکم » (٨) . وقوله : « وأطیعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا » (٩) .

ومنه قوله تعالى : « قد کان لکم آية فی فئتين التقتا فئة تقاتل فی سبیل الله وأخرى کافرة یرونهم متلّیّهم رای العین والله یؤید بنصره من یشاء إنّ فی ذلك لعیبرة لأولی الأبصار » (١٠) فقدم ذکر الفئة المؤمنة علی الکافرة لشرفها وعلو منزلتها عند الله تعالى .

- | | |
|---|-------------------------|
| ١ (المائدة : ٨٢ . | ٦ (الأنفال : ٦٥ ، ٦٦ . |
| ٢ (التوبة : ١١١ . | ٧ (البقرة : ٢٦١ . |
| ٣ (الفتح : ٢٩ . | ٨ (النساء : ٥٩ . |
| ٤ (الأنفال : ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٥ ، ٧٥ ، ٧٥ ، ٧٥ ، ٧٥ . | ٩ (الأنفال : ٤٦ . |
| ٥ (البقرة : ٢١٨ ، والنحل : ١١٠ ، وانج : ١٣ . | ١٠ (آل عمران : ١٣ . |
- ٥٨ وآل عمران : ١٦٥ .

وتأمل قوله تعالى : « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا .. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساعت مصيرا » (١) .
ومنه قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » (٢) .
وقوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء فلن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (٣) .
وهكذا نرى الآيات الجهادية ، لا تنهج ما تنهج في ترتيب كلماتها سوى هذا المنهج الذي يقدم ما يقدم ، لمعنى تفهمه وراء رصف الالفاظ ، وحكمة ندرتها من هذا النسج المحكم المتين .
وتلك نظرات تدل على عمق الأصالة ، وأصالة في العمق ، توضح مجال كل كلمة ، ووضعها الذي يتلاءم والسياق ، فلم تقدم الكلمة كيفما اتفق ، وإنما للتقديم ميزان توزن به الكلمات ، وللتأخير خصائص فنية ، وسمات تصويرية ، وبراعة في التنسيق والتركيب .

ثامنا : الوصل والفصل :

ذكر عبد القاهر الجرجاني أن العلم بما ينبغى أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه الا الاعراب الخالص ، والاقوام الذين طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة في نوق الكلام ، وقد بلغ من قوة الامر في ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ، وذلك لغموضه ودقة مسلكه ، وأنه لا يكمل لآحراز الفضيلة فيه احد الا لسائر معاني البلاغة (٤) .

وقد عنى البلاغيون بالحديث عن (الواو) ، التي تذكر فتصل الجملة بأختها ، أو تترك فتدع الجملتين منفصلتين ، وقد خصت (الواو) بالحديث ، لأن غيرها من حروف العطف تفيد مع الاثراك معاني ، كأن تدل (الفاء) على الترتيب مع التعقيب ، و (ثم) على الترتيب مع التسراخي ، أو التردد بين الشيين ، فاذا عطفت جملة على جملة بواحدة منها ، ظهرت فائدة هذا الحرف واضحة جلية .

أما الواو فانها لما كانت لمطلق الجمع ، لا تصل جملة بأخرى ، الا اذا كان المعنى في احدى الجملتين متصلا بمعنى الجملة الاخرى ، ومرتبطا به ، كما نرى ذلك في قوله سبحانه « انها يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فبطهم وقيل اتعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً والأوضاعوا خلالكم ييغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم

٣ (الأنفال : ٤١)
٤ (دلائل الإعجاز : ١٧٠)

١ (الفتح : ٥ - ٦)
٢ (الأنفال : ١)

بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقبلوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ، الا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تُصَبِّكَ حسنة تسوءهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون « (١) .

فالواو فى هذه الآيات قد وصلت الجمل بعضها ببعض لمكان الصلة بينها والتناسب ، فعدم ايمانهم بالله واليوم الآخر يناسب ارتياب قلوبهم ارتيابا ينفمسون فيه . وفى الآية الثانية نرى التناسب واضحا بين تقاعسهم عن الخروج ، وعدم الاعداد له ، وبين كره الله تعالى لانبعاثهم ، وهكذا نجد الصلة جامعة بين الجملة وأختها بجامع يهيبء للواو مكانها بينها .

وتأمل جمال الوصل ، فى قوله تعالى « واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وايدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلمك تشكرون » (٢) .

إن فى هذه النعم لرابطا يصل بعضها ببعض ، ويسمح للواو أن تجمع بينها ، فهؤلاء قوم كانوا قليلين مستضعفين ، يخشون أن يغير عليهم مغير ، يسلبهم الحرية ، فلا جرم ان كانت نعمة الأمن لها المكان الأول بين نعم الله عليهم ، ولم يقف الأمر عند حد الأمن ، بل زاد عليه أن أيدهم بنصره ، ولم تنته نعمه عند حد الطمأنينة والغلب ، بل رزقهم خفض العيش ، وطيبات الحياة (٣) .

وقوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد » (٤) فالجاذلة فى الله واتباع الشيطان ينشئان من عدم الاحتكام الى العقل .

وقوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (٥) . فالوصل بالواو أبرز قوة المشاكلة بين مكر الله ومكر الكافرين . . وقوله : « إن المنافقين يخادعون الله ، وهو خادعهم » (٦) . فخادعتهم المتجددة يقابلها عذاب مستمر ، وسمى مخادعة فى الآية ليشاكل مخادعتهم ونفاقهم ، أى أنهم يعاقبون على قدر أعمالهم ، ومن جنس ما يفعلون « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا » (٧) فقوله « يراءون الناس » مما قبل الواو مرآة ودجل ومخالفة ظاهرهم ما فى ضمائرهم ، وما بعد الواو كشف لحقيقتهم ، وأنهم لا يذكرون الله الا قليلا ، مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . فالواو اذن أبرزت روعة التقابل بين المتضادين ، وروعة التجانس بين الفعل والجزاء ، وكذلك القرآن فى نظمه ونسقه .

وتتجلى دقة القرآن فى وصل الجمل بغير الواو كالفاء ، وثم ، وأو ، فى مثل قوله تعالى « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كَصَّبِ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظَلَمَاتٍ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ

- | | |
|-----------------------------|---------------------|
| ١ (التوبة : ٤٥ - ٥٠ . | ٥ (آل عمران : ٥٤ . |
| ٢ (الانفال : ٢٦ . | ٦ (النساء : ١٤٢ . |
| ٣ (من بلاغة القرآن : ١٧٥ . | ٧ (النساء : ١٤٢ . |
| ٤ (الحج : ٣ . | |

الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين .. « (١) .
وتفصل الجملتان اذا كان بينهما امتزاج معنوي ، كأن ترفع الجملة الثانية
ما قد يتوهم في الجملة الاولى من تجوز أو سهو ونسيان ، كما تجد ذلك في
قوله تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » (٢) فتعريف جزأى الجملة
الاولى ، والمجئء باسم الاشارة للبعيد ، مؤذن بوصف هذا الكتاب بأنه قد بلغ
أسمى درجات الكمال ، ولما كان ذلك قد يوهم أنه ثمة مبالغة في هذا الوصف ،
نفى هذا الوهم واتبع ذلك بقوله : « لا ريب فيه » أى في بلوغه تلك الغاية من
الكمال ، تأكيدا لما فهم من الجملة الاولى ، واتبعه كذلك بقوله « هدى للمتقين »
تأكيدا ثانيا ، لأن معنى بلوغ القرآن للكمال انما هو كماله في الهداية والارشاد ،
ومن هذا الباب قوله تعالى : « واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا ، كان
لم يسمعها ، كان في اذنيه وقرا » (٣) لم يقل : « وكان في اذنيه وقرا » لأن
المقصود من التشبيه بمن لم يسمع ، ولكن الثانى ابلغ وأكد فيما سبق له ، فالمراد
من التشبيهين جميعا بيان أنه ليس لتلاوة الآيات عليه من فائدة ، وأن يجعل حالة
اذا تليت عليه كحالها اذا لم تتل ، ولا ريب في أن تشبيهه بمن في اذنيه وقرا ،
أبلغ في دلالته على هذا المعنى .

وعلى هذا النسق مما كانت الجملة الثانية فيه مؤكدة للجملة الاولى قوله
تعالى : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم : لا يؤمنون ، ختم
الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى ابصارهم . غشاوة ، ولهم عذاب
عظيم » (٤) . فقوله (لا يؤمنون) تأكيد لقوله : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم
تنذرتهم » وقوله « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » . تأكيد ثان أبلغ من
الأول . وقوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم
بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا .. » (٥) . فليست المخادعة شيئا سوى
قولهم : آمنا ، من غير أن يكونوا مؤمنين . فهو ، اذن كلام أكد به كلام آخر هو
في معناه ، وليس شيئا سواه (٦) .

وكذلك قوله سبحانه « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا . واذا خلوا الى
شياطينهم قالوا : انا معكم ، انما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم
في طغيانهم يعمهون » (٧) .

فقوله : « الله يستهزئ بهم ويمدهم .. » يقتضى أن يعطف على ما في
قبله من قوله تعالى « انما نحن مستهزئون » لأنه ليس بأجنبى عنه بل هو نظير
ما جاء معطوفا من قوله : يخادعون الله وهو خادعهم . وقوله « ومكروا ومكر
الله » وما أشبه ذلك مما يرد العجز على الصدر ولكنه جاء غير معطوف لأمر
أوجب ذلك ، وهو أن قوله « انما نحن مستهزئون » حكاية عنهم قالوا وليس
بخبر من الله تعالى ، وقوله « الله يستهزئ بهم » خبر من الله تعالى أنه
يجازيهم على كفرهم واستهزائهم ، واذا كان كذلك امتنع العطف ، لاستحالة أن
يكون الذى هو خبر من الله تعالى معطوفا على ما هو حكاية عنهم ، وليس

٥ البقرة : ٨ .

١ (البقرة : ١٨ ، ١٩ .

٦ (دلائل الاعجاز : ١٧٥ . ومن بلاغة

٢ (البقرة : ٢ .

القرآن : ١٧٧ .

٣ (لقمان : ٧ .

٧ (البقرة : ١٤ ، ١٥ .

٤ (البقرة : ٦ ، ٧ .

كذلك الحال فى قوله « يخادعون الله وهو خادعهم » وقوله « ومكروا ومكر الله » لأن الاول من الكلامين فيهما كالثانى فى أنه خبر من الله تعالى ، وليس حكاية عنهم ، وهذه العلة فى قوله « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون ، إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (١) إنما جاء « أنهم هم المفسدون » مستأنفا مفتتحا (بالا) ، لأنه خبر من الله بأنهم كذلك ، والذي قبله من قوله « إنما نحن مصلحون » حكاية عنهم ، فلو عطف للزم عليه مثل الذى قدم ذكره من الدخول فى الحكاية ، ولصار خبرا عن المنافقين ، ووصفا منهم لأنفسهم ، بأنهم مفسدون ، ولصار كأنه قيل : قالوا إنما نحن مصلحون ، وقالوا إنهم هم المفسدون ، وذلك مما لا يشك فى أنه واضح الفساد .

وكذلك قوله عز وجل « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ إلا إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون » (٢) ولو عطف « إنهم هم السفهاء » على ما قبله ، فانه يكون قد أدخل فى الحكاية ، وصار حديثا عن أنفسهم بأنهم هم السفهاء من بعد أن يزعموا أنهم إنما تركوا أن يؤمنوا لئلا يكونوا من السفهاء ، على أن هنا نكتة أخرى ، وهى أن قوله « أنؤمن » استفهام ، ولا يعطف الخبر على الاستفهام » (٣) .

تاسعا : التنكير والتعريف :

من أسرار القرآن الدقيقة حسن استعمال النكرة والمعرفة ، ولذا ذكر بعض الآيات التى ورد فيها الاسم نكرة ، لتبين مدى الجمال فى وروده . قال تعالى « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » (٤) ، أولا ترى أن المراد هنا بيان حرص هؤلاء الناس على مطلق الحياة ، وأنها غالية عندهم كل الغلو ، لا يعينهم أن تكون تلك الحياة رفيعة أو وضيفة ، ولهذا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، ومن هنا جاء التنديد بهم ، لأن الانسان المثالى ، لا يريد الحياة ، الا اذا كانت رفيعة سالحة .

وقال تعالى « قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين ؟ فان كذبوك فقد كذب رسلى من قبلك ، جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » (٥) . فالرسل منكورة لا تدل على أكثر من معنى المرسلين ، والمكثرة انما استفيدت من هذه الصيغة من جموع التفسير ، الدالة على هذه الكثرة ، أما التعظيم فلا يستفاد من التنكير ، وانما يستفاد من وصف هؤلاء الرسل ، بأنهم جاءوا بالبينات ، فالقام هو الذى عظم هؤلاء الرسل ، وقد تأتى الكلمة نفسها فى مقام آخر ، ويكون ما يحيط بها دالا على حقارتها وضعفتها ، مما يدل على أن التنكير فى ذاته لا يؤذن بتعظيم ولا تحقير . وقال تعالى : « فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله » (٦) . فكلية

- | | |
|---------------------------|----------------------------|
| ١ (البقرة : ١٢ . | ٤ (البقرة : ٩٦ . |
| ٢ (البقرة : ١٣ . | ٥ (آل عمران : ١٨٣ - ١٨٤ . |
| ٣ (دلائل الاعجاز : ١٨٠ . | ٦ (البقرة : ٢٧٩ . |

حرب منكرة لا تدل على أكثر من حقيقتها ، وإذا كان ثمة تعظيم لهذه الحرب
فمنشؤه وصفها بأنها من الله ورسوله ، وأن حربا يثيرها الله جديرة أن تبعث
فى النفس أشد ألوان الفزع والرعب .

ولنتأمل فى سر اختيار كلمة (قوة) فى قوله تعالى « وأعدوا لهم
ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من
دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم
وانتم لا تظلمون » (١) .

فاتسعت هذه الكلمة (قوة) لكل ما عرف من أسباب القوة المادية والمعنوية
فى كل زمان ومكان .

وقال تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها
الأنهار ، خالدين فيها ، ومسكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ،
ذلك هو الفوز العظيم » (٢) .

فلا تحمل كلمة رضوان فى الآية معنى أكثر من العطف ، أما أن يدل التنكير
هنا على التقليل فمما لا تفيدته النكرة وحدها ، وإن كان معنى الآية يحتمل ، أن
قليل رضوان الله أكبر من الجنات والمسكن الطيبة ، لأن النكرة تطلق على القليل
والكثير ، فما يطلق عليه رضوان قل أو أكثر أكبر من مما أئيبوا به .

ولأن النكرة لا تدل على شىء معين ، كان استخدامها فى بعض المقام مثيرا
للشوق والرغبة فى المعرفة ، كما فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ، هل
ادللكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى
سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (٣) .

وتستخدم ألوان المعارف فى القرآن الكريم فى مواضعها الدقيقة الجديرة
بها : فيستخدم ضمير الذى يجمع بين الاختصار الشديد ، والارتباط المتين ،
بين جمل الآية بعضها وبعض ، ومن روائع استخدام ضمير المخاطب ، أن يأتى
به مخاطبا كل من يستطيع الخطاب معه ، عندما يكون الأمر من الواضوح بمكان
ومن ذلك قوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ،
ربنا ، ابصرنا ، وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا إنا مؤمنون » (٤) ؛ وقوله تعالى
« ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ، وأخذوا من مكان قريب » (٥) . فكان سوء حالهم
من الواضوح لدرجة ظهوره لكل أحد .

وعادة القرآن فى ضمائر الغيبة أنها تتفق إذا كان مرجعها واحدا ، حتى
لا يتشتت الذهن ولا يفيض المعنى ، ولذا كانت الضمائر كلها تعود الى الله تعالى
فى قوله « لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتمزروه وتوقروه ، وتسبحوه بكرة
وأصيلا » (٦) .

ولكن الكثير فى الاستعمال القرآنى أن يخالف بين الضمائر إذا تعدد مرجعها
لسهولة التمييز كما فى قوله تعالى « إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا
فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم
فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن

٤ (السجدة : ١٢ .

٥ (سبأ : ٥١ .

٦ (الفتح : ٩ .

١ (الانفال : ٦٠ .

٢ (التوبة : ٧٢ .

٣ (الصف : ١٠ ، ١١ .

الله مع المتقين » (١) .

فضمير منها وهو لائتى عشر شهرا ، اتى به مفردا ، وضمير منهن وهو للاربعة ، اتى به جيبعا ، وكلا الامرين جائز فى كليهما ، ولكن سنة القرآن اذا اعاد الضمير على جمع ما لا يعقل ، اعادته مفردا اذا كان لاكثر من عشرة ، وجمعا اذا كان لاقل منها (٢) .

واذا كان مرجع الضمير مفرد اللفظ جمع المعنى ، راعى الاسلوب القرآنى اللفظ اولا ، والمعنى ثانيا عند تعدد الضمير ، وذلك اجمل فى السياق من العكس ، وتأمل ذلك فى قوله سبحانه : « ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » (٣) . وقوله سبحانه « ومنهم من يستمع اليك ، وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه ، وفى آذانهم وقرا » (٤) . فان فى هذا الاسلوب حديثا عن كل فرد من افراد هذا المجموع اولا ، ثم حديثا عنه فى جماعة ثانيا ..

وقد يضع القرآن الاسم الظاهر موضع المضر ، مثل قوله تعالى : « ويوم حنين اذ اعجبتكم كثيرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاعت عليكم الارض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم انزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وانزل جنودا لم تروها » (٥) . ففى اظهار المؤمنين بدل ان يقول ثم انزل الله سكينته عليكم ، اظهار لمن ثبت منهم فى مظهر من يستحق اسم المؤمن الحقيقي ..

وقال تعالى « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قالوا : ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : ان هذا الا سحر مبين » (٦) . فاعطى الذين كفروا بدل الاتيان بضمير يعود عليهم ، لما فى ذلك من ابرازهم متعنتين جاحدين ، لا يراعون ما يجب ان يكون للحق : من حسن القبول ، والرضا به ، والاطمئنان اليه ، وفى ذلك تشنيع عليهم ، وتصوير لمدى ضلالتهم ومكابرتهم (٧) .

عاشرا : التخصيص او (القصر) :

التخصيص نمط آخر من انماط التعبير القرآنى المعجز ، يوحى بالوان من الفنية الخالصة ، ويضع الباحثين فى البلاغة امام جديد من الصياغة عن طريق هذا الاسلوب .

والقرآن يستخدم هذا اللون من القصر ، عندما يراد اثبات الحكم المذكور ونفيه عما عداه ، فقد يقصر صفة على موصوف قصر حقيقيا ، بحيث لا يتصف بهذه الصفة الا ذلك الموصوف وحده ، كقوله تعالى (فاعلم انه لا اله الا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثواكم) (٨) . فالله

٥ (التوبة : ٢٥ ، ٢٦ .

٦ (سبأ : ٤٣ .

٧ (من بلاغة القرآن : ١٢٨ - ١٢٤ .

٨ (محمد : ١٩ .

١ (التوبة : ٢٦ .

٢ (تاريخ الادب العربى للاستاذ السباعى

بيوى : ٩٢ .

٣ (البقرة : ٨ .

٤ (الانعام : ٢٥ .

وحده هو الذى يتصف بالالوهية لا غيره ، وفيها قطع الطريق على الكفار المعاندين الذين يعتقدون الشرك وفتح الطريق أمام المؤمنين ، ليثبت ايمانهم وتقوى عزائمهم فى محاربة الكفر والكافرين لأن الله هو مصدر النصر ، وملاذ الحماية والالتماء ، حينئذ يلتجئ اليه المجاهدون حتى يكتب لهم النصر ، ويحميهم من أعدائهم .
وقد يقصر موصوفا على صفة ، ولم يرد فى القرآن هذا القصر حقيقيا .
ومما ورد فيه اضافيا ، قوله تعالى (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين) (١) .

فليس المراد هنا قصر محمد عليه الصلاة والسلام على الرسالة فحسب ، بحيث لا يتعداها الى غيرها ، بل المراد ان محمدا مقصور على الرسالة ، السى الخلوص من الموت الذى استعظم الصحابة ان يلم به .
ومن تجسيم الصفات بالقصر (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) (٢) .

فالآية تصور الحياة الدنيا أبرع تصوير وأدقه ، فهى مقصورة على اللهو واللعب ، ومن ثم لا خير فيها ولا غناء ، لأنها فانية ، وخير منها الدار الآخرة ، لأن نعيمها مقيم ، وتمعها خالدة لا تفتنى .

وذهب عبد القاهر الجرجاني (٣) إلى أن الأصل فى استخدام القرآن أسلوب القصر (بانما) انما يأتى فى الأمور التى يدعى أنها من الوضوح بمكان ، فالخير بعد (انما) لا يجله المخاطب ، ولا يكون ذكره مجرد فائده ، وهى أقوى ما تكون ، وأعلق ما ترى القلب ، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه ، فليس الغرض من قوله تعالى (انما يتذكر أولو الألباب) ، أن يعلم السامعون ظاهر معناه ولكن أن يذم الكفار وأن يقل : أنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم فى حكم من ليس بذى عقل وانكم ان طمعتم منهم فى أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب) .

ومن معانى (انما) أنها قد تدخل فى الشيء على أن يخيل فيه المتكلم أنه معلوم ويدعى أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن المنافقين (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا ، انما نحن مصلحون) (٤) .

دخلت (انما) لتدل على أنهم حين ادعوا لأنفسهم أنهم مصلحون ، اظهروا أنهم يدعون من ذلك أمرا ظاهرا معلوما . ولذلك أكد الأمرين فى تكذيبهم والرد عليهم للجمع بين (الا) التى هى للتنبية ، وبين (ان) التى هى للتأكيد ، فقيل (الا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) فكانه قصر الفساد عليهم .

وقال الزمخشري (٥) : (وانما) لقصر الحكم على شيء كقولك انما ينطلق زيد ، أو لقصر الشيء على حكم كقولك انما زيد كاتب . ومعنى (انما نحن مصلحون) أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد و (الا) مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفى لاعطاء معنى التنبية على تحقيق ما بعدها ، والاستفهام إذا دخل على النفى أماد تحقيقا —

- ١ (آل عمران : ١٤٤) .
٢ (الأسماء : ٣٢) .
٣ (دلائل الإعجاز : ٢٦٠) .
٤ (البقرة : ١١) .
٥ (الكشاف : ١٨٠/١) .

ولكونها من هذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها الا مصدره بنحو ما يتلقى به القسم وأختها التي هي اما من مقدمات اليمين وطلاتها . رد الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين ابلغ رد وادله على سخط عظيم والمبالغة فيه من جهة الاستئناف ، وما في كلتا الكلمتين (الا وان) من التأكيدين وتعريف الخبر وتوسيط الفصل) .

وقد حكمت الآيات الجهادية عنهم في موضع آخر (وإذا لقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون) فهم يدعون لشياطينهم ان استهزاءهم بالمؤمنين من الأمور التي لا مجال للشك فيها ولا تحتاج إلى دليل . ومما يستخدم فيه (انما) وشأنه الوضوح بمكان قوله تعالى (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين أتوا لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا لا يجدوا ما ينفقون . إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) (١) .

فمؤاخذة هؤلاء المتعاسين عن تلبية داعي الجهاد بالمال والنفس من الوضوح يمكن فالمقصود اذن التشنيع عليهم والتعريض بهم وتصويرهم بأقبح الصور التي لا تليق بالرجال ، فقد تنازلوا عن رجولتهم بمحض ارادتهم ، لأنهم استأذنوا في التخلف عن الجهاد ، ورضوا ان يقعدوا مع النساء والصبيان والعجزة . فليس الاستئذان من عادة المؤمنين وأخلاقهم لقوله تعالى (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) (٢) . ونقرأ قوله تعالى في اخلاق المؤمنين (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون) (٣) . فواضح ان المؤمنين ليسوا الا هؤلاء الذين تخفق قلوبهم لذكر الله ، ويزدادون ايمانا مع ايمانهم اذا تليت عليهم آيات الله ، ويعتمدون اعتمادا كلياً على الله وحده . والقصر (بانما) هو الذي أوحى بخبرات نفوسهم الصافية ، ودل على مدى تمكن الايمان ورسوخه في قلوبهم كل ذلك أفادته (انما) من أخصر طريق ، وبأدق تركيب .

ويغلب على (انما) في القرآن ان تكون بمثابة الجواب عن سؤال يقتضيه السياق قبلها صريحا أو ضمنا (٤) ويكثر في الصريح سبقها بمادة القول ، كما في قوله سبحانه : (يسألونك عن الساعة : ايان مرساها ، قل : انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والأرض ، لا تأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل : انما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٥) .

ومن السؤال الضمني قوله تعالى : (ومنهم من يلمزك في الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا ، وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون . . الى قوله (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين

٤ (تاريخ الأئمة العربي السبعي بيومي :

١٠٥ .

٥ (الأعراف : ١٨٧ .

١ (النبوة : ٩١ - ٩٢ .

٢ (النبوة : ٤٤ - ٤٥ .

٣ (الأنفال : ٢ .

وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم (١) .

حادى عشر : الخطاب فى الآيات الجهادية :

للخطاب فى الآيات الجهادية وجوه كثيرة ومتنوعة ، يراد بها جمال التعبير والتصوير . فمن ذلك خطاب الخاص والمراد به المخصوص ، فى مثل قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) (٢) .

ومنه خطاب الخاص والمراد به العموم ، كقوله تعالى (واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ..) (٣) .

ومنه قوله تعالى (ولو ترى اذ فرغوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) (٤) أخرج فى صورة الخطاب لما أريد به العموم ، للقصد الى تقطيع حالهم ، وأنهى تناهت فى الظهور ، حتى امتنع خفاؤها ، فلا تخفى بها رؤية راء ، بل كل ما يتأتى منه الرؤية داخل هذا الخطاب . ومنه خطاب العام والمراد بل الخاص ، كقوله تعالى : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (٥) وعمومه يقتضى دخول جميع الناس فى اللفظين جميعا ، والمراد بعضهم ، لأن القائلين غير المقول لهم ، والمراد بالاول نعيم بن مسعود الثقفى ، والثانى أبو سفيان وأصحابه .

قال الفارسى : ومما يقوى أن المراد بالناس واحد فى قوله (انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) (٦) فوهمت الاشارة بقوله (ذلكم) الى واحد بعينه ، ولو كان المعنى جمعا لكان (انما ذلكم الشياطين) لهذه دلالة ظاهرة فى اللفظ وقد يأخذ التخصيص من آية أخرى ، كقوله تعالى (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير) (٧) فهذا عام فى المقاتل كثيرا وقليلًا .

ومنه خطاب الجنس نحو (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) (٨) . وهو فى القرآن كثير ، فان المراد جنس الناس لا كل فرد ، والا فمعلوم أن غير المكلف لم يدخل تحت هذا الخطاب ، وهو يغلب فى خطاب أهل مكة .

وربما يقصد به النوع من حيث هو ، كقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حيق إلا ان يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات

- | | |
|------------------------|----------------------|
| ١ (التوبة : ٥٨ - ٦٠ . | ٥ (آل عمران : ١٧٢ . |
| ٢ (التوبة : ٢٤ - ٣٥ . | ٦ (آل عمران : ١٧٥ . |
| ٣ (النساء : ١٠٢ . | ٧ (الانفال : ١٦ . |
| ٤ (سبأ : ٥١ . | ٨ (البقرة : ٢١ . |

ومساجد يذكر فيها اسم الله (١) .
ومنه خطاب المدح ، نحو (يا أيها الذين آمنوا) خطابا لأهل المدينة ، (الذين آمنوا وهاجروا) ، (ولاخوانهم الذين آووا ونصروا) و (الذين اتبعوهم باحسان إلى يوم الدين) تميزا لهم عن أهل مكة ، فكل آية فيها (يا أيها الناس) لأهل مكة تقريبا . وحكمة ذلك أنه يأتي بعد (يا أيها الناس) الأمر بأصل الإيمان ، ويأتي بعد (يا أيها الذين آمنوا) الأمر بتفاصيل الشريعة .

ومن هذا النوع الخطاب (يا أيها النبي) و (يا أيها الرسول) وبهذا نجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول وكذا عكسه كقوله في مقام الأمر بالتشريع العام (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) وفي مقام الخاص (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) ومنه خطاب الذم نحو (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم) (٢) .

وكرر الخطاب بـ (يا أيها الذين آمنوا) على المواجهة ، وفي جانب الكفار على الغيبة ، أعرضا عنهم ، كقوله تعالى (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) (٣) ثم قال : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) (٤) فواجهه بالخطاب المؤمنين وأعرض بالخطاب عن الكافرين ومنه خطاب التهكم والسخرية ، والاستهزاء بالمخاطب كقوله تعالى (قد يعلمُ الله المُعَوِّثِينَ مِنكُمْ والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يأتون البأس إلا قليلا) (٥) .

ومن السخرية بالمنافقين قوله تعالى (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (٥) والتهكم بالمشركين (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) (٦) وتهكم بالبخلاء الذين يمسكون عن الإنفاق في سبيل الله (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) (٧) وقال في اليهود (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالعدل من الناس فبشرهم بعذاب أليم) (٨) .

ومنه خطاب الجمع بلفظ الواحد ، كقوله تعالى (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أتى يؤفكون) (٩) ولم يقل الأعداء .

ومنه خطاب عين والمراد غيره ، كقوله تعالى (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) (١٠) . فالخطاب للنبي والمراد المؤمنون ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان تقيا وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين . . وقوله تعالى (عفا الله عنك لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) (١١) ، ومعناه وسع الله عنك ، على وجه الدعاء و (ولم أذنبت لهم) تغليب على المنافقين ، وهو في الحقيقة عتاب راجع إليهم ، وإن كان الظاهر للنبي (١٢) .

٨ (آل عمران : ٢١)
٩ (المنافقون : ٤)
١٠ (الاحزاب : ١)
١١ (التوبة : ٤٣)
١٢ (البرهان في علوم القرآن : ٢٤٢/٢ للزركشى .

١ (الحج : ٤٠)
٢ (التحريم : ٧)
٣ (الانفال : ٢٨ ، ٣٩)
٤ (الاحزاب : ١٨)
٥ (النساء : ١٣٨)
٦ (التوبة : ٣)
٧ (التوبة : ٣٤)

ومن خطاب التهيج الذي كثيرا ما يتكرر فى الآيات الجهادية (إن كنتم مؤمنين) .

ومن امثلة ذلك (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) (١) وقوله : (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) (٢) . وقوله (وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) (٣) . وقوله تعالى (الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة اتخذونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين (٤) وقوله (ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) (٥) .

ومن خطاب الاغصاب قوله تعالى (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) (٦) . وقوله تعالى (ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونوا سواء) (٧) .

ومن خطاب التشجيع والتحريض والحث على الاتصاف بالصفات الجميلة ، قوله تعالى (ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) (٨) وكفى بحث الله تعالى تشجيعا للمسلمين على منازلة الأقران ، ومباشرة الطعان كقوله : (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسمومين) (٩) .

ومنه قوله تعالى (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله) (١٠) وكيف لا يكون للقوم صبر والملك الحق جل جلاله قد وعدهم بالمدد الكريم فقال تعالى (وما النصر الا من عند الله) .

وقد جاء فى مقابلة هذا القسم ما يراد منه الأخذ بالحزم وبال حرب والاستظهار عليها بالعدة ، كقوله تعالى (وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين) (١١) . وقوله تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) (١٢) .

ومنه خطاب التمجيز كقوله (الذين قالوا لآخوانهم وقعدوا لو اطاعونا ما قتلوا ، قل فادعوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) (١٣) .

ومنه خطاب التحسير والتلف ، كقوله تعالى (ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) (١٤) .

ومنه خطاب التكذيب (قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) (١٥) .

- | | |
|--|-----------------------|
| ١ (آل عمران : ١٣٩ . | ٨ (الصف : ٤ . |
| ٢ (آل عمران : ١٧٥ . | ٩ (آل عمران : ١٢٥ . |
| ٣ (الأنفال : ١ . | ١٠ (الأنفال : ١٦ . |
| ٤ (التوبة : ١٣ . | ١١ (البقرة : ١٩٥ . |
| ٥ (الأنفال : ٨ . | ١٢ (الأنفال : ٦٠ . |
| ٦ (المتحنة : ٩ . | ١٣ (آل عمران : ١٦٨ . |
| ٧ (النساء : ٨٩ ، المتحنة ٢١ والبقرة : | ١٤ (آل عمران : ١١٩ . |
| ١٠٩ والنساء : ١٠٢ وآل عمران : | ١٥ (آل عمران : ٩٣ . |
| ٦٩ ، ١١٨ . | |

ثاني عشر : الموسيقى التصويرية :

ان ابرز ظاهرة فى الصورة التى جاء عليها نظم القرآن هو التزام الفاصلة فى جميع آياته التزاما مطردا لا يتخلف أبدا كالتافية فى الشعر ، وفى هذا يقول عز وجل فى وصف القرآن (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) .
وذهب أبو الحسن الرمانى الى أن القرآن فى الطبقة العليا من التلاؤم والسبب فى ذلك تعديل الحروف فى التأليف ، فكما كان أعدل كان أشد تلاؤما (١) .

وهذه نظرة موسيقية صوتية من أبى الحسن ، تعتمد على التناسق اللفظى الذى يؤدى الى حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ ، وتقبل النفس لمعناه لما يريد عليه من حسن الصورة وطريق الدلالة .
وقد عبر ابن قتيبة عن الجمال الصوتى لبيان القرآن فقال (وجعله مثلوا لا تمله الأذان غير نشاز متفتر منه ، وتتأذى به ، متسق مع ما ينبعث فى النفوس من هزات داخلية ، فيتم التوافق بين النغم الخارجى والداخلى) (٢) .
ويذكر صاحب (تحرير التحبير) : ان فواصل الكتاب العزيز قد جاء فيها كل عجيبة باهرة ، وكل فواصل الكتاب العزيز ما بين تمكين وتوشيح ، وابسـدال وتصوير (٣) .

وقال الرافعى (٤) : وهناك ظاهرة تستحق الذكر ، لأنها تستلقت الذهن باستمرار وهى تجانس فى كل الآيات وتنوع الحركات والسكنات بطريقة يستريح معها نفس القارئ ، بحيث لا يشعر أنه فى حاجة الى الوقف فى غير أماكن الوقف مما يؤكد تكامل الظاهرة الموسيقية فى القرآن وهى إحدى دعائم الإعجاز فيه وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال بطبيعته هو سبب تنوع الصوت ، مما يخرجـه مدا أو غنة أو ليـنا أو شدة ، وبما يهـىء له الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فى النفس من أصولها ، ثم هو يجعل الصوت الى الإيجاز والاجتماع ، أو الاطناب والبسط ، بمقدار ما يكسبه من الارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها ، مما هو بلاغة الصوت فى لغة الموسيقى فلو اعتبرنا ذلك فى تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة ، لرأيناه أبلغ ما تبلغ اليه اللغات كلها فى هز الشعور ، واستثارته ، من أعماق النفس ، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربى أو أعجمى ، حتى أن القاسية قلوبهم من أهل الزبيغ والاحداد ، لتلين قلوبهم ، وتهتز عند سماعه ، لأن فيهم طبيعة انسانية ، ولأن تتابع الاصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التى خلقت فى نفس الانسان) .

فهناك ارتباط لا شك فيه بين بعض الحروف ، ودلالة الكلمة ، علما بأن الكلمات تختلف فى دلالتها باختلاف قوتها ، وبروزها فى الحكاية الصوتية (٥) .
فمن المميزات الواضحة لأسلوب القرآن افتتاح آياته وسوره بما لا عهد

-
- ١ (ثلاث رسائل : ١ .
٢ (مسائل فلسفة الفن المعاصرة : ٥٦ .
٣ (تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر : ٢٢٤ .
٤ (اعجاز القرآن : ٢٢٤/٢٢٥ .
٥ (اشـتات مجتمعات فى اللغة والادب : ٤٨ للمعاد . دار المعارف .

للعرب به ، كالحروف المتقطعة فى أوائل السور ، فانها كالمفتاح الموسيقى للآيات التى بعدها ، فى توجيهه الخطاب ، ومنها انتهاء هذه الآيات ، بفواصل موسيقية ، تنتهى بحرف ساكن قبله حرف لين ، أو بحرف لين قبله حرف صوتى مما يعطى ضربا مستعذبا خاصا من الموسيقى . ومن هذا الضرب من الموسيقى الداخلية الناتجة من الموسيقى الألفاظ ، مفردة ومركبة ، بعضها مع بعض ، ومنها هذه المواضع التى تصلح للوقف ، فى خلال الآيات ، والتى يتفق الوقف فيها مع أداء المعانى الجزئية فى الجمل مما يضطر القارئ الى التمثل فى القراءة وتدبر المعنى وترتيل الآية ومنها توافق الحروف فى أواخر الآيات أو تقاربها ، مما يشبه السجع ، ولكنه لا يقاس به من حيث استعذاب النفوس له ، ومنها هذا التقارب فى مقدار الجمل ، والأنسجام بين الفاظها المفردة وتركيبها حتى لكأنها تجرى على وزن خاص (١) .

وقال الأستاذ الدكتور / إبراهيم أنيس : وليس يعيب القرآن أن نحكم على أن فى الفاظه موسيقى كموسيقا الشعر ، وقوائى كقوائى الشعر أو السجع ، بل تلك ناحية من نواحي الجمال فيه ، وليس يعيب القرآن أن نقول : أن تردد مقاطع بعينها فى قوله : (والذى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون) . وقد جعل موسى يذكر فى الآية قبل هارون ، فى حين أنه ذكر بعده فى قوله تعالى (والذى ما فى يمينك تلقف ما صنعوا . . . قالوا آمنا برب هارون وموسى) .

فمن جمال الأسلوب القرآنى أن وقّع فيه ذلك القدر من آيات موزونة موسيقية تطمئن إليها الأسماع ، وتنفذ الى القلوب (٢) .

ولما كانت السور المكية نزلت فى بدء الدعوة لمناهضة جماعة من المشركين متعصبين لاديانهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانت فى أخلاقهم شدة وجفوة ، وفى نفوسهم نخوة وكبر ، وفى السننهم خصومة ولدد ، اتجهت فى خطابهم الى الوجدانات والمشاعر ، تلح عليها بالزجر والتسفيه ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فى أسلوب شديد الأسر حاد قوى الفواصل والمقاطع ، يختتم بالسجعات الصاخبة المدوية كأنها موج يهدر أو سيل ينحدر من قمم الجبال ، وذلك أنسب شئ بما تضيفته من النذر القارعة ، والزواجر الرادعة .

وليس معنى ذلك أن السور المدنية تخلو من السجع ، ولكن الغالب عليها الاسترسال والهدوء وطول النفس ، لأنها تخاطب عقول قوم آمنوا واطمأنوا الى هدايتها ، فهى مسوقة لتقرير العادات وبيان الأحكام ، ومن القوانين ، وتنظيم المجتمع ، وتهذيب الطباع والأخلاق ، فلم تنفقه بالسجعات وإنما انتهت بفواصل متقاربة حروف الروى (٣) .

والحق أن فى الآيات الجهادية ايقاعا موسيقيا متعدد الانواع ، يتنوع بتنوع الأجواء التى يطلق فيها ، ويتناسب مع الجو العام باطراد لا يستثنى . أن نظام الفواصل والقوائى يتنوع فى السور المختلفة ، وقد يتنوع فى السورة الواحدة . فأما تنوعه فى السور فيختلف بالقياس الى الفواصل بين الطول والتوسط والقصر ،

١ (تاريخ فكرة اعجاز القرآن : ٢٧ ، نعم

٢ (صور البديع : ٦٦/٢ الدكتور على

الجندي .

٣ (موسيقا الشعر : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ط ٢

وهو أشبه باختلاف بحور الشعر فى الديوان الواحد . وقصارى ما يقال فيه : أن الفواصل تقصر غالبا فى السور القصار ، وأنها تتوسط أو تطول فى السور المتوسطة والطوال . وبالقياس الى حرف القافية ، يشتد التماثل والتشابه فى السور القصيرة ويقل غالبا فى السور الطويلة . .

ولما كانت الآيات الجهادية كلها من السور المدنية ، فكان من المنتظر أن تكون فواصلها هادئة لا صخب فيها ولا عنف ، ولكننا ما نكاد نقرأ أول آية من سورة « محمد » مثلا حتى تواجهنا بمعركة عنيفة ، وتستمر هذه المعركة الى ختام هذه السورة التى يظللها جو القتال ، وتتسم بطابعه فى كل فقرة من فقراتها . وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة ، فاستمع الى قوله تعالى فى الآية الأولى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) وتكرر هذه فى معظم آيات هذه السورة (١) .

ويشترك مع هذه القافية العنيفة قواف أخرى مثلها شديدة ، مثل (بالهم ، أمثالهم أهواءهم ، أمعاءهم) . .
وحين تخف القافية فانها تشبه تلويح السيوف فى الهواء (أوزارها ، أمثالها ، أفعالها) .

وهناك شدة فى الصوت كالشدة فى جرس الألفاظ المعبرة عنها ، فالقتال أو القتل يقول عنه (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) والتقتيل والأسر يصوره بشدة (حتى اذا أئخذتهم فشدوا الوثاق) والدعاء على الكافرين يجرى بلفظ قاس : (فتمسأ لهم وأضل أعمالهم) وهلاك الغابرين يرسم فى صورة مدوية ظلا ولفظا (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) وصورة العذاب فى النار تجىء فى هذا المشهد (وسقوا ماء حميما مقطوع أمعاءهم) . وحالة الجبن والفرع عند المنافقين تجىء كذلك فى مشهد عنيف (ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت) . . حتى تحذير المؤمنين من التولى يجرى فى تهديد نهائى حاسم (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .
وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع فى سورة محمد من أولها الى ختامها .

وشببه بهذه الموسيقى التصويرية التى صاحبت سورة محمد ، تلك الموسيقى العنيفة المصورة فى كل من سورة الفتح والأحزاب والنساء .
فسورة الفتح من أولها الى آخرها التزمت بفاصلة واحدة قوية حادة (مبينا ، مستقيما ، حكيما ، عظيما ، اليما ، عليما) .
وتكرر الفاصلة الواحدة فى كثير من آيات هذه السورة مثل (عذابا اليما (٢) . (عزيزا حكيما) (٣) .
ولنتأمل هذه الموسيقى العنيفة الروعة ، بضجتها وفرقتها ، (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا اليما) (٤) .

١ (آية : ٤ ، ٨ ، ٩ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٢٢ ، ٣) (آية / ٤ ، ٧ ، ١٩ .
٢٢ ، ٢٥ ، ... الخ .
٢ (الفتح / ١٦ ، ١٧ ، ٢٥ .
٤ (الفتح / ١٦ .

فالتعبير مقصود بصورته وحركته ، ويحمل فى ايقاعه وجرسه صورة هذا
المشهد وفرقته .

ولنتأمل هذا التناسق الموسيقى الرفيع فى قوله (ويعذب المنافقين والمنافقات
والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله
عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساعات مصيرا) (١) .

وقوله تعالى (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا
وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) (٢) .
فتوالى النون والطاء وتكرارهما ، ترسم جرسها وظلها ، وإيقاعها صورة
حسية عنيفة تتناسب مع جو السورة ، ومع غلظة المنافقين وسوء ظنهم بالله
وخيث سريرتهم ، وخراب قلوبهم (وكنتم قوما بورا) تشبيها لها بالأرض البور
التي لا تنبت عشباً ولا كلاً .

وتأمل هذه الموسيقى التي تنبعث من خلال الانسجام الصوتى فى توالى
الكافات وتكرار الكلمات (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من
بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا) (٣) .
وقوله (اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله
سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها
وكان الله بكل شئ عليماً) (٤) .

وجو سورة الأحزاب من أولها حتى الآية السابعة والعشرين جو رهيب
ينبعث منه لهيب المعركة ، ويسمع منه تعققة السلاح ، فى جمل قصيرة ، وفواصل
حادة قوية تتناسب مع جو هذا المقطع من السورة الخاص بالقتال ، وتصوير
غزوة الأحزاب . .

فمن أول آية نشتم رائحة العنف ، ونراها مصورة مجسمة (يأيها النبى اتق
الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ان الله كان عليهما حكيماً . واتبع ما يوحى اليك
من ربك ان الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله
وكيلاً) (٥) .

فتأمل الفاصلة (حكيماً ، خبيراً ، وكيلاً) وما تحمله من قوة وشدة ، سيما
وأن الخطاب موجه الى سيد البشر جميعاً . وأى مراعاة لقتضى الحال فى غير هذا
التصوير (وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلاً) .

وتأمل قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم
جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . اذ
باعوكم من فوقكم ومن دلت منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر
تظنون بالله الظنوناً . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) (٦) .

فهذه موسيقى تصويرية تنبعث من الانسجام الصوتى بين حروف الكلمات
مقاطعها وتتناسب مع جو المعركة التي زلزل فيها المؤمنون زلزالاً شديداً .
وقد زيدت الألف مراعاة للفاصلة فى قوله (واذ زاغت الأبصار وبلغت
لقلوب الحناجر وتظنون بالله الظنوناً) قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (الظنوناً)

٤ (الفتح : ٢٦ .

٥ (الاحزاب : ١ - ٣ .

٦ (الاحزاب : ٩ - ١١ .

(الفتح : ٦ .

(الفتح : ١٢ .

(الفتح : ٢٤ .

بأثبات ألف بعد النون ، وبعد لام الرسول ، فى قوله (وأطعنا الرسولا) ، ولام السبيل ، من قوله (فاضلونا السبيلا) وصلا ووقفا موافقة للرسم .
 وقرأ أبو عمر بن العلاء وحمزة بحذفها فى الحالين . والباقيون بأثباتها ووقفا وحذفها وصلا ، اجراء للفواصل مجرى القوافى ، فى ثبوت ألف الاطلاق ، لانها كهاء السكت ، وهى تثبت ووقفا ، وتحذف وصلا (١) .

وقال أبو حيان (ان العرب يثبتون هذه الألف فى قوافى أشعارهم وفى تصاريدها . والفواصل فى الكلام كالمضارع) (٢) .

وقال أبو السعود (قرىء الظنون بغير الألف وهو القياس وزيادتها لمراعاة الفواصل) (٣) . وشبيهه هذه الموسيقى التصويرية معظم مشاهد الفزوات والسرايا التى تحدثت عنها الآيات الجهادية . وفى السرية الأولى التى حدث فيها صدام بين المسلمين والمشركين فى الشهر الحرام . قال تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام وأخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم أن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيميت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٤) .

فالموسيقى قوية صاخبة مدممة على المشركين ، ويصور تعاقب (الكافات والكافات وتكرارها هذا العنف والشدة الذى يشبه قصف المدافع ..

ونقرأ قوله تعالى فى تصوير مشاهد غزوة بدر (اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار . يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) (٥) وقوله تعالى فى نفس السورة (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون ، فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) (٦) .

فاننا نسمع من هذه الموسيقى المصورة لمشهد الواقعة أصدق تصوير صيحات المقاتلين وقمعقة السلاح فى ميدان القتال ، ونرى أشلاء تتناثر ، وأطرافا تدق ، ودماء تسفك ، وأرواحا تزهب . كل ذلك صورة تعاقب الحروف وتكرارها داخل الكلمة فى هذه الجبل المعبرة القوية ..

ويطول بنا المقام لو مضينا فى استعراض تلك المشاهد العنيفة ذات الايقاعات الموسيقية القوية التى تتناسب مع جوها العام .

وليس معنى هذا أن كل الآيات الجهادية عنيفة صاخبة ، بل ان من بينها الهادى الرقيق الذى ينساب انسيابا ، وذلك فى الأمور التى يخاطب الله تعالى

- | | |
|-------------------------------------|-------------------------|
| ١ (محاسن لتأويل : ٤٨٣٢/١٣ للناسى . | ٤ (البقرة : ٢١٧ . |
| ٢ (البحر المحيط : ٢١٧/٧ . | ٥ (الانفال : ١٢ - ١٦ . |
| ٣ (تفسير أبى السعود : ٢٠٤/٤ . | ٦ (الانفال : ٥٥ - ٥٧ . |

فيها قلوب المؤمنين الرقيقة الشغافة ، ويرغبهم في الجهاد بأموالهم وأنفسهم .
 هذا ولا يمكن أن ننكر أن من المقاصد في فواصل الآيات الجهادية ، أن تكون
 شاجية النغم ، حلوة الجرس ، عذبة الرنين ، تطرب بلفظها كما تطرب بمعناها ،
 ليتم لها الحسن من جميع جهاته ، ومن هنا كانت تلاوة هذه الآيات بالصوت الندى
 الرخيم تضاعف من تأثير سامعه وتزيد في خشوعه ، لأن الإداء السدقيق الجميل
 يستطيع أن يبرز هذا الانسجام السارى في الفواصل على أكمل صورة كما أريدت
 له ..

ولهذا لم يكن غريبا أن نجد في هذه الفواصل أشياء توفر لها هذه الموسيقية
 المطربة .

الأول : انها أكثر ما تختم بحروف المد واللين والحا والميم والنون ،
 وحكته وجود التمكين من التطريب بذلك . وسيبويه يقول : انهم اذا ترنموا
 يلحقتون الألف والياء والنون ، لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك اذا لم
 يترنموا (١) ..

ويقول الراعى (٢) : وما هذه الفواصل التي تنتهى بها آيات القرآن الا
 صورتان للأبعاد التي تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفتحة مع آياتها فى قرار
 الصوت اتفاتها عجيبا ، يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس
 وراءه فى العجب مذهب ، ونراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم وهما الحرفان
 الطبيعيان فى الموسيقى نفسها . أو بالمد وهو كذلك طبيعى فى القرار ، فان لم
 تنته بواحدة من هذه كان كلماتها ، ومناسبة اللون والمنطق بما هو أشبه به واليق
 بموضعه ، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده الا فى الجمل القصار ، ولا
 يكون الا بحرف قوى يستتبع القلقة أو الصغير ، أو نحوها مما هو ضروب
 أخرى من النظم الموسيقى) ..

والثانى : أن تتقدمها الفاظ تمهد لوقوعها وتسوق اليها وهو ما سماه
 المتقدمون : رد الاعجاز على الصدور ، وسماه المتأخرون التصدير ، وقد قسمه
 ابن المعتز ثلاثة أقسام (٣) :

١ - توافق آخر الفاصلة ، وآخر كلمة فى صور ما قبلها ، ومثل ذلك قوله
 تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا
 مهتدين) (٤) ..

وقوله تعالى (قل الله اسرع مكرًا ، ان رسلنا يكتبون ما تمكرون) (٥)
 وقوله (ومكروا مكرًا ، ومكرنا مكرًا) (٦) وقوله (ومكروا ومكر الله والله خير
 الماكرين) (٧) وقوله تعالى : (وماتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا
 ان الله لا يحب المعتدين) (٨) .. وقوله تعالى (فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا
 أنفسهم يظلمون) (٩) وقوله (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (١٠) .

- | | |
|--|---|
| ١ (من بلاغة القرآن : ٧٥ والبلاغة الفنية | ٦ (النمل / ٥٠ . |
| ٢ (اعجاز القرآن / ٢٢٥ ، ٢٢٦ . | ٧ (آل عمران / ٥٤ . |
| ٣ (البديع / ٩٣ . | ٨ (البقرة / ١٩٠ . |
| ٤ (البقرة / ١٦ . | ٩ (التوبة / ٧٠ والعنكبوت / ٤٠ والروم / ٦ . |
| ٥ (يونس / ٢١ . | ١٠ (النحل / ٢٣ . |

ب - توافق الفاصلة وأول كلمة فى صدر ما قبلها ، نحو قوله تعالى
 (وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) (١) .
 ج - توافق الفاصلة بعض كلمات الصدر فى الوسط نحو قوله تعالى (ولقد
 استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) (٢) .
 وقوله (أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر
 تفضيلا) (٣) .

ولا خفاء فى أن لهذه الآيات صدورا واعجازا ، فوق ما تحمل من معانى
 التقرير والجزم تترقق فيها موسيقية عذبة مطردة يأخذ بعضها بحجز بعض ،
 حتى اذا بلغت مداها بالفواصل ، وقعت على قرار مكين أضفى على سامعه نشوة
 وبشاشة يتطلبها ، ويترقبها ، فلم تخلف ظنه فيها . ومن مزايا معانى الفواصل
 الجهادية شدة ارتباطها بما قبلها من الكلام وقوة تعطف الكلام عليها ، كأنها معا
 جملة مفرعة يسرى فيها روح واحد ونغم واحد ينحدر الى الأسماع انحدارا ،
 وكان ما سبقها لم يكن الا تمهيدا لتتم معناه وحتى لتبلغ من وقوعها موقعها
 وأطمئنانها فى موضعها انها لو حذفت لاختل معنى الكلام ، واضطرب فهمه ،
 واستغلق بيانه ، ولو سكت عنه لاستطاع السامع أن يختبه بها انسياقا مع الطبع
 الملهم والذوق السليم . وهذا فى عرفهم يسمى (التكمين) وأكثر فواصل الآيات
 الجهادية واردة عليه .

ولا تقتصر أسرار الاعجاز فى فواصل الآيات الجهادية على ما ذكرنا ، فذلك
 بحر خضم ليس لنا للوصول الى قراره سبيل ، وانما هى أمثلة نسوقها ، دلائل
 واضحة على أن الفاصلة الجهادية نمط فريد من الموسيقى التصويرية المعجزة التى
 تصور بجمالها وتناسقها الجو العام للآيات الجهادية ..

٢ (الإسراء : ٢١ .

١ (آل عمران : ٨ .

٢ (الانعام : ١٠ .

الفصل الثاني

تصوير المعاني

ليست المعاني في الآيات الجهادية مجردات اعتبارية لا يدركها الا العقل انها هي صورة حية تمر بخيال القارئ ، ويلمسها احساسه ، وتكاد ان تراها عينه ، وليست الالفاظ في الآيات الجهادية تلك الحروف التي لا تدل إلا على المعنى ، بل هي ينبوع للصور والأحاسيس والألوان . . ثم ان التصوير القرآني يندرج في مظاهر متعددة بوسائل مختلفة وكثيرا ما تجد هذه المظاهر كلها مجتمعة في نص واحد ، وقد تجد بعضها متفرقا في نصوص متعددة .

فأول مظهر للتصوير ، هو إخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى الجرد إلى الصورة المحسوسة والتخيلية . والمظهر الثاني : تحويل الصورة من شكل صامت إلى منظر متحرك حي . والمظهر الثالث : تضخيم وتجسيم المنظر حينما يكون الجو المشهد يقتضيان ذلك .

والوسيلة القريبة إلى تحقيق هذه المظاهر ، لا تعدو أن تكون استعارة ، أو تشبيها وتمثيلا ، أو كناية وتعريضا .

وحيثما قلنا : إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب الآيات الجهادية ، والقاعدة الأساسية فيها للبيان ، فإن هذه القاعدة تعتمد اعتمادا كليا على التخيل والتجسيم المعنوي . وقد معنا إلى شيء من ذلك في مفتح الفصل الأول ، حينما قلنا (إنه يعبر بالصورة المحسوسة التخيلية عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، كما يعبر عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، ثم يرتقى بالصورة التي رسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخيل .

وقليل من صور الآيات الجهادية هو الذي يعرض صامتا ساكنا ، لغرض فني يقتضى الصمت والسكون ، أما أغلب الصور ففيها حركة مضمرة أو ظاهرة حركة يرتفع بها نبض الحياة وتعلو بها حرارتها . وهذه الحركة ليست مقصورة على المشاهد والقصص والحوادث ، ولا على مشاهد الغزوات ، ولا صور النصر والهزيمة ، ولا صور الحجاج والجدال ، بل أنها لتلحظ في مواضع أخرى لا يُنتظر أن تلحظ فيها .

ويجب أن ننبه إلى أنها حركة حية مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان ، أو الحياة المضمرة في الوجدان ، هذه الحركة هي التي نسميها (التخيل الحسي)

وهي التي يسير عليها التصوير في الآيات الجهادية لبث الحياة في شتى الصور ،
في اختلاف الشيات والألوان (١) .

أما المظهر الآخر الذي اعتمد عليه تصوير الآيات الجهادية اعتمادا كبيرا فهو
تجسيم المعنويات ، وإبرازها أجساما محسوسة ، وأنه ليصل في هذا إلى
مدى بعيد ، حتى ليغير به في مواضع حساسة جد الحساسية ، يحرص الدين
الإسلامي على تجريدها كل التجريد ، كالذات الإلهية وصفاتها ، ولهذا دلالتة
الحاسمة على أن طريقة التجسيم هي الأسلوب المفضل ، في تصوير الآيات
الجهادية .

أولا : التصوير بالاستعارة :

اقتصر الأقدمون عندما تحدثوا عن الاستعارة في القرآن ، على ذكر
أنواعها من استعارة محسوس لمحسوس بجامع محسوس أو بجامع عقلي ، ومن
استعارة محسوس لمعقول ، ومن استعارة معقول لمعقول أو محسوس ، ومن
استعارة تصريحية أو مكنية ، ومن مرشحة أو مجردة إلى غير ذلك من ألوان
الاستعارة ، وهم يذكرون هذه الألوان ، ويحصون ما ورد في القرآن منها ،
ويقفون عند ذلك فحسب ، وبعضهم يزيد فيجري الاستعارة ، طائفا أنه بذلك
قد أدى ما عليه ، من بيان الجمال الفني في هذا اللون من التصوير ، ولم أر إلا
ما ندر من وقوف بعضهم يتأمل بعض اللوحات الفنية المؤثرة وليس مثل هذه
الدراسة بمجد في تذوق الجمال وإدراك أسرارها ، ومن الخير أن نبين الأسرار التي
دعت إلى إثارة الاستعارة على الكلمة الحقيقية (٢) .

ونحن إذا عرضنا للاستعارة في القرآن فليس من منهجنا هنا أن نذكر
أنواعها ونستقصى أطرافها ، فذلك يخرج بنا عن نطاق ما رسمناه لأنفسنا في هذا
البحث ، فهدفنا من وراء دراسة الاستعارة هو : كيف صور القرآن معانيه
وأفكاره عن طريق الانتقال بالكلمات من حيز إلى حيز ، ومن مجال إلى مجال ،
يكون أقرب والصق إلى خلق مشهد ، أو تجسيم منظر تنبض من خلاله المعاني
والأفكار ، فتصور المنظر للعين ، وتنقل الصوت للأذن .

فمن طرق التصوير بالاستعارة لإخراج المعاني الذهنية في صور حسية :
فلننظر إلى صورة ضياع أعمال الذين كفروا كأن لم تكن قبل شيئا (وقدمننا
إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) (٣) ويدعك تتخيل صورة الهباء المنثور
فتعطيك معنى أوضح للضياع الحاسم المؤكد . هكذا في لحظة قصيرة ، والخيال
يتبع حركة القدوم المجسمة المتخيلة ، وعملية الإثارة للأعمال ، وارتفاع الهباء في
الفضاء ، فإذا كل ما عملوا صار هباء منثورا .
أو يرسم هذه الصورة المطولة بعض الشيء للمعنى نفسه (مثل الذين كفروا

(١) هذا القول من أحد العلماء الحديثين ،
وانظر أحسن الحديث للدكتور محمد
سعيد رمضان البوطي .

(٢) من بلاغة القرآن : ٢١٧ .
(٣) الفرقان : ٢٣ .

بربهم ، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرُونَ على شئ مما كسبوا (١) ، فتزيد الصورة حركة و حياة بحركة الريح فى يوم عاصف تذروه الرماد وتذهب به بددا ، إلى حيث لا يجتمع أبدا .

ويريد أن يثبت معنى الحرمان والاهمال فى الآخرة لهؤلاء الذين أعطاهم الله الكتاب من قبل الإسلام فاهملوه ، وعاهدتهم على الإيمان فعاهدوه ، ثم اخلفوه ، ابتغاء نفع مادى قليل ، شأن من لا عهد له ، ولا احترام لكلمته ، فيرسم لهذا الاهمال المعنوى صورة حسية : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ، ولهم عذاب اليم) (٢) .

فيوضح معنى الاهمال لا بالأفاظ الاهمال ، ولكن برسم الحركات الدالة عليه : فلا كلام ولا نظر ، ولا تركية . وانما عذاب اليم .

ومنه قوله تعالى أيضا فى اهل الكتاب الذين باعوا عقيدتهم ونقضوا عهدهم بثمن بخس . فقال تعالى مصورا صنيعهم فى صورة مجسمة تشنيعا عليهم وتنفيرا منهم . (إن الذين اشترؤا الكفر بالإيمان لن يضرؤا الله شيئا ولهم عذاب اليم) (٣) وقوله فى نفس السورة (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتؤا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشترؤا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) (٤) فالصورة هنا تكاد تكون مرئية ، حيث عبرت عن تلك الصفة التجارية الخاسرة بصورة من يلقى الشئ وراء ظهره احتقارا واستصفاارا لشأنه ..

والتعبير (بالشرء) من الصورة الفنية البديعة لما تلقىه فى روع السامع ، وما تتركه فى نفسه من آثار ، تبقى صورتها شاخصة أمام عينيه . ولهذا تكرر هذا التعبير كثيرا فى الآيات الجهادية ناعيا على الكفار والمشركين مشنعا عليهم سوء أعمالهم وأقوالهم ، ومشجعا للمسلمين ، بما يبعثه فى نفوسهم من أمل الربح والفوز بالجنة ..

فقال تعالى فى اليهود (أولئك الذين اشترؤا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعرون) (٥) وفى نفس السورة قال فيهم أيضا (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) (٦) . وقال تعالى أيضا (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب اليم . أولئك الذين اشترؤا الضلالة بالهدى والمذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار) (٧) .

وقال تعالى فى المنافقين الذين استبدلوا الكفر بالإيمان والضلال بالهدى (أولئك الذين اشترؤا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) (٨) . فقد صور خسارتهم بفوت الفوائد المترتبة على الهدى التى هى الربح واضاعة

- | | |
|----------------------|---------------------------------------|
| ١ (إبراهيم : ١٨ . | ٥ (البقرة : ٨٦ . |
| ٢ (آل عمران : ٧٧ . | ٦ (البقرة : ١٠٢ و ٩٠ والمائدة : ٤٤ . |
| ٣ (آل عمران : ١٧٧ . | ٧ (البقرة : ١٧٤ ، ١٧٥ . |
| ٤ (آل عمران : ١٨٧ . | ٨ (البقرة : ١٦ . |

الهدى الذى هو كراس المال ، بصورة خسارة التاجر الفائت الربح المضيع لراس المال حتى كأنه على سبيل الاستعارة التمثيلية مبالغه فى تخسيرهم ووقوعهم فى أشنع الخسارة الذى يتحاشى منه ولو الابصار .

وقد عبرت الآيات الجهادية عن بيع المؤمنين أموالهم وانفسهم فى سبيل الله بالجنة تعبيرا رائعا بلفظ (الشراء) نفسه ، فقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (١) .

فقد صورت هذه الآية جهاد المؤمنين وبذل أموالهم وانفسهم فيه وإثابة الله تعالى لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء ، وأتى بقوله تعالى (تقاتلون) . الخ بيانا لمكان التسليم وهو المعركة ، ومن الناس من قرر وجه المبالغة بأنه سبحانه عبر عن قبوله من المؤمنين انفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله تعالى وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذى هو انفس المؤمنين وأموالهم والتمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة الجنة (بأن لهم الجنة) مبالغه فى وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم (٢) .

وقال الشريف الرضى (٣) : (وذلك أن الله سبحانه لما أمرهم ببذل نفوسهم وأموالهم فى الجهاد عن دينه ، والمنافحة عن رسوله ، وضمن لهم على ذلك الخلود فى النعيم ، والأمان من الجحيم ، كانت نفوسهم وأموالهم بمنزلة العروض المبيعة) .

وكثر فى الآيات الجهادية اخذ الكلمات الموضوعه للأمور المحسوسة ، يدل بها على معقول معنوى ، يصير كأنه ملموس مرئى ، فضلا عن احياءات الكلمة الى النفس ، كقوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) (٤) .

فكلمة القذف توحى بهذه القوة التى يهبط بها الحق على الباطل ، وكلمة يدمغه توحى بتلك المعركة التى تنشعب بين الحق والباطل ، حتى يصيب رأسه ويحطمه ، فلا يلبث أن يموت وانظر الى روعة التصوير الجسم الشاخص المتدفق بحركة الحياة (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) (٥) . فالرعب قذيفة ، تسقط فى هذه القلوب الشديدة المتحجرة فتزلزلها ولا يبقى فيها ذرة من ثبات . فهذا جحود كان مجسما فى كتل من الصخر أصبح كأنه لم يكن من قبل . ومثله قوله تعالى فى تسليط الرعب على قلوب أعداء المسلمين من اليهود (فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب) (٦) .

ونظيره إلقاء العداوة فى قلوب الجرمين الذين يكيدون للمسلمين (والتينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) (٧) فالتعبير المصور أخرج العداوة والبغضاء من حيز التجريد الى حيز المادة الثقيلة التى تلتقى بينهم ، فتفرق جمعهم ،

٥ (الأحراب : ٢٦) .

٦ (الحشر : ٢) .

٧ (المائدة : ٦٤) .

١ (التوبة : ١١١) .

٢ (روح المعاني : ٢٢/١١) .

٣ (تلخيص البيان : ١١١ للشريف الرضى) .

٤ (الأنبياء : ١٨) .

وتبدد شملهم .

وفى مقابل إلقاء الرعب والعداوة على أعداء الله ينزل سبحانه السكينة على المسلمين وقد تكرر إنزال السكينة على المؤمنين فى كل المارك التى تجردوا فيها لله وللجهاد فى سبيله : وفى سورة الفتح ورد قوله تعالى : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليهما حكيماً) (١) وفى السورة نفسها ، قوله سبحانه (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم واثابهم فتحاً قريباً) (٢) . وفى السورة نفسها أيضاً : (إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليمًا) (٣) .

وفى سورة التوبة ، قال تعالى (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) (٤) . وقال أيضاً فى السورة نفسها (الا تنصروه فقد نصره الله . الى قوله (فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) (٥) .

(فالسكينة) وهى هذا المعنى النفسى يتنزل من فوق فى قلب الرسول عليه الصلاة والسلام وقلوب المؤمنين سلاماً واطمئناناً ، فتثبت أقدامهم ، وتملاً نفوسهم ثقة بنصر الله وتأييده .

ومن ذلك قوله تعالى (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام) (٦) .

قال الألوسى (٧) : ومن الناس من جوز فيها أن يجعل الأمن فعل النعاس على الإسناد المجازى لكونه من ملابسات أصحاب الأمن ، والإسناد فى ذلك مقدر وليس المراد به النسبة التى بين الفعل والمفعول له (أى يغشاكم النعاس لأمنة) ، أى على تشبيهه حال بحال انسان شأنه الأمن والخوف وأنه حصل له من الله تعالى الأمان من الكفار فى مثل ذلك الوقت المخوف ، فلذلك غشاكم وأنامكم فيكون الكلام تمثيلاً وتخبيلاً للمقصود بابرار المفعول فى صورة المحسوس) .

وقال الطبرى (٨) : (يلقى عليكم النعاس أماناً من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم) .

فالآية الكريمة جسمت (النعاس) كأنه شئ له جسم يلقى عليهم أمنة

- | | |
|-------------------|--|
| ١ (الفتح : ٤ . | ٦ (الانفال : ١١ |
| ٢ (الفتح : ١٨ . | ٧ (روح المعانى : ١٧٥/٩ ، وانظر الكشاف |
| ٣ (الفتح : ٢٦ . | ١٩٩/٢ . |
| ٤ (التوبة : ٢٦ . | ٨ (تفسير الطبرى : ٦٩٢/٩ . |
| ٥ (التوبة : ٤٠ . | |

واطمئنانا . وأخرجت أيضا وسوسة الشيطان فى صورة حسية مجسمة (رجس الشيطان) وكذلك الربط على القلوب ، وتثبيت الأقدام ، فكل هذه الأشياء معنوية أخرجها التفسير القرآنى فى صورة عجيبة رائعة تلذ الأسماع والأبصار وتتعش القلوب .

ومن الاستعارات اللطيفة ، التى تصور المعنى تصويرا فلسفيا ، وتجعل ما ليس بهمئى مرئيا وتنقل السامع من حد السماع الى حد العيان ، قوله تعالى : (وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) (١) . وقوله : (ولا تحزن عليهم وأخفض جناحك للمؤمنين) (٢) فاستعير لفظ الجناح لما فيه من المعانى التى لا تحصل من خفض الجناح ، لانه من يميل جانبه الى جهة السفلى أدنى ميل صدق عليه خفض جانبه ، والمراد خفض بلصق الجنب بالأرض ، ولا يحصل ذلك الا بذكر الجناح كالطائر (٣) .

ويصور القرآن المعانى المجردة بصور الحالات النفسية والمعنوية : فلننظر الى هذه الصورة الرائعة . للمسلمين قبل اسلامهم : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) (٤) .

فأى صلة متينة ذلك الدين يربطك بالله ، يغير هذا المعنى فى نفسك ذلك التعبير القوى المصور (واعتصموا بحبل الله جميعا ..) فحبل الله هو دينه المتين ، وكتابه الكريم . فمن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض . والحبال : العهود ، فى كلام العرب ، وإنما سُميت بذلك لان المتعلق بها ينجو مما يخسافه كالمتشبث بالحبل إذا وقع فى غمرة ، أو إرتكس فى هوة ، فالعهود يستأنم بها من المخاوف ، والحبال يستنقذ بها من المتالف ، فذلك وقع التشابه بينهما .

وقال النيسابورى (٥) : (واعتصموا بحبل الله) .. من قولهم اعتصمت بحبله يجوز أن يكون تمثيلا لاستظهاره به ، ووثوقه باستمسك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه ، لان وجه الشبه وصف غير حقيقى ومنفزع من عدة أمور .

ويجوز أن يكون الحبل استعارة للعهد والاعتصام ، لوثوقه بالعهد بناء على أن فى الكلام تشبيهين .

ثم تأمل هذه الصورة التى التقطتها الآية للمسلمين قبل دخولهم فى الاسلام ، يوم كانوا مشرفين بكفرهم على جهنم (وكنتم على شفا حفرة من النار) موثكين على الوقوع تكاد أقدامكم تزل فتهوون وشفا الحفرة : حرفها بالتذكير والتأنيث ومنه قوله اشفى على الشيء إذا اشرف عليه . ومعنى الآية كنتم مشرفين بكفركم على جهنم تشبيها لها بالحفرة التى فيها النار وتمثيلا لحياتهم التى يتوقع بعدها

١ (الشعراء : ٢١٥ .
٢ (الحجر : ٨٨ .
٣ (الاقتان : ٤٤/٢ .
٤ (آل عمران : ١٠٣ .
٥ (غرائب القرآن ٢٥/٤ وانظر تفسير أبى السعود ١٥٨/١ وروح المعانى ٢٧/٤ .

الوقوع فى النار بالتعود على حرفها (١) .

وهذه استعارة رائعة ، إذ شبه تعالى المشرف بسوء عمله — على دخول النار — بالمشرف لزلّة قدمه على الوقوع فى جهنم . والمعنى الثانى فى الشق الأول من الآية : هو أن فيه أمن من الخوف ، كما أن الحبل فيه انقاذ من التلف . وفى الشق الثانى منها : أن سوء العمل زلّل كزلة القدم يؤدى إلى الهلاك ، والموقف كله على هذا النحو فى الآية متكاملة (واعتصموا بحبل الله جميعا . . .) فالآية دعوة إلى الاعتصام ووحدة الأمة ، وترايط القلوب والوحدة النفسية ، حتى تكون النجاة .

ثم دع خيالك يتصور ذلك المخلوق الذى يقف على حافة تلك الهاوية السحيقة ، تكاد قدمه تزل فيهوى فى النار ، ثم تكون المفاجأة فى الانقاذ ، فى حركة سريعة خاطفة ، (فأنقذكم منها) بالفعل الماضى الذى يفيد تحقق السعادة فى غمضة عين . بعد أن غطى الشقاء على العيون ، وغشى الأبصار بغشاء كثيف من الباطل .

فهذه صورة مادية محسوسة ، نفسية ، شعورية ، يمتزج فيها الخوف بالرجاء ، والالم بالأمل ، فتشخص إليها البصائر ، وتطلع الأبصار ، ويقف المسلمون موقف التأمل الطويل ، والتدبير العريض فى عمق ، وحسن تطلع ، واستبصار .

وإنما بصدد هذه الصورة المقلقة المتحركة الموشكة فى الخيال على الزوال ، ولو استطاعت ريشة مصور بالألوان أن تبرز هذه الحركة المتخيلة فى صورة صامتة لكانت براعة تحسب فى عالم التصوير . .

وتأمل جمال (كلمة أفرغ) فى قوله سبحانه (ربنا أفرغ علينا صبرا) (٢) ، وما يثيره فى نفسك من الطمأنينة التى يحس بها من هذا جسمه بما يلقى عليه ، وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية ، ينالها من نال هبة الصبر الجميل . ومن الدقة القرآنية فى استخدام الألفاظ القرآنية أنه استخدم (أفرغ) وهى توحى باللين والرفق عند حديثه عن الصبر ، وهو من رحمته ، فإذا جاء العذاب استخدم كلمة (صب) فقال : (فصب عليهم ربك سوط عذاب) (٣) . وهى مؤذنة بالشدة والقوة معا .

وتأمل كذلك قوة كلمة (زلزلوا) فى قوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ؟ إلا إن نصر الله قريب) (٤) . وقوله تعالى (هنالك أبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا) (٥) .

ولون آخر من ألوان التخيل يتمثل فى تلك الحركات السريعة المتتابعة المتعددة المناظر فى مثل قوله تعالى (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) (٦)

- ١ (المراجع السابقة .
٢ (البقرة : ٢٥٠ ، الاعراف : ١٢٦ .
٣ (الفجر : ١٣ .
٤ (البقرة : ٢١٤ .
٥ (الأحزاب : ١١ .
٦ (الحج : ١٥ .

تلك صورة عجيبة ، لمن يؤس من نصره الله لنبيه ، وضاق صدره ، وبلغ حنقه على هذه الحال مبلغا لا يطيقه ، فليحاول أن يغير من هذه الحال ما استطاع ، ما دام لا يصبر ، ولا ينتظر وعد الله بالنصر . . ليمدد الى السماء بحبل يتعلق به ليصعد عليه ، فاذا لم ينفعه هذا ، فليقطع هذا الحبل الممدود ، ثم لينظر : هل أفلح تدبيره هذا فى إذهاب ما يغيظ !

لينظر ان كان بقى فيه شىء ينظر ، بعد قطع حبله الممدود ، وبعد السقطة التى يترقبها الخيال .

وقريب من هذه الصورة — مع شىء من التحوير والتلطف ، صورة النبى عليه الصلاة والسلام وقد عز عليه إعراض المشركين ، وتمنى لو يستطيع هدايتهم للحق ، وإتيانهم بالمعجزة التى يطلبون : (وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سُلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) (١) .

ومن ذلك قوله تعالى : (قل اندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُرد على أعقابنا) (٢) . وقوله تعالى : (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكس على عقبه ، وقال إني برىء منكم انى أرى ما لا ترون ، انى أخاف الله ، والله شديد العقاب) (٣) وقوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) (٤) .

فى هذه العبارات (نرد على أعقابنا) و (نكس على عقبه) و (انقلبتم على أعقابكم) . تخييل حركة حسية للارتداد فى موضع الارتداد المعنوى ، وتمنح الصورة حياة محسوسة . .

ومن هذا القبيل (يأيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان) (٥) . وقوله : (يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) (٦) . فقوله تعالى : (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فى موضع (ولا تطيعوا الشيطان) ، فان كلمتى : تتبعوا ، وخطوات ، تخيلانه حركة خاصة . وهى حركة الشيطان يخطو والناس وراءه يتبعون خطواته ، وهى صورة حين تجسم هكذا تبدو عجيبة من الادميين وبينهم وبين الشيطان الذى يسرون وراءه من العداوة القديمة المتأصلة ، فهو الذى أخرج أباهم من الجنة ! .

وشبيه بهذا قوله تعالى « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (٧) وقوله : (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) (٨) . فلفظة الزحزحة ذاتها تخيل حركتها المعهودة الموقف على شفا النار مائلا للخيال والأبصار . ويحدث عن حالة نفسية معنوية ، هى حالة الضجر والضيق والحر

- | | |
|----------------------|----------------------|
| ١ (الأتنام / ٣٥ . | ٥ (البقرة / ٢٠٨ . |
| ٢ (الأتنام / ٧١ . | ٦ (النور / ٢١ . |
| ٣ (الأتسال / ٤٨ . | ٧ (آل عمران / ١٨٥ . |
| ٤ (آل عمران / ١٤٤ . | ٨ (البقرة / ٩٦ . |

فيجسمها كحركة جثمانية مثل قوله تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ..) (١) . وقوله تعالى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) (٢) .

فالأرض تضيق عليهم ، ونفوسهم تضيق بهم كما تضيق الأرض ، ويستحيل الضيق المعنوي في هذا التصوير ضيقا حسيا ، أوضح وأوقع ، وتتجسم حالة هؤلاء الذين تخلفوا عن الغزوة مع الرسول ، فأحسوا بهذا الضيق الخائق ، وندموا على تخلفهم ذلك الندم المخرج ، لا يجدون لهم ملجأ ولا مفرأ ، ولا يذوقون راحة الى أن تاب الله عليهم . وتتجسم كذلك هزيمة المسلمين يوم حنين ، وتبرز صورتهم شاخصة للعيان . ويصف حالة عقلية أو معنوية ، وهي حالة عدم الاستفادة مما يسمعه بعضهم من الهدى ، وكأنهم لم يسمعوا به ، أو يتصلوا إتصالا ما . فيجعل كأنها هناك حواجز مادية تفصل بينهم وبينه . مثل قوله تعالى : (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) (٣) . وقوله : (ولئى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) (٤) . وقوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها) (٥) . وقوله تعالى : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) (٦) . وقوله : (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) (٧) وقوله (وقالوا : قلوبنا غلّف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلأ ما يؤمنون) (٨) . وقوله : (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون) (٩) . وكلها تجسم هذه الحواجز المعنوية ، كأنها هى موانع حسية ، لأنها فى هذه الصورة أوقع وأظهر .

وقد أمر الله تعالى رسوله إن هو التقى بجموع الكافرين الذين أصروا على عنادهم ، أن يشتد فى قتالهم حتى تحيق بهم الهزيمة ، ويدخل فى قلوبهم الرعب . فانظر الى هذه الأداة التى استعملها فى التعبير عن هذا المعنى (فإما تتقننهم فى الحرب فشرّد بهم من خلفهم ، لعلمهم يذكرون) (١٠) . فقد أخرج معنى التلاقى الذى يكون بين المسلمين وأعدائهم ، فى صورة من ظل يتريص بشيء حتى ظفر به ووقع عليه . وعبر عن ذلك بقوله « تتقننهم » وبمجموع ما تحمله هذه الكلمة من الدلالة ، ومن الصياغة اللفظية ، ومن تناسق السمكات والحركات والتشديد البارز بينها . ثم أخرج معنى إلحاق الهزيمة ، فى صورة فريدة عجيبة ، هى صورة جند أتوياء أشداء انقضوا فى هجوم صاعق على طلائع أعدائهم أو الصفوف الأولى منهم ، فأخذ الرعب والفرع منهم كل مأخذ ، حتى سرى ذلك منهم الى من خلفهم من بقية الجموع فتبعثروا فى كل جهة قبل أن يصل اليهم السوء . ولا ريب أنك انما تتسمع الى هذا الوصف بخيالك واحساسك ، وتتصوره

- | | |
|---|---------------------|
| ١ (التوبة : ١١٨ . | ٦ (البقرة : ٧ . |
| ٢ (التوبة : ٢٥ . | ٧ (محمد : ١٦ . |
| ٣ (الانعام : ٢٥ والاسراء : ٤٦ والكهف : | ٨ (البقرة : ٨٨ . |
| ٥٧ وفصلت : ٥ ، ٤٤ . | ٩ (ييب : ٨ . |
| ٤ (لقمان : ٧ . | ١٠ (الانفال : ٥٧ . |
| ٥ (محمد : ٢٤ . | |

منظرا حيا ، فى فلاة واسعة ، او على مسرح يعج بالحركة الصاخبة .
ومن الوان التجسيم أيضا وصف المعنوى بمحسوس : كوصف العذاب بأنه
غليظ (ومن كَفَرَ فلا يَحْزُنُكَ كَفْرُهُ الْبِنَا مَرَجِعُهُمْ فَنَنْبِتُهُمْ بِمَا عَمَلُوا ، إن الله عليم
بذات الصدور ، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ) (١) . وقوله :
(فلننبئن الذين كفرُوا بما عملُوا ولنذيقنهم من عَذَابِ غَلِيظٍ) (٢) . واليوم بأنه ثقيل
(إن هؤلاء يُحَيِّثُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وراءهم يوما ثقيلا) (٣) .

فينتقل العذاب من معنى مجرد الى شىء ذى غلظ وسمك ، وينتقل اليوم من
زمن لا يمسك الى شىء ذى كثافة ووزن وثقل .

وتأمل هذا المشهد الجسم الذى ترسمه هذه الآية الكريمة للذين يبخلون عن
الانفاق فى سبيل الله : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو
خييرا لهم بل هو شر لهم سَيَطُوفُونَ ما بخلُوا يوم القيامة ، ولله ميراث السموات
والارض والله بما تعملون خبير) (٤) . وهو مشهد طريف لهؤلاء القوم الذين
آتاهم الله من فضله فى الدنيا سعة فى الرزق ومالا ومتاعا ، فبخلوا بذلك كله ،
وحسبوا أنفسهم ناجين ، ثم جاءوا يوم القيامة ، فاذا الذى بخلوا به شىء مجسم ،
واذا بهم يطوتون به أغلالا فى الأعناق تكتم الأنفاس ، فما بهم بحاجة الى أغلال
جديدة ، فلقد جاءوا بأطواقهم من بيوتهم ، أو مما ملكته أيديهم ! وما بخلوا به فى
دنياهم وهو ولا شك انه عقاب طريف ، وجزاء مخيف .

قال المبرد (٥) : (سيطوقون) ، السين سين الوعيد . ومعنى التطويق هنا
انه يكون ما بخلوا به من المال طوقا من نار فى أعناقهم ، وقيل معناه انه سيحملون
عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة وليس من التطويق . والمعنى أنهم يلزمون
أعمالهم كما يلزم الطوق العنق ، يقال طوق فلان عمله طوق الحماية ، أى ألزم
جزاء عمله) .

ومن روائع التجسيم والتشخيص ، قوله تعالى : (ومنهم من يقولُ أئذنى
لى ولا تفتنى إلا فى الفتنة سقطوا) (٦) . ففى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى
الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل
سافلين .

والمعنى أن المنافقين بهذا التخلف عن الجهاد سقطوا فى الفتنة العظيمة ،
وتحس من التعبير أنهم وقعوا فيها وقوع من يهوى من أعلى الى أسفل ، وذلك
أشد وقعا فى النفس من مجرد الدخول فى الفتنة ، ثم توعدهم على ذلك ، فقال
تعالى : (وإن جهنم لحيطَةٌ بالكافرين) (٦) ، أى مشتتلة عليهم من جميع الجوانب
لا يجدون منها مخلصا ، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال .

ومنه قوله تعالى : (ومن الأعراب من يتخذ ما يُنفق مغرما ويتربص بكم
الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) (٧) فقوله (عليهم دائرة السوء)
كان للسوء دائرة تطبق عليهم فلا تغلتهم ، وتدور عليهم فلا تدعهم ، وذلك من باب

٥ (فتح القدير ١/٢٧٠ .

١ (لقمان /٢٤ .

٦ (التوبة /٤٩ .

٢ (فصلت /٥٠ .

٧ (التوبة /٩٨ .

٣ (الانسان /٢٧ .

٤ (آل عمران /١٨٠ .

تجسيم المعنى وتخيله ، الذى يعمق وقع المعنى ويحييه .
 ومنه قوله تعالى : (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما
 ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول إلا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى
 رحمته ، إن الله غفور رحيم) (١) . فقوله (سيدخلهم فى رحمته) يجسم الرحمة
 كأنها دار يدخلونها فتحويهم ، وذلك فى مقابل تجسيم دائرة السوء على الفريق
 الأول ، الذى يتخذ ما ينفق مغرماً ، ويتربص بالمؤمنين الدوائر . ومن تجسيم
 المعنوى أيضا قوله تعالى : (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد
 عامهم هذا) (٢) . فالتعبير يجسم نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم .
 فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس ، يستقذره الحس ، ويتطهر منه المتطهرون ، وهو
 النجس المعنوى لا الحسى فى الحقيقة ، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها ، إنما هى
 طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم .

وتأمل هذه الصورة المجسمة للذين يتخلفون عن الجهاد (سيحلفون بالله
 لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ، وماوهم جهنم
 جزاء بما كانوا يكسبون) (٣) .

فقوله (رجس) تجسيم حسى للدنس المعنوى ، فهم ليسوا رجسا — أى
 دنسا — بأجسادهم وذواتهم ، إنما هم رجس بأرواحهم وأعمالهم ، ولكنها الصورة
 المجسمة أشد بشاعة وأبين قذارة ، وادعى الى التقزز والاثمئزاز ، والى
 الاحتقار والإزدراء . ثم توعدهم الله كذلك بعذاب جهنم يأوون اليها كما يأوى
 الإلف الى اليفة . فتمضمهم اليها ، وتحرق أجسادهم ، وتحطم ضلوعهم .

ومن أمثلة التجسيم والتخييل كذلك ، قوله تعالى : (وأما الذين فى قلوبهم
 مرض ، فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) (٤) .
 ومنه قوله تعالى : (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه

وأنتم تنظرون) (٥) .
 وفى الآية تجسيم وتخييل للموت ، لأن الموت فى الحقيقة لا يلقى ولا يرى ،
 وإنما أراد الله سبحانه رؤية أسبابه .

وقوله تعالى : (يأيتها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم
 إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا . .) (٦) .
 لأن الضرب هنا عبارة عن الانجاد فى السير ، والإيفال فى الأرض ، تشبيها
 للخابط فى البر بالسابح فى البحر ، لانه يضرب بأطرافه فى غمرة الماء ثقلا لها ،
 واستعانة على قطعها .

وقوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم
 القيامة . .) (٧) . لأن حقيقة الذوق ما أدرك بحاسة ، وإنما حسن وصف النفس
 بذلك لما يحس به من كرب الموت وعذابه فكأنها تحسه بذوقه .
 ومنه قوله تعالى : (وأحضرت الأنفس الشح) (٨) . إذ ليس المراد أن

- ٥ (آل عمران / ١٤٢)
 ٦ (آل عمران / ١٥٦)
 ٧ (آل عمران / ١٨٥)
 ٨ (النساء / ١٢٨)

- ١ (التوبة / ٩٩)
 ٢ (التوبة / ٢٨)
 ٣ (التوبة / ٩٥)
 ٤ (التوبة / ١٢٥)

محضرا أحضر الأنفس شحها ، ولكن الشح لما كان غير مفارق لها ، ولا متباعد عنها ، كان كأنه قد أحضرها ، وحمل على ملازمتها .

وقوله تعالى : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم) (١) . ولأن حقيقة الزيغ الأعوجاج والميل . والمراد من بعد ما كادت قلوبهم تزول من عظم الخيفة ، وتقتنط من نزول الرحمة ، فتكون بذلك بالشيء الزائع بعد الاستقامة ، والمستمال بعد الثبات والرصانة .

وقوله تعالى : (والذين تبوأوا الدار والايمن من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون) (٢) لأن تبوأ الدار هو استيطانها والتمكن فيها ، ولا يصح حمل ذلك على حقيقة الايمان .. فيكون المعنى إنهم استقروا في الايمان كاستقرارهم في الأوطان ، وهذا من صميم البلاغة ، ولباب الفصاحة . وقد زاد اللفظ المستعار هنا معنى الكلام رونقا . ألا ترى كم بين قولنا : استقروا في الايمان ، وبين قولنا : تبوأوا الايمان (٣) .

وقوله تعالى : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباعوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (٤) .

وقوله تعالى : (ضربت عليهم الذلة أينما تُقفوا إلا بحبل من الله ، وحبل من الناس وباعوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (٥) .

فقوله (ضربت عليهم الذلة والمسكنة ..) فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله ، وهو من ضرب الخيام والقباب .. فقد شبه إحاطة الذلة واشتمالها عليهم بذلك فالعنى الزموا الذلة ، وثبتت فيهم ، فلا خلاص لهم منها . أو جعلت الذلة ملصقة بهم كالشيء يضرب على الشيء فيلتصق به . (وباعوا بغضب من الله) أي مكثوا في غضب من الله وحلوا فيه ، وسواء قولك حل بهم الغضب وحلوا بالغضب (٦) .

ومن أمثلة تجسيم المعنويات وتشخيصها أيضا ، قوله تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) (٧) فيجعل كأن هذا العمل المعنوي مادة محسوسة تحضر (على وجه التجسيم أو تحضر هي على وجه التشخيص) . وقريب من هذا تجسيم الذنوب كأنها أحمال تحمل على الظهور زيادة في التجسيم ، (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) (٨) وقوله (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) (٩) .

٤٣/٤ وغرائب القرآن ٤٢/٤ والخازن

١ (التوبة : ١١٧ .

٢ (الحشر : ٩ .

٣ (تلخيص البيان : ٣٣٠ للشريف الرضى .

٤ (البقرة : ٦١ .

٥ (آل عمران : ١١٢ .

٦ (أنوار التنزيل ١٥٢/١ وروح المعاني

ومن تجسيم المعنويات أيضا ، قوله تعالى (وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وترودوا فان خير الزاد التقوى) (١) ، فالتقوى زاد يتزود به كالطعام والشراب .

وقوله تعالى (صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) (٢) .

فدين الله صبغة معلمة . أو قوله : (يأبها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة) (٣) .

فالسلم ما يدخل فيه .

وقوله تعالى (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ويأتوكم ويؤمنوا بكم وما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويؤمنوا بكم ، كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ، فان لم يعتزلوكم ويلتقوا اليكم السلم ، ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهم) (٤) . فالسلم يلتقى إلقاء .

وقوله (وذروا ظاهر الأثم وباطنه) (٥) . وقوله (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) (٦) .

فالآثم والفواحش مما لها ظاهر وباطن . إلى آخر هذا النحو من الاستعارات .

وبهذه الطريقة المفضلة في التعبير عن المعاني المجردة ، سار أسلوب الآيات الجهادية في أخص شأن يوجب التجريد المطلق ، والتنزيه الكامل ، في مثل هذه الآيات (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) (٧) . وقوله (قل ان الفضل بيد الله يؤتية من يشاء ، والله واسع عليم) (٨) ، وقوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان) (٩) . وقوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، ان الله سميع عليم) (١٠) .

وقد ثار ما ثار من الجدل حول هذه الكلمات حينما أصبح الجدل صناعة ، والكلام زينة . وان هي الاجارية على نسق متبع في التعبير ، يرمى إلى توضيح المعاني المجردة على سنن التخيل الحسى ، والتجسيم في التعبير بالتصوير . ولكن اتباع هذه السنن ، في هذا الموضوع بالذات ، قاطع في الدلالة على أن هذه الطريقة في الآيات الجهادية أساسية في التصوير ، كما أن التصوير هو القاعدة الأولى في التعبير .

ونكتفى بهذه الأمثلة على المعاني الذهنية ، والحالات النفسية ، والنماذج الانسانية التي أخرجها التصوير بالاستعارة صورا شاخصة أو متحركة ، وعدل بها عن التعبير المجرد إلى الرسم المصور .

٦ (الانعام : ١٥١)

٧ (الفتح : ١٠)

٨ (آل عمران : ٧٣ ، الحديد : ٢٩)

٩ (المائدة : ٦٤)

١٠ (الانفال : ١٧)

١ (البقرة : ١٩٧)

٢ (البقرة : ١٢٨)

٣ (البقرة : ٢٠٨)

٤ (النساء : ٩٠ ، ٩١)

٥ (الانعام : ١٢٠)

ثانيا : التصوير بالتشبيه والتمثيل :

ان للتشبيه — من حيث أنه فن تصويرى — جمالا وروعة متمثلين فى دقته وحسن تصويره للمعنى (١) ولم يكن التشبيه فى القرآن هدفا يقصد اليه دون أن يستتبع المعنى ويكون جزءا أساسيا تتوقف عليه دلالة الآية ، فهو نمط من أنماط التصوير القرآنى الذى أعجز بلغاء العرب ، وظل شامخا فى مجال القول ومعجزة باهرة تتردد عبر العصور ، فلم يتناولها البلى والتفكك ، فالتشبيه إذن ليس محسنا خارجا عن إطار المضمون ، يجعل به النظم وتحسن به العبارة ، إنما هو جوهر داخل فى المضمون ، ليتضح أثره فى النفس . والاساس النفسى الذى يقوم عليه التشبيه وغيره من الاساليب البيانية من حيث تأليفها وادراكها وتقديرها هو فى الواقع عملية اساسية فى التفكير ، تلك هى ما بين بعض الاشياء وبعض من تشابه وعلاقات (٢) .

ويقول عبد القاهر الجرحانى فى منزلة التشبيه من البلاغة : وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب ، وهو يريك المعانى المختلفة بالاوهام شيها فى الاشخاص المائلة ، ويريك الثمام عين الاضداد فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين (٣) . وأرى واجبا على قبل الحديث عن التصوير بالتشبيه ، أن أتحدث قليلا عن بعض نظرات للاقدمين فى هذا الباب ، لا أوافقهم عليها ، ولا أرى لها قيمة فى التصوير الفنى .

فمما اعتمد عليه القدماء فى عقد التشبيه العقلى ، يجعلونه رابطا بين امرين أو مفرقا بينهما ، وأغفلوا فى كثير من الاحيان وقع الشيء على النفس ، وشعورها به سرورا والمأ ، وليس التشبيه فى واقع الامر سوى ادراك ما بين امرين من صلة فى وقعهما على النفس ، أما تبطن الامور ، وادراك الصلة التى يربطها العقل وحده فليس ذلك من التشبيه الفنى البليغ ، هذا ، ولن نقدر التشبيه بنفاسة عناصره ، بل بقدرته على التصوير والتأثير . فالتشبيه لمح صلة بين امرين من حيث وقعهما النفسى ، وبه يوضح الفنان شعوره نحو شيء ما ، حتى يصبح واضحا وضوحا وجدانيا ، وحتى يحس السامع ، بما أحس المتكلم به ، فهو ليس دلالة مجردة ، ولكنه دلالة فنية ، وذلك أنك تقول : ذاك رجل لا ينتفع بعلمه وليس فيها تقول سوى خبر مجرد عن شعورك نحو قبح هذا الرجل ، فاذا قلت : انه كالحمار يحمل أسفارا ، فقد وصفت لنا شعورك نحوه ودللت على احتقارك له وسخريتك منه (٤) .

وليس الحس وحده هو الذى يجمع بين المشبه والمشب به فى القرآن ، ولكنه الحس والنفس معا ، بل ان للنفس النصيب الاكبر والحظ الاوفى . والقرآن حين يشبه محسوسا بمحسوس يرمى أحيانا الى رسم الصورة

١ (الصور البيانية بين النظرية والتطبيق

٢ (دراسات فى علم النفس الادبى / ٤١

٣ (اسرار البلاغة / ١١١ الطبعة الثالثة .

١١٤ الدكتور : حفى شرف ، والتصوير

٤ (من بلاغة القرآن : ١٨٧ .

البيانى / ٥٤ ، للمؤلف نفسه .

كما نحس بها النفس ويدركها الوجدان لتحدث أثرها في نفوس المخاطبين ، كقوله تعالى (أولئك كالانعام بل هم أضل) (١) فأى تصوير يقرب هذا المعنى العميق الى الذهن ، ويلصقه بالخواطر والاحاسيس ، لان ضلال الانعام من أبرز الصفات وأوضحها لدى النفس ، فانقل المنظر كله بذلك التشبيه أمام الخيلة ، وتجسم في أعماق التفكير ، وكان له أثره العميق في بعد كثير من الناس عن تقليد هؤلاء الذين لا تنبس قلوبهم بذرة من نور الايمان .

ويهدف التشبيه في الايات الجهادية الى ما يهدف اليه كل فن بلاغى فيه ، من التأثير في العاطفة ، فترغب أو ترهب ، ومن أجل هذا كان للمشركين والكافرين والمنافقين نصيب وافر من التشبيه ، الذى يزيد نفسياتهم وضوحا ويرسم لهم نماذج مجسدة وصورا مرئية . ومن لطف التصوير وأبرع التعبير قوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع . .) (٢) .

فهذا التصوير والتجسيم لحال الكافرين وتشبيههم بالانعام لا تستجيب لهاتف راعيها . أى مثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق ، فالشبهه الواعظ ، والمقصود تشبيه حال الواعظ لهم بالناعق في الاغنام التى لا تعقل معنى دعائه ولا تعى ما يقول ، وانما تسمع صوته ولا تفهم ما يرمى اليه ، وقد وقع التشبيه بالانعام التى ينعق بها الراعى ، ويمد صوته لعدة وجوه :

اولها : أن المعنى : ومثل الذين كفروا كمثل الغنم لا تفهم نداء الناعق ، فأضاف المثل الى الناعق ، وفى المعنى للمنعوق به ، وذلك على القلب .

وقال الزمخشري (٣) : ومثل داعى الذين كفروا (كمثل الذى ينعق) أو مثل

الذين كفروا كبهائم الذى ينعق ، والمعنى : ومثل داعيهم الى الايمان فى أنهم لا يسمعون من الدعاء الا جرس النغمة ودوى الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار كمثل الناعق بالبهائم التى لا تسمع الا دعاء الناعق ونداءه الذى هو تصويت بها وزجر لها ولا تفقه شيئا آخر ولا تعى كما يفهم العقلاء ويعون .

ثانيها : ومثل الذين كفروا ومثلنا كمثل الذى ينعق ، أى مثلهم فى الاعراض ومثلنا فى الدعاء والارشاد كمثل الناعق بالغنم ، فحذف المثل الثانى اكتفاء

بالاول .

وثالثها : ان المعنى ومثل الذين كفروا فى دعائهم الاصنام وعبادتهم لها

واستترزاقهم اياها كمثل الراعى الذى ينعق بغنمه ويناديها فهى تسمع نداءه ، ولا تفقه كلامه ، فيشبهه من يدعوه الكفار من المعبودات من دون الله بالغنم ، حيث

انها لا تعقل الخطاب (٤) .

وقال الالوسى (٥) : المراد تمثيلهم فى اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين

تحقيقها بالبهائم التى تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته .

وعلى أية حال فالصورة تثير السخرية والاشمئزاز من حالهم الحقيرة .

الهجرية وأثر القرآن وعلم الكلام فيه

محمود شريف الخياط (رسالة ماجستير

مخطوطة « سنة ١٩٦٥ » مكتبة جامعة

القاهرة .

٥ (روح المعانى : ٢٢/٢ .

١ (الاعراف : ١٧٩ .

٢ (البقرة : ١٧١ .

٣ (الكشاف : ٣٢٨/١ .

٤ (البرهان للزركشى ٤٣٠/٣ وتفسير أبى

السعود ١٤٧/١ والتصوير البياني :

٥٥ ، ٥٦ والتشبيه فى القرون الاربعة

وهو ما قصد اليه التعبير . ويكثر فى الآيات الجهادية ايضاح الامور المعنوية بالصور المرئية الحسية على هذا النحو النفسى ، الذى يكشف عن ملامح الخبيثات ، ويجعل غير المحسوس محسوسا مشاهدا فى المخيلة . كقوله تعالى (وائل عليهم نبأ الذى آتيناها آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخذ الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) (١) .

ففى هذا المثل تصوير حالة عقلية معنوية ، مزجها بحالة حسية مشاهدة ليقنع العقل والحس معا بها دون أن يحصل انكسار يعكر جمال التعبير أو ينتج عن امتزاجها ما يشوه روعة التصوير ، فهذه المادة التصويرية التى لا نجد لها وصفا مناسباً سوى أنها تصوير ربانى محكم أصاب محز القول ، وطبق مفصل البلاغة ، فأدى هذا المثال ما يقتضيه الحال .

ولنتأمل ما تضمنته هذه الآية فى تصوير حال الذى أوتى العلم فرفضه فانسلخ من الآيات التى أوتيتها ، وذلك من وجوه منها مثلا : أنه ضل بعد العلم ، واختار الكفر على الايمان عمدا لا جهلا ، وأنه فارق الايمان مفارقة من لا يعود اليه أبدا ، فانه انسلخ من الآيات بالجملة ، كما تنسلخ الحية من قشرها ، وأن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ولهذا قال (فاتبعه الشيطان) ولم يقل (تبعه) فان معنى اتبعه : أدركه فمسكه وظفر به ، وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى ، ومنها أنه سبحانه أخبر عن خسة همته ، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى ، وأنه رغب عن هدى الله ، واتبع هوى نفسه وجعله إماما يقتدى به ويتبعه فقد شبه (بالكلب) الذى هو أخس الحيوانات وأوضعها قدرا ، وأخسها نفسا ، وأشدّها شرها وحرصا . وهمته لا تتعدى بطنه . ومن حرصه : انه لا يمشی الا وخطمه فى الارض يتشمم ويستروح حرصا وشرها ، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه واذا رميت اليه بحجر رجع اليه ليعضه من فرط نهمته ، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاه بالدنايا والجيف القذرة المروحة أحب اليه من اللحم الطرى ، واذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبا يتناول معه منها شيئا الا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشره ومن عجيب أمره وحرصه انه اذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنيئة وحال رزية نبهه وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعتة فى قوته ، واذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالارض وخضع له ولم يرفع اليه رأسه . وفى تشبيهه من أثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب فى حال لهثه سر بديع وهو أن هذا الذى حاله ما ذكر من انسلاخه من آياته واتباعه هواه انما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها ولهفه عليها نظير لهف الكلب الدائم فى حال ازعاجه وتركه واللهف شقيقتان واخوان فى اللفظ والمعنى .

وقال ابن جريج : الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فهو مثل الذى يترك الهدى ، لا فؤاد له انما فؤاده منقطع .

والمراد بانقطاع مؤاده : انه ليس له مؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث . وهكذا هذا الذى انسلخ من آيات الله لم يبق معه مؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا وترك اللهث عليها فهذا يلهث على الدنيا مع قلة صبره عنها ، وهذا يلهث من قلة صبره على الماء فالكلب من أقل الحيوانات صبورا ، واذا عطش أكل الثرى من العطش ، وان كان فيه صبر على الجوع ، وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثا ، يلهث قائما وقاعدا وماثيا وواقفا ، وذلك لشدة حرصه فحرارة الحرص فى قلبه توجب له دوام اللهث ، فان حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث وان تتركه ولم تعظه فهو يلهث .

قال مجاهد : وذلك مثل الذى أوتى الكتاب ولم يعمل به . وقال ابن عباس : ان تحمل عليه الحكمة لم يحملها . وان تتركه لم يهتد الى خير ، كالكلب ان كان رابضا لهث ، وان طرد لهث .

وقال الحسن : هو المنافق لا يثبت على الحق دعى أو لم يدع ، وعظ أو لم يوعظ كالكلب طرد أو ترك .

وتأمل ما فى هذا المثل من الحكم والمعاني : فمنها قوله (آتيناها آياتنا) فأخبر سبحانه أنه هو الذى آتاه آياته ، فانها نعمة الله هو الذى انعم بها عليه . فأضافها الى نفسه ، ثم قال (فانسلخ منها) أى خرج منها ، كما تنسلخ الحية من جلدها ، وفارقتها فراق الجلد ينسلخ عن اللحم . ولم يقل : فنسلخناه منها لانه هو الذى تسبب الى انسلاخه منها باتباعه هواه ، ومنها قوله (فاتبعه الشيطان) أى لحقه وادركه ، وكان محفوظا محروسا بآيات الله محمى الجانب بها من الشيطان لا ينال منها شيئا الا على غرة وخطفه ، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الاسد بفريسته (فكان من الغاوين) العاملين . بخلاف علمهم ، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه ، كعلماء السوء (١) .

فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه ، وقد اجتمع فى ترك الطاعة على وجه من وجوه التعبير ، وفى التحسيس ، فالكلب لا يطيعك فى ترك اللهث ، حملت عليه أو تركته ، وكذلك الكافر لا يطيع بالايمان على رفق ولا على عنف (٢) .

وفى التشبيه تحقير وازدراء يحقق ما يهدف اليه من الناحية الدينية والفنية على السواء حيث يكون تثبيت المعنى الذى تشتمل عليه بواسطة أقوى وأشد . ومثله قوله (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (٣) .

فالآية تصور وهن ما يعتمد عليه من يتخذ من دون الله أولياء بوهن بيت العنكبوت ، فأهل مكة يتخذون لهم سندا يعتمدون عليه ، سندا واهيا لا أساس له ولا قوة ، يقبهم عذاب الله فى الدنيا والآخرة ، وهم يجهدون أنفسهم من غير طائل ، ويضيعون مستقبلهم بأيديهم . والتشبيه ناطق بذلك كله ، فالعنكبوت يعنت

١ (التفسير القيم لابن القيم / ٢٨٠ ، وأعلام
المؤمنين لابن القيم / ١٨٧ والتشبيه فى
القرون الاربعة الهجرية ، واثر القرآن
وعلم الكلام فيه / ٥٠ .

٢ (النكت فى اعجاز القرآن / ٧٥ للبرهان
طبع دار المعارف .

٣ (العنكبوت / ٤١ .

نفسه فى البناء ، ويبدل جهده فى التنظيم ، ثم يبنى أو هن البيوت وأضعفها ، وبيت العنكبوت خيوط ضعيفة ، لا تدفع عنه حرا ، ولا بردا ، ولا تحفظها من يد تمتد إليها ، ولا ربح تهب عليها ، وولاية الاوثان كذلك .

قال الرماني : فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة الى ما يعلم بالبديهة ، وقد اجتمعا فى ضعف المعتمد ، ووهن المستند ، وفى ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين ، مع الشعور بما فيه من التوهين (١) .

وصورة التشبيه قوم يتخذون أولياء من دون الله ، فيعبدون السوثن ، وعنكبوت تتخذ لنفسها بيتا ، والعلاقة بين الهيئة الاولى ، والهيئة الثانية علاقة نفسية ، فعباد الوثن يتخذون أحقر العبادة ، ولا يصح فى حكم العقل أو فى حكم العاطفة والوجدان أن يكون هؤلاء الذين يسجدون للصنم على حظ ولو قليل من النظافة المعنوية ، والعفة ، والترفع عن الدنيا ، والاحترام لضمير الانسان ، ومنطق الانسان .

والعنكبوت أقذر ما تقع عليه العين ، حيث لا يألف الا الاماكن المهجورة ولا يعيش الا فى الخرائب ، ولا يصح فى حكم العقل كذلك أو فى حكم العاطفة والوجدان أن يكون العنكبوت على حظ ولو قليل من النظافة الحسية ، وبيت العنكبوت أضعف البيوت ، لانه لا يحتفل نفخة فم المرء فمتطائر خيوطه المهوشة مع الريح .

ومن أمثلة اخراج ما لا تقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه ، قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) (١) .

تبرز أمانا فى هاتين الآيتين طريقة التصوير التشخيصى بوساطة التخيل والتجسيم ، ونعنى بالتشخيص خلع الحياة ، وتجسيها على ما ليس من شأنه الحياة الجسمة من الاثياء والمعانى والحالات النفسية . فنحن أمام مشهد من المشاهد التى تستجيش الخيال ، مشهد متحرك ناطق تتابع الحركات فيه محسوسة مجسمة .

وبهذه الطريقة التصويرية التى اعتمدت عليها الآيات الجهادية فى نقل المعانى المجردة من ظلالها الجميلة الى النفس من منافذ شتى : من الحواس بالتخيل . ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالاصداء والاضواء . ويكون الذهن منفذا واحدا من منافذها الكثيرة الى النفس ، لا منفذها المفرد الوحيد . ولهذه الطريقة فضلها ولا شك فى أداء الدعوة لكل عقيدة ، ولكننا هنا ننظر إليها من الوجهة الفنية البحتة . وأن لها من هذه الوجهة لثانا . فوظيفة الفن الاولى هى إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الاثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور

لتحقيق هذا جميعه ، وكل اولئك تكنله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل .

ففى هاتين الآيتين نرى أن المعنى الذهنى هو : أن أعمال الذين كفروا لا حساب لها ولا وزن وانهم يخدعون أنفسهم حين يظنونها شيئاً . أو أنهم فى ضلال دائم ، لا مخرج لهم منه ، ولا هادى لهم فيه ، فيؤدى المعنى الى الذهن حيث يركد هناك . ولكنه يحيا ويتحرك ، ويجيش به الحس والخيال ، حين يؤدى فى هذه الهيئة التصويرية فقوله : (الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة .) فيه مثل لمن يظن أنه على شىء فتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه ، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والاهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم فاذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شىء وان عقائدهم وأعمالهم التى ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرى فى عين الناظر ماء ولا حقيقة له ، وهكذا الاعمال التى لغير الله يحسبها العامل نافعة له وليست كذلك .

وتأمل كيف شبه الله سبحانه السراب بالقيعة وهى الارض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات ، فمثل السراب أرض قفر لا شىء بها والسراب لا حقيقة له ، وذلك مطابق لاعمالهم وقلوبهم التى أقفرت من الايمان والهدى . وتأمل ما تحت قوله يحسبه الظمان ماء والظمان الذى قد اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه ، فلم يجده شيئاً بل انه أوج ما كان اليه فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم لغير الله جعلت كالسراب فرفعت لهم أظماً ما كانوا وأوج ما كانوا اليها فلم يجدوا شيئاً ووجدوا الله سبحانه فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم . فهنا صورة فنية ساحرة ، فيها روعة القصة ، وفيها تخيل قوى . . وهى بعد فى حاجة الى ريشة مبدعة ، لو أريد تصويرها بالالوان ، والى عدسة يقظة ، لو أريد تصويرها بالحركات . .

وفى الآية الثانية (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج . .) مثل لحال الفريق الثانى وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل ، فحالمهم كحال من كان فى بحر لجى لا ساحل له وقد غشيه موج من فوقه موج ومن فوق كل ذلك الموج موج ومن فوقه سحب مظلم فهو فى ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمات السحاب . وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التى لم يخرجها الله منها الى نور الايمان . ولهذا مثل تلاطم أمواج الشكوك والشبهات الفاسدة فى قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه ، وانها أمواج متراكمة من فوقها سحب مظلم . وهكذا أمواج الشكوك والشبه فى قلوبهم المظلمة التى قد تراكمت عليها سحب الغى والهوى والضلال . (١) .

فأين هى الريشة ؟ واين هى العدسة ، التى تستطيع أن تبرز هذه الظلمات (فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب اذا أخرج يده لم يكذبها) .

أو تصور الظمان ، يسير وراء السراب (حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً) . ووجد مفاجأة عجيبة — لم تكذبها على بال (ووجد الله عنده) وفى سرعة خاطفة تناوله (فوفاه حسابه) ؟

فاذا ذكرنا الغرض الدينى الذى رسمت له هذه الصورة ، فلنذكر معه المتاع الفنى الطريف ، فى هذا التصوير الحى الجميل .
 ففى هذين المثليين بيان ما لا تتع عليه الحاسة الى ما تتع عليه الحاسة .
 ولو قيل (يحسبه الرأى ماء) لكان بليفا ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمان أشد حرصا على الماء وأكثر تعلق قلبه به ، وتشبيه أعمال الكفار (بالسراب) من أحسن التشبيه وأبلغه ، فكيف وقد تضمن ذلك حسن النظم وغزوبة الألفاظ ، وصحة الدلالة وصدق التمثيل (١) .

ويسترعى النظر فى هاتين الآيتين ، أن التشبيه فى الآيات الجهادية يستمد عناصره من الطبيعة ، وذلك هو سرّ خلوده ، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة ، وسر عمومه للناس جميعا ، يؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصره ، ويرونها قريبة منهم ، وبين أيديهم ، فلا تجد فى القرآن تشبيها مصنوعا يدرك جماله فرد دون آخر ، ويتأثر به انسان دون انسان ، فليس فيه هذه التشبيهاات المحلية الضيقة ، فتشبيهاات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة ، انظر اليه فى التشبيه السابق مثلا يجد فى السراب وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعا ، فيغرم مرآها ، ويمضون الى السراب يظنونها ماء ، فيسعون اليه ، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم ، حينما يصلون اليه بعد جهد جهيد فلا يجدون شيئا مما كانوا يؤملون ، انه يجد فى هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة ، تظن مجدبة نافعة ، وما هى بشيء ، وكذلك يجد البحر المظلم والموج المتلاطم والسحاب الأسود صورة قريبة لحال الفريق الثانى من الكافرين .
 ويجد الحجارة تنبو على الجس ولا تلين ، ويشعر عندها المرء بالنبو والجسوة ، يجد فيها المثل للموس لقسوة القلوب ، وبعدها عن أن تلين لجلال الحق ، وقوة منطق الصدق ، فيقول : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة) (٢) . أو لا ترى أن القسوة عندها تخطر بالذهن ، يخطر الى جوارها الحجارة الجاسية القاسية (٣) . ويجد فى هذا الذى يعالج سكرات الموت ، فتدور عينه حول عوادة فى نظرات شاردة تائهة ، صورة تخطر بالذهن لدى رؤية هؤلاء المنافقين الفرعين من الماضى الى القتال وأخذهم بنصيب من أعباء الجهاد ، فيقول تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم الينا ولا يأتون بالبأس الا قليلا . أشح عليكم ، فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف ، سلقوكم بألسنة حداد أشح على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا) (٤) .

قال ابن نايقا البغدادي (٥) : يعنى قوما من المنافقين ، كان النبى اذا أمرهم بالقتال وان يستعدوا نظروا اليه شاخصة أبصارهم ، متغيرة ألوانهم ، فشبهم فى خوفهم من الحرب بالخائف من الموت ، أى ينظرون اليك يا محمد اذا أمرتهم بأخذ الأهبة للحرب كما ينظر المغشى عليه من الموت . . وهذا التشبيه البليغ فى

٤ (الأحزاب ١٨ ، ١٩ .
 ٥ (الجبان فى تشبيهاات القرآن/ ١٦٨ .

١ (بديع القرآن / ٥٩ .
 ٢ (البقرة / ٧٤ .
 ٣ (من بلاغة القرآن ١٩٦ .

وصف الخائف من جميع الأوصاف (جميع الأوصاف مجتمعها ومكملها) وأوقع التشبيهات لمثل هذه الحال) .

وهو تعبير لا يمكن محالكانه ، ولا ترجمته الى أى عبارة أخرى ، فهو يرسم الخوف الى حد الهلع . والضعف الى حد الرعشة . والتخاذل الى حد الفشية ! ويبقى بعد ذلك متفردا حافلا بالظلال والحركة التى تشغف الخيال ! وهى صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتمص بايمان ، ولا بقطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر . وهى هى طبيعة المرض والنفاق !

ويجد فى الزرع وقد نبت ضئيلا ضعيفا ، ثم لا يلبث أن قوى ساقه ، بما ينبت حوله من البراعم ، فيشدد ساعده ، ويفلظ ، حتى يصبح بهجة الزراع وموضع اعجابه ، يجد فى ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد ، فقد بدأوا قلة ضعافا ثم أخذوا فى الكثرة والنماء ، حتى اشدت ساعدهم ، وقوى عضدهم ، وصاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة وقلب الكفار حقدا وغيظا ، فقال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ، ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه ، فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) (١) .

انها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع . . صورة مؤلفة من عدة لقطات لابرار حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة . فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ، ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها وما يجيش بها (ويبتغون فضلا من الله ورضوانا) . ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه الى الله فى سمتهم وسحتنهم وسماتهم : (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) . . وهذه صفتهم فى التوراة (ذلك مثلهم فى التوراة) . ولقطات متتابعة تصورهم كما هم فى الانجيل (كزرع أخرج شطأه) تمثيل مستأنف ، أى هم كزرع أخرج فراخه ، (فأزره) صار مثل الأصل فى الطول (فاستغلظ) فصار من الدقة الى الغلظ . (يعجب الزراع) بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره (ليغيظ بهم الكفار) أى ليغيظ بالنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكفار (٢) .

فمن كل هذا نجد القرآن يتخذ الطبيعة ميدانا يقتبس منه صور تشبيهاته ، من نباتها وحيوانها وجمادها ، مما اتخذ مشبها به من نبات الأرض العرجون ، وأعجاز النخل والعصف المأكول ، والشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، والحبه تثبت سبع سنابل ، وهشيم المحتضر ، والزرع الذى أخرج شطأه . ومما اتخذ مشبها به من حيوانها الانسان فى أحوال مختلفة ، والعنكبوت ، والحمار ، والكلب والفراش ، والجراد ، والجمال ، والأنعام ، ومما اتخذ مشبها به من جمادها العهن المنفوش ، والصيب ، والجبال ، والحجارة والرماد ، والياقوت ، والمرجان ، والخشب ، ومن ذلك ترى أن القرآن لا يعنى بنفاسة المشبه به ، وإنما يعنى العناية كلها باقتراب صورتين فى النفس ، وشدة وضوحهما وتأثيرهما (٣) .

١ (الفتح / ٢٩ .
٢ (تفسير ابن السعود ٧٩/٥ وروح المعاني

١٢٧/٢٧ ومجمع البيان ٣٧٧/٩ للطبرسي

٣ (من بلاغة القرآن : ١٩٧ ، ١٩٨ .

ومن خصائص التشبيه فى الآيات الجهادية أيضا ، انه ليس عنصرا اضافيا فى الجملة ، ولكنه جزء أساسى لا يتم المعنى بدونه ، وإذا سقط من الجملة انهار من اساسه . فعمله فى الجملة انه يعطى الفكرة فى صورة واضحة مؤثرة ، نهى لا تمضى الى التشبيه كأنها هو عمل مقصود لذاته ، ولكن التشبيه يأتى ضرورة فى الجملة ، يتطلبه المعنى ليصبح واضحا قويا . وتأمل قوله تعالى : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) (١) . تجد فكرة عدم سماعهم الحق ، وانهم لا ينطقون به ، ولا ينظرون الى الأدلة التى تهدى اليه ، انما نقلها اليك التشبيه فى صورة قوية مؤثرة ، كما تدرك شدة الفزع والرغبة التى الملت بهؤلاء الذين دعوا الى الجهاد ، فلم يدفعهم ايمانهم اليه فى رضاء وتسليم ، بل ملاً الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم ، تدرك ذلك فى قوله تعالى : (يجادلونك فى الحق بعدما تبين لهم كأنها يساقون الى الموت وهم ينظرون) (٢) . فتشبه حالهم فى فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم الى القتال بحال من يعتل الى القتل عتلا ، أو يجذب اليه جذبا ، ويساق الى الموت المتيقن ، وهو مشاهد لأسبابه ناظر اليه لا يشك فيها .

والتصوير الفنى بالتشبيه ليس المقصود منه روعة الصورة وجمال الاسلوب ومناسبة اللفظ ، ولو أن اللفظ دورا بارزا فى تأدية المعنى ، واخراج الصورة الى المقام المناسب وحسب - وانما يكون التشبيه بمثابة استحضار الحالة الماضية وابرز الحالة المستقبلية شاخصة مجسمة .

وكثيرا ما يستعمل فى هذا كله التشبيه مع المثل ، وقد بين هذا قوله تعالى بعد سوق الآيات وتبيان العظائم (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا انفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) (٣) . اذ قد استعمل القرآن الكريم التصوير الفنى المصحوب بالتعبير البيانى ، استعمال الحقيقة ، وجعله بمثابة المواد المرئية أو لنقل نماذج منها .

فعدما يريد أن يبكت اليهود ، ويرميهم بداهية عظيمة من حيث كونهم أوتوا الكتاب وتحملوا من أجله الطرد والابعاد والتهيه والحرمان ، يقول تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسفارا بثس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين) (٤) .

فهذا التشبيه يحمل خاصية جديدة من خصائص التشبيه ، تلك هى دقته ، فهو يصف ويقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة ، فقد يتراءى أنه يكفى فى هذا التشبيه أن يقال : (مثلهم كمثل الذى لا يعقل) ، لكن الصورة تزداد قوة والتصاقا والتحاماً حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة ، فلم ينتفعوا بما فيها ، وبين الحمار يحمل أسفارا العلم ، ولا يدرى مما ضمته شيئا ، فتنام صورتين يأتى من هذا القيد الذى جعل الصلة بينهما قوية وثيقة .

ولننظر الى عناصر الصورة الفنية التى أبرزها ضرب هذا المثل . قال الجرجاني : (فالشبهه منتزعه من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار ، التى هى أوعية العلوم ومستودع ثمر القلوب ، ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التى ليست من العلم فى شىء ،

٣ (ابراهيم : ٤٥ .

٤ (الجمعة : ٥ .

١ البقرة : ١٨ .

٢ (الانفال : ٦ .

فليس له مما يحمل حظ سوى أن يثقل عليه ويكد جنبيه) .
والمراد فى هذا التشبيه الفريد هو أن تحصل النتيجة المطلوبة ، وهى الذم بالشقاء فى شىء يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة ، مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول الى تلك الفائدة ، واستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة ، والنعم الخطيرة من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سببا الى نيل شىء من تلك المنافع والنعم (١) .

والعادة جارية بتشبيه كل بعيد الفهم بليد القلب ، لا يهتدى الى تأويل صحيح ولا يظن للمعنى المراد ، بالحمار فلو شبه هؤلاء بالحمار لصح ، ولكن فى ذكر الحمار والأسفار معان تزيد الكلام بيانا وحسنا ، وهى حصول المزاوجة فى اللفظ والمقابلة فى النظم ، والملاعبة فى المعنى ، حيث قال تعالى (حملوا التوراة) والتوراة خمسة أسفار فاقترنت البلاغة تكميل معنى التشبيه بذكر الحمل ، لتحصل المزاوجة بين قوله : (كمثل الحمار يحمل أسفارا) والملاعبة بين ذكر التوراة التى هى عدة أسفار ، وبين ذكر الأسفار فى قوله (يحمل أسفارا) (٢) .

فهذا النمط العالى من التعبير البيانى والأسلوب السامى فى تبيان المقصد المراد فى ذم اليهود ، بحيث صوروا تصويرا متحركا يكاد يكون ناطقا لوضوحه . ومثل هذا التشبيه الرائع ، قوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزمنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاهم أمرنا ليلا ، أو نهارا فجعلناها حصيدا ، كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (٣) .

شبه الله سبحانه الحياة الدنيا فى أنها تتزين فى عين الناظر فتروقه بزینتها وتعجبه فيميل إليها ويهاواها اغترارا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها ، فشبها بالأرض التى ينزل الغيث عليها فتعشب ، ويحسن نباتها ويروق منظرها فيغتربها ، ويظن أنه قدر عليها مالك لها ، فيأيتها أمر الله ، فتدرك نباتها الآمة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل ، فيخيب ظنه ، وتصبح يدها صفرا منها . فهكذا حال الدنيا والوائق بها سواء . وهذا من أبلغ التشبيه (٤) .

فجمع سبحانه حال الدنيا كلها من بدئها حتى نهايتها بهذا التعبير الواضح الممثل الشاخص الحاكى فصارت الجمل العشر المتداخلة بعضها فى بعض كأنها جملة واحدة . فانفرد القرآن الكريم بهذا النوع من الأسلوب فى التعبير ، يجعل عدة جهل منفصلة تلتحم فتصير جملة واحدة ، يتخلخل المعنى ويضطرب السياق ، ان انفردت أحداها .

وينساب التشبيه متنوعا فى التنزيل الحكيم حتى إذا أراد أن يجلو أمرا غير معلوم بالبديهة والمشاهدة لأنه شىء غيبى آمنه به اعتقادا كالجنة مثلا — يعمد الى ما يحس احساسا كاملا من غير ما ريب فيه أو تنازع فى سمعته وعظمه ، وذلك

- ١ (أسرار البلاغة : ٨٢/٨١ .
٢ (دبيع القرآن لابن أبى الاصبع المصرى
٣ (يونس : ٢٤ .
٤ (أعلام الموقعين لابن القيم : ١٧٩ ،
والتفسير القيم ٣٠٥ لابن القيم .
٥٨/ ، ٥٩ تحقيق الدكتور حفنى شرف .

فى مثل قوله تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) (١) وقوله : (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن . .) (٢) فهذا بيان أخراج ما لا يعلم بالبديهة ، الى ما يعلم بها ، وقد اجتمع فى العظم ، وحصل مع ذلك الوصف التشرىفى الى الجنة بحسن الصفة وأفراد التشبه) (٣) .

ولا يجرى التشبيه فى القرآن الكريم بأسلوب الخبر ليس غير ، بل يتجاوز الى الإنكار ، فيستعمل هذا الأسلوب منكرا على الذين رضوا من الاعمال ، بما يقدمون من خدمات لمن يؤدي شعائر مخصوصة فى البيت الحرام ، ويريدون مساواتهم بمن آمن بالله واليوم الآخر . قال تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين) (٤) .

ومن خصائص التشبيه فى الآيات الجهادية المقدرة الفائقة فى اختيار الفاظه الدقيقة المصورة المحيية ، فقد آثرت الآيات كلمة (بنیان) فى قوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنیان مرصوص) (٥) ، لما تشيره فى النفس من معنى الالتحام والانصال والاجتماع القوى ، وغير ذلك من معان ترتبط بما ذكرناه ، مما لا يثار فى النفس عند كلمة (حائط) أو جدار مثلا (٦) .

قال ابن نايقيا البغدادى : أى بنیان لاصق بعضه ببعض ، لا يفادر بعضه بعضا ، فأعلم الله أنه يجب من ثبت فى الجهاد ولزم مكانه كثبوت البناء المرصوص وهذا التشبيه جامع للأوصاف فى تعبئة المصاف ، مع حسن الاختيار ، ولطافة القول ، وقرب المأخذ (٧) .

ومن مميزات التشبيه فى الآيات الجهادية أيضا أن المشبه قد يكون واحدا ويشبه بأمرين أو أكثر ، لحما لصلة تربط بين هذا الأمر وما يشبهه ، تثبيتا للفكرة فى النفس ، أو لحما لها من عدة زوايا وقد كثر فى الآيات الجهادية ضرب الأمثال لتصوير الحقائق وإبرازها فى صورة المشاهد تتيها للبيان .

قال ابن القيم (٨) : (وهذه الأمثال التى ضربها الله سبحانه لتقريب المراد وتفهم المعنى وايصاله إلى ذهن السامع واحضاره فى نفسه بصورة المثل الذى مثل به ، فانه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره باستحضار نظيره فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير . ففى الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها اذا ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجده أحد ولا ينكره ، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا ، فالأمثال شواهد المعنى المراد ومزكية له وهى كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقته وهى خاصة العقل ولبه وثمرته) . وقال الزمخشري (٩) : (ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل

٦ (من بلاغة القرآن ٢٠١ .
٧ (الجمان فى تشبيهات القرآن ٣٤٩
٨ (أعلام الموقعين ٢٩١ .
٩ (الكشف : ١٩٥/١ .

١ (الحديد : ٢١ .
٢ (محمد : ١٥ .
٣ (بديع القرآن : ٥٩ .
٤ (التوبة : ١٩ .
٥ (الصف : ٤ .

والتظائر شأن ليس بالخبى ، فى إبراز خبيات المعانى ، ورفع الأستار عن الحقائق حتى تترك التخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن والغائب كأنه شاهد) . وربما تكون المعانى التى يراد تفهيمها معقولة صرفة ، فالوهم ينزاع العقل فى ادراكها حتى يحجبها عن اللحوق بما فى العقل فيضرب الأمثال تبرز فى معرض المحسوس فيساعد الوهم العقل فى ادراكها ، وهناك تتجلى غياهب الأوهام (١) (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلمهم يتفكرون) (٢) .

والمواقع أن أثر التمثيل قائم فى الكلام على ما فيه من إبراز المعنى جائئاً وإيرازه شاخصاً ، وإبعاد الحجب عن أسراره ، وتوضيح غوامضه ، ولذا أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أمته أن تعتبر وتتعظ بأمثال القرآن .

وقال أبو الحسن الماوردى (٣) فى هذا الصدد : إن أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس فى غفلة عنه لاשתغالهم بالأمثال واغفالهم الممثلات ، والمثل بلا مثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام) .

والظاهر أن الأمثال بالنسبة للإيحاء والتأثير فى القلوب بمثابة وسيلة الإيضاح فى الأفهام ، فانها إنما تضرب فيما تدركه الحواس مما لا تدركه . فتكون أثبت فى الذهن ، وأنفذ إلى القلب ، ولهذا حسن استخدامها فى التذكير والوعظ والحث والزجر والتعليم والتهديب .

ولا شك أن الأمثال تعد من أجل أساليب التعبير لما تتميز به من صفات بلاغية ، إذ تجمع إيجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فالمثل يتمتع بجميع مزايا الفنون البلاغية من استعارة أو كناية أو مجاز وما شاكلها .

وكلمة مثل فى القرآن تستعمل فى معنى الصفة والشبه والحجة والحديث والقدوة كما أنها تطلق على قصة أو صورة بيانية . بحيث يكون لها شأن عجيب ، إلا أن القدر المشترك بين هذه المعانى هو البروز والشخص (٤) .

وقال النيسابورى (٥) : ونحن نرى أن الانسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبى ، فاذا ذكر المثل اتضح وانكشف ، وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة ، فاذا ذكر المعنى أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال ، وإذا ذكر التشبيه معه أدركه العقل مع معاونة الخيال) .

والمثل ، على أية حال أحد طرائق التعبير والتصوير الأساسية فى الآيات الجهادية ، كشفت به عن نماذج مؤمنة ، بلغ بها اليقين النفسى ، والاطمئنان القلبى مداه ، ونماذج كافرة بلغ بها الحقد والعناد منتهاه ، ونماذج مناقفة يصدر عنها القول الحسن فى فعل بذيء ، وتظهر فى أشكال جذابة ، وبواطن مظلمة . وقد قسمه أبو عبد الله البكر أباذى الى أربعة أوجه أولها : إخراج ما لا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه . وثانيها : إخراج ما لا يُعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم

-
- ١ (الحيوان : ٢٩/٤) ونقد النثر لتدامة بن جعفر ٥٥ وروح المعانى ١٦٢/١ .
 - ٢ (الحشر ٢١ وإبراهيم ٢٥ والرعد ١٧ .
 - ٣ (الانتقان ١٣١/١ للسيوطى .
 - ٤ (أمثال القرآن وأثرها فى الادب العربى
 - ٥ (غرائب القرآن : ١٩٥ .
 - إلى القرن الثالث الهجرى . نور الحق تنوير رسالة ماجستير (مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة) ص : ٦٣ .

بالديهية . وثالثها : إخراج ما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة . ورابعها : إخراج ما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة (١) .

فلما جاء الله تعالى بحقيقة حال المنافقين عقبها بضرب المثل زيادة في التوضيح والتقرير ، فان التمثيل الطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي ، وقمع سورة الجامح الأبى وكيف لا يطف وهو إبداء للمنكر في صورة المعروف ، وإظهار للوحشى في هيئة المألوف ، وإراء ، للمتخيل محققا ، والمعقول محسوسا وتصوير للمعانى بصورة الأشخاص ، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلي والغائب بالشاهد (٢) .

وقد ضرب الله تعالى مثلين للمنافقين في سورة البقرة تصور حيرتهم واضطرابهم ، فان هذه الحيرة يشتد تصورها لدى النفس ، إذا هي استحضرت في سورة المحسوس المشاهد الذى يرى رأى العين .

قال تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير) (٣) .

قال أبو السعود (٤) فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) زيادة فى كشف حالهم وتصوير لها غب تصوير بصورة خسارة التجارة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) (٥) .

ففى هذا المثل (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ...) صورة لحالهم العجيبة وما منوا به من حيرة وثدة ، فهم أشبه برهط وقعوا فى ظلمة شديدة ، فاتخذوا اهبتهم وجمعوا كل ما يملكون من وسيلة لايقاد نار يستضيئون بها ليكونوا بمنجاة من الاخطار الحائقة بهم فى غمرة هذه الظلمات ، وأوقدوها فيما أعدوا لها وتأهبوا به لاشعالها ، فلما أضاءت ما حولهم وكشفت لهم عن موضع أقدامهم وهموا بما لم ينالوا ، ذهب الله بنورهم وتركهم حيارى فى تيههم يعمهون .

إن هنا حشدا من الصور المتتابعة فى شريط متحرك : هؤلاء هم قد أوقدوا النار فأضاءت ما حولهم وفجأة ذهب الله بنورهم ، وخيم حولهم الظلام (ذهب الله بنورهم) يعنى أنهم غب الاضاءة خبطوا فى ظلمة وتورطوا فى حيرة ، فالمراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين فى مكانهم لا يبرحون ولا يدرون اينقدمون أم يتأخرون ، وكيف يرجعون إلى حيث ابتدأوا ، والأعمى لا ينظر طريقا ، وأبكم لا يسأل عنها ، وأصم لا يسمع صوتا من صوت مرجعه فيهدى به ؟ والفاء للدلالة على أن اتصافهم بما تقدم سبب تحيرهم ، واحتباسهم كيف ما كانوا (٦) . (صم

١ (البرهان للزركشى : ٤٨٦/١ .
٢ (تفسير أبى السعود : ٣٠/١ .
٣ (روح البيان : ٤٥/١ لاسماعيل حتى .
٤ (البقرة : ١٦ .
٥ (تفسير أبى السعود : ٣٠/١ .
٦ (روح المعانى : ٦٧/١ للالوسى .
٧ (البقرة : ١٧ - ١٩ .

بكم عمى فهم لا يرجعون) تشبيهه بليغ . وليس الغرض من الآية نفى الإدراكات عن حواسهم جملة ، فحواسهم سليمة ، بل نفياً من هذه الجهة عن ادراك الحق ، وتفهم الهدى ، لأنهم سدوا عن الاصاخة اليه مسامعهم ، وأبوا أن تنطق ألسنتهم أو تبصره عيونهم ، فشبهاوا بمن فقدوا هذه الحواس لفقدانهم أثرها ، وحرمانهم الانتفاع بها غيباً ينفعهم (١) .

وهذا تصوير بارع لحال المنافقين يكشف عن خبيثة قلوبهم المريضة ، وعمى بصائرهم وجمود أحاسيسهم ، وخمود شعورهم ، فهم صم لا يسمعون نداء الحق وإذا سمعوه أشاحوا عنه معرضين ، بكم لا ينطقون الحق ، وإذا نطقوه أصابهم عي البله ، وحصروا فلم يستطيعوا أن يبينوا عن ذلك أنفسهم ، وهم عمى لا يبصرون طريق الحق ، فهم فى غيهم سادرون ، لا يرجعون عن ضلالتهم ، ولا يغيثون الى ظل الأمل والخلص (٢) .

وقال أبو السعود (٤) : (فهم لا يرجعون) الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، أى هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون إلى الهدى الذى تركوه وضيعوه أو عن الضلالة التى أخذوها والآية نتيجة للتمثيل مفيدة لزيادة تهويل وتفظيح ، فإن قصارى أمر التمثيل بقاؤهم فى ظلمات هائلة . والآية الكريمة تنبؤ للتمثيل وتكميل له ، بأن ما أصابهم ليس مجرد انطفاء نارهم وبقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة مع بقاء حاسة البصر بحالها ، بل اختلت مشاعرهم جميعاً واتصفت بتلك الصفات) .

ولفت النظر قوله تعالى (ذهب الله بنورهم) دون أن يقول ذهب الله بنارهم لأن المقصود لهم من استيقاد النار هو النور ، فلماذا سلبهم الله النور ، وبقيت لهم النار بين أيديهم لا نور لها تأكل أنفسهم أبلوا ووقعوا فى تيه من الحيرة وأخذهم الدهش واستولى عليهم الرعب والفزع ، وهم يرون أصل النور ولا نور ، وفى قوله (ذهب الله بنورهم) دون أن يقول (أذهب الله نورهم) لطيفة بيانية من لطائف التعبير القرآنى ، لأن قوله (ذهب الله بنورهم) يفيد أن الله أنتزع النور منهم وأخذة إلى حيث شاء ، فلا مطمع لهم فى رده عليهم لأنهم يعلمون أنهم لا سبيل لهم إلى الله ، بل إن معنى التعبير القرآنى أدق لأنه يفيد أن الله ذهب بالنور وحببوا عنه بظلمات النفاق — ولله المثل الأعلى — أما التعبير الثانى فإنه يفيد أن الله تعالى أزال النور عنهم باطفائه ، وذلك يقطع طمعهم فيما يتعللون به من أسباب يستعيدون بها النور ، ولذلك جاء تعقيب تعبير الآية بما يفيد تئيسهم من رجوع النور (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) (٤) .

وقال ابن القيم (٥) : ما سر تعبيره سبحانه (ذهب الله بنورهم) ولم يقل (بنارهم) لأن النار فيها الإحراق والاشراف فذهب بما فيها من الأضياء والأشراق ، وأبقى عليهم ما فيها من الأذى والإحراق ، وكذلك حال المنافقين : ذهب نور إيمانهم بالنفاق ، وقلوبهم قد صليت بحرهما وأذاها . وسومها ووهجها فى الدنيا .

١ (مع القرآن فى أدبه ومعاملته ١/٣٧٥) تفسير أبى السعود : ٣٠/١ .
 عبد الحسيب طه حبيدة .
 ٢ (القرآن العظيم هدايته وأعجازه فى أقوال المفسرين : ١٦٨ محمد الصادق عرجون .
 ٣ (القرآن العظيم : ١٦٨ محمد الصادق عرجون .
 ٤ (التفسير القيم : ١١٣ .
 ٥ (التفسير القيم : ١١٣ .

فأصلها الله تعالى إياهم يوم القيامة نارا مؤصدة تطلع على الأئمة .

ثم شرع سبحانه فى تمثيل لحالهم اثر تمثيل ليعم البيان منها كل دقيق وجليل ويوفى حظها من التقطيع والتهويل ، فان تفننهم فى فنون الكثر والضلال وتنقلهم فيها من حال الى حال حقيق بأن يضرب فى شأنه الأمثال ، وقد نعى عليهم هذا التمثيل تفاصيل جنائياتهم وهو عطف على الأول (١) إذ قال تعالى (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ...) فهذا لون آخر من التمثيل لتصوير حالهم العجيبة ، فهم أشبه بمن أخذته السماء فى الليل البهيم الأدهم ، فأحاطت به أمطار مترامية ، فيها ظلمات حالكة ، ورعد قاصف مرعب ، وبرق خاطف مرعب ، حتى هاله الأمر ، وامتلكه الخوف ، واشتدت به الحيرة والاضطراب ، فجعل اصبعه فى أذنيه رهبا من الهلاك ، وحذرا من الموت ، وتوهما منه أن ذلك يمنعه من سماع هدير الرعد وومض البرق واهلاك الصواعق ، ولكن الله محيط بهم لا يعجزونه هربا من عذابه .

وقوله (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) مبالغة فى فرط دهشتهم وكمال حيرتهم (٢) فإطلق الأصابع على الأنامل للمبالغة . وهو من إطلاق الكل على الجزء . ونكته التعبير عنها بالأصابع إشارة إلى ادخال غير المعتاد مبالغة فى الضرار من شدة الصوت ، فكانهم جعلوا الأصابع جميعها (٣) . على أنه شبه دين الاسلام بالصيب تحيا به الأرض ، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد ، بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفار من الفزع والبلاء ، ونذر الاسلام بالصواعق — والمعنى أو كمثل ذوى صيب ، وهم قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة وقوله تعالى (فيه ظلمات ورعد وبرق) بالتثوين فى الكل للتخيم ، كأنه قيل فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف ، وبرق خاطف .

(والله محيط بالكافرين) أى لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط . شبه شمول قدرته تعالى لهم وانطواء ملكوته عليهم بأحاطة المحيط به فى استحالة الفسوت (٤) .

ولا شك أن هذا التشبيه أقوى من التشبيه الأول لأنه أدل على فرط الحيرة ، ونهاية الفزع ، ولعلك معنى فى أنه تصوير دق صنعه ، وأحكمت أدواته ، فقد نقل أمر المناقطين إلى صورة مجسمة ، تراها شاخصة أمام عينيك : ظلام حالك ، ومطر منهمر ، ورعد يصم الأذان ، وبرق يخطف الأبصار ، وصواعق مدمرة ، يقف بين هذا وذاك ، وتحت هذا وذاك انسان حائر ، هاله الأمر ، فملكه الخوف ، فانسدت أمامه سبل النجاة ، وأحاطت به عوامل الهلاك ، فلم يجد إلا اصبعه يدخله فى أذنه مطبقا عينيه ، ليتقى بذلك شر ما يرى . وبذلك جمع بأسلوبه المثلى لفحة الأدب الفنى ، ولغة الشكل الواقعى ، ولغة الموسيقى . فهل لنا برسام ماهر يبرز هذه الصورة بريشته . ليخرج الهول مجسما وأسباب الهلاك آخذا بعضها بحجز بعض انه لأدب تصويرى رائع ، لا يستطيعه إلا القرآن فى اعجازه وبلاغته . وبذلك أبرزتهم الآية فى صورة المحسوس المشاهد يرى رأى العين ، ولو أن رساما أمسك

١ (تفسير أبى السعود : ٢٩/١ . ٢ (الفتوحات الإلهية ٢٣/١ النجل .

٣ (تفسير أبى السعود ٢٩/١ . ٤ (روح المعانى : ١٧٠/١ للؤلؤسى .

بريسته ، واستجمع قوى فنه ، ما استطاع أن يبلغ فى تصويره هذه الحقيقة ما بلغه القرآن فى إبراز صورته فى لفظ عذب ، وأسلوب أدبى رائع ، وكذلك يكون لمثل فى إبراز الحقائق ، ينقلها إلى المحسوسات ، لتكون أقرب إدراكا ، وأبلغ صورا .

ثم وصف تعالى حيرتهم وصفا أشبه بوصفها فى الآية السابقة مع اختلاف لاطار الذى وضعت فيه الصورة فى الآيتين (يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما ضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا .) فكأنه قيل : فكيف حالهم مع ذلك لبرق ؟ فقال : (يكاد البرق يخطف أبصارهم) ، وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين وقد أفزعهم القرآن ، كشدته على أصحاب الصيب ، وقد ازعجتهم هذه الظواهر الكونية ، وأنهم فى غاية الحيرة والارتباك والبأس ، ثم الجهل بما يأتون وبما يذرون ، إذا صادفوا من البرق خفقة انتهزوها على خوف منه ، ووجل أن يخطف أبصارهم ، فخطوا خطوات يسيرة ، ومضات البرق سريعة الزوال والاختفاء ، لا تلبث أن يعقبها ظلام ، فإذا أظلم عليهم قاموا ، ووقفوا مقيدىن عن الحركة ، وكذلك حال المنافقين مع آيات الله ، تضىء لهم الطريق ، فتفتح عيونهم ، وتبسط الآمال فى صدورهم ، ولكن سرعان ما تغلب عليهم شقوتهم ، وتترع بهم شياطينهم إلى مهاوى الفساد والشر .

ومن هنا ندرك سر التعبير (بكلمة) مع الاضائة (كلما أضاء لهم مشوا فيه) استئناف ثالث كأنه قيل أنهم مبتلون باستمرار تجدد خطف الأبصار . وإذا قيل : ما يفعلون فى حالتى وميض البرق وعدمه ؟ فأجيب بأنهم حراس على المشى — كلما أضاء لهم — اغتتموه ومشوا وإذا أظلم عليهم توقفوا مترصدين (١) . ولو شئاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لزداد فى قصف الرعب أو ضوء البرق ، فذهب بسمعهم وخطف بصرهم .

وقوله : (إن الله على كل شىء قدير) أسلوب استئنافى يؤكد بجبيح أدوات التأكيد (إن) اسمية الجملة ولفظ الجلالة ، وتقديم الجار والجرور . وقوله (على كل شىء قدير) بلفظ (كل) وعموم شىء مع تنكيره ، والتعبير بمادة (قدير) واختيار المشتق بدلا من (قادر) ، لأنه أبلغ فى الوصف ، وأصدق فى الدلالة ، ولا شك أن ذكر القدرة ، وإثباتها لله على هذا النحو البلاغى ، لا بد منه فى هذا المقام لأنه مقام زجر ، ووعيد ، وإخافة (٢) .

وعلى أية حال فى هذين المثلىن اللذين ضربهما الله تعالى للمنافقين حشد من الصور المتتابعة فى شريط متحرك ، ولو سجلت عدسة الصور المتحركة مشهدا كهذا ، بما فيه من الحركة والتتابع ، لكانت موفقة كل التوفيق . فكيف والمنظر هنا تسجله الألفاظ ، فلا تنقص منه حركة واحدة تستطيع عدسة الصور المتحركة إثباتها ؟ لا بل تتيح للنفس متعة أشهى بأن تدع للخيال عملا ، وهو يرسم الصور ويمحوها ، ويصنع الحركات ويتبعها ، ويرسم الظلال ويشهدها ، والنفس تجيش والوجدان ينفعل ، والقلب يسرع فى النبضات تحت تأثير الكلمات ! ويعرض تعالى لأعمال الكفرة ، ولصدقاتهم التى كان جديرا أن تثمر وتزهر ،

١ . عبد الحسيب طه حميدة .

٢ . روح المعانى ١/ ١٨١ .

٣ . مع القرآن فى أدبه ومعاملاته ١/ ٢٨٢ .

لولا ان هبت عليها ريح الشرك فأبادتها ، كما تهب الريح الشديدة البرد بزرع كان ينتظر اثماره فأهلكته . (لمن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا اولادهم من الله شيئا ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ، كمثّل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلّموا أنفسهم ، فأهلكته ، وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون) (١) .

قال ماجهد (٢) : المراد تمثيل جميع صدقات الكفار ونفقاتهم — كيف كانت — وقيل مثل ما ينفقه الكفار مطلقا فى عداوة الرسول عليه الصلاة والسلام) .
وقال ابن القيم (٣) : هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله من غير طاعة ربه ومرضاته ، فشبّه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم فى المفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر ، ولا يبتغون به وجه الله ، وما ينفقونه ليصدوا عن سبيل الله واتباع رسله — بالزرع الذى يزرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره ، فأصابته ريح شديدة البرد جدا ، يحرق بردها كل ما يميز عليه من الزرع والثمار ، فأهلكت ذلك الزرع وأبيسته .

فمثل نفقات الكفار فى ذهابها وقت الحاجة اليها كمثّل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع به أصحابه (٤) .

ولما كان للمال أثره فى الحركة الجهادية ، فقد لعب التمثيل دوره فى التأثير فى النفس ، كى تجود ببذله بسخاء فى سبيل الله ، فضرب الله الأمثال فى مضاعفة ثواب نفقة الجهاد أضعافا كثيرة واستحضر صورة هذه الأضعاف محسوسة شاخصية أمام العيون . فقال تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثّل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبل مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مئاً ولا اذئ ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٥) .
شبه سبحانه نفقة المنفق فى سبيله بمن بذر بذرا فأنبتت كل حبة منه سبع سنابل اشتملت كل سنبل على مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب حال المنفق واخلاصه واحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها وموقعها ، فان ثواب الانفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الايمان والاخلاص ، والتثبيت عند النفقة وهو اخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره باخراجه ، غير جزع ولا هلع ، ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده (٦) .

وهذه الآية كأنها التفسير والبيان لمقدار الأضعاف التى يضاعفها لا يقرض ، ومثله سبحانه بهذا المثل احضارا لصورة التضعيف فى الاذهان بهذه الحبة التى غيبت فى الأرض فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبل مائة حبة ، حتى كان القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين إلى هذه السنابل التى من الحبة الواحدة فيضاعف الشاهد العينانى إلى الشاهد الايمانى فيقوى إيمان المنفق وتسحو نفسه بالانفاق .

٤ (تفسير الخازن ١/٤٠٦ .

٥ (البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢ .

٦ (اعلام الموقعين لابن القيم / ٢٢٨ .

١ (آل عمران / ١١٦ ، ١١٧ .

٢ (روح المعانى ٤/٥٧ .

٣ (التفسير القيم / ٢١٤ .

وهذا كثير في أمثال القرآن بل عامتها ترد على هذا النمط ، ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنی مطابقين لسياقهما ، وهما (الواسع العليم) فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه ، فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل . ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضى حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها . ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل ليضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس أهله بحكمته وعلمه (١) .

وقال الألوسی (٢) : هذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدي الناظر .

وفي قوله تعالى (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ..) بيان للقرض الحسن ما هو ؟ وهو أن يكون في سبيل مرضاة الله ، والطريق الموصلة إليه ، ومن أنفعها سبيل الجهاد . ونبه بقوله : « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى » على أن المن والأذى ولو تراخى عن الصدقة ، وطال زمنه ضر بصاحبه ، ولم يحصل له مقصود الانفاق ، ولو أتى بالواو ، وقال : ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لأوهمت تقييد ذلك بالحال ، وإذا كان المن والأذى المتراخى مبطلا لأثر الانفاق مانعا من الثواب . فالمقارن أولى ، وأحرى ..

وتأمل كيف جرد الخبر هنا من الفاء فقال (لهم أجرهم عند ربهم) وقرنه بالفاء في قوله (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم) (٣) . فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء ، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصفة ، فلما كان هنا يقتضى بيان حصر المستحق للجزاء دون غير جرد الخبر عن الفاء ، فإن المعنى : إن الذي ينفق ماله لله ، ولا يمن ولا يؤذى هو الذي يستحق الأجر المذكور لا الذي ينفق لغير الله ، ويمن ويؤذى بنفقتة ، فليس المقام شرط وجزاء ، بل بيان للمستحق دون غيره (٤) .

ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن الأذى ، كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثلته كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرن على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين) (٥) .

تأمل أجزاء هذا المثل البليغ وانطباقها على أجزاء المثل به ، تعرف عظمة القرآن وجلالته ، فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرأى المان المؤذى في قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر ، والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر مقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النباتات والثبات عند نزول الواابل ، فليس له مادة متصلة بالذى يقبل الماء وينبت الكلا ، وكذلك قلب المرأى ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر ، فإذا نزل

١ (التفسير القيم لابن القيم / ١٥٥ .
٢ روح المعاني ٣/ ٢٢ .
٣ (البقرة / ٢٧٤ .
٤ (التفسير القيم / ١٥٠ .
٥ (البقرة / ٢٦٤ .

عليه وابل الوحى انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذى كان عليه فبرز ما تحتسه حجرا صلدا لا نبات فيه . وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرائى ونفقتة (١) . وهكذا أبرز هذا المثل أن الصدقة التى تبذل رياءً والتى يتبعها المن والأذى ، لا تثمر شيئاً ولا تجدى نفعاً ، ونقل هذا المعنى المجرى ، فى صورة حسية متخيلة . كيف لا وأن التمثيل كما مر ليس إلا إبراز المعنى المقصود فى معرض الأمر المشهود وتحلية المعقول بحلية المحسوس ، وتصوير أو ابد المعانى بهيئة المنوس .

ثم يمضى فى التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرياء ، ومعنى الذهب بالصدقة التى يتبعها المن والأذى (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير) (٢) فهنا الوجه الثانى للصورة ، والصفحة المقابلة للصفحة الأولى فهذه الصدقات التى تنفق ابتغاء مرضاة الله ، فى هذه المرة كالجنة لا كحفنة من تراب ، وإذا كانت حفنة التراب ، هناك على وجه صفوان ، فالجنة هنا فوق ربوة ؟ وهذا هو الواجب مشترك بين الحالتين ، ولكنه فى الحالة الأولى يحو ويحق ، وفى الحالة الثانية يربى ويخصب . وفى الحالة الأولى يصب الصفوان ، فيكشف عن وجه كالح كالأذى ، وفى الحالة الثانية يصيب الجنة ، فيمتزج بالتربة ، ويخرج (اكلا) . ولو أن هذا الواجب لم يصبها فان هذا الخصب والاستعداد للنبات ، ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها (فإن لم يصبها وابل فطل) ..

إنه المشهد الكامل ، المتقابل المناظر ، المنسق الجزئيات ، المعروض بطريقة معجزة التناسق والإداء ، التمثيل بمنأظه الشاخصة لكل خالجة فى القلب وكل خاطرة ، الصور للمشاعر والوجدانات ، بما يقابلها من الحالات والمحسوسات ، الموحى للقلب باختيار الطريق فى يسر عجيب .

ولما كان المشهد مجالا للبصر ، والبصيرة من جانب ، ومرد الأمر فيه كذلك الى رؤية الله ومعرفته بما وراء الظواهر ، جاء التعقيب لمسة للقلوب (والله بما تعملون بصير) .

فأما المشهد الثانى فتمثيل لنهاية المن والأذى ، كيف يحق آثار الصدقة محققاً فى وقت لا يملك صاحبها قوة ولا عوناً ، ولا يستطيع لذلك المحق رداً . تمثيل لهذه النهاية اليائسة فى صورة موحية عنيفة الإيحاء . كل ما فيها عاصف بعد أمن ورخاء (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فميه نار ، فأحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) (٣) .

هذه الصدقة فى أصلها وفى آثارها تمثل فى عالم المحسوسات .. جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، فيها من كل الثمرات ، إنها ظليلة وأرصفة مخصبة مثمرة .. وكذلك الصدقة فى طبيعتها وفى آثارها .. وكذلك هى فى حياة المعطى وفى حياة الآخذ وفى حياة الجماعة الانسانية .. كذلك هى ذات روح وظل

١ (٢) البقرة / ٢٦٦ .

٢ (١) أعلام الموقعين / ٢٢٧ .

٣ (٢) البقرة / ٢٦٥ .

وذات خير وبركة ، وذات غذاء وري ، وذات زكاء ونماء !
 فمن ذا الذى يود ان تكون له هذه الجنة . او هذه الحسنه ثم يرسل عليها
 المن والاذى يمحقتها محقا ، كما يمحق الجنة الاعصار فيه نار ؟ ومتى ؟ فى اشد
 ساعاته عجزا عن انقاذها ، وحاجة الى ظلها ونعمائها ! (واصابه الكبر وله ذرية
 ضعفاء ، فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت) من ذا الذى يود هذا ؟ ومن ذا
 الذى يفكر فى ذلك المصير فلا يتقيه ؟
 قل الحسن : هذا مثل قل والله من يعقله من الناس : شيخ كبير ضعف
 جسمه وكثر صبيانه افقر ما كان إلى جنته . وإن احدكم والله افقر ما يكون إلى
 عمله إذا انتقطعت عنه الدنيا .

وقوله تعالى (ايود احدكم) اخرج مخرج الاستفهام الإنكارى ، وهو ابلغ
 من النفي والنهى والطف موقعا ، وقال (ايود احدكم) بلفظ الواحد لتضمنه معنى
 الإنكار العام ، وهو ابلغ فى الإنكار مما لو قيل : ايريد ، لان محبة هذه الحال
 المذكورة وتمنيها اقبح وأنكر من مجرد ارادتها . ثم قال (واصابه الكبر) هذا اشارة
 الى شدة حاجته الى جنته ، وتعلق قلبه بها من وجوه : انه كبر سنة على الكسب
 والتجارة ونحوها ، وان ابن آدم عند كبر سنة يشتد حرصه . وان له ذرية ، فهو
 حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته . وانهم ضعفاء فهم كل عليه ، لا
 ينفونهم بقوتهم . وان نفقتهم عليه ، لضعفهم وعجزهم .

وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة ، لخطرها فى نفسه ، وشدة
 حاجته وذريته اليها ، فاذا تصورت هذا الحال وهذه الحاجة ، فكيف تكون مصيبة
 هذا الرجل اذا أصاب جنته اعصار فأحرقها ، وصيرها رمادا . فصدق والله
 الحسن — رضى الله عنه — هذا مثل قل من يعقله من الناس — ولهذا نبه الله
 سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل ، وحدا القلوب الى التفكير فيه لشدة حاجتها
 اليه . فقال تعالى (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) فلو تصور العامل
 بمصيبة الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتأمله كما ينبغى لما سولت له
 نفسه — والله — احراق أعماله الصالحة واضاعتها (1) فتبارك الله الذى جعل
 كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمته للمؤمنين .

وهكذا قام هذا المشهد العجيب بالايحاء الشعورى الرهيب . الذى لا يدع
 مجالا للتردد فى الاختيار ، قبل ان تذهب فرصة الاختيار ، وقبل ان يصيب الجنة
 الوارفة الظليلة المثمرة اعصار فيه نار !

وبعد ، فان التناسق الدقيق الجميل الملحوظ فى تركيب كل مشهد على حده :
 وفى طريقة عرضه وتنسيقه . هذا التناسق لا يقف عند المشاهد فرادى ، بل إنه
 ليهد رواقه فيشمل المشاهد مجتمعة من بدئها فى هذا الدرس الى منتهاها . . انها
 جميعا تعرض فى محيط متجانس . . محيط زراعى ، جنة أنبتت سبع سنابل . .
 صفوان عليه تراب . فأصابه وابل . وجنة بربرة ماتت اكلها ضعفين . جنة من
 نخيل وأعناب . . حتى الواابل والطل والاعصار التى تكمل محيط الزراعة لم يخل
 منها محيط العرض الفنى المثير .

وهذه الحقيقة الكبيرة وراء العرض الفني في القرآن . التي تعرض المعنى صورة والأثر حركة ، والحالة مشهدا شاخصا للخيال . وهي حقيقة الصلة بين النفس البشرية والتربة الأرضية . حقيقة الأصل الواحد ، والطبيعة الواحدة ، والحياة النابتة في النفس وفي التربة على السواء . . إنه القرآن وروائع القرآن الفنية الخالدة .

هذا ويحسن أن نشير الى آراء العلماء في بلاغة التمثيل وأثره في النفوس لقد قال عبد القاهر الجرجاني (١) : (واعلم أن ما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة واكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من ناراها ، وضاعف من قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثارها من أقاصي الأفئدة صباية وكلفنا ، وقصر الطباع على أن تعطىها محبة وشغفا) . أي إذا جاء في صدر القول بعث المعنى إلى النفس بوضوح وجلاء مؤيدا بالبرهان ، وإن أتى بعد استيفاء المعنى ، كان دليلا على تمكنه في النفس ورسوخه في الذهن وثبوته . والعلة في هذا والسبب في تأثيره هو أن النفس تأنس باخراجها من خفي إلى جلي ، ومن مجهول إلى معلوم ، وتطمئن إلى صريح بعد مكثي ، إذ ينقلها من العقل إلى الاحساس ، ومما يعلم بالنفس إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع (٢) .

وقد يأتي بعد تمام المعنى لايضاحه وتقريره في النفوس وايداعه التأثير المخصوص ، فيكون كالبرهان الذي تثبت به الدعوى ، والحجة الناصعة التي تدحض كل زعم ، والدليل الذي يمسح الريب باليقين ، وذلك كقوله تعالى : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) (٣) .

وقد أورد الله سبحانه هذا التمثيل بعد أن قرر أمر التوحيد من أول السور ، وندد بالذين اتخذوا من دون الله أولياء ، وبيّن الدلائل على هذا الشرك وذكر الجزاء الذي سينالونه (٤) . وإن المثل في القرآن يستمد أركانه من كوامن النفس البشرية ومن النواميس الطبيعية ، كما عرفنا .

مما تقدم نرى أن الأمثال تضرب لتقريب المراد وتفهيم المعنى وايصاله إلى ذهن السامع والمخاطب واحضاره في نفسه بصورة المثل الذي مثل به لأنه بهذه الكيفية قد يكون المعنى أقرب إلى تعلقه وفهمه وطبعه . ثم بما أن الإنسان يستأنس بالمحسوس ويألف بالأشياء والنظائر ، ولذا تستخدم الأشياء المحسوسة والأمور المألوفة لدى الناس في الأمثال لتقريب المراد وتوضيح المعاني الدقيقة ، وكشف الأستار عن المفاهيم السامية المطلوبة .

وقال السيوطي (٥) : (ضرب الأمثال في القرآن يُستفاد منه أمور كثيرة : التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره

- ١ (أسرار البلاغة / ٩٢ .
 ٢ (المرجع السابق / ١٠٤ .
 ٣ (الزمر / ٢٩ .
 ٤ (أسرار البلاغة / ٩٤ وانظر التصوير
 البياني ، الدكتور حفني شرف / ٧٢ .
 ٥ (الانتان ١٣١/٢ وانظر البرهان للزركشي .
 ٤٨٧ ، ٤٨٦/١ .

بصورة المحسوس ، فان الامثال تصور المعانى بصورة الاشخاص لانها اثبتت فى الاذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلي والغائب بالشاهد) .

ويبدو من آراء المستشرقين فى امثال القرآن ، انهم يعترفون ببلاغة اسلوب الامثال القرآنية ، ودقة تعبيرها ، وسمو معانيها ، الا انهم فى نفس الوقت يقولون ان بعضها كان قد اختلقها محمد ، وان بعضها الآخر قد تسرب الى القرآن من الامثال الانجيلية ، كما ان هناك بعض العبارات فى القرآن الكريم التى نقلت بحذافيرها كقوله تعالى : (لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) ، وهذا رأى جورج سيل فى ترجمته للقرآن الكريم تحت هذه الآية .

اى من المحتمل ان يكون هذا التعبير قد اخذ من كلمات منقذنا المسيح الواردة فى الانجيل (متى ٢٤/٩) ولو ان هذا المثل منتشر فى الشرق) . هذا وقد حاول بعض علماء اللاهوت إثبات منشأ هذا المثل فى اورشليم وقالوا كان هناك باب صغير ، يسمى (ثقب الإبرة) وكان يصعب على الجمل ان يمر من ذلك الباب . وهكذا نشأ المثل للاستحالة ، او لصعوبة الحدوث فى الامر - ولكن هذا الزعم لا يستند الى الحقيقة ، بل هو اختلاق ومحاولة مصطنعة .

اى ان الكاتب يتفق مع (بوست) على ان الباب المسمى ثقب الإبرة كلام مختلق .

أما القس سانت كليرتزد Rev. W. Saintclairtidell الذى ألف كتابا أسماه (ينابيع الاسلام) فقد كان مدفوعا بتعصبه الأعمى وجهله كثيرا من الحقائق ان يثبت للقرآن اصولا جاهلية وأخرى من التوراة والانجيل ، ويقول عن الآية (ومثلهم كزرع أخرج شطأه . . .) ان هذا المثل له شبيه فى الانجيل . وهذا ما ذهب اليه رتشارد بلفى (١) حيث أورد فصلا من امثال القرآن ، وذكر ان كثيرا من الامثال الإنجيلية تسربت الى القرآن وبعض الامثال القرآنية من صنع محمد .

التصوير بالكناية :

قامت الكناية فى الآيات الجهادية بنصبيها كاملا فى أداء المعانى وتصويرها خير أداء وتصوير ، وهى حيناً رأسمة مصورة موحية ، وحيناً مؤدية مهذبة ، تتجنب ما ينبو عن الأذن سماعه ، وحيناً موجزة تنقل المعنى وافيا فى لفظ قليل . ولا تستطيع الحقيقة ان تؤدى المعنى كما أدته الكناية ، فى المواضع التى وردت فيها الكناية القرآنية (٢) .

وقد ألف العرب فى أساليبهم ومنطقهم التصوير بالكناية ، ولكن القرآن حين يستخدم الكناية يرسم موقفا ، أو يجسم معنى على عادته فى التصوير ، وهو

١ (The Koran George Sale P. 108) Regis Blacher (Lecoran Regis)

٢ (وانظر دائرة المعارف الاسلاميية The origin of Islam. P. 11—115

٣ (من بلاغة القرآن ٢٢٦/٠) ورجى بلانسير

٢/١٠٦٦ ، ١٠٦٧ طبع سنة ١٩٢٧

بهذه الطريقة يسمو في القول سموا لا سبيل لأن يدركه البشر ، لأنه قبل أن يصور المعنى فكرة فإنه يصوره نفسا إنسانية انكشفت حالها لها واطلع على ما تخبئه من أسرار (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) (١) .
والقرآن لا ينف عند طرق القول البياني مفضلا طريقة على أخرى ، أو قاصدا إلى طريقة دون طريقة ، إنما هو يترك ذلك للمقام والمناسبة ، فإذا استدعت المناسبة الكناية لما لها من دقة فنية برز لها المعنى ، وتجسم الموقف .
والكناية عند أهل البيان تعد من البراعة والبلاغة ، وهي أبلغ من التصريح . والكناية عن الشيء باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورديفة في الوجود فيوميء به إليه ، ويجعله دليلا عليه ، فيدل على المراد من طريق أولى (٢) .

ومن أمثلة الكناية المصورة الموحية ، تصوير مشهد غزوة الأحزاب كاملا ، حيث برزت فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضرة ، والتقت فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية ، وكأنها الحادث معروض من جديد ، دون أن يغفل منه قليل ولا كثير : (يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) (٣) .

فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة ، أية سمة ظاهرة أو مضرة من سمات الموقف ، لم يبرزها هذا الشريط الدقيق المتحرك ، المساوي في حركته لحركة الموقف كله ؟ هؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان ، وهذه هي الأبصار زائغة والنفوس ضائعة وهؤلاء هم المؤمنون يزلزلون زلزالا شديدا . فهذا موقف تمتحن فيه قوة إيمان المؤمنين ، إذ جاءتهم جنود الباطل من فوقهم ومن أسفل منهم ، ونقضت بنو قريظة العهد والميثاق ، وانضمت إلى أعدائهم ، ونجم النفاق ، وحاول المنافقون تخذيل النفوس وإشاعة الهزيمة في الصفوف .

وقد رسمت الآيات الموقف فظل شاخصا بما فيه من حركة واضطراب نفسيين : (جاءتكم جنود) جمعهم الهوى والضلال لاستئصال شأفة المسلمين (فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) وهم جنود الله من ملائكة وريح (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) فالمسلمون بين فكي كماشة ، وأطبق عليهم أعداؤهم من كل جانب . وهو معنى كئابي يوحى بأن جموع المشركين كانت كالسيل العرم تطبق على المسلمين من فوق ومن أسفل ، حيث تزلزل الأرض من تحتهم ، وتفقدتهم ثباتهم ، ففتلاشي عزائمهم ، (وإذ زاغت الأبصار) معنى كئابي يبرز معنى الخوف والهول مجسما شاخصا . (وبلغت القلوب الحناجر) صورة كنائية تكمل ما قبلها ، فالقلوب هي الأخرى — وهي مركز الإحساس والشعور انخلمت من مكانها وترددت في الصدور حتى بلغت الحناجر ، تو شك أن تفارق الأجساد ، مما أصابها من شدة الحوادث ، وفادح التكبكات (وتظنون بالله

١ (غافر / ١٩)

٢ (البرهان في علوم القرآن ٢١٧/٢) (٣) الأحزاب / ٩ و ١٠ .

الظنونا) ، ولا بد أن يظن من كان هذا شأنه ، وتزلزل عقيدته ، ويذهب فى شأنها
مذاهب شتى إلا من عصم الله ، وهى كناية عن تشتت المشاعر وتفرق الأحاسيس
للشدة التى لا تتوقع معها النجاة ، (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا)
عصم الكرب ، وتوقعوا الموت من كل ناحية .

وتكمل ملامح الصورة ، وتتسق جزئياتها ، وتتجسم خطوطها ، بموقف
المنافقين ومن فى قلوبهم مرض ، وبين نادوا أهل يثرب ، لا مقام لكم فارجعوا ،
ويستأذن فريق منهم النبى ، فبم يستأذنون ؟ (إن بيوتنا عورة) أى مكشوفة تحتاج
إلى حراسة ، ويفضحهم الله ويكذب ادعاءهم (وما هى بعورة إن يريدون
إلا فرارا) ..

بهذه الكنايات الدقيقة المتوالية يبرز موقف ، ويخلد فى ملكات المسلمين
وأذهانهم على المدى ، لا يخلق ، ولا ينال منه القدم .
وهكذا لا تغلت فى الموقف حركة ولا سمة ، إلا وهى مسجلة ظاهرة ، كأنها
شاخصة حاضرة . تلك حادثة وقعت بالفعل ، ولكن صورتها ترسم (الهزيمة)
مطلقة شاخصة من كل ملبسة ، وما يزيد عليها أو ينقص منها إلا جزئيات فى
الوقائع ! أما الصورة النفسية فخالدة تتكرر فى كل زمان ومكان ، حيثما التقى
جمعان ، وتعرض أحدهما للخذلان ..

ويكشف عن مبالغة اليهود فى تشنيعهم على الله تعالى ، ومدى بجاحتهم
فى أن تكون يد الله مغلولة إلى عنقه كناية عن بخله ، واليد المغلولة هى التى
يتعذر معها الاعطاء لأن الغل ليس ماديا ، وإنما هو معقول ، يفيد لزوم الصفة
والتصاقها بالله . ومن هنا رد القرآن بكناية مقابلة أوسع
مدى من سابقتها (بل يدها مبسوطتان) فاليد هناك واحدة يحتتمل
أن تكون ثانيتها بريئة من الغل ، وهنا اليدان مبسوطتان بالجملة الاسمىة التى
تفيد الدوام والاستمرار ، وبالتثنية التى لا يصلح معها احتمال آخر غير احتمال
الكرم ، والمبالغة فى الجود والسخاء .

وقد مرَّ معنا السبب الذى من أجله تبجح اليهود هذا التبجح انه طلب منهم
الانفاق فى سبيل الله ، فقالوا وهم عبيد المادة فى كل زمان ومكان ، ان الإله
الذى يستقرض شيئا من عباده فقير ، (يده مغلولة) يتهمون بذلك ويتعللون فى
كف أيديهم عن الانفاق فى الدفاع عن المدينة حين تعرضت لغزو المشركين ،
ويقولون على الله سبحانه هذه المقالة الشنيعة ، وهو الغنى ، المبسوط اليد
بالعطاء ، ومن يكون هذا شأنه ، لا ينتظر منه إلا ان يزيده ما ينزل من القرآن
طنفينا وكفرا ، ثم ذكر انه التى بينهم العداوة إلى يوم القيامة بسبب تكالهم على
الدينا . وبهذه الكناية البديعة نقل القرآن الكريم المعنى مصورا مجسما
وقويا مؤثرا .

الأ ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق ، فيه تصوير
محسوس لهذه الخلقة الذمومة فى صورة قوية بفيضة منفرة ، فهذه اليد التى
غلت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد ، والتعبير بالبسط يصور لك صورة عطاء الله
تعالى التى لا تحدها حدود فيدها مبسوطتان بالليل والنهار يعطى من يشاء من
رزقه الذى ليس له من نفاد .

وبمثل هذه الدقة تتف كل كناية فى القرآن تتلمس للصورة خيوطها المتسقة
الظلال ، المتسقة الألوان ، المؤلفة العناصر ، لتكون بناء أى بناء .

ومن هذه النماذج المصورة للتعبير بالكناية تلك الصورة الهائلة المروعة التي رسمتها هذه الآية للمتناقضين في قوله تعالى (فكيف إذا توفَّتْهُم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) (١) .

وهو تصوير لتوفيتهم على أهول الوجوه وأفظعها وإبراز ما يخافون منه ويجنبون عن القتال لأجله مجسما مرئيا ، فإن ضرب الوجوه والأدبار في القتال والجهاد مما ينتقى .

ومنه قوله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) (٢) . والمعنى : لو رايت أو عاينت أو شاهدت وقت قبض الملائكة أرواح الكفار لرايت أمرا فظيما . (يضربون وجوههم وأدبارهم) قال مجاهد : يريد بالأدبار الإستاه ، ولكن الله كريم يكنى ، وفي تخصيص العضوين نوع من الخزي والنكال (٣) .

وقد استعملت الآيات الجهادية هذا التعبير في الحض على الجهاد والثبات وعدم التفكير في النكوص على الأعقاب والتولي بيوم الزحف . فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دُبُرَهُ إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم وبئس المصير) (٤) .

والمراد من تولية الأدبار الانهزام ، فإن المنهزم يولى ظهره من انهزم منه ، وعدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقبيحا للانهزام وتنفيرا منه ، وفيه تصوير للفرار بصورة بشعة تشمئز منها النفس ، وتستثير النخوة ، وتحفز الهمة . وكنى بالتحيز عن الهزيمة أيضا . ومنه قوله تعالى : (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا) (٥) . تشبيها على الذين يجنبون عن ملاقات العدو . وقوله تعالى : (لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يُولُوكم الأدبار ثم لا يُنصرون) (٦) تشبيها للمسلمين على قتالهم ، وتحقيرا لشأنهم . وقوله : (ولو قاتلكم الذين كفروا لُولُوا الأدبار . .) (٧) . وقوله (لنن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولنن مَوتُوا لا ينصرونهم ، ولنن نصروهم لَيُولن الأدبار ثم لا يُنصرون) (٨) ففي هذه الصورة المحترقة للأعداء والمُصفرة لشأنهم ، تشجيع للمسلمين على قتالهم والفيل منهم . .

ويسمى علماء البيان هذا الضرب من الكناية ترك اللفظ الى ما هو أجمل منه ومن الكنایات اللطيفة ، قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) (٩) . قيل الحذر ، مصدر الحذر ، وهو الاحتراز عما يخاف ، فهناك الكناية والتخيل بتشبيه الحذر بالسلاح وآلة الوقاية (١٠) . ومن التصوير بالكناية ، قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون

- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| ١ (محمد / ٢٧ . | ٦ (آل عمران / ١١١ . |
| ٢ (الأنفال / ٥٠ . | ٧ (الفتح / ٢٢ . |
| ٣ (غرائب القرآن ٩/١٠ . | ٨ (الحشر / ١٢ . |
| ٤ (الأنفال / ١٥ ، ١٦ . | ٩ (النساء / ٧١ . |
| ٥ (الأحزاب / ١٥ . | ١٠ (روح المعاني ١٢٢/٥ . |

الناس كخشية الله ، أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب ، قل متاع الحياة الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون غتيلا (١) . وبناء القول للمعمول ، مع أن القائل هو النبي عليه الصلاة والسلام ، لأن المقصود والمعتبر في التعجب المشار اليه في صدر الكلام ، إنما هو كمال رغبتهم في القتال ، وكونهم بحيث احتاجوا إلى النهي عنه ، وإنما ذكر في حيز الصلة ، الأمر بكف الأيدي لتحقيقه وتصويره بطريق الكناية (٢) .

ومن الكنايات اللطيفة قوله تعالى : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباعوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (٣) . فقلوه : (وباؤا بغضب من الله) ، أى رجعوا به ، وهو كناية عن استحقاقهم له ، واستجبابهم إياه فالمراد صاروا أحقاء بغضبه سبحانه ، والتنوين للتفخيم ، والوصف مؤكد لذلك (٤) .

ويقول تعالى مصورا عداوة اليهود الشديدة للمسلمين : (ها انتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا : آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) (٥) .

فقوله (عضوا عليكم الأنامل) وعض الأنامل عادة النادم العاجز ، ولهذا اشير إلى حال هؤلاء ، وليس المراد أن هناك عضاً بالفعل (من الغيظ) أى لأجل الغضب والحنق لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ، ونصرة الله تعالى إياهم ، بحيث عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلا إلى التشفى ، واضطروا إلى مداراتهم .

وهو خطاب لكل مؤمن ، وتحريض لهم على عداوتهم ، وحث على خطابهم خطاب الخصماء فانه لا أقطع للمحبة من جراحة اللسان .

والمراد بقوله (موتوا بغيظكم) الدعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله ، حتى يهلكوا به . وهو من كناية الكناية ، حيث عبر بدعاء موتهم بالغيظ ، عن ملزومه الذى هو دعاء ازدياد غيظهم إلى حين الهلاك ، وبه عن ملزومه الذى هو قوة الإسلام وعز اسمه وذلك لأن مجرد الموت بالغيظ أو ازدياده ، ليس مما يحسن أن يطلب أو يدعى به . (والله عليم بذات الصدور) وهو من تنمة القول . أى قل لهم : إن الله تعالى عليم بما هو أخفى ، مما تخفونه من عض الأنامل ، إذا خلوتهم فيجازى به (٦) .

ولا شك أن هذه الصورة تبرز عداوتهم واحتقادهم مجسمة شاخصة ، حتى ينفر المؤمنون من موالاتهم والتعامل معهم .

ومن الصور المجسمة التي ترسبها الكناية ، قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ هم قوم أو يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم ، واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٧) .

١ (النساء / ٧٧ .

٢ (روح المعاني / ١٢٢/٥ .

٣ (روح المعاني / ٢٤/٤ .

٤ (البقرة / ٦١ .

٥ (المائدة / ١١ .

٦ (روح المعاني / ٤٣/٤ .

إنه تعبير قرآني مصور في مقام : إذ هموا البطش بكم والاعتداء عليكم محاسنكم الله منهم . انها صورة وحركة بسط الأيدي وكفها أكثر حيوية من ذلك التعبير المعنوي الآخر . والتعبير القرآني يتبع طريقة الصورة والحركة ، لأن هذه الطريقة تطلق الشحنة الكاملة في التعبير ، كما لو كان هذا التعبير يطلق للمرة الأولى ، مصاحبا للواقعة الحسية التي يعبر عنها . مبرز لها في صورتها الحية المتحركة . وتلك طريقة القرآن في التعبير والتصوير .

ومن أقسام الكناية التي تتدرج تحت مفهومها ، التعريض والتلويح ، وأما التعريض ، فقيل : إنه للدلالة على المعنى من طريق المفهوم ، وسمى تعريضا لأن المعنى باعتباره يفهم من عرض اللفظ ، أي من جانبها ، ويسمى التلويح ، لأن المتكلم يلوح للسامع ما يريد .

ومن ذلك أن يخاطب الشخص والمراد غيره ، سواء أكان الخطاب مع نفسه ، أو غيره كقوله تعالى : (لئن أشركت ليحبطننَّ عملك ، ولتكوننَّ من الخاسرين) (١) . وقوله : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير) (٢) . وقوله : (فإن زللتنَّ من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم) (٣) . تعريضا بأن قومه أشركوا واتبعوا أهواءهم ، وزلوا فيها مضي من الزمان ، لأن الرسول لم يقع منه ذلك ، فأبرز غير الحاصل في معرض الحاصل ادعاء . وقوله تعالى : (فإن زللتنَّ ...) الخطاب للمؤمنين والتعريض لأهل الكتاب ، لأن الزلل لهم لا للمؤمنين ..

ووجه حسنه ظاهر لأنه يتضمن إعلام السامع على صورة لا تقتضى مواجهته بالخطاب المنكر ، كأنك لم تعنه ، وهو أعلى في محاسن الأخلاق وأقرب للقبول ، وأدعى للتواضع (٤) . وقال قدامة بن جعفر (٥) : أما اللحن فهو التعريض بالشيء من غير تصريح ، أو الكناية عنه بغيره كما قال تعالى : (ولو نشاء لأريناكنهم فلعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم) (٦) . والعرب تفعل ذلك لوجوه . وهي تستعمله في أوقات ومواطن فمن ذلك ما استعملوه للتعظيم ، أو للتخفيف ، أو للاستحياء ، أو البتيا ، أو للانصاف أو للاحتراس . أما التعريض للبتيا فمثل تعريض الله عز وجل بأوصاف المنافقين وأمساكه عن تسميتهم إبقاء عليهم وتألفا لهم .

أما التعريض للاحتراس . فهو ترك مواجهة السفهاء والإنذار بما يكرهون وإن كانوا لذلك مستحقين ، خوفا من بؤادهم وتسرعهم ، وإدخال ذلك عليهم بالتعريض والكلام اللين . وفي ذلك يقول عز وجل (ولا تستبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زيننا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) (٧) .

ومن هذه النماذج القرآنية التي ذكرناها ومن كثير غيرها مما هو مبثوث في

- | | |
|---|---|
| ١ (الزمر / ٦٥ . | الدكتور طه حسين والدكتور عبد الحميد العبادي . |
| ٢ (البقرة / ١٢٠ ، ١٤٥ الرعد / ٢٧ . | |
| ٣ (البقرة / ٢٠٩ . | ٦ (محمد / ٣٠ . |
| ٤ (البرهان للزركشي ٢ / ٢١١ - ٢١٢ . | ٧ (الأقسام / ١٠٨ . |
| ٥ (نقد النثر / ٥٠ لقدامة بن جعفر تحقيق | |

تضاعيف القرآن ندرك الملامح الفنية الأصيلة للتعبير والتصوير بالكفاية أو التمرىض .

ومن أسباب بلاغة الأسلوب الكنائى أنه يضع لك المعانى فى صور المحسوسات ، ولا شك أن هذه ميزة الفنون ، فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو لليأس بهرك ، وجعلك ترى ماكنت تعجز عن التعبير عنه واضحا ملموسا وذلك لأن المعانى الكلية مستنتجة من الجزئيات المحسوسة ، ومجردة عنها ، وهذه المعانى المجردة لا يدركها العقل واضحة إلا إذا صور لنفسه محسوسات جزئية تكفى عنده لانتزاع صورة مجردة عنها ، وإلا فلا يتصور من اللفظة الموضوعة لها إلا صورة إجمالية خفية جدا ، ثم هو لا يتأثر عند سماعها إلا بمساعدة انفعال يصاحب صورتها المجملة ، ويقترن بها أحيانا (١) .

فكل من من الفنون الجميلة لا بد أن يضم فى كيانه قدرا من المعطيات المحجبة وراء ظلاله ، والمتخفية خلف ستوره . فهكذا شأن الفن دائما . لاتجىء معطياته كلها مجردة عارية تنالها كل عين ، ويستولى عليها كل نظر ! وهذا الجانب المتخفى من العمل الفنى هو فى الواقع منطقة رمزية ، تنطلق منها رموز وإشارات ، وهى كلمة السر بين الفن وأهله يعرفون مدلولها ، ويترجمون منطوقها . أما عند غيرهم فهى شىء . . لا شىء وراءه !!

والكناية فى القرآن من أساليب التخفى والرمز ، ذلك الأسلوب الذى يثير الخيال ، ويحرك الوجدان ، ويشوق النفس إلى تتبع آثار الحقيقة الغائبة التى يتخذ من هذا الحضور اللفظى دليلا عليها . فإذا قطعت النفس هذه المرحلة ثم التقت بتلك الحقيقة الغائبة استقبلتها استقبال الحبيب الذى عاد بعد غيبته ، ورد بعد غربته ! فنقر برؤيته العين ، ويثلج بقلائه القلب (٢) .



ومن تمام القول فى طريقة الآيات الجهادية التصويرية أن نتحدث عن السمات البارزة لهذا التصوير . فإذا قلنا أن الآيات الجهادية ترسم صوراً وتعرض مشاهد ، فينبغى أن نقول : إن هذه المشاهد وتلك الصور ، يتوافر لها أدق مظاهر التناسق الفنى فى ماء الصورة ، وجو المشهد ، وتقسيم الأجزاء ، وتوزيعها فى الرقعة المعروضة .

وقد معنا الى شىء من هذا فى هذا الفصل عند استعراض صورة السذى ينفق ماله رثاء الناس وصورة الصفوان عليه تراب ، مع صورة الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وصورة الجنة فوق الرىوة ، وما بين هذه الصور جميعا من توازن بين الأجزاء وتقابل فى الأوضاع . هذا النوع من التناسق ، هو مفتاح الطريق الى التناسق السذى نعينه هنا بالذات :

أولا : ما يسمى (بوحدة الرسم) أن القواعد الأولية للرسم تحتم أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصورة فلا تتنافر جزئياتها .

١ (التصوير البيانى / ٢٦٦ د . حنى شرف . ٢) إعجاز القرآن ٢/ ٢٥٤ عبد الكريم الخطيب

ثانيا : توزيع أجزاء الصورة — بعد تناسبها — على الرقعة بنسب معينة حتى لا يزحم بعضها بعضا ، ولا تفقد تناسبها في مجموعها .
 وثالثا : اللون الذي ترسم به ، والتدرج في الظلال ، بما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع والتصوير بالالوان يلاحظ هذا التناسق كما يلاحظه (التوزيع) في المشاهد المسرحية والسينمائية والتصوير في القرآن يقوم على أساسه ، وإن كانت وسيلته الوحيدة هي الألفاظ وبذلك يسمو الإعجاز فيه على تلك المحاولات .

ودلالة هذا التوزيع حاسمة في أن التصوير عنصر أساسى فى أسلوب الآيات الجهادية ، وأن التعبير لا ينتهى إلى اداء المعنى مجردا ، وإنما ينبض بطبيعته بصور حية للمعاني ، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة ، حسب اختلافات الأجزاء والالوان . إلا أن الإبداع هنا فى وحدة الأجزاء ودقة التصوير وتناسق الإخراج ، ومثل هذه اللمسات الدقيقة التى تستوعب دقائق الجزئيات كثيرا فى الآيات الجهادية ، اكتفى منه بما قدمت من أمثلة ، وأضيف إليها هذا المثال التالى لما له من دلالة خاصة : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث ، فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤته أجرا عظيما) (١) .

فالصورة صورة مبايعة بالأيدي ، ولتنسيق الجو كله ، جعل (يد الله فوق أيديهم) . واستخدم هذا التجسيم فى موضع التجريد المطلق ، والتنزيه الخالص . وعلماء البلاغة يسمون مثل هذا : (مراعاة النظر) يعنون منه الجانب اللفظى ، لأنهم لم يحاولوا أن يلاحظوا جانب التصوير ، ونحن نأخذ تعبيرهم نفسه (مراعاة النظر) ونعنى به جانب التناسق الفنى فى الصورة ، للمحافظة على وحدة الرسم ، وعلى جو المشهد ، وعلى الانسجام العام .
 ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق التناسق الفنى ، فى التصوير القرآنى : ان التناسق الى هنا كان فى الصورة أو المشهد ، وكان على أتمه ، وأوفاه فى الجزئيات وفى الجو العام ولكن الإبداع المعجز لا يقف هنا . انه بعض الاحيان يضع اطارا للصورة ، او نطاقا للمشهد ، فيتسق الاطار والنطاق مع الصورة والمشهد ، ثم يطلق من حولها الايقاع الموسيقى الذى يناسب هذا كله ، فيبلغ من ذلك ما يعبر عنه هذا النموذج .

(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى مِهدكم بآلف من الملائكة مُردين . وما جعله الله إلا بُشْرَى ولتطمئننَّ به قلوبكم ، وما النَّصْرُ إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يَعْتَسِبُكُمْ النَّعَاسُ أمانةً منه وَيُنزِلُ عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رِجْسَ الشيطان ، وَلِيَرْبِطَ على قلوبكم ، ويثبتَّ به الاقدام) (٢) .

لقد خلق التعبير جوا من الحنان اللطيف ، والرحمة الوديعه ، والشجى لشفيف ، كل ذلك يتسرب من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذه الموسيقى السارية فى التعبير ، الموسيقى الرتيبة الحركات ، الوئيدة لخطوات ، الرقيقة الأصداء ، الشجية الايقاع . فلما أراد اطارا لهذا الحنان

اللطيف . جعل الاطار من غشيان النعاس ونزول المطر ، فتلثم ألوان الصورة مع ألوان الاطار ويتم التناسق والاتساق .

والملاحظ أننا هنا امام لمسة من لمسات التصوير العريضة التي تجمع بين السماء والأرض في نظام ، وبين مشاهد الطبيعة ومشاهد الحياة في سياق ، حيث تتسع رقعة الصورة لهذا كله على أساس من الوحدة الكبيرة بدل الوحدة الصغيرة . لأن القرآن لا يستخدم في التصوير اللمسات الدقيقة وحدها ، وإنما يستخدم كذلك اللمسات العريضة . .

وعلى الصفحة المقابلة نرى اطارا آخر لصورة تقابل هذه الصورة ، ونستمع إلى موسيقى أخرى مختلفة تمام الاختلاف (والعاديات ضبحا . فالوريات قدحا . فالغيرات صباحا . فأثرن به نقما . فوسطن به جمعا . .) (١) إن الموسيقى شديدة عنيفة ، وفيها خشونة ودمدمة وفرقعة . وهي تناسب الجو الصاخب المعفر الذي يشبه القبور المبعثرة ، والصدور المحصل ما فيها بقوة ، وجو الجحود وشدة الأثرة . فكان ذلك اطارا مناسباً للجو الصاخب المعفر الذي تثيره خيل الغزاة الصاخبة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للغبار ، فكان الاطار من الصورة والصورة من الاطار ، لدقة التنسيق وجمال الاختيار . وذلك من بدائع التناسق بلا جدال .

ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق التناسق الفني في الآيات الجهادية . فالتصوير الفني حين ينتهي من تناسق الألوان والأجزاء في الصورة أو المشهد ، وحين يطلق حولها الموسيقى المكملة للجو ، لا ينتهي عند هذه الآفاق في تناسق الإخراج ، إن هناك خطوة وراء هذا كله ، ضرورة للتناسق وضرورة لتأثير المشهد ، ولكمال الفني فيه ، تلك هي المدة المقررة لبقاء المشهد معروضاً على الأنظار في الخيال . والتناسق القرآني يلحظ هذا ويؤديه أرفع أداء . فبعض المشاهد يمر مر سريعاً خاطفاً ، يكاد يخطف البصر لسرعته ، ويكاد الخيال نفسه يلاحظه . وبعض المشاهد يطول ويطول حتى ليخيل للمرء في بعض الأحيان أنه لن يزول . وبعض هذه المشاهد الطويلة حافل بالحركة ، وبعضها شاخص لا يريم ، وكل أولئك ليطم تحقيقاً لغرض خاص ، في المشهد يتسق مع الغرض العام للقرآن ويتم فيه التناسق في الإخراج أبدع التمام (٢) .

وللقصر وسائل مختلفة ، وللطول وسائل شتى ، يؤدي كل منها الغرض ، ويناسب جو المشهد ، وهذه خطوة أخرى في ذلك الأفق الجديد .

— يريد أن يصور للناس قصر هذه الحياة الدنيا التي تلهيهم عن الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس فيخرج القصر في هذه الصورة (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلفت به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً) (٣) .

وانتهى شريط الحياة الدنيا كله في هذه الجمل القصار ، وفي هذه المشاهد الثلاثة المتتابعة (ماء أنزلناه من السماء) و (اختلفت به نبات الأرض) و (أصبح هشيماً تذروه الرياح) لقد اجتمعت لهذا التعبير كل عناصر الصدق والدقة والجمال : الصدق في عرض أطوار النبات ، فلم ينقص شيئاً منها لتحقيق الغرض

١ (العاديات : ١ - ٥ .

٢ (التصوير الفني في القرآن .

الدينى . والدقة لانه حقق غرض الصور كاملا . والجمال لأن سرعتها الخاطفة مما ينشط له الخيال ..

وقد استخدم النسق اللفظى فى تقصير عرض المشهد . كما استخدمت وسائل العرض الفنية بهذا الغرض . فهذا التعميق الذى تمثله هذه الفاء فى تتابع المراحل ، يتفق مع طريقة العرض السريعة . ثم هذا الماء النازل لا تختلط به الأرض فتنبت ، بل يختلط به نبات الأرض مباشرة . وهذه حقيقة ، ولكنها حقيقة تعرض فى الوضع الخاص الذى يحقق السرعة المطلوبة ..

ومثل هذا النص نص آخر فى المعنى والاتجاه ، ولكنه يختلف فى حلقة منه ، لىؤدى غرضا آخر مع هذا الغرض السابق : (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (١) .

فالصورة المعروضة لقصر الحياة متحدة تقريبا مع الصورة الأولى ، ولعل هذا يُخيل للبعض أن هناك تكرارا كاملا ، ولكن الواقع أن هناك اختلافا دقيقا .. إنه أطال عرض شريط الحياة الدنيا — كما يراه الكفار — فهى لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد . ليقول إن هذا الذى تعجبون به كله ، وهذا الذى تستطيرون أمده ، انما هو فى حقيقته قصير زائل ، كذلك الغيث الذى يعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا وذلك من دقائق الصور المكررة فى القرآن . وفى كل تكرار صورة تختلف اختلافا يسيرا أو كبيرا ، وتنفى وهم التكرار بلا قصد إلا التكرار ، وإن يكن للتكرار غرضه فى صدر الدعوة ، ولكنه مع هذا يسير مع الجمال الفنى بالتنوع الدقيق الملحوظ ..

وفى المثالين السابقين كان الاختصار بحذف المراحل الثانوية . فهذا مثال آخر يعرض قصر الحياة على النحو نفسه ، مع زيادة فى الاختصار فيمسك بطرفى الحياة ويجمعها فى ومضة خاطفة . ولكنه فى الوقت ذاته يخيل هيئة الطول فيما بين الطرفين : (الهاكم التكاثر ... حتى زرم المقابر) فهذه الصورة من جانب قصر الحياة فما كادت تبدأ بالتكاثر حتى انتهت بالمقابر — وذلك أقصر ما تصور به فترة الحياة . فى اللفظ والخيال — ولكنها من طرف خفى ، قد عرضت امتداد اللهو طول الحياة من مبدئها الى منتهائها ، وساعدت كلمة (حتى) على بروز الامتداد ، فخليلت للنفس أن هؤلاء القوم لجوا فى اللهو أمدا طويلا وذلك من عجائب التخيل ، ففرض قصر الحياة ، وغرض طول اللهو فيها ، كلاهما مقصور وكلاهما تحقق فى هذا النص القصير .

ومن المشاهد التى يطول عرضها — أحيانا مشاهد العذاب فى يوم القيامة . فبعد تشخيص المشهد كأنه حاضر وتنسيق أجزائه كأنه مشهود ، يطول عرضه ليلبس الحس ويوقظ الخيال ، ويتسرب الخوف والتأثر الى اعماق النفس وقرارة الوجدان .

ولنتأمل هذا المشهد المطول للذين يبخلون عن الإنفاق فى سبيل الله (يأبها الذين آمنوا إن كثيرا من الأعبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله

فبشرهم بعذاب اليم . يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون) (١) .

فهو — أولا — اجمل العذاب : (فبشرهم بعذاب اليم) وقطع السياق ، ليستريح المشاهد ، ويأخذ نفسه ويستعد للتفصيل ، ثم أخذ في التفصيل وهو ثانيا — حينما بدأ التفصيل بعد الاجمال ، بدأ العملية من أول مرحلة ، وعلى مهل . فالذهب والفضة قد صاروا جمعا لا مثنى ، بالاماع الى قطعها الكثيرة وفي هذا تطويل بالكثرة : (يوم يحمى عليها) — لا عليها — ثم ها هي ذى (يحمى عليها) فلننظر حتى تصهر لقد صهرت فلتبدأ العملية الرهيبة : هذه هي الجباه تكوى .. لقد فرغوا من الكى في الجباه .. فلتحرك الأجسام للجنوب ، وها هي الجنوب تكوى .. لقد فرغوا من الكى في الجنوب .. فلتحرك الأجسام للظهور فتكوى الظهور .. ومع ذلك لم ينته العرض بعد .. هناك التقريع والتأنيب عند الانصراف المتخيل ليتناول العذاب جماعة أخرى من الصف الطويل (هذا ما كنتم كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون) .

وهكذا تتكشف للناظر في الآيات الجهادية آفاق وراء آفاق ، من التناسق والاتساق فمن نظم فصيح . إلى سرد عذب إلى معنى مترابط . إلى نسق متسلسل . إلى لفظ معبر إلى تعبير مصور . إلى تصوير مشخص . إلى تخييل مجسم . إلى موسيقى منغمة . إلى اتساق في الأجزاء .. إلى تناسق في الاطار . إلى توافق في الموسيقى . إلى تفنن في الاخراج . وبهذا كله يتم الابداع ، ويتحقق الإعجاز .

هذا ، ويتضح لنا جليا أن طريقة التعبير الأساسية في الآيات الجهادية هي التصوير الفني ، فقد عبرت الآيات بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الانساني ، والطبيعة البشرية . ثم ارتفعت بالصورة التي رسمتها فمُنحتها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فلذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد وإذا النماذج الانسانية ، والحوادث الطبيعية شاخصة حاضرة فيها الحياة والحركة .

اولا : تصوير المشاهد :

وبهذه الطريقة تناولت الآيات الجهادية مشاهد السرايا والغزوات ، فاذا بعضها ملاحم رائعة ، وبعضها مناظر شاخصة ، وبعضها صور وظلال . ومشاهد الغزوات في الآيات الجهادية من أبرز مواطن التصوير فيها ، وهي التي تنطبق عليها — بصفة خاصة — جميع السمات في الصور البيانية القرآنية .

فتلك المشاهد — كما رأينا — لم تعد موصوفة فحسب بل عادات مصورة محسوسة ، وحية متحركة ، وبارزة شاخصة ، وعاش المسلمون مع هذه المشاهد عيشة كاملة ، رأوها ، وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، وزلزلت

اقدامهم تارة ، وسرى فى النفوس الهلع والفرع مرة ، وعاودهم الاطمئنان والسكينة أخرى .

لقد رسمت هذه المشاهد فى صور فنية شتى ، تتماها النفس ، ويتابعها الخيال ، ويستغرق فيها الحس ، وتترأى فيها الظلال .

وتجمع هذه المشاهد سمة واحدة شاملة : انها مشاهد حية ، منتزعة من عالم الأحياء لا ألوان مجردة ، ولا خطوط جامدة ، مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات ، والخواطر والخلجات ، وترسم المواقف وهى تتفاعل فى نفوس آدمية حية ، أو فى شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة .

وسمة أخرى أصيلة فى هذه المشاهد جميعا : انها حاضرة اليوم تراها العين ، وتسمعها الأذن وتحسها النفس ، والفارق بين تلك المشاهد الماضية فارق قريب ، بل لا فارق هناك فى بعض الأحيان ، فالمشاهد كلها حاضرة شاخصة . وتلك سمة تحيها فى النفس ، وتقوى أثرها فى الحس .

وسمة أخرى فى هذه المشاهد جميعا ، تلك هى سمة التناسق — وهو تناسق يتجلى أولا فى جزئيات المشهد ، فتبدو هذه الجزئيات منسقة ، وبين بعضها والبعض لون من التماثل أو التشابه أو التداعى أو التقابل ، ولكنها من جو واحد لا نشوز فيه ولا مفارقات . ويتجلى ثانية فى جرس الألفاظ ليبدل هذا الجرس على صورة معناه فى بعض الأحيان ، وليؤلف مع بقية الألفاظ ايقاعا يناسب جو المشهد فى جميع الأحيان ، فلذا الموسيقى الصاخبة للمشهد تكمل جوه ، وتتناسب أحاسيسه ، وتشتترك مع الألفاظ فى تصوير الغرض العام . ويتجلى ثانيا فى اتساق المشهد كله بألفاظه ومعانيه وجرسه وايقاعه ، مع السياق الذى يعرض فيه .

وقد قصدت الآيات الجهادية من استعراض مشاهد الغزوات وتصويرها إلى تربية المسلمين الأولين والآخرين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين بالقرآن تربية عملية ، وإعدادهم إعدادا سليما لتحمل تبعات نشر الدعوة الإسلامية ، فى شتى بقاع الأرض ، فكثر ما يذكر التعقيب الآلهى بعد عرض المشهد أو الحدث التاريخى ، ويربط السياق القرآنى بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية ، فى مجال حى من الواقع ، ولا ينعزل بالحقائق المجردة فى الذهن . فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر فى المشاعر ولا تستجيش القلوب للاستجابة . وهذا فرق بين منهج القرآن فى خطاب القلوب ، وتربية النفوس ، وبين منهج الفلاسفة والدارسين والباحثين .

فمن هنا نرى ان تصوير المشاهد الجهادية كان لغرض دينى ، وللعظة والاعتبار ، والتدبر والتفكير ، لا للسرد التاريخى ، والحادث القصصى ، ولكنها تتصل بالوجدان الدينى عن طريق الوجدان الفنى .

ولهذا نجد الآيات الجهادية تصور مشاهد الغزوات تصويراً مطولا فى بعض الأحيان حتى نستطيع القول ، انه لم يترك من جزئيات الغزوة شيئا ، وتشير إلى بعضها مجرد إشارة عابرة سريعة . فلو كان الغرض سرد الوقائع الجهادية سرداً تاريخياً ، لم نجد هذا التفاوت الكبير بين تصوير مشهد ومشهد .

ومن أمثلة المشاهد الطويلة التى تكاد تكون ملاحم ، إذ حفلت بسرد الوقائع سرداً تفصيلياً ، غزوة بدر وأحد والأحزاب وتبوك ..

وأما الغزوات التي اشارت إليها الآيات إشارة كومض البرق فهي : غزوة بنى قينقاع ، وبنى النضير وبنى قريظة وخيبر ، وحنين وفتح مكة .. الخ . وسواء في عرض المشاهد الطويلة أو القصيرة ، ستجد التعقيب الإلهي على الأحداث ، مقررا للمنهج القرآني في انشاء القيم الثابتة التي يقررها للحياة ، من خلال ما وقع فعلا ، وما جاش في الاخلاص والضمائر وطريقة القرآن الدائمة في مثل هذه الوقائع التي يتخذ منها وسيلة لبناء النفوس ، وتقدير القيم ، ووضع الموازين وانشاء التصورات التي يزيد لها أن تسود .. طريقة القرآن في مثل هذه الوقائع أن يرسم الحركة التي وقعت ، ويرسم معها الشاعر الظاهرة والباطنة ، ويسلط عليها الأضواء التي تكشف زواياها وخباياها . ثم يقول للمؤمنين حكمة ما وقع ، ونقده لما فيه من خطأ وانحراف ، وثناءه على ما فيه من صواب واستقامة ، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف . وتنمية الصواب والاستقامة . وربط هذا كله بقدر الله وإرادته وعمله ومنهجه المستقيم ، وبفطرة النفس ونواميس الوجود . والأمثلة على ذلك الآيات الجهادية جميعها ..

ثانيا : تصوير النماذج الإنسانية :

رسمت الآيات الجهادية عشرات من النماذج البشرية في سهولة ويسر واختصار ، فما هي إلا جملة أو جملتان حتى يرسم النموذج الإنساني شاخصا من خلال اللمسات ، وينتفض مخلوقا حيا خالد السمات . تارة تكون هذه النماذج صورة للجنس الإنساني كله ، وتارة تكون صورة لأفراد منه ، وهي في كلتا الحالتين نماذج أصيلة ، لا يخطئها الإنسان في كل مجتمع ، وفي كل جيل . ولقد جاءت هذه الآيات لمناسبات خاصة ، ولرسم نماذج شخصية واقعة ، ولكن المعجزة الفنية في التصوير ، جعلت هذه النماذج تتخطى الزمان والمكان ، وتتجاوز القرون والأجيال . ونحن نستعرض هنا بعض هذه النماذج استعراضا سريعا - على طريقة عرضها في الآيات الجهادية - وقد أسلفنا بعضا منها بالتفصيل في فصول الرسالة ، ومكانها في الواقع كان هناك ، فما هي إلا لمسات الريشة المبدعة في التصوير .

(١) من النماذج الإنسانية التي تصور الجنس الإنساني كله : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضره) (١) . يجتمع لهذا النموذج كل عناصر الصدق النفسي ، والتناسق الفني ، فالإنسان هكذا حقاً : حين يمس الضر ، وتتعطل فيه دفعة الحياة ، يتلفت إلى الخلف . ويتذكر القوى الكبرى ، ويلجأ عندئذ إليها ، فإذا انكشف الضر ، وزالت عوائق الحياة ، وانطلقت الحيوية ، الدافقة في كيانه ، وهاجت دواعي الحياة فيه ، فلبى دعاؤها

١ (يونس/١٢ ، الروم/٣٣ ، الزمر/٨ ، ٤٩ ، يونس/٢١ ، الأنبياء/٤٦ ، النحل/٥٣ .

المستجاب و (مر) كان لم يكن بالأمس شيء ! واما التناسق الفنى فيها فهو فى تلك الاطالة فى صور الدعوة عند الضر (دعا لجنبه أو قائما أو قاعدا) ثم فى ذلك الاسراع عند كشف الضر (مر كان لم يدعنا إلى ضر مسه) .

إن هاتين الصورتين تمثلان بالضبط وقوف التيار عن الجريان أمام الحاجز القوى ، فقد يطول هذا الوقوف ويطول ، فإذا فتح الحاجز تدفق التيار فى سرعة ، و (مر) كأنه لم يقف قبل أصلا .
يرسم هذا النموذج مرات كثيرة فى القرآن ، ولكنه يرسم من جوانب مختلفة تلتقى عند النقطة الأساسية ، ثم تسير فى طرائق شتى .

وهكذا يصور هذا النموذج الانسانى المتكرر من زوايا النفس الانسانية الكثيرة ، ومن ملابس حياتته المتعارضة . وكلها تلتقى فى النهاية عند الحقيقة النفسية الكبرى الانسان فى قوته — على اختلاف مظاهرها والوانها — مندفع إلى الأمام — مغتر بالقوة مستجيب للحوية — بشتى طرائق الاستجابة — حتى يوجد الحاجز على اختلاف أنواع الحواجز . فينظر إلى الخلف نظرات متباينة .

(٢) ومن النماذج الانسانية الخاصة : ذلك المخلوق الضعيف العقيدة يتمسك بعقيدته ما ناله الخير منها ، فإذا أذى فيها تزعزع وحاد عنها ، مثاله : (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمان به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة) (١) .

ومثله مع شيء من التحوير (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله لئن جاء نصر من ربك ليقولن ، إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) (٢) .

(٣) وكمن من النماذج إذا رأيتها تتلو قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وأن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة) (٣) إنها لصورة بارعة لمن طمس الله على قلبه بالنفاق .

وقد رسمت الآيات الجهادية نماذج متكررة للمنافقين الذين يعيشون بين صفوف المجتمع فى كل زمان ومكان . وإذا ما رأيتهم تتذكر تلك الصور التى رسمها الله تعالى لهم . فمن ذلك هذا النموذج الذى يأكل على كل الموائد (الذين يتربصون بكم فإن كان فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب ، قالوا : لم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) (٤) وقوله تعالى (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله ، فلن تجد له سبيلا) (٥) .

والذين يتباطئون عن البذل والتضحية فى سبيل الله فى ساعة العسرة ، فإذا أصيب الباذلون بالشر حمدوا لأنفسهم حصافتهم ، وإن أصابوا خيرا جزاء جهادهم ندموا وودوا لو كانوا معهم . قال تعالى (وإن منكم لمن ليبطئن فإن

٤ (النساء/ ١٤١)

٥ (النساء/ ١٤٣)

١ (الحج/ ١١)

٢ (العنكبوت/ ١٠)

٣ (المنافقون/ ٤)

أصابكم مصيبة ، قال : قد أنعم الله على إذ لم يكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولنَّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودةٌ يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً (١) .

ومنهم نموذج يجتمع فيه الخداع والغفلة ، ويظن نفسه اريباً ، وحشو جلده تغفيل ، وانه ليعمل العمل يظنه يؤدى به غيره ، وهو لا يؤدى إلا نفسه (ومن الناس من يقول : آما بالله وباللوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) (٢) .
ومنهم ذلك الصنف الذى نجده فى كل مكان ، فى غطرسة وتبجح وغفلة (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون) (٣) .

وجماعة منهم يختلف باطنهم عن ظاهرهم ، حتى لكأنما شخصان فى شخص (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو الكذِّبُ الخِصَامُ . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحبُّ الفساد) (٤) .

وفى مقابل هذه النماذج الخبيثة التى تتكرر صورها وأشكالها فى كل مجتمع وفى كل زمان ومكان . هناك نماذج طيبة خيرة شجاعة كريمة باذلة صابرة .
من هؤلاء : (الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (٥) .

ومنهم (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) (٦) .
ومنهم : (الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) (٧) . وقوله :

(الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) (٨) .
وكذلك الذين تال الله تعالى فيهم (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة) (٩) .
هذه النماذج التى أتينا بها هكذا ، متناثرة بغير ترتيب تناثرها فى أطواء المجتمع فى كل زمان ومكان . وقد صورها التعبير القرآنى شاخصة ، لا تخطئها العين فى هذه البشرية المتشابهة على مر الأزمان .

ثالثاً : التقريرية او (الصدق الفنى) :

إن الواقعية سمة من السمات الأصلية للدعوة الإسلامية ، كما هى أيضا سمة فنية بارزة فى الآيات الجهادية . فقد رأينا فى فصول الرسالة أن الآيات الجهادية قد وضعت تقريراً دقيقاً شاملاً للمجتمع المسلم منذ نشأته الأولى فى

- | | |
|--------------------------|---------------------|
| ١ (النساء / ٧١ ، ٧٢ . | ٦ (البقرة / ٢٧٣ . |
| ٢ (البقرة / ٨ ، ٩ . | ٧ (البقرة / ١٧٧ . |
| ٣ (البقرة / ١١ ، ١٢ . | ٨ (آل عمران / ١٧ . |
| ٤ (البقرة / ٢٠٤ ، ٢٠٥ . | ٩ (الحشر / ٩ . |
| ٥ (آل عمران / ١٧٣ . | |

مكة ، من رسول الله والفئة القليلة التي آمنت بما جاء به من عند الله ، وصدقته . واعطته موثيقها على السمع والطاعة ، ثم صورت الآيات نمو تلك الجماعة وترعرعها ، وتعهد الله تعالى لها حتى قويت واشتد عودها . كما صورتها هذه الآية الكريمة (محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، بسياهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطاه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراع ليغيب بهم الكفار . .) (١)

ثم صنفت الآيات الجهادية طبقات المجتمع مسلمين وغير مسلمين تصنيفاً كاملاً ، تدو فيه الفوارق واضحة بين طبيعة الصف المسلم وغير المسلم ، وبين المسلمين أنفسهم في مواقفهم من الحركة الجهادية بأموالهم وأنفسهم . فقد افتتح الله تعالى سورة البقرة أول ما نزل من القرآن المدني بذكر الذين اخلصوا دينهم لله ، وأوطأت فيه قلوبهم والسننهم ، ووافق سرهم علمهم وفعلهم قولهم . ثم ثنى بالذين كفروا ظاهراً وباطناً ، قلوباً والسنة . ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وابتغوا خلاف ما اظهروا ، وهم المنافقون ، وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله . قال تعالى (ألم يعلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون . إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم . ومن الناس من يقول : آمنا بالله وبالْيَوْمِ الآخِرِ وما هم بمؤمنين . .) (٢) وبهذه الآيات البينات ميز سبحانه بين أفراد المجتمع المدني آنذاك فهم : مؤمنون ، ومشركون ، ومنافقون . وقد صنفت الآيات الجهادية المسلمين أنفسهم تصنيفاً يعبر من دون ريب عن حالتهم وتفاوتهم في الإيمان والأخلاق ، ومواقفهم من الجهاد في سبيل الله .

والآيات الأولى من سورة البقرة — التي ذكرناها آنفاً — قد احتوت صورة مشرقة للمؤمنين المخلصين ، وعبق إيمانهم ، وشعورهم بواجباتهم ، ومع أنها وصف عام محبب لمن يتصف بهذه الصفات ، إلا أننا نعتقد أنها صورة واقعية للصف الأول من المسلمين في العهد المدني . وقد وصفت الآيات التالية هذه الفئة المؤمنة المخلصة وصفا محبباً وأثنت عليهم ثناء عظيماً ، إذ أنها تلتقى ما يحل بها في سبيل الله بالرضاء والصبر والتسليم (وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) (٣) .

وفي السورة نفسها الآية التالية : (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رعوف بالعباد) (٤) فقد تضمنت صورة واقعية لفئة مخلصة تباع نفسها في سبيل مرضاة الله .

٣ (البقرة / ١٥٥ — ١٥٧ .

٤ (البقرة / ٢٠٧ .

١ (الفتح / ٢٩ .

٢ (البقرة / ١ — ٨ .

وفى السورة نفسها (للفقراء الذين أُحْصِرُوا فى سبيلِ الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض بحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية ، فلم أجربهم عن ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (١) .

وقد احتوت الآيات صورة لهذه الفئة الأولى من المسلمين الذين وهبوا كل أوقاتهم وأنفسهم لله : جهادا ومرابطة ، وشغلهم هذا عن طلب الرزق والسعى إليه ، مع فقرهم وشدة حاجتهم لم يطلبوا من أحد معونة ، وتعففوا حتى ليظنهم الجاهل أغنياء ، واحتوت الآية الثانية صورة أخرى لفريق من المسلمين أغنياء ينفقون أموالهم فى الليل والنهار ، وفى السر والعلانية . وكلتا الصورتين مشرقة باهرة السناء ، تدل على قوة إيمان وشدة رغبة فيما عند الله ، فهما من صور الصنف الأول فى ذلك العهد (٢) .

وفى سورة آل عمران صورة مشرقة كل الإشراق ، سنية كل السناء ، لتلك الفئة المخلصة التى تحملت عظيم التضحيات ، وصبرت أجمل الصبر على ما نالها من الأذى ، وقاتلت فى سبيل الله ، فقتل منهم من قتل ، وما بدلوا تبديلاً . قال تعالى (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكثرن عنهم السيئاتهم ولأضلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب) (٣) .

وفى سورة المائدة ، قوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) (٤) .

وقد احتوت دعوة لبعض المسلمين لتولى الله ورسوله والمخلصين من المؤمنين ، فإنهم حزب الله الغالب المنصور ، كما احتوت وصفا لقيامهم بواجباتهم الإسلامية أحسن قيام . وهذه الآيات تدعم التقسيم الذى قسمناه ، وتدلل على أنه كان هناك طبقتان ، إذ تدعو الطبقة الثانية إلى التأسى بالطبقة الأولى التى نوهت باخلاصها وإيمانها . وفى سورة التوبة ، قوله تعالى (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئكَ لهم الخيرات وأولئكَ هم المفلحون) (٥) هذه الآية جاءت مقابلة لوصف ما كان من تخلف المنافقين عن الجهاد وتثبيطهم ، وفيها على كل حال صورة قوية لما كان من اقبال المؤمنين المخلصين على الجهاد بالمال والنفوس .

ونكتفى بهذه الشواهد القرآنية للصنف الأول من المسلمين الذى كان يتكون فى الغالب من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . . كما قال تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم) (٦) .

وقد وردت هذه الآيات فى الصنف الثانى من المسلمين (أم تريدون أن

٤ (المائدة / ٥٥ - ٥٦ .

٥ (التوبة / ٨٨ .

٦ (التوبة / ١٠٠ .

١ (البقرة / ٢٧٢ ، ٢٧٤ .

٢ (سيرة الرسول ٢/٢٥ محمد عزة دروزة .

٣ (آل عمران / ١٦٥ .

تسالوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يستبدل الكفر بالإيمان فقد ضلَّ سواء السبيل . وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ (١) وتلهم أن بعض المسلمين كانوا يسألون النبي عليه الصلاة والسلام أحيانا أسئلة تعجيزية ، أو نامة على شيء من التشكيك في بعض الأمور الغيبية ، والآيات سلسلة في حق اليهود ودسائسهم ، وفي هذا دلالة على أن هذه الدسائس كانت تجد أذانا مصغية من بعض المسلمين فتدفعهم الى بعض المواقف التي تستوجب العقاب ، وطبيعي أن هذا إنما يكون من الصنف الثاني من المسلمين ، لأن الصنف الأول قد وصف بصفات تدل على ايمانهم القوى التام بالغيب . وخشيتهم الشديدة من الله ، وتوقيرهم العظيم للنبي عليه الصلاة والسلام ، ومعرفتهم حدودهم (٢) .

وفي السورة نفسها الآيات التالية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَاصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (٣) .

وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْبِضُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعْطِكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (٤) .

وفي سورة آل عمران ، قوله تعالى (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .. إِلَى قَوْلِهِ (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٥) .

والآيات تلهم أن من المسلمين من كان يتخذ اليهود أولياء ويسر اليهم بالمودة ويرى الاستمرار في مواصلتهم والاتصال بهم واطلاعهم على اسرار المسلمين . وقد احتلت مسألة موالة هذا الصنف من المسلمين لليهود حيزا كبيرا من الآيات الجهادية مما يوحى بشدة الصلة والاندماج بينهم .

ومن أمثلة ذلك في السورة نفسها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدَوًّا مَا عُنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ فِي أَمْوَاجِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ .. إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (٦) .

وفي سورة النساء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) (٧) . وهناك فريق من مسلمي هذا الصنف الثاني استكانوا وبقوا في مكة ولم يهاجروا ويلحقوا بأخوانهم في دار الإسلام، وانتحلوا الأعدار الواهية، فاستحقوا

٥ (آل عمران / ٢٨ ، ٢١)

١ (البقرة / ١٠٧ - ١٠٦)

٦ (آل عمران / ١١٨ ، ١٢٠)

٢ (سيرة الرسول : ٢٢/٢ دروزه)

٧ (النساء / ١٤٤)

٣ (البقرة / ٢٦٤)

٤ (البقرة / ٢٦٧ ، ٢٦٨)

اللوم والاذار العنيفين . (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (١) .

وقد عقدت أوثق الصلات بين هذه الفئة وبين المنافقين والمشركين : ففي سورة النساء صورة لولااتهم للمنافقين (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) (٢) .

ولقد كانت صلات القربى وعصبيتها القائمة بين المسلمين والكفار والمنافقين مما يثير ازمت نفسية شديدة في كثير من المسلمين الذين كان يتألف منهم الصنف الثاني ، وخاصة في ظروف الحرب ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاعَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِن اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (٣) .

وفي السورة نفسها (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواب حلِيم) (٤) .

وقد تضمنت هذه الآية من سورة النساء (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رَدُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أَوْلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا . فَجَانِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفٍ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرْصُ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسْ الذِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا) (٥) .

والآية الأولى ترسم صورة لهذا الصنف من المسلمين الذي لم يألَف النظام ، ولم يرتفع إلى مستوى الإدراك الحقيقي لجدية الموقف ، ولم يشعر بالولاء الحقيقي الكامل للمعسكر الذي ينتمى إليه ، فيذبح أسرار المسلمين العسكرية لأعدائهم . وذلك من الخطورة بمكان .

وفي الآية الثانية تبرز لنا ملامح كثيرة في الجماعة المسلمة يومذاك ، ويبرز لنا مدى الخلطة في الصف المسلم ، وعمق آثار التبطئة والتعويق والتثبيط فيه ، حتى لتكون وسيلة الاستهزاء والاستجاشة هي تكليف النبي عليه الصلاة والسلام — أن يقاتل في سبيل الله ولو كان وحده — كما يبرز لنا مدى المخاوف في التعرض لقتال المشركين يومذاك ، حتى ليكون أقصى ما يعلق به رجاء المؤمنين : أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا . فيكون المسلمون ستارا لقدرة في كف بأسهم عن المسلمين ، مع إبراز قوة الله — سبحانه — وأنه أشد

٤ (التوبة / ١١٣ ، ١١٤ .

٥ (النساء / ٨٣ ، ٨٤ .

١ (الأنفال / ٧٢ .

٢ (النساء / ١٤٠ .

٣ (التوبة / ٢٣ ، ٢٤ .

بأسا وأشد تنكيلا . وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك والمخاوف المبنوثة في الصنف المسلم .

ثم لنستمع إلى قوله تعالى يستنهض همم هذا الصنف الثاني من المسلمين ، وفي الوقت نفسه نلمس واقعهم الذي كانوا عليه في تلك الفترة . (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد ميس القوم شهداء ، والله لا يحب الظالمين) (١) . فالآية تصور ما لحق بالمسلمين من ضعف ووهن بسبب ما أصابهم من هزيمتهم يوم أحد .

ومن الآيات الجهادية الكثيرة التي تحت على الجهاد بالمال والنفوس بأساليب متنوعة بين ترغيب وترهيب نلمس حالة التراخي في النهوض بتحمل تبعات الجهاد .

وأمثلة ذلك الفصل الأول من الباب الأول من الرسالة . وابتأمل هذه الآيات التي تدل على موقف هذا الصنف من الجهاد (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) (٢) .

ونقرأ الآيات التالية فنرى صورة لما كان يعتلج في نفوس هذا الصنف من امنية ملححة أن تنتهي حالة العداء القائمة بين المسلمين والمشركين . (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) (٣) .

وفي سورة التغابن صورة واقعية لبعض هؤلاء الذين يثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الجهاد وقد تكررت هذه الصورة في كثير من الآيات الجهادية (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم فابتغوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) (٤) .

وقد صنف الله المسلمين وميزهم صنفين متميزين إذ قال سبحانه (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسنوهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) (٥) .

فقوله تعالى (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) تقرير واضح لا لبس فيه ولا غموض . والآية أيضا تقرر هزيمتهم في « أحد » بسبب عصيانهم ، وهي صريحة في ذلك ، في حين أن الكثير من كتاب السيرة وغيرهم من الذين تحدثوا عن الغزوات النبوية ينكرون هذه الهزيمة . ويبالغون في قوة المسلمين الايمانية والحربية ويستشهدون على ذلك بما ورد من آيات في الصنف الاول منهم .

وبعد ، فالواقعية تنادي على نفسها بالظهور في كل آية جهادية ، فالآيات

٤ (التغابن : ١٤ - ١٦ .

٥ (آل عمران/ ١٥٢ .

١ (آل عمران/ ١٤٠ .

٢ (الحديد/ ١٦ .

٣ (المعقنة/ ٧ .

تقرر حقيقة النفس البشرية عامة ونفوس المجاهدين ومواقفهم من البذل فى سبيل الله والتضحية بنفوسهم لاعلاء كلمته ، وتقرر إقدام المخلصين وتسجل إجمام المترددىن الذين لم يصلوا إلى مستوى الصنف الأول ، كما نجد تقريراً وأغياً لمواقف المنافقين من الحركة الجهادية ، ونلمس بوضوح وصدق كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالجهاد فى سبيل الله . وهذا ما نفتقده فى كتب السير والمغازى وغيرها ، إذ أنها تميل إلى المبالغة وإخفاء الحقائق فى بعض الأحيان ، لأنها تحرص على إعطاء صورة مشرقة للمسلمين ، وإيرازهم جميعاً فى مستوى واحد ..

وبعد ، فهذه هى دراستنا الفنية للآيات الجهادية ، وهذه هى أبرز سماتها وخصائصها .

والله ولى التوفيق ،،،

الخاتمة

وبعد : فقد استطاع البحث بمنهجه العلمي الذي التزمت به التزاما دقيقا أن يأتي بنتائج علمية جديدة ، لا أستطيع ذكرها كلها هنا ، ولكن لا مناص من ذكر بعضها :

ففي تمهيد البحث مثلا قد تبين لى أن كلمة « جهاد » وردت مقيدة بعبارة « فى سبيل الله » مما جعل الكثير ممن كتبوا عن « الجهاد » يظنون أن « سبيل الله » تعنى « الجهاد » وقد تأكد لى أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تجعل مفهوم « سبيل الله » مرادفا للدعوة الإسلامية نفسها بكمالها وتمامها . ولما كان « الجهاد » قد كُتب على المسلمين لضمان الحرية فى نشر الدعوة الإسلامية وصيانتها وحماية متبعيها والداعين إليها فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بتعبير « سبيل الله » .

وقد اتضح لى كذلك من دراسة الفصل الأول من الدراسة الموضوعية أن كلمة « جهاد » أشمل مدى من العمل الحربى ، حيث تتناول هذا العمل ، وتتناول بذل المال والجهد مطلقا فى سبيل نصره دين الله الحق ، ومجاهدة النفس والشيطان لأنها ، عدوان للإنسان ، « فالجهاد » لا يقتصر على مقاومة العدو الظاهر ، بل تشمل مجاهدة النفس والشيطان لقوله تعالى « وجاهدوا فى الله حق جهاده » .

وفى الفصل الثانى : قد تبين لى أن الدعوة الإسلامية عالمية ، ويجب على المسلمين تبليغها للناس كافة ، وإزالة كل العقبات التى تعترض طريق الدعوة بالقوة ، لتحرير كافة الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وحده ، وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التى تقهرهم على عبادة غير الله والخضوع لسلطان غير سلطانه ، والتحاكم الى شرع غير شرعه .

وتبين لى أن التقسيمات الحديثة للحروب إلى هجومية ودفاعية لا ينطبق على نظام الجهاد الإسلامى . ولا يصح أن يوصف الجهاد بأنه هجومى ، لأن الهجوم يعنى الظلم ، والجهاد عدل فى الواقع ، وقد يكون مطلوبا إذا استبد الحكام بمصالح رعاياهم ، وهنا يظهر المسلمون أنهم دعاة إصلاح عام وجند رسالة يبلغونها للناس على بينة وهدى ، بالرغم من معاندة بعض الظالمين . وقد يلتزم المسلمون جانب الدفاع فقط دون التقيد بحدود جغرافية مصطنعة فالإسلام لا تحده حدود . لأنه لا يؤمن بحدود وطن قومى حتى يلتزم الدفاع عنه فقط ، فهو يحتفظ بمبدأ الدفاع عن المسلم أينما كان .

وفى الفصل الثالث وضحت الآيات الجهادية سنن الله تعالى الثابتة فى النصر والهزيمة ووقفت عند كل كلمة من قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل . . . » إذ تأكد لى أن كلمة « أعدوا تعنى اصنعوا » أى شيدوا المصانع وأعدوا الأسلحة باستطاعتكم لا بغيركم . ورأيت أن الآيات تربط الإعداد المادى بالإعداد المعنوى ريبا وثيقا . بحيث لا يركن المسلمون إلى احدهما ويهملوا الآخر . ثم أرشدت الآيات إلى أحدث النظم الحربية التى توصل النابهون من قادة الحروب الحديثة إلى بعضها ، وملأوا الدنيا بذلك فخرًا .

وقد استطعت فى هذا الفصل ان ادل على السر فى انتشار الاسلام وانتصارات المسلمين التى اذهلت العقول قديما وحديثا ، واستطعت التمييز بين انتشار دعوة الاسلام ، وامتداد سلطان الدولة الاسلامية ، وإزالة شبهات المستشرقين والمتعصبين على الإسلام .

وفى الفصل الرابع : تمكنت من عقد مقارنة علمية دقيقة بين معاملة الإسلام للأسرى ، وبين الأديان الأخرى والقوانين القديمة والحديثة ، وتبين — وهو التشريع الإسلامى ، وتقدمه فى كل شىء على سائر الأنظمة والقوانين الوضعية .

أما الباب الثانى الذى جعلته للدراسة التاريخية : فقد استطعت ترتيب السور المدنية ترتيبا تاريخيا على حسب النزول . وتميز المكى من المدنى على أساس من التحقيق والتحصيل وكانت نتيجة هذه المحاولة جديدة حيث أثبتت أنه لا توجد سورة مكية تشتمل على آية مدنية ، ولا توجد سورة مدنية تشتمل على آية مكية . واننى لا أقترح أن تبذل جهود متعدد مقصودة لتحصيل هذه الحقائق . فان لذلك أهمية بالغة فى دراسة تاريخ الدعوة .

ومن الجديد فى هذه الرسالة توجيه الأنظار إلى محاولة ترتيب أحداث التاريخ الإسلامى المعاصر لنزول القرآن وفقا لترتيب النزول . وإذا لم يتيسر لى فى هذا المقام القيام بهذه المحاولة على النحو المرجو ، فإننى أقترح على المؤرخين وعلماء الشريعة الاسلامية أن يولوها قسطا كبيرا من عنايتهم ، ففى فضلا عن كونها محاولة للتنظيم والتدقيق ، تعتبر محاولة للتصحيح والتحقيق .

ومن الجديد الذى جاءت به هذه الرسالة فى هذا الباب ما حققته الدراسة المرحلة لمشريعة الجهاد فى الإسلام وأنه لا ناسخ ولا منسوخ فى الآيات الجهادية كلها ، وان كل ما جاء فى القرآن عن الجهاد من الحكم وأن ما ادعاه القدماء من النسخ فهو من (المنسأ) كما عرف ذلك العالم الجليل (جلال الدين السيوطى) رحمه الله .

وقد تبين لى من استعراض مشاهد السرايا والغزوات وأحداث الصراع الدامى بين المسلمين وخصومهم من المشركين واليهود والمنافقين أن القرآن الكريم كان يشرف على سماء المعركة المحتدمة بين الحق والباطل ، ويسهم فى ادارتها وتوجيهها على النحو الذى أحق الحق ورفعها ، وأبطل الباطل ودفعه .

وقد تبين لى أيضا أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يصدر فى كل شأن عن أمر ربه وتوجيهه والهامة ، وان نجاحه فى دعوته كان نتيجة ذلك ، ولم يجيء نتيجة لما يسميه بعض الكتاب المحدثين بالعبقرية . نعم ان العبقرية هبة جليلة ، ولكنها تكل المرء الى نفسه ، وضمان النجاح بها وحدها غير محقق ، ولا سيما فى أمر الدعوة الخطير ، أما النبوة فهى هبة أجل وأعظم ، تربط كل أمر الانسان بالله العظيم الحكيم ، وضمان النجاح بها وحدها محقق ، ولا ينافى هذا أن محمدا قد أوتى من العبقرية والنبوغ والفتنة والذكاء ما لم يؤته أحد .

وتعتبر الرسالة فوق هذا محاولة للعودة بالدراسات الاسلامية الى البساطة والسلامة والوضوح ، وذلك بالتعويل فيها قبل كل شىء على النصوص القرآنية والاحاديث النبوية ، وجعل ما سوى ذلك من المراجع مفاتيح لما يمكن أن يستفلق فهمه ، ومصاييح لما يمكن ان تخفى معرفة حقيقته او سببه . فقد كنا نخفى ونخفى العلماء وراء نصوص القرآن ، ولا نرجع الى المراجع الا لفهم القرآن ، ثم ندعه

هو يعبر عن (الجهاد) فى تشريعه ووقائعه .
وفى الباب الثالث الذى خصصته (للدراسة الفنية) تبين لى ان التصوير هو الأداة المفضلة فى اسلوب آيات الجهاد فى القرآن ، فقد عبرت هذه الآيات بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعانى الذهنية ، والحالات النفسية والمشاهد المنظورة ، والنماذج الانسانية وهذه الصورة نابضة بالحياة والحركة والتجدد والشخص . فقد جعلت المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، والحالة النفسانية لوحة أو مشهدا ، والنموذج الانسانى حيا شاخصا ، والمشاهد والغزوات حاضرة شاخصة .

وفى الفصل الأول من هذا الباب الذى خصصته (للآية القرآنية) رأيت انها تميل الى التصوير فى سبكها وتركيبها ، وقد تحولت الالفاظ الجهادية الى ريشة تنبع فى رأسها الأصباغ والألوان المختلفة المطلوبة لتحليل المعنى الى صورة فى لوحة يتأملها الخيال ، بل تكاد تدركها العين قبل أن يستوعبها العقل . وقد يستقل لفظ واحد فى نسق تعبيرى يرسم صورة شاخصة يزيد قيمتها أن لفظا مفردا هو الذى يرسم الصورة بجرسه الذى يلقيه فى الأذن تارة ، ويظله الذى يُضفيه على الخيال تارة ، أو بجرسه وظله معا .
وقد أثرت الآيات الجهادية استعمال صيغة الأفعال المضارعة لحكاية الحال الماضية واستحضار صورتها ، وعطفت المستقبل على الماضى ، والفعل على الاسم ، وردت المضارع الى معنى الماضى ، وعُبرت عن المستقبل بالماضى ، ووضعنا الماضى موضع المضارع .. الخ .

وقد خصصت الفصل الثانى : لتصوير المعانى الجهادية . وقد كانت الوسيلة إلى ذلك لا تعدو أن تكون تمثيلا أو تشبيها أو استعارة أو كناية .
فقد صورت الآيات بالتمثيل المعانى الموهومة بالصور المشاهدة ، وأبرزت التخيل فى صورة المتحقق ، والمتوهم فى معرض المتقين ، والغائب كأنه مشاهد ، وهو يؤثر فى القلوب مالا يؤثر وصف الشئ نفسه .
وقد أوضح التشبيه الأمور المعنوية بالصور المرئية الحسية على نحو نفسى ، يكشف عن ملامح الخيانات ، ويجعل غير المحسوس محسوسا مشاهدا فى الخيلة . وقد استمد التشبيه عناصره من الطبيعة ، وهو بهذا يهدف إلى أن يكون مؤثرا فى كل وجدان مسيطرا على كل تفكير . وليس فى القرآن سوى تشبيه المحسوس بالمحسوس ، وتشبيه المعقول بالمحسوس .
ولما كان التصوير هو القاعدة الأساسية فى تعبير القرآن ، فقد كان التخيل والتجسيم هما الظاهرتان البارزتان فى هذا التصوير . والتشخيص طريقة من طرق التصوير ، ترد الصورة حية ، وتمنح الجوامد والخواطر شخصية آدمية أوقع فى الحس ، وأجل فى النفس .

هذا ، ويعتبر البحث بجوانبه المختلفة الموضوعية والتاريخية والفنية عملا جديدا فى منهجه وصياغته ، إذ أنه استطاع أن يجمع بين الدراسة الفقهية والتاريخية والبلاغية — على تباعد ما بينها — فى بساطة ووضوح ، وعمق وأصالة ، لأنه جعل من النص القرآنى محورا أساسيا لهذه الدراسات جميعها .

وبعد : فكل ما نرجوه أن يتقبل الله تعالى هذه الخدمة المتواضعة لكتابه الكريم ، وأن يوفقنا الى طريق الصواب ، وأن يهدينا سواء السبيل .

المؤلف

المصادر والمراجع

- ١ (القرآن الكريم .
- ٢ (الانتقان فى علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وبهامشه إيجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى ، مطبعة الطبى ، سنة ١٣٧٠ هـ .
- ٣ (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى دراسة مقارنة ، الدكتور وهبة الزحيلى ، المكتبة الحديثة بدمشق ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
- ٤ (أحكام الذميين والمستأمنين فى دار الإسلام ، الدكتور عبد الكريم زيدان ، دار المعارف بمصر .
- ٥ (الأحكام السلطانية ، على بن محمد بن حبيب أبو الحسن البصرى الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، المطبعة المحمودية التجارية .
- ٦ (الأحكام السلطانية ، محمد بن حسين الفراء أبو يعلى ، المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ، مطبعة الطبى ، سنة ١٣٥٧ هـ .
- ٧ (أحكام أهل الذمة ، لابن القيم ، الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ، المتوفى سنة ٨٥١ هـ تحقيق الدكتور صبحى الصالح ، وتمهيد الدكتور محمد حميد الله ، مطبعة جامعة دمشق ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ ، ١٩٦١م .
- ٨ (الأحكام فى أصول الأحكام ، أبو الحسن على بن حمد الأمدى ، المتوفى سنة ٦٣١ هـ ، مطبعة المعارف ، سنة ١٣٢٢هـ/١٩١٤م .
- ٩ (الأحكام فى أصول الأحكام ، على بن حزم الأندلسى ، المتوفى سنة ٤٥٦ هـ مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤٧ هـ .
- ١٠ (أحكام القرآن ، لأبى بكر أحمد بن على الرازى الجصاص الحنفى ، المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، مطبعة الأوقاف الإسلامية فى دار الخلافة العلية ، سنة ١٣٣٥ هـ .
- ١١ (إحياء علوم الدين ، حجة الإسلام أبى حامد محمد الغزالى ، المطبعة الأزهرية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٠٢ هـ .
- ١٢ (إختلاف الفقهاء ، للإمام محمد بن جرير الطبرى ، المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، (كتاب الجهاد والجزية وأحكام المحاربين) نشرة الدكتور يوسف شخت ، ليدن ، سنة ١٩٣٣م .
- ١٣ (ارادة القتال فى الجهاد الإسلامى ، اللواء الركن محمود شيت خطاب ، المؤتمر الرابع لجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٦٨ .
- ١٤ (إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى ، لشهاب الدين أحمد بن محمد القسطلانى ، المتوفى سنة ٩٢٣ هـ ، طبع ببولاق سنة ١٣٢٧ هـ .
- ١٥ (إرشاد العباد الى الغزو والجهاد ، لأبى البركات حافظ أحمد فخر الدين الفيضى ، المطبعة العامرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٦٦ هـ .
- ١٦ (أسباب النزول ، لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى ، المتوفى سنة ٤٦٨ هـ دار الاتحاد العربى للطباعة ، سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .
- ١٧ (أسباب النزول للسيوطى ، بهامش تفسير الجلالين ، مطبعة محمد مصطفى ، سنة ١٣٠٠ هـ .

- (١٨) اسرار البلاغة فى علم البيان ، عبد القاهر الجرجانى ، مطبعة محمد على صبيح ، الطبعة السادسة سنة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .
- (١٩) اسرار اللغة ، الدكتور ابراهيم انيس ، مكتبة الانجلو المصرية .
- (١٠) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، للامام محمد عبده ، المتوفى سنة ١٣٢٣هـ ، مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣١٠هـ .
- (٢١) الإسلام والرد على منتقديه ، للامام محمد عبده ، المكتبة التجارية بمصر ، سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م .
- (٢٢) الإسلام ومستر سكوت ، على أحمد الجرجاوى ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٢٨هـ .
- (٢٣) الإسلام ظهوره وانتشاره فى العالم ، حامد عبد القادر ، مكتبة نهضة مصر ، سنة ١٣٥٧هـ/١٩٥٦م .
- (٢٤) الإسلام دين عالمى إنسانى ، الدكتور على حسنى الخربوطلى ، من منشورات المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ، سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .
- (٢٥) الإسلام ، الفريد جيوم ، ترجمة محمد مصطفى هدارة ، والدكتور شوقى البيهانى السكرى مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٨م .
- (٢٦) الإسلام والحضارة العربية ، محمد كرد على ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٤م .
- (٢٧) الإسلام دين ودولة ونظام ، عبد الحى حسن العمرانى ، مطبعة الجامعة المغربية ، الدار البيضاء .
- (٢٨) الإسلام على مفترق الطرق ، ليوبولد فايس ، نقله الى العربية الدكتور عمرو فروخ ، دار العلم للملايين ببيروت ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٤٨م .
- (٢٩) الإسلام عقيدة وشريعة ، للامام الشيخ محمود شلتوت ، دار القلم ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦م .
- (٣٠) الإسلام والعلاقات الدولية فى السلم والحرب ، للامام الشيخ محمود شلتوت ، مطبعة الأزهر ، سنة ١٣٣٧هـ/١٩٥١م .
- (٣١) اشتات مجتمعات فى اللغة والادب ، عباس محمود العقاد ، دار المعارف بمصر .
- (٣٢) أصول النقد الأدبى ، احمد الشايب ، المطبعة الفاروقية ، سنة ١٣٥٨هـ .
- (٣٣) أضواء البيان فى إيضاح القرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار مطبعة المدنى ، سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م .
- (٣٤) إعجاز القرآن ، لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ، تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٦٣م .
- (٣٥) إعجاز القرآن فى دراسة كاشفة ، عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٩٦٤م .
- (٣٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعى ، المطبعة الرحمانية ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٤٥هـ .
- (٣٧) أعلام الموقعين عن رب العالمين ، لابن تيمم الجوفية ، المتوفى سنة ٧٥١هـ ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد سنة ١٣٧٤هـ .
- (٣٨) الإمام بأحاديث الأحكام ، للشيخ الامام ابن دقيق العيد ، دار الفكر بيروت سنة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

- (٣٩) الأم ، لأبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى ، المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ،
برواية الربيع ابن سليمان المرادى ، وبهامشه مختصر الامام ابراهيم
اسماعيل بن يحيىء المزنى الشافعى سنة ٢٦٤ هـ ، المطبعه الاميريه
الكبرى ببولاق مصر ، سنة ٣٢١ هـ ، الطبعة الاولى .
- (٤٠) الاموال ، أبو عبيد القاسم بن سلام ، طبع القاهرة ، سنة ١٣٥٢ هـ .
- (٤١) أمثال القرآن وأثرها قى الأدب العربى الى القرن الثالث الهجرى ، نور
الحق تنوير ، رسالة ماجستير سنة ١٩٦٢ ، (مكتبة جامعة القاهرة) .
- (٤٢) إمتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والأموال والحفصدة والمتاع ،
للمقرئزى (تقى الدين أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، صححه
وشرحه الأستاذ محمد محمود شاكر ، القاهرة سنة ١٩٤١ .
- (٤٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبى الخير عبد الله بن عمر
البيضاوى ، المتوفى سنة ٧٩١ هـ ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الاولى سنة
١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .
- (٤٤) الإمامة والسياسة عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، المتوفى سنة
سنة ٣٧٦ هـ ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .
- (٤٥) إنسان العيون فى سيرة الأمين والمؤمن ، المعروفة بالسيرة الحلبية ،
على بن برهان الدين الحلبي الشافعى ، المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ ، المطبعة
الأزهرية سنة ١٣٢٩ هـ .
- (٤٧) الأنوار الحمديدية من المواهب اللدنية ، اسماعيل النههاني ، المطبعة
الأدبية - بيروت .
- (٤٨) البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ، أحمد بن يحيى المرتضى ،
المتوفى سنة ٨٤٠ هـ ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٤٨ م .
- (٤٩) البحر المحيط ، للإمام اثير الدين أبى عبد الله محمد بن يوسف الشهير
بأبى حيان الأندلسى ، المتوفى سنة ٧٤٥ هـ ، مطبعة السعادة بمصر .
- (٥٠) البداية والنهاية ، اسماعيل بن كثير الدمشقى ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ،
الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م .
- (٥١) البلاغة الفنية ، الدكتور على الجندى (مكتبة نهضة مصر) سنة ١٣٧٥ هـ .
- (٥٢) البلاغة وعلم النفس ، أمين الخولى ، مطبعة المعهد الفرنسى للأثار
الشرقية ١٩٣٩ م .
- (٥٣) بديع القرآن ، لابن أبى الاصبع المصرى ، تحقيق الدكتور حنفى شرف ،
لجنة احياء التراث العربى .
- (٥٤) بنو اسرائيل فى القرآن والسنة ، الدكتور محمد سيد طنطاوى ، مطبعة
قاصد خير ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
- (٥٥) بنو اسرائيل فى القرآن ، محمد بن عبد السلام محمد على ، رسالة
ماجستير ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م مكتبة جامعة القاهرة .
- (٥٦) تأويل مشكل القرآن ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، المتوفى سنة ٣٧٦ هـ
مطبعة الحلبي سنة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م .
- (٥٧) تاريخ الأمم والملوك ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، المتوفى سنة
٣١٠ هـ ، القاهرة سنة ١٩٣٩ م .
- (٥٨) تاريخ الأمم الاسلامية ، الشيخ محمد الخضرى ، المتوفى سنة ١٣٤٥ هـ ،
الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٦٦ هـ .

- ٥٩ (تاريخ اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب المعروف بابن واضح الاخبارى ، المتوفى سنة ٢٩٢ هـ ، دار صادر بيروت .
- ٦٠ (تاريخ الجنس العربى فى مختلف الاطوار والادوار والاقطار ، محمد عزة دروزة ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، الطبعة الاولى .
- ٦١ (تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى ، أبوزيد شلبى ، مكتبة وهبه الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
- ٦٢ (التاريخ السياسى للدولة العربية ، الدكتور عبد المنعم ماجد ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ، سنة ١٩٦٧ م .
- ٦٣ (تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكلمان ، نقله الى العربية الدكتور نبيه ابراهيم فارس ، ومدير البعلبكي ، دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الاولى سنة ١٩٤٨ م .
- ٦٤ (تاريخ العرب العسكرى (حروب محمد) محمود الدرة ، دار المعرفة ، الطبعة الاولى ١٩٦١ م .
- ٦٥ (التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الدكتور أحمد شلبى ، دار النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦ م .
- ٦٦ (التاريخ الاسلامى العام ، الدكتور على ابراهيم حسن ، مكتبة النهضة ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٦٣ م .
- ٦٧ (تاريخ العرب (مطول) ، الدكتور فليب حتى ، والدكتور أدورد جورجى ، والدكتور جبرائيل جبور ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، الطبعة الرابعة .
- ٦٨ (تاريخ فن الحرب ونظمها عند المسلمين حتى نهاية القرن الثانى ، عبد الرؤوف عون ، رسالة ماجستير ، مكتبة جامعة القاهرة .
- ٦٩ (تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى ، الدكتور حسن ابراهيم حسن ، مطبعة حجازى سنة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م .
- ٧٠ (تاريخ العرب فى اسبانيا ، محمد عبد الله عنان ، مطبعة السعادة ، الاولى ، سنة ١٩٢٤ م .
- ٧١ (تاريخ الاسلام السياسى ، (حروب الاسلام) ، أمين سعيد ، مطبعة الحلبي ، سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٤ م .
- ٧٢ (تاريخ القرآن ، الدكتور عبد الصبور شاهين ، دار القلم ، سنة ١٩٦٦ م .
- ٧٣ (تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية ، يوليوس فلهاوزن ، تعريب الدكتور عبد الهادى أبو ريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٨ م .
- ٧٤ (تاريخ الفتح الاسلامى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين ، محمد فخر الدين - مطبعة العلوم ، سنة ١٩٣٢ م .
- ٧٥ (تاريخ الخميس فى احوال انفس نفيس ، للإمام حسين بن محمد بن الحسن الدياربرى المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٨٣ هـ .
- ٧٦ (تاريخ العرب العام وتاريخ دولتهم ، للمشرق . ل. أ. سيديو ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العالمية ، مطبعة الحلبي ، سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
- ٧٧ (التاريخ الاسلامى للسيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، الدكتور محمد مصطفى زيادة ، دار الطباعة الحديثة سنة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

- ٧٨ (تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام ، الدكتور اسرائيل ولفنسون مطبعة الاعتماد سنة ١٣٤٥ هـ .
- ٧٩ (تاريخ التشريع الاسلامى ، الشيخ محمد الخضرى ، مطبعة السعادة ، الطبعة السادسة سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
- ٨٠ (التبيان فى تفسير القرآن ، لأبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى ، المتوفى ٤٦٠ هـ المطبعة العلمية فى النجف ، سنة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .
- ٨١ (الترتيب والبيان عن تفصيل آى القرآن ، محمد زكى صالح ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الاولى سنة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .
- ٨٢ (تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن ، لابن ابى الاصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ . تقديم وتحقيق الدكتور حنفى شرف ، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م . لجنة احياء التراث العربى .
- ٨٣ (التشبيه فى القرون الاربعة الهجرية واثر القرآن وعلم الكلام فيه ، محمود شريف الخياط ، رسالة ماجستير ، سنة ١٩٦٥ م مكتبة جامعة القاهرة .
- ٨٤ (تفسير أبى السعود المسمى (بارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن) للامام أبى السعود محمد بن محمد العمادى ، المتوفى سنة ٩٥١ هـ ، مطبعة صبيح .
- ٨٥ (التفسير البيانى للقرآن الكريم ، الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف بمصر .
- ٨٦ (تفسير الجلالين للقرآن العظيم ، للامام جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر السيوطى ، والامام جلال الدين محمد بن أحمد المحلى ، المتوفى سنة ٨٦٤ هـ . مطبعة الحلبي ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م .
- ٨٧ (تفسير الخازن ، المسمى (لىاب التأويل فى معانى التنزيل) لعلاء الدين على بن محمد ابن ابراهيم البغدادى ، الشهير بالخازن ، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ ، بهامشه تفسير البغوى المعروف بمعالم التنزيل ، لابى محمد ابن الحسين بن مسعود الفراء البغوى ، المتوفى سنة ٥١٦ هـ ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .
- ٨٨ (تفسير جزء عم ، للاستاذ محمد عبده ، دار مطابع الشعب .
- ٨٩ (التفسير الحديث ، للاستاذ محمد دروزة ، دار احياء الكتاب العربى ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .
- ٩٠ (تفسير سورتي الأنفال والنجم ، للدكتور على الجندى ، مطابع بيلوس الحديثة ١٣٨٥ هـ .
- ٩١ (تفسير القاسمى (محاسن التأويل) تأليف علامة الشام محمد جمال الدين القاسمى ، المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ / ١٩٥٤ م تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الاولى سنة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .
- ٩٢ (تفسير القرآن الحكيم ، المشتهر باسم تفسير (المنار) للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده تأليف السيد محمد رشيد رضا ، دار المنار بمصر سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
- ٩٣ (تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الاولى) للامام محمود شلتوت ، دار القلم .
- ٩٤ (تفسير القرآن المسمى (بروح البيان) تأليف اسماعيل حقى ، دار الطباعة ببولاق مصر ، سنة ١٢٧٦ هـ .

- (٩٥) التفسير القيم للإمام ابن القيم ، ٦٩١ - ٧٥١ هـ ، تحقيق محمد حامد الفقى ، طبع بمكة المكرمة ، سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .
- (٩٦) التفسير الواضح ، محمد محمود حجازى ، دار الكتاب العربى الحديث الطبعة الثالثة .
- (٩٧) التصوير البيانى ، الدكتور حنفى شرف ، مكتبة الشباب ، مطبعة الرسالة ١٢٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
- (٩٨) التعابير القرآنية والبيئة العربية فى مشاهد القيامة ، ابتسام مرهون الصغار ، مطبعة الآداب فى النجف الأشرف ، ١٢٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- (٩٩) تهذيب التهذيب فى أسماء رجال الحديث ، لابن حجر العسقلانى ، المتوفى ٨٥٢ هـ مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر اباد ، سنة ١٣٥٢ هـ .
- (١٠٠) تفصيل آيات القرآن الكريم ، جول لا بوم ، وويليه المستدرک ، وهو فهرس مواد القرآن الذى وضعه ادورد مونتيه ، نقلهما الى العربية محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء الكتب العربية مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .
- (١٠١) تنظيم الاسلام للمجتمع ، الشيخ محمد أبو زهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية .
- (١٠٢) ثورة الاسلام وبطل الانبياء ، محمد لطفى جمعة ، مطبعة لجنة البيان العربى .
- (١٠٣) جامع البيان عن تأويل مشكل القرآن الكريم ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، المتوفى ٣١٠ هـ ، مطبعة الحلبي .
- (١٠٤) الجامع لأحكام القرآن ، لأبى عبد الله محمد بن احمد الأنصارى القرطبى المتوفى ٦٧١ هـ عن طبعة دار الكتب المصرية . دار الكتاب العربى الحديث ، الطبعة الثالثة .
- (١٠٥) الجامع الصحيح ، وهو سنن الترمذى ، لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، تحقيق ابراهيم عطوة ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الأولى ، سنة ٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .
- (١٠٦) جرائم الحرب والعقاب عليها ، عبد الحميد خميس ، رسالة دكتوراه بكلية حقوق القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- (١٠٧) الجزية والاسلام ، دانيل دنييت ، ترجمة الدكتور فوزى فهم جاد ، بيروت ١٩٦٠ م .
- (١٠٨) الجمان فى تشبيهات القرآن ، ابن نايقا البغدادى ، تحقيق عدنان زرزور مطبعة حكومة الكويت .
- (١٠٩) الجهاد ، للشيخ محمد أبو زهرة ، المؤتمر الرابع لجمع البحوث الاسلامية ١٩٦٨ م .
- (١١٠) الجهاد ، للدكتور عبد الحلیم محمود ، المؤتمر الرابع لجمع البحوث الاسلامية ١٩٦٨ م .
- (١١١) الجهاد فى الاسلام ، للشيخ عبد اللطيف السبكي ، المؤتمر الرابع لجمع البحوث الاسلامية .
- (١١٢) الجهاد طريق النصر ، للشيخ عبد الله غوشه ، المؤتمر الرابع لجمع البحوث الاسلامية ٦٨ .
- (١١٣) الجهاد فى الاسلام ، محمد شديد ، مطبعة العالم العربى ، نشر مؤسسة المطبوعات الحديثة .
- (١١٤) الجهاد فى الاسلام ماضيه وحاضره ، حامد مصطفى ، منشورات مكتبة

- الثنى - بغداد ، مطبعة المعارف .
- (١١٥) الجهاد فى التفكير الإسلامى ، الدكتور أحمد شلبى ، دار الاتحاد العربى للطباعة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٦٨ م .
- (١١٦) الجهاد فى سبيل الله ، أبو الأعلى المودودى ، القاهرة ، لجنة الشباب المسلم .
- (١١٧) الجهاد فى سبيل الله ، عبد الله عبد الغنى حماده ، المطبعة السورية - بحلب .
- (١١٨) الجواد الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، قدم له وأشرف على طبعه على السيد صبيح المدنى ، مطبعة المدنى ، المؤسسة السعودية بمصر ١٣٨٣ هـ .
- (١١٩) جوامع السيرة لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى ٤٥٦ هـ ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، والدكتور ناصر الدين الاسد ومراجعة احمد محمد شاكر دار المعارف .
- (١٢٠) حاشية الباجورى على شرح ابن قاسم الغزى على مختصر أبى شجاع ابراهيم الباجورى ، المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ ، مطبعة بولاق ، سنة ١٣٠٧ هـ .
- (١٢١) حاشية الشرقاوى على تحفة الطلاب ، لذكريا الانصارى ، المتوفى سنة ٩٢٥ هـ (عبد الله الشرقاوى) المتوفى سنة ١٢٢٦ هـ ، مطبعة الحلبي سنة ١٣٦٠ هـ/ ١٩٤١ م .
- (١٢٢) حاضر العالم الإسلامى ، لوثرروب ستودارد ، نقله الى العربية ، عجاج نهويض ، مطبعة الحلبي ، سنة ١٩٥٢ م .
- (١٢٣) حسن البيان فى تفسير مفردات القرآن ، محبى الدين الخانى ، مطبعة الترقى بدمشق ، سنة ١٣٤٥ هـ .
- (١٢٤) حركة الفتح الإسلامى فى القرن الاول ، الدكتور شكرى فيصل ، دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٥٢ م .
- (١٢٥) حكم النبى محمد ، للفيلسوف تولستوى ، تعريب سليم قبعين ، مطبعة التقدم ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٥ م .
- (١٢٦) الحضارة العربية تأليف ، ي . هل ، ترجمة الدكتور ابراهيم العدوى راجعه الدكتور حسين مؤنس ، مطبعة الانجلو المصرية سنة ١٣٦٦ م .
- (١٢٧) حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتير ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٦٦ هـ .
- (١٢٨) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، آدم متر ، تعريب الدكتور محمد عبد الهادى أبوريدة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٤٧ م .
- (١٢٩) حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة ، جمال الدين عياد ، دار الفكر الحديث للطباعة ، سنة ١٩٦٣ م .
- (١٣٠) حياة محمد ورسالته ، مولانا محمد على ، تعريب منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٦٣ م .
- (١٣١) حياة محمد ، الدكتور محمد حسين هيكى ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة التاسعة ١٩٦٥ م .
- (١٣٢) حياة محمد ، وأسنجتون أرفنج ، ترجمة الدكتور على حسنى الخربوطلى ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٦ م .
- (١٣٣) الخراج ، لأبى يوسف يعقوب بن ابراهيم الحنفى ، المتوفى سنة

- ١٨٣ هـ ، المطبعة السلفية ، سنة ١٣٥٢ هـ .
- (١٣٤) الخراج ، ليحيى بن آدم المتوفى سنة ٢٠٣ هـ ، المطبعة السلفية ١٣٤٧ هـ تحقيق أحمد شاذلي .
- (١٣٥) الخطر اليهودي (بروتوكولات حكباء صهيون) محمد خليفة التونسي ، دار الكتاب العربي بيروت المطبعة الرابعة .
- (١٣٦) خلاصة السيرة المحمدية وحقيقة الدعوة الإسلامية ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الأولى ٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م .
- (١٣٨) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان التشابهات في كتاب الله العزيز ، للشيخ الإمام أبي عبد الله عبد الله الخطيب الإسكافي ، المعروف بأبي فرج الأردستاني ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م .
- (١٣٩) دائرة المعارف الإسلامية ، جملة مستشرقين ، نقلها إلى العربية أحمد الشناوي ، وإبراهيم خورشيد ، وعبد الحميد يونس ، وحافظ جلال .
- (١٤٠) دائرة المعارف العربية ، بطرس البستاني ، مطبعة المعارف بيروت سنة ١٨٨٢ هـ .
- (١٤١) دائرة المعارف الحديثة ، أحمد عطية الله ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٥١ م .
- (١٤٢) دراسات إسلامية ، عبد المتعال الصعيدي ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى .
- (١٤٣) دراسات في حضارة الإسلام ، هاملتون جب ، ترجمة الدكتور احسان عباس ، والدكتور محمد يوسف نجم ، ومحمود زايد ، دار العلم للملايين بيروت ، سنة ١٩٦٤ م .
- (١٤٤) الدرر في اختصار المغازي والسير ، لحافظ يوسف بن عبد البر ، المتوفى ٤٦٣ هـ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، لجنة أحياء التراث الإسلامي ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- (١٤٥) الدستور القرآني والسنة النبوية في شئون الحياة ، محمد عزة دروزة مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .
- (١٤٦) دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، لأبي حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي المغربي ، تحقيق على اصغر فيض ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .
- (١٤٧) الدعوة المحمدية والقتال في الإسلام ، للإمام الشيخ محمود ثلقوت ، المطبعة السلفية سنة ١٣٥٢ هـ .
- (١٤٨) الدعوة إلى الإسلام ، سيرت . و . ارنولد ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩١٣ م .
- (١٤٩) دعوة الإسلام ، الشيخ السيد سابق ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .
- (١٥٠) دفاع عن الإسلام ، الدكتور لورافيشيا فاغليري ، تعريب منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٥٧ م .
- (١٥١) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ، محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- (١٥٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني ، عبد القاهر الجرجاني ، مكتبة القاهرة .
- (١٥٣) دلالة الألفاظ ، الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة

- الثانية ١٩٦٣ م .
 (١٥٤) الدوافع النفسية ، الدكتور مصطفى فهمى ، دار مصر للطباعة
 سنة ١٩٥١ م .
 (١٥٥) الدولة الإسلامية الاولى ، أحمد ابراهيم الشريف ، دار القلم سنة ١٩٦٥ م
 (١٥٦) الدولة الإسلامية وتاريخها وحضارتها ، للدكاترة عبد الحميد العبادى ،
 ومحمد مصطفى زيادة ، وابراهيم العدوى ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة
 الثالثة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
 (١٥٧) الدولة العربية الإسلامية ، الدكتور على حسنى الخربوطلى ، مطبعة
 الحلبي ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .
 (١٥٨) رسالة فى معرفة النفس الناطقة واحوالها ، لأبى على بن سينا ، نشرها
 وعلق عليها محمد ثابت الفندى .
 (١٥٩) رسالة القتال ، لتقى الدين أحمد بن شهاب الدين المعروف بابن تيمية ،
 المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، ضمن مجموعة رسائل ، مطبعة السنة المحمدية
 ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .
 (١٦٠) الرسالة الخالدة ، عبد الرحمن عزام ، دار ومطابع الشعب
 ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
 (١٦١) رسالة التوحيد ، للإمام الشيخ محمد عبده ، المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ ،
 الطبعة الرابعة عشر .
 (١٦٢) الرسول القائد ، اللواء الركن محمود شيت خطاب ، مكتب دار الحياة
 والنهضة ببغداد ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٠ م .
 (١٦٣) الرق فى الإسلام ، أحمد شفيق باشا ، تعريب الأستاذ أحمد زكى ،
 المطبعة الأميرية ، الطبعة الاولى سنة ١٣٠٩ هـ .
 (١٦٤) روح الإسلام ، سيد أمير على ، ترجمة أمين محمود الشريف ، راجعه
 محمد بدران ، مطبعة الجمايز ، سنة ١٩٦١ م .
 (١٦٥) روح الدين ، عفيف طيارة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة
 السابعة ، سنة ١٣٧٦ هـ .
 (١٦٦) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم ، السبع المئانى ، لأبى الفضل
 شهاب الدين السيد محمود الأوسى البغدادى ، المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ ،
 دار الطباعة المنيرية .
 (١٦٧) روح الإسلام ، محمد عطيه الأبراشى ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة
 الاولى سنة ١٩٦٤ م .
 (١٦٨) الروض الانف ، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمى السهلى ،
 المتوفى سنة ٥٨١ هـ ، مطبعة الجمالية بمصر ، سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م .
 (١٦٩) زاد المسير فى علم التفسير ، للإمام أبى الفرج مال الدين عبد الرحمن بن
 على بن محمد الجوزى القرشى البغدادى ، المتوفى سنة ٥٠٨ - ٥٩٧ هـ ،
 المكتب الإسلامى للطباعة والنشر بدمشق ، الطبعة الاولى سنة
 ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
 (١٧٠) زاد المعاد فى هدى خير العباد محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين
 وامام المرسلين ، للإمام ابن قيم الجوزيه - المطبعة المصرية .
 (١٧١) زجر النفس ، لهرمس الحكيم ، طبع فى بيروت ، سنة ١٩٠٣ م .
 (١٧٢) سبل السلام ، محمد بن اسماعيل بن صلاح الصنعانى المتوفى سنة
 ١١٤٢ هـ ، مطبعة الحلبي .

- (١٧٣) السرفى انتشار الاسلام ، محمد أحمد عرفه ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣١م .
- (١٧٤) سفرة الزاد لسفرة الجهاد ، محمود الألوسى الحسينى ، مطبعة دار السلام ببغداد ، سنة ١٣٣٣هـ .
- (١٧٥) السلام والحرب فى الاسلام ، صاغ محمد فرج ، دار الفكر العربى سنة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .
- (١٧٦) سنن أبى داود ، لسليمان بن الأثعث السجستانى ، المتوفى سنة ٢٧٥هـ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م .
- (١٧٧) سنن الدارقطنى ، للإمام على بن عمر الدارقطنى ، المتوفى ٣٨٥هـ طبع بالهند ، سنة ١٣١٠هـ .
- (١٧٨) سنن النسائى (المجتبى) ، أحمد بن شعيب بن دينار النسائى ، المتوفى سنة ٢٧٩هـ ، ومعه زهر الربى على المجتبى للحافظ الجلال السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١هـ ، مع تعليقات مقتبسة من حاشية السندى ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .
- (١٧٩) السنن الكبرى ، أحمد بن الحسن البيهقى ، وبهامشه (الجوهر التقى فى الرد على البيهقى) لابن التركمانى ، المتوفى سنة ٧٤٥هـ ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، بحيدر اباد الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤هـ .
- (١٨٠) سورة الأحزاب عرض وتفسير ، للدكتور مصطفى زيد ، دار الفكر العربى الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩م .
- (١٨١) سورة الأنفال عرض وتفسير ، للدكتور مصطفى زيد دار الفكر العربى الطبعة الرابعة ١٣٨٩هـ .
- (١٨٢) السياسة الإسلامية فى عهد النبوة ، عبد المتعال الصعدي ، دار الفكر العربى .
- (١٨٣) السياسة الشرعية او نظام الدولة الإسلامية ، عبد الوهاب خلاف ، المطبعة السلفية سنة ١٣٥٠هـ .
- (١٨٤) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، للشيخ تقى الدين بن عبد السلام بن تيمية ، المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢هـ .
- (١٨٥) السيرة الحلبية ، على بن برهان الحلبي ، المتوفى ١٠٤٤هـ ، المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٩هـ .
- (١٨٦) سيرة الرسول (صور مقتبسة من القرآن الكريم) محمد عزة دروزة ، مطبعة الاستقامة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م .
- (١٨٧) السير الكبير ، لمحمد بن الحسن الشيبانى ، المتوفى سنة ١٨٩هـ ، بشرح الإمام محمد بن أحمد بن أبى سهل السرخسى ، المتوفى سنة ٤٩٠هـ ، كتب التمهيد للشيخ محمد أبو زهرة ، وحقق النصوص الدكتور محطى زيد ، مطبعة جامعة القاهرة سنة ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م .
- (١٨٨) السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى ، تحقيق الدكتور صلاح المنجد ، مطبعة مصر سنة ١٩٥٧م .
- (١٨٩) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، ألفها أبو عبد الله محمد بن اسحق ابن يسار المطلبى ، المتوفى سنة ١٥١هـ — وهذبها أبو محمد بن عبد الملك ابن هشام بن أيوب الحميرى ، المتوفى ٢١٨هـ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة المدنى سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

- (١٩٠) السيرة النبوية لابن هشام ، حققها وضبطها ، مصطفى السقا ، ابراهيم الايبارى ، وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م .
- (١٩١) السيرة النبوية والآثار المهدية ، لمفتى الديار السادة الشافعية بمكة المكرمة ، أحمد زيني دحلان ، المشهور بدحلان ، المتوفى سنة ١٣٠٤هـ ، الطبعة الازهرية المصرية ١٣٢٠هـ .
- (١٩٢) السيرة النبوية ، للامام ابي الفداء اسماعيل بن كثير ، المتوفى سنة ٧٤٧هـ ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، مطبعة الحلبي ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .
- (١٩٣) شرح الزرقانى على موطأ مالك (انوار كواكب المسالك) محمد الزرقانى ابن عبد الباقي بن يوسف ، المتوفى سنة ١٢٢هـ المطبعة الخيرية ، سنة ١٣١٠هـ .
- (١٩٤) شرح الزرقانى على المواهب اللدنية للعلامة القسطلانى ، طبع بولاق سنة ١٢٩١هـ .
- (١٩٥) الشرح الكبير على متن المقنع الشافعى ، لشمس الدين بن قدامة المقدسى المتوفى سنة ٦٨٢هـ ، مطبعة المنار ، الطبعة الاولى ، سنة ١٣٤٨هـ .
- (١٩٦) شرح نهج البلاغة ، عبد الحميد بن هبة الله المدائنى ، الشهير بابن ابي الحديد ، مطبعة الحلبي ، سنة ١٣٢٩هـ .
- (١٩٧) شرح النيل وشفاء العليل ، محمد بن يوسف إطفيش ، المتوفى سنة ١٣٣٢هـ ، المطبعة السلطانية سنة ١٣٤٣هـ .
- (١٩٨) الشرع الدولى فى الإسلام ، الدكتور نجيب الأمازى ، مطبعة ابن زيدون بدمشق .
- (١٩٩) الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام ، المستشار على على منصور ، دار ومطابع الشعب ، من منشورات المجلس الأعلى للشئون الاسلامية سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م .
- (٢٠٠) الصارم المسلول على شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم ، لشيخ الاسلام الامام تقي الدين ابي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام الحرانى ، الدمشقى ، المعروف بابن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨هـ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، الطبعة الاولى سنة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .
- (٢٠١) صحيح البخارى ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ، المتوفى سنة ٢٥٦هـ ، مطبعة محمد على صبيح .
- (٢٠٢) صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ، المتوفى سنة ٢٠٤هـ ، مطبعة بولاق ، سنة ١٢٩٠هـ .
- (٢٠٣) الصناعتين ، لأبى هلال حسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، المتوفى سنة ٣٩٥هـ ، مطبعة المعارف بمصر ، الطبعة الاولى ، سنة ١٣١٩هـ .
- (٢٠٤) صور البديع فى الاحجاج ، الدكتور على الجندى ، دار الفكر العربى ، مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .
- (٢٠٥) صور من حياة الرسول ، أمين دويدار ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م .
- (٢٠٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ، المتوفى سنة ٢٣٠هـ ، طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية بالقاهرة .
- (٢٠٧) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة بن

- على بن ابراهيم العلوى اليمنى ، مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م ، دار الكتب الحديثة .
- (٢٠٨) ظهور الاسلام ، الدكتور عبد الحميد بخيت ، مكتبة الانجلو المصرية .
- (٢٠٩) العالم الاسلامى ، عمر رضا كحالة ، المكتبة العربية بدمشق ، سنة ١٩٣٣م .
- (٢١٠) العبر وديوان المتبدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ، عبد الرحمن ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ ، المطبعة الاميرية بمصر سنة ١٣٨٤هـ .
- (٢١١) العرب واليهود فى العصر الاسلامى ، الدكتور على حسنى الخربوطلى ، مطابع دار القومية .
- (٢١٢) العقيدة الاسلامية ، للشيخ عبد الله كويليام ، ترجمة محمد خياط ، المطبعة الهندية سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م .
- (٢١٣) العقيدة والشريعة ، جولد زيهير ، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وآخرين ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، سنة ١٩٤١م .
- (٢١٤) العلاقات السياسية الدولية ، أحمد سويلم العمري ، القاهرة سنة ١٩٥٧م / ١٩٦٠ .
- (٢١٥) العلاقات الدولية فى الاسلام ، الشيخ محمد ابو زهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
- (٢١٦) عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى ، شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلانى ، المتوفى سنة ٩٢٣هـ ، دار الطباعة المنيرية ، الطبعة الخامسة .
- (٢١٧) عن القرآن ، محمد صبيح ، مطبعة الحلبي .
- (٢١٨) عناصر القوة فى الاسلام ، الشيخ السيد سابق ، مكتبة وهبة ، مطابع دار الكتاب العربى ، الطبعة الاولى سنة ١٣٨٢هـ .
- (٢١٩) عيون الاثر فى فنون المغازى والشمال والسير ، لابن سيد الناس ، وهو فتح الدن ابو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس ، المتوفى سنة ٧٣٤هـ ، مكتبة المقدسى بالقاهرة ، سنة ١٣٥٦هـ .
- (٢٢٠) غاية الارشاد الى احكام الجهاد ، فرج محمد غيث ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الاولى ، سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .
- (٢٢١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ، لنظام الدين الحسين بن محمد بن الحسين التقي النيسابورى ، المتوفى سنة ٧٢٨هـ ، تحقيق ابراهيم عطوة مطبعة الحلبي ، الطبعة الاولى .
- (٢٢٢) فتح البارى بشرح البخارى ، تأليف الحافظ شهاب الدين أبى الفضل المسطلانى المعروف بابن حجر ، المتوفى ٨٥٢هـ ، مطبعة الحلبي سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .
- (٢٢٣) فتح الجواد بشرح الارشاد ، لابي العباس أحمد بن شهاب الدين بن حجر الهيتمى المكي الشافعى على متن الارشاد ، للامام شرف الدين اسماعيل ابن بكر الشهير بالمقرئ الشافعى المتوفى ٨٣٧هـ ، مطبعة الحلبي ، سنة ١٣٤٧هـ .
- (٢٢٤) فتح القدير ، للكمال بن الهمام ، المتوفى سنة ٨٦١هـ ، مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة .
- (٢٢٥) فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية وعلم التفسير ، للامام محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ، المتوفى ١٢٥٠هـ ، مطبعة

- الطبي سنة ١٣٤٩ هـ الطبعة الاولى .
- ٢٢٦) الفتوحات الالهية لتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، لابي سليمان
عمر العجيلي الشافعي الشهير (بالجمل) المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ ، مطبعة
الطبي ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .
- ٢٢٧) فتوح البلدان ، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي ، المتوفى ٢٧٩ هـ ،
القاهرة سنة ١٣١٨ هـ .
- ٢٢٨) فجر الإسلام ، أحمد أمين ، النهضة المصرية ، الطبعة العاشرة ،
سنة ١٩٦٥ م .
- ٢٢٩) فصول في علم النفس العسكري ، رائد بحري محمد عاطف السعيد ،
مكتبة الدراسات العلمية والنفسية والاجتماعية - الشركة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الاولى سنة ١٩٥٩ م .
- ٢٣٠) فقه السيرة ، محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الخامسة ،
تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ، سنة ١٩٦٥ م .
- ٢٣١) فن القيادة وعلاقته بعلم النفس العسكري ، أحمد شوقي عبد الرحمن ،
مكتبة النهضة المصرية سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
- ٢٣٢) قانون الحرب والجهاد ، محمود سامي جنيحة ، القاهرة سنة ١٩٤٤ م .
- ٢٣٣) قانون الحرب ، عبد العزيز علي ، مكتبة الانجلو المصرية .
- ٢٣٤) القانون الدولي العام ، علي صادق أبو هيف ، مطبعة منشأة المعارف
بالاسكندرية ، الطبعة الثالثة والرابعة سنة ١٩٥٩ م .
- ٢٣٥) القانون الدولي ، علي ماهر ، مطبعة الاعتماد سنة ١٩٢٤ م .
- ٢٣٦) القانون الدولي العام في وقت السلم ، حامد سلطان ، دار النهضة
العربية سنة ١٩٦٢ م .
- ٢٣٧) القتال في الإسلام ، أحمد نار ، المكتب الاسلامي في حمص ، الطبعة
الثانية سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ٢٣٨) القتال في الإسلام ، عبد الوسيط اولوى ، رسالة ماجستير سنة ١٩٥٩ م
(مكتبة جامعة القاهرة) .
- ٢٣٩) القرآن المجيد (تنزيله ، أسلوبه ، اثره ، جمعه) للاستاذ محمد عزة
دروزة ، المكتبة العصرية صيدا - بيروت .
- ٢٤٠) القرآن والطبائع النفسية ، علي محمد حسن العماري ، القاهرة
سنة ١٩٦٦ م .
- ٢٤١) القرآن ومشكلاته حياتنا المعاصرة ، الدكتور محمد خلف الله ، مكتبة
الانجلو المصرية سنة ١٩٦٧ م .
- ٢٤٢) القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم ، الدكتور عبد الحليم محمود ، دار
الكتب الحديثة ، الطبعة الاولى .
- ٢٤٣) القرآن واليهود (أحوالهم ، وأخلاقهم ، ومصيرهم) محمد عزة دروزة ،
مطابع دار المنار ، الطبعة الاولى سنة ١٣٦٧ هـ .
- ٢٤٤) القرآن بين الحقيقة والمجاز والإعجاز ، محمد عبد الغنى السيد ، مؤسسة
المطبوعات العربى للطباعة والنشر سنة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٢٤٥) القرآن العظيم (هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين) محمد الصادق
عرجون ، دار الاتحاد العربى للطباعة والنشر سنة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٢٤٦) قصة الحضارة ، ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦١ م .

- (٢٤٧) قصة الاضطهاد الدينى ، الدكتور توفيق الطويل ، دار الفكر العربى سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .
- (٢٤٨) قناطر الخيرات ، لآبى طاهر اسماعيل بن موسى بن موسى الجبىطالى ، حققه وعلق عليه عمر خليفة النامى ، مكتبة وهبة ، الطبعة الاولى سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
- (٢٤٩) قيام الدولة الاسلامية فى حياة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، الدكتور محمد جمال الدين سرور ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٩م .
- (٢٥٠) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، على بن أبى الكرم ، المتوفى سنة ٦٣٠هـ ، مطبعة أحمد الحلبي ومحمد مصطفى سنة ١٣٠٣هـ .
- (٢٥١) الكتاب المقدس (العهد القديم — التوراة — العهد الجديد — الانجيل) بيروت — جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ، المطبعة الاميركانية سنة ١٩١٣م .
- (٢٥٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل ، لآبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمى المتوفى سنة ٥٣١هـ ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الاخيرة ، سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م .
- (٢٥٣) كشف الغمة عن جميع الأمة ، لآبى المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى الانصارى الشافعى ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الاخيرة سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .
- (٢٥٤) لسان العرب لابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى المتوفى سنة ٦٣٠هـ ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .
- (٢٥٥) لباب التأويل فى معانى التنزيل ، على بن محمد المعروف بالخازن ، مطبعة مصطفى محمد ، وبهامشه تفسير البغوى .
- (٢٥٦) اللمعة دمشقية ، محمد جمال الدين مكى العاملى ، المتوفى سنة ٧٨٦هـ من منشورات جامعة النجف الدينية ، طبعة الآداب فى النجف الأشرف سنة ١٣٨٧هـ/١٩١٧م .
- (٢٥٧) مبادئ القانون الدولى فى الاسلام ، محمد عبد الله دراز ، مطبعة الأزهر سنة ١٣٧١هـ .
- (٢٥٨) المبسوط ، لشمس الدين السرخسى المتوفى ٤٩٠هـ مطبعة السعادة ، الطبعة العاشرة سنة ١٣٤٢هـ .
- (٢٥٩) مبادئ القانون الدولى العام ، محمد حافظ غانم ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٥٩م .
- (٢٦٠) ما يقال عن الإسلام ، عباس محمود العقاد ، مطبعة المدنى .
- (٢٦١) المثل السائر فى أدب الكاتب ، لآبى الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن محمد بن عبد الكريم ، المعروف بابن الأثير الوصلى ، المتوفى سنة ٦٣٧هـ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة الحلبي سنة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م .
- (٢٦٢) مجاز القرآن ، لآبى عبيدة معمر بن المننى الميمنى ، المتوفى ٢١٠هـ ، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سركين ، الطبعة الاولى ، سنة ١٣٨١هـ/١٩٦٢م .
- (٢٦٣) مجالى الإسلام ، حيدر بامات (ج ريفوار) نقله الى العربية ، عادل زعيتر

- دار إحياء الكتاب العربى سنة ١٩٥٦م .
- (٢٦٤) المجتمع المكى فى عصر النبوة ، شكرى السيد الخلوى ، رسالة دكتوراه سنة ١٩٦٧م . مكتبة جامعة القاهرة .
- (٢٦٥) مجمع الأنهر فى شرح ملتقى الأبحر ، عبد الرحمن بن شيخ محمد بن سليمان ، المدعو بشيخ زادة المتوفى سنة ١٠٧٨هـ ، طبع بتركيا سنة ١٣١٩هـ .
- (٢٦٦) المجتمع المكى ، الدكتور عبد العزيز كامل ، المطبعة الأهلية بحماة .
- (٢٦٧) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى المتوفى سنة ١٣٥٣هـ .
- (٢٦٨) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، محمد حميد الله الحيدر أبادى ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م .
- (٢٦٩) مجلة الرسالة ، تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومى بمصر .
- (٢٧٠) مجلة منبر الإسلام ، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة
- (٢٧١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ، للشيخ محمد الخضرى ، مطبعة الاستقامة ، الطبعة العاشرة .
- (٢٧٢) محاضرات فى تاريخ العرب والإسلام ، الدكتور عبد اللطيف الطيباوى ، دار الأندلس - بيروت - سنة ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .
- (٢٧٣) محاضرات فى تاريخ العرب ، الدكتور صالح أحمد العلى ، مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٥٥م .
- (٢٧٤) محاضرات فى مقارنة الأديان ، للشيخ محمد أبو زهرة ، مطبعة يوسف سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
- (٢٧٥) المحلى ، محمد بن أحمد بن حزم الأندلسى الظاهرى ، المتوفى سنة ٤٥٦هـ ، القاهرة ، طبع منير الدمشقى سنة ١٣٥٢هـ .
- (٢٧٦) مدونة جوستيان فى الفقه الرومانى ، جمعها سنة ٥٦٥ ، وترجمة الدكتور عبد العزيز فهمى ، دار الكتاب المصرى بالقاهرة سنة ١٩٤٦م .
- (٢٧٧) مذكرات فى تاريخ العرب الجاهلى و صدر الإسلام ، الدكتور إبراهيم جمعه من منشورات جامعة البصرة ، دار الطباعة الحديدية بالبصرة ، الطبعة الأولى .
- (٢٧٨) مذاهب التفسير الإسلامى ، جولد زيهير ، ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار ، مكتبة الخانجى بمصر ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م .
- (٢٧٩) مروج الذهب ، أبو الحسن على بن الحسين السعوى ، المتوفى سنة ٣٤٦هـ ، القاهرة .
- (٢٨٠) محمد رسول الهدى والرحمة وشريعته الخالدة ، للفيلسوف الانجليزى توماس كارليل ، تعريف محمد السباعى ، المكتبة الأهلية فى بيروت للطبع والترجمة والتأليف والنشر .
- (٢٨١) محمد صلى الله عليه وسلم وبنو اسرائيل ، الدكتور مصطفى كمال وصفى مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر ، سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .
- (٢٨٢) محمد المثل الكامل ، محمد أحمد جاد المولى ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الاولى سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣١م .
- (٢٨٣) محمد القائد ، صاغ أركان حرب محمد عبد الفتاح إبراهيم ، مطبعة الحلبي ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م .

- (٢٨٤) المحمديات (ماذا يجب أن تعرف عن محمد والاسلام) للكاتب المعروف ديسون ، تعريب عمر أبو النصر ، المكتبة الاهلية - بيروت .
- ٢٨٥) محمد رسول الله ، آتين دينيه ، ترجمة الدكتور عبد الحلیم محمود ، والدكتور محمد عبد الحلیم محمود ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١م .
- (٢٨٦) المدخل للفقہ الاسلامی ، محمد سلام مذكور ، دار النهضة العربية سنة ١٩٥٩م .
- (٢٨٧) مسألة الغنائم ، للشيخ تاج الدين الفزاري ، المتوفى ٦٩٠هـ ، المطبعة العربية بمصر ، سنة ١٣٤٢هـ .
- (٢٨٨) مسند الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت ، طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٧هـ .
- (٢٨٩) مسند الامام الشافعي (محمد بن ادريس الشافعي) المتوفى سنة ٢٠٤هـ ، بهامش الجزء السادس من كتاب الام ، المطبعة الاميرية سنة ٣١٤هـ .
- (٢٩٠) المستشرقون والاسلام ، حسين الهراوي ، مطبعة المنار ، الطبعة الاولى سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م .
- (٢٩١) المستشرقون والاسلام ، زكريا هاشم زكريا ، لجنة التعريف بالاسلام ، يصدرها المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
- (٢٩٢) مع القرآن في آدابه ومعاملاته ، عبد الحسيب طه حميدة ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٦هـ .
- (٢٩٣) مع الرعيل الاول ، محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧٨هـ .
- (٢٩٤) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي مكتبة ومطابع الشعب .
- (٢٩٥) المعاهدات والحالفات على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حسن خطاب الوكيل ، المطبعة المصرية بالأزهر ، الطبعة الاولى سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م .
- (٢٩٦) معالم السنن ، للامام ابي سليمان احمد بن محمد الخطابي البستي ، المتوفى سنة ٣٨٨هـ طبعة وصححه محمد راغب الطباخ في مطبعته العلمية بطلب ، الطبعة الاولى سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م .
- (٢٩٧) المعاني الثانية في الاسلوب القرآني ، فتحى عامر احمد بهواش عامر ، رسالة دكتوراه سنة ١٩٦٩م (مكتبة جامعة القاهرة) .
- (٢٩٨) معاني القرآن ، يحيى بن زياد الفراء ، المتوفى سنة ٢٠٧هـ ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م .
- (٢٩٩) مغازي رسول الله ، للامام ابي عبد الله محمد بن عمر الواقدي ، المتوفى سنة ٢٠٧هـ ، مطبعة السعادة ، الطبعة الاولى سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م .
- (٣٠٠) المغرب في ترتيب المغرب ، لابي الفتح ناصر بن عبد السيد على الطرزي ، المتوفى سنة ٦٩٦هـ - الطبعة الاولى سنة ١٣٢٨هـ .
- (٣٠١) المغازي الاولى ومؤلفوها ، للمستشرق يوسف هورفتش ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، الطبعة الاولى سنة ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م .
- (٣٠٢) المغنى ، لابي عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، المتوفى سنة ٦٢٠هـ . مطبعة دار المنار ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٦٧هـ .
- (٣٠٣) المفردات في غريب القرآن ، لابي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالرغب الاصفهاني المتوفى ٥٠٢هـ تحقيق محمد سيد كيلاني ، مطبعة

- ٣٠٤) الحلبي ، الطبعة الأخيرة ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م .
مقارنة الأديان ، الدكتور أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ م .
- ٣٠٥) مقدمتان في علوم القرآن ، وهما (مقدمة كتاب المباني ، ومقدمة ابن عطية) نشرهما من المخطوطات المخطوطة بدار الكتب ببرلين ، ودار الكتب المصرية ، ووقف على تصحيحها وطبعهما المستشرق الدكتور آثر جفري ، مطبعة السنة المحمدية . .
- ٣٠٦) مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، المتوفى ٨٠٨ هـ ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة . .
- ٣٠٧) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، أحمد إبراهيم الشريف ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ م .
- ٣٠٨) مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية سنة ١٣٦١ هـ .
- ٣٠٩) من توجيهات الإسلام ، للامام الشيخ محمود ثلثوت ، دار القلم ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ م .
- ٣١٠) ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٤ هـ ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى .
- ٣١١) موقف القرآن من المشركين قبل الهجرة ، محمد محمد اسماعيل عبده ، رسالة ماجستير (مكتبة جامعة القاهرة) .
- ٣١٢) من بلاغة القرآن ، الدكتور أحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثالثة ١٣٧٠ هـ .
- ٣١٣) موسيقا الشعر ، الدكتور إبراهيم أنيس ، مطبعة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية . .
- ٣١٤) الموصولات وجملة الصلة في القرآن الكريم ، عبد الله علي عبد الله الجبال - رسالة ماجستير سنة ١٩٥٧ م ، مكتبة جامعة القاهرة .
- ٣١٥) الناسخ والمنسوخ في القرآن ، أبو جعفر النحاسي ، وبآخزه الناسخ والمنسوخ لابن خزيمة ، القاهرة .
- ٣١٦) الناسخ والمنسوخ ، أبو عبد الله محمد بن حزم ، المتوفى ٤٥٦ هـ ، مطبوع بهامش الجزء الثاني من تفسير الجلالين ، مطبعة محمد مصطفى ، سنة ١٣٠٠ هـ .
- ٣١٧) الناسخ والمنسوخ ، هبة الله بن سلامة ، المتوفى سنة ٤١٠ هـ ، مطبوع بهامش أسباب النزول للنيسابوري ، القاهرة .
- ٣١٨) النسخ في القرآن (دراسات تشريعية تاريخية نقدية) للدكتور مصطفى زيد ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .
- ٣١٩) النسخ في الشريعة الإسلامية كما أفهمه ، عبد المتعال محمد الجبري ، مكتبة دار العروبة سنة ١٣٦ هـ / ١٩٤٩ م .
- ٣٢٠) نظرية الحرب في الإسلام ، للشيخ محمد أبو زهرة ، من منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - دار القاهرة للطباعة .
- ٣٢١) النظريات السياسية الإسلامية ، ضياء الدين الرئيس ، الطبعة الثالثة ١٩٦٠ م . .

- (٣٢٢) نظم الحرب فى الإسلام ، جمال الدين عياد ، مطبعة الخانجى بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٠ هـ .
- (٣٢٣) النظم القرآنى فى كشف الزمخشرى ، الدكتور درويش الجندى ، دار نهضة مصر ١٩٦٩ م .
- (٣٢٤) النظم الفنى فى القرآن ، عبد المتعال الصعدي ، مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية .
- (٣٢٥) النظم الإسلامية ، مورييس ديوميين ، نقله عن الفرنسية صالح الشماع وفيصل السامر ، مطبعة الزهراء ، بغداد سنة ١٩٥٢ م .
- (٣٢٦) النظم الإسلامية ، الدكتور حسن ابراهيم حسن ، والدكتور على ابراهيم حسن ، المطبعة الأميرية سنة ١٩٤٨ م ، والطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢ م .
- (٣٢٧) النظم الإسلامية نشأتها وصدارها ، الدكتور صبحى الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت — الطبعة الأولى سنة ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .
- (٣٢٨) النفاق والمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودور اليهود ، ابراهيم على سالم ، مطابع الشعب بمصر ، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .
- (٣٢٩) نقد النثر لآبى الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق الدكتور طه حسين ، والدكتور عبد الحميد العبادى ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م .
- (٣٢٠) النكت فى اعجاز القرآن ، لآبى عيسى الرماني ، طبعة دار المعارف بمصر .
- (٣٢١) نهاية الإيجاز فى دراية الاعجاز فى علوم القرآن والبلاغة وبيان إعجاز القرآن الشريف للامام فخر الدين محمد بن عمر الرازى — مطبعة الآداب ، سنة ١٣١٧ هـ .
- (٣٢٢) نهج البلاغة ، على بن موسى الحسين الموسوى ، المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ، جمع فيه كلام سيدنا على بن أبى طالب — مطبعة الحلبي ، سنة ١٣٢٨ هـ .
- (٣٢٣) الوحي المحمدى ، محمد رشيد رضا ، مطبعة صبيح ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٥ م .
- (٣٢٤) الوفاء بأحوال المصطفى ، للامام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد ، دار الكتاب الحديث ، الطبعة الأولى سنة ١٣١٦ هـ — ١٩٦٦ م .
- (٣٢٥) نيل الأوطار ، محمد بن على بن محمد الشوكانى ، المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ ، الطبعة العثمانية — سنة ١٩٥٧ م .

- 1) Dermenghem, L., The life of Mohomet, London, 1930.
- 2) Encyclopedia of Islam, London, 1927.
- 3) Micholson R., Aliterary History of the Arabs, London, 1923
- 4) Muir (Sir William), The Life of Mihomet, Edinburgh, 1912.
- 5) O, Leary, Arabia before Mohammad, London; 1927.
- 6) Fairchild, Dictionary of Sociology, London, 1958.
- 7) Majid Khadury, War and Peace in the law of Islam, 1955.
- 8) Washington, The life of Mohamet, (Last Peprinted), 1949
- 9) Durant, W., The story of civilisation, published by Simon Schuster, New York, 1950.
- 10) Wells, H.G., The Outkine of history, (revised edition), (printed in Great Britain), 1957.
- 11) Sale, G., The Koran with explanafory notes, London.
- 12) Encyclopedia of Religion, ed. Vergilias Frem, New York; 1943.
- 13) Bell, The origin of Islam, London, 1953.
- 14) Palmer, E.H., The Koran, London, 1953.
- 15) Sayed Amir Ali, The spirit of Islam, 1961.
- 16) Young, K., Handbook of Social Psychology, Routledge, Kegan, London, 1953.
- 17) Kretch, D., Crutchiefield, R. Theory and problem of Social Psychology, Me Graw, Hill, Company, New York, 1948.
- 18) Brockelmann, C., History of The Islamic Peoples, (Printed in Great Britain, 1964.
- 19) Mortgomer. W., Muhammad at Mecca, Mahammad at Medina, Oxford 1956.
- 20) M. Marheruddin Siddigi, (Head of The Department of Muslim
- 21) Glub, J., The Empire of The Arabd, 1966.
History, Sind University, Huderabad), Development of Islam State Society.

محتويات الكتاب

الباب الأول

الدراسة الموضوعية

(٥ - ١٨١)

التقديم وخطة البحث (٥٦ - ٦) .

أنواع الجهاد (١٩ - ٧٢) .

أولا : جهاد النفس (١٩ - ٣٠) .

ثانيا : مجاهدة الشيطان (٣١ - ٣٨) .

ثالثا : الجهاد بالمال (٣٩ - ٦٠) .

رابعا : الجهاد بالنفس (٦١ - ٧٢) .

بواعث الجهاد وغاياته (٧٣ - ١٠٨) .

الباعث الأول : رد الاعتداء (٧٣ - ٨٠) .

الباعث الثاني : حماية حرية نشر الدعوة (٨١ - ٩٠) .

آداب القتال (٩٠ - ٩٤) .

مسألة الاكراه (٩٤ - ٩٦) .

القول بنسخ آية لا اكراه في الدين (٩٦ - ٩٨) .

آراء المستشرقين (٩٨ - ١٠٥) .

أهداف الحملات الاستشراقية وأثرها (١٠٥ - ١٠٦) .

رأينا الشخصي (١٠٦ - ١٠٨) .

عناصر النصر ومقوماته (١٠٩ - ١٤٩) .

سنن الله سبحانه ثابتة في النصر والهزيمة (١٠٩ - ١١٠) .

جعل الله تعالى نصر المؤمنين ظاهرة كونية وسنة من

سنن الوجود (١١٠ - ١١٢) .

عوامل النصر وأسرار آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من

قوة » (١١٢ - ١١٣) .

أولا : القوة المادية - اعداد المقاتلين (١١٣ - ١١٥) ،

اعداد السلاح (١١٥ - ١١٩) .

ثانيا : الرباط وتحصين الثغور (١١٩ - ١٢١) .

ثالثا : القوة الروحية أو المعنوية (١٢١ - ١٣٥) .

رابعا : الخطة التنفيذية (استراتيجية المعركة) ، القيادة

(١٣٥ - ١٤٣) وحدة الأمة (١١٤ - ١٤٦) .

المستشرقون وسر انتصارات المسلمين (١٤٧ - ١٤٩) .

الأسرى والغنائم والانفال والقيء والجزية .

أولا : الأسرى : تعاليم الاسلام في الرفق بالأسرى (١٥٠ -

١٥٢) .

شروط الأسر ومصير الأسير ومقارنة ذلك بالقانون الدولي

« المن - الفداء - القتل - الاسترقاق » (١٥٢ - ١٥٨) .

الرد على القائلين بنسخ آيتي المن والفداء (١٥٩ - ١٦٣)

ثانيا : الانفال : معناها ، حكمها (١٦٥ - ١٦٩) .

ثالثا : الغنائم : (١٦٩ - ١٧٠) .

رابعا : الفئء : (١٧٠ - ١٧٣) .

خامسا : الجزية : (١٧٣ - ١٨١) .

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الباب الثاني

الدراسة التاريخية

الفصل الأول

- دراسة تاريخية لمشروعية الجهاد (١٨٤ - ٢١٥) .
- تنقسم مراحل مشروعية الجهاد الى مرحلتين أساسيتين :
- أولا : المرحلة المكية (الجهاد السلمى) ، (١٩١ - ٢٠٦) .
- ثانيا : المرحلة المدنية (الجهاد الحربى) وتنقسم الى مراحل :
- الاولى الاذن فى القتال (٢٠٦ - ٢٠٩) .
- الثانية : من غزوة بدر الى صلح الحديبية (٢٠٩ - ٢١٠) .
- الثالثة : من صلح الحديبية الى غزوة تبوك (٢١٠ - ٢١١) .
- الرابعة : من غزوة تبوك الى انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام الى الرقيق الاعلى (٢١١ - ٢١٢) .
- آراء القدماء والمحدثين حول آيات الجهاد والمراحل التى

الفصل الثاني

- قر فيها تشريعه (٢١٣ - ٢١٤) .
- رأينا الشخصى (٢١٤ - ٢١٥) .
- (مجاهدة الشركين) .
- السرايا : (٢١٦ - ٢٢٠) .
- غزوة بدر الكبرى (٢٢٠ - ٢٣١) .
- غزوة أحد (٢٣١ - ٢٤١) .
- غزوة الخندق (٢٤١ - ٢٤٧) .
- صلح الحديبية (٢٤٧ - ٢٥٥) .
- عمرة القضاء (٢٥٥ - ٢٥٦) .
- فتح مكة (٢٥٦ - ٢٥٧) .
- غزوة حنين (٢٥٧ - ٢٦٠) .
- غزوة تبوك (٢٦٠ - ٢٦٣) .
- (مجاهدة اليهود والنصارى) .

الفصل الثالث

- أولا : اليهود : ١ - من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام الى غزوة بدر وتتمثل فى حرب الجدل والحماج (٢٧١ - ٢٧٥) ، الدس والوقيعه (٢٧٥ - ٢٧٦) .
- تأمرهم مع المنافقين للقضاء على قوة المسلمين فى داخل المدينة (٢٧٦ - ٢٧٨) .
- تأمرهم مع المشركين للقضاء على قوة المسلمين من خارج المدينة (٢٧٨ - ٢٨١) .

- ٢ - من غزوة بدر الى صلح الحديبية ..
- بنو قينقاع (٢٨١ - ٢٨٦) .
- بنو النضير (٢٨٦ - ٢٩٤) .
- بنو قريظة (٢٩٤ - ٢٩٧) .
- فتح خيبر (٢٩٧ - ٢٩٩) .
- ثانيا النصارى : (٢٩٩ - ٣١٣) .
- مجاهدة المنافقين (٣١٤ - ٣٧١) .
- معنى النفاق وحكمه ، علة ظهوره فى المدينة المنورة (٣١٤ - ٣١٦) .

الفصل الرابع

- مراحل مجاهدة المنافقين : ١ - من الهجرة الى موقعة بدر الكبرى (٣١٦ - ٣٢٣) .
- ٢ - من غزوة بدر الى صلح الحديبية (٣٢٣ - ٣٥٣) .
- ٣ - من صلح الحديبية الى فتح مكة (٣٥٣ - ٣٥٩) .
- ٤ - من فتح مكة الى آخر عهد النبوة (٣٥٩ - ٣٧١) .

الباب الثالث

الدِّرَاسَةُ الْفَنِيَّةُ (٣٧٢ - ٤٩٣)

الفصل الأول

- دراسة فنية للآية الجهادية (٣٧٤ - ٣٨٩) .
- أولا : الالفاظ المفردة : (٣٧٤ - ٣٨٩) .
- ثانيا : الافعال : (٣٩٠ - ٤٠٢) .
- ثالثا : الالتفات : (٤٠٢ - ٤٠٥) .
- رابعا : التكرار : (٤٠٥ - ٤١٢) .
- خامسا : الذكر والحذف : (٤١٢ - ٤١٤) .
- سادسا : الاطناب : (٤١٤ - ٤١٦) .
- سابعا : التقديم والتأخير : (٤١٦ - ٤٢٠) .
- ثامنا : الوصل والفصل : (٤٢٠ - ٤٢٣) .
- تاسعا : التنكير والتعريف (٤٢٣ - ٤٢٥) .
- عاشرا : التخصيص : (٤٢٥ - ٤٢٨) .
- حادى عشر : الخطاب : (٤٢٨ - ٤٣٠) .
- ثانى عشر : الموسيقى : (٤٣١ - ٤٣٧) .
- تصوير المعانى :

الفصل الثانى

- أولا : التصوير بالاستعارة (٤٣٩ - ٤٥٠) .
- ثانيا : التصوير بالتشبيه والتمثيل (٤٥١ - ٤٧٢) .
- ثالثا : التصوير بالكناية والتعريض (٤٧٢ - ٤٨٢) .
- أمثلة للتصوير : ١ - تصوير المشاهد (٤٨٢ - ٤٨٤) .
- ٢ - تصوير النماذج الانسانية (٤٨٤ - ٤٨٦) .
- ٣ - التقريرية أو الصدق الفنى (٤٨٦ - ٤٩٢) .
- الخاتمة : (٤٩٣ - ٤٩٥) .
- المصادر والمراجع : (٤٩٦ - ٤١٤) .
- محتويات الكتاب : (٥١٥ - ٥٢٥) .